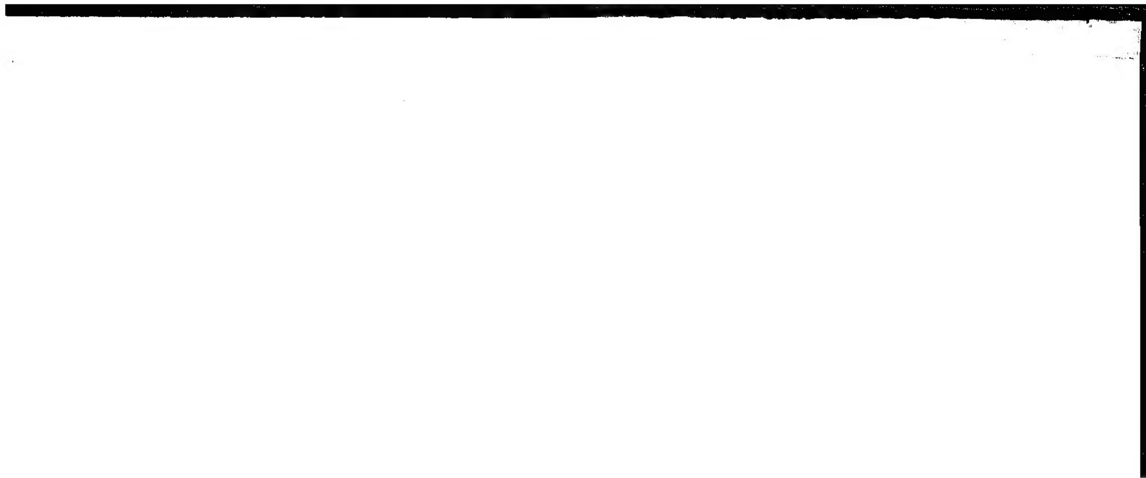
معهد الإنماء العربي

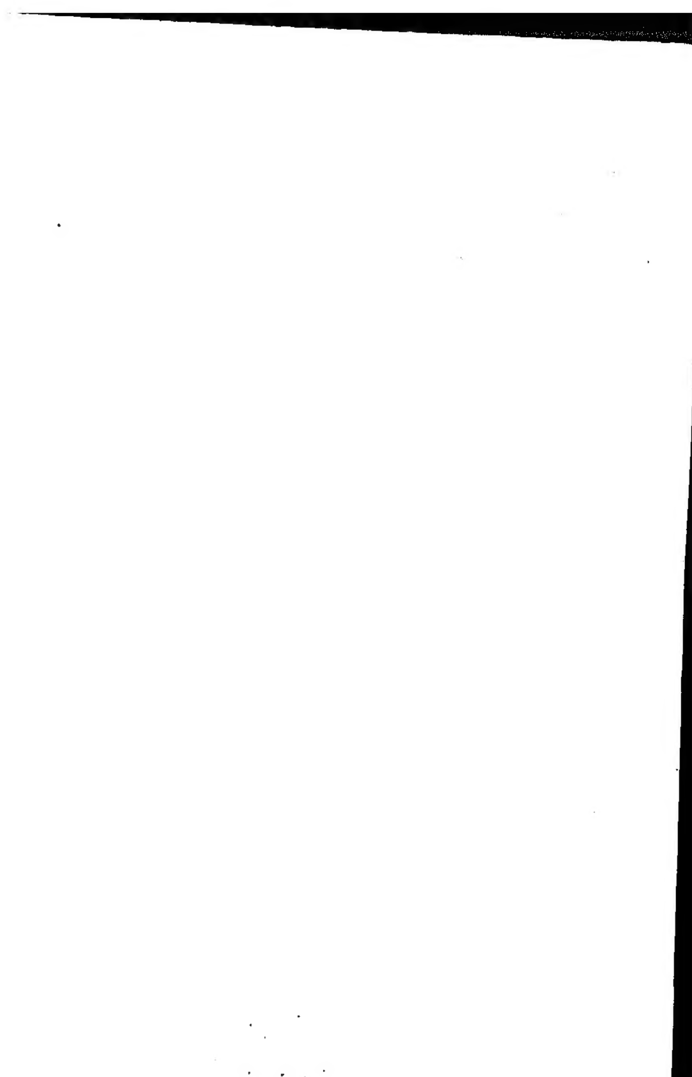
موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية

سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية
الشيخ حسن خالد



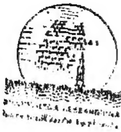
الدراسات الإسلامية





الدراسات الإسلامية

موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية



سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية
الشيخ حسن خالد

معهد الإنماء العربي

الطبعة الأولى بيروت - ١٩٨٦

معهد الانماء العربي
ص.ب ١٤/٥٣٠٠
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم





المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فإنه قبيل أن ينعقد المؤتمر الثالث للسيرة النبوية في قطر، وضعت اللجنة المشرفة عليه، مجموعة من الموضوعات المطلوب دراستها ومناقشتها في هذا العصر، إسلامياً. ورغبت الى المدعويين اختيار واحد منها والكتابة فيه. وقد اخترت يومها موضوع « موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الوثنية واليهودية والنصرانية » وكتبت فيه بحثاً مختصراً بسبب عامل السرعة من ناحية، وبسبب ما يتطلبه الظرف حينذاك لكثرة ما قدّم من أبحاث، ولضيق الوقت المخصص لدراستها فيه وابداء الرأي فيها.

وقد شئت اليوم، وقد آنفسح لنا الوقت، وأصبح الظرف ملائماً لانعدام المعوّقات، أن أعطي هذا الموضوع ما يتطلبه من اهتمام وتفرّغ حتى يجيء بحثاً كاملاً ونافعاً في الوقت نفسه، وبخاصة وأن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الديانات المذكورة، هو في الحقيقة موقف الاسلام العظيم. هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس وحده دون سواه، وحكم على من آتبع غيره أو ارتضاه لنفسه بأنه من الخاسرين، يوم الهول الأكبر؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

ولما كان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم هو موقف الاسلام، فقد شئت تعديل عنوان البحث وجعله: « موقف الاسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية ».

وهكذا فقد عكفت على البحث من جديد أزيده جهداً وتدقيقاً، حتى وُفّقت

الى أن أدخلت عليه بعض الاضافات المهمة. كما ألحقت به من المباحث والمعلومات ما يتطلبها ويقتضيها، والتي لم يكن بدٌّ من الحاقها به. ذلك أن البحث مهم جداً يمسُّ حاجة الناس كلّهم، ويعالج فكرهم الديني من قريب أو بعيد تأييداً أو نقداً أو رفضاً.

والمجتمعات الإنسانية في القرن العشرين تبدّلت عما كانت عليه في المجتمعات الإنسانية السابقة، فلم تعد مثلها قديماً؛ متباعدة متقاطعة متنافرة ومختلفة كل الاختلاف في العقيدة والنظام والسلوك، والاعراف. إذْ قد لعبت الحضارة الحديثة دوراً عظيماً فيها ففتحت بعضها على بعض عن طريق وسائل النقل الحديثة، ثم عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة ودور التربية والتعليم الجامعية ومؤسسات الثقافة والتأليف والنشر، وعن طريق المؤتمرات المتنوعة والمتعدّدة التي ما زالت تعقد في كل يوم في عواصم الدنيا، ويشترك فيها المختلفون فكراً واعتقاداً وسلوكاً ونظاماً ـ والمتوافقون ـ ويتبادلون الرأي والنقد والأخذ والعطاء. هذا فضلاً عن أثر جهود مؤسسات السياحة التي لا تدّخر وسعاً في نقل الناس من كل الشعوب ومن كل الثقافات والعقائد والآراء من بلد الى آخر، وتقرّب بعضهم من بعض بأيسر التكاليف وأسرع الوسائل وأكثرها راحة في كل مجالات المعرفة والعلم التي زادت بعضهم من بعض مع الزمن قرباً وصلة وتعارفاً.

وهذه الظاهرة الواضحة لكل ذي لب، لم تعد تسمح بأن يبقى المفهوم الديني حكراً على تابعيه ومعتنقيه، بحيث يعيشه المتديّنون به منعزلين عن سواهم جاهلين بهم وبما لهم من العقيدة والعلم والثقافة ومبغضين لهم، بل وحاقدين عليهم. وقد يسّرت الحضارة المعاصرة لكل إنسان في أي مكان من العالم حتى وهو في وطنه أو بيته أو مكتبه، التعرّف على ما يجري في أطراف الدنيا على تنائيها من فكر وعقائد وعادات وأيديولوجيّات، خلافاً لما عنده من ذلك أوْ وفاقاً له، كما يسّرت له اللقاء بمخالفيه في الدين دونما تحرّج، بعد أن كان يعتبر ذلك في الماضي إثماً وصغاراً وخروجاً على الجماعة، فضلاً عما كان يسبّبه ذلك له من متاعب

تبتعثها الشكوك التي تثار حوله وفيه...

وبعد أن كانت السكنى في أحياء المخالفين في العقيدة والدين ممنوعة كلياً أو متحرّجاً منها الى حد بعيد، وبعد أن كان الالتقاء فيا بينهم في دور واحدة للعلم، ممنوعاً أو غير مألوف، وكذلك في غيرها من المؤسسات الثقافية والإدارية والاقتصادية والصناعية، أصبح الاختلاط الاجتماعي في السكن وفي دور العلم والمؤسسات الثقافية والإدارية والاقتصادية والصناعية أمراً عادياً يشكو منه القليلون ويسكت عنه الكثيرون بل ويشجعون عليه. وأصبحت مجالات العيش كلها ساحة مفتوحة أمام الناس من كل دين وجنس ولون ومذهب، يدخلونها ويختلطون فيها دونما حرج، بل ودون أن يعرف بعضهم أو يكلف نفسه بأن يعرف عن البعض الآخر شيئاً عن المعتقد أو الفكر أو المنهج الحياتي. وصدق الله العظيم القائل: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلةٍ معرضون لاهيةً قلوبهم﴾[1].

كل هذا غدا يتطلب منّا الكثير من الإرشاد والتوعية، وتيسير العلم الضروري على الأقل الذي يفتح الأذهان ومغاليق الفكر ليسهل إطلال الناس، كل الناس على الحق والحكمة ويفيدوا منها، ويتعرفوا على ما حولهم بصدق وصفاء، ويتعاطوا معه بإخلاص ومحبّة ورغبة في التعاون والتفاهم بعيداً عن أجواء التوتر التي كان ينشرها قديماً التعصب الديني الحاقد القائم على مجرد الكره والبغض والجهل.

وقديماً قيل إن الإنسان عدو ما جهل، وإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره وعمي عن عيوبه.. وعليه فإنه لم يعد مقبولاً في هذا القرن ذي الامكانات المدهشة، عصر النزول على القمر وبناء الأقمار الصناعية في الفضاء، والقيام بالرحلات الجويّة العجيبة الرهيبة، ووجود الدماغ الالكتروني؛ لم يعد مقبولاً أن يعيش الإنسان مُتَقَوْقعاً في أجواء الجهالة القائمة والتعصب الذي يعمي القلب عن رؤية الحق والنور ويصم الأذن عن سماع الخير والهدى.

---

(١) الانبياء ١ـ ٢.

ولئن كان مفروضاً اليوم التعرّف على موقف الشيوعية من الرأسمالية واليم
من اليمين ـ والعلمانية من الكنيسة أو العكس ـ وكل مذهب من المذاهب السيا
والاجتماعية والاقتصادية من الآخر ، فقد أصبح من الضرورة بمكان التعرف
موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، والإسلام من الأديان الشائعة اليوم والتي كـانـ
قائمة في عصره كالوثنية واليهودية والنصرانية . وأصبح من الواجب بمكان أي
التوسع في شرح هذا الموقف بعد كل الملابسات التي أتينا على ذكرها سابقاً ، ليك
قريب المنال من كل إنسان ، ليفتح عينيه على الواقع ونفس الأمر ويمحّص الحق م
الباطل والهدى من الضلال والغث من الثمين والطيّب من الخبيث والنور
الظلام ، دون أن يكون مشحوناً بتعصب أو بغض مفتعل أو حقد مصطنع أو ش
من ذلك ، يحرمه الرؤية الجليّة والمعرّفة الصادقة والنظرة الصحيحة . .

إن هذا البحث المتواضع الذي أضعه اليوم بين يدي القارىء ، هو محا
مخلصة تبغي الحق وتترجّى الخير . وهو مسعى جادّ من منطلق المحبة يؤمل أن
فيه القارىء ما يرشده الى حق أو يهديه الى سبيل أقوم .

على أن كل محاولة في مثل هذا الشأن أو سواه ، معرّضة ، مهما أوتيت من ص
الجد والاجتهاد والإخلاص ، لأن تخطىء أو تزل ، وقابلة لاحتمال النسيان
التقصير . . . بيد انها يبقى لها وصفها وهدفها وحكمها . ومن آجتهد وأخطأ
أجر . ومن اجتهد وأصاب فله أجران . وليس على المحسن من سبيـل ، ﴿ وأن ليـ
للإنسان إلا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ فنسأل ا
تعالى التوفيق والعفو وهو من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

بيروت ـ ١٩٨٥ | حسن خا

الكتاب الأول

موقف الإسلام من الوثنية

المدخل

محمد رسول الله:

محمد رسول الله. آمنّا به وشهدنا أن ما جاء به هو الحق. نطوي على ذلك قلوبنا ونؤكده لمن شابت نفوسهم الرِّيَب في ذلك ممن أوتوا نصيباً من العلم ومستوى من الفكر الرشيد من الماديين والملحدين ومن أهل الكتاب وسواهم.

الحق يفتقر الى بيان ونُصْرَة:

والحق رغم كل ظروفه المطمئنة يظل مفتقراً الى بيان. لأن بعض العقول كثيراً، ما تصيبها غاشية من جهالة أو يعتريها سحابة من هوى أو زيغ فيختلط عليها الأمر فيه حتى يجلّيه البيان، تماماً كما يكون حال البصر عندما يغشاه الظلام فتنطمس عليه حقائق الأشياء، ولا تنكشف له كما هي عليه، إلا بعدما يلامسها شعاع الضوء...

وكذلك يظل الحق، ولو كان حقاً، مُفتقراً الى نُصْرة؛ إذْ البيان وحده لا يكفيه أحياناً فهو وإن كان يوضحه ويجلوه ويبدو صحيحاً لكل ذي لب، إلا أنه تبقى تحول دونه حجب الهوى والمصلحة، وهي كثيراً ما تؤذيه وتؤذي حَمَلَته، وتكون سبباً لضياعه وخسرانه كما تكون سبباً لضلال مناوئيه وآنحرافهم عن معالمه البيّنة وحدوده الواضحة.

محمد الأمين:

ولقد آشتهر أن محمداً ﷺ عاش في قومه حتى الأربعين من عمره وكان مثلاً

للخلق الكريم والسلوك القويم والسمعة الطيبة والسيرة الحميدة. اشتهر بالصدق والأمانة حتى لقّبه قومه بالأمين. وعرف بالعفّة والنزاهة وسمو الخصال فألفوا عشرته وأحبوه وتسابقوا الى التودد إليه والتقرّب منه حتى آختارته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي من هي في قومها نسباً وعلوّ كعب وشموخ مقا ليكون عاملاً لها يشرف على تجارتها ويدير لها أعمالها ومصالحها. ثم رغبت إليه بعد أن ثبت لها فضله وتحقّقت من سمو خلقه، ليكون لها زوجاً، بعد أن كانت قد رفضت كل الذين تقدموا لخطبتها من أشراف قومها وزعمائهم.

محمد الأمي:

ولقد بُعث ﷺ على رأس الأربعين من عمره في قبيلة قريش التي كانت تسكن مكة المكرمة، وفي قلب العرب الأميّين. وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، شأن شأن العرب الذين نشأ فيهم والذين كانت تغلب فيهم صفة الأمّية. ولقد كان هذ الوصف له ﷺ فريداً في الأنبياء. إذْ لم ينقل أن الله تبارك وتعالى قد بعث نبيّ أُمّيّاً غير نبيّنا محمد ﷺ. فكانت الأمية وصفاً خاصاً به لم يشاركه فيه أحد من النبيّين السابقين عليه، يقول الله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لآرتاب المبطلون﴾[1].

وقال آبن عباس رضي الله عنهما: «كان نبيّكم ﷺ أُمّيّاً لا يكتب ولا يقر ولا يحسب». وقال ﷺ: «إنا أمّة أمية لا نكتب ولا نحسب».

ولقد كانت ظاهرة الأُمية في رسول الله ﷺ دلالة إعجاز، وعلامة على خرق ما آعتاده الناس وجروا على التعارف عليه، وذلك كما قال الفخر الرازي: «لأن تعلم الخط شيء سهل. وإن أقلّ الناس ذكاءً وفطنةً يتعلمون الخط بأدنى سعي فعدم تعلّمه يدل على نقصان عظيم في الفهم غالباً. والله تعالى آتى محمداً ﷺ علو الأولين والآخرين. ومنحه من المعارف والعلوم والحقائق ما لم يصل اليه أحد من

(١) تفسير المنار الجزء التاسع، ص ٢١٦ ـ العنكبوت ٤٨.

البشر. وقد جعله الله مع كل هذا بحيث لم يتعلم الخط مما يؤكد على قيام ما هو معجز فيه. فضلاً عن أنّه ﷺ لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متّهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين واكتسب منها الكثير من المعارف والفضائل، ولدخل من هذه الثغرة كثير من المضلّلين والمرجفين ليلصقوا به الأكاذيب والفِرَى»[1] ولكن هيهات أن يصدق شيء من ذلك في حقه. وهو حامل القرآن الكريم، معجزة الله التي منحها للإنسان، وحامل دين الإسلام وشريعته الكاملة التي نظم بها حياته الدنيا وأعدّه بها للآخرة ليعيش في كلتيها عيش السعادة الآمنة المطمئنة.

تكذيب قومه له:

ولقد اختاره الله تعالى للرسالة وهو على رأس الأربعين وقد بلغ أشدّه وآستوى، فأمره بأن ينذر عشيرته الأقربين ومن بعد ذلك قومه. فصدع بما أمر به. ودعا أهله ثم قومه، ثم الناس أجمعين. قال الله تعالى: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبين﴾[2] وقال: ﴿يا أيها النبي بلّغ ما أُنْزِلَ إليك من ربّك﴾[3] وقال: ﴿وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4]. وقد تصدّى له الأكثرون من عشيرته وقومه وكذبوه وصَدُّوا عنه الذين كانوا يرغبون باتّباعه ومشايعته.. وآمن به الأقلون وأكثرهم من ضعفاء القوم.

اتباع الضعفاء له ظاهرة صدقه ﷺ

ولقد كان اتّباع الضعفاء له احدى ظواهر صدقه، وإن كان قومه يعتبرونه ظاهرة ضعف وتخلّف كما نقل الله تعالى معنى ذلك على لسان الكافرين فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه. وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم﴾[5].

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٥/٧٨.

(٢) الشعراء ٢١٤.

(٣) المائدة ٦٧.

(٤) سبأ ٢٨.

(٥) الأحقاف ١١.

والضعفاء في كل قوم يمثلون في الغالب الجناح القاصر. ويخضعون لوسائل الضغط المختلفة التي يمارسها عليهم أسيادهم وكبراؤهم. وهم بهذا الوصف يُفقدون من يتّبعونه ويكونون في صفه الكثير من عناصر القوة والدعم. غير أنهم في الغالب أيضاً يمثلون مع الإيمان الصدق والإخلاص في الاتّباع مع التجرّد عن الهوى: وبخاصة عندما يتجمّلون بالصبر على الآلام، ويصمدون على الوعيد والتهديد ويثبتون في مواجهة نفوذ السلطة الظالمة. وكيف يمكن أن يتحمل كل ذلك فقير أو ضعيف وهو أحوج ما يكون الى رضا سيّده أو رضا السلطة إذا لم يكن قد انكشف له الحق وتجلّى لـه نوره واهتدى له قلبه؟!

ويؤكد هذا المفهوم ما حدثنا عنه التاريخ في وقائع التابعين للرسل على مرّ الدهور، مما جعل الحكماء يتعرفون بهم على صدق دعوة الرسول الذي يتّبعونه. وما أمر هرقل ملك الروم عن هذا ببعيد... فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل ملك الروم أرسل إليه في ركْب من قريش. وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ حادّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش فأتوه وهم بإيْلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه وقال:

« أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم انه نبي؟ فقال أبو سفيان: « فقلت أنا أقربهم نسباً » فقال « أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره » ثم قال لترجمانه: « قل لهم إني سائل هذا الرجل فإن كَذَبني فكذبوه » فطرح على أبي سفيان أسئلة عديدة جاء فيها قوله: « فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم »؟ فقلت: « بل ضعفاؤهم » قال: « أيزيدون أم ينقصون؟ » قلت « بل يزيدون » قال: « فهل يرتدّ أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه »؟ قلت « لا » قال « فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال »؟ قلت « لا ». وبعد أن طرح القيصر على أبي سفيان ما شاء من الأسئلة واستمع إلى اجاباته عليها، علق عليها جميعها واحداً بعد الآخر حتى انتهى الى ما يلي: قال: ﴿ وسألتك اشراف الناس

اتّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت ان ضعفاءهم اتبعوه، وهم اتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون. وكذلك الايمان حتى يتم. وسألتك أيرتدّ أحدهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أنْ لا. وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب﴾[١].

بعض الأدلة على صدقه ﷺ

هذا وإن شهادة قومه ﷺ بالأمانة والصدق قبل ظهوره بالنبوّة وإن اتّباع الضعفاء له قبل الكبراء، وإن صبر هؤلاء ونضالهم في سبيل الدعوة، وإن ثباته واعتماده الحكمة والموعظة الحسنة فترة ثلاثة عشر عاماً دون اللجوء الى استعمال القوة حتى للدفاع عن النفس، ثم تتابع ازدياد المؤمنين ونماء الدعوة وانتشارها وعدم ارتداد أحد من الاتباع سخطة لدينه، وإن صبرهم جميعاً على الأذنى والحرمان، وطاعتهم العجيبة للرسول وبذلهم النفس قبل النفيس في سبيل الدعوة طمعاً في رضوان الله، وإن تأييد الله تعالى له بالقرآن الكريم وما حواه من تشريع حكيم وأخبار بالغيب مما كان في غابر الزمان وخفي على العيون والأذهان، وما يجد في مستقبل الأيام، وما لفت النظر اليه من الآيات الكونية وأطوار خلق الإنسان، ثم ما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم والحكم والمعجزات الباهرة التي كان يتحدى بها قومه... أقول إن كل ذلك وغيره مما لم نشر إليه، وهو الأمي، لهو أدلة ساطعة على صدقه ﷺ تؤكد بما لا مجال معه للإرتياب انه رسول رب العالمين. وان ما جاء به هو وحي من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى علّمه شديد القوى﴾[٢] وقال: ﴿ويقول الذين كفروا لستَ مُرسَلاً، قل كفى بالله

---

(١) فتح الباري الجزء الأول صفحة ٣٢.

(٢) النجم ١ ـ ٥.

شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[1] أي « الذي حصل عنده علم التوراة والانجيل. يعني ان كل من كان عالماً بهذين الكتابين، علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهداً على أن محمداً ﷺ حق من عند الله تعالى..»[2].

---

(١) الرعد ٤٣.

(٢) الفخر الرازي الجزء ١٩ ص ٧٢.

١

الفصل الأوّل

نظرة عامّة في وثنيّة العرب قبل الإسلام

١ ـ أمية العرب وجاهليتهم
٢ ـ الوثن والصنّم
٣ ـ رسوخ الوثنية قبل البعثة
٤ ـ تعدّد الأصنام والآلهة
٤ ـ من أبرز آلهة العرب
٥ ـ اصنام أخرى
٦ ـ العرب موحّدون قبل جاهليتهم
٧ ـ فعل عمر بن لُحيّ
٨ ـ عبادات أخرى من ظواهر الطبيعة
٩ ـ تنوّع الشرك الجاهلي
١٠ ـ فلسفة العرب لعبادتهم الأصنام
١١ ـ الأصنام رمز للقبيلة
١٢ ـ كيفية نشوء هذه العبادة

أميّة العرب وجاهليتهم:

كان العرب في الجاهلية وقَبْل الإسلام يتميّزون بفصاحة اللسان وبلاغة المنطق. وكانوا مع ذلك أُمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون إلا من وفقّه الله الى ذلك. وكان الذين يقرأون ويكتبون منهم قِلّة نادرة. ولقد غلبت عليهم لذلك صفة الأميّة فقال الله تعالى فيهم ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُزكّيهم ويُعَلّمُهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلال مبين﴾[1].

ورغم أنهم كانوا أحدَّ الناس أذهاناً. وأقواهم جناناً وأصفاهم فطرة وأبعدهم عمّا يصيب المتحضّرين والمتمدّنين أحْياناً من الغواشي النفسيّة والخلقيّة، فقد عميت أبصارهم عن كثير من الحقائق، وزاغوا عن سواء السبيل فبدلّوا ما ورثوه من دين ابراهيم وغيّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين ريباً وشكاً، وآبتدعوا من الدين والعبادة ما لم ينزل الله تعالى به سلطاناً وما لم يأذن به، فعاشوا في جاهلية عمياء وفي متاهة سوداء...

ولقد كان من آثار جاهليتهم هذه عادات وتقاليد غلب فيها الانحراف عن خُلُق الإنسان السوِيّ ومنطقه السديد؛ وعبادات وعقائد فيها من الإسفاف والهوان ما لا يقوّم سلوكاً ولا يهدي فكراً. بل ما يحكم على من التزموا بها

---

(١) الجمعة ١.

بالضلال المبين وتجعلهم يرتكسون في فساد بعد فساد ويتردّوْن بباطل إثر باطل. يقول الله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول، ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخِذ من دونك من أولياء، ولكنْ مَتَّعْتَهم وآباءهم حتى نسُوا الذكر وكانوا قوماً بُوراً﴾[1] ويقول: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يَضُرّهم وما لا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[2].

ويوجز جعفر بن أبي طالب جاهلية العرب قبل ظهور الإسلام فيقول للنجاشي ملك الحبشة: «أيها الملك كنا قوماً على الشرك. نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار. يستحل المحارمَ بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها. لانُحِلّ شيئاً ولا نحرّمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا الى أن نعبد الله وحده لا شريك له ونصل الأرحام ونحمي الجوار ونصلّي لله عزّ وجل ونصوم له ولا نعبد غيره» وعن ابن اسحاق «فدعانا الى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة.»[3].

ومثل هذا الكلام يعبّر بإيجاز ووضوح عن الخزي المبين الذي كان يظلل عيش الجاهليين في ممارساتهم الشخصية والاجتماعية والدينية، ويعكس أضواء كاشفة لواقع المجتمع العربي في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام.

وقد ساق الله تعالى بعض صفات أبناء الجاهلية، فذكر منها ضلال عقولهم عن الحق وعبادتهم الأصنام التي لا تضر ولا تنفع واعتقادهم بها بأنها تشفع لهم عند

---

(١) الفرقان ١٧ - ١٨.

(٢) يونس ١٨.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثاني، ص ٢٠.

الله. وأنهم قد تمادوا في ذلك فسقطوا بالاضافة الى ضلالهم في مهانات عقلية وسخافات مسلكية، وجعلوا لها، وهي لا تعلم، نصيباً من الرزق تقرّباً إليها ليصرف الى التنسّك والى السدنة، كما جعلوا الله نصيباً يصرفونه الى المساكين والى الضيفان. ولكنهم كانوا كما روى عليٌّ ابن أبي طلحة والعوفيّ عن ابن عباس، يُحصون نصيب الأوثان من الحرث والثمر أو أي شيء آخر ويحفظونه، وإن سقط منه شيء فيما جعلوه لله ردّوه الى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإنْ سقط شيء من الحرث أو الثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم يردّوه الى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمّي للوثن تركوه للوثن..[1] يقول الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[2].

ولا يكتفون بالتلبّس بمثل هذا التصرف بل يجعلون لله تعالى البنات ويعتبرون الملائكة بنات الله وهو ما كانت تقوله خزاعة وكنانة[3]، فوقعوا في خطيئتين كبيرتين: الأولى نسبة الولد الى الله ثم تخصيصه بأن يكون الولد المنسوب اليه ـ تعالى الله عن ذلك ـ أنثى، بينما كانوا هم إذا بشر أحدهم بولادة أنثى له تعيّر منها وتوارى عن أنظار الناس من سوء ما بشّر به، وآحتار ماذا يفعل، أيمسكه على هون يعيش فيه (أبد الدهر)، أم يدسه في التراب ويئده ليموت ويتخفف نهائياً من عاره وعيبه. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون. وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسْوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشِّر به أيُمْسِكُه على هُوْنٍ أم يَدُسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون

(١) تفسير القاسمي المجلد الرابع ص ٧٣٠.

(٢) الأنعام ١٣٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي الجزء العشرون ص ٥٥.

للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[1].

وكثيراً ما كان فساد تفكيرهم يُزيّن لهم قتل أولادهم فيئدونهم خشية العار تارة وخوفاً من الفقر أخرى. وقد لعبت الشياطين في ذلك دوراً خطيراً حتى لبست عليهم دينهم وخلطت عليهم فيه الحق بالباطل والخير بالشر يقول الله تعالى: ﴿وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قَتْلَ أولادِهم شُرَكاؤهم لِيُرْدوهم ولِيُلْبِسوا عليهم دينهم﴾[2] ويقول ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾[3].

وأدهم البنات:

وقد روى عن قَيْس بن عاصم أنه قال: « يا رسول الله إني واريْت ثماني بنات في الجاهلية » فقال عليه السلام: « اعتق عن كل واحدة منهن رقبة ». فقال يا نبي الله إني ذو إبل، فقال: « اهد عن كل واحدة منهن هدياً » وروي ان رجلاً قال يا رسول الله ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كان لي في الجاهلية آبنة فأمرت آمرأتي أن تزيّنها فاخرجتها إليّ فانتهيت بها إلى وادٍ بعيد القعر فالقيتها فيه. فقالت: يا أبت قتلتني. فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء. فقال عليه السلام: « ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما كان في الاسلام يهدمه الاستغفار ».

ولقد كانت أساليب العرب في قتل بناتهم في جاهليتهم مختلفة، فكان منهم من يئدهن فيحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى أن تموت، وكان منهم من يأخذها الى شاهق فيرميها منه، وكان منهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها، يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفاً من الفقر والفاقه.

ولقد كان أشد خصال الجاهليين سوءاً عبادة الأوثان واتخاذها شفعاء لهم عند الله بالاضافة الى ما ذكرنا مما ساقه الله من خصالهم..

(١) النحل ٥٧ - ٦٠.
(٢) الأنعام ١٣٧.
(٣) الأنعام ١٤٠.

الوثن والصنم:

ولقد كان من مظاهر وثنيتهم آتخاذ الصنم وعبادته. وهو ما كان مصنوعاً على شكل إنسان من معدن أو خشب. أو اتخاذ الوثن وعبادته، وهو ما كان على شكل إنسان منحوت من حجر. ومنهم من كان يعبد النُصُب. وهو ما قُدَّ من صخر ولم يعط صورة إنسان أو غير انسان، ولكنّه آعتبر مقدساً في نظر القبيلة وأجرت عليه طقوساً تعبّديّة. وتصوّرت بأن له ارتباطاً بعالم السماء.

رسوخ الوثنية قبل البعثة:

وقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ، وبقايا الوثنية هذه مترسّخة في عقول العرب ونفوسهم، ومتركزة في حياتهم الاجتماعية، يخلعون على الوثن والصنم من المعاني الدينية والمعتقدات ما هو مُبْهم وعجيب، وما يحلو لهم من صور القداسة وهالات التعظيم، وإنهم ليرفضون أي شيء في هذا السبيل لا يتفق مع ما كان عليه آباؤهم ويهزؤون به وينعتونه بما يشاؤون مما يجعله غريباً وأمراً ممقوتاً. يقول الله تعالى مصوّراً جانباً من سلوكهم عندما بلغتهم دعوة محمد ﷺ: ﴿صٓ، والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عِزّة وشِقاق. كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن فنادَوْا ولاَتَ حين مَنَاص. وعجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب أجعَل الآلهة إلاهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب﴾[1] ثم يعرض في سياق آستنكاري استفهامهم ثم يخزيهم بردّ ما حق فيقول: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شكٍّ من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾[2] ويقول: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾[3].

(١) ص ١ ـ ٥.
(٢) ص ـ ٨ ـ ١٠.
(٣) القمر ٢٥ ـ ٢٦.

تعدّد الأصنام والآلهة:

ولقد كان للعرب في جاهليتهم أصنام وآلهة كثيرة يعبدونها من دون الله. وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم وصدّهم عن رؤية الحق وسبيل الهدى، وصرفهم عن الخط المستقيم، حتى أنه لم يكن في قريش رجل إلا وله في بيته في مكة صنم يعظمه ويعبده. وكانوا يصنعون آلهتهم مما تيسّر لهم من كل شيء حتى أنهم كانوا ليصنعونها أحياناً من العَجْوة ثم لا يتحرّجون أن يأكلوها إذا عضّهم الجوع. وقد روى الواقدي أنه لما كان يوم الفتح نادى منادي رسول الله: « من كان يؤمن بالله ـ واليوم الآخر فلا يَدَعَنَّ في بيته صنماً إلا كسره، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام » وقد روى جُبَيْر بن مطعم أنه كان يرى قبل المناداة هذه الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها الى بيوتهم. وما من رجل إلا وفي بيته صنم إذا دخل يمسحه واذا خرج يمسحه تبركاً به »[١].

من أبرز آلهة العرب:

وكان من أبرز آلهة العرب وأصنامهم قبل الإسلام وبعد ظهوره بقليل « هُبَل » كان مقرّه الكعبة في مكة المكرّمة، يحج اليه من شاء منهم من كل فج عميق. وكان مصنوعاً من العقيق على صورة إنسان قد كسرت ذراعه، فأبدله القرشيون بها ذراعاً من ذهب، ويقال إن عمرو بن لحي قد جلبه معه من « هِيْت » من أرض الجزيرة، وكان من عادة العرب أن الرجل منهم إذا عاد من سفر بدأ به قبل أهله، وبعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده. وكانت له خزانة للقُرْبان. وكان قربانه عظيماً يصل أحياناً الى مئة بعير. كما كان له حاجب. و« هُبَل » هذا هو الذي صاح باسمه أبو سفيان بن حرب معظماً له يوم أُحد قائلاً عقب انتهاء المعركة لصالح قريش: « أُعلُ هبل » وردّ عليه عمر بن الخطاب بتوجيه من رسول الله ﷺ « الله أعلى وأجلّ »[٢].

---

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون ص ١٨٧.

أصنام أخرى:

وكان للعرب غير «هُبَل» أصنام كثيرة أخرى منها: «إساف» وكان قائماً على الصفا. و«نائلة» وكان قائماً على «المَرْوة» وقد روي أنّ قصيّاً نقلها من مكانها فجعل أحدهما لصيق الكعبة والآخر موضع زمزم؛ فكان الناس ينحرون عندهما ذبائحهم.

وكان لهم «الخُلَصَة» منصوبة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويذبحون لها. كما كان لهم «مناة» مركّزة على ساحل البحر مما يلي قديداً، تعظمها الأوس والخزرج وغسّان من الأزد [1] هذا بالنسبة الى قريش وبعض القبائل الأخرى. أما بالنسبة الى بني ثقيف فقد ظلّت «اللات» في الطائف كعبة أنظارهم وملتقى قلوبهم يعظمونها حتى بعث رسول الله ﷺ، فلما فتح الطائف أرسل المغيرة بن شعبة إليها آمراً اياه بهدمها.

وكانت «العزّى» بوادٍ من نخلة الشاميّة حتى قطعها خالد بن الوليد بأمر من رسول الله ﷺ. وكانت لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء يقال لها «ذات أنواط» منصوبة في الطريق الى حُنَيْن كما كان «ذو الكفَّيْن» للدّوْسيين و«سواع» لهُذَيْل وغير ذلك كثير[2].

روى ابن عباس فقال: «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، وحول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً قد شدّها إبليس بالرصاص. فطاف بها رسول الله ﷺ على راحلته وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» ويشير إليها فما منها صنم أشار الى وجهه إلا وقع على دُبْره، ولا أشار الى دُبْره إلا وقع على وجهه حتى وقعت كلها» وقال ابن اسحاق: «لما صلى النبي ﷺ الظهر يوم الفتح

---

(١) تاريخ مكة للأزرقي الجزء الأول ص ١٢٥.
(٢) تاريخ مكة للأزرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

أمر بالأصنام التي حول الكعبة كلها فجمعت ثم حرقت بالنار وكسّرت»[1].

العرب موحدون قبل جاهليتهم:

وقد ذهب أهل الأخبار الى الرواية بأن العرب الأوائل كانوا قبل جاهليتهم على ملّة إبراهيم يعظمون إلـهاً واحداً لا إله إلا هو ويعتقدون به ويحجّون الى بيته العتيق، وأنهم بقوا على ذلك دهوراً مديدة حتى انسلخوا منه مـع تقلـب الأيـام ونسوه وعبدوا ما استحبوا من الأصنام والأوثان وتخلوا عن ملّة آبائهم ابراهيم واسماعيل.

ويشكك في هذه الرواية الدكتور جواد علي لعدم ورود شيء من الوثائق في ذلك بل لورود النصوص على النقيض، تذكر أسماء أصنام ولا تذكر شيئاً مما يعبّـر عن قيام عقيدة التوحيد منهم.

والغريب أن بعض علماء الغرب أمثال ويليم شميد وبعض علماء اللاهوت، يذهبون الى ترجيح هذه الرواية والقول بها في حين يشكك بها الدكتور جواد علي وهو يعلم علم اليقين ان اسماعيل عليه السلام قد نشأ في مكة وعاش فيها مع والدته هاجر وانه تزوج من قبيلة جرهم. وهو يقينا أحد رسل الله الذين ذكرهم في القرآن الكريم ومجّدهم بقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمـر أهلـه بـالصلاة والزكـاة وكـان عنـد ربـه مرضياً﴾.

وإذا كان اسماعيل قد نشأ في مكة وكان رسولاً نبياً. وكان عند ربه مرضياً، فهو قطعـاً موحد. وذريته في الغالب موحدون. ومحيطه دونما ريب قد تأثر به ـ وبمعتقداته. وإن أكبر دليل على ذلك هو بقاء ارتباط العرب حتى بعد وثنيتهم بالكعبة بيت الله الحرام وتعظيمهم لها وطوافهم بها وتعظيمهم للحجر الأسود.

---

(١) تاريخ مكة للازرقي الجزء الأول ص ١٢٥.

فعل عمرو بن لُحي:

بل إنه هو وغيره من المؤرخين يكادون يلتقون على أن عمرو بن لُحي هو أول من غيّر دين اسماعيل وانحرف به عن خط الوحدانية، واتخذ الأوثان. ويروى عنه انه كان متميزاً ونافذ السلطة، ثبت حكمه على مكة وأهلها بعد أن انتزعه من «جرهم» وآل اليه أمر الطاعة فيهم يأتمرون بأمره ويتبعون ما يضعه لهم، وقد نسبت روايات الرواة إليه وضع «اللات» و«إساف» و«نائلة» كما قيل إنه بفضل جاهه العريض وسلطانه الكبير بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغه عربيّ قبله ولا بعده في الجاهلية...

عبادات أخرى من ظواهر الطبيعة:

هذا وقد ألّه بعض العرب في الجاهلية الظواهر الطبيعية مثل الشمس والقمر والنجوم لتوهّمهم انها ذات قوى روحية عظيمة تؤثر في حياتهم ايجاباً وسلباً، عطاءً وحرماناً، إساءة وإحساناً. وقد ثبت ان الشمس والقمر كانا أول الأجرام السماوية التي استأثرت بأنظار البشر وأفكارهم وعواطفهم لما للشمس من أثر فعّال في الأرض والزرع وحياة الإنسان، ولما للقمر من فضل بما يبعثه في ظلمة الليل من نور يهتدون به. وقد تعبّد البعض منهم للشمس وسمّوا أولادهم بأسماء العبودية لها، فقالوا «عبد شمس» كما قالوا «عبد اللات» و«عبد الكعبة».

ولقد نقل لنا «القرآن» الكريم خبر بعض من أولئك العرب الذين عبدوا الشمس فقال عن أهل سبأ وملكتهم بلقيس على لسان الهدهد الذي بعث سليمان إليها ليتسقّط له بعض أخبارها: ﴿أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إنّي وجدت آمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾[1].

---

(١) النمل ٢٢ ـ ٢٤.

وقد سخّف الله تعالى أمر هؤلاء وأمثالهم من الأقوام الذين أسفّت بهم عقولهم الى مثل هذا الدرك. وأوضح جازماً أن كل ما في الكون من أشياء والشمس والقمر والجبال والشجر والدواب يسجد تعظيماً لله وتكريماً له فقال: ﴿ألم تـرَ أنّ الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس﴾ [1] وقال ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ [2] فجعل السجود له وحده ونهى عن السجود لسواه أيّـاً كان حجمه وأثره وفضله على الناس والحياة..

ولعلّه من أجل ألاّ ينزلق المسلمون الى مثل ما آنزلق إليه بعض من سبقهم من تعظيم الشمس أو عبادتها نهى رسول الله ﷺ عن صلاة التطوع عند طلوع الشمس وعند غروبها.

تنوّع الشرك الجاهلي:

لقد تمادى الجاهليون في وثنيّتهم وأساليب شركهم بالله. فكان منهم من عبد الأصنام المصنوعة من الحجـارة أو الخشب أو المعادن أو غيرها مما لا روح له كما رأينا سابقاً، ومنهم من عبد الشمس والقمر أو النجوم أو الشجر أو الدواب. ومنهم من جَعل الجنّ شركاء لله أو جعل الملائكة شركاء أو بنات له. وفي هذا يقول الله تعالى مخبراً عن بعض عبادتهم: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وَخَلَقَهُم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾ [3] وعبادتهم هذه للجنّ كانت لطاعتهم لهم ولأوامرهم.وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿إنْ يَدْعون من دونه إلا إناثاً وإنْ يدْعون إلاّ شيطاناً مريداً لعنه الله وقال لأتّخذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً

---

(١) الحج ١٨.
(٢) فصلت ٣٧.
(٣) الأنعام ١٥٠.

وَلَأُضِلَّنَّهُم وَلأُمَنِّيَنَّهم وَلآمُرَنَّهُم فَلَيبتكُن آذان الأنعام وَلآمُرَنَّهُم فَلَيُغَيِّرُن خلق الله ومن يتّخذ الشيطان وَلِيّـاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ [1].

ولقد تكرر في القرآن الكريم مثل هذا الإخبار عن عبادة الناس للشياطين أو الجن. فيقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين وان آعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ [2] ويقول على ألسنة الملائكة وهم يتبرّؤون من عبادة الناس ﴿سبحانك أنت وَلِيّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾ [3].

وعن ابن عباس أنه قال: « كان الزنادقة يقولون إنّ الله وإبليس أخوان ؛ فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات، وإبليس خالق السبـاع والحيـات والعقارب والشرور » [4].

ويشابه هذا القول ما تقوله المجوس، فهم يرون أن كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من « يزدان »، وجميع ما فيه من الشرور فهو من « أهرمن » وهو المسمى بإبليس في شرعنا.

ولعلّه قد تسرّب إلى العرب من المجوس الذين كانت تصلهم بالعرب قديماً تجارات وعلاقات سياسية وعلاقات جوار. ولا نستطيع أن ننسى ما لهذه الصلات من تأثير في الأخذ والعطاء. وفي الحمل على التقليد والاقتباس.

فلسفة العرب لعبادتهم الأصنام:

ولقد فلسف العرب عبادتهم للأصنام فاعتبروها هي والأوثان أولياء وشفعاء لهم عند الله تقرّبهم إليه زلفى. ومن أجل هذه الفلسفة المغلوطة الضالّة عن جادة

---

(١) النساء ١١٧ ـ ١١٩.

(٢) يس ٦٠ ـ ٦١.

(٣) سبأ ٤١.

(٤) تفسير القاسمي المجلد الرابع ٦٥٩.

الصواب «تكرر الحديث» في الكتاب الكريم عن الشفاعة والشفعاء، وسلط الضوء عليهم وعلى عجزهم، لبيان فراغ مهمتهم وبطلانها وفسادها إلاَّ في حال أن يكون الله تعالى هو الذي قد أذن لهم فيها - يقول الله تعالى: ﴿والذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ [1].

على أن ما عبده المشركون من دون الله واتخذوه أولياء، إما أن يكون مما يعقل أو مما لا يعقل. وعبادتهم لما يعقل كانت ظاهرة بعبادة بعضهم للمسيح أو للعُزَيْر أو للملائكة. بل أن كثيراً منهم كان يعبد الشمس والقمر والنجوم وهو يعتقد أنها أحياء عاقلة وناطقة. وأما عبادتهم لما لا يعقل ولما ليس موصوفاً بالحياة والارادة كالأصنام والأوثان، فهو معلل أيضاً بأنهم كانوا يعتقدون أنها تماثيل الكواكب، أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين خلوا من قبل، ويقصدون من عبادتهم التوجّه إلى من كانت الأصنام تماثيل أو صوراً لهم.

وهم كأنهم كانوا يرون أن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر، وان اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من خلق الله تعالى مثل الكواكب والأرواح السماوية. ثم هي تشتغل بعبادة الإله الأكبر. وأنهم هم حينما يعبدون خلق الله الأعظم المشار اليهم فإنهم يقربونهم الى الله زلفى ويشفعون لهم عنده.

ولقد أخبر الله تعالى بأن مقاصد هؤلاء في عبادتهم ضالّة، ولا تحقق لهم م ينشدون، لأن الذين يعبدون أيّاً كانوا لا ينفعونهم ولا يضرون فقال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبّئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عم يشركون﴾ [2].

---

(١) الزمر ٣.

(٢) يونس ١٨.

ولقد وصل الحال ببعضهم أن عبد أرواح أصحاب القبور الذين يئسوا من الدنيا وربّما يئسوا أيضاً من الآخرة بعد أن ماتوا ويتقرّبون إليها. ولقد ربط بعض العلماء بين هذه العبادة الوثنية وبين ما نهى عنه الرسول ﷺ من تَعْلية القبور وتَسْنيمها والتباهي ببنائها. وما نهى عنه أيضاً من آتخاذ القبور مساجد ومواضع للصلاة[1]، ولعلّ من أجل هذا كان فئات من الناس يتخذون بعض القبور مزارات لهم لأنها لرجال دين فيهم أو لسادات قبائل، ولاذ بعضهم بها كما كان من أمر ضريح «تميم بن مر» وكالذي كان من أمر «اللات» إذْ قالوا إنه كان في الأصل رجلاً، ولما مات اتخذ الناس قبره معبداً ثم حُوِّل إلى صنم يُعبد.

«قال» الفخر الرازي في تفسيره (الآية المذكورة آنفاً): «إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على آعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله..»[2].

ويؤكد هذا القول خطأ ما هو شائع بين الناس اليوم كما كان لدى البعض في الماضي، وبطلانه، ليتذكر من له عقل حازم وقلب واع ويتفادى السقوط فيما سقط فيه المتعجلون والغافلون.

الأصنام رمز للقبيلة:

يقول ابن الكلبي: «واشتهر العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت العتيق.. فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربّاً وجعل

---

(١) تاريخ العرب المفصل جواد علي الجزء السادس ص ٤٨.

(٢) الجزء السابع عشر ص ٦٣.

الثلاث الباقية أثافي لقدره فإذا آرتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها »[١].

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبّد لها، فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة. قال (آبن دريد) « الحارث بين قيس هو الذي كان إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم﴾[٢].

وهكذا فإنه لم يكن مفروضاً أن يكون الصنم كبيراً أو منحوتاً نحتاً فنيّاً، بل كثيراً ما كان يكون تماثيل صغيرة أو حجارة غير منسقة ولا صناعة فيها مطلقاً. ولقد روي أن « أحمر بن سواء بن عدى السَّدوسي » كان له صنم يعبده فعمد إليه فألقاه في بئر، ثم جاء إلى الرسول ﷺ فأسلم[٣].

ولقد كان بعض العرب ينظرون إلى أصنامهم على أنها رموز لهم تشير اليهم وتعرّف بهم، فضلاً عن عبادتهم لها من دون الله. ولذلك كانوا يحملونها معهم في أسفارهم وحروبهم ويستميتون في الدفاع عنها كما يستميتون في الدفاع عن أنفسهم، وكانوا يرون وقوعها في يد العدو هو كوقوع القبيلة بأسرها في يده. ولذلك فقد كانوا يولونها كل عنايتهم ورعايتهم حال أسفارهم وتنقّلاتهم، ويضعونها في « سَمْتها » وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر ويصبح لها في نفوسهم قدسيّة خاصة بسبب ذلك.

ولم يكن للفرد في بعض الأعراف القبلية حق آختيار الصنم الذي يشاء، كما لم تكن له حريّة العبادة كما يقال في هذا العصر، بل كان عليه أن يلتزم بما آلتزم به

---

(١) الأصنام (٣٣).

(٢) الجاثية ٢٣.

(٣) للمراجعة في المفصل في تاريخ العرب الجزء السادس ص ٦٧.

آباؤه من قبل من العبادة للصنم التي هي ميراث يتوارثه الأبناء عن الآباء في عرفهم وفي دينهم. وفضلاً عن أن الصنم هو رمز القبيلة في بعض الأعراف، فإنه أيضاً حبّة العقد وقطب الرحى، والرابطة التي تصل بين الأفراد. والخروج عليه خروج على مشيئة القبيلة، وآنسلاخٌ من كيانها. ومع ذلك كله فقد كان للسادة في القبيلة في بعض الاحيان الخروج على هذه القاعدة وتغيير أصنامها [1].

كيفية نشوء هذه العبادة:

ولقد أشرنا فيما سبق (اشارات) الى كيفية نشوء عبادة الأصنام في العرب الجاهليين (دون أن نركّز ذلك في مبحث خاص) (ولذلك) فإنّا نؤكد هنا بأن أكثر الرواة يكادون يلتقون على أن الناس في الجاهلية لم يتعبدوا للأصنام، ولم يكونوا ينظرون اليها بالذات على أنها تستحق العبادة. ولكنهم نحتوها وجعلوها صورة أو رمزاً تذكرهم بالإله أو بالأشخاص الصالحين، وأنهم مع طول الزمن نسوا هذه الحقيقة وانجرفوا مع الظاهر فاتخذوها وعبدوها من دون الله.

ويستنتج بعض المؤرخين من هذا أنه يحتمل أن يكونوا في الغابر يعتقدون بالمسخ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائله من أنهما «رجل وامرأة من جرهم وأن إسافاً وقع على نائلة في الكعبة فمسخا» [2] أو يعتقدون بالتقمص كالذي روَوْه عن صنم «اللات» من أنه كان إنساناً من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو بن لحي: «لم يمت ولكن دخل الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها وأنْ يبنوا عليها بنياناً يسمّى اللات» [3] أو كالذي رووه عن «ودّ، وسُواع، ويغوث، ويعوق ونسر» من أنها «كانت نفراً من بني آدم صالحين وكان لهم أتباع يعتقدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا

---

(١) للمراجعة في المفصل في تاريخ العرب جواد علي الجزء السادس ص ٦٥.
(٢) الروض الأنف الجزء الأول ص ٦٤.
(٣) البلدان، البلاذري، الجزء السابع ص ٣١٠.

ذكرناهم. فصوّروهم. فلما ماتوا ودبّ إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[1].

ولقد سوغت مثل هذه العقائد للرواة والقصاصين أن ينسجوا العديد من الصور والأخبار والقصص عن كمون أرواح في تلك الأصنام تتحدث للناس وتوحي إليهم وتأمرهم وتنهاهم. ولعلّ هذه الأخبار هي التي حدت ببعض العرب عندما أمرهم النبي ﷺ بهدم أصنامهم بالتلكّؤ عن ذلك خوفاً من خروج الجن من أجوافها. بل لقد روى البعض بأنه بالفعل قد خرج الجنّ من بعضها حين قام بعض المسلمين بهدمها[2].

وتروي بعض الأخبار أن « سواعاً » كان ابنا لشيث، و« يغوث » كان ابنا لسواع وكذلك يعوق ونسر.

على أن آبن الكلبي يرى أن نسل اسماعيل عليه السلام لما تكاثر ضاقت بهم مكة، فنشأت بينهم العداوات، وأفضت بهم الى خصومات وحروب، فأخرج بعضهم بعضاً. فضربوا في الأرض التماساً للرزق. وكان كلما رحل منهم راحل حمل معه حجراً من أرض الحرم تعظيماً للحرم فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمّناً بها وحباً بالحرم وتعظيماً له. ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه وعبدوا ما استحبوا واستبدلوا بعبادة إله ابراهيم واسماعيل عبادة الأوثان...

وكان أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو ابو خزاعة.

وفي منشأ عبادة الأصنام في العرب الجاهليين قصص وأخبار أخرى. ولكنها في

---

(١) تفسير الطبري الجزء ٢٩ ص ٦٢.
(٢) المفصل في الجزء ٦ ص ٦٩.

الغالب تلتقي حول عمرو بن لحي الذي كان أول من جلبها الى مكة. وأيّاً ما كـان الأمر فإن العرب الذين عبدوا الأصنام واتخذوها لهم شفعاء عند الله، وإن كانوا قد نسجوا حولها العديد من القصص والأخبار التي تعبّر عن انبهارهم بما كان يصدر عن سدنتها أخوان الأبالسة والجن، إلا أنهم ظلوا يعترفون بأن خالق السماوات والأرض وخالقهم هو الله تعالى، وأنه هو الذي ينزل المطـر ويحيي الأرض بعد موتها. ولذلك فقد كانوا يقسمون به ويتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والمصائب.

والقرآن الكريم حافل بالإشارة الى هذه المعاني حيث يقول: ﴿ولئن سألتهم مـن خلقهم ليقولُنّ الله فأنى يؤفكون﴾ [1] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهُن العزيز العليم﴾ [2] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ [3] ويقول ﴿واقسموا بالله جهد أَيْمانهم لئـن جـاءَتْهُـم آيـةٌ لَيُـؤْمِنُـنَّ بها﴾ [4].

ولكن هذه الآيات وغيرها التي تثبت أصول الاعتراف بالله في نفوس وقلوب العرب الجاهليين تثبت في غالبها في الوقت نفسه ضلالهم وشركهم، وهو ما استحقوا لأجله المقت والسخط واللعنة.

وليس المطلوب في الإنسان أن يعرف الله ويقرّ بوجوده ويعترف له بالخلق والرزق وكل مجالات القدرة فحسب، فقد عرف ذلك من قبل إبليس ومن لف لفّه من إخوانه وجنوده أجمعين، بل المطلوب أن تتحقق مع ذلك كله راحة القلب

---

(١) الزخرف ٨٧.
(٢) الزخرف ٩.
(٣) العنكبوت ٦٣.
(٤) الأنعام ١٠٩.

إليه سبحانه وتعالى ؛ فيطمئن بذكره ويسعد بمراقبته ويرتاح لمناجاته ومخاطبته وحده بكل خلوص وصفاء وتنزه ، لا يشرك معه مخلوقاً أيـاً كان ولا شيئاً مما يتصل به . لأن الله هو وحده المعبود ، ووحده هو الخالق الذي لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وبيده الخير وهو على كل شيء قدير هو البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

الفصل الثاني

موقف الرسول ﷺ من الأوثان قبل البعثة

١ ـ نشأته وكرامته

٢ ـ سلوكه الحميد وبراءته من السجود لصنم

٣ ـ تحبيب الخلاء إليه

٤ ـ محمد الأمين

نشأته وكرامته:

ولد الرسول ﷺ في مكة في دار آبن يوسفَ من شِعْب بني هاشم يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول. وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر وهو قرشي على الصحيح وينتهي نسبه الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام.

وقد نشأ ﷺ في عشيرته وبين قومه بمكة، فكان منذ نعومة أظفاره موضع إعجابهم واهتمامهم في ولادته ونباهته واحتراسه، وفي ما كان يَحُفُّ بنَشْأته ويصحبها من عجائب وغرائب مُلْفِتةٍ للنظر والفكر. ولقد روى ان أبا طالب كان يقرّب الى الصبيان تصبيحهم أول البُكْرة فيجلسون وينهبون ويكفّ رسول الله ﷺ يده لا ينهب معهم، فلما رأى ذلك أبو طالب منه عزل له طعامه على حدة. وكان يصبح ﷺ في أكثر أيامه فيأتي زمزم فيشرب منها شَرْبة، فربما عُرِض عليه الغداء فيقول: «لا أريده أنا شبعان»[1].

ولقد أعجب به جده عبد المطلب من قبل فقال: «إن لآبني هذا لشأناً» وحرصت حليمة السعدية التي ارضعته على أن يبقى عندها فقالت: «فلم يزل الله يرينا البركة نتعرّفها حتى بلغ السنتين، فكان يشِبُّ شباباً لا تشبه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً أي «غليظاً» فقدمنا به على أمه ونحن أضنّ

(١) الامتاع للمقريزي الجزء الأول ص ٨.

شيء به مما رأينا فيه من البركة. فلما رأته أمه قلت لها: دَعِينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم»[1].

ولقد احتضنه عمه أبو طالب بعد موت أمه وجده، فكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده. وكان لا ينام إلا الى جنبه ويخرج فيخرج معه. وكان يخصه بالطعام. وكان اذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا. وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا. ولذلك كان أبو طالب يقول له وهو صغير إنك لمبارك[2]. ومن أجل ذلك كان أبو طالب يرق له كل الرقّة ويقرّ به إليه ويكرّمه اكراماً يزيد احياناً على إكرامه لأولاده.

سلوكه الحميد وبراءته من السجود لصنم:

ولقد كان منذ يفاعته معروفاً بنبل الصفات وجميل الشمائل واستقامة الخلق، يخالط قومه ويعاشرهم، ويأخذ معهم قسطه من الحياة العامة على اختلاف صورها ومقتضياتها. بيد أنه كان له سلوكه الخاص به؛ فلم يكن يجاريهم في كل شيء وبخاصة في لهوهم وعبثهم وشرابهم وفسادهم حتى ولا في عبادتهم.

لقد شبّ بفضل الله مطهّراً من عيوب الجاهلية. مبرّأً من أدناسها[3]. وكما قال ابن اسحاق «يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانةً وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزّهاً وتكرّماً حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة. وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير المجلد الاول ص ٢٢٧

(٢) السيرة النبوية لإبن كثير المجلد الأول ص ٢٤٢.

(٣) سحط النجوم العدالي ١/ ٢٧١.

(٤) السيرة النبوية لإبن كثير ١/ ٢٥٠.

لي يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلّنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأُدبر إذْ لكمني لاكم ما أراه لكمةً وجيعة ثم قال: شدّ عليك إزارك. قال فأخذته فشددته علي. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي».

وقد قال القسطلاّني: «إنه لما ترعرع ﷺ، كان يخرج الى الصبيان وهم يلعبون فيجتنبهم. وأنه لما اكتمل شغف الوحدة المشفوعة بالتحنّث الفطري البعيد عن أيّة شائبة من شوائب الوثنية. وقد روى البخاري أنه ﷺ قال: «ما هَمَمْتُ بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين». وروى ان احدى هاتين المرّتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش. فقال لصاحبه اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة، وكان بها عرس فيها لهو وزَمْر. فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقي عليه النوم، فنام حتى ضربته الشمس، عصمة من الله. وفي المرة الآخرة قال لصاحبه مثل ذلك، فألقي عليه النوم كما ألقي عليه في المرّة الأولى»[1].

وهكذا فقد نشأ بعيداً عما كان عليه قومه من تعظيم الأوثان والسجود لها. فلم يُرْوَ عنه أنه سجد لصنم قط لأن ذلك كان قد بُغِّض إليه منذ طفولته[2]. وقد روي أنه لما كان في تجارة لخديجة في الشام وقع بينه وبين رجل اختلاف في شيء. فقال له الرجل إحلف باللات والعزّى فقال له الرسول: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمُرّ فأعرض عنهما»[3].

وقد روى ابن عباس قال: «حدثتني أم أيمن قالت: كانت «بُوانه» صنماً تحضره قريش تعظّمه وتُنسك له النسائك، ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده

---

(١) السهيلي ١/١١٢

(٢) طبقات ابن سعد ١/١٣٨

(٣) مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٤٤.

يوماً الى الليل. وذلك يوماً في السنة. وكان أبو طالب يحضر مع قومه. وكان يكلّم رسول الله ﷺ حتى يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه. ورأيت عمّاته غضبن عليه يومئذٍ أشدّ الغضب. وجَعَلْنَ يقُلْن إنا لنخاف عليك مما تصنع من آجتناب آلهتنا. وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكَثِّر لهم جمعاً؟! قالت فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع الينا مرعوباً فزعاً. فقلن له، أيْ عماته، ما دهاك؟! قال: «إني لأخشى أن يكون بي لَمَمٌ (أي طرف جنون) فقلن ما كان الله لِيَبْتَليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك. فما الذي رأيت؟. قال: «إني كلما دَنَوْت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: «وراءك!! «أي ارجع وراءك» يا محمد لا تمسه» قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ»[1].

وهذه القصة وغيرها من امثالها تثبت أنه ﷺ كان يرفض آرتياد أماكن اللهو والعبادة عند قومه، وأنه لم يسجد لصنم قط، وأنه لم يقرب وثناً. فقد روى الحافظ البيهقي بسنده عن زيد بن حارثه قال: «كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا. فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مَسَحْت به. فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسّه» فقال زيد فطفنا. فقلت في نفسي لأمَسَّنّه حتى أنظر ما يكون. فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ» فقال البيهقي زاد غيره قال زيد: «فوالذي اكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزله عليه».

ولقد ثبت أن الرسول ﷺ كما رأينا من قبل، كانت ترافقه عناية الله في كل حال، فتيسّر له ما ترضاه وتصرفه عما تكره وتأباه وتعصمه من الانزلاق إليه. وليس هذا بمستغرب. بل المستغرب ألاّ يكون. لأنه ﷺ لو سلك شعاب قومه ودلف معهم الى نواديهم المنكرة وعاشرهم في لهوهم وعبثهم وشاركهم متعهم

---

(١) طبقات ابن سعد ١/١٣٩ ـ ١٤٠.

وترفهم وفسادهم، لأصابه الكثير مما يصيب المنغمسين فيها والغارقين في بُحرانها، ولشاب خُلُقه وطبعه وفكره من لَوَثات الجاهلية وعيوبها ومثالبها ما لا يتفق مع مقام النبوّة ولا يساعد على تأهيله ليكون في مقام القيادة والإمامة لقومه، فضلاً عن ان يكون في مستوى الإمامة للناس أجمعين.

فرسول الله وقد اختاره الله أزلاً لهذه المهمة الشريفة، واصطفاه من قومه لمقامها السامي الرفيع، لا بدّ من أن يعدّه لها جسماً وطبعاً وسلوكاً وفكراً وقلباً وروحاً. كما لا بدّ من أن يهيّء له الأجواء كافة لينجح في مهمّته ويوفّق في رسالته. وقد قال الله تبارك وتعالى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ولقد آصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[1]. ويقول: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[2] ويقول: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله قويٌّ عزيز يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾[3].

تحبيب الخلاء إليه:

ولقد دفع به سوء خصال قومه الى البعد عنهم والرغبة في الانفراد عنهم وحب الخلاء. قال ابن كثير: «انما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما كان يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام. وقد قويت محبته للخلوة عند مقاربته إيحاء الله اليه»[4].

ولعلّ هذا كان أحد الأسباب التي هيّأته للتوجّه في أواخر الثلاثينات من عمره الى آرتغاب الاختلاء للتحنث والتبرّر منفرداً في غار حراء ليالي تبلغ شهراً أحياناً في كل سنة بعيداً عن عشيرته وقومه. قال الخطابي رحمه الله: «ولقد لطف

---

(١) البقرة ١٣٠.

(٢) الانعام ١٢٤.

(٣) الحج، ٧٤ - ٧٥.

(٤) السيرة النبوية ٣٨٩/١.

الله تعالى بنبيّه محمد ﷺ في بادية أمره فحبّب إليه الخلوة. وقطعه عن مخالطة البشر ليتناسى المألوف من عاداتهم ويستمر على هجران ما لا يُحْمد من أخلاقهم. وألزمه شعار التقوى. وأقامه في مقام التعبّد بَيْن يَدَيْه ليخشع قلبه وتلين عريكته لورود الوحي فَيَجِدَ منه مراداً سهلاً ولا يصادفه حَزْناً وَعْراً، فَجُعِلَتْ هذه الأسباب مقدمات لما أرصد له من هذا الشأن ليرتاض بها ويستعدَّ لما نُدِبَ إليه. ثم جاءه التوفيق والتبشير وأخذه بالقوة الإلهية فَجُبِرَتْ منه النقائص وجُمِعَتْ له الفضائل النبوية» وقال غيره «من فوائد خلوة نفسه ما ألهمه الله تعالى قبل ظهور الملك له ومخاطبته لما أراد الله تعالى من صروفه عن مُتَعَبَّدات قريش وعُزوب نفسه الشريفة عن قرب أرجاس الأصنام وتَبَرِّيه منها وبُغْضِه لها وإقباله على التحنّث وهو فعل البر والقُرَب»[1].

محمد الأمين:

ولقد أحبت قريش محمداً وكرّمت فيه خصاله الحميدة وأطلقت عليه وصف «الأمين» وقد روى محمد بن إسحاق بن يسار قال: «فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة، وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وإنما كانت رضماً [أي حجارة نضد بعضها على بعض من غير ملاط] فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها.... وكان البحر قد رمى بسفينة الى جُدّة لرجل من تجّار الروم فتحطّمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها... وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيّأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها... ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة... ولما أصبح الوليد غادياً على عمله هدم وهدم الناس معه... ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة...

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الامام محمد يوسف الصالحي الجزء الثاني ص ٣١٩.

ثم بنوها، حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا واعدّوا للقتال. فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة. فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدم. ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتناصفوا... وقال أبو أميّة بن المغيرة وكان أسن قريش: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا. فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال ﷺ: «هلمّوا اليّ ثوباً» فاتى به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم آرفعوه جميعاً» ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه»[1].

وهذه القصة تعبّر عمّا كان لرسول الله ﷺ في نفوس قومه من محبة وثقة وإجلال. كما تعكس بوضوح ما كان يتمتع به من خارق الذكاء وعميق الحكمة وثاقب الرأي..

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢٧٩/١ - ٨٠.



الفصل الثالث

موقف الرسول ﷺ من الوثنية بعد البعثة

١ ـ بدء تخلخل الوثنية
٢ ـ بداية الوحي
٣ ـ فترة الوحي
٤ ـ الأمر بالتبليغ
٥ ـ الاسلام والكفاية والعلم
٦ ـ الوثنية عبودية والاسلام حرية
٧ ـ تسفيهه ﷺ لأحلام العرب وعبادتهم
٨ ـ الهوى علة هذا الضلال وكل ضلال
٩ ـ الانذار بسوء المصير
١٠ ـ دروس في ذلك
١١ ـ في الوثنية استساغة للأوهام والتبعية لكل مجهول
١٢ ـ لا هوادة مع الوثنية
١٣ ـ أمثلة من مواقفه ﷺ
١٤ ـ أثر التوجيه النبوي في نفوس الصحابة
١٥ ـ مظاهر الشرك الخفي

بدء تخلخل الوثنية:

لقد ثبت إذاً بما لا لَبْس فيه أنه ﷺ كان يتجافى عن أماكن العبادة التي كان يرتادها قومه، ويأبى مخالطتهم فيها ومشاركتهم، تحوّباً وتبرُّءاً من العبث والاثم... وقد ذكر آبن كثير أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عَمْرو بن نُفَيْل وعبد الله بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحُوَيْرِث كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه، قد آتخذت قريش ذلك من كل سنة عيداً يأتونه فيه، يعظّمونه وينحرون له الجزور، ثم يأكلون ويشربون الخمر، ويعكفون عليه؛ فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه فأنكروا ذلك وردّوه الى حاله، فلم يلبث أن آنقلب انقلاباً عنيفاً فأخذوه فردّوه الى حاله فانقلب. فلما رأوا ذلك آغتموا له وأعظموا الأمر، فقال عثمان بن الحُوَيْرث ما له قد أكثر التنكّس؟! وعلى أثر ذلك خلا هؤلاء بعضهم ببعض وقالوا: تصادقوا، وَلْيَكتُم بعضكم على بعض. وقال أحدهم: « ما قومكم والله على شيء! لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه. ما حجرٌ تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر!؟ يا قوم التمسوا لكم الدين. قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم: فأما ورقة فتنصّر وقرأ الكتب حتى علم علماً. وأما عثمان بن الحويرث فسار الى قيصر فتنصّر أيضاً وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فضرب في الأرض حتى بلغ الرّقّة من أرض الجزيرة، فلقي راهباً عالماً فأخبره بالذي يطلب، فقال له الراهب انك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه. ولكن قد

أظلك زمان نبيّ يخرج من بلدك، يبعث بدين الحنيفية. فرجع وفي الطريق قتلته لُخَم. وأما عبد الله بن جحش، فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم أسلم وهاجر مع من هاجر الى الحبشة، فلما آستقرّ فيها تنصّر وفارق الاسلام ومات ثمة نصرانيًّا »[1].

ولقد روت كتب السير ذكر أسماء كثيرة من أمثال هؤلاء الذين رفضوا دين الآباء وهجروا ما كانوا عليه من العبادة ونفروا من سخفها ورجسها والتمسوا لأنفسهم عبادة أصح وأسلم[2].

وهذا يفيد أن الوثنية كانت قد بدأت تتخلخل مع مطلع عهد رسالة محمد ﷺ، وأن بصائر الناس قد أخذت بالانفتاح على الحق والخير، مع اطلالة أنوار النبوة، وأن دعاوى الباطل وأحابيله بدأت تفقد شيئاً فشيئاً زخمها وتأثيرها بل جعلت تنكشف على حقيقتها السوداء الكالحة...

بداية الوحي:

ولقد كانت سيرة الرسول ﷺ وأخلاقه الحميدة تزيده قناعة وتمسكاً بالبعد عن محاور المشركين من قومه، وتضفي عليه هالات المهابة والجلال وتنزله من قلوبهم منزلة المحبة والاكرام.

ولقد كانت للوحي بدايات. فهو لم يهبط عليه جملة واحدة، وبصورة مفاجئة، بل كانت له إرهاصات ومقدمات، فكان يأتيه ابتداءً على شكل رؤيا صادقة. ثم حُبّب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد. وكان يرى العجائب فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سَمُرة قال قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علي قبل أن أبْعث إني

---

(١) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير بتصرف ٣٤٠/٢.
(٢) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير بتصرف ٣٣٩/٢.

لأعرفه الآن ». كما روى الحافظان البيهقي وأبو نعيم في كتابيهما. « دلائل النبوّة » من حديث يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شُرَحْبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: « إني إذا خَلَوْتُ وحدي سمعتُ نداءً وقد خشيتُ والله أن يكون لهذا أمر فقالت: معاذ الله ما كان ليَفْعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ، ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عتيق اذهب مع محمد الى ورقة. فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ بيده أبو بكر: فقال: انطلق بنا الى ورقة. قال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا اليه فقصّا عليه، فقال رسول الله ﷺ « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد!! يا محمد!! فانطلق هارباً في الأرض. فقال له: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتني فأخبرني »[1].

وقال ابن اسحاق: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان داعية، عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته، و ابتدأه بالنبوّة، كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى يحسر البيوت عنه ويفضي الى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: « السلام عليك يا رسول الله » قال، فيلتفت حَوْله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث. ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاء من كرامة الله وهو بِحِرَاءَ في رمضان[2].

ولذلك فقد ورد أنه ﷺ « أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح »[3]. وقد لبث يتلقى مقدمات النبوّة

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣٥٨/١.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤٠١/١.
(٣) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ١٥٩.

وارهاصاتها كما ذكرنا طرفاً منها حتى شارف الأربعين من عمره « وفجأه الحق وهو بغار حراء »[1] أي جاءه بغتة كما قال تعالى ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ ونزل عليه صدر سوره العلق وهو قوله تعالى: ﴿إقرأ بآسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربُّك الأكرم الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فرجع الى أهله يرجف فؤاده مضطرباً فزعاً مما سمع ورأى، والتمس منهم أن يزمّلوه قائلاً « زمّلوني زملوني » فكان ما أراد حتى اذا ذهب عنه الرَّوْع وسُرِّيَ عنه كان مما قال: « إني خشيت على نفسي » وجعل يفضي الى زوجته خديجة بمخاوفه... وقد كان دور زوجته الصالحة عظيماً إذْ سكّنت رَوْعه بكلماتها الملهمة التي قالتها له ومنها: « كلاّ واللهِ ما يُخْزيك الله أبداً. إنك لَتَصِلُ الرحم وتَحْمِلِ الكلَّ وَتَكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق »[2]. الى أن قالت « أبشر يا ابن عم وآثْبُتْ فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. وذلك بعدما سمعت من نوادر الأخبار بأن نبيًّا سيُبعث في هذا الزمان ».

فترة الوحي:

ثم فتر الوحي فترة طويلة حتى حزن النبي معها حُزْناً شديداً غدا منه يتردّى من رؤوس الجبال. فكلما أراد أن يلقي نفسه تبدّى لـه « جبريل » وقال « يا محمد إنك رسول الله حقاً »[3].

وقد أخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدّث عن هذه الفترة التي روى أنها طالت سنتين وثلاثاً وأن أصحها حسبما نقله الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ما كان في دائرة الأشهر، وقال غيره في إطار الأيام[4]. « ثم فتر

---

(١) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ٢٩٤.
(٢) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبَع، ص ٢٩٦.
(٣) حدائق الانوار مطالع الاسرار القسم الاول لابن الديْبع، ص ٢٩٨.
(٤) خاتم النبيّين ١/٣٧٤.

الوحي عنّي فترة فبينا أنا أمشي إذْ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعدٌ على كرسيّ بين السماء والأرض، فَفَرِقت منه حتى هَويتُ الى الأرض، فجئت أهلي فقلت دثّروني، فانزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربَّك فكبّر وثيابك فطهّر والرجز فاهجر﴾[1] ثم حَميَ الوحي وتتابع [2] وفي رواية: أنه لما فتر الوحي عنه قالت قريش قلاه ربُّه فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى وللآخرة خَيْر لك من الأولى﴾[3].

الأمر بالتبليغ:

وهكذا فقد جاءه ﷺ الأمر هذه المرة بَيّناً واضحاً بأن يهجر الرُّجز وهي الأوثان. وبأن ينذر قومه من عذاب الله ويخوّفهم من سوء العاقبة إن هم تابعوا سيرتهم في الكفر والضلال. ولذلك فقد ورد أنه ﷺ عقب هذا الأمر، شمّر عن ساق الجد، وقام يسعى في طاعة الله أتم قيام. يدعو الى الله الكبيرَ والصغير والحرّ والعبد والرجال والنساء والقريب والبعيد والأسود والأحمر.

الاسلام والكفاية والعلم:

ومن أول يوم بعث فيه ﷺ انطلق الى الناس يحمل رسالة ربه، رسالة العلم والنور والحق المبين لأنه كان من أول ما أنزل عليه قوله تعالى ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾. كان فيه حض للانسان على القراءة. وهي احدى وسائل المعرفة والعلم الهامة، كما كان فيه حض له وللانسان عامة على الكتابة وتعلّمها وتوجيه ضمني له

---

(١) المدثر ١ ـ ٥.

(٢) حدائق الانوار لابن الرَّبيع القسم الاول ص ٢٩٨ وتفسير الطبري الجزء العاشر ص ٩٠.

(٣) خاتم النبيين ٢٧٣/١ ـ الضحى ١ ـ ٤.

الى ما فيها من فضل. فالعلم صيد والكتابة قيده. وبالقلم كانت الكتابة. وبالكتابة كان من المنافع ما لا يحيط بنعمها وإفضالها إلا الله. وحسبها أنها بها دونت العلوم وقيدت المعارف والحكم، وضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم وسجلت كتب الله المنزلة. وهي التي بها استقامت أمور الدين والدنيا وصلح عليه أمر الأولى والآخرة.

الوثنية عبودية والاسلام حرّيّة:

والرسالة التي تقوم على العلم والحق من منطلق الحض على القراءة والكتابة وتستضيء بنورهما لا ترتضي أن تستنيم الى ظلام الوثنية، ولا أن تلتقي مع عبادة الأصنام وتقديس النصب والازلام وتعظيم العِرافة والكِهانة في شكل من الأشكال، لأنها لا تلتقي مع الجهالة والهوى ولا تتوافق مع الباطل والفساد.

والاسلام الذي يرفض عبودية الإنسان للأصنام وأيّة سخرة تكون لإنسان أو لكائنٍ في الكون اللهم إلا الله الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، هو دين يحفظ للإنسان حريته الفكرية ويصون له كرامته الشخصية.

ومفهوم الاسلام في هذا هو الوصول الى تحرير الوجدان البشري من عبادة أحد غير الله الذي يحيي ويميت، ويضر وينفع ويرزق من في الأرض ومن في السماء، لأنه لا جدوى ترتجى من عبادة سواه. ولأنه ليس من أحد في ملكوت السماوات والأرض يستحقها دونه.

وإذا اكتسب المسلم هذا المفهوم حُقَّ له من بعد، أن ينظر الى الناس من موقع المساواة، وحرّم على نفسه اتخاذ أيّ منهم ربّاً من دون الله أو أن يقرّ له عليه من فضل أو آمتياز إلاّ فضل وآمتياز العمل الصالح والتقوى. وما أروع قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بَيْنَنَا وبينكم ألاّ نَعبدُ إلا الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتَّخِذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يا

(١) آل عمران ٦٤.

أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1].

على أن الإنسان الذي تحرّر وجدانه من الخضوع بالعبادة لأيٍّ كان إلا لله الواحد القهّار، جدير به أن يستوثق من شعوره الفياض بأنه متين الاتّصال بربّه. ولا ريب أن هذا الشعور يضفي على قلبه كثيراً من الأمن ويساعده على أن يكون عظيم الطمأنينة على نفسه، ورزقه وولده وكل ما يتّصل بحياته الخاصة والعامة.

ومن أجل هذا وجّه الاسلام الأمر للمسلم بأن يستمسك بحرّيته الفكرية ويصون كرامته الشخصية، وأن ينشيء ذاته على معنى الآعتزاز بالحق والتظلل بقيمه من خلال إيمانه بالله، وبأنه هو وحده الخالق البارىء المصوّر المحيي المميت. وأنه هو وحده المالك لنواصي العباد، ويستوي أمامه كل الناس أميرهم وسوقتهم غنيّهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم، ولا يبرز تفاضلهم لديه إلا بالتقوى والعمل الصالح. يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أغَيْرَ الله أتَّخِذُ وَلِياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَم ﴾[2] ويقول: ﴿قل من يرزقكم في السماء والأرض؟ أمَّن يملك السّمع والأبصار؟ ومن يُخْرج الحيّ من الميت؟ ويخرج الميت من الحيّ؟ ومَنْ يدبّر الأمر؟ فسيقولون الله ﴾[3]. ويقول: ﴿ قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك مِمَّنْ تشاء وتُعِزّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بِيَدِك الخير إنّك على كل شيء قدير ﴾[4].

وهنا نشعر ولا شك بأننا غدونا ندرك إدراكاً صحيحاً، لماذا كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي في أرجح الروايات قوله تعالى: ﴿إقرأ بِآسْم ربّك الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسان من علق، إقرأ وربّك الأكرمُ الذي علّمَ بالقلم

---

(١) الحجرات ١٣.
(٢) الانعام ١٤.
(٣) يونس ٣١.
(٤) آل عمران ٢٦.

علّم الانسان ما لم يعلم﴾[1]. علماً بأن هذه الآيات بكل مضامينها مفاهيم جديدة على المجتمع العربي الجاهلي، ففيها القول بالإله الواحد، الخالق الأكرم الذي علّم الإنسان بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم.

ولسنا بهذا القول نريد أن نقرّر انحجاب ضياء الفكر عن الوثني أصلاً وفرعاً، ولا أن نسلخ منه مشاعر الكرامة وأحاسيسها ونوازع الحريّة الفكرية أساساً؛ فالواقع يرفض ذلك إن كان، وكذلك معايش الناس ومجتمعاتهم في القديم والحديث.

ولكننا نريد أن نثبت أن طريق الوثنية هو في الغالب، طريق محفوف بالظلام، ظلام العقائد الفاسدة والأحاجي والأساطير. ومغروس بمبرّرات الاسترخاء لعبودية الانسان لأخيه الإنسان ولما هو أدنى من الإنسان... وفي هذا ما فيه من فساد وبطلان. وفيه ما فيه من حجب ضياء الحق ونور الهداية عن بصائر الناس، وفيه ما فيه من دفع الإنسان ومجتمعه للاستئناس بكل ما يؤخره ويَشُدُّهُ إلى الهوان والخذلان ويأبى عليه التطلّع الى البحث عن عوامل التقدّم والتطوّر في مجالات العلم وساحات التمدن والتحضر والعمران.

تسفيهه ﷺ لأحلام العرب وعبادتهم:

بهذا المفهوم، ومن هذا المنطلق التعبّدي والإيماني وتنفيذاً لأمره تعالى، تحرك رسول الله ﷺ في قومه يدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبيّن لهم بالمنطق والبرهان السديد فساد عقيدتهم وسفاهة عقولهم، ويعيب عليهم ما هم عليه من أوضاع متخلّفة وأعراف تُسقط مكانتهم الاجتماعية والإنسانية، وتحول دون تقديرهم الصحيح لله العلي القدير.

وقد صدع بأمره تعالى يكشف الغشاوة عن أبصارهم ليروا الحقيقة كما هي

---

(١) العلق ١ - ٦.

فأبرز لهم بالأسلوب البيّن الرائع جلال الله وسعة قدرته وعظيم صنعه في آيات كثيرة باهرة من كتاب الله نسوق منها قوله تعالى: ﴿قُلْ الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين ٱصْطفى. ءآلله خيرٌ أمّا يشركون؟ أمّنْ خَلَق السموات، والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بَهْجةٍ ما كان لكم أن تُنْبتوا شَجَرَها. أإله مع الله؟ بل هم قومٌ يعدلون. أمّن جَعَلَ الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهارها، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرَيْن حاجزاً، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون. أمّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاءَ الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون. أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بُشراً بين يديْ رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قُلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله وما يشعرون أيّان يُبْعثون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إنّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم ٱستوى على العرش يُدَبّر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه. ذلكم الله ربكم فاعبدوه. أفَلا تذكّرون. اليه مرجعكم جميعاً وعْدَ الله حقاً. إنه يبدؤ الخلق ثم يُعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون. هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾[2] وقوله: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة. وله الحكم وإليه ترجعون. قُلْ أرَأَيْتم إن جَعَلَ الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء. أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفَلا تبصرون﴾[3].

---

(١) النمل ٥٩ ـ ٦٥.
(٢) يونس ٣ ـ ٥.
(٣) القصص ٧٢ ـ ٧٣.

وهذه الآيات وغيرها كثير ومنتشر في كتاب الله تعالى نزلت على رسوله الكريم ليكاشف بها قومه والناس أجمعين، وليريهم الحقائق في الأرض والسماء، وأنفسهم وكل كائن، ليعلموا أن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله على كل شيء قدير. يقول الله تعالى: ﴿ذلك بأن الله يُولج اللّيل في النهار ويولج النهار في اللّيل، وأن الله سميع بصير. ذلك بأن الله هو الحق وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي القدير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرّة إن الله لطيف خبير له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغنيّ الحميد ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويُمْسِك السماء أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يُحييكم إن الإنسان لكفور﴾ [1].

وها نحن أولاء نراه ينقل لنا وصف اللهَ تعالى لعبادتهم وتهكّمه بها وإخباره عنها بأنها عبادة ضائعة لأنها موجهة الى أوثان. وهي إفك وبهتان قد فقدت كل وسائل القدرة وعجزت عن كل شيء؛ فهي لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا عطاءً ولا رزقاً. وكان الأولى بهم عبادة من أخذ بنواصي كل الأشياء وأن يشكروه ويتّقوه يقول الله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفْكاً. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فٱبتَغُوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [2] ويقول: ﴿وٱتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضِراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ [3].

ويتابع القرآن الكريم رسم موقف الاسلام وإعلانه على لسان النبي ﷺ، من آلهة القوم، وذلك باستعراض مواقفه من آلهة من سبقوهم وكانوا في مثل ضلالهم

(١) الحج ٦٠ - ٦٦.
(٢) العنكبوت ١٧.
(٣) الفرقان ٣.

فيقول على لسان نوح عليه السلام متهكماً ومستهزئاً: ﴿قال نوحٌ ربِّ إنهم عَصَوْني واتبعوا من يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كبّاراً. وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً﴾[1] ويقول على لسان ابراهيم: ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إنّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾[2]. ويقول: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ربِّ إنهُنّ أضْلَلْن كثيراً من الناس﴾[3].

الهوى علة هذا الضلال وكل ضلال:

ويواجه القوم بمثل هذا على مدى ثلاثة عشر عاماً، ويعلل لهم انحرافهم عن الحق المبين، أنه بفعل انجرافهم مع الهوى وأخذهم بمبدأ اتباع الظن فيقول ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومَنَاة الثالثة الأخرى ألكُم الذكر وله الأُنثى؟ تلك إذاً قسمةٌ ضيزىٰ. إن هي إلا أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتّبعون إلا الظنّ وما تهْوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهُدى﴾[4] ويقول ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فَمَنْ يَهْديه مِنْ بَعْدِ الله أفَلاَ تذكّرون﴾[5] ويقول: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾[6].

الانذار بسوء المصير:

ولم يكتف النبي ﷺ بأمر الله ووحيه بأن يسفّه أحلام قريش ومن حولهم من

---

(١) نوح ٢١ - ٢٤.
(٢) الانعام ٧٢.
(٣) ابراهيم ٣٥ - ٣٦.
(٤) النجم ١٩ - ٢٣.
(٥) الجاثية ٢٣.
(٦) الفرقان ٤٣ - ٤٤.

الأعراب الوثنيين، ويحكم بضلال عبادتهم، بل كان يذهب إلى أبعد من هذا فينذرهم في حال الاستمرار على عبادتهم الخرقاء بأسوأ الخاتمة وأذل المصير. فيقول ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنّم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾[1].

وهكذا فقد جرّد على الأصنام والأوثان والوثنية ومن انجرفوا في وحلتها وحمأتها حملةً قوية، جازماً بأنهم قد عميت قلوبهم وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل. وقد سانده فيها أصحابه المؤمنون بشجاعة وثبات لا تأخذهم في ذلك رأفة ولا يساورهم تردّد ولا يخيفهم تهديد أو وعيد ولا تعذيب أو تنكيل ولا يثنيهم حبس أو تهجير ولا حرب أو تقتيل؛ فقد كان مبدؤهم الدعوة الى الحق، ووسيلتهم الحكمة والصبر وأن يدفعوا بالتي هي أحسن..

دروس في ذلك:

ولقد كان يتخلل الدعوة والتصدي لباطل المشركين أمثلة وأخبار للرسل السابقين كان يسوقها الله تعالى للرسول ﷺ ليقتبس منها مع أصحابه العبر والدروس في الصبر والثبات والجرأة في الحق وحسن التصرف وجمال المدخل والمخرج. ولقد كان من ذلك قصص آدم ونوح وموسى ولوط وعيسى ويعقوب ويوسف، وكان منهم ابراهيم عليه السلام بالذات الذي كان له مع الوثنية والوثنيين حجاج ومواقف، فلفت النظر الى بعضها وكانت له فيها الحجة البالغة والمحاورة الحكيمة الرائعة يقول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهُنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدَنّ أصنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً

---

(١) الانبياء ٩٨ - ١٠٠.

لهم لعلّهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم: قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[1].

ولقد لفت الأنظار أيضاً الى أسلوبه الحكيم في معالجته أباه الذي يحبه ويحرص على رضاه. لقد كان يجده في ضلاله المبين، فرغب في إنقاذه منه، فلما لم يستجب حاول التوفيق بين حبه له وحبه لله، وحرصه على هداه وحرصه على رضوان الله وتعزيز كلماته. وهو يعلم أن روابط العقيدة أسمى وأعلى وأقوى من روابط النسب؛ بل وتتخطّى مشاعر اللياقة والحب، لأنه لا لياقة ولا حب مع الفساد والباطل. بل اللياقة كلها والحب كله في أن تزلف الى من آنحرف عن الهدى وآستكان للجهالة، وتكشف له ما هو فيه من خطل وغي لتردّه عنه وتبدله به ضياء الحق ونوره المبين يقول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً. إذْ قال لأبيه يا أبت لم تَعْبُدْ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت قدجاءني من العلم ما لم يأتِك فآتبعني أَهْدِك صراطاً سوياً يا أبتِ لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمٰن عصيا يا أبت إني أخاف أنْ يمسّك عذاب من الرحمٰن فتكون للشيطان وليا. قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئِنْ لم تنته لأرجمنّك وآهجرْني مليّاً. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً﴾[2].

ويسرد علينا رب العالمين محاورة إبراهيم مع قومه مبيّناً لنا الحجة البالغة التي آتاه أياها فيقول: ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماًآلهة إني أراك وقومك في

---

(١) الانبياء ٥١ ـ ٦٧.

(٢) مريم ٤١ ـ ٤٧.

ضلال مبين. وكذلك نري ابراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من المؤمنين فلمّا جنّ عليه اللّيل رءا كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين. فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجّه قومه قال أتحاجونيّ في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون. وتلك حجتنا أتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾[1].

ولقد كان يسرد أخبار وقصص السابقين من الأنبياء والرسل، ثم يتجه الى أنصار الاسلام واتباعه المؤمنين فيرشدهم الى الاقتداء بهم وبالذين آمنوا معهم والاستهداء بمواقفهم الرائعة التي وقفوها مع أقوامهم المشركين. وفي ابراهيم بالذات وقومه المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين آمنوا معه إذْ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده..﴾[2].

في الوثنية استساغة للأوهام والتبعية لكل مجهول:

وفضلاً عن أن الوثنية باطل يفترى على الحق ويرَوّج الكذب، فهي أيضاً تدفع بفكر الإنسان لاستساغة التبعيّة لكل مجهول وغامض، واستمراء الأوهام والظنون

---

(١) الانعام ٧٣ - ٨٣.

(٢) الممتحنة ٤.

والخضوع لألاعيب المهرّجين من الكهّان والمنجّمين والسحرة وحيلهم ومكرهم؛ هؤلاء الذين طالما أضلوا الناس وآسترهبوهم وأذلّوا رقابهم وزيّنوا لهم الباطل وموّهوا لهم الحقائق. بل إنها لتزيّن للإنسان القناعة بالضعف والاسترخاء للعبودية. سواء لما هو متمثل بالنار، كما كان حال المجوس أو للشمس والنجوم، كما كان شأن المصريين وغيرهم، أو للشجر والحيوان والخشب والمعدن والحجارة، كما كان حال العرب وبعض المصريين وسواهم... وكلها عند إنعام النظر ضعيفة عاجزة اذا ما قورنت بما أوتيه الإنسان نفسه بفضل الله وتوفيقه من قدرة وإمكانات.

والإنسان عندما يستغرق في عبوديته الجامحة لهذه الأشياء وأمثالها، يتخلّى عن بعض كرامته الإنسانية وحرّيته الفكرية. ويخسر الكثير من قدرته على التخلّص من عبودية الخوف على الحياة والرزق والمكانة والقيم الاجتماعية من الجاه والحسب والمال والنسب، ويعجز مع الزمن عن أن يشرف الأمانة التي تصدّى لحملها، أمانة مسؤولية إعمار الأرض واستصلاحها وتطوير المعاش واستنباط وسائل الابداع والقدرة لاكتشاف آيات الله في الآفاق وفي أعماق البحار وأجواف الأرض وأطراف الفضاء وفي أغوار النفس البشرية وأبدانها مما ييسّره الله للإنسان ويفتح به عليه استجابة لجدّه، ومطاوعة لآماله وحاجاته وطموحاته... وإلا فلماذا كانت مشيئة الله تعالى ليجعل من الإنسان خليفة في الأرض يرتفع في ملكوت الله ويسخّر ما يحلو له منه؟ أو لماذا كانت مشيئته الأزلية ليقبل هذا الإنسان تحمّل الأمانة التي عرضها الله تعالى على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أنْ يحملنها معه واشفقن منها، اذا لم يكن لينطلق بها الى مسار رفيع ومنهج سام نبيل في ضوء ما حباه الله من تشريع وهداه إليه من هدى ودين؟! أفليس الإنسان العاقل العالم المريد الفعّال المتحرك، هو الذي يصنع بيده الأصنام والأوثان الصغيرة وينحت منها من الجبال ما هو اضخم وأكبر؟ أوَ ليس باستطاعته أن يتصرف فيما حوله تعديلاً وتحويلاً وتقديماً وتأخيراً، وأن يقارب بين المتضادات، ويجانس بين المتنافرات، ويسخّر عناصر الكون فيفعل بها الغرائب والعجائب والمدهشات؟! ألم

يوطىء العقبات ويذلل الصعاب ويجعل شبه المستحيل ممكناً ومطـواعـاً ، فيشـق الطرق والشعاب في أعالي الجبـال وإليهـا ، وفي أغـوار الوديـان وإليهـا ، وأعماق البحار ، ويُدني أطراف الدنيا وأقاصيها بعضها من بعض؟! ويعلي الشاهق من البنيان، ويركب متن الهواء وأمواج البحر ، ويغوص في أغواره، ويسخّر بطون الأرض لمنفعته ويجعلها في خدمة مصالحه ومقاصده؟!

إن بإمكان المرء أن يصل الى مثل هذا لو ظل مستسلماً لعبوديته الى الحجر الأصم أو الحيوان الأعجم والكائن الضعيف. وقد وصل الى أكثر من ذلك كما نرى في العالم الشرقي وأمثالهم، ولكنه وصل وهو بعيد عن كثير من القيم الدينية المتوفرة لدى من عمرت قلوبهم الوحدانية ، بفضل ما يتمتع به من طاقات شخصية عظيمة. ولو اجتمعت لديه مع هذه الطاقات العجيبة التي يمتاز بها ، تلك المفاهيم والقيم الروحية السامية لأعطى الأكثر ولفاز بما هو أهم وأعظم.

فلقد آتبع الإنسان العربي في الماضي الجاهلي هواه، وخضع لأوهامه وخطرات نفسه ومغريات أهوائه فضلّ كما ضلّ الإنسان بسبب ذلك في كل مكان، وغاص في جهالات طائشة حمقاء رَدَحاً طويلاً من الزمن ، الى أن جاءه صوت الحق يجلجل في أذنيه وقلبه ويوقظه من غفلته ، أو يبعثه من موته ويردّه الى صوابه ورشـاده والى نظرته السليمة التي فطره الله عليها وينبهه الى ضرر الهوى وخطر اتباعه ويهيب به الى أن لا يسترخي له لأن مثله سيكون حينذاك كمثل الأنعام الشاردة التي لا تهتدي الى حق، ولا تستقيم على خط فيقول سبحانه : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[1].

لا هوادة مع الوثنية:

لهذا كله أعلن الرسول ﷺ باسم الاسلام الذي حمله الى الناس جميعاً ، حرباً

---

(١) الفرقان ٤٣.

على الوثنية وعلى الشرك وكل مضامينها ومظاهرها لا هوادة فيها ، وواجه رجالها الأشداء وجبابرتها بموقفه الشديد الحازم الذي لا لين فيه ولا مساهلة ، والذي لا يخاف معه في الله لومة لائم . ولِمَ لا ؟ وربّه الآخذ بناصيته يأمره بوحيه المبين فيقول ﴿يـا أيها النبيّ جـاهـد الكفـار والمنـافقين واغلـظ عليهم ومأواهـم جهنم وبئس المصير﴾[1] .

أمثلة من مواقفه ﷺ :

وقد شهدت سيرة النبي ﷺ مواقف رائعة في هذا السبيل ننقل بعضها على سبيل المثال لا الحصر ؛ فقد مشى زعماء قريش يوماً الى أبي طالب عم النبي ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهد فتى في قريش وأجملهم ،وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً فأبى .ثم ذهبوا إليه مرة ثانية وقالوا له : « إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد آستنهيناك من آبن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك الله أحد الفريقين » .

ولما بعث أبو طالب الى رسول الله ﷺ يقصّ عليه خبر رسالة قريش وأرفد ذلك يقول: « فأبق عليّ وعلى نفسك لا تحمِّلْني من الأمر مالا أطيق » قال له رسول الله ﷺ : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » .

ويروي ابن كثير في كتابه السيرة النبوية ، أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ ، فَضُربت عليهم قبة في المسجد ، واكرم الرسوم وفادتهم اكراماً عظيماً وطلب إليهم أن يسلموا ، فأعلنوا إسلامهم ولكن في بقيّة من جاهلية إذْ اشترطوا عليه أن يَدَعَ لهم الطاغية « اللات » ثلاث سنين . فرفض . فطلبوا إليه أن يدعها سنتين،

---

(١) التحريم ٩ .

فرفض. فطلبوا إليه أن يدعها سنة واحدة.فأبى. فما برحوا يسألونه ذلك حتى سألوه أن يدعها لهم شهراً واحداً بعد مَقْدَمِهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى أن يدعها شيئاً مسمًّى. فسألوه عند ذلك أن يعفيهم من أن يكسروها ويكسروا أصنامهم بأيديهم فأجابهم أن طلبهم هذا. وأرسل اليهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان ابن حرب ليهدماها..

وقد ورد في حواره معهم في هذا الأمر أنهم قالوا له: «ما أنت صانع بالرَّبَّة أي «اللات» فقال: «اهدموها» فقالوا هيهات!! لو تعلم الربّة أنك تريد هدمها قتلت أهلها. فقال عمر بن الخطاب لأحد زعمائهم وهو ابن عبد ياليل: «ويْحَك ما أجهلك؟! إنّما الربّة حجر!! فقالوا: «إنا لم نأتك يا ابن الخطاب»..

وقد روي أنهم طلبوا اليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه» وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالزنى لأنهم كثيرو الاغتراب ولا بدّ لهم منه فرفض ذلك وقال لهم: «ان الزنى حرام».والله تعالى يقول: ﴿ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[1] وطلبوا إليه أن يأذن لهم بالتعامل بالربا فأبى وقال: «لكم رؤوس أموالكم» والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾[2]. وسألوه أن يجيز لهم شرب الخمر لأنها عصير أرضهم.ولا بدّ لهم منها.فقال ﷺ «إن الله حرّمها».وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون﴾[3].

لقد حارب الرسول ﷺ الوثنية بحزم ولم يتراخ معها أبداً، لأن الإيمان كل لا يتجزأ. والإنسان إما أن يؤمن وإما ألا يؤمن. فإن آمن فقد فاز بطمأنينة الإيمان

---

(١) الاسراء ٣٢.

(٢) البقرة ٢٧٨.

(٣) المائدة ٩٠ راجع هذه الواقعة في السيرة لابن كثير ٥٣/٤

وبرد اليقين. وإن كفر فقد رجع بخزي الدنيا والآخرة. وإن لم يؤمن ولم يكفر فقد وقع في الشك والتردّد والارتياب. وإذا كان الإيمان والكفر لا يلتقيان، فكذلك الإيمان والشك لا يمكن أن ينطوي عليهما معاً قلب إنسان والله تعالى يقول: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1].

ولم يكن هم الرسول ﷺ مقتصراً على مجابهة شعارات الوثنية ورموزها ومعالمها البارزة، بل كان يتسع لاقتلاع أصولها ومفاهيمها ودلالاتها وكل بادرة تحمل معانيها حتى يضمن سلامة عقيدة أتباعه من كل انحراف عن خط الوحدانية الواضح.

أثر التوجيه النبوي في نفوس الصحابة:

ولقد نشأ أتباعه على ذلك نصحاً وتعليماً وتربية، فانقطعت صلتهم بالمشركين وشركهم ونواديهم ومعاملاتهم المشتبهة. واحبوا الله ورسوله ومحّضوهما الإخلاص اقتداءً برسولهم العظيم الذي أمره الله تعالى بقوله: ﴿قل إني أُمِـرْتُ أنْ أَعْبُـدَ الله مخلصاً له الدين وأُمِرْت لأن أكون أول المسلمين، قل إني أخاف إن عَصَيْت ربي عذابَ يوم عظيم. قُلْ اللهَ اعْبُدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه. قل إن الخاسرين الذين خسروا أَنْفُسهم وأهليهم يـوم القيـامـة ألا ذلـك هـو الخسران المبين﴾[2].

ولقد أفردوا الله تعالى بالعبودية له. ونزهوه عما لا يليق. ولم يوالوا أعداءه المحاربين له تبعاً لأمر الله الوارد في كتابه الكريم: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدّون من حآد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله

---

(١) الكهف ٢٩.

(٢) الزمر ١٠ ـ ١٥.

ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[1].

ولقد كان حبهم لله ولرسوله فوق كل حب، حتى أنه قد ورد عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري أنه قال يوماً لرسول الله: «يا رسول الله إذا متَّ ومتْنا وكنت في علّيين لا نراك ولا نجتمع بك. وذكر حزنه على ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[2] فلما مات النبي ﷺ قال: «اللهم أعمني حتى لا أرى شيئاً بعده فعمي مكانه»[3]. ومثل هذا الخبر كثير. فقد أقبلوا رضوان الله عليهم على الله وعلى الرسول بكل قلوبهم لا يصرفهم عنهما شيء من الدنيا مهما كان مغرياً أو حبيباً. ولذلك أقبل الله عليهم ونصرهم ووفقهم وفتح لهم كل أبواب الخير... كان هرم بن حيّان يقول: «ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله عليه بقلوب أهل الايمان حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

وقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام، فقال: «إني أحب فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» والعكس إذا أبغض الله عبداً من العباد.

ولا عجب فإن مرتبة الإيمان المصفّى من كل دَخَل، والمنقّى من كل لَوْثة، هي المرتبة التي يفوز بها المؤمن الصالح، بالنجاة من لعبة الشيطان ولَمّته التي ذكرها الرسول ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لابن آدم لَمّتان لَمةٌ من الملك ولَمّةٌ من الشيطان»[4] وهي الخطرة تقع في القلب. فما كان من خطرات الخير فهو

---

(١) المجادلة ٢٢.

(٢) النساء ٧٠.

(٣) القرطبي الجزء الخامس ٢٧١.

(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ٤/٢٧٣.

من الملك. وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. وإنه لما تمرّد أبليس على أمر ربّه له بالسجود لآدم، وطرده الله تعالى من ملكوت السموات، طلب أبليس أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره وأمهله. فلما استوثق من ذلك أعلن جازماً أنه سيطارد ابن آدم في كل مكان وفي كل شكل حتى يغويه ويضلّه، وأقسم أنه لن يدعه ينجو من أحابيله وإغراءاته. ولكنه عاد فاستثنى من ذلك المخلصين من عباد الله المؤمنين. ولقد نقل الله تعالى لنا هذا الحوار الذي جرى وفيه: ﴿قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمَإٍ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة الى يوم الدين. قال ربّ فانظرني الى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم. قال رب بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من آتّبعك من الغاوين وإن جهنّم لموعِدُهُم أجمعين﴾[1].

وساعة يفوت الإنسان المؤمن أن يكون في مرتبة الإيمان الخالص، يهوي ولا ريب، الى حضيض النفاق الذي يفقد معه خصلة الإيمان وجدارة الاكرام والحفظ الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» وقوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا وآعتصموا بالله وأخلصوا دِينهم فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾[2].

مظاهر الشرك الخفي:

ولقد حرص الرسول ﷺ على أن يكون اتباعه المؤمنين بريئين من كل شرك مهما كان لونه ونوعه حتى أنه حذرهم من الاهتمام بالدرهم والدينار والأشياء

---

(١) الحجر ٣٢ - ٤٣.
(٢) النساء ١٤٥ - ١٤٦.

الدنيوية اهتماماً ينسيهم الله ويظهرهم كأنهم تعبدوا لها. فقال فيما رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه «تَعِس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وآنتكس، وإذا شيك فلا آنتقش [أي إذا أصابته شوكة فلا تخرج] إنْ أُعطِي رضي وإن مُنع سَخِط» لأنه ربط بها آماله وعقد عليها أمانيّه، وجعل دنياه كلها موقوفة على ما يكون له منها، فإن عظمت عظمت في نظره الحياة وإن ضؤلت اسودّت في عينيه الدنيا. وكل هذا ثمرة أمر الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾[١]. وقوله: ﴿يـا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فآحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾[٢].

ولذلك فقد شجعهم بأن يعلقوا آمالهم وأمانيهم عند آيات الله ويجعلوا حبهم له ولرسوله فوق كل حب، وأن يجعلوا حبّهم للناس حبًّا لله وفي الله، خالصاً من أي تفكير بمغنم يحصلونه، وأن يجعلوا كرههم لهم كرهاً لله وفي الله لا لمصلحة شخصية أو معاناة اجتماعية. يقول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عـن أنس رضي الله عنـه: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان من يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبّه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

اسلوب الرسول ﷺ مع الوثنيين:

ولقد انتهج الرسول ﷺ مع الوثنيين والمشركين عامة وغيرهم أوضح المسالك وأيسرها، ليصرفهم عما هم فيه من جهالة وضلال وليردّهم الى الحق ويهديهم سُنَنَ الذين آتقوا وأخـلصوا لله متوسلاً بالحكمة والمرونة واللين وكل صنائـع التحبّـب

---

(١) المنافقون ٩.

(٢) التغابن ١٣ ـ ١٤.

ليحسّن لهم تقبل الحق والهدى، والانتهاء عن الباطل والشر، مستفيداً من إرشاد الله له وتوجيهه بما كان يوحيه إليه من أخبار من سبقه من الأنبياء والمرسلين. كقوله تعالى آمراً سيدنا موسى وأخاه هرون عندما أوفدهما الى فرعون ليذكراه بالحق ويدعواه الى الهدى: ﴿إذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾[1] وقوله ﴿أدعُ الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[2].

ولقد كان لمنهجه هذا مع المشركين أكبر الفضل وأعظم الأثر في آتّباعه وقبول دعوته وترك ما هم عليه من عقائد الآباء والأجداد. روى البخاري عن خباب بن الارتّ أنه قال: «أتيت النبيَّ ﷺ وهو متوسّد ببردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت ألا تدعو الله؟! فقعد وهو محمرّ الوجه فقال: «قد كان من قَبْلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن ذلك. وَلَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضر موت ما يخاف إلا الله عز وجل ولكنكم تستعجلون».

ولقد كان أصحابه يشكون كثيراً من مضايقة المشركين وتعذيبهم، فكان يرقّ لهم ويتلطف معهم ويقص عليهم من خبر الأولين ما يشجعهم ويثبّت قلوبهم ويعلي هممهم. كما كان يسمع لهمومهم وأحزانهم وهي تطرح عليه قصصاً وأحداثاً، ويصغي لأنينهم المُمِضّ وألمهم المضني، ثم يحضهم على الصبر ويبشرهم برضوان الله وجناته. بل كثيراً ما كان يقع عليه من ذلك أمثال مرهقة ومؤلمة. فقد تفل ابن عمه أبي لهب في وجهه ذات مرة، وكاد عقبة ابن أبي معيط يخنقه بثوبه، ورمى أبو جهل عليه فرث الجذور وهو يصلي. وكان ﷺ يقابل كل ذلك بالصبر والتحمل اللذين كان يوصى بهما أصحابه.

---

(١) طه ٤٣ - ٤٤.

(٢) النحل ١٢٥.

وكان صبر الرسول ﷺ وتحمله مع محاسنته لقومه، وثباته على منهجه الرقيق اللطيف يتوسل به للدخول الى قلوب الناس هو الذي جعل دعوته تنتقل من نصر الى نصر، ومن موقف حسن الى موقف آخر أكثر حسناً. يزيد الناس له اكباراً ولدعوته اجلالاً واستحساناً.

ولقد حدث ابن اسحاق أن أبا جهل وقف ذات يوم في قريش يقول: «يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا. وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. فلما أصبح أبو جهل لعنه الله، أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ينتظره. فلما جاء رسول الله وقام يصلي، فلما سجد احتمل أبو جهل الحجر وأقبل عليه، فلما دنا منه، رجع منبهتاً منتقعاً لونه مرعوباً، وقذف الحجر من يده. فقام إليه رجال من قريش، فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحلٍ قط فهمّ أن يأكلني»[1].

وهذه القصة تكشف بعض ما كان يلاقيه الرسول من كفار قريش من تحد وأذى وعذاب، وما كان منه من تحمل وصبر..

ومثل هذه القصص والوقائع كانت تنتهي بسبب حسن موقف الرسول وحكمته ومرونته، إلى إسلام البعض وانقلابهم أعداء ألداء للوثنية والوثنيين.

اسلام حمزة:

وقد روى ابن اسحاق أيضاً فقال: «حدثني رجل من أسلم كان داعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكره من العيب

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤٣/٣.

لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك.. فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له. وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له. وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالبيت. وكان اذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وتحدّث معهم. وكان أعزّ فتى في قريش وأشد شكيمة. فلما مرّ بالمولاة [التي سمعت سب أبي جهل] قالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي آبن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام، وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة. فخرج يسعى ولم يقف على أحد، عامداً لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه فضربه بها فشجّه شجّة منكرة. ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فردّ ذلك علي إن استطعت. فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ »[1].

وقد ورد أن حمزة رضي الله عنه بعد أن قال ما قال عاد الى نفسه وساء لها ماذا فعلت؟ وكأنه فزع أن يكون قد التوى عن سبيل الحق وفَعَل ما يستحق الملامة عليه، واعترته حيرة مربكة فترة من الزمن ثم استقام له الأمر واهتدى الى ضياء الاسلام اهتداء صحيحاً.

وقد نقل ابن اسحاق والبيهقي مثله قال: بعد أن كان من حمزة ما كان: « أقبل على نفسه وقال ما صنعت، اللهم إن كان خيراً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فآجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً: فبات بليلةٍ لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: « يا آبن أخي إني قد وقعت في أمر

(١) سيرة ابن هشام ٢٩٢/١.

ولا أعرف المخرج منه. وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هـو، أرُشْـدٌ هـو أم غـي شديد. فحدثني حديثاً. فقد آشتهيت يا آبن أخـي أن تحدثني. فأقبل رسـول الله ﷺ فذكّره ووعظه وخوّفه وبشّره فألقى الله تعالى في قلبه الايمان بما قال رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك الصادق، فأظهر يا ابن أخي دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلّته السماء واني على ديني الأول. فكان حمزة ممن أعز به الدين»[1].

وكما كان لمنهج الرسول ﷺ من أثر طيب في قومه فقد كان مثل ذلك لِخُلُقه وسيرته فيهم، بل ومن بعد في الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه. وفي ذلك يقـول الله تبارك وتعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فآعْف عنهم وآستغفر لهم﴾[2]. ويقـول: ﴿لقـد جـاءكم رسـول مـن أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم﴾[3].

مخاطبة العقل وعدم اعتماد الخوارق والمعجزات:

وقد كان آعتماده بعد الله، في منهجه الحكيم هذا على العقل يستنهضه ويحاوره ويبصّره ويبرزه له الأدلة والآيات المقنعة. ويضرب له الأمثال ويعرض له الصـور الصادقة ويلفت نظره الى ما في السماوات والأفلاك والشمس والقمر والنجوم، والى الأرض وما عليها من الجبال والبحار والأنهار والأشجار والأثمار والنبات من كل صنف ولون وشكل موزون، والى الحيوان على اختلاف ما يكون منه مما يمشي على أربع أو يمشي على رجلين أو يمشي على بطنه، ومما يصل حجمه إلى أضعاف حجم الإنسان، أو يتضاءل حتى يصبح بحيث لا يرى بالعين المجرّدة.

ويكرر الإشارة الواضحة الى كل ذي علم الى وضع الأرض مقروناً بذكر الشمس والقمر والنجوم السابحة في الفضاء أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي

---

(١) البداية والنهاية ٧٣/٣.
(٢) آل عمران ١٥٩.
(٣) التوبة ١٢٨.

خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ مستنهضاً فيه رغبة البحث عنده ورغبة التأمل والدرس، ومثيراً لديه كل موجبات التساؤل بحثاً عن الحقيقة الكونية في كل شيء.

بل إنه ليلفت نظره الى غير ذلك من الكائنات ممن خلق؛ من نار أو من نور، ويختلف عنه في الامكانات والأحوال بحيث يراه هو وقبيله من حيث هو لا يراه؛ ممن هو مطيع كل الطاعة لله ولا يسبقه بالقول وهم بأمره يعملون، أو ممن هو متمرّد على أمره خارج عن طاعته ويتردّى يوماً بعد يوم في الخسف والضلال المبين..

وكثيراً ما يستثير فضوله ويغريه بالتوجه الى ما تنطوي عليه تلك المخلوقات من آيات ومدهشات تشهد بقدرة الله وتدل على عظمته وجلال صنعه وبخاصة الى ما ينطوي عليه خلقه هو بالذات؛ الذي بدأ من طين ثم تحول الى نطفة فعلقة فمضغة مخلّقة وغير مخلّقة حتى يخرج من رحم أمه إنساناً سوي الخلق والكيان. كل ذلك ليسوّغ له تقبّل الحقيقة ومجافاة الأباطيل والاستسلام العاقل لربّه الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى...

وهكذا ينبغي أن نقر بأن الله تعالى قد ارتضى الاسلام ديناً لعباده ليرسي فيهم دعائم الحق والخير والعدل ويرفع منائر القيم الصالحة ويعزز معالم المفاهيم الانسانية المثلى في نفوس الأفراد والجماعات. ولقد كان عقل الإنسان هو المرتجى الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لتخلية طريقه مما يعترضه من دعاوى الوثنية والالحاد وما تتوسل به من أفانين الاغراء والاغواء والاضلال.

حملة القرآن في هذا السبيل:

ولقد جرّد القرآن الكريم لهذا الغرض حملة مركّزة من التذكير والترغيب والترهيب والحوار البناء. ووضع بين يدي العقل الواعي الفهيم معلومات يقينيّة عن الخالق، وبداية الخلق، تساعده على تقبّل ارتباط بداية التكليف به، ومن ثم على

تحمل المسئولية أمام الله والمجتمع. وقديماً قيل: «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته أوليس الفجّار في النار يقولون: ﴿لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا من أصحاب السعير﴾[1]. وبعد أن أقام ابراهيم الحجة على قومه بأن آلهتهم لا تملك دفع الضرر عنها قال: ﴿أفَتَعْبُدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[2]. ولقد قال الحسن وقتادة وكذلك مجاهد وابن عباس والسدّى والثوري ان المراد من الرشد في قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنسْتُم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم﴾ هو هنا الصلاح في العقل والدين...»[3].

وما أكثر ما ود في القرآن من آيات تهتف بالعقل ليصحو ويؤدي دوره الحصيف. يقول الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾[1] ويقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحياء به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[5] ويقول: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[6].

ولو رجع القارىء إلى كتاب الله الكريم واستعرض الآيات التي هي في هذا

---

(١) الاحياء للغزالي الجزء الاول ص ١٤٢ ـ ١٤٣ والآية من سورة الملك آية ١٠

(٢) الانبياء ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) القرطبي ٣٧/٥.

(٤) الحج ٤٦.

(٥) البقرة ١٦٤

(٦) الرعد ٣ ـ ٤.

الباب، وما أكثرها، لوجد فيها ما يزيده يقيناً بهذا المعنى. بيد أنه ينبغي مع الاعتراف بفضل هذا العقل، الاقرار أيضاً بأنه هو مدار كرامة الإنسان وفضله وامتيازه على المخلوقات جميعها. وأنه هو الذي سوّغ له أن يكون خليفة في الأرض وحامل الأمانة التي أبت السماوات والأرض حملها وأن يكون صاحب السلطان على الأرض بفضل الله من دون الخلق طرّاً.

ومن أجل هذا عظمت مسئولية العقل البشرية وكان لا بد من إحاطته بكل التشريعات والاجراءات التي تحفظ له صفاءه وقوّته، وتبعد عنه كل ما قد يؤثر عليه تخديراً أو توهيماً، وتمنع عنه كل ما يحجب رؤيته السليمة ويقظته الواعية المستوعبة كالأساطير والايحاءات النفسية المخادعة والضارة وعبادة الأوثان وممارسة السحر والتنجيم وغير ذلك.

التفريق في الدعوة بين الإنسان والوثنية:

ومن منطلق تعظيم الاسلام للعقل وتقديره لدوره البناء لا بد هنا من التنبيه الى ما تحلّت به سيرته ﷺ لدى معاملته المشركين من تفريق بين إنسانيتهم ووثنيّتهم. فلقد جاء بأمر الله يحمل على الوثنية والشرك حملة شعواء لا هوادة فيها ولا مساهلة، فناوأها بكل الوسائل وعلى أية صورة بدت. ولكنه ظل يحفظ للإنسان المشرك قيمته الإنسانية ويأمل كل الأمل بأن يتمكن من مساعدتها فيه لإنجائها من خطر الشرك وبلائه العظيم. فقد ثبت في الصحيحين عن طريق عبد الله بن وهب أن عائشة رضي الله عنها حدّثته ﷺ فقال: «هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من أحد؟! قال ﷺ: «ما لقيت من قومك كان أشدّ منه يوم العقبة إذْ عَرَضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال. فلم يجبني الى ما أردت وانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بِقَرْن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت.

ثم ناداني ملك الجبال، فسلّم علي، ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال. وقد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت. إن شئت تُطبق عليهم الأَخْشَبَيْن!! فقال رسول الله ﷺ «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»[1].

وفي معركة بدر، حيث يحرز الاسلام لأول مرة في تاريخه المجيد، النصر على المشركين، تسنح الفرصة للنبي ﷺ لينتقم من المشركين بقتل اسراهم بعد التنكيل بهم والتشفي منهم انتقاماً لقتلى المسلمين على مرّ ثلاثة عشر عاماً، وثأراً للذين جرّدت عليهم طيلة هذه الفترة أسوأ حملات الكره والتصفية... ولكنه ﷺ يؤثر بعد أن تداول مع أصحابه في شأنهم ومصيرهم أن يقبل مفاداتهم ويرفض أن يضرب أعناقهم... ورغم أن الله تبارك وتعالى قد عاتبه فيما بعد على اختياره هذا بقوله: ﴿ما كان لنبيٍ أن يكون له أسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[2]. إلا أن هذا الاتجاه يمثل في الأصل ميله الوجداني ويُعبّر عن خاصة الرحمة التي خلقها الله تعالى فيه وجبله عليها..

وكذلك يوم الفتح، يوم دخل مكة منتصراً، ورجعت قريش بقضّها وقضيضها بخزي الدنيا، وجمع أهلها كلهم بين يديه في ساحة الحرم وسألهم: «ما تظنّون أني فاعل فيكم؟ فلما قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[3].. أفلا يعبّر هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ على عمق فكره وتمكنه من الفصل بين إنسانية هؤلاء المشركين وشركهم؟! أليس قوله لهم إذهبوا فأنتم الطلقاء، كان موجهاً الى اعدائه المشركين؟؟ وكيف يطلق سراحهم ويعفو

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١٥٢/٢ - ١٥٣.

(٢) الانفال ٦٧ - ٦٨.

(٣) حياة محمد هيكل ٤٢٦.

عنهم ويتركهم يسرحون ويمرحون وهم الذين عذبوه ونكلوا بأصحابه وهجرّوا الكثيرين منهم من أرض الآباء والاجداد وقتلوا بعضهم بغياً وظلماً ؟ كيف يتركهم وهم يحملون الوثنية ويجاهرون بالشرك؟؟

نعم إن الرسول ﷺ يعلم أن المشرك يحمل في قلبه الشرك الذي جاء هو ليمحو آثاره وينفي وجوده إن أمكنه ذلك من الأرض لأنه في الحقيقة أصل كل شر ومصدر كل فساد. ولكنه يعلم أيضاً أن المشرك إنسان من لحم ودم وفكر وإحساس قابل للتأثر ومستعدّ للتحوّل والتغيّر. خلافاً للشرك في ذاته فإنه مهما تقلبت الظروف يبقى شركاً أصيلاً لا يحتمل التبدل ولا التغيّر. والمشرك كإنسان هو من موقعه الإنساني عرضة دوماً للتطوّر والتقلّب بقدر ما يكون لديه من استعداد لرؤية ما حوله والتأثر به، فإذا كان الآن مشركاً فلا يبعد أن يصبح في الغد مؤمناً إذا ما تيسّرت له أسباب الإيمان. وإذا كان اليوم عدواً فلا يمتنع أن يصير فيما بعد صديقاً صحيحاً... وما سمي قلب الانسان قلباً إلا لتقلّبه، وما دام في الكون مؤثرات تفعل فعلها في قلب الإنسان فسيبقى هذا القلب قابلاً للتغيّر والتبدل.

ولولا هذه الحقيقة لما كانت دعوات الاصلاح في التاريخ ولما كانت الرسالات أصلاً، وهي تنشد الإصلاح والتطوير والتغير الى الأحسن والأفضل. وهذا هو القرآن الكريم يقول: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[1] وهو قول يحمل على فتح الباب على مصراعيه أمام المشرك ليسمع كلام الله، وليكون له من ذلك مدخل إلى حقيقته، فيدرك ما ينطوي عليه من الخير والنور والضياء، ويهوي اليه قلبه فيقبل به ويهتدي الى سبيل الله القويم.

إن تفريق الرسول ﷺ بين إنسانية المشركين وشركهم، وأمله الكبير بأن

---

(١) التوبة ٦.

يتمكن بفضل الله من انقاذهِم من الشرك، هو الذي حمله على أن يدعوهم إلى الإسلام وأن يصبر عليهم ثلاثة عشر عاماً من الدعوة والتوجيه، وأن يقابل ما كـان يراه منهم من صدود ونكال وقسوة بمزيد من الاقبال والسماحة والرحمة والسلام.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نرفض قول من يقول بأن الاسلام جاء لحض المسلمين على قتل المشركين كافة ومبادأتهم بالحرب والاستئصال لأنهم الخصوم والأعداء والله تعالى يقول: ﴿فإذا آنسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم وآحصروهم وآقعدوا لهم كل مرصد. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ (١).

والواقع أن هذه الآية وما سبقها نزلت في مشركي الجزيرة العربية الذين دخلوا مع الرسول ﷺ في عهود مؤقتة أو غير مؤقتة، والحكم الوارد فيها هو حكم خاص بهؤلاء ولا ينسحب على سواهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا «وهذه الآية هي التي يسمونها آية السيف. وآعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وقال بعضهم إنها تطلق على كلٍّ منها أو على كِلْتَيْهما. ويكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة أن آية كذا وآية كذا من آيات العفو والصفح والإعراض عن المشركين والجاهلين والمسألة وحسن المعاملة منسوخة بآية السيف. والصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولي في شيء. قال السيوطي في أقسام النسخ في الاتقان ما نصه: «الثالث» ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب كالأمر، حين الضعف وحين القلّة، بالصبر والصفح ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى: ﴿أونُنْسأها﴾. فالمنسأ هو الأمر بالقتال الى أن يقوى المسلمون. وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى. وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن

(١) التوبة ٦.

الآية في ذلك منسوخة بآية السيف. وليس كذلك. بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد، يجب آمتثاله في وقت ما لِعِلّة تقتضي ذلك الحكم. بل ينتقل بانتقال تلك العِلّة الى حكم آخر. وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز آمتثاله. وقال مكي؛ ذكر جماعة، ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فاعفوا وآصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل لا نسخ فيه أهـ.

« وقال بعضهم وعزاه الآلوسي الى الجمهور: إن الآية تدل بعمومها على جواز قتال الترك والحبشة كأنه قيل، فآقتلوا الكفار مطلقاً يعنون أنها ناسخة أو مخصّصة لحديث « اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود كما في الجامع الصغير. وفي فتح الباري أنه رواه من حديث معاوية، قال الحافظ: وكان هذا الحديث مشهوراً بين الصحابة.

وقتال المسلمين للترك ثابت في الصحيحين. وروى أبو داوود من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة الا ذو السويقتين من الحبشة » وقال العلماء إن هذا يكون قبيل قيام الساعة إذْ يبطل أمن الحرم... قال الخطابي إن الجمع في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وبين هذا الحديث يكون بأن الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيّد، ويجعل الحديث مخصّصاً لعموم الآية كما خصّ ذلك في حق المجوس فإنهم كفرة، ومع ذلك أخذ منهم الجزية لقوله ﷺ: « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »...

وأقول قد غفل هؤلاء الذين حاولوا الجمع بين الحديث والآية عن كون الآية في مشركي العرب الذين لا عهد لهم والذين نبذت عهودهم وضرب لهم موعد الأربعة الأشهر. والحبشة نصارى من أهل الكتاب. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ الآيات... ومن المجمع عليه التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب. والترك كانوا وثنيين عند نزول هذه الآيات كمشركي العرب ولكنهم لا يدخلون في عموم الآية. ثم إن الأمر بترك قتال الترك والحبشة جاء تحذيراً من بدئهم بالقتال، لما علم الرسول ﷺ أن خطراً على العرب وبلادهم سيقع منهم. والأمر بقتال مشركي العرب في هذه الآيات مبني على كونهم هم الذين بدأوا المسلمين ونكثوا عهودهم كما سيأتي قريباً في قوله: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة﴾ وعلى كون قتالهم كافة جزاءً بالمثل كما قال: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ فكيف يدخل وثنيوا الترك ونصارى الحبشة في عموم هؤلاء المشركين الموصوفين بما ذكر حتى يحتاج الى الجمع بين الآية والأحاديث المذكورة؟ ولا تأتي هنا قاعدة كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو ظاهر، لأن المراد بها أن اللفظ العام يتناول كل ما وضع له سواء وجد ما كان سبباً لوروده أو لم يوجد. ولفظ المشركين في هذه الآيات لم يوضع لأهل الكتاب المعروفين بالقطع ولا لأمثالهم كالمجوس مثلاً.»»[1].

وقال الامام فخر الدين الرازي بعد الشرح التفصيلي لهذه الآية وما تلاها «إن هذه الأوصاف مناسبة لفتح مكة، لأن الذي جرى في تلك الواقعة مشاكِلٌ لهذه الأحوال. ولهذا المعنى جاز أن يقال إن الآية واردة فيه»[2] ثم يؤكد هذا المعنى فيقول في شرح قوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3]... قال القاضي هذا النهي لا يمنع من أن يتبرّأ المرء من أبيه

(١) تفسير المنار ١٠/١٩٩ - ٢٠١.
(٢) تفسير الفخر الرازي ١٦/٥.
(٣) التوبة ٢٤.

في الدنيا كما لا يمنع من قضاء دين الكافر ومن استعماله في أعماله »[1].

ويقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين...﴾ عام في كل مشرك. لكن السنّة خصت منه »[2]. ثم قال في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾. فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد هي محكمة. أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم. ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم. وقال أبو جعفر النحاس وهذا أصح القولين في السنّة والنظر؛ فأما في السنّة فحدث ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه ٱمرأة مقتولة فكره ذلك.. ونهى عن قتل النساء والصبيان رواه الأئمة. وأما النظر فإن « فاعَلَ» لا يكون في الغالب إلا من ٱثنين كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء والصبيان ومن أشبههم كالرهبان والزمنى والشيوخ والاجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله الى الشام إلا أن يكون لهؤلاء إذاية. أخرجه مالك وغيره وللعلماء فيهم صور ست:

الأولى: النساء إن قاتلن قوتلن...

الثانية: الصبيان، لا يقتلون للنهي الثابت عن قتل الذرية ولأنه لا تكليف عليهم فإن قاتل قتل.

الثالثة: الرهبان لا يقتلون ولا يُسْترقّون. بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم.

الرابعة: الزمنى، إلاّ إن كانت فيهم إذاية فإنهم يقتلون.

الخامسة: الشيوخ.

السادسة: العسفاء وهم الأجراء والفلاحون، فالأصح في أقوال العلماء أنهم لا

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦/١٩.

(٢) القرطبي ٨/٧٢.

يقتلون وذلك لقول الرسول ﷺ : « إلْحَق بخالد بن الوليد فلا يقتلنّ ذرية ولا عسيفا ».

ولقول عمر بن الخطاب: « اتقوا الله في الذرّية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب... ».

ومن هذه الأقوال يفهم أن الأمر بقتال المشركين كافة هو أمر الى المسلمين الأولين بقتل المشركين العرب بعد أن يتموا إليهم عهدهم الذي حدّد لهم ميقاته في الكتاب، أو الذي حدّدوا هم ميقاته بالاتفاق معهم في ميثاق سابق على نزول هذه الآيات.. وان مشركي جزيرة العرب لم يعد أمامهم إلا أحد خيارين بعد انتهاء مدة العهد، أما الإسلام واما الحرب. وهذا الذي كان...

وحصر مشركي جزيرة العرب بهذين الخيارين يرجع إلى ما لهم من امتياز على المشركين كافة بكونهم سدنة اللغة، وفرسانها وبلغاؤها، ونزول القرآن الكريم بلغتهم مع هذه المهلة بعد ما لا يقل عن عشرين سنة، كاف لانكشاف الأمر لهم واتضاح حقيقة الدعوة واستجلاء أسرارها وغوامضها. ولئن لم تنفعهم هذه المرحلة الزمنية الطويلة لاكتساب القناعة ببطلان ما هم عليه وحقّيّة ما يُدْعَون إليه، فلن تجديهم مرحلة أخرى تعطى لهم مهما طالت، لأن معنى ذلك أن قلوبهم غلف، وأنه قد ختم عليها فهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يعقلون. ولن ينفع معهم بعدُ ألا أن يقابلوا بالسيف ويحملوا على الحق حملاً أو يقتلون دونه...

وهذا موقف خاص بهؤلاء. أما المشركون على الاطلاق، مشركو ذلك العصر الذين كانوا منتشرين في بلاد الله.. ومن سيكون بعدهم حتى تقوم الساعة فقتالهم مرهون بإقدامهم هم على قتال المسلمين، أو إيذائهم ومنعهم من القيام بواجب الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلا فهم أحرار. ومن حقهم أن يختاروا الدين والعقيدة التي يشاؤون لأن الله تعالى يقول: ﴿لا اكراه في الدين قد تبيّن

الرشد من الغي﴾[1]. ويقول: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[2].

على أنه ليس في موقف الاسلام هذا من مشركي العرب الذي عرضناه آنفاً ما يتعارض مع ما أردنا إبرازه من قبل من اهتمام الرسول ﷺ بإنسانية المشرك وتفريقه بينها وبين الشرك الذي يحمله. فقد أهتم الرسول ﷺ بهذا الجانب الإنساني كل الآهتمام وهيأ له كل الفرص المؤاتية ليستفيد منها ويخرج من شرنقة الكفر والإلحاد ومن القوقعة البهيمية التي يعيشها... ولم ينته إلى هذه الحاسمة إلا بعد أن وصل الى نقطة اليأس الذي لم يعد ينفع معه رجاء أو تصلح معه محاولة..

وعلى كل حال فإن هذا المنهج الحكيم سواء كان مع مشركي العرب أو مع المشركين كافة لا يغيّر من أمر المشرك شيئاً ما دام مصراً على إشراكه فحكمه واضح في نظر الاسلام لا يتغير ولا يتبدّل، كما أن حكم التعامل معه بصورة عامة يبقى هو هو كما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾[3].

وما أروع ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قدم الطُّفَيْل ابن عمرو على رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إن دَوْساً قد عَصَتْ وأبتْ فادع الله عليها فظن الناس أنه يدعو عليهم. فقال ﷺ: «اللهم اهْدِ دَوْساً وآتِ بهم»[4] وقوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: «مَثَلي ومَثَلكم

---

(١) البقرة ٢٥٦.

(٢) الكهف ٢٩.

(٣) الممتحنة ٩.

(٤) فتح الباري ١١/١٦٣.

كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يَذُبُّهُنَّ عنها. وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النار وأنتم تفلتون من يدي»[1].

تمييزه ﷺ بين حق الله وحقه الشخصي:

وكذلك فإنه ﷺ ظل يميّز بين حق الله وحقه أو بين ما يتصل بالدعوة وما يتصل بشخصه. وإن كان حقه أو ما يتصل به مرهوناً دوماً بما يحبّه الله ويرضاه. ولذلك فإنه لم يرَ غاضباً لنفسه قط، وإنما كان لا يغضب إلاّ الله. فقد روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً. فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا إن تُنْتَهَك حُرْمة الله»[2]. وروى مسلم عن عائشة أيضاً أنها قالت: «ما ضرب رسول ﷺ بيده شيئاً قط لا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا نِيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله»[3].

ولقد كانت عداوته موجهة في الأصل وأولاً وبالذات للوثنية وما تعبّر عنه، وللشرك وما ينطوي عليه من مفهوم. أما عداوته للمشرك فقد كانت عداوة قائمة ما دام المشرك ملتزماً بالشرك مستسلماً لمعتقداته ومفاهيمها الباطلة المفسدة متفاعلاً معها بحميّة وعنف. وعداوته مع ذلك تبقى دائرة مع الشرك وجوداً وعدماً، فهي قائمة ما دام المشرك متمسكاً بشركه، وهي قابلة للزوال وليتخلّى عنها حالما يتخلّى المشرك عن إشراكه وينسلخ منه.

---

(١) القرطبي ١٦٥/٢٠.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢٣٣/١.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٣٣/١.

من أخلاق المعلم القائد :

ولعمري ماذا يكون للموجه الديني أو للمعلم القائد من فضل على من يوجه أو يرشد إذا فقد امتيازات المعلم القائد التي منها قدرة استكشاف أعماق نفس من يخاطب أو يقود، ومحاولة الترفق به بعيداً عن الحساسيات الشخصية والاجتماعية العارضة، لالتماس النفاذ إلى قلبه والتمكن من إقناعه أو التأثير عليه بالبيان الشافي وبالقدوة الصالحة وبفضيلة السموّ عن الصغائر والترفع عن الدنايا ورحابة الخلق وسعة الصدر والاستعداد للتحمل.. فالدين ليس علماً يحفظ ومعارف تجمع وأخباراً تختزن. بل هو ممارسة تعاني. وتطبيق يكتسب. وعمل صالح يعاش، ينتفع به صاحبه، وينتفع به الناس من حوله...

وما لم يكن المعلم القائد مدركاً لمهمته حق الادراك مستوعباً لأبعادها وحدودها، مهيئاً كل التهيؤ للانسجام معها عطاءً وتضحية وصبراً وجلداً، فهو معلم مكتوب له الفشل ولمهمته الضياع والخسران.

ولقد أحاط الرسول ﷺ بفضل الله وعونه ورعايته بمبادىء رسالته وأهدافها وعرف أبعادها وأدرك ضخامة مسئوليتها.. وكان من قبل قد أعدّه الله تعالى خير اعداد لتكون له أبرز الخصال الحميدة وأرقاها. فكان سلوكه وتعامله مع الناس، والمشركون منهم، سلوكاً حكيماً.. ولقد صدع بأمر الله تعالى فدعا قومه بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وصبر على إساءاتهم وتحمل غلظتهم وقساوة قلوبهم. ولم يعرف قلبه اليأس من إيمانهم في يوم من الأيام، بل ظل يحاورهم ويدعوهم ويبصرهم بخطأ ما هم فيه وضلاله، وآستقامة ما قد جاءهم به وجلاله. ولقد كان صدودهم وتعنتهم وتصديهم لا يزيده إلا إصراراً وإقبالاً عليهم. ولم يعرف عنه يوماً أنه قد سئم دعوتهم وملّها، أو أنه قسا عليهم أو قابل أساءتهم بمثلها أو اطلق لنفسه العنان فاستمطر عليهم لعنة الله وغضبه كما فعل نوح عليه السلام من قبل عندما قال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً

إنّك إن تَذَرْهم يُضِلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّارا رب آغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبار﴾[1].

بل على العكس من ذلك فقد ترفق بهم ورق في معاملتهم وظل ينشد لهم الخير ويتمنى لهم الطمأنينة والسعادة ويقابل اساءتهم بالصفح والعفو، ودعا لهم بالهداية أو بالغفران لأنهم لم يكونوا يعلمون، وآرتقب أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً. ويوم الفتح المشهود وقف فيهم يخاطبهم وهو على غاية التمكّن من رقابهم فقال: « ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا نقول خيراً ونظن خيراً. أخ كريم وابن أخٍ كريم وقد قدرت. فقال فإني أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[2].

وكان ﷺ لما اقتضاه الأمران يشتد معهم لصالحهم وصالح الإنسانية ودفاعاً عن رسالة الحق والهدى التي يحملها لا يتوانى عن تنفيذ أمر ربه الذي يقول له: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾ [3]. فجاهدهم بقوة وقاتلهم ببأس وصبر وغلظة، حتى انكسرت شوكتهم ولانت عريكتهم وانفتحت له قلوبهم واستسلموا له طوعاً وكرهاً، فلم يكن أمامهم وهم عرب الجزيرة إلا أحد موقفين: إما الاسلام وإما القتال والحرب كما سبق وأوضحنا. فهم حملة لغة القرآن وفرسان حلبتها، فإن صدقوا، وقد صدقوا بالفعل، صاروا مادة الاسلام وحملة لوائه ورواد فكره وحركته ودعوته. ولذلك ورد عنه قوله ﷺ « أمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله تعالى »[4].

---

(١) نوح ٢٦ - ٢٨.
(٢) الامتاع ٣٨٦/١.
(٣) التحريم ٩.
(٤) فيض القدير ١٨٨/٢.

مطلب الرسول من الوثنيين:

لقد كان للرسول ﷺ عند المشركين مطالب وأهمها وأعلاها: أن يمحوا الوثنية والشرك من قلوبهم محواً كاملاً، وأن يقيموا على انقاضها الاسلام لله وحده، والإيمان بوحدانيته حتى اليقين والخضوع لشريعته. وأن يشغلوا قلوبهم بمحبة الله إشغالاً كاملاً لا يسمح بأن يكون فيه فراغ لحب أحد سواه أو شيء آخر.

الشرك ومحبة الله:

والشرك ومحبة الله لا يلتقيان. ذلك أن محبة الله تعالى هي أولى أصول الدين وأصلب ركائزه. فهو سبحانه الخالق وهو الرازق والمدبّر والمعين وهو القاهر فوق عباده. بيده قلوبهم وآجالهم وأرواحهم. وإذا كان للنفوس في الحياة من تقدم وتأخر وصحة ومرض، وإذا كان لها من نموّ وفرح وطمأنينة وسكون. وإذا كان للعقول من ضياء وانكشاف وفهم وإدراك لكل صنوف المعاني والمشاعر والاحاسيس وغير ذلك، فكل ذلك بفضل الله تعالى ونعمته.

ومن هنا فإن المحبة كما قال ابن القيم إذا لم تكن لله أو في الله أو معينة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته تصبح محبة ضارّة ومفسدة لأنها في هذه الحال أما محبة مع الله أو محبة لما يبغضه الله أو محبة تنقص محبة الله أو تصرف عنها [1].

وكلما تجافى الإنسان بقلبه وفكره عن خالقه كلّما دخل في حظيرة الشرك. وآرتبط ببعض حبائله، ويظل هذا المعنى خفياً في نفسه مستكِنّا ضعيفاً ما برزت في قلبه أصول التوحيد وحقائق الإيمان بالله الكبير المتعالي. وما التزم بطاعة أوامر الله والبعد عن محارمه ومكارهه. ولكنه على النقيض يستفيق ويعتز ويقوى كلما أهمل أوامر الله وعصاها وأتى محارمه وعدا على حدوده. والمشرك في الحقيقة انسان قد خلا قلبه من محبة الله وفقد ضياء الإيمان ونور اليقين؛ وذلك لانصرافه عن

---

(١) اغاثة اللهفان ١٤٠/٢.

طاعته، وعصيانه لأوامره وطاعته لنواهيه، واجتراحه للسيئات وانغماسه برغائب نفسه وشهواتها حتى جعل من ذاته عبداً للشيطان. وكان الشيطان وليّه. ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ وبذلك فرغ قلبه من حب الله وانشغل بما حال بينه وبينه.

ويوم خلق الله آدم وأمر ابليس بالسجود له فعصاه واستكبر وكان من الكافرين، أخذ على نفسه بعد أن انظره الله تعالى إلى يوم يبعثون، أن يغوي ذرية آدم وأن يعدهم ويُمنّيهم وأن يقعد لهم في صراط الله المستقيم فيغريهم ويزين لهم الباطل حتى يكفروا بالله ويجحدوا نعمه عليهم.

وقد حذرنا الله تعالى من فتنة الشيطان هذه ومن اتخاذه ولياً من دون الله، ومن عبادته فقال: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنهم لكم عدوٌ مبين﴾ [١]. وقال: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [٢]. وقال: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [٣] وقال ﴿افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلاً﴾ [٤].

والمشركون والوثنيون هم أولئك الذي استجابوا للشيطان فسقطوا في طاعته وانصرفوا الى باطله عن حقائق الله وعن محبته... فبداية الشرك إذن كانت في بداية خلو قلب الانسان في رؤية الله ومراقبته ومحبته. وذلك بانشغاله بالاستماع الى نداء الشيطان والانجذاب الى إغرائه وأغوائه واضلاله ثم بخضوعه اليه. وفي مثل هذه الحال يصل الانسان الى وضع يستسيغ معه تقبل الانصراف عن معالم الهدى

---

(١) يس.
(٢) فاطر.
(٣) الاعراف ٢٨.
(٤) الكهف ٥٠.

وصوى الحق والجرأة على تغيير فطرة الله التي فطره الله عليها. ومن أجل هذا أمر الله نبيّه بالاستقامة على الدين والتزام حدوده، فقال ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه وٱتقوه ولا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً كلّ حِزْبٍ بما لديهم فرحون﴾ (١).

الشرك قنطرة الفسوق والفساد في الأرض:

ولئن كان الشرك ثمرة مداومة العصيان لأوامر الله واقتحام حـدوده، نتيجـة ٱنشغال القلب عن محبة الله تعالى بشهوات النفس وغرائز الجسد ولذائذه، فالشرك بعد يصبح مَفْرَخة الفسوق. وقنطرة كل شر وإثم. ذلك أن المشرك قد ٱتخذ الشيطان وليّـاً له من دون الله يستجيب له ويخضع لسلطانه تماماً كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون﴾ (٢) وقد تعبّد له وجعل في أُذُنَيْه وقراً وعلى بصره غشاوة فهو يسمع ولكنه لا يميز. ويبصر ولكنه لا يدرك. يقول الله تعالى: ﴿وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتـراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون﴾ (٣). ويقول: ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (٤) بل إنهم لفي سكرة غامرة وغفلة كاملة سلخت عنهم الكثير من خصال الأحياء واضفت عليهم الكثير من أوصاف الأموات. يقـول الله تعـالى: ﴿ومـا يستـوي الأعمـى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الأموات إن الله

(١) الروم ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) النحل ١٠٠.
(٣) الاعراف ١٩٨.
(٤) الاعراف ١٧٩.

يسمع من يشاء وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ في القبور﴾[1]. وفي أول هذه الآية وآخرها تمثيل للمؤمن والكافر فكأنه يريد أن يقول لنا سبحانه وتعالى وما يستوي أحياء القلوب العامرة بالإيمان بالله ورسوله ومحبتهما، مع أموات القلوب التي غلبها الكفر والعبودية للشيطان.

وإذا بلغ الإنسان هذا المآل استوى عنده الخير والشر والحق والباطل والطاعة والمعصية، وأقبل على الحياة يسرح فيها ويمرح ويأكل ويشرب لا يبالي بحرمات ولا بحدود فتكثر خطاياه وتستبحر معاصيه وتظلم حياته ويموت ضميره.

وكذلك الشيطان إذا تمكّن من قلب العبد أحاط به وأغلق عليه منافذ النور حتى لا يرى ولا يسمع ولا يحس إلا بما يشاء له ويحب ولا منقذ له، لأنه استنام له وأعرض عن ذكر الله خلافاً للمؤمن العابد لله، فإنه كما قال تعالى: ﴿إن الذين آتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدّونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾[2] ذلك لأن المؤمن استجاب لله وتحصّن به، فإن نزغه من الشيطان نزغ استعاذ بالله منه واستجار به. يقول ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولْينته»[3].

وعلى النقيض من المشركين فإن الشيطان قد يئس من أن يتمكن من إضلال المؤمنين، وإن لم ييأس من التشويش على قلوبهم وأفكارهم فهو لذلك ناشط بإلقاء الوساوس على قلوبهم أملاً بالوصول الى شيء، والله مع عباده الصالحين يعينهم ويحصّن قلوبهم ويدفع عنهم كيد الشيطان. ولذلك فإنه سبحانه يقول: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[4]. ويقول: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين

---

(١) فاطر ١٩ ـ ٢٢.
(٢) الاعراف ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٣) القرطبي ٣٤٨/٧.
(٤) الحجر ٤٢.

آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون﴾. وقد ورد في الصحيح أن نفراً من الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال «أوجدتموه»؟ قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان رغماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

وإن من تحصين الله تعالى قلوب عباده المؤمنين ما علّمهم قوله كل يوم وليلة مرات عديدة يسألونه فيه أن يهديهم صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم وهداهم واجتباهم ورحمهم وجنّبهم طريق المغضوب عليه والضالين، وما علّمهم اياه أيضاً من الاستعاذة به من شرّ ما خلق ومن شرّ غاسق إذ وقب ومن شرّ النفّاثات في العقد ومن شرّ حاسد إذا حسد ومن شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس. ثم ما علّمهم إياه من مداومة اللجوء إليه بالسؤال والرجاء والتضرّع والسؤال في الوقت الذي هو فيه سميع مجيب. روى أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها احدى ثلاث: اما ان يعجّل له دعوته، وإما أن يدّخر له، وإما أن يكفّ عنه من السوء بمثلها». قالوا إذن نكثر قال «الله أكثر»[1].

الإذن بقتال المشركين:

ولقد لبث الرسول ﷺ أربعة عشر عاماً يتحمل مع أصحابه صنوف الأذى والصدّ والكيد والعدوان من المشركين، لا تلين له قناة ولا يستكين ولا يضعف، ولا يتململ ولا يضجر ولا يخرج عن حدود الصبر والصفح التزاماً بأمر ربه الذي كان يرعاه ويوجه مساره وهو الذي قال له: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما

---

(١) القرطبي ٢/٣١٠.

بينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ [1] وقال: ﴿فوَربك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [2] وقال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [3].

ولم يأذن الله تعالى لرسوله بقتال المشركين والرد على أذاهم ومصادمتهم بالقوة، إلا بعد هجرته ﷺ بسنة وبعد أن أنزل عليه من آيات النهي عن القتال ما يربو على سبعين آية.

ولما أذن الله تعالى له ﷺ بالقتال كان يضعه في أجواء أسباب هذه المشروعية. ويبيّنها له بأنها لدفع الظلم، ومنع الفتنة في الدين وردّ العدوان والبغي على المؤمنين والدعاة إلى الله منهم بخاصة، ولحماية الفرد المسلم والجماعة المسلمة والوطن الذي يعيشون فيه. يقول الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرَنّ الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز﴾ [4].

قال ابن عباس: «إن هذه الآية هي أول آية نزلت في القتال. ولقد تبع ذلك أن الله تعالى أجاز المسلمين ايضاً به في الأشهر الحُرُم التي كان القتال فيها محرّماً في التقاليد العربية. قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وأخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبرُ من القتل﴾ [5] ولقد بين الله تعالى في هذه الآية أيضاً العلة في

---

(١) الحجر ٨٥.
(٢) الحجر ٩٣ ـ ٩٤.
(٣) النحل ١٢٥.
(٤) الحج ٣٩ ـ ٤٠.
(٥) البقرة ٢٠٧.

أباحة القتال للمسلمين في الأشهر الحرم وكشف عن مبررها بأنه اجتراح المشركين في الشهر الحرام وسواه ما هو أكبر من القتال وأشد فظاعة ونكراً كالصدّ عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام والعدوان على أهله وسكان بلده واخراجهم منه بغياً وظلماً.

وأخيراً وفي السنة الثامنة بعد الهجرة، وبعد أن فتح الله تعالى على رسوله مكّة المكرّمة ونصره على قريش التي نكثت العهد ونقضت الميثاق الذي واثقته عليه يوم الحديبية، أمره بقتال المشركين ولكن بنصوص ظاهرة الاطلاق والتعميم. يقول الله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أن الله مع المتّقين﴾[1] ويقول: ﴿فإذا آنسلخ الأشهر الحرم فآقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد﴾[2].

والحرب في ذاتها أذى وشر، لا بد فيها من سفك الدماء وأزهاق الأرواح، وتخريب المجتمعات وتدمير المؤسسات ومظاهر العمران. ولكنها قد تكون شرّاً لا بدّ منه إذا وجهت لتكون في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته وحماية شرعه وحراسة ديار الاسلام وشعوبه. يقول الله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[3].

وهكذا فإن القتال في الاسلام لا يخرج مطلقاً عن إطار هذه المعاني؛ جهاد غير المسلمين من الكفار والمشركين دفاعاً عن الذات والجماعة، وقتال المرتدين والبغاة وهم الذين يخرجون على الامام يبغون خلعه أو التمرّد على طاعته، وقتال قطّاع الطرق والمحاربين وهم الذين يعتدون على المارّة لأخذ أموالهم قهراً.

---

(١) التوبة ٣٦.
(٢) التوبة ٥.
(٣) البقرة ٢١٦.

الاسلام والحقد الديني:

ولئن كان الاسلام قد أجاز للمسلمين القتال للأسباب والمبرّرات السالفة الذكر. فإنه مع ذلك ينبغي التأكيد هنا بأنه في منطلقه الأساسي ٱستَلّ من قلوب أتباعه كل صفات الحقد الديني على مخالفيهم في الدين وبخاصة أهل الكتاب، وأقـام فيها نحوهم على العكس مشاعر الزمالة الإنسانية. فالناس إما إخوة في النسب وإما إخوة في الانسانية والخلق وإما إخوة في الوطن وإما أخوة في الدين. ولئن كانت أخوّة الدين مقدّمة في نظر الإسلام على جميع الاخوات، غير أنها تبقى أخوة بارّة ورحيمه. وتتحرّك في اطار تثبيت معاني الأخوة النافعة والمحبّة الحانية. ولذلك فهو لم يمنع اتباعه من التعايش مع مخالفيهم في الدين أيّـاً كانت عقيدتهم ولكن بشروط بينها رب العالمين بقوله: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [1] وبقوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم﴾ [2].

ولا ريب أن في هذه الآية ما فيها من تحمّل معنى السماح بمخالطة المخالفين في الدين في الحدود التي لا تتعارض مع كرامتهم وعبادتهم وعقائدهم وأخلاقهم. وإلا فكيف يمكن تحقق مضمونها بجعل المودة قائمة بينهم؟ قال مقاتل: «لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شدّدوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم والبراءة منهم فأنزل الله تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ وذلك بميلهم الى الاسلام ومخالطتهم مع أهل الاسلام...» [3]. والله تعالى

---

(١) الممتحنة ٨ ـ ٩.

(٢) الممتحنة ٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٩/٣٠٣.

قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودّة والتفاهم وتقريب النفوس.

على أن الاسلام حتى في حال سماحه لأتباعه بمقاتلة مخالفيهم دفاعاً عن النفس والكيان والارض ومؤسسات الوطن التي تدخل كلها في مفهوم الإيمان بالله والاسلام له، لم يجز لهم أن يبلغوا بنفوسهم مبلغ الحقد وشحنها بالضغينة وتعميق العداوة وتأصيلها .فهو دين الاسلام والصفح والعفو والسماحة. وكل هذه المعاني لا تلتقي في شيء مع تعميق العداوة مع الناس وبخاصة وانه قد جاء ليطهر قلوبهم من لوثات الشيطان ويُبردها ببرد اليقين.

وكل وقائع سيرة الرسول، وهو رائد الاسلام ونموذجه الاعلى والاسمى، تدلّ بما لا لبس فيه ولا غموض على هذا المعنى وتؤكده. وبخاصة ما حدث يوم أحد. فقد آزدهت قريش بنصرها وذهبت بعض نسوتها، بعد أن شهدت شموخ شبابها بعزّة الغلبة والانتقام، يمثلن بقتلى المسلمين، يَجْدَعن الآذان والأنوف. حتى روي أن هند ابنة عتبة وامرأة أبي سفيان «جعلت لنفسها منها قلائد وأقراطاً. وبقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعلته النسوة ممن معها، بل ما فعله الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه. بل قال يخاطب أحد المسلمين: انه قد كان في قتلاكم مُثلٌ، والله ما رضيتُ وما سخطت وما نهيت وما أمرت»...

ولما جاء المسلمون بعد انحسار اجواء المعركة لدفن قتلاهم كان رسول الله ﷺ في مقدمتهم يتلمّس أيضاً عمه حمزة. فلما رآه قد بقر بطنه ومثل به حزن من أجله أشد الحزن وقال: «لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفت موقفاً قط أغيظ اليّ من هذا» ثم قال: «والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب» وإذا بالوحي يتنزّل من السماء يكفكف دمع الرسول ﷺ ويخفف ألمه ويذكره بالحق فيقول: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن

صبرتم لهو خيرٌ للصابرين. وآصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضَيْق مما يمكُرون﴾ [١] فقال ﷺ نصبر ولا نعاقب »[٢] وكفر عن يمينه. ثم إن الله تعالى ختم تلك الآيات بقوله ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [٣] يقول الامام الفخر الرازي في شرح هذه الآية: « إشارة الى الشفقة على خلق الله. وذلك يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين: أعني التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. وقد عَبَّر عنه بعض المشايخ فقال: « كمال الطريق صدق مع الحق وخُلُق مع الخَلْق » وقال الحكماء كمال الإنسان في ان يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به. وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له عند القرب من الوفاة أوصِ ، فقال إنما الوصية من المال ولا مال لي. ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

ولقد ظلم كثير من الكتاب والمنكِّرين الغربيين الاسلام حين وصفوه بأنه دين متعطّش للدماء لأنهم بذلك يفترون عليه. لأنه ما عرف عنه يوماً أنه دين يهدف الى اغتصاب فكر الناس واقتناص قلوبهم وإكراههم على الاعتقاد به. بل الذي عرف عنه أنه دين حرّية الاعتقاد والدعوة بالحجة والمنطق والبرهان. يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [٤] ويقول ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [٥] ويقول: ﴿قل للذين أوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد آهتدوا، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[٦].

---

(١) النحل ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) القاسمي ١٠/١٧٩.
(٣) النحل ١٢٨.
(٤) يونس ٩٩.
(٥) الاسراء ١٢٥.
(٦) آل عمران ٢٠

الاسلام والسيف:

وخلافاً لما يزعمه المتنطعون والمفترون، فإن الإسلام لم ينتشر تحت ظلال السيوف، بل بما حمله للناس من مفاهيم الحق والعدالة والمساواة، وما بادأهم به من جميل الأخلاق وحسن المعاملة وطيب الرعاية. فكان مثلاً رائعاً في الالتزام بحرية الحياة الدينية لجميع الناس في ضوء نصوصه الكثيرة التي أشرنا الى بعضها آنفاً. كما كان مثلاً فذاً في الصفح والتسامح والترفع. وإن من أصدق البراهين على صحة هذا القول بقاء كثير من الفرق والجماعات المسيحية وغير المسيحية في الأقطار التي ظلت قروناً محكومة بالشريعة الاسلامية، بقاؤها في وطنها تمارس شعائرها وطقوسها في كنائسها ومعابدها التي يرجع الكثير منها الى عشرات القرون.

يقول المفكر «أرنولد» «ظهر أن الفكرة التي شاعت بان السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الاسلام بعيدة عن التصديق.. وإن السيف إذْ كان يمتشق لتأييد قضية الدين فإن الدعوة والاقناع وليس القوة والعنف، كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه»[(١)].

والقرآن الكريم يعلّم النّبي ﷺ ويوجهه الى ما ينبغي أن يكون عليه منهجه في الدعوة والسلوك مع الناس فيقول له: ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾[(٢)] ويقول له: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾[(٣)] ويقول له: ﴿إن أنت إلا نذير انا أرسلنا بالحق بشيراً ونذيراً﴾[(٤)].

وحروب الاسلام كلها التي جرّدها الرسول ﷺ في وجه قريش ومشركي العرب ووجه فارس والروم لم تكن لنشر العقيدة بالسيف والقهر والاكراه. بل

---

(١) عن كتاب آثار الحرب في الفقه الاسلامي للدكتور وهبه الزحيلي ص ٧٢.

(٢) الغاشية ٢١ ـ ٢٢.

(٣) الشورى ٤٨.

(٤) فاطر ٢٣ ـ ٢٤.

كانت من جهة لردّ عدوان المعتدين على حريّات الناس، والحاقدين على الاسلام الجديد وعلى رسوله ﷺ، وكانت من جهة ثانية لكف أذى أولئك الذين يكفرون بحرية الناس في اختيار العقيدة التي يشاؤون والدين الذي يحبّون، ويستكثرون عليهم أن يؤتيهم الله من فضله.

ولو كان مسلك الاسلام في نشر دعوته هو مسلك القهر والتسلط بالسيف والقوة، لما لجأ النبي ﷺ الى اطلاق سراح القرشيين عقب انتصاره عليهم يوم فتح مكة وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولما قبل الجزية من صاحب «أيْلة» ومن أهل «الجرباء» ولما صالح أهل «خيبر» وترك بني «النضير» يهاجرون للبلد الذي يشاؤون.

إن انتشار الاسلام كان أولاً وقبل كل شيء بما كان يحمله من تعاليم وشرائع وآداب وسلوك. وكان بالعقيدة الواضحة الصادقة. ثم بسبب ما كانت تعانيه الشعوب الذين دخل عليهم، من ظلم حكامهم وتعسفهم وبغيهم...

ولم يكن انتشاره في حال قوة حَمَلَتِه وشدة بأسهم وآجتماع كلمتهم وعظمة سلطانهم، بل كان أيضاً في حال ضعفهم وتفرّقهم وزوال هيبتهم.. فقد ثبت أنه في الوقت الذي تمزّقت فيه دولة الإسلام وتمكّن منها اعداؤها وأغار عليها التتار والمغول والأتراك، يسقطون معقلاً بعد معقل ويهدمون صرحاً إثر صرح، ويجهزون على البقية الباقية مما لبث بين أيدي المسلمين من قوة وبأس ومهابة سلطان... في هذا الوقت كان الاسلام العظيم يخترق القلوب ويقتحم قلاعها ويؤثر حتى على هؤلاء الذين تسلطوا وتمكنوا من أتباعه.. فدخل التتار والمغول والاتراك في حظيرة الاسلام واعتنقوا عقائده وطبقوا شرائعه وأحكامه، وهم أهل السلطة وأرباب البأس والقوة والهيمنة. وانقلبوا حماته والمجاهدين في سبيل دعوته...

قال ابن تيمية في آية: ﴿لا اكراه في الدين﴾ «جمهور السلف على أنها ليست منسوخة ولا مخصوصة. وإنما النص عام. فلا نكره أحداً على الدين. والقتال لمن

حاربنا ، فإن أسلم عصم ماله ودمه . وإذا لم يكن من أهل القتال فلا نقتله . ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام لا ممتنعاً ولا مقدوراً ولا فائدة في اسلام مثل هذا . لكن من أسلم قبل منه ظاهر الاسلام » [1].

وهكذا يتأكد أن الاسلام دين سماحة ورفق وحكمة. ودين تفاهم وانفتاح على الخير والحق والبر بكل الناس ما لم يبدأوه بعدوان ويعلنوا عليه الحرب. وعند ذلك يصبح القتال واجباً. وهو ما ثبت نص القرآن فيه بقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ [2] وقوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [3] يقول الشوكاني: « والعلماء متفقون بأن الجهاد فرض على الكفاية بمعنى أنّ فعله يطلب شرعاً من مجموع المكلفين لا من كل مسلم بعينه، فإذا قام به قوم من المسلمين سقط الوجوب عن الباقين ولم يأثموا بتركه » ويقول الشافعية « وجوب الجهاد وجوب الوسائل والمقاصد. إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية وما سواها من الشهادة. وأما قتل الكفار فليس مقصوداً. حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد كان أولى من الجهاد » [4].

بل إن اتجاهات الفقهاء بمجموع عباراتهم تنضح بهذا المفهوم ، وتؤكد بأن الحرب في الاسلام ضرورة اجتماعية للدفاع عن الذات ولمنع البغي وصرف الظلم وإقامة العدالة بين الناس وصون الحق فيهم. وهي بهذا المعنى جهاد في سبيل الله ماضٍ إلى يوم القيامة...

الاسلام ومشركو العرب:

أما شدة الاسلام على مشركي العرب وعبدة الأوثان منهم في الجزيرة العربية، حيث لم يقبل منهم إلاّ الاسلام أو السيف. فقد كانت لحكمة سبق وأشرنا اليها،

---

(١) رسالة القتال في مجموعة رسائل ابن تيمية ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢) التوبة ٣٦.

(٣) الانفال ٣٩.

(٤) عن كتاب آثار الحرب ص ٩٠ .

وهي القصد الى آقتلاع جذور الوثنية المنافية لكرامة الإنسان، والقضاء على الشرك الذي هو وكر الخرافات والأساطير وباعث نزعة السيطرة والظلم والاستبداد في الجزيرة وفي قبائلها أوّلاً وبالذات، لأنهم سيكونون نواة الاسلام ولسانه وقطب رحاه ومدار نهضته واشراقه على العالم كله.

وبالإجمال فإن جمهور الفقهاء من أحناف وحنابلة ومالكية وشوافعة في قول ملتقون على أن علّة القتل وسببه في نظر الإسلام هي المقاتلة. وكل ما كـان مظنّـة له[1] «فلا يقتل شخص لمجرّد مخالفته للاسلام أو لكفره، وإنما يقتل لاعتدائه على الاسلام». وأما حديث ابي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم وهو قوله ﷺ: «أمِرْت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله» فهو بمعنى أنه ﷺ لم يؤمر بقتال إلا إذا كان لهذه الغاية المذكورة في الحديث وهي بقاء الناس على شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستمرارهم عليها. ولا يجوز أن يكون معناه أنه أمر بمقاتلة كل واحد من المشركين حتى يصل الى ذلك الاعتقاد. لأنه يختلف مع النص ومع مسيرة الرسول ﷺ ومع أجماع الأمة التي تثبت كلّها أنه لم ينقل عنه ﷺ قتل الكفار لأنهم كفار، بل على النقيض فقـد آشتهر عنه أنه كان يسالم من سالمه ولا يعادي كلّ من عاداه، وأنه صالح أهل الكتاب على الجزية وأبقاهم على عقيدتهم. وعلى ذلك مضى أصحابه من بعد في قتالهم مع المجوس ومع أهل الكتاب جميعاً.

(١) فتح القدير ٤/٢٩١.

الفصل الرابع

موقف الإسلام من الشفاعة

1 - بين يدي البحث
2 - تعريف الشفاعة
3 - عقيدة اليهود وقدماء المصريين فيها
4 - مبدأ الشفاعة عند العرب
5 - موقف الإسلام من هذا المفهوم للشفاعة
6 - موقف الاسلام من الاستشفاع أصلاً




بين يدي البحث:

قد يقف القارىء عند مطالعة هذا الموضوع، ويتساءل عن مدى آرتباطه بموضوع البحث ككل، ومن حقه ذلك. فالشفاعة شيء والوثنية شيء آخر، وقد لا يكون بينهما لدى النظرة العاجلة أدنى صلة أو وشيجة..

ودفعاً لهذا التوهم شئنا أن نقرر لموضوع الشفاعة هذا البحث، لأنها في الحقيقة ونفس الأمر ليست كما يتبادر الى ذهن القارىء لأول وهلة، بل هي ركيزة من ركائز العقيدة الوثنية التي استفحلت في شعوب الجزيرة العربية وتأصلت في نفوسهم، بل هي قطب رحاها وقاعدتها التي استوت عليها وتفرّعت منها.

تعريف الشفاعة:

قال الراغب الاصفهاني: « والشفاعة الانضمام الى آخر ناصراً وسائلاً. وأكثر ما يستعمل في آنضمام من هو أعلى حُرْمة ومرتبة الى من هو أدنى »[1]. وهي على العموم السؤال في التجاوز عن الأخطاء والذنوب[2]. وقد اعتاد الناس تعاطيها فيما بينهم دفعاً لضرر أو جلباً لمنفعة. وكثيراً ما تكون الشفاعة حسنة. وكثيراً ما تكون سيئة. وقد حذّر الله تعالى من الشفاعة السيئة وأثنى على الشفاعة الحسنة

---

(١) مفردات الفاظ القرآن ص ٢٧٠.

(٢) دائرة معارف القرآن محمد فريد وجدي ٥/٤٠.

فقال: ﴿من يَشْفعْ شفاعة حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها، ومن يشفْع شفاعة سيّئة يكُنْ له كفِلٌ منها وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً﴾[1] ومن شفع شفاعة حسنة يقصد منها أن يصلح بين اثنين متخالفين متخاصمين استوجب الثـواب والأجـر، ومن شفع شفاعة سيئة يقصد من ورائها ترجيح باطل أو ترويج محرّم استوجب سخط الله وعقابه. والشافع فيما يجوز مأجور من الله تعالى ولو لم يُشَفّع من أحد. لأن الله تعالى يقول ﴿من يشفع﴾ ولم يقل ﴿يشفّع﴾ وفي صحيح مسلم «اشفعوا تؤجروا ولْيَقْضِ الله على لسان نبيّه ما أحب».

عقيدة اليهود وقدماء المصريين فيها:

وقد جرى البعض في الأمم الغابرة، وفي مقدمتهـم اليهـود وقـدمـاء المصريين واليوزان، على أن يقيسوا امور الآخرة على أمور الدنيا، فتوهموا بأنه كما يمكن للبعض ان يستشفع في الدنيا ببعض لدى سلطان أو مسئول بماله عنده من مكانة للتخلص من عقوبة او تخفيفها، او لنيل مثوبة، يمكن لهم أيضاً أن يستشفعوا عند الله ببعض الصالحين لدفع عقوبة او لنيل مثوبة.

ويعتقد اليهود أنهم بانتسابهم الى الأنبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلاّ أيامـاً معدودات، لأنهم أبناء الأنبياء، والأنبياء بما لهم من جاه ومكانة رفيعة عنـد الله لا يسعهم ان يخلوا أبناءهم وأتباعهم للنار يُكْوَوْنَ بلهيبها ويذوقون عذابها الأليم. ثم تطور اعتقادهم هذا مع تقلب الزمن إلى ان انتهى بهم الحال الى القول بشفاعة الاحبار لمن ينتسب اليهم..

مبدأ الشفاعة عند العرب:

وقد ذهب أقوام آخرون الى مثل هذا القول ولا داعي للتوسع في الحديث فيه، وانتشر في الأمم يأخذ بعضهم عن بعض، حتى تسرّب أيضاً الى القبائل العربية

---

(١)/ النساء ٨٥.

في الجاهلية وقبل ظهور الاسلام، فشاعت فيهم عبادة الاوثان والاصنام من مدخل مفهوم الشفاعة هذا.

وقد روى ابن اسحاق أن بني اسماعيل وجرهم، من ساكني مكة، ضاقت عليهم مكة هذه فانتشروا في البلاد يتفسّحون فيها ويلتمسون المعاش. ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة، وحيثما حلّوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وما أعجبهم من حجارة الحرم خاصة، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم واسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم من الضلالات، وآنتحوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها من تعظيم للكعبة والطواف بها والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وهَدْي البُدْن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

وكان أول من غيّر دين ابراهيم واسماعيل ونصب الأوثان وسيّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحام عمرو بن لحي. وقد روي عن ابن عباس انه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يَجر قصبه - يعني أمعاءه - في النار» وقد قال رسول الله ﷺ عمرو بن لحي أول من جعل البحيرة والسّايبة والوصيلة والحام ونصب الأوثان حول الكعبة وغير الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام»[1].

---

(١) الأزرقي الجزء الاول ص ١١٦. هذا وفي تعريف البحيرة وما بعدها خلاف بين العلماء. وأبرز التعاريف لها هو ان البحيرة هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإذا كان الخامس بحروا أذنها اي شقوها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها. فاذا ماتت حلت. والسائبة البعير يسيّب بنذر يكون على الرجل ان سلمه الله من مرض أو بلّغه منزله ان يفعل ذلك. فلا تحبس من رعي ولا =

ومهما يكن من أمر فإن عبادة العرب للأوثان لم تخرج في عمقها وأصولها عن مفهوم الشفاعة الذي أثبتناه سابقاً لليهود وغيرهم من الأمم الغابرة. فقد نقل أنهم كانوا يثبتون الشفاعة لآلهتهم عند الله فكانوا يقولون: « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى » وكانوا يتخذون الاصنام أولياء لهم لتقرّبهم الى الله زُلفى. وقد فعلوا كما فعل سواهم من السابقين، فقاسوا الغائب على الشاهد وما عند الله على ما عند الناس، فضلّوا كما ضلّ غيرهم، وانحرفوا رغم أنهم كانوا إن سئلوا عمّن خلق السماوات والارض أو من خلقهم أجابوا بأنه هو الله. والله تعالى يقول في هذا ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى﴾[1] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولُنَّ الله﴾[2] ويقول: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون﴾[3].

بل إن بعض العلماء ليرى ان مفهوم الشفاعة هذا قد تمادى انتشاره على الدهر حتى جاء عصرنا هذا فكان فيه كثير من الناس، حتى المسلمين منهم يعتقدون بما هو شبيه لذلك. فقد ذكر الامام محمد رشيد رضا في تفسيره نقلاً عن الامام الشيخ محمد عبده قوله: « إن بعض المسلمين من المصريين كانوا حتى عهده يعطون لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمّونه « أجرة المعدّية » أي اجرة نقله الى الجنة والشفاعة له بدخولها.

موقف الإسلام من هذا المفهوم للشفاعة:

ولقد أكثر الله تعالى في كتابه الكريم من طرح مفهوم الشفاعة هذا في مناسبات

= ماء ولا يركبها أحد. والوصيلة هي من الغنم التي تلد انثى بعد انثى فإنها تسيّب وقالوا وصلت أخاها فلا تذبح وكان لحمها حراماً على النساء؛ والحام هو الفحل من الابل اذ انتج من صلبه عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.

(١) الزمر ٣.

(٢) الزمر ٣٨.

(٣) الزخرف ٨٧.

عدة وردّه رداً حاسماً لان الله تعالى يختلف عن مخلوقاته. فهو مالك الملك. وهو بذاته غني عن ان يتشفع أحد بين يديه لأحد إلا أن يكون ذلك بإذنه. لأن الشفاعة في حدّ ذاتها لا تقبل من أحد إلا لرغبة أو رهبة. والله تعالى لا يرجو أحداً ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد. والشفيع يشفع لأحد وجوه ثلاثة: «إما لإخبار من يشفع عنده بما لا يعرفه حتى يكون ذلك مبرّراً للرجوع عن موقفه. وهذا غير جائز في حق الله تعالى، لأنه يعلم السرّ وأخفى ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وإما لعجزه عن تدبير ما تحت يده والله تعالى هو الغني والولي والقادر على كل شيء، وإما لأنه لا يريد نفع من يكون تحت يده أو الإحساس اليه، وتكون الشفاعة وسيلة لترقيق قلبه وحتى على العدول عن نزعته الجائرة. والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده وأبرّ بهم من الوالدة بولدها..

وقد ردّ الله تعالى على الأمم السابقة الذين اتخذوا أنبياءهم شفعاء لهم عند الله، بأن هؤلاء الأنبياء والملائكة كلهم عباد الله لا يملكون لأنهم ضراً ولا نفعاً، ولا يستطيعون كشف الضرّ عنهم ولا تحويلاً. وان الملائكة والأنبياء عباد مكرمون، ولكنهم لا يشفعون عند الله لأحد إلا إذا أذن الله لهم بذلك. يقول الله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبّئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1] ويقول: ﴿وكم من مَلَك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[2] ويقول: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السمٰوات والأرض ثم إليه ترجعون﴾[3].

---

(١) يونس ١٨.
(٢) النجم ٢٦.
(٣) الزمر ٤٣ - ٤٤.

ويجزم الله تعالى بأن العبادة له ينبغي ان تكون متلبّسة بالحق بريئة من شوائب الزيغ والبهتان، سليمة من الشبه عارية من كل ما قد يسيء الى اشراقها وصفائها. لأن الدين لا يصح إلا أن يكون كذلك، وإلا انقلب الى أن يكون مظلّة فسيحة يستظل بها المتكسّبون والمتحايلون يقول الله تعالى: ﴿إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾[1].

وقد اوضح سخف المرتكز الذي تعتمد عليه العقيدة الوثنية وكذبها وتماديها في الباطل والضلال فقال: «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾[2].

ولئن كان الوثنيون العرب ومن لفّ لفهم ممن يعتقدون شبيه اعتقادهم في نظر القرآن الكريم كاذبين في ادعائهم ان اوثانهم تقرّبهم الى الله زلفى، فالاسلام إذن يقف من هذه الدعوى، دعوى شفاعة الاصنام وكل من كان في مثل منزلتها، موقف الرفض والانكار والتحريم.

موقف الاسلام من الاستشفاع أصلاً:

بل إن بعض العلماء، هرباً من السقوط في مصائد الوثنية وأحابيل الشيطان، وتمسّكاً بمبدأ الإخلاص لله تعالى، رفض مبدأ الاستشفاع بأيّة ذات مها علا مقامها حتى ولو كان رسول الله ﷺ، وإن كانوا يسلمون بأنّه هو الشافع المشفع، وإنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وان الناس يستشفعون به يوم ذاك، وإن الله تعالى يأذن له بالشفاعة، فيخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرّة من النار.

---

(١) الزمر ٢ ـ ٣.

(٢) الزمر ٣.

وقد ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: « يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال « نعم هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » وعن أبي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ ذكر عنده عمّه أبو طالب فقال: « لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه ».

ولا يكتفي هذا الحديث والذي سبقه بإثبات الشفاعة للرسول ﷺ لأهل الكبائر من أمته فحسب ، بل يثبتها أيضاً منه لبعض الكافرين . فهو إذاً ﷺ شفيع الخلائق في اليوم المشهود . وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون والآخرون وهو قطعاً أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاهاً ومقاماً عند الله تعالى. ولئن كان الله تعالى قد قال في كتابه الكريم عن موسى عليه السلام « وكان عند الله وجيهاً » وأخبر عن عيسى عليه السلام بقوله: « وجيها في الدنيا والآخرة » فليس ينقص هذا من قدر الرسول من شيء..

ومع ذلك فإن منزلة الرسول ﷺ هذه لا تخوله اقتحام ما ليس له من المقامات ولا أن يقحمه غيره فيها ؛ فلا يجوز ان يستشفع بذاته ، كما أنه لا يجوز ان يستشفع بذات أحد سواه من الانبياء والرسل والملائكة..

بيد أن شفاعة الرسول ﷺ تتحقق وتكون مقبولة بدعائه. ومن دعا له الرسول فقد شفع له. ومن شفع له من هذا السبيل فقد توسل له الى الله بدعائه.

ولقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال: « اللهم، إنا كنا اذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيّنا فتسقينا . وإنا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا » وقد فهم هؤلاء العلماء من قول عمر رضي الله عنه انه يريد ان يقول اللهم إنا كنا اذا أجدبنا توسلنا إليك بدعاء نبيّنا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبيّنا فاسقنا . وانه لو كان مفهوم دعاء عمر التوسل الى الله تعالى بذات الرسول لابدعائه لما عدل عن التوسل به الى التوسل بعمّه العباس ، لأن التوسل به اولى من التوسل بعمه

العباس، وعدول عمر والصحابة إلى التوسل بالعباس بعد موت الرسول معناه أنه يتعذّر التوسل بالرسول بعد موته.

وللمزيد من التوضيح يقولون: إن الإيمان بالله يقتضيّ توحيده والإخلاص له. وقد أمر سبحانه وتعالى نبيّه بقوله: ﴿قل إني أمرت أن اعبد الله مخلصاً له الدين﴾[1] وقوله: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾[2] وقوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدينا حنفاء﴾[3]. والذي يثبت الوسيط بين الله وبين خلقه يحكم على نفسه بالدخول في الشرك، لأن هذا عمل المشركين الذين كانوا يقولون عن اصنامهم وأوثانهم إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وإنها تقرّبهم الى الله، وأن استشفاعهم بتماثيلهم استشفاع بهم. بل قصدوا قبورهم وقالوا: من نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله، وصوّروا تماثيلهم فعبدوهم. وهذا بالذات هو الشرك بعينه الذي أنكره الله تعالى ايضاً على النصارى حيث يقول: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[4].

ولقد روى الأعمش وسفيان عن حبيب ابن ابي ثابت عن ابي البختري قال: سئل حذيفة عن قول الله عزّ وجل: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ هل عبدوهم؟ فقال لا. ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلّوه وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه» وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «ما هذا يا عدي؟! إطرح عنك هذا الوثن!!» وسمعته يقرأ في سورة براءة قوله تعالى: ﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾. ثم قال ﴿أمّا إنهم لم يكونوا يعبدونهم. ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم

(١) الزمر ١٣.
(٢) غافر ١٤.
(٣) البيّنة ٥.
(٤) التوبة ٣٢.

شيئاً استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه﴾ وقد نقل القرطبي في ذلك عن أهل المعاني قال: «جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء»[1].

ولقد أبطل الله تعالى هذه الشفاعة وذم المشركين لممارستهم لها ولسقوطهم بها في الكفر، فقال عن قوم نوح: ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرُنّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾[2]. ولقد قال ابن عباس إن وداً وسواعاً ويغوث ونسراً هؤلاء قوم صالحون كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم فعبدوهم.

ومن أجل هذا المصير لعن رسول الله ﷺ من اتخذوا قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلون فيها. ونهى المؤمنين عن الصلاة الى القبور. وأرسل علي بن ابي طالب فامره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سوّاه ولا تمثالاً إلا طمسه ومحاه أو كسره. وعن ابي الهياج الأسدي قال لي علي ابن ابي طالب: «لأبعثنّك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألاّ تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته، وفي لفظ ولا صورة إلا طمستها» أخرجه مسلم[3].

ولقد روى ان معاذ بن جبل جاء مرّة الى رسول الله ﷺ فسجد له، فقال له ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟ فقال يا رسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم فقال ﷺ: «يا معاذ لا يصلح السجود إلا لله. ولو كنت آمراً أحداً ان يسجد لأحد لأمَرْتُ المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها»[4].

وكل هذه الاعمال هي من مظاهر الشرك بالله. وهي سبل الشيطان التي ينفذ

---

(١) القرطبي ٨/١٠٢.
(٢) نوح ٢٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٥١ ـ ١٥٢.
(٤) فقه السيرة الدكتور سعيد رمضان البوطي، ص ٣٥٥.

منها الى قلوب الناس وقد قال عبد الله بن مسعود : « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه سبل. على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ «وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله».

وهكذا فإنا نخلص إلى التقرير بأن فريقاً كبيراً من العلماء لا يجوّز الاستشفاع بذات الرسول ﷺ ولا بذات سواه من الانبياء والصالحين، وينكر ان يسأل العبد ربه بمعظّم من المخلوقات أيّاً كان، ولكنه يجيز التوسل الى الله وسؤاله بالايمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم، ويجيز التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل الثلاثة الذين آووا الى الغار، فقد توسلوا باعمالهم الصالحة بعد أن حجزتهم الصخرة فيه، الى الله ليجيب دعاءهم ويفرّج عنهم ويزيح الصخرة القائمة على فم المغار، وقد كان...

وممن قال بهذا أبو حنيفه وأصحابه، فقد قالوا لا يجوز السؤال بمخلوق. وقد نهوا عن ذلك. قال القدوري: المسألة بخلق الله لا تجوز لأنه لا حقَّ للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً[1].

ونقل ابن تيمية أن الصحابة كانوا يتوسلون بدعاء الرسول. وأن الفقهاء من أصحاب الشافعي واحمد وغيرهم ذكروا أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح. وقال بأن من نقل عن مالك بأنه جوّز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل عن امام من أئمة المسلمين غير مالك كالشافعي واحمد وغيرهما فقد كذب عليهم»[2].

وابن تيمية يقف من هذه القضية وقفة جازمة. ولكنه مع ذلك يقرّ بأن هناك بعضاً من العلماء، يقّر التوسّل بالرسول ﷺ وإن كان ينقض أقوالهم بأدلة وبراهين كثيرة يسوقها[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠٢/١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢٥/١.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦٤/١.

والواقع ان ثمة مجموعة من العلماء يذهبون الى القول بجواز الاستشفاع والتوسل بآثار النبي ﷺ فضلاً عن الاستشفاع والتوسل بذاته. وهم لا يفرّقون في ذلك بين ان يكون في حياته أو بعد وفاته ما لم يثبت ذلك أي معنى من معاني الشرك بالله. وحجتهم في ذلك حديث توسل الاعمى برسول الله ﷺ الذي جاءه يتوسل اليه ليردّ له الله بصره. وهو ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي عن عثمان بن حنيف، إن رجلاً أعمى جاء الى النبي ﷺ وهم جلوس معه فشكا اليه ذهاب بصره فأمره بالصبر فقال ليس لي قائد وقد شق على فقد بصري، فقال: « أئت الميضأة، فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم قل: « اللهم إني أتوجه اليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إني توجهت بك الى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفّعه في » قال عثمان بن حنيف، فوالله ما تفرّق بنا المجلس حتى دخل علينا فكان بصيراً »[١].

إن هؤلاء العلماء يعتمدون هذا الحديث ويحتجون به. بينما يقول ابن تيمية فيه بأن لا حجة لهم فيه لأنه تصريح في أنه انما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته. وهو طلب من النبي الدعاء، فأمره النبي بأن يقول: « اللهم شفّعه في ».

ويعتمد العلماء المثبتون على ما نقلوه عن البخاري فيما رواه عن أنس أن عمر بن الخطاب والصحابة كانوا إذا أقحطوا آستسقوا بالعباس بن عبد المطلب وهو ما سبق وادرجناه فيما تقدم، ويعقّب ابن حجر عليه فيقول: « ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوّة »[٢] وقد ثبت تبرّك ابي أيوب الانصاري وزوجه بآثار أصابع الرسول ﷺ في قصعة الطعام بينما كان يردّ عليهما فضل طعامه. كما روى البخاري أن ام سلمه زوج النبي ﷺ كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبي في جلجل لها [وهو ما يشبه القارورة] فكان إذا أصاب أحداً من الصحابة عين أو أذى أرسل اليها إناءً فيه ماء فجعلت

---

(١) فتح الباري ٣٩٨/٢.

(٢) فتح الباري ٣٩٨/٢.

الشعرات في الماء ثم اخذوا الماء يشربونه توسّلاً للاستشفاء وتبركاً. وكذلك ما رواه مسلم في كتاب الفضائل في باب طيب عرقه ﷺ أنه كان ﷺ يدخل بيت أم سُلَيْم فينام على فراشها وليست هي في البيت. فجاء ذات يوم فنام على فراشها، ثم جاءت أم سليم وقد عرق النبي ﷺ واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدتها[1] وجعلت تنشف ذلك العرق ثم تعصره في قواريرها، فأفاق النبي ﷺ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم؟ فقالت يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. قال: «اصبت».

ونقلوا أيضاً أن الصحابة توسلوا بشعراته ﷺ بعد وفاته، وأنهم كانوا يتبركون فيها كما يتبركون بعرقه ووضوئه والقدح الذي كان يشرب فيه. وفي التبرك بالشيء طلب للخير بواسطته ووسيلته. والتوسل والتبرّك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو التماس الخير والبركة عن طريق التوسل بالشيء.

ومن العلماء الذين يذهبون الى هذا القول جمع من الفقهاء ورجال الحديث، منهم الشوكاني وابن قدامة الحنبلي والصنعاني صاحب سبل السلام وابن حجر صاحب فتح الباري. إنهم يثبتون الاستشفاع والتوسل بأهل الصلاح والتقى والدين وبخاصة أهل بيت النبوة، سواء في الاستسقاء او في سواه فضلاً عن التوسل والاستشفاع بذاته ﷺ وجاهه عند الله تعالى.

على أن هؤلاء وهم يثبتون ذلك يجزمون جزماً قاطعاً بأن التوسل والتبرك بالرسول ﷺ أو بآثاره أو بأهل الصلاح والتقوى ليس له من مفهوم إلا أن الرسول عليه السلام هو أفضل الخلق عند الله وأنه هو أقرب اليه. ويمكن من هذا الباب التوسل به كما يمكن التوسّل بمن دونه من الصالحين لما لهم من فضل. والصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يتوسلون بآثاره ﷺ وكانوا يحملون في قلوبهم هذا المعنى، لم يجدوا من رسول الله أي انكار عليهم في ذلك.

---

(١) وهي شيء كالصندوق الصغير تجعل فيه المرأة ما يعز من متاعها.

أما ابن تيمية ومن سبقوه الى هذا الرأي أو أخذوا عنه يؤكدون انحراف هذا الرأي، وإنه لا يعتمد على حق، في الوقت الذي يقررون فيه أن أكثر أحاديث الفضائل ضعيفة وغير مقبولة، ولا يجوز الأخذ بها في العقائد وإن كان يمكن الاستفادة منها في فضائل الأعمال.

ولا ريب أن حجج الرافضين قوية جداً وبخاصة وأن الاسلام دين قد جاء ليمحو كل آثار الوثنية وكل لمحات الشرك وبوادر الضلال. وكثير من الناس، وبخاصة عوامّهم لا يملكون القدرة على التمييز بين دقائق المعاني هذه فيقعون عن جهل وغفلة فيما هو شرك ووثنية وهم يريدون عبادة الله والتقرّب إليه بتبتّل واخلاص.

الإخلاص لله في العبادة واجب. والبراءة إليه من كل ما قد يوهم الشرك أمر مطلوب جزماً.. فالله هو الذي يجيب دعاء المحتاج، ويلبّي نداء المضطر، ويكشف السوء ويمنح الخير والبركات. يقول الله تعالى: ﴿أمّن يجيب المضطر اذا دعاه. ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكّرون﴾[1] ومواقف الرسول ﷺ من تصرفات بعض الصحابة التي تحمل بعض معاني الشرك بغير قصد يؤكد هذا المعنى ويلزم به.. فهو عندما سمع رجلاً يقول: «ما شاء الله وشئت» قال له «أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده». وكذلك كان موقفه من زيد بن حارثة عندما كان يطوف مع الرسول ومسح يده بإساف ونائله حيث نهاه وقال له لا تمسّه، ولما كرر قال له «الم تُنهَ».

ولما شاء بعض أصحابه الثناء عليه وإطراءه قال لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد. فقولوا عبدالله ورسوله» ويضاف الى ما سبق دعاؤه «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد».

ولقد قال الاستاذ محمد فريد وجدي: «متى علم المسلم أن الشافع والمشفع هو

---

(١) النمل ٦٢.

الله، وأن لا أحد يمكنه أن يغني فتيلا رفع وجهه من الاستشفاع بمثله الى الاستشفاع بربه. وناهيك بهذا بعداً عن الوثنية وقرباً من الديانة الإلهية»[1].

وإن ما آنجرف إليه بعض المتوسعين في فهم التوسل بالأولياء والصالحين وما يقومون به من أعمال للتقرّب إليهم والاستشفاع بهم عند الله، وهم ناس من الناس لا يعلم إلا الله ما هم عليه، لا يترك مجالاً للعذر لأنه قد وصل إلى حدّ غريب من الاسفاف والسخف، بل مظاهر الشرك التي تتنافى كلياً مع الإيمان الصحيح بالله والعبادة الخالصة له، فالطواف مثلاً لم يشرع في الإسلام إلا ليكون حول الكعبة. وكل طواف حوّل الى مكان آخر حرام. والتقبيل لجهاد على سبيل الاحترام والتقديس لم يسنّ في الإسلام إلا للحجر الأسود. بل حتى الحجر الأسود، قد قبله عمر رضي الله عنه وقال مخاطباً له معذراً نفسه من فعله هذا «والله لولا أني رأيت رسول الله يقبّلك ما فعلت». وكذلك إرسال الرسالات الى أضرحة الأئمة والأولياء وطلب الحاجات فيها منهم أو مباشرة وما شابه ذلك انحراف كلي عن صراط الله المستقيم، وسلوك في منعطف خطير ينتهي الى معاداة الله وموالاة الشيطان.

وإذا كان الرسول ﷺ وهو على قيد الحياة يقول: «إذا سألت فآسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» وهو من هو في مقامه وعلمه ومنزلته عند الله. ثم هو يشدّد على أصحابه بأن يتوجهوا الى الله وحده بالسؤال، فكيف بنا في هذا العصر والعصور التي سبقته، نجيز لانفسنا ولابنائنا وإخواننا مثل هذه الأعمال والاقوال الخطيرة التي لا يؤمن فيها من مظاهر الشرك التي يجب أن يبرأ منها عمل كل مسلم وقوله؟ فالطواف في الاضرحة حرام أيّاً كان صاحبها، وتقبيل حواجزها من النحاس أو الحديد أو الخشب أو الذهب، والتمسح بها على سبيل التبرك حرام. والصلاة الى الضريح حرام. وسؤال من في الضريح حرام وكفر اذا اعتقد السائل

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين المجلس الخامس ص ٤٠٢.

انه يجيب، وانه يضر وينفع، والكتابة اليه بالرسائل وطرحها داخل القفص الذي يوجد فيه الضريح حرام، والتوسل به إلى الله تعالى حرام لأنه ليس في الضريح إلا بقايا الجثة الفانية، وكثيراً ما لا نملك ان نجزم فيما اذا كان في الضريح ذلك الذي تنسب اليه النبوة او الولاية أو الصلاح، بل ان قبور الانبياء ليست كلها مجزوماً بها اللهم إلا قبر النبي ﷺ وقبر ابراهيم عليه السلام في بعض الاخبار. بل حتى في الوقت الذي يكون فيه متحَقّقاً من وجود العالم أو الصالح في قبره فإنه وهو في قبره ميت، ثم هو فانٍ على الاغلب وهو بموته آنقلب اعجز من ان يستطيع الإجابة ونفع نفسه فضلاً عن ان ينفع غيره، فكيف وهو فانٍ ؟!!

الفصل الخامس

موقف الاسلام من العصبية والعنصرية والتعامل مع المشركين

١ ـ الاسلام ليس دين عنصرية ولا عصبية
٢ ـ سبب تمييزه اتباعه على غيرهم
٣ ـ موقفه من التعامل مع المشركين والكافرين
٤ ـ جواز عقد الهدنة مع المشركين
٥ ـ جواز قبول هدية المشرك
٦ ـ الاستغفار لهم
٧ ـ موقف الاسلام من دخول المشرك للمسجد

الاسلام ليس دين عنصرية ولا عصبية:

ليس الاسلام دين عنصرية. وهو لذلك لم ينشىء أتباعه يوماً على قاعدة الافتخار بعنصريتهم ودمائهم وعروقهم وألوانهم، بحيث يبنون علاقاتهم الاجتماعية في ضوء مفاهيمها. ولقد كان منهم الفارسي والرومي والحبشي والعربي، وكان منهم الأسود والأبيض والأصفر. والفقير والغني والضعيف والقوي، وقد وحّد بينهم الاسلام تحت مظلّة الاخاء والمساواة والعدالة. فقال الله تعالى لهم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ وقال ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» وكذلك بالنسبة الى صُهَيْب وبلال.

بيد أن الاسلام عندما آخى بين المسلمين وسوى بينهم شاء ألا يسقط في الظلم وألايطفىء في الناس جذوة التنافس في العمل الصالح وفيما ينفعهم ويصلح معاشهم. ولذلك فقد ميّز بعضهم على بعض بنسبة ما يقدّمه لأمته ولمن حوله من خدمة تعود عليهم بالخير، وبما يجمع من خصال حسنة ونشاط محمود وعلاقة طيّبة مع الله ثم مع الناس. ولذلك فقد قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وليس الاسلام دين عصبية. ولذلك فإنه لم يفرض على أتباعه بل ولم يوجههم ليتناصروا في الحق والباطل لمجرّد انهم ملتقون في مجموعة عائلية أو حزب أو قبيلة أو أي كيان اجتماعي أو سياسي. بل كان دوماً ديناً متعالياً على هذا المفهوم وما شابهه مما يحمل الإنسان على التقوقع في حدود كحدود القبيلة أو الوطن أو اللون أو غير ذلك.

ولقد جاء الاسلام وشعار العرب في الجاهلية « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » منصوبٌ في كل قلب حتى كان قول شاعرهم.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فلم يلبث حتى عدّل معنى هذا الشعار بما يخرجه عن مدلوله التعصبي ويجعله في مدلوله الرحب القيّم السامي الذي يتسع لكل صلاح ولكل بر. فقال ﷺ: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. ولما سأله أحد الصحابة قائلاً: فهمنا كيف ننصره مظلوماً ولكن كيف ننصره ظالماً؟ فقال: « بأن تردعه عن ظلمه ».

وقد أقر الاسلام الرابطة العائلية. ووضع لها من الأنظمة ما شدّ وثاقها وأحكم رباطها وأكرم الولاء لها، وجعلها بحيث تؤتي ثمارها الاجتماعية الصالحة. ولكنه مع ذلك جعل الولاء لها مستمداً من الولاء لله. بل إنه شجب العصبية عندما تكون موجهة لها أو للقبيلة في غير الحدود التي أمر الله بالالتزام بها. ولقد وصى الله تعالى الإنسان بوالديه إحساناً وبأمه بالذات وجعل أهم الواجبات بعد توحيد الله وعبادته اكرام الوالدين والقيام بحقوقهما والتوجه اليهما بمنتهى التواضع والتذلل وحسن الأدب والرحمة والعطف، وبالدعاء لهما بين يدي الله لمزيد من الاكرام وضمان الرحمة لهما. يقول الله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾[1] ولما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ عمن هو أجدر بحسن صحابته قال ﷺ: « أمّك أمّك أمّك ثم أباك ».

ولكن الاسلام لم يشأ أن يكون هذا الولاء مرهوناً لأي معنى من معاني السوء والأذى الاجتماعي، فأبى له أن يتطور ليصبح تعصباً وانشداداً إليهما بالحق وبالباطل، في ما أمر به الله وأوصى به وفيما نهى عنه وكرهه. ولذلك قال ﷺ:

---

(١) الإسراء ٢٣ - ٢٤.

« ليس منّا من دعا الى عصبية » وكأنه يأبى أي عصبية تكون لغير الله وكلماته وهداه، حتى ولو كانت للعائلة أو للقبيلة اللهم إلا إذا كانت في إطار العدل والحق وفي حدود ما أمر به الله تعالى.

بل إننا لنرى الإسلام يجعل الولاء للدين فوق الولاء للعائلة ولأية جهة أخرى ومعنى آخر. كما يجعل أخوة الدين مقدّمة على أخوة النسب في بعض الأحيان ولذلك منع التوارث بين الأخوين من النسب إذا اختلف دينهما. وألزم مناصرة الأخ المسلم بالحق وجعلها مقدّمة على مناصرة الأخ من النسب إذا كان غير مسلم. ولكنه مع ذلك جعلها تناصراً دائراً في حدود دستور الإسلام القائل: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ».

وآحتقر الاسلام العصبيات على اختلافها لأنها متفرعة عن الهوى ومنبثقة من الأنانية وحب الذات. وقد روى أن شاس بن قيس اليهودي، مرّ بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فغاظه ما رأى من الفتهم وصلاح ذات بينهم في ظل الاسلام، فقال: « آجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد!! والله ما لنا معهم اذا اجتمعوا من قرار!! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له، اعمد إليهم وآجلس معهم ثم ذكّرهم يوم « بعاث » وما كان قبله. وانشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار. ففعل وتنازع القوم وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّيْن على الركب، وقال أحدهما: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة!! وغضب الفريقان جميعاً وقالا: قد فعلنا: السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة يعنون حرّة المدينة.

فخرجوا، وانضمت الأوس والخزرج بعضهم الى بعض على دعواهم في الجاهلية، فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم وقال: « يا معشر المسلمين: أَبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد إذْ أكرمكم الله بالاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفاراً؟! » ولما عرف القوم انها ثمرة كيد من العدو ونزوع شيطاني، ألقوا السلاح، واعتنق بعضهم بعضاً ونزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذي آمنوا إن

تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله. ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم﴾[1].

لقد آحتقر الاسلام العصبية العنصرية والعصبية الجنسية والعصبية العائلية التي هزّت في الماضي كيان الانسان الاجتماعي وخرّبته، ثم عادت تذرّ قرنها وتنتشر بحمق وجنون في هذا العصر الحديث رغم ما انتهى إليه انسانه من تقدم علمي وحضاري.

ولقد اشتدت حملة الرسول ﷺ على النزعات الجاهلية التي منها التعصب للاباء والافتخار بهم، ورد الاجر والفضل كله الى الأعمال لا الى الأنساب. وفي المعنى الأول يقول: « لينتهينَّ أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا. إنما هم حطب جهنم أو ليكونُنّ أهون على الله من الجُعَل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء». ويقول في المعنى الثاني: « من بَطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» ويقول: «يا فاطمة بنت محمد اعملي لا أغنى عنك من الله شيئاً» ويقول لأهله: « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بإنسابكم!!».

ومن أجل هذا كان من منهج الدعوة الإسلامية مخاطبة كل الناس على اختلاف طبقاتهم وإمكاناتهم، وعلى قدر عقولهم ومفاهيمهم. وكان خطابه لهم جميعاً على مستوى واحد من المحبة والحرص على الخير وبلطف كامل وبالحكمة والموعظة الحسنة. وإذا جادلهم جادلهم بالتي هي أحسن، ولم يأخذ بالاعتبار أصل من يجادله أو عرقه أو لونه أو مكانته الاجتماعية. فإذا دخل الواحد حظيرة الإيمان وحسن عمله امتاز على سواه بفضل ما يقدّم من سعي حميد وعمل صالح. وفي مثل هذه يقول الله تعالى: ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك

---

(١) راجع هذه القصة في كتب التفسير وبخاصة في القرطبي ١٥٥/٤ والآيات من آل عمران ١٠٠ - ١٠١.

أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾[1]. ويقول بالتفريق بين المؤمن والكافر ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[2].

ومع ذلك فإن الله تعالى لم يحرم الكافر من الاستماع الى الحق والاستمتاع به، فوجه خطاب اليه كما وجهه الى المؤمن. ولقد قال بعض العلماء: أن ما ورد في الكتاب الكريم من الخطاب مبدوءاً بـ ﴿يا أيها الناس﴾ هو موجّه الى المشركين والكفار مع المؤمنين، فيسّر الله تعالى بذلك للمشرك سماع الحق ومشارفة النور كما يسرّه للمؤمن. بل ان القرآن الكريم ليبرز هذا المعنى كل البروز حين يقول: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[3].

ولا عجب في هذا وقد ارتضى الله تعالى الاسلام ليكون ديناً للعالمين، وليس لطبقة ولا لشعب ولا لقبيلة أو أسرة بالذات. بل جعل من حق كل إنسان مهما كان جنسه أو لونه أو لغته أو طبقته أن يتعرف الى ما جاء به عن طريق قراءة كتابه أو أحاديث رسوله أو سماعها... ومن حقه أن يؤمن به ويلتزم بشريعته وآدابه، ولذلك فإن من حق المشرك والملحد والكافر ومن لا عقيدة له الاطلاع على هذا الدين والإلمام بما فيه، ومدارسته ومناقشته والاستفادة منه، والانضمام إلى المجموعة التي انضوت تحت لوائه وآمنت به...

---

(١) الحديد ١٠.
(٢) ص ٢٧ ـ ٢٩.
(٣) التوبة ٦.

سبب تمييزه أتباعه على غيرهم:

بيد أن هذا المنهج الرحب الذي يرفض العصبية والعنصرية والذي يمتاز به الاسلام، لا يمنع ان تكون له شرائعه التي تحمي هيكليّته وتصون كيانه وتحفظ أتباعه وحقوقهم من عبث العابثين والمفسدين وذوي الاهواء والأغراض؛ فإذا ميّز أتباعه ومناصريه على أعدائه بالمعاملة أو بالحكم والنظر، فليس من المنطلق العنصري أو التعصّبي الأعشى، بل منطلق الحق وتعزيزه من أذى المعارضين والمخالفين. وإلا لم يعد للحق مناصر ولا مؤيد، وآستوى بعد ذلك الخير والشر، والحق والباطل، والاصلاح والفساد!!. وهيهات هيهات أن يقوم للعدالة صرح أو ينتصب للخير كيان..

ولو كان منطلق التمييز هذا الذي أجاز لنفسه الاسلام منحه لأتباعه على أعدائه قائماً على أسس العنصرية أو العصبية بالذات كما نرى عند اليهود مثلاً، لرفض الاسلام أساس التوراة والانجيل وأعلن حربه عليهما دونما هوادة، ولما قبل الرسول ﷺ أن يكون آتجاهه في صلاته، في مطلع الدعوة، إلى بيت المقدس، ولا أن يصوم عاشوراء ويقول لأصحابه مبرراً ذلك عندما رأى اليهود يصومونه «نحن أولى بموسى منهم» ولا أن يقبل بأن ينتصر بعض أتباعه للروم على الفرس يوم غلبهم هؤلاء، ولا أن يكرر الثناء العطر على أنبياء بني إسرائيل فرداً فرداً، وغير ذلك كثير مما يؤكد نزعة الإسلام العامة ومنطلقه الإنساني الشامل المرتكز على الحق والحق وحده.

موقفه من التعامل مع المشركين والكافرين:

ولقد اضطرت ظروف الدعوة نفسها الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، إلى التجمع والتكتل بعد أن تصدى لهم المشركون في قريش وحملوا عليهم حملة شديدة فيها كل التضييق والرفض في أن يبقوا فيهم ويظلوا يعيشون معهم، ومن ثَمَّ الخضوع إلى رغبة القرشيّين بالابتعاد عنهم والبحث عن بلد يلجأون إليه فِراراً بدينهم منهم، حتى يسّر

الله لهم الهجرة إلى المدينة حيث أقاموا مجتمعهم الإسلامي الخاص ثم دولتهم المواجهة لقريش وللعرب المشركين كافة.

وفي مجتمعهم الجديد وفي ظل دولتهم الحديثة الناشئة ظهرت تشريعات جديدة تناولت علاقة المؤمن بأخيه المؤمن والمؤمن بالمشرك والكافر وحددتها، بالاضافة الى تشريعات أخرى ظهرت نظمت علاقة المؤمن بربّه وبرسوله وشملت حياته الدنيا وأقامتها على أسس سليمة تضمن له سعادته فيها ومن ثم سعادته في الآخرة.

وقد يتوهم البعض بأن الاسلام ما كان يجيز للمسلم بأن يتعامل مع المشركين ومواصلتهم، كما يتوهم بأنه بالمقابل قد شحن نفسه بكل مشاعر الكره والحقد والمقت له، وفي هذا ما فيه من الخطأ الكبير، والانحراف الواضح عن جادة الصواب. إذْ لو كان الأمر كذلك، لتعذّر إيصال أيّة فكرة عن الدعوة الجديدة الى أي مشرك أو كافر. وهو ما لم يكن. لأن الدعاة المسلمين، وفي مقدّمتهم صاحب الدعوة الأول محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كانوا ينقلون الى أولئك المشركين والكافرين الصورة الواضحة عن الاسلام، ويدعونهم لاعتناقه والانضمام الى جماعتهم.. وذلك عن طريق اللقاء معهم والاختلاط بهم.

على أن الاسلام في مطلع الدعوة وقبل الهجرة كان يسمح بالاختلاط الكلي بالمشركين وبالزواج من نسائهم وبتزويجهم نساء المؤمنين. وقد زوج الرسول ﷺ ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس. وقد ثبت انها رضي الله عنها قد فدته من الأسر يوم بدر، ثم هاجرت الى المدينة بعد ذلك وظلت فيها وزوجها بعيد عنها في مكة كافر وهي على عصمته مدة ست سنوات حتى نزلت آية الممتحنة سنة ثمانٍ للهجرة وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهُنّ، الله أعلم بايمانهنّ، فإن علمتموهُنّ مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفّار لا هُنَّ حِلّ لهم ولا هم يحِلّون لهن. وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهُنَّ أجورهن ولا تمسكوا بِعِصَمِ الكوافر وَسْئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم﴾[1] وحينئذ جاء أبـو العاص مسلماً وردّ عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب[2].

ومنذ هذا النهي أمسك المسلمون عن الزواج بنساء المشركين. وقد ورد عن الزهري لما نزلت هذه الآية، طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امـرأتين كـانتا له بمكة: ابنة أبي أمية، وابنة جرول وكذلـك طلحـة بـن عبيـد اللـه طلـق بنـت ربيعة. وكان ممن فرّ الى رسول الله من نساء الكفار ممن لم يكن بينه وبين رسول الله عهد فحبسها وزوجها رجلاً من المسلمين، أميمة بنت بشر الأنصارية، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرّت منه، وهو يومئذ كافر، الى رسول الله فزوجها رسـول الله ﷺ سهل بن حنيف أحد بني عمرو بن عوف فولدت له عبد الله[3].

ولقد ظل تعامل المسلمين مع المشركين قائماً حتى كـانـت حـركـة المشركين الانتقامية منهم، وكانت الهجرة الى المدينة. وقام الحذر والاحتراس بل وحالة الحرب بينهما.. بيد انه مع ذلك فقد سمح الاسلام للمسلم بأن يتعامل مع قريبه المشرك المواصل له وكذلك مع الجار المحاسن ومن هو في حكم ذلك مع الحذر واليقظة المطلوبة دوماً. ولقد ورد انه ﷺ سمح لأسماء بنت أبي بكر بقبول هديـة والدتها المشركة عندما قدمت المدينة في الفترة التي كانت فيهـا الهدنـة قـائمـة بين رسول الله ﷺ وكفّار قريش كما في البخاري ومسلم، وكما فهم ذلـك أكثر أهـل التأويل لدى دراسة آية الممتحنة وهي قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1] فقالوا إنها محكمة ولا يزال العمل بها سارياً »[2].

بيد أننا قد نبّهنا سابقاً الى أن السماح بمعاملة المشركين مشروط بأن يكون في

---

(١) الممتحنة ١٠.

(٢) راجع القاسمي ١٣١/١٦ وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٤١.

(٣) راجع القاسمي ١٣٣/١٦.

(١) الممتحنة ٨.

(٢) القرطبي ١٨ ص ٥٩.

حدود الحذر واليقظة. وذلك لأن المشركين مع شركهم منافقون في خصالهم وأخلاقهم؛ تتلاعب بهم الأهواء والمصالح، ولا يشدّهم مبدأ ولا تضبطهم شريعة. ولذلك فإن الإسلام ينصح أتباعه بعدم الركون الى عهودهم ومواثيقهم وأيْمانهم. يقول الله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام...﴾ الى أن يقول: ﴿كيف وإنْ يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾[1]. ويقول: ﴿وإن نكثوا أيْمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلّهم ينتهون﴾[2].

وهو على كل حال سمح بالمعاملة في الحدود المذكورة آنفاً، ولكنه ظل يشتد مع البعض منهم ويقسو في معاملتهم ويضغط على المؤمنين لمجافاتهم وقطع موالاتهم أو موادتهم حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. وذلك من مبدأ الحرص على الجماعة الاسلامية والبحث عن أسباب الأمان لها وتخفيف المتاعب والمشاكل عنها. يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان. ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[3] ويقول: ﴿لا تَجِدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[4].

وقد فرّق العلماء في الحكم بين المسلم الذي يعايش المشركين ويفرض عليه ظرفه البقاء فيهم والاستمرار في التعامل معهم، وهو ضعيف لا يطيق إظهار دينه ولا يتمكن من الاستعلان في إقامة شعائره المفروضة عليه في الوقت الذي هو قادر على الخروج من بينهم الى منطقة إسلامية أو بلد إسلامي، وبين حكم المسلم العاجز الذي لا يملك القدرة على الخروج من بينهم الى بلد إسلامي أو مجموعة إسلامية

---

(١) التوبة ٦ - ٧.
(٢) التوبة ١٢.
(٣) التوبة ٢٣.
(٤) المجادلة ٢١.

وهو في الوقت نفسه ضعيف فاقد لإمكانية اقامة شعائره وابراز معالم عقيدته، وذلك لمرضه أو خوره أو ضعف من النساء والولدان، وبين حكم المسلم القوي القادر على كل ذلك فقالوا في حكم الأول:

إنه يجب عليه الخروج من حظيرة أولئك المشركين والهجرة الى بلد إسلامي يستطيع فيه أن يعلن عقيدته ويقيم شعائره الدينية المفروضة عليه دونما حسيب أو رقيب وذلك لقوله تعالى: ﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفُسِهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنّا مستضعفين في الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً﴾[1].

وقالوا في الثاني: إنه يجب عليه الهجرة ولكن عليه الصبر وارتقاب الفرص حتى يأتيه الوقت المناسب أو الظرف المؤاتي الذي يمكنه فيه الخروج وذلك لقوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً﴾[2].

وقالوا في الثالث: إنه يستحب له البقاء حيث هو بين المشركين وذلك ليتمكن من إظهار معالم دينه لأعدائه علّه يؤثر فيهم ويستميلهم إليه ويرغّبهم فيه ويشجعهم على آعتناقه. وذلك لأن العباس عم النبي ﷺ كان مقيماً في مكة مع إسلامه. وروى أن نعيم النّحام حين أراد أن يهاجر من بين قومه المشركين جاؤوه فقالوا له أقم عندنا وأنت على دينك ونحن نمنعك ممن يريد أذاك. واكفنا ما كنت تكفينا. وكان يقوم بيتامى بني عدي وأراملهم، فاستجاب لهم وأقام فيهم وتخلّف عن الهجرة مدة، ثم هاجر بعدها فقال له النبي ﷺ: «قومك كانوا خيراً لك من قومي لي؛ قومي أخرجوني وأرادوا قتلي، وقومك حفظوك ومنعوك» فقال يا رسول الله: «بل قومك أخرجوك الى طاعة الله وجهاد عدوّه وقومي ثبّطوني عن الهجرة وعن طاعة الله»[3].

---

(١) النساء ٩٧.

(٢) النساء ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) المغني لابن قدامه ١٠/٥١٤ ـ ٥١٥.

جواز عقد الهدنة مع المشركين:

ويدلف بنا هذا الحديث للتساؤل فيما اذا كان يمكن أن يعقد المسلمون الهدنة مع المشركين. ونجيب بأنه ﷺ عقد معهم الهدنة. فترك قتالهم ووادعهم وسالمهم. وإن كان هذا كما نصّ عليه العلماء لا يتم إلا بموجب شروط ينبغي مراعاتها. قال ابن كثير: « فامّا إن كان العدو كثيفاً، فإنه لا يجوز مهادنتهم كما دلت عليه الآية من سورة الأنفال. يقول الله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلم فآجنح لها وتوكّلْ على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حَسْبَك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين﴾[1] وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية »[2]. « ولقد كان من أثر هذه الهدنة والموادعة تخالط المسلمين والمشركين ودخول بعضهم الى ديار بعض وتبادل المنافع من التجارة والزيارة وسواهما »[3].

وقد ذهب العلماء الى القول بأن من أمّن من المسلمين مشركاً بقوله قف أو لا تخف، فقد وجب على المسلمين تأمينه. ولقد روى: « أن عمر بن الخطاب قال للهرمزان بعد أن أتى به، وكان فزعاً: تكلّم ولابأس عليك. فلما تكلّم أمر عمر بقتله. فقال له أنس بن مالك: ليس لك الى ذلك سبيل لأنّك قد أمّنته. قال عمر كلاّ. قال الزبير إنك قد قلت له تكلم ولابأس عليك!! فدرأ عنه عمر القتل »[4].

جواز قبول هدية المشرك:

بل ولقد ذهب الإسلام الى أبعد من هذا، فأجاز قبول هدية الكفار والمشركين كما سبق ذكره، وفيه ما فيه من جواز تبادل الصِلات وإقامة العلاقات والتعامل التي لا تضر بالعقيدة ولا بالدين. وقد قبل الرسول ﷺ هدية المقوقس كما أجاز لأسماء قبول هدية والدتها المشركة.

---

(١) الأنفال ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٣/٢.

(٣) المغني لابن قدامه ٦٠٥/١٠ - ٦١٥.

(٤) ابن قدامه ٥٥٨/١٠.

الاستغفار لهم:

ولئن كان الاسلام قد نهى أنصاره المؤمنين من موالاة ومناصرة المشركين والكافرين في الحياة وبعد المات، بمعنى التأييد والتعزيز. والتقوية على حساب الاسلام وضد مصالحه وتعاليمه، فقد اختلف عن ذلك موقفه منهم بالنسبة لجواز الاستغفار أو الدعاء لهم. وذلك لأن العلماء قد فرّقوا بين الاستغفار لأحيائهم والدعاء لهم، وبين الاستغفار والدعاء لهم بعد الموت.

وقد روى عن النبي ﷺ انه قال يوم أحد حين كسر المشركون له رباعيته وشجوا وجهه: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وفي هذا الدعاء كان ﷺ يرجو إيمان قومه المشركين ويأمل آنعطافهم نحو الاسلام والحق. ولذلك كان منه هذا الدعاء. وقد قال كثير من العلماء بأنه لابأس بأن يدعو المسلم لأبويه الكافرين وغيرهما ما داما على قيد الحياة...

وليس هذا بغريب عن منهج الاسلام الذي يحمل للناس كل معاني الخير ويضمر لهم كل حب ويتطلع اليهم بكل ود ورحمة. بل الغريب استنكار الدعاء لأحياء الكافرين أو المشركين أو الاستغفار لهم. لما في استنكاره من تعطيلٍ لمهمة الاسلام وتفريغٍ له من قصده وهدفه الذي هو الدعوة إلى الحق والتشجيع لتقبل الخير وايصال الناس الى صلاحهم الدنيوي والأخروي.

نعم إذا كانوا أمواتاً، فإن الموقف يتغير وكذلك الحكم. وذلك لأنهم ماتوا وهم مصرّون على الكفر وعلى معاداة الله ومحادّته، وآنقطع كل أمل بتحويلهم وتبدلهم من الكفر الى الايمان. وقد حرّم الله تعالى الاستغفار لهم وكذلك الدعاء والترحم عليهم. وفي هذا يقول القرطبي: «قال القاضي أبو بكر بن العربي تعلّق النبي ﷺ في الاستغفار لأبي طالب بقول ابراهيم عليه السلام: «ساستغفر لك ربي»[1] فأخبره الله تعالى ان استغفار ابراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبيّن الكفر

---

(١) مريم ٤٧.

منه . فلمّا تبيّن له كفره تبرأ منه . فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافراً »[1] .

ويتضح من هذا الكلام ان الاستغفار للكافر وللمشرك جائز اذا كان على قيد الحياة وكذلك الدعاء . ولكنه يصبح محرّماً بعد التأكد من موته مُصِرّاً على الكفر . ويتأكد قطعاً أن الاستغفار والدعاء الممنوعين هما بعد موت الكافر أو المشرك وانقطاع أمله في الحياة بقول الله تعالى لنوح ، وقد ناداه قائلاً : ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[2] ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك ان تكون من الجاهلين﴾[3] .

وقد ثبت بأن الله تعالى قد أذن لرسوله الكريم بأن يزور قبر أمه. ولكنه لم يأذن له بالاستغفار لها . فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال آستأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته بأن أزورها فأذن لي . فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » .

موقف الاسلام من دخول المشرك المسجد :

ولقد كان المشركون في أول العهد بالاسلام يترددون على المسجد الحرام كما يترددون على مسجد النبي ﷺ . حتى كان العام التاسع من الهجرة حيث نزل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[4] وقد ورد ان النبي ﷺ اتبع أبا بكر بعلي رضي الله عنهما لينادى في المشركين: « ألاّ يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » .

---

(١) القرطبي ٢٧٤/٨ - ٢٧٥ .
(٢) (٣) هود ٤٥ - ٤٦ .
(٤) التوبة ٢٨ .

ولقد ذهب الأحناف والشافعية وزيد والمؤيد بالله الى إن نجاسة المشرك المنصوص عليها في الآية هنا ليست نجاسة ذاته، وذلك لأنه ﷺ توضأ من مزادة مشرك واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها، وكانت القصاع تختلف من بيروت أزواج النبي ﷺ الى الأسارى ولا تغسل. وكان أصحاب النبي ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل.

بيد أن أجلة العلماء ذهبوا الى تحريم دخول المشرك أو الكافر الى المسجد الحرام، وقاسوا على تحريم دخول المشرك أو الكافر المسجد الحرام تحريمهم دخوله المساجد عامة. وبذلك كتب عمر بن عبدالعزيز الى عماله كما في صحيح مسلم: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر» والمشرك والكافر لا يخلو أحدهما عن ذلك لأنه لا يتطهر لا من بول ولا من غائط قال رسول الله ﷺ: «لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب» والمشرك وقد وصفه الله تعالى بأنه نجس لا يخلو من أن يكون نجس العين أو مبعداً من طريق الحكم. «وأي ذلك كان فمنعه من دخول المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيه والحرمة موجودة في المسجد». أما الشافعي وقد خالف هذا الرأي فقد رأى أن الآية عامة في سائر المشركين، ولكنها خاصة في المسجد الحرام. فإن جاز الذهاب الى منعهم من دخوله، فلا يجوز منعهم من دخول غيره. وبذلك أباح دخول اليهودي والنصراني الى المساجد كلها ما عدا المسجد الحرام[1].

---

(١) القرطبي الجزء الثامن ص.١٠٤ ـ ١٠٥.

الفصل السادس

صور عن مناسك المشركين وحياتهم ومواقف الإسلام منها

١ ـ عقيدتهم في الموت وما بعده

٢ ـ وسائل تقرّبهم إلى آلهتهم

٣ ـ دور النذور

٤ ـ البحيرة والسائبة والوصيلة والحام

٥ ـ سدانة الصنم

٦ ـ النّسأة

٧ ـ اعراف وعادات أخرى

٨ ـ شعائرهم الدينية

٩ ـ الحلال والحرام عندهم

١٠ ـ اعظم مواسمهم

١١ ـ عكاظ ومجنّة

١٢ ـ الطواف

١٣ ـ الحُمس والحلة

١٤ ـ السقاية

١٥ ـ المذابح والنصب

١٦ - المزارات
١٧ - الارواح والقوى الخفية وأثرها في حياة الجاهليين
١٨ - الهاتف والرئي
١٩ - الكهانة
٢٠ - العرّاف
٢١ - الاستقسام بالأزلام
٢٢ - من عاداتهم وأوهامهم

عقيدتهم في الموت وما بعده:

والمشركون الوثنيون من أبناء الجزيرة العربية كانت لهم الى جانب عبادتهم الأصنام عقائد وعادات وأعراف يحسن أن نتطرق إليها ببعض الحديث لنيسّر الكلام في شرح موقف الاسلام منها. فهم مثلاً يفهمون الموت على أنه سكون الجسد بعد مفارقة الروح له. كما يرون أساساً أن الانسان مركب من روح وجسد، فهم يعتقدن إذن بالثنائية في حياة الإنسان ووجوده.

غير أن أكثر الجاهليين العرب ما كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت. بل يعتقدون بأن الموت نهاية الإنسان، وأنه لا بعث بعده ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب.

ويثبت هذا أنه لما جاءهم الرسول ﷺ يحدثهم عن البعث وعن الحشر والجنة والنار والحساب والعقاب، عجبوا كل العجب. وقد قال الله تعالى معبراً عن ذلك ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾[1] وقال: ﴿وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وآباؤنا أئنّا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[2] وقال: ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون، قالوا اءذا متنا وكنا تراباً

---

(١) ق ٢ - ٣.

(٢) النمل ٦٧ - ٦٨.

وعظاماً أءنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[1].

وسائل تقرّبهم الى آلهتهم:

ولقد كانوا وهم يعتقدون بآلهة متعددة ويعظمون الاصنام والأوثان، يتقرّبون إليها بوسائل مختلفة يعبرون بها عن مشاعر التقديس ورغبات الحرص على مباركتها.

ومن وسائل توددهم إليها والتقرب الى رضاها، تنفيذ أوامر كهّانها وسدنتها، وزيارة معابدها وتقديم النذور إليها، وإيقاف الحبوس عليها، والحج إليها في أوقات مخصوصة مع تقديم القرابين إليها.

دور النذور:

ولقد كانت النذور شائعة في المجتمع الجاهلي، يلجأ العربي الى اطلاقها واستخدامها كلما حزبه أمر أو نزلت به حادثة تقتضيه الاستعانة بالقوى الخفية القاهرة. ولقد لعبت النذور دوراً كبيراً في حياة المشركين الدينية حتى كادت تكون المظهر الأول للتديّن عندهم.

والنذر قد يكون ذبيحة أو أكثر من ذبيحة. وقد يكو نقوداً، أو محاصيل زراعية أو فاكهة، كما قد يكون أرضاً، أو حبساً من إنسان لنفسه أو لآبنه أو مملوكه ليكون في خدمة الآلهة وبيوتها. ولقد كان من هذا القبيل «الربيط». وهو أنهم كانوا ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت أو لبيت الصنم. ويروى هنا أن أم «الغوث بن عامر» لما ربطته عند البيت أصابه الحر، فمرّت به وقد سقط وذوى وآسترخى[2]. ويفهم من هذه الحادثة أنهم كانوا يربطون المنذور

---

(١) المؤمنون.

(٢) الروض الآنف ٨٥/١.

لخدمة البيت بالموضع المقدس ليكون على اتصال تام به.

ولعل من هذا القبيل ما يفعله بعض الجهلة والبسطاء من عوام هذا العصر إذْ يربطون مرضاهم ومن يظنون أنه لا يعيش طويلاً من أولادهم وأحبابهم بقبور الأولياء بخيط أو حبل رجاء الشفاء لهم أو طول العمر.

وروت كتب السير أن عبد المطلب جد النبي ﷺ، قد نذر إن توافى له عشرة أولاد أن ينحر أحدهم. فلما اكتمل العدد عشرة قرّر الوفاء. ولما لم يكن قد حدد الولد الذي عليه أن يذبحه، ذهب كعادة أهل مكة الى هبل يستقسم عنده. فلما أصاب النصيب عبد الله والد النبي ذهب الى «إساف» و«نائلة» ليذبحه عندهما. فقامت قريش عليه وصرفته بالقوة والمنطق عن ذلك وأخذوه الى عرّافة كانت في المدينة يأتيها تابعها «أي جنّيها» فأشارت عليه بأن يضرب بالقداح على آبنه وعلى عشر من الإبل، وهو مقدار الديّة عندهم، فإن خرجت القداح على عبد الله ضربوا القداح مرة أخرى بعد أن يزيدوا الإبل عشرا وهكذا حتى تقع على الإبل حيث يكون الربّ قد رضي تمام الرضى كما يزعمون. وحينذاك تنحر الإبل. وفعلوا وارتفع عدد الإبل الى المئة. وحينئذ وقعت القداح على عبد الله فذبحوا الإبل ونجا عبد الله من الذبح.

وقد روى أهل التفسير والمحدثون والرواة أن من هذه النذور ما يقع فيه الاحتيال ويتصف بالتلاعب والمخادعة. وذلك كالذي ذكره القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[1] فكانوا يقسمون الغنم فيجعلون بعضه لله وبعضه للاصنام، فما كان لله أطعموه الضيفان وما كان للصنم أنفقوه على الصنم.

وكانوا إذ آختلط ما جعلوه للصنم بما جعلوه لله ردّوه، واذا آختلط ما جعلوه

(١) الأنعام ١٣٦.

لله بما جعلوه للصنم تركوه. وقالوا الله أغنى. وإذا هلك ما جعلوه للأصنام بدّلوه بما جعلوه لله، وإذا كان العكس لم يبدلوه بما جعل للأصنام[1].

وعلى العموم فقد كانوا يتصرفون بما خصّصوه لله من نصيب بينما يحافظون على ما خصّصوه للأصنام.

واشتهر من أعرافهم كثرة النحر في شهر رجب. وهو من الأشهر الأربعة التي كان لها حرمة عندهم ويسمّون الذبح في هذا الشهر «الترجيب» كما يسمّون الذبائح التي تقدم فيه «العتائر» وهي جمع عتيرة.

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام:

ولقد كان من عاداتهم الجاهلية أن الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك على خلاف في الرؤية، نظروا في البطن الأخير فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه. وإن كان أنثى شقوا أذنها ومنعوا جزّ وبرها والحمل عليها. وحرّموا على النساء ذوق لبنها أو الانتفاع بها. وحصروا منافعها بالرجال فقط. وهي التي كانوا يسمّونها البحيرة. وقد قيل في سبب هذه التسمية أقوال غير هذه.

وكانوا إذا قدم الرجل من سفر بعيد، أو برىء من علّة، أو نجّته دابّته من مشقة أو حرب قال: ناقتي سائبة، فَتُسَيَّب ولا ينتفع بظهرها ولا تمنع من ماء ولا من كلأ. وقيل غير هذا.

كما كانوا إذا ولدت الواحدة من الغنم أنثى بعد أنثى، سيّبوها ويقولون إنها وصلت أخاها؛ فلا تذبح وكان لحمها حراماً على النساء. وإذا نتج من صلب الفحل من الإبل عشرة أبطن قالوا فيه لقد حمى ظهره. فيتركونه ولا يركبون ظهره ولا يمنع من كلأ ولا من ماء.

---

(١) الطبري ٨/٣٠.

سدانة الصنم:

وكان من أبرز خصال الجاهليين سدانة بيت الصنم. وهي مهمّة خاصة تسند الى من يطلب إليه القيام بخدمة الصنم والمكان القائم فيه. وهو بيت العبادة. ويقال للسدانة الحجابة. ويعرف السادن بأنه الحاجب. وقد كان لهذه المهمة شأن عند العرب، لأنها كانت من درجات الشرف والجاه. وتضفي على القائمين بها حرمة ومكانة رفيعة في النفوس.

ولقد كان أمر فتح البيت وغلقه وسدانته موكولاً في الجاهلية الى بني عبد الدار. ولما فتح الله مكة على رسوله الكريم أقرّها فيهم. فكانت السدانة تنتقل إرثاً من الآباء إلى أكابر الأبناء، وتنحصر في الأسرة فلا يمكن انتزاعها منها إلا بالقوة. ومن واجب العشيرة كلها التي تنتمي إليها الأسرة السادنة أن تهب للدفاع عنها في مثل هذه الحال. وكانت الأسرة السادنة تستفيد من النذور والقرابين التي تقدم الى بيوت الأصنام لأنها من حقها وحدها ونصيبها.

النَّسأة:

ولقد كان في العرب الجاهليين متخصصون يتولون أمر المواسم وأمر القضاء فيهم والفقه والفتوى في الدين. وكانوا يشتهرون بأنهم «النَّسَأَة» ولقد كانوا ينسئون النّسيء فيعينون موسم الحج للناس ويثبتونه ويعيّنون الأشهر وبخاصة الأشهر الحرم. وهي الأشهر التي لها حرمة ومنزلة خاصة في نفوس العرب مثل رجب وذي القعدة وذي الحجة ومحرّم.

ولما كان العرب أصحاب حروب وغارات وغزوات، وكان يشق عليهم إذا كانوا في حرب أن يتركوا ما هم فيه فقد أجاز لهم هؤلاء «النَّسَأَة» تحليل ما حرّمه الله، أو تركه على ما هو عليه حسب ظروفهم وحاجاتهم لا حسب ما فرضه الله وأراده. وكانوا اذا أحلوا القتال في شهر من الأشهر الحرم حرّموا مكانه شهراً أخر. حتى وصل بهم الأمر فرفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم؛ فكانوا

يحرّمون من أشق شهور العام أربعة أشهر وذلك « ليواطئوا عدة ما حرّم الله » .

وقد اشتهر في العرب رجال من هؤلاء كانوا أئمة القوم وأصحاب الرأي والفتوى فيهم ، مثل وكيع بن سلمة ، وعامر بن الظرب ، وقصي ، وعامر بن جشم ابن غنم . وكانت لهم مكانة مرموقة في قبائلهم ؛ فكان الناس يلجأون إليهم لالتماس الحكمة والبركة والشفاء والقداسة .

ولقد كان العرب بشكل عام يحترمون العقود والعهود ويحترمون الأشهر الحرم فلا يقاتلون فيها إلا إذا أفتى النَّسَأة بذلك كما رأينا سابقاً . وهو ضرب من الاحتيال الشرعي الذي لجأ إلى مثله أصحاب السبت من اليهود وانتقم الله تعالى منهم بسببه . وكذلك كانوا لا يعتدون فيها على أحد حتى ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم . وكانوا يراعون حرمة الأماكن المقدسة كالمسجد الحرام فلا يتعرضون لمن لجأ إليه أو لاذَ به إنساناً كان أو حيواناً .

أعراف وعادات أخرى :

وكان أيضاً من أعرافهم أن الرجل منهم كان يتقلّد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم ثم يذهب حيث يشاء فيأمن على نفسه بذلك . وكان أهل مكة يفعلون ذلك عندما يخرجون في تجاراتهم ، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم فلا يعرض لهم أحد بسوء .

وكان أهل الحضر وسكنة المدن يتفنّنون في لبوسهم ويختلفون في كسوتهم ، خلافاً للكاهن ، فقد كان لا يلبس المصبغ . وكان لحرائر النساء عندهم زي . ولكل مملوك زي ، ولذوات الرايات زي . وكان الشاعر منهم إذا لجأ الى الهجاء دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة[1] .

---

(١) بلوغ الارب ٤٠٧/٣ .

شعائرهم الدينية:

ولقد كان من شعائرهم الدينية الصلاة والسجود للأصنام والطواف حولها. وإن كانت رواسات الرواة لم تنقل لنا صوراً لتلك الصلاة. وكان السجود معروفاً. ولقد كان من العرب من يسجد للشمس أو للقمر كما كان البعض منهم يسجد للأصنام.

وكان من شعائرهم الصوم. وقد روي أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء وأنها أخذت به في الجاهلية من شرع سابق. وورد أن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم كما كانت تكسو الكعبة فيه. فكان صومه من تمام تعظيمه[1].

وورد أن قريشاً كانت إذا أصابها قحط ثم رفع عنها صامت لله شكراً وحمداً[2]. ويظهر من الروايات المنقولة أن صوم الجاهليين كان عبارة عن امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء.

وكان العرب في الجاهلية يختتنون ويعيّرون الأغْرل وهو الذي لم يختتن. كما كانوا يتحنّثون أي يتبرّرون. ومن ذلك قول حكيم بن حزام في الحديث المرويّ عنه «أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة أي أتقرب بها الى الله تعالى بأفعال الجاهلية»[3]. وقد ثبت أنه ﷺ قبل الاسلام: «جاور في حراء شهراً من كل سنة وذلك قبل أن يبعث بقليل فيطعم من جاءه من المساكين. فاذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به الكعبة يطوف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته. وذكر أن ذلك الشهر كان رمضان»[4].

---

(١) إرشاد الساري ١٧٤/٦ باب أيام الجاهلية.
(٢) إرشاد الساري ١٧٤/٦.
(٣) تاج العروس ١١٦/١.
(٤) الطبري ٣٠٠/٢.

الحلال والحرام عندهم:

لقد كانوا كما قلنا «يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليها فلا يحلّون حراماً ولا يحرّمون حلالاً كما نقله ابن عساكر في التاريخ الكبير»[1]. ومفهوم هذا أنهم وإن كانوا يتقيّدون بالحلال وينفرون عن الحرام. ولكنهم كانوا يعرفون الحلال والحرام من خلال أقوال نسأتهم ورجال الدين فيهم وسدنة أوثانهم. وكثيراً ما يدخلون عن طريقهم في الحرام وهم يظنون أنهم يفعلون الحلال.

وقد روى اليعقوبي أن قريشاً وعامة ولد «مَعَدّ» بن عدنان كانوا يُقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم[2].

أعظم مواسمهم:

ولقد كانت لهم مواسم يحتفلون فيها ويشهدونها باهتمام. ومن أبرزها موسم الحج الذي كانوا يتهيئون له من دخول شهر شوال. ولقد كانوا يحجّون الى مكة كما يحجّون الى البيوت المقدّسة الأخرى. ويقصدون بيت الله الحرام في مكة أفواجاً ومن كل حدب وصوب. ويتقربون اليه بالهدايا والنذور والقربات. غير أنه كان منهم من لا يعير البيت الحرام حرمة ولا يحفظ له مكانة، فيعدوا عليه وعلى حجيجه، وينال منهم. حتى منّ الله عليهم وحقق لهم الأمان فيه وحوله، ويسّر لهم الرزق الوفير الذي يغنيهم. وقد ذكّرهم الله تعالى بهذه المنّة فقال: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف﴾.

ولقد كانت مناسك الحج مختلفة عند العرب. كما كانت لبعض القبائل منهم مناسك يتفرّدون بها من دون الآخرين...

---

(١) التاريخ الكبير ٣١٧/١.

(٢) اليعقوبي ٢٢٤/١.

عكاظ ومجنة:

وكان الجاهليون يستعدّون للحج عند حضورهم موسم « سوق عكاظ » فإذا انتهت أيام السوق وأراد بعضهم الحج ذهب الى « مِجَنَّة » فأقام بها الى هلال ذي الحجة ثم آرتحل عنها الى « ذي المجاز » ومنه الى « عرفة ».

وكانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز مواسم وأماكن أسواق عربية، يلتقي فيها العرب من كل مكان، يتبادلون فيها السلع ويمارسون التجارة ويسمرون ويطربون ويقرضون الشعر ويتفاخرون. حتى أصبحت ذات شهرة عربية واسعة وكتب عنها الرواة والمؤرخون كما كتب كبار روّادها من الشعراء والحكماء والخطباء العديد من القصص والأخبار.

الطواف:

ولقد آشتهر الطواف بالبيت على أنه من مناسكهم. فكانوا يطوفون بالبيت الحرام سبعاً كما كانوا يطوفون أيضاً بغيره من بيوت العبادة عندهم وحول قبورهم. وكثيراً ما كان يطوف البعض منهم وهو عريان.

الحُمسُ والحلّة:

وكانوا يطلقون على الذين يطوفون بالبيت وهم عراة بأنهم « الحِلَّة » كما يطلقون على الذين يطوفون به وهم لابسو ثيابهم بأنهم « الحُمُس »[1]. وتعِلّة الحلة قولهم « لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب » و« لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها »[2].

والعجيب أن هذه العادة كانت تشمل الرجال والنساء على السواء. فكانت المرأة من هؤلاء الحِلّة تطوف عارية. وقيل إن هؤلاء النسوة كنّ يضعن على

(١) الطبري ١٧٢/٢ والمحبر ١٧٨.

(٢) الروض الآنف ١٣٣/١.

عوراتهن سيوراً تسترها. أو أنهن يطفن ليلاً خلافاً للرجال الذين يطوفون نهاراً.

وقد قيل إن « الحِلّة » هؤلاء كانوا يأتون الى الحرم ويحاولون استكراء بعض الثياب من « الحُمُس » فإن تم لهم ذلك طافوا به، وإلا طافوا عراة.. وذلك لأن « الحُمُس » كانوا يتشدّدون في الدين ويتمسكون بثيابهم حال طوافهم.

وكان هؤلاء « الحُمُس » يقفون في حجهم في طرف الحرم من « نَمِرَة » ويفيضون منه الى المزدلفة ويقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحُمُس. وكانوا إذا أرادوا بعض الأطعمة والأمتعة وهو حجهم تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون في حجرتهم ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب[1].

وكانت « الحُمُس » هم قريش ومن ولدت، وكنانة وجديلة على رواية[2]. وقد يضاف إليهم كل من نزل الحرم وسكن مكة، وطوائف من العرب شاركت قريشاً وسارت على نهجها في الحج.

السقاية:

ولقد كان يوجد في بيوت العبادة عند الجاهليين أحواض للسقاية فيستقى منها المتعبدون، أو يتطهرون فيغسلوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم ليسمح لهم بدخول أماكن العبادة أو ليحل لهم إقامة الشعائر الدينية. وبئر زمزم هي البئر الوحيدة الباقية حتى اليوم من أيام الجاهلية.

ولقد كانت سقاية الحجاج من المآثر الكبيرة التي كان يفتخر بها أهل مكة. فكانوا يسقون الحجيج من الزبيب المنبوذ في الماء. وكان العباس عم النبي ﷺ يليها أيام الرسول ﷺ..

---

(١) الازرفي ١/١١٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث ١/٢٩٣.

المذابح والنصب:

ومما اشتهر أمره من عادات الجاهليين المذابح والنصب التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم التي يقدمونها الى آلهتهم، فقد كانت عادتهم أن يجعلوها أمام الصنم وعلى مقربة منه، فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم اسمها «الغبغب».

المزارات:

وقد عظم الجاهليون قبور رؤسائهم وساداتهم. واتخذوها أضرحة يزورونها ويتبركون بها ويتقربون اليها بمختلف القربات. ولقد اعتقدوا انها تغيث الملهوف وتعين على نوائب الدهر، وتلبي حاجة المحتاج، بل ذهبوا الى أكثر من هذا، فاعتقدوا أن من لجأ اليها من خائف وطالب حمى كان آمناً مطمئناً.

الأرواح والقوى الخفيّة وأثرها في حياة الجاهليين:

ولقد تنوعت عقائد الجاهليين وانعكست آثارها في حياتهم اليومية والمعاشية. وكان مما شدّ نفوسهم إليه خوفاً وهلعاً وأطارها شعاعاً الأرواح والقوى الخفيّة. ويعنون بها العمّار والشياطين والمردة والعفاريت. والعمّار جمع عامر وهم الجنّ الذين يسكنون مع الناس. وتبدو آثارهم بين حين وآخر في مجتمعاتهم. فإن تعرضوا للصبيان سمّوا أرواحاً. وإن خبث أحدهم وأصاب بعض الناس بشّره وأذاه كان شيطاناً. فإن زاد في البغي والعدوان أطلقوا عليه اسم المارد. وإن تمادى خطره واستفحل ضرره صار عفريتاً[1].

ولقد لعبت هذه الأرواح أو القوى الخفية أو الجن أدواراً هامة في حياة الجاهليين، وشكلت ظاهرة بارزة في سلوكهم وتعاطيهم حتى نسبوا إليها ما لم ينسبوه الى الآلهة. وقد طغت على عقولهم، وشغلت نفوسهم بكثير من الهموم والأوهام

---

(١) كتاب الحيوان ١٩٠/٦.

وحدت بالبعض منهم الى الاعتقاد بألوهيتها، أو بقيام المصاهرة بينها وبين الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. أو جعلوها شريكة له في خلقه تقاسمه حكم الكون وتصريف شؤونه والهيمنة على مرافقه وعوالمه.

وقد ذكر القرآن الكريم بعضاً من هذه الوقائع فقال: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾[1]. وقال ﴿وجعلوا لله شركاء الجن، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾[2]. ويقول: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾[3].

ولقد طغت الجن على حياة الانسان الجاهلي حتى كان البعض منهم يعوذون بهم من شرّ بعضهم. وهو ما أخبرنا الله تعالى عنه بقوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾[4]. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: «كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً» وكأنهم كانوا يظنون أن الوديان هي مقرّ الجن وملاجىء لهم. ولكي يتخلصوا من أذاهم وشرورهم كانوا يعوذون برؤسائهم لتحميهم وتدفع عنهم أذى أتباعهم. ويقول الربيع بن أنس كانوا يقولون فلان ربُّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ برب الوادي من دون الله فيزيدهم ذلك رهقاً وفرقاً.

ولقد كان بعض الجاهليين يعقدون مع هذه الأرواح أو القوى الخفية أو الجن أحلافاً على التعاون والتناصر ليتخلصوا من شرورهم ومصائبهم. وقد ذكر بعض الرواة قصصاً عن علاقة هذه الأرواح بالانسان الجاهلي. ومنها أن «تأبط شرّاً»

---

(١) الصافات ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) الأنعام ١٠٠.
(٣) سبأ ٤٠ ـ ٤١.
(٤) الجن ٦.

رفع كبشاً تحت إبطه وأخذه معه الى الحي فصار يبول عليه في الطريق حتى اذا قرب من مكانه ثقل عليه فرمى به فاذا هو الغول[1] . ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية فخافت عليه من سفهاء قريش. ولكنه ألحّ عليها فسمحت له. فلما أكمل الطواف وصار ببعض دور بني سهم عرض له شاب منهم فقتله. فثارت غبرةٌ شديدة في مكة ومات من بني سهم خلق كثير. قتلهم الجن انتقاماً لمقتل آبن هذه المرأة الجنّية. فما كان من بني سهم إلا أن نهضوا مع حلفائهم وعبيدهم وعَلوا الجبال والشعاب والثنايا. وما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا خنفساء ولا شيئاً من هوامّ الأرض إلا قتلوه حتى ضجّت الجن وصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم. فتوسطت قريش وأنهي النزاع وتغلب بنو سهم على الجن »[2].

وكانوا يعتقدون أن الجن تتصادق مع الإنسان، وتتباغض معه، كما قد تقتله. وقد يقع الحب بين الجن والأنس في نظرهم، فتتبع جنيّة إنساناً لحبها له، ويقال لها تابعة. وقد يتبع جنيّ آمرأة من الإنس لحبّه لها فيقال له تابع. وقد يتصاهر الإنسان مع الجن كما كان من عمرو بن يربوع ابن حنظلة التميمي الذي تزوج آمرأة من الجن. وقد نسبت بعض الأسر والقبائل الى الجن مثل بني مالك، وبني شيصان، وبني يربوع بن حنظلة. وعرفوا ببني السِّعلاة. ونسب بعض القصاص بلقيس وذا القرنين الى أنهما من أبناء الجن. وقد قال الجاحظ في ذلك « وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ونقرؤه من كتب السيرة قص به القصاص وسمروا به عند الملوك »[3].

وأياً ما كان الأمر، فقد اهتم العربي الجاهلي بعالم الأرواح وهابه وأعاره الكثير

---

(١) الأغاني ٢١/١٨.
(٢) الأزرقي ١١/٦.
(٣) المفصل ٧٣٦/٦.

من اهتمامه وعنايته ليصرف عنه أذاه وشرّه، ويقرب منه عونه وبرّه. بل ليسخّره لمصالحه وفي رغباته وأهوائه وبخاصة وأن الجن أو الأرواح أوتيت من القدرة ما به تستطيع أن تتشكل بالشكل الذي تريد ،وتفعل الكثير مما تريد.

الهاتف والرئي:

وكانوا يؤمنون بالهاتف. وهو أنهم كانوا يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم الخبر فيكون صحيحاً. ولعلّه حديث النفس. كما كانوا يقولون بظهور الجن وترائيهم الحقيقي لمن يتبعونهم من الإنس أو يألفونهم منهم. ولذلك فقد كانوا يقولون مع فلان رئي من الجن أي أليف يخبره ببعض الأخبار أو الأسرار. واشتهر ممن كان له رئي عمرو بن لحي بن قمعة والمأمور الحارثي وعتيبة ابن الحارث بن شهاب.

الكهانة:

ويفضي بنا الحديث عن الهاتف والرئي الى الحديث عن الكهانة. وهي بزعمهم الاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ بما سيحدث. ويسمى الذي يقوم بها كاهناً.

ولقد كان للكاهن في المجتمع العربي شهرة بالتحكم بالأشياء، وحل عقدها وإشكالاتها وكان يستقطب الناس ويستميلهم فيقبلون عليه ليحاكموا عنده. وقد ورد الحديث عن الكهانة في القرآن الكريم. وسيأتي عرض ذلك لدى البحث في موقف الاسلام منها.

ولم يكن مفروضاً على الكاهن أن يقوم بمهمته في بيت العبادة فقط، بل كان من حقه أن يقوم بها حيث شاء، في المعبد أو في بيته أو في مكان آخر. فينقل للناس ما يتراءى له وما يوحى به إليه قرينه وشيطانه مما قد استرقه من السمع ولفقه من الأخيلة والصور المناسبة لما يتفق وما يرتقبونه. وكان الناس في الجاهلية

يعرفون أن لكل كاهن شيطاناً يوحي إليه ويمده بالغي. وكذلك لكل شاعر شيطان يلهمه..

والكهانة على كل حال ليست عملية تنبئية ذاتية يقوم بها الكاهن، بقدر ما هي ثمرة مصاحبة أو مصادقة تكون بين الكاهن وأحد أفراد الجن، يألف معها هذا الجني هذا الكاهن ويتردد عليه ويزوّده بين الحين والآخر بالأخبار التي يخطفها مشوّهة من عالم السماء، كما سيأتي بيانه. ولكي يتم الاتصال بين الإنسي والجني اتصال التلبس، فإن الإنسي يتعرض الى بعض الغيبوبة التي تيسر عملية التلبس تلك. وتيسر من خلالها اتمام الاتصال. وكان الناس يرون آثار ذلك على أجساد الكهان تعباً وضنى فيزيدهم علواً في أنفسهم ورفعة...

ولقد شارك الكهان في حياة الناس في الجاهلية: شاركوهم في همومهم وأحزانهم ومصائبهم. وفي أفراحهم وأعيادهم. في حروبهم وحالات السلام. وكان يسرّهم ما يسرّ قومهم، ويؤلمهم ما يؤلم قومهم. ومن أجل ذلك جاءت الأخبار تقص علينا اشتراكهم في الغزوات والحروب، فكان منهم من يقاتل قتال الأبطال والفرسان، ومنهم من يكتفي بالعمل على تنشيطهم وحثهم على القتال. وكثيراً ما كانوا من أشراف القوم وسراتهم، فكان لهم في نفوس أقوامهم مهابتان: مهابة الشرف ومهابة الكهانة. وكان لهم تأثيرهم البعيد في الاقناع والحمل على الشيء أو الصرف عنه. فكانت كلمتهم هي الأولى في إبرام مهمات الأمور وعقدها كإعلان الحرب أو السلم أو الكشف عن جريمة أو البحث عن شيء مفقود.

ومن أشهر كهان العرب شق وسطيح وصاف بن صياد. وكان شق في زعمهم ذا يد واحدة وعين واحدة ورجل واحدة. كان نصف آدمي. أما سطيح. فقد كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب. لا عظم له إلا الجمجمة. وجهه في صدره. ولم يكن له رأس ولا عنق. وكان من أشهر الكهان في عصره. وأما صاف بن صياد فقد كان الى جانب كهانته يدعي النبوّة ويزعم أن شيطانه يأتيه بما خفي من أخبار الأرض...

وكان أيضاً من كهان العرب في الجاهلية سواد بن قارب الدوسي. وقد وفد على رسول الله ﷺ مع قومه وأسلم[1].

وكما كان في العرب كهان، فقد كان فيهم من النساء من يمارس هذه المهنة. وقد كان منهن شهيرات مثل طريفة الكاهنة وسلمى الهمدانية وسجاح والغَيْطلة وغيرهن كثيرات.

العرّاف:

وقد يطلق بعض العرب على الكاهن اسم العرّاف. وقد يفرّق البعض بينهما ويرى أن الكاهن يتعاطى البحث عن أخبار الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار والمغيّبات. أما العرّاف فهو الذي يعنى بالأشياء المسروقة والضائعة ويدل أصحابها عليها. ومن الناس من كان يرى أن الكهان هم الذين يتعاطون في الأشياء والأحوال الماضية الخفيّة ويحاول كشفها للباحثين عنها، وان العراف هو الذي يمارس مهمة الكشف عن الأنباء للأحوال المستقبلة.

ولكن يبدو أن الأصح هو أن الكاهن هو من كان يتنبؤ بواسطة تابع جني. والعراف هو الذي ينبّأ استنتاجاً ومن خلال مراقبته الأشياء وملاحظته الدقيقة لها وحولها.. ولعلنا لا نجاوز الحقيقة، إذا مثّلنا العرافة بالفراسة ولكن مع افتراق الفراسة عنها بأنها تكون بالاستدلال بهيأة الإنسان وأشكاله.

ويلحق بهما العيافة والفراسة. العيافة التي تكون تنبـؤاً بملاحظـات حـركـات الطيور والحيوانات ودراساتة أصواتها. والزجر هو العيافة نفسها. وأصله أن يرمي الطير بحصاة ويصيح فإن ولاّه في طيرانه ميامنة تفاءل به أو مياسرة تطير منه وتشاءم.

ولقد كانت تشيع الى جانـب هـذه الخصـال في الجاهليين خصـال أخـرى كالحزاءة، وهي النظر في النجوم واحكامها بظنّه وتقديره. ويسمى من يقوم بها

---

(١) الروض الآنف ١٣٩/١.

حزّاة. وكذلك كان يظهر فيهم الراقي وهو الذي يعمل الرّقية التي يرقى بها صاحب الآفة كالصرع والحمى وما شابهها.

الاستقسام بالأزلام:

وكان من أبرز أعمالهم وممارساتهم الدينية أو الاجتماعية استقسامهم بالأزلام. وهي سهام كانت لأهل الجاهلية لاعتقادات بها. مكتوب على «أمرني ربي» وعلى بعضها: «نهاني ربي» فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً من زواج أو صفقة تجارية وغيره، ضرب تلك الأزلام أو القداح؛ فإن خرج الذي عليه «أمرني ربي» مضى لحاجته. وإن خرج الذي عليه «نهاني ربي» لم يمض. وتكون هذه الأزلام في العادة عند بيت العبادة حيث يكون الصنم.

من عاداتهم وأوهامهم:

على أنه قد كانت لهؤلاء العرب في جاهليتهم عادات وكانت تشيع فيهم أوهام تقوم على أساس أساطير وخرافات. وكانت ذات دور عظيم في حياتهم الاجتماعية. فقد كان أحدهم إذا شاء السفر عمد الى شجرة «الرتم» فعقد غصناً منها. فإذا عاد من سفر، نظر في هذا الغصن فإن وجده معقوداً على حاله أعتقد ان امرأته لم تخنه. أما إن رآه منحلاً اعتقد بأن آمرأته قد خانته في غيابه[1].

ومنها أنهم كانوا يعتقدون أن المسافر إن التفت وراءه لم يتم سفره. وهو لذلك يتطير لأن في اعتقادهم أنه لا يلتفت وراءه إلا العاشق الذي يريد العود[2].

ولقد كان من عاداتهم أنهم اذا خافوا شرّ إنسان وأرادوا عدم عودته إليهم، أوقدوا خلفه النيران ليتحول شرّه. ومن أمثالهم: أبعد الله فلاناً وأوقد ناراً إثره. وكانوا إذا آفتقدوا أحدهم ولم يعثروا له على أثر، ذهبوا الى بئر قديمة ثم نادوا فيه

---

(١) المستطرف ٧٨/٢.

(٢) بلوغ الأدب ٣٨٢/٢.

اسم المفقود ثلاثاً فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي، وإلا اعتقدوا بأنه قد مات[١].
وحتى لا يعود الثقيل ومن لا يرغب الإنسان برؤيته عمد أيضاً عقب خروجه من عنده الى كسر بعض الآنية أو رمى حجراً خلفه..

وكانوا إذا شاؤوا دوام الحب بين اثنين، يشقون الرداء أو البرقع؛ فإذا أحبت امرأة رجلاً او العكس ولم يشق أو تشق الرداء فسد حبهما. أما إذا فُعل ذلك دام الحب بينهما ونما[٢].

والمرأة المقلاة إذا شاءت أن يعيش ولدها كان عليها أن تتخطّى القتيل الشريف سبع مرات... ولكي ينفّروا الجن من مقاربة صبيانهم كانوا يسمّونهم بأسماء غريبة تنفّر الجن منهم[٣].

ومن عقائدهم أن من ولد في الليلة القمراء كان مختوناً. وإذا خرجت رجل المولود قبل رأسه كان ذلك علامة سوء ودليل فساد... واختلاج العين عند الإنسان يعني توقع قدوم غائب... وتعليق الحلي على اللديغ يساعد على شفائه... وبول المرأة بين صفّي المتحاربين يطفىء نار حربهما وينتهي بهما الى السلام...

وكان من عاداتهم أنهم إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له، علّقوا عليه الأقذار كخرقة الحيض وعظام الموتى. وكانوا يفقأون عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين وذلك إذا بلغت الألف، فإذا زادت على الألف فقأوا له العين الثانية[٤].

وإذا أجدبوا وتضايقوا من انحباس المطر علّقوا السلع والعشر في أذناب البقر وأضرموا فيها النار وأصعدوها في شعاب الجبال أو حرروها منها، فيمطرون[٥].

---

(١) بلوغ الأدب ٣/٣.
(٢) نهاية الأدب ١٢٦/٣.
(٣) بلوغ الأدب ٣٢٥/٢.
(٤) الحيوان ١٧/١.
(٥) بلوغ الأدب ٣٠١/٢.

وكان البعض منهم يعتقد بوقوع المسخ، وأن « سهيلاً النجم » كان عشاراً على طريق اليمن. وكان ظلوماً فمسخه الله كوكباً. وان « اللات » وهي صنم لثقيف كان في الأصل يهودياً يلتّ السويق في الطائف فمسخ حجراً.

وكان يشيع فيهم السحر. كما كان يشيع في الشعوب التي كانت تنتشر حولهم فيستعينون به في بعض أمورهم. ولا شك أن الكهان ومن كانوا على صلة بأهل الكتاب وخاصة اليهود منهم كانوا يهتمون به ويمارسونه.

ولقد كان لهم بعد، عادات وخصال نقلت عنهم وكانت ظاهرة في مجتمعهم منها وأد البنات وهنّ أحياء. وأكل الربا في افحش صوره، وشرب الخمر وتعاطي الميسر. واستباحة أكل أموال اليتامى ظلماً. ونكاح نساء الآباء بعد موت الآباء. والجمع بين الأختين، وبين البنت وخالتها، والبنت وعمتها. وتعدد الزوجات دونما حدّ. والطلاق من غير أن يكون محدداً بعدد. وتعدد الرجال للمرأة الواحدة ثم تنفرد المرأة بتحديد نسب الولد إن كان لها الى من تشاء منهم.

ولقد تعمق فيهم الاحساس القبلي والعشائري. وتوثق ارتباطهم بالقبيلة والعشيرة ارتباطاً قوياً حتى كانوا لا يراعون معه حقاً ولا عهداً. وقد اندفعوا في حياتهم دونما حسيب أو رقيب من نظام يرجعون اليه اللهم ما عدا الأعراف والتقاليد والعادات التي كان يسهل عليهم خرقها وتجاوز حدودها إذا شاءوا، يحلّون ما حرّم الله ويحرّمون ما أحل، ويستحدثون من العادات والشرائع ما لم ينزّل الله به من سلطان وذلك تبعاً لأهوائهم ومصالحهم الذاتية..

ولقد كان لهم فوق ذلك أمثال وقصص وأخبار وحكم يمكن الرجوع الى كتب الأدب والأخبار والمغازي والتوسع في الاطلاع عليها. وهي في مجموعها مع ما سقناه آنفاً تعبر دونما شك عن نمط حياة العرب في الجاهلية وتعكس صوراً عن طرائق تفكيرهم وتعاملهم المعاشي. وعن نماذج من علاقاتهم فيما بينهم ومع من حولهم من الجوار... ولعلنا مع هذا العرض نكون قد رسمنا الى حدّ ما صورة معبّرة عن حياة العرب في جاهليتهم وعن مناسكهم وأساليبهم فيها.

الفَصْل السَّابع

موقف الإسلام من ذلك

1 ـ موقف الاسلام من عقيدة الجاهليين في الموت وما بعده
2 ـ يقينيّة البعث في الاسلام
3 ـ الموت ليس سكون الجسد
4 ـ الانسان والروح
5 ـ التدليل على البعث
6 ـ موقف الإسلام من الترجيب
7 ـ الطواف بغير الكعبة والسجود للشمس والقمر
8 ـ موقف الاسلام من الحُمْس والحلّة
9 ـ الذبح على النصب
10 ـ الاستقسام بالأزلام
11 ـ موقف الاسلام من الحزاءة
12 ـ موقف الاسلام من التطيّر
13 ـ موقفه من الكهانة والعرافة والسّحر
14 ـ موقفه من ذبائحهم ومناكحاتهم
15 ـ تحريم نكاح المشركات والحكمة منه
16 ـ الشيوعي صنوالمشرك
17 ـ مضارة النساء وعضلهن

لقد كان مبعث الإسلام بالهداية والنور، على فترة من الرسل وضلال من الناس، ليقوم بحركة إصلاحية برّة رحيمة بهم، ولينشط بحكمة ومرونة، وعن طريق الكلمة الطيّبة، والموعظة الحسنة والحوار الهادىء البناء وبصبر وتحمل لصرفهم عن النار وآجتذابهم الى أجواء الحق الفيحاء والى طمأنينة الحياة وسعادتها وراحة الآخرة ونعيمها المقيم...

ومن أجل هذا فقد كان لهذا الاسلام العظيم، موقف من كل ما كان يسمعه ويراه ويحس به من حياة المشركين، من أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ومناسكهم وعاداتهم وأعرافهم. وكان موقفه هذا ينبع من نور الأزل اللألاء الذي أضفى على أتباعه وصف أنهم ﴿خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون على المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

موقف الاسلام من عقيدة الجاهليين في الموت وما بعده:

ولقد رأينا فيما سبق أن الجاهليين كانوا يرون الانسان مركباً من جسد وروح وان الموت نهاية الحياة، وأنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ولا جنة ولا نار.

ولقد كان هذا الاعتقاد من أبرز ما تصدى له الإسلام من اعتقادات الجاهليين بعد الشرك بالله وتعظيم الأصنام والأوثان والتعبد لها. وذلك لأنه يمثل

(١) آل عمران ١١٠.

أحد أعظم الأصول التي يرتكز اليها الاعتقاد في الاسلام. وبخاصة وأن عقيدة التوحيد التي جاء يعلنها الاسلام بقوة وحزم هي إيمان نية الله الخالق البارىء المصور المحيي والمميت والقادر على كـل شيء. وإيمان بـالـرجعـة الى الله قيـوم السماوات والأرض عن طريق البعث والنشور للحساب والثواب والعقاب.

ولذلك فقد تصدى لعقيدة الوثنيين هذه بقوة. وجرّد عليها حملة تعتمد المنطق وتؤكد بطلانها بأدلة حاسمة وبراهين قاطعة.

يقينية البعث في الاسلام:

وكانت طلائع هذه الحملة تأكيد أن البعث يقيني، وأن المشركين في غفلة عنه. يقول الله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثُن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[1]. ويقول ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾[2] ويقول: ﴿ثم انكم بعد ذلك لميّتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[3] ويقول: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4] ويقول: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة، حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردّوا الى الله مولٰهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[5] ويقول: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[6]. ويقول: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[7].

---

(١) التغابن ٧.
(٢) المجادلة ٦.
(٣) المؤمنون ١٦.
(٤) النمل ٣٨.
(٥) الأنعام ٦١ - ٦٢.
(٦) الأنعام ٣٦.
(٧) المؤمنون ١١٥ - ١١.

الموت ليس سكون الجسد:

وقد ردّ الاسلام دعوى الجاهليين التي كانوا يقولون فيها إن الموت هو عبارة عن سكون الجسد، فأكّد لهم ولكل إنسان أن الموت حكم من أحكام الله على الانسان وفعل له سبحانه. وفي ذلك يقول: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[1].

الانسان روح وجسد:

ولكنّه أيّد ما كانوا يقولونه من أن الانسان روح وجسد وثبّته بما أورده من نصوص في القرآن الكريم. ولكن القرآن الكريم يطلق النفس على الروح لأنهما في نظر العلماء شيء واحد[2]. ولأن هذا هو الذي تدل عليها الآثار الصحاح. ومن ذلك حديث أم سلمة قالت: « دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شَقَّ بَصَرُه [أي انفتح] فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصَرُه، فذلك حين يتبع بَصَرُه نَفْسَه » خرجها مسلم. ويؤيد هذا ويثبته قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾[3].

التدليل على البعث:

ولقد واجه القرآن الكريم عقلية العرب الجاهليين مواجهة فكرية منطقية اعتمد فيها وسائل الإقناع وساق صوراً من الأدلة والبراهين التي يجد العقل المنصف نفسه

---

(١) الزمر ٤٢.
(٢) القرطبي ١٥/٢٦١.
(٣) الفجر ٢٧ - ٣٠.

أمامها أنه لا محيص له من الخضوع والاقرار. وبخاصة في موضوع البعث بعد الموت. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة، وغير مخلّقة لنبيّن لكم ونقرّ في الارحام ما نشاء الى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتَوفى ومنكم من يردّ الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ وأنْبَتَتْ من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة اتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[1]. ويقول: ﴿بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونَزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلعٌ نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج. كذبت قبلهم قوم ونوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب آلأيكة وقوم تبّع كل كذّب الرُسَلُ فحقّ وعيد، أفَعَيينا بالخلق الأول، بل هم في لبس من خلق جديد. ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2].

ولقد سلك على هذا الغرار في مطارحة القوم والدخول على عقولهم وقلوبهم، وساق العشرات من الأدلة في القرآن الكريم، كلها تؤكد وتجزم بأن البعث حق وأن الموت ليس سكـون الأجساد، وأن الله هو الخالق والمحُيي والمميت. وان الخالق الذي خلق في المرة الأولى يملك كل القدرة على الاعادة والبعث والنشور وان أدلة البعث قائمة بين يدي الإنسان يراها بعينه صباح مساء كإحيـاء الأرض بعد موتها واليقظة بعد النوم وغير ذلك... وحسبنا أخيراً أن نسوق قوله تعالى

(١) الحج ٥ - ٧.
(٢) ق ٥ - ١٦.

المعبر عن بعض هذا من سورة الروم: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السمٰوات والأرض كلٌّ له قانتون وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1].

ولم يكتف القرآن الكريم بالإدلاء بيقينية البعث بعد الموت، وبالأدلة المؤكدة لصحته ويسره على الله تعالى، بل زاد بأن بين ما سيكون عليه حال المنكرين للبعث يوم البعث وبعد الحساب... بيّن ذلك في جوّ من السخرية اللاذعة بهم، وبأسلوب معبر يجعل البعث كأنما هو واقع بالفعل: يقول الله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولله ملك السمٰوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يخسر المبطلون وترى كل أمةٍ جاثية، كل أمةٍ تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين. وأما الذين كفروا، أفلَمْ تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قُلْتم ما ندري ما الساعة إن نَظُنُّ إلاّ ظنًّا وما نحن بِمُسْتَيْقِنِين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذْتُم آيات الله هزُوا وغَرَّتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يُسْتَعْتَبون. فلله الحمد رب السمٰوات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2]. ويقول: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أءنّك لمن المصدّقين أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لَمَدينون. قال هل أنتم مُطّلعون، فاطّلع فرآه في سواء الجحيم

---

(١) الروم ٢٥ - ٢٧.

(٢) الجاثية ٢٦ - ٣٧.

قال تالله إن كدْتَ لتُرْدين ولولا نعمةُ ربّي لكنتُ من المحضرين. أفما نحن بميّتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذّبين أن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فَلْيَعْمَل العاملون أذلك خير نُزُلاً أم شجرة الزقّوم إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾[1] ويقول: ﴿كل نَفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين. ماسلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلّين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذّب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين كأنّهم حُمُر مُسْتَنْفِرة فرّتْ من قَسْوَره بل يريد كلّ آمرِئٍ منهم أن يُؤتى صحفاً مُنَشَّرة. كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره...﴾[2].

ولقد نشأ عن هذا النزاع حول الاعتقاد بالبعث وانكاره بين المشركين والرسول ﷺ وأتباعه محاورات كثيرة ومتنوعة روت كتب السيرة بعض أخبارها، وسجل القرآن صوراً معبرة عنها. وقد قال ابن عباس إن عبد الله بن أبي جاء النبي ﷺ وقيل غيره، بعد أن أراه عظماً حائلاً يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ!؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار. ونزل قوله: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خَلْقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يُحييها الذي أنْشَأها أوّل مرّة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون أوَ لَيْس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فَسُبْحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[3].

غير أن انكار الجاهليين المشركين للبعث لم يكن عاماً، فقد كان منهم قلّة يؤمنون بالبعث والحشر بالأجساد بعد الموت. وقد روي أن من هؤلاء القلّة من

---

(١) الصافات ٥٠ - ٦٣.

(٢) المدثر ٣٨ - ٥٥.

(٣) يس ٧٨ - ٨٣ وراجع الواقعة في الطبري ٢٣/٢١.

كان يعقل «العقيرة» وهي الناقة، عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً. ويقولون إنه يحشر راكباً عليها. ومن لم يفعل هذا حشر راجلاً. ومن هؤلاء زهير ابن أبي سلمى الذي يقول:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخّر   ليوم حساب أو يعجّل فينقم[1].

موقف الاسلام من الترجيب:

ولقد أتينا مقدّماً على ذكر الترجيب في الجاهلين. وقلنا إنه كان عادة شائعة عند العرب قبل الاسلام. وذلك أن الرجل كان يذبح أول نتاج إبله أو غنمه للأصنام أو كان ينذر إذا كان كذا وكذا أو بلغ شاؤه كذا فعليه أن يذبح من كل عشرة منها في رجب كذا وكانوا يسمونها العتائر.

ولما جاء الاسلام حرّم الذبح للأصنام قطعاً، ولكنه سمح بذبح العتيرة في رجب وظل الأمر سارياً في صدر الاسلام وأوله ثم نسخ[2] وقد ورد «لا فرع ولا عتيرة»[3].

الطواف بغير الكعبة والسجود للشمس والقمر:

وقد أبقى الاسلام سنة الطواف بالكعبة، ولكنه وضع لها حدوداً وشروطاً وسنناً. ومن سننه استقبال الحجر بجميع البدن إن أمكن والاضطباع وهو أن يجعل وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ويبقي كتفه اليمنى مكشوفة. ورمل ثلاثة أشواط ومشي أربعة على هينته ابتداء من الحجر الأسود. ويجب أن يكون سبعة أشواط لأن النبي ﷺ طاف سبعاً. كما يشترط فيه ليكون صحيحاً أن يكون الطائف طاهراً من الحدث والنجاسة ومستور العورة. وذلك لما

(١) النهاية ١/١١٥.
(٢) النهاية ٣/١٧٨.
(٣) تاج العروس ٥/٤٤٩.

روى عن ابن عباس ان النبي ﷺ قال: «الطواف بالبيت صلاة إلا أنكم تتكلمون فيه» رواه الترمذي والأثرم وعن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر يؤذن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[1].

هذا وقد حرّم الاسلام الطواف بغير الكعبة؛ فلا يجوز الطواف حول ضريح أي كان مهما كان مقامه ومهما كانت منزلته بقصد الطواف المشروع[2]. كما حرّم السجود للشمس أوللقمر أو لأي عظيم وحصر السجود بالله سبحانه وتعالى. ولقد روى لنا القرآن الكريم في سورة النمل أن بلقيس ملكة سبأ وقومها كانوا يسجدون للشمس من دون الله وأخبرنا بأن عملهم هذا كان بإضلال من الشيطان الذي صرفهم عن الحق وصدهم عن السبيل السوي. قال الله تعالى: ﴿وتفقّد الطير، فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذّبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾[3].

وقد نقل أن عبدة الشمس كانوا قد اتخذوا لهم صنماً بيده جوهرة على لون النار، وله بيت خاص قد بَنَوْه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع. وله سَدَنة وقوّام وحجّاب يأتون البيت ويصلّون فيه ثلاث كرّات في

---

(١) المغني والشرح الكبير لابن قدامة ٣٨٩/٣ وبعدها

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية ٥٢١/٤.

(٣) النمل ٢٠ - ٢٦.

اليوم. ويأتيه أصحاب العاهات يصومون له ويصلون ويدعونه ويستشفعون له، وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، واذا غربت أو إذا توسطت الفلك سجدوا. ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له﴾[١].

وقد نقل البعض أنهم كانوا يستقبلون الشمس ضحى، فروى الأسقع الليثي الصحابي المشهور أنه بعد أن خرج الى رسول الله ﷺ رجع الى أهله فوجد والده جالساً مستقبل الشمس ضحى[٢].

وقد جاء نهي القرآن الكريم حاسماً وجازماً عن السجود للشمس أو للقمر، لأنها وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لها في أنفسها فيستحقان بها العبادة مع الله الذي خلقها وخلق غيرها. ولو شاء لطمس نورها أو لأعدمها. يقول الله تعالى: ﴿وإما ينزعنّك من الشيطان نَزْغٌ فٱسْتَعِذْ بالله انه هو السميع العليم ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وٱسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إيّاه تعبدون﴾[٣].

ولقد ثبت أنه ﷺ نهى عن تحرّي الصلاة في هذه الأوقات كما نقل عنه قوله « إن الشيطان يقارن الشمس عند الش وعند الغروب ». وفي صحيح مسلم « لا تحرّوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان » وقد قال ابن تيمية « يطان يضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعل أهل دعوة الكواكب، فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدّثه بعض الأمور. ويسمّون ذلك روحانية الكواكب وهو شيطان. والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يُضِرُّه أضعاف ما ينفعه. وعاقبه من

---

(١) المفصل ٦/٣٣٧.
(٢) الاصابة في تمييز الصحابة ١/٥١.
(٣) فصلت ٣٧.

اطاعه الى شرّ إلا أن يتوب الله عليه »[1] .

موقف الاسلام من الحُمْس والحِلّة:

وكما جعل الاسلام للطواف حدوداً وشروطاً وسنناً ، نظم الحج ، فحدد له وقته وزمنه ومواقيته وأركانه وواجباته وسننه ومندوباته ومبطلاته ومكروهاته وبين فضائله وجعله عبادة خاصة بالله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . وأباح للمسلمين ما كانت الحمس قد حرمته على نفسها كما حرّم ما كانت اباحته جماعة « الحِلّة » من كشف العورة حين الطواف وأوجب سترها مطلقاً وبخاصة أثناء العبادة التي منها الطواف ، بل أوجب لبس ثياب الاحرام فقال تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[2] وورد عن أبي هريرة ما سبق أن ذكرناه وهو قوله « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[3] .

ولقد نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم ومنازلهم من أبوابها خلافاً لما كان يفعله بعض الجاهليين. فقال الله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البِرّ من آتقى. وأتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[4] .

وقد فهم القرطبي من هذه الآية أن فيها بيان أن ما لم يشرعه الله قُرْبة ولا نَدَبَ إليه ، لا يصير قُرْبة بأن يتقرّب به مُتَقرّب. قال ابن خُوَيز مَنْدَاد : إذا أشكل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان ص ٤٦٤ من مجموعة التوحيد .
(٢) الأعراف ٣١ .
(٣) صحيح مسلم ١٠٧/٤ باب لا يحج البيت مشرك .
(٤) البقرة ١٨٩ .

ما هو برٌّ وقُرْبة بما ليس هو بِرٌّ وقُرْبة أن ينظر في ذلك العمل؛ فإن كان له نظير في الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن، فليس ببرّ ولا قُربةٍ. قال: وبذلك جاءت الآثار عن النبي ﷺ وذكر حديث ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقالوا هو أبو اسرائيل [وهو رجل من الأنصار] نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظِلّ ولا يتكلّم ويصوم. فقال النبي ﷺ «مُرُوه فَلْيَتَكَلَّم وليستظِلَّ وَلْيُتِمّ صومه». فأبطل النبي ﷺ ما كان غير قربة مما لا أصل له في شريعته وصحح ما كان قربة مما له نظير في الفرائض والسنن(١).

الذبح على النصب:

وكانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الاسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظّم هذا البيت بهذه الأفعال. فكأنه عليه السلام لم يكره ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾(٢) ونزل قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب﴾(٣). وكأن الله تعالى يريد أن يقول إن ما ذبح على النُصب بنيّة تعظيمها يحرم أكله كما يحرم أكل الميتة وغيرها من المذكورات في الآية.

الاستقسام بالأزلام:

وقد ورد في الآية أيضاً النهي عن الاستقسام بالأزلام والحكم بتحريمه.

---

(١) القرطبي ٣٤٦/٢ - ٤٧.
(٢) الحج.
(٣) المائدة ٣.

والازلام قداح الميسر، وأحدها زَلَم وزُلَم. وهي كما سبق وعرفنا ثلاثة. وكانوا يستقسمون بها الرزق وما يريدون ونظير هذا ما حرّمه الله تعالى أيضاً. وهو قول المنجّم لا تخرج من نجم كذا وآخرج من أجل نجم كذا.

ولقد كانت الازلام عند العرب ثلاثة أنواع. الأول ما ذكرناه. والنوع الثاني سبعة اقداح كانت عند هُبَل في جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل،كل قدح منها مكتوب عليه؛ ففي أحدها مكتوب عليه العقل من أمر الديات، وفي آخر مكتوب «منكم» وفي آخر «من غيركم» وفي آخر «مُلْصَق» وفي سائرها احكام المياه وغير ذلك.

وكان العرب اذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون. ثم قالوا: يا الهناهذا فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: أضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان منهم، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفاً وإن خرج «ملصق» كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف.

وهذه الازلام هي التي ضرب بها عبد المطلب على بنيه إذ كان نذر أن ينحر أحدهم إذا كملوا عشرة.

أما النوع الثالث فهو قداح الميسر. وهي عشرة. سبعة منها فيها حظوظ. وثلاثة أغفال. وكانوا يضربون بها مقامرة لهواً ولعباً. وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدمين. والاستقسام بها هو طلب القَسْم والنصيب.

وقد بين الاسلام أن هذا العمل هو باطل ومحرم. والنوع الثالث هو من قبيل أكل المال بالباطل. والأنواع الثلاثة لا تخرج عن كونها ضرباً من التكهّن والتعرّض لدعوى علم الغيب. قال ابن خُوَيزِمَنْداد: ولهذا نهى أصحابنا عن الأمور التي يفعلها المنجّمون على الطرقات من السهام التي معهم ورقاع الفأل، وقال

الكيا الطبري: وإنما نهى الله عنه فيما يتعلق بأمور الغيب، فإنه لا تدري نفس ماذا يصيبها غداً. فليس للازلام في تعريف المغيبات أثر.

موقفه من الحزاءة:

ويلحق بالحديث عن الازلام الحديث عن الحزاءة التي هي النظر في النجوم وأحكامها بالظن والتقدير الشخصي. وهو ما لا يزال كثير من ذوي الفكر المحدود والنظرة القاصرة والثقافة الضحلة في عصر النور والعلم الذي نعيش فيه، يتيهون في ضلالات الأوهام ويخدعون بدعوى التنجيم في معرفة الغيب وكشف وقائع المستقبل وحقائقه. فيقبلون القول بأنهم منتسبون الى برج النسر أو برج العذراء أو الحمل أو الى غير ذلك مما ينسجه المنجمون ويروّجون له ويفترون فيه الأكاذيب ليزينوا لصغار العقول من الناس الاعتقاد بأنه حقيقة، وذلك استغلالاً لطيب قلوبهم وتنشيطاً لإغواءات أبالسة الإنس والجن والشياطين.

وإنا كثيراً ما نقرأ في صحف اليوم أو نسمع من بعض الاذاعات توجيه صغار الناشئة ومن هم في مستواهم الذهني من الكبار الى هذه الأخيلة والدعاوى ليغرسوا تأثيرها في نفوسهم. فيقولون لهم إن كنت من مواليد يوم كذا فأنت من برج كذا، ولذلك فإنك في هذا اليوم سيكون من شأنك كذا وكذا، فيتلقّفها هؤلاء على أنها حقائق، ويندمجون يومهم كله مع تلك الإيحاءات اندماجاً مفيداً أو ضاراً بنسبة ما تكون عليه تلك الإيحاءات من الخير أو الشر والنفع والضرر. ويجهل هؤلاء أو ينسون أن كل ذلك تنجيم ورجم بالغيب، وافتراء على الحق والواقع، وتضليل لأفكار الناس ودفع بهم ليقعوا في أتون الخرافات وأجواء الأساطيرالحميمة، وليخضعوهم لسلطة أوهامهم ليذوقوا حرق لهيبها وسوء تعذيبها...

والتنجيم والسحر من أرومة واحدة؛ ينهلان من كأس مزاجها من تخريف وتزييف وتدجيل. ولقد كان دجالو اليهود كما قلنا أول من أخذ يتعلم ألاعيب السحر وتمويهاته، فافتروا على نبي الله سليمان بن داوود بأنه كان يعمل بالسحر،

ووسوسوا به الى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر حتى آأتم بهم بعض مغفّلي المسلمين أو ذوي الأهواء منهم ممن يكونون في كل عصر ومجتمع وشعب حتى هذا التاريخ، فيَتلون أقساماً وعزائم ويخطّون خطوطاً وطلاسم، ويسمّون ذلك خاتم سليمان وعهوده ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت.

وقد زعم اليهود ان سليمان عليه السلام سحر، وأنه جمع كتب السحر ودفنها تحت كُرسيّه، وان الناس قد آستخرجوها من بعده ثم تناقلوها. وانه قد ضاع خاتمه الذي كان به ملكه، ووقع في يد آخر، وجلس مجلسه للحكم، وغير ذلك مما أمعنوا فيه كذباً وتزويراً وبهتاناً. وقد أكّد الله تعالى لنا كذب أولئك وفضح حالهم المخزي. وأخبرنا بأن سليمان كان نبياً كريماً وعبداً صالحاً بريئاً من كل ما نسبه إليه دجاجلة اليهود ومشعوذوهم. كما أخبرنا بأن الجن مثلهم كمثل غيرهم من الخلق لا يعرفون الغيب ولا يملكون الاطلاع عليه. قال تعالى: ﴿ولسليمان الريح غُدُوّها شهر ورواحها شهر، وأسَلْنا له عين القِطْر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابِ وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور. فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض تأكل مِنْسَأته، فلما خرّ تبيّنت الجن أنْ لَوْ كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1].

ولقد ذكر القرآن الكريم السحر، وأكثر من الحديث عنه ليلفت أنظار المؤمنين الى أنه تمويه وينبّههم الى أنه باطل. وليذكّرهم بوجوب التيقظ لألاعيب الممسكين به من السحرة والمشعوذين والمنجّمين حتى لا يسقطوا تحت تأثير باطلهم وينجرفوا في مخاطر تهويلهم.

---

(١) سبأ ١٢ ـ ١٤.

وينسجم موقف الاسلام هذا من السحر والتنجيم وما تفرّع عنهما والتحق بهما، مع موقفه من الأصنام والأوثان والوثنية عامة. فهو يحكم بتحريمها بل باعتبارها من الكبائر كما سبق وقلنا يقول الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1].

« والطاغوت كما ثبت مفهوم عام يشمل كل ما عُبد من دون الله، وكلّ من رضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة لله ورسوله »[2] وعليه فإن الشيطان طاغوت والذي يحكم بغير ما أنزل الله طاغوت. والذي يدّعي علم الغيب من دون الله طاغوت. واللجوء الى العائدين بالجن لاستطلاع آرائهم ومعلوماتهم بالمغيبات مع الاعتقاد بأنهم يعلمون ذلك لجوء الى الطاغوت واحتكام إليه. وكذلك الاعتماد على السحرة والاستعانة بهم للافساد بين الناس واستغلال المغفّلين والبسطاء منهم والعيْث في الأرض. يقول الله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً﴾[3].

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن مثل هؤلاء يكون لهم القرين من الشيطان فيخبرهم ببعض ما يَسْترقه من السمع من حديث الملائكة في السحاب ما يخيّل إليهم أنه الذي سمعوا، وليس كذلك دوماً وغالباً، فيختلط لديهم الوهم بالحق والكذب بالصدق، ويكون ما هو تنجيم ورجم بالغيب. وقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تنزل في ـ السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه الى الكهان فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم».

---

(١) النمل ٣٦.
(٢) مجموعة التوحيد لابن تيمية ص ٨.
(٣) النساء ٦٠.

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ في نفرٍ من الأنصار إذْ رُمي بنَجْم فاستنار، فقال النبي ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم!! قال رسول الله ﷺ: «لا! فإنه لا يُرمى بها لموت أحد أو لحياته. ولكن ربنا تبارك وتعالى اذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل السماء الذين يَلُونهم ثم الذين يَلُونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء. ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا؟! فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا. وتخطف الشياطين السمع فَيُرْمَوْن، فيقذفونه الى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق» ولكنهم يزيدون، وما لم يجيئوا به على وجهه فهو ولا شك كذب وآفتراء والمنقول له الخبر يضيع بين هذا وذاك وهو يظن أن ما يقال له هو الحق والصدق!!

وقد روي أن الاسود العَنَسِيّ الذي آدعى النبوة، كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيّبة. فلما قاتله المسلمون، كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه آمرأته بعد أن تبيّن لها كفره فقتلوه. وكذلك كان لمسيلمة الكذاب من الشياطين من يخبرونه بالمغيبات ويعينونه على بعض الأمور. وأمثال هؤلاء كثير مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادّعى النبوّة. وكانت الشياطين تساعده فتخرج له رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه. وكانت الرخامة اذا مسحها بيده تسبّح. وكان يُري الناس رجالاً ورُكباناً على خيل في الهواء ويقول هي الملائكة. وإنما كانوا جناً. ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك بن مروان إنك لم تسمّ الله. فسمّى الله فطعنه فقتله»[١].

وللجن كالانسان قدره. وقد تتجاوز قدرته قدرة الإنسان كما قد تتجاوز

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان من مجموعة التوحيد ٤٥٨ - ٥٩.

قدرة بعض الناس البعض الآخر. ولكن المعلوم والثابت أن قدرة الجن تبقى محصورة في الشواهد من الأمور التي قد تكون أحياناً غيبيّة بالنسبة الينا باعتبار أن الجن أسرع حركة من الإنسان وأقدر على سرعة التنقل والتشكل والنفاذ، وباعتبار أنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه. وقد ثبت في القرآن الكريم أن عفريتاً من الجن تعهد لسليمان عليه السلام بأن يأتيه بعرش بلقيس بفترة زمنيّة لا تزيد عن الفترة التي يقضيها للقيام من مقامه. كما ثبت أن منهم من كان يغوص له ويبني. ومثل هذه القدرة قد تيسّر لصاحبها الكثير مما يخيّل لمثلنا معه أنه من الأمور الغيبية وهو في الحقيقة من الأمور الحاضرة ولكنه لنا غير مرئي أو غير معروف.

موقفه من التطير:

ولم يكن التطير الذي كان شائعاً في الجاهلية، أقل نصيباً من سواه من توجه إنكار الاسلام عليه، فقد ثبت أن الرسول ﷺ لم يكن يتطير من شيء[1]. بل كان ينهى عنه حتى أنه أدرجه مع السحر والكهانة فقال «ليس منا من تطيّر أو تَطِيّرَ له أو تكهّن أو تُكُهِّن له أو سَحَرَ أو سُحِر له»[2].

والتطير هو التشاؤم ببعض الأسماء أو الأشخاص أو الأمكنة أو الأزمنة وغيرها مما شاع بين الناس.

وقد أخبرنا الله تعالى عن أقوام سابقين كانوا يتطيرون من بعض الرسل. فأخبرنا عن فرعون وقومه بأنهم كانوا إذا أصابهم سوء: «يطَّيَّروا بموسى ومن معه»[3] وان قوم صالح اطيروا به وبمن معه فقالوا له: «اطَّيَّرْنا بك وبمن معك» وأنه أجابهم بقوله: «طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون» وأن سبب تطير الأقوام هو أن الرسول كان يطلب إليهم تغيير ما كان عليه آباؤهم من عقائد وعادات

---

(١) جامع الأصول من حديث الرسول لأبي السعادات ٣٩٤/١.

(٢) الطبراني عن ابن عباس.

(٣) الأعراف ١٣١.

فيرون في ذلك شؤماً. والحق أن سبب شؤمهم هو ما كان يكون منهم من كفر وعناد فيه. ولذلك كان الرسول يجيبهم « طائركم معكم » أو « عند الله » لأنه سينتقم منهم شديد انتقام حال بقائهم على شركهم وكفرهم.

ولقد حدّثتنا كتب السير أن الوثنيين قد أوغلوا في هذا التطير إيغالاً شديداً حتى كان من أثره تشاؤمهم من الهام ومن صفر وخوفهم من العدوى. وكان من الذائع آعتقاد بعضهم أنه إذا مات أحدهم أو قتل آجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة تطير وترجع الى رأس القبر كل مئة سنة: فكان من قولهم بنات الهام [مخ الدماغ] وأن خروجها يكون من الأنف أو الفم ومن ذلك قول لبيد:

فليس الناس بعدك في نفير   وليسوا غير أصداء وهام

وقد قالوا إن الصدى هو ما يبقى من الميت في قبره وهو جثته. وقالوا غير ذلك مما لا سبيل الى إيراده كله. ولكن الذي لا بدّ من إيراده هو أن الرسول ﷺ أنكر هذا كلّه، وآعتبره باطلاً ولغواً وقال: « لا عدوى ولا طِيَرَة ولا هامة ولا صفر »[1] وقد ذكر بعض العلماء أن المراد من « صفر » في الحديث دابّة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب. فأبطل النبيّ ﷺ هذا الاعتقاد ونفى أن تكون معدية.

وليس من هذا الباب طلب الفأل. فقد كان ﷺ يعجبه أن يسمع يا راشد يا نجيح كما أخرجه الترمذي. ولقد كان يعجبه ذلك لانشراح النفس له واستبشارها بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل فيحسن الظن بالله عزّ وجل وقد قال: ﴿انا عند ظنّ عبدي بي﴾ وكان يكره الطّيرة لأنها من أعمال أهل الشرك ولأنها تجلب ظن السوء بالله. قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة ان الفأل إنما هو من طريق حسن الظنّ

---

(١) المفصل ١٣٩/٦.

بالله والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: « لا طِيرَةَ وخَيْرُها الفأل » قيل يا رسول الله، وما الفأل؟ قال « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم »[1].

ولقد روى أيضاً أن العرب كانوا يتيمّنون بالسانح، وهو الذي يأتي من ناحية اليمن، ويتشاءمون بالبارح وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون بصوت الغراب، ويتأولونه بأنه البين والفراق. وكانوا أيضاً يستدلّون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. وكذلك بالظباء اذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: « من لي بالسانح بعد البارح »[2].

وكثير من الناس اليوم تشيع فيهم مثل هذه الخصال فيتطيرون من مشهد أو يتفاءلون من آخر، فيتفاءلون مثلاً من مشهد الغنم عائدة في المساء الى حظائرها، ويتشاءمون من عواء الكلب الشديد الطول ليلاً كما يتشاءمون من المشاهد القبيحة اذا صبحتهم وغير ذلك.

وقد جاء الاسلام كما قلنا سابقاً بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طير أو من أي مشهد. وقال: «أقِروا الطير على وُكُناتها [أي بيضها] وذلك لأن كثيراً من أهل الجاهلية كانوا كما قلنا اذا أرادوا الحاجة أتوا الطير في وَكْرها فنفّروها، فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع وهذا هو البارح عندهم. ولقد روى عن عكرمة أنه قال: كنت عند ابن عباس فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر. وقد مضى الزمن الذي يكون فيه في

---

(١) القرطبي ٦/٦٠.
(٢) مثل يضرب للرجل يسيء الرجل فيقال له: سوف يحسن إليك، واصله أن رجلاً مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك. فقال: « من لي بالسانح بعد البارح ».

الناس من يعلم منطق الطير . وقد ورد عن رسول الله ﷺ : « ليس منا من تحلّم أو تكهن أو ردّه عن سفره تطيّر » . وقد علمنا الرسول ﷺ في حال مرور مثل هذه الأفكار في نفس أحدنا فإنه يحسن به أن يقول : « اللهم لا طير إلا طيرُك ولا خير الا خيرك ولا إلـه غيرك » ثم يمضي لحاجتـه وفي خبر « اذا وجـد ذلـك أحـدكم فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حـول ولا قوة إلا بك » ثم يذهب متوكلاً على الله ، فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك[1] .

موقفه من الكهانة والعرافة والسحر :

كما نهى الاسلام على التنجيم والتطير نهى أيضاً عن الكهانة والعرافة وعن السحر ونهى عن السعي الى الكاهن والعراف والساحر ،... لقد ورد عن قتادة قوله : « خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأوّل فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم له به » .

وقد ثبت أن الله تعالى ردّ على المشركين تطيرهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم وقال سبحانه : عندما « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لـنرجمنّكم » ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم ، بل أنتم قوم مسرفون﴾[2] . ولما قال قوم ثمود لصالح عليه السلام : « اطّيّرنا بك وبمن معك » أجابهم بقوله : ﴿ طائركم عند الله بـل أنتم قوم تفتنون﴾[3] وكان قوم فرعون« إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنـا هـذه ، وإن تُصِبْهم سيئة يطّيّروا بموسى ومن معه » ولقد أخبرنا الله تعالى بقوله جازماً ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[4] .

---

(١) القرطبي ٧/٢٦٦ .
(٢) يس ١٧ - ١٨ .
(٣) النمل ٤٧ - ٤٨ .
(٤) الأعراف ١٣١ .

وفيما ورد في القرآن من مثل هذه الآيات دليل على أن الأقوام السابقين كانوا يسرفون في الأخذ بمبدأ التطير ، بل ويستندون إليه في كثير من اعتقاداتهم وأعمالهم السلوكية ، كما فيه توجيه حكيم لرفض هذا الأسلوب في الحياة وفي الاعتقاد . وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا عدوى ولا طِيَرة ويعجبني الفأل ، قالوا يارسول الله وما الفأل؟ قال: « الكلمة الطيّبة » وروى أبو داوود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: « ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: « أحسنها الفأل ولا تردّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، وما منا إلا ويقع في نفسه شيء ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » . ولأحمد من حديث ابن عمر : « من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفّارة ذلك؟ قال: « أن تقول: اللهم لا خير إلاّ خيرك ولا طَيْر إلا طيرُك ولا إله غيرك »[1] .

ولم يقبل الاسلام فعل الكهان والعرافين وآعتبر المصدق بهم كافراً بما أنزل على محمد كما اعتبرهم من الطواغيت وعملهم من الطاغوت لأنهم يتلاعبون بذكائهم ومهارتهم بعقول ضعفاء الناس وبسطائهم يقتنصون أموالهم ويدفعون بهم الى الانحراف عن سبيل الحق والخير الى سبيل الباطل والشر . ولقد تناولهم القرآن في مناسبات عدة مشنّعاً عليهم . لاعناً لهم ولكل من يتبعهم . ومن قوله تعالى فيهم ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[2] ومنه أيضاً ﴿الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ .

---

(١) مجموعة التوحيد لابن تيمية ١٦٤ .
(٢) البقرة ٢٥٦ .
(٣) النساء ٥١ ـ ٥٢ .

وإن أهل اللغة يطلقون الجبت والطاغوت على الصنم والكاهن والساحر والسحر وكل ما لا خير فيه. فالطاغوت اذن هو من الكلمات المرادفة للفظة كاهن ولفظة جبت. ومن هذا يفهم أن الكاهن كان فعله من الخطورة والضرر بحيث لا يقل سوءاً وأذى عن فعل الشيطان والساحر.

وقد سئل الرسول عن الكاهن ومكانته بعد ما كان له من الأثر والوجود في حياة العربي قبل الاسلام، وفي المجتمع العربي الجاهلي فورد: «سأل رسول الله ناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء» فقالوا يا رسول الله انهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً فقال: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيقرّها في أذن وليّه فيخلطون معها مئة كذبة»[1]. وفي ابن هشام ان رسول الله سأل نفراً من الأنصار فقال: «ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به. قالوا يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها مات ملك، ولد مولود، مات مولود، فقال: ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً أسمعه حملة العرش فسبّحوا، فسبّح من تحتهم، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي الى السماء الدنيا فيسبحوا، ثم يقول بعضهم لبعض مم سبّحتم؟ فيقولون سبّح من فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم، فيقولون ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا الى حملة العرش فيقال لهم مم سبّحتم؟ فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان، فيهبط به الخبر من سماء الى سماء حتى ينتهي الى السماء الدنيا فيتحدثوا به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهّم واختلاف ثم يأتوا به الكهّان من أهل الأرض فيحدّثوهم به فيخطئون ويصيبون فيتحدّث به الكهان فيخطئون بعضاً ويصيبون بعضاً[2].

ولما جاء الوحي الرباني ليعرّف الناس بمحمد كرسول بعثه الله واختاره لهم بشيراً ونذيراً، وكأنهم ظنوا أنه من قبيل الكهان، فبرأه الله من ذلك وأكثر من نفى

---

(١) ارشاد الساري ٨/٤٠٠.

(٢) ابن هشام ١/١٣٧ من الروض الأنف.

هذا الوصف عنه فقال: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾.

وقد جاءت النصوص الكثيرة بالنهي عن الكهانة ومنها قوله ﷺ: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً» وقوله من أتى كاهناً فصدقه بما يقول كفر بما أنزل على محمد» وعن ابن عباس في رواية ابن عطية انه عرف الطواغيت بأنهم تراجمة الأصنام الذين يكونون بين أيديهم يعبرون عنها بالكذب ليضلوا الناس.

لقد نهى الاسلام عن السحر واعتبره محرماً ومن السبع الموبقات. كما نهى عن اتخاذ التمائم والرقى وحكم بأنها من الشرك. وعن أبي هريرة عنه ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا يا رسول الله: ما هذه؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه» ورغم اقرار القرآن الكريم بوجود السحر والساحرين، فقد حكم بأنه تخييل وكفر وأن ضرره موقوف على أذن الله تعالى، ولذلك فإن حسن التوكل عليه يساعد على دفع غائلة السحر وشره. يقول الله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾[1] ويقول: ﴿فإذا حبالهم وعِصِيّهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ويقول: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله﴾[3].

ولكي يساعد المسلم المؤمن على التخلص من تأثير إيهام السحرة والسحر، علمه سبحانه تعالى أن يتعوذ به ويتحصن بكلماته فقال: ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر

---

(١) البقرة ١٠٢.
(٢) طه.
(٣) البقرة ١٠٢.

ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد، ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾.

وللمؤمن مندوحة في كلمات الله، فليستعذ بالله وليتحصن بكلماته التامات من شرّ ما خلق، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر السحرة والساحرين وليكثر من تلاوة كتاب الله الكريم فإنه له حافظ. والله تعالى يقول: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

وقد قال الزمخشري في حديثه عن النفاثات في العقد، النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين، والنفث النفخ مع ريق. ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه...[1].

وقد روى عقبة ابن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما أنا أسير مع النبي ﷺ بين الجحفة والأبواء اذ غشتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله يتعوّذ بـ «أعوذ برب الفلق» و«أعوذ برب الناس» ويقول: يا عقبة تعوذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما. وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما آشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها».

وأما بالتمائم والرقى والتعاويذ، فقد ورد فيها إذا لم تكن بكلمات الله، النهي عنها واعتبارها من أعمال الشرك والضلال. يقول الله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾[2] ويقول: ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات

---

(١) تفسير القاسمي ١٧/٣٠٣.

(٢) الأحقاف ٣.

ضُرّه﴾[1]. وعن عمران بن حصين ان النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: «ما هذا» قال من الواهنة. فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً». وله عن عقبة ابن عامر مرفوعاً: «من تعلق بتميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري انه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً ان لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت». وعن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوْلة شرك» والتِّوْلة شيء كانوا يصنعونه في الجاهلية يزعمون أنه يحبب المرأة الى زوجها والرجل الى امرأته». وللرقى حكمان؛ فهي محرّمة إذا كانت مكتوبة بلغة أو حرف لا يفهم منه شيء ويخشى أن يتخللها سحر أو كفر. وهي مستحبة إن كانت مكتوبة بلغة عربية أو لغة مفهومة وكانت تستعين بآيات الله وذكره لأنها في هذه الحالة بمثابة الدعاء.

وعلى كل حال فإن على المسلم ألا يستغيث بغير الله وألا يبحث عن الشفاء والحاجة إلا عند الله. يقول الله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله عزّ وجل».

موقفه من ذبائحهم ومناكحاتهم:

وقد فرق الاسلام بين المسلم والكافر المشرك فاعتبر ذبائح المشرك كلّها محرمة على المسلم لا يباح له أكلها، وذلك لأن المشرك لا يذكر عند ذبحها اسم الله تعالى،

---

(1) الزمر، ٣٨.

بل يذكر اسم صنمه أو يذبحها عنده تعظيماً له وأملاً بالفوز برضاه. ولقد أوضح الاسلام أن كل ذبيحة لا يذكر عليها اسم الله، أو تذبح على النصب أو عند صنم هي كالميتة وفي حكمها كالمنحنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يأكلوا الطيبات ويتجافوا عن الخبائث ولا يتّبعوا خطوات الشيطان، وخطوات من خضعوا لإغرائه وتأثيره كالمشركين وغيرهم ممن ينطبق عليهم حكمهم فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم وآشكروا لله إنْ كنتم إياه تعبدون. إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾[1] وقال: ﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النُصُب﴾[2] وقال: ﴿قل لا أجد فيما أوحي الى محرّماً على طاعم بطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجسٌ أو فسقاً أهل لغير الله به فمن آضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم﴾[3].

وقد كان مشركو العرب يأكلون هذه المطاعم الخبيثة ولا يبالون فيأكلون الميتة وما هو في حكمها، ويأكلون الدم المسفوح. ويأكلون ما ذبح من غير أن يذكر اسم الله عليه، أو ما ذبح على النصب، وهي ما نصب من أصنام أو حجارة وعبدت من دون الله. وقد كانت منتشرة حول الكعبة، وقد خصص بعضها ليُهَلّ عليها ويذبح لغير الله تقرّباً الى آلهتهم وتعظيماً لها.

الحكمة من فرض ذكر اسم الله على الذبيحة:

وقد شاء الله تعالى ألا يأكل المسلم المؤمن من لحوم الحيوانات المباحة بنص الكتاب إلا إذا كانت مذكّاة وذكر اسم الله تعالى عليها. وذلك لأنه يريد من

---

(١) البقرة ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) المائدة ٣.

(٣) الأنعام ١٤٥.

المسلم أن يفرده بالالوهية والإكبار، ويريد أن يوثق صلة عبده المؤمن به فيكون دائم الذكر له ودائم الوعي بأنه بإذن الله يذبح هذا الحيوان وبإذن الله يأكله. ولأنه يريد أن يرى عبده متجافياً عن فعل المشركين الذين يذكرون اسم غير الله عند الذبح كاللات والعزّى...

تحريم نكاح المشركات والحكمة منه:

وقد حرّم الاسلام على المسلم نكاح المشركات كما حرّم على نساء المؤمنين الزواج من المشركين مهما كان حالهم وأياً كانت مكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية والمالية. وذلك لأن الزواج في نظره ارتباط اجتماعي دائم مدى الحياة، ذو مفعول إيجابي في حياة الفرد والجماعة؛ فما لم يقم بين الزوج والزوجة انسجام في العقيدة والدين استحال أن ينشأ بينهما تبادل الاحترام والثقة وان يوثق ارتباطهما عنصر المودة والرحمة، وتعذر عليهما بالتالي بناء الأسرة وهي ركيزة المجتمع وأساس وجوده، بناءً متيناً يضمن استقرارها وأمنها وسعادتها. فإذا اختلفت عقيدة الزوج مع عقيدة الزوجة في الأصول والجذور تعرضت علاقاتها الى كثير من مظاهر النزاع والتصدع وفقدت كل مبررات التعاون والثقة اللذين يشكلان العناصر الأساسية لهيكل الأسرة.. ومن أجل ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَنْكِحوا المشركات حتى يؤمِنَّ وَلَأَمَةٌ مؤمنة خير مِن مشركة وَلَوْ أَعْجَبَتْكُم، وَلا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا، وَلَعَبْدٌ مؤمن خير من مشرك وَلَوْ أَعْجبكم أولئك يَدْعون الى النار والله يدعو إلى الجنّة والمغفرة بإذنه، ويبيّنُ آياته للناس لعلّهم يتذكّرون﴾ (١).

وروى الواقدي وغيره عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ بعث رجلاً من «غنِى» يقال له مرثد ابن أبي مرثد وهو حليفٌ لبني هاشم، الى مكة ليخرج أناساً

---

(١) البقرة ٢٢٢.

من المسلمين بها أسرى. فلما قدمها سمعت به آمرأة يقال لها عناق، وكانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، فأتته فقالت: «ويَحْك يا مرثد ألا تخلو؟! فقال لها: إن الاسلام قد حال بيني وبينك وحرّمه علينا، ولكن إنْ شئت تزوجتك. فقالت نعم. فقال إذا رجعت الى رسول الله آستأذنته في ذلك ثم تزوجتك. فقالت: أبي تَتَبرّم؟! ثم استعانت عليه فضربوه ضرباً موجعاً ثم خلّوا سبيله. فلما قضى حاجته بمكة انصرف الى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها. فقال يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها وفي رواية أنها تعجبني فنزلت هذه الآية [1].

وقد اتفق العلماء على أن المراد بالمشركات في هذه الآية غير الكتابيات. وتحريم الزواج بهنّ جاء تغليظاً لأمر الشرك، ولأن المشركة ليس لها دين يحرّم الخيانة ويوجب عليها الأمانة والعفة ويأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، فهي موكولة الى طبيعتها وما تربت عليه في عشيرتها من خصال الجاهلية وخرافات الوثنية وأوهامها وأماني الشيطان وأحلامها، ولذلك فإنها قد تخون زوجها وتفسد عقيدة أولادها ولا تربّيهم التربية الصالحة فإن ظل الرجل رغم ذلك على اعجابه بجمالها كان ذلك عوناً لها على التوغّل في ضلالها وإضلالها.

الشيوعي صنو المشرك:

وقد آبتلينا في هذا العصر بعقائد منافرة للإسلام كالشيوعية وهي مذهب مادي لا يؤمن بغير المحسوس. وينكر بالتالي جميع الغيبيّات، وفي مقدمتها وجود الله. وقد نشطت كثيراً حتى دانت بها دول وخضعت لها شعوب وتأثر بها أفراد من مختلف الديانات والمعتقدات. ولقد بنت حضارة، ولا تزال تمارس دورها الخطير ببراعة، وأخذ ينتشر وجودها في مختلف بقاع الأرض وتتعمق مبادئها وأفكارها ويكثر اتباعها وأنصارها.

---

(١) تفسير المنار الجزء الثاني ص ٣٤٨.

ولئن كان الاسلام قد تصدى للشرك قديماً وحديثاً، لأنه يشجع على الاعتقاد بإله آخر أو آلهة أخرى مع الله ويرفض الإيمان بالكتب والملائكة والنبّيين واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنّة والنار، فإنه لا يسعه أيضاً أن يقف من الشيوعية إلا بمثل وقفته من الشرك. ذلك لأن الشيوعية أسوأ اعتقاداً من الشرك. فهي تزيد عليه بأنها تنكر أصلاً الاعتقاد بوجود الله، ثم تشترك معه بأنها ترفض الايمان بالكتب والنبيين والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنة والنار. وإنها لعقيدة تكاد تكون شبيهة بعقيدة الدهريين الذين كانوا يرون أنه ليس ثمة إلا هذه الدار يموت فيها قوم ويعيش آخرون. وليس هناك من يوم آخر ولا معاد ولا قيامة ولا صانع. وان الذي يهلك الناس الليل والنهار وهو الذي يحييهم. وقد ذكر الله تعالى لنا عقيدة هؤلاء هذه في قوله: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم إلا يظنّون﴾[1].

ويؤسفنا أن كثيراً من المسلمين في هذا العصر لا يلتفتون الى هذه الحقيقة ولا يعيرونها ما تستحق من الوعي والرعاية وتطبيق الحكم الشرعي، فيقعون في خطأ خطير حيث يبيحون زواج بناتهم من شيوعيين أو يزوجون أولادهم من شيوعيات وأمثالهم من الملاحدة والزنادقة والمارقين من الدين. وما أكثر أنواعهم واعدادهم في هذه الأيام، علماً بأنهم يعرفون منهم جميعاً إنكار وجود الله أصلاً ولا يؤمنون بالتالي بالنبيين والكتب المنزلة والملائكة واليوم الآخر. وكان الجدير بهم أن يعلموا بطلان هذا الزواج لتحريم الاسلام له؛ ذلك لأن الشيوعية لا تقل خطراً على الاسلام والمسلمين ومجتمعاتهم من الشرك لأن الشرك يعترف بمبدأ الألوهية ولكنه يعدد فيها وينوع ضلالاً أو كبراً وعناداً. وأما الشيوعية فترفض أساس العقيدة بوجود الله الخالق البارىء المصوّر!!.

من أجل هذا كان لا بد من لفت النظر الى وجوب أن يطبق على الشيوعيين

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٥٠.

والملاحدة ما يطبق على المشركين. وذلك بتحريم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم أو إباحة تزويجهم من نسائنا. وبتحريم السماح لهم بدخول المسجد الحرام، وبأن يطلب الحذر في التعامل معهم لأنهم كالمشركين لا ايمان لهم ولا عهد ولا يرعون في مؤمن إلا ولا ذمّة يرضوننا بأفواههم وتنطوي قلوبهم على البغض لنا والحقد علينا.

مضارة النساء وعضلهن:

وتبعاً لاختلال مقاييس الإباحة والحظر بالنسبة للأشياء والأقوال والأعمال عند العرب في الجاهلية، فقد استباحوا مضارّة نسائهم وعضلهن وإساءة عشرتهن دونما جريرة ترتكبها المرأة أو خطيئة تستحق عليها ذلك. ولما جاء الاسلام رفض هذه المعاملة ونهى اتباعه عن ممارستها لما فيها من الجور، وأمرهم بإمساك أزواجهم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان يقول الله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة﴾[1].

وقد ورد أنه كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء. وقد يزوج الرجل المرأة بمن تكره، ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى. ويتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها من أن تتزوج أنفةً وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره، فكان يصدّ عنها الأزواج بضروب من الصدّ والمنع، كما كان يراجعها في آخر عدتها عضلاً وإيذاءً. وفي صحيح البخاري من حديث معقل بن يسار قال: «كان لي أخت فأتاني ابن عم لي فانكحتهاإياه. فكانت عنده ما كانت، ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فَهَوِيَها وهَوِيَتْه ثم خطبها مع الخطاب فقلت له: يا لكع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ والله لا ترجع إليك أبداً. وكان رجلاً لا بأس به. وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه. فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه فأنزل قوله: ﴿وإذا طلقتم النساء فَبَلَغْن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن

---

(١) النساء ١٩.

بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1] فلما سمعها معقل قال سمعاً لربّي وطاعة ، ثم كفّر عن يمينه ودعاه وقال له أزوجك أختي وأكرمك »[2] .

موقفه من الخمور والمخدّرات عامة :

ولما كان الاسلام قد اهتم بالعقل الى حدّ بعيد وجعله مدار دعوته ومناط التكليف ومركز المسؤولية الأساسية في الانسان أمام الله ثم المجتمع . فقد آتخذ من التشريعات ما يضمن وقاية هذا العقل من كل ما قد يعوقه عن القيام بمهمته كما أراد الله ؛ فحرّم الخمرة . وهي شراب يشربه الإنسان يكون من دواعيه غفلة عقله وفقدانه فاعلِيّته وكاملَ وَعْيِه ورقابتِه لسلوكه وفعله وقوله .

وقد ذهب أشهر علماء اللغة كالجوهري وأبي نصر القشيري وأبي حنيفة الدينوري والمجد صاحب القاموس الى تعريف الخمر بأنها كل مسكر ، وهو ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم . وهم من صميم العرب فحرّموا كل مسكر بسبب تحريم الخمر ، تحريماً مطلقاً ليس فيه تفريق بين أن يكون المسكر من العنب أو من سواه ، بل إنّ أهل الأمر ليقولون إن الخمر قد حرّمت في المدينة ولم يكن شراب أهلها يومئذ إلا نبيذ البسر والتمر .

وقد أقر أبو داوود أنه قد « نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة : من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة . والخمر ما خامر العقل » .

والخمرة التي تسلب العقل موازينه وتقتنص قدرته على الادراك والشعور السليم والحكم الصحيح ، لا تقل خطراً عن الفكر الوثني على وجود الإنسان وقيمته الوجدانية والعقلية والاجتماعية والحضارية . وإذا كانت الوثنية في القديم والعصور المتخلفة ، وفي كل عصر ، سبباً من أسباب تخلّف العقل البشري ، فالخمرة ، بل كل

---

(١) البقرة ٢٣٢ .

(٢) المنار ٤٠٢/٢ .

مسكر كان وسيبقى سبباً قوياً من أسباب تدهور امكانات العقل، ومؤثراً سيئاً في انحراف مفاهيم الإنسان العليا وقيمه السامية عن مقامها السوي وخطّها الرشيد، وعاملاً فعالاً في التخلّف الحضاري والأخلاقي.

وقد حرّم الله تعالى الخمرة وجمعها في ذلك مع الأنصاب والأزلام والميسر. وجعلها كلها رجساً من عمل الشيطان والوثنية فقال: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[1].

وأي خطر يخشى أن يداهم كيان الجماعة الاسلامية أسوأ من خطر العداوة والبغضاء التي تثمر دونما شك الفرقة بين الأخ وأخيه والأب وآبنه وأعضاء الأسرة الواحدة والعشيرة الواحدة والمجتمع الواحد!؟. وأي خطر أسوأ من خطر الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة الذي يترك وراءه ماديّة حمراء متعرّية من القيم مجرّدة من الروحانيات قد أخلدت الى الأرض وما يخرج منها ولهثت وراء الأهواء والمصالح والأنانيات وحاجات الجسد بعيداً عن القيم الروحية والدينية؟!

وقديماً قال قائل بحثاً عن علّة بعض الآثار الاجتماعية ذات المظهر الحسن والسيّء «فتش عن المرأة» أما هنا فإنا نقول في كل ظاهرة اجتماعية سيئة فتش عن الخمرة وعن المسكرات من أي صنف فهي أم الخبائث وأصل كل فساد.

وإذا كان الرسول ﷺ قد حمل على الخمرة والمسكرات كلها، فإن مفهوم ذلك أن كل شيء يذهب توازن العقل ويضعف رقابته ويشوه وعيه، من مشروب أو مشموم أو متعاطى عن طريق الإبر أو الحبوب أو أيّة وسيلة أخرى، هو مرفوض في الاسلام ومحرّم تحريماً قطعياً وينبغي مجافاته والاقلاع عنه.

---

(١) المائدة ٩٠.

موقف الاسلام من صناعة التماثيل واقتنائها:

ولمجافاة الوثنية كلياً، حرم الاسلام صناعة التماثيل أو نحتها من الحجارة أو من الخشب أو من سوى ذلك. سواء كان للعبادة أو للزينة أو إعجاباً بفن الصانع. وذلك لما في ذلك من مضاهاة لصنع الله. وقد ثبت أن مثل هذه الصناعة تدخل على نفس صانعها إعجاباً بقدرته الذاتية في المضاهاة حتى تحمل بعضهم على أن يتساءل أحياناً هو أو من يرى صنعه قائلاً «أليس هذا شبيهاً بخلق الله لولا أنه ينقصه النطق؟!!».

ومثل هذا الشعور أو التفكير قد يتطاول لدى البعض، ويصبح مضاهاة فعلية وحقيقية لخلق الله ونزوعاً الى المنافسة التي لن تكون والتي لا يجوز الدخول فيها وبخاصة من مؤمن يعرف قدره وحدّه. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سَتَرْتُ سَهْوة لي [أي كوّة] بقِرام فيه تماثيل. فلما رآه ﷺ تلوّن وجهه وقال: «يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

وقد ذهب جمهور العلماء الى تحريم صناعة التماثيل ونحتها واقتنائها وعرضها في البيوت أو بيعها في الأسواق والنوادي وغيرها، صيانة للعقيدة مما قد يشوّهها وحفظاً للايمان أن يصيبه ما يفسده.

موقفه من الأسماء:

ومن منطلق رفض الوثنية ومظاهرها وتعابيرها، آتجه الإسلام بحزم حتى الى الأسماء الوثنية التي كان يسمي بها بعض العرب أبناءهم في الجاهلية فألغاها وأبطلها، فكان كلما آعتنق الاسلام عربي لاسمه صلة بصنم أو برمز وثني استبدله باسم اسلامي، حتى زالت تلك التسميات بدخول أصحابها في حظيرة الإسلام.

وقد ألف الإنسان هذا المنهج في تاريخه الطويل مع الحركات الدينية. حيث قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة وعوّضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة

بالتـوراة وبفكـرهـا الديني، وقضـت النصرانيـة على الأعلام والأسماء والوثنيـة وطورتها لتتلاءم مع النصرانية وآستبدلتهـا بـأخـرى أكثر اتفـاقـاً مـع أصـولها ومناهجها الدينية.

بل وإن هذا هو ما نراه اليوم في كثير من أنحاء العالم عند دخول الغرباء إليها أو عند حصول انقلابات سياسية فيها، فنجدها تتناول الأسماء أيضاً بالتطوير والتغيير لتماشي خطها الجديد.

وقد ذكرت كتب السير أسماء عدد من الصحابة كانت ذات مسحة وثنية، فلما أسلم أصحابها أبدلها الرسول لهم بأسماء إسلامية؛ فقد كان اسم عبد الله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة الهلالي، عبد عوف بن أصرم، فلما قدم على النبي ﷺ، فقال من أنت؟ قال عبد عوف، قال النبي: أنت عبد الله فأسلم[1]. وقد نقل جمهور النسابين وأكثر المحدثين ان اسم أبي بكر كان في الجاهلية عبد الكعبة، وأن رسول الله ﷺ غيّره له عندما أسلم وسماه عبد الله[2]. كما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف الصحابي الجليل، وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة كان اسمه عندما آعتنق الإسلام عبد عمرو وقيل عبد الحارث وقيل عبد الكعبة، فغيّره له رسول الله ﷺ وسمّاه عبد الرحمن والصادق البار»[3] وغير هؤلاء كثير.

موقفه من القبور:

وقد تابع الاسلام وعلى لسان نبيّه الكريم أخذ مواقفه من الوثنية ليجهز عليها وليزيد في تصفية عقائد المسلم من شوائبها ولوثات آلشرك؛ فنهى المؤمنين في مطلع الدعوة عن زيارة القبور وذلك لما كان يقع فيها من التفاخر والمباهاة، ولما كان يجري عليها من التسنيم بالحجارة وبنيان النواويس.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ١٨/٦ ـ ١٩.

(٢) الاصابة في تمييز الصحابة ٢٦٥/٢.

(٣) الرياض النضرة للطبري ٤٦/١.

وقد نقل ابن بطّال عن الشعبي قوله: « لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور لزرت قبر أمي » وكذلك روي عن النخعي قوله: كانوا يكرهون زيارة القبور. وعلى هذا طائفة من السلف وبخاصة وأن البخاري لم يرو أحاديث النسخ عن زيارة القبور. بينما ذهبت طائفة أخرى الى القول بالاباحة. ومنهم مالك الذي روى عنه قوله: « كان رسول الله ﷺ نهى عنها ثم اذن. فلو فعل ذلك إنسان، ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً خصوصاً وأنها تـذكّـر الآخـرة؛ وتحمـل على الحسبان ليوم المصير. فقد روى عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: « استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي واستأذنته في أن استغفر لها فلم يأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة » [1].

وقد ثبت أنه ﷺ نهى عن زيادة القبور أولاً وذلك باتفاق العلماء. وعلّق على ذلك أفاضلهم بقولهم لأن ذلك يفضي الى الشرك. ولكن البعض نقل أنه ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً »[2].

ومهما يكن من أمر، فإن نهي الرسول ﷺ عن زيارة القبور المتفق عليه يلتقي مع موقف الاسلام المبدئي من الوثنية ويثبت بالتالي حرصه على وجوب مجافاة المؤمنين على الدهر كل ممارسة تفضي بهم الى تكريم مظاهرها قصداً أو بغير قصد. فزيارة القبور كانت في الماضي وبخاصة في الفترة القريبة من الجاهلية تنشىء بين الناس وموتاهم صلة وهميّة وتسوّغ لهم في كثير من الأحيان القيام بتصرفات والنطق بأقوال قد تميل بهم مع الزمن عن الحق والصراط المستقيم.

واننا في هذا العصر، عصر العلم والتقدم الحضاري الباهر وتفتّح الأذهان المدهش، واتساع الآفاق البشرية وغزارة المعرفة، نرى ونسمع ممن يزور القبور ما لا يتفق ونقاء الإيمان وإخلاص الدين، فيكثر البعض من الاعتراض على الله،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنائز.

(٥) صحيح مسلم كتاب الجنائز.

ويبالغ في التساؤل لماذا كان الموت وغير ذلك مما لا يتفق مع التسليم الصحيح لقضاء الله وقدره والخضوع لحكمه الأزلي..

هذا وإن كثيراً من المسلمين يبالغون في تسنيم القبور وإعلائها ويتباهون في بنيانها من أجود أنواع الرخام ويسرفون في الإنفاق على تزيينها. وكل ذلك لا يعبر إلا عن الغفلة عن الله وعن الحق والمصير.

وهذا التصرف وسواه كثير مما نجده في المقابر، يقتضي لفت النظر إليه والتنبيه الى ضرره، لأنه يخالف أوامر الشريعة ووصاياها التي تجعل خير القبور الدوارس. ولا يتفق مع الايمان العميق والخالص بالله وبقضائه الذي خلق الموت والحياة ليبتلي خلقه ويكشف أيهم أحسن عملاً، والذي حكم على كل كائن بالموت ليجري عليه الحساب ويلقيه الجزاء.. يقول الله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون. ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾[1] ويقول: ﴿ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمّة جاثية، كل أمّةٍ تدعى الى كتابها اليوم تُجْزَوْن ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتْلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين، وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظنّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين﴾[2].

موقفه من اتخاذ القبور مساجد:

وحديثنا عن القبور عامة يفضي بنا الى الحديث عن قبور الأنبياء والعلماء والأولياء والصالحين وبناء المساجد عليها. وهو ما ابتلي به المسلمون قديماً وحديثاً.

---

(١) المؤمنون ١٦ - ١٧.

(٢) الجاثية ٢٧ - ٣٢.

وقد اتفق العلماء على ورود النهي عن ذلك قطعاً ، لأنه يؤدي بالبسطاء من الناس والجهال والمغفّلين الى التصرّف حيالهم بتصرفات شبيهة بالتقديس والعبادة مثل الصلاة والسجود عند قبورهم والتوجه اليها والاستعانة بمن فيها ومطالبتهم بقضاء بعض الحاجات ظنًّا منهم أنّهم يملكون النفع والضرر ، وهم قد ماتوا وفنيت عظامهم. وهو الشرك الذي سقطت فيه الأمم السابقة كالوثنيين والنصارى وغيرهم..

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: «إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[1] . وروى ابن عباس وغيره من السلف قولهم عن سبب عبادة الأوثان مثل: يغوث وسواع ويعوق ونسر ، أن هؤلاء كانوا صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا عكف الناس على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم وعبدوها.

وإنا لنجد في أيامنا هذه بعض الناس يتهافتون على زيارة قبور الصالحين ليقدّموا لها النذور ، وليضعوا على قبورهم أو في الساحة التي تحيط بها أوراقاً كتبوا عليها حاجاتهم ، كطلب شفاء فلان أو إنجاحه في الامتحان أو تحقيق مطلبه بالتوظف أو الزواج أو سوى ذلك اعتقاداً منهم أن هؤلاء يملكون إجابة دعائهم ورغباتهم. والحق أن هذا باطل وغير صحيح. لأن المالك لذلك كله هو الله. والانسان أي انسان سواء كان نبيًّا أو وليًّا أو صالحاً ، عاجز في حياته فضلاً عنه بعد مماته عن أن يملك لنفسه نفعاً أو ضرراً. فكيف بالنسبة الى سواه. يقول الله تعالى لمحمد ﷺ وهو من هو فضلاً ومقاماً عند الله: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة.

(٢) الأعراف ١٨٨.

من أجل هذا شدد الرسول ﷺ في تحذير أمته من ان تقع من بعده فيما وقع فيه من سبقهم من الذين أشركوا من الوثنيين، أو ضلوا من أهل الكتاب، ونهاهم عن اتخاذ القبور مساجد، وعن الصلاة اليها.

بل زاد وأخبرنا بأن الله تعالى قد لعن اليهود والنصارى لأنهم آتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. ثم نهى المؤمنين عن التشبه بهم واتباعهم بتعظيم القبور ورفع بنيانها والبناء عليها وتجصيصها وإحاطتها بكل ما يوحي بتعظيمها، لئلا ينقلب ذلك كله الى شبه عبادة تخرج بأصحابها عن الحق، وتنسى عقولهم مقام الربوبية الأعظم. ويكون ما يكون منهم من البهتان والضلال عن سواء السبيل.

موقفه من الرجعة بعد الموت:

ولقد انحرف أقوام من العرب بسبب تعظيمهم لموتاهم الى أن اعتقدوا في جاهليتهم برجعة ميتهم الى الدنيا. فكانوا يدفنون معه الطعام وما يحتاجه في قبره ليستفيد منه عند رجعته. لقد قال ابن الأثير: «ولقد أصبحت الرجعة مذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والأهواء يقولون إن الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيًّا كما كان»[1].

ولقد كانت هذه العقيدة الجاهلية معروفة حتى لدى كبار الصحابة وإن لم يكونوا يؤمنون بها. فإنه لما توفي ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى، وإن رسول الله والله ما مات ليرجعنّ رسول الله ﷺ فليقطِّعَنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات» ولكن أبا بكر رضي الله عنه تصدى له وأدلى بحكم الاسلام الناصع بحزم وحسم وذكره بقول الله تعالى فقال: ﴿على رسلك يا عمر!! فأبى عمر إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت له أقبل على الناس، فلما سمعه الناس أقبلوا عليه وتركوا عمر.

---

(١) النهاية ٢/٢٠٢.

وكان مما قاله: أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وتلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل آنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[1].

ونحن لا نشك لحظة بأن عمر بن الخطاب كان جاهلاً بهذه الحقيقة وهو حكم الاسلام، وذلك بدليل قوله بعد سماعه كلام أبي بكر: «والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات» ولكنه رضي الله عنه قد صدم بخبر وفاة أحب الناس إليه، فضاع صوابه وزاغ فكره وفقد أعصابه وراح يجري وراء تعليل يلتقطه لهذا الذي رأى عليه رسول الله ﷺ إذ ذاك، فقال ما قال ثم عاد الى الحق لما سمع الحق...

وطلب الرجعة وارد في القرآن الكريم وفي حديث الرسول ﷺ، ولكنه طلبٌ لا يعدو أن يكون ممن قصر في هذه الحياة وأدرك عند الموت تقصيره هذا. فهو لذلك يرغب في أن ينسىء الله له في الأجل ليعود من جديد الى الحياة ويعمل غير الذي كان يعمل فيها. بيد أن الله تعالى قد حسم الموقف في هذا المطلب فقال بأن الأجل مكتوب والعمر محدود وانه إذا جاء لا يؤخر. يقول الله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنّا نعمل، أو لم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾[2] ويقول: ﴿وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخّرتني الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ومن يؤخر الله نفساً إذا

---

(١) آل عمران ١٤٤.

(٢) فاطر ٣٦ - ٣٧.

جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾[1].

وورد في الحديث عن ابن عباس: « من كان له مال يبلّغه حج بيت الله أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت » أي سأل أن يردّ إلى الدنيا ليحسن العمل ويستدرك ما فات »[2] ولعلّ هذا القول يوضح موقف الاسلام من سبب فكرة الرجعة التي شاعت في بعض الجاهليين وبعض أهل الكتاب حيث إن كل واحد منهم يرى قبيل الموت حقيقة مصيره فيتمنى الرجعة. وفي الكتاب الكريم إشارة الى ذلك إذْ يخبرنا الله تعالى بأنه ما من واحد من أهل الكتاب إلا ويكشف الله له الحقيقة عند الموت، فيريه بطلان ما كان عليه وزيفه، فيؤمن بعيسى على أنه رسول الله. ولعله عند ذلك يتمنّى لو يسمح الله له بالرجعة ليصحح عقيدته ويصلح إيمانه، ولكن لا سبيل الى ذلك لأن كتاب الله ماضٍ الى يوم القيامة. يقول الله تعالى: ﴿وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾[3].

وقد قال علماء التفسير في بيان معنى هذه الآية، بأن كل واحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من ركائز الايمان فيؤمن بعيسى إيماناً صحيحاً. فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعِيّ ولا كذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله، فلا هو إله ولا هو ابن الله، بل ان عيسى عليه السلام سيكون شهيداً على هؤلاء جميعاً بأنهم كانوا كاذبين فيما ذهبوا إليه، ومنه ما حكاه الله في آخر سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس آتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به

---

(١) المنافقون ١٠ - ١١.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢٠٢/٢.

(٣) النساء ١٥٩.

أن آعبدوا الله ربي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[1].

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الحديث من اطلاع الناس كل الناس، قبل موتهم على منازلهم من الآخرة من مبشرين برضوان الله وكرامته أو بعذابه وعقوبته وإذلاله. ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت «إن المؤمن اذا حضره الموت بُشّر برضوان الله وكرامته. وإن الكافر إذا حُضِر بُشّر بعذاب الله وعقوبته» وعن عائشة رضي الله عنها: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالوا يارسول الله كلّنا نكره الموت!! فقال ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه، وإن الفاجر إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه» وعن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنّة أو النار» ومن هذا المعنى ما ورد في سورة يونس وفيه تصريح بأن فرعون حينما أدركه الغرق وتيقّن من الموت قال: «آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وانا من المسلمين»[2] فقيل له: «الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين»؟![3].

موقفه من الكبر:

ولو رحنا نعدد المواقف التي اتخذها الرسول ﷺ من الوثنية وما ارتبط بها من عقائد وعادات وأعراف وأخلاق وسلوك لطال بنا الحديث وآتسع البحث كثيراً ولكن بقي علينا الاشارة الى ظاهرة نفسيّة هامة يرجع اليها أكبر الأثر في سقوط الناس في الأخطاء والآثام وفي مقدمتها البقاء في الكفر والشرك. وهذه الظاهرة

---

(١) المائدة ١١٦ - ١١٧.

(٢) (٣) يونس ٩٠ - ٩١.

هي الكبر . وهي كما قال المحاسبي تتشعب عنها أكثر البليّات[1] .

ونحن هنا إذ نتكلم عن الكبر فلأنه علّة العلل في جحود الحق ومعاندة الرسل وتحقير الصالحين. وجحود الحق صنو الشرك بالله . ومفتاح الوثنية والضلال المبين .

ويلفت القرآن الكريم نظر المؤمنين الى ما كان عليه أمر إبليس عندما أمره الله مع الملائكة بالسجود لآدم، فإنه يخبرنا بأنه أبى واستكبر وكان من الكافرين . فكان الكبر سبب إبائه وعلّة كفره ولعنته . وكذلك يلفت القرآن نظرنا الى موقف المعاندين من طغاة الشعوب وجبابرتهم؛ فيخبرنا عما كان من فرعون وقومه مع موسى فيقول: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾[2] ثم يخبرنا عما كان من فرعون فيقول ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾[3] .

ويتابع القرآن الكريم لفت نظر المؤمنين الى خطر الكبر وضرره وأنه هو الذي كان يسوق كفّار قريش الى العناد والجحود والصدّ عن سبيل الله فيقول: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ مبين﴾[4] كما كان شأن من سبقهم مع أنبيائهم فيقول عن قوم نوح بأنهم قالوا له عندما أمرهم بتقوى الله وطاعته: ﴿أنؤمن لك وآتبعك الأرذلون﴾[5] .

ثم يخبرنا سبحانه بأن المتكبرين ستغلق في وجوههم أبواب الرحمة ولن تفتح لهم أبداً ، وسيكونون من أصحاب الجحيم ، وأنهم لن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الحبل السميك أو الجمل حقيقة في خرم الإبرة يقول الله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٤٤٦ تحقيق عبد القادر عطا .

(٢) النمل ١٤ .

(٣) المؤمنون ٤٥ ـ ٤٦ .

(٤) الأحقاف ١١٠.

(٥) الشعراء١١١ .

بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾[1].

والمشرك والكافر مستكبران عن الحق متعاليان عليه. وكذلك كان مشركو مكة؛ فقد قالوا وقد بعث اليهم محمد ﷺ إن في مكة أو في الطائف رجالاً كباراً. فلو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل الوحي على أحد هؤلاء. يقول الله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خيْرٌ مما يجمعون﴾[2].

ولما دخل الاسلام بعض قبائل غفار وأسلم وجهينة وخزاعة، قال كفار بني عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاة البُهْم، إذ نحن أعزّ منهم. وهو مثل القول الذي قاله من قبلهم كفّار قريش عندما اسلم بلال وصهيب الرومي وعمار وانزل الله تعالى فيهم الآية التي ذكرناها سابقاً من سورة الاحقاف.

وهكذا فإننا نريد أن نثبت هنا، قبل أن نترك الحديث في موقف النبي ﷺ من الوثنية بأن ذم الرسول عليه السلام للكبر وتحذيره الشديد منه كان من ثمرات موقفه من الوثنية والشرك. ولقد تأكد لنا ولكل من يطّلع على سيرته ﷺ ونزاعه الطويل مع قومه أن الكبر كان أحد أسباب إعراض قومه عن الحق وإصرارهم على الباطل، وأن كثيرين منهم كانوا يعلمون ذلك السخف الذي يترددون فيه ويرون ضياء الحق الذي كان يدعوهم إليه. ولكنهم كانوا بدافع هذا الكبر يعرضون عنه ويتصرفون تصرف من غلبه هواه. وقد روى أنه «قد خرج أبو سفيان ابن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا الى محمد

---

(١) الاعراف ـ ٤.

(٢) الزخرف.

وهو في بيته . فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه . وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم الليل إلا قليلاً يرتّل القرآن الكريم في هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه . فلما كان الفجر تفرّقوا عائدين الى منازلهم فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم . ولنصر محمداً عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه قبل ، كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه . وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد فلم يَحُلْ تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة ، فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألاّ يعودوا لمثل فعلتهم »[1] .

فما الذي منعهم من متابعة الاستماع الى محمد وصرفهم عنه ؟ يقول محمد حسين هيكل : « فكيف تريد من هؤلاء الذين كانوا يتسللون لِواذاً يستمعون الى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم في كثير مما يرتكبون وهو لا يفرّق بين الأعمى ومن استغنى بكثرة المال إلا بطهارة النفس، وهو ينادي الناس جميعاً بقوله : « إن أكرمكم عند الله اتقاكم »[2] فإذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائه فليس ذلك إيماناً منهم به أو بحق يحتويه ، بل هو حرص على نظام قديم أقامه ثم أفاء الحظ عليهم في ظلّه من بسطة المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه »[3] .

ولهذا فلا تعجب اذا كان موقف النبي ﷺ من الكبر حتى ولو كان مثقال ذرة ، كما هو وارد في حديث قدسي من رب العزة « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في النار ولا أبالي » : قال ابن عمر « يحشر

(١) حياة محمد هيكل ١٨٨ .

(٢) الحجرات

(٣) حياة محمد ١٨٨ .

المتكبرون يوم القيامة في صور الذرّ يتواطؤهم الخلائق »[1] وروى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام انه قال: « إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا وكذلك الحكمة تعمر القلب المتواضع ولا تعمر القلب المتكبّر. ألا ترى أن من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن تطأطأ له أظله وأكنّه ».

وقد ذم الله الكبر والمشي المتعالي فقال: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾[2] وقال رسول الله ﷺ في مشية التكبر والخيلاء في صفوف القتال: « إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموقف ».

وهكذا فإن الكبر ظاهرة العجب النفسي، وفي العجب غفلة عن الله وجلاله، وانشغال بالنفس والذات وصغارها. وهو يبعد عن الحق وكثير من الخير والفضل، ويسوق صاحبه من حيث يشعر أو لا يشعر الى الارتماء في مهاوى الضلالات والشرك بالله أعاذنا الله تعالى منه ووقانا شرّه.

---

(١) كشف الخفاء ٢/١٠٦.
(٢) الاسراء ٣٧ ـ ٣٨.

خاتمة

لقد نشبت الحرب بين النبي ﷺ والوثنيين من أول يوم بعثه الله فيه، حرب كلام وأفكار وعقائد حيث أعلن انه رسول رب العالمين الى الأنس والجن والأحمر والأصفر والأسمر. وقد تطورت هذه الحرب مع الزمن؛ ابتدأت أول الأمر من عجبهم أن يجيئهم منذر منهم وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وعجبوا ان جاءهم منذر منهم﴾[1] ثم بتصدّيهم له بالتكذيب والصدّ عنه. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾[2] ويقول: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾[3] ثم بقذفهم إياه بانه ساحر أو مجنون أو شاعر، واتهامه بأنه يتعلم علمه من البشر، ثم بمصادمته عن طريق التعجيز ومطالبته بالخوارق والمعجزات كأن يريهم الله جهرة، أو ينزل عليهم الملائكة، أو يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً أو يرقى في السماء أو غير ذلك. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَر﴾[4] وقال ﴿انىّ لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم توَلّوْا عنه وقالوا معلم مجنون﴾[5] وقال: ﴿ما

---

(١) ص ٥.

(٢) الشورى ٢٤.

(٣) الحاقة ٤٤ - ٤٧.

(٤) القمر ٢ - ٤.

(٥) الدخان ١٧ - ١٤.

انت بنعمة ربك بمجنون﴾[1] وقال عن الشعراء انهم: ﴿في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾[2] وقال ردّاً على من اتهمه بأنه ﷺ يعلّمه بشر ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربي مبين﴾[3] وقال ردّاً على التحدّيات: ﴿قل سبحان ربّي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾[4] وقال ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذّب بها الأولون﴾[5].

ولم يكتف الجاهلون بهذا، بل تطاولوا عليه وعلى أصحابه بوسائل الايذاء المتنوعة، حتى اضطر لحمل أصحابه على الهجرة الأولى ثم الثانية الى الحبشة، ثم كانت هجرته الأخيرة مع أصحابه الى المدينة حيث تهيأت له فيها الفرصة لإنشاء الوجود الاسلامي وتجميعه في ظل كيان موحّد كان نواة الدولة الاسلامية، وبذلك انتقلت الحرب من طور الى طور، من طور الحرب الكلامية والنفسية، والاعلامية الى طور الحرب الدفاعية التي تتوسل بالسلاح مقابل السلاح والقوة لتجابه القوة. وبذلك أخذت الدعوة منعطفاً جديداً فكان لها مداها الأدبي والاجتماعي والديني والسياسي ثم مجالها العسكري..

ولقد ظل رسول الله ﷺ يجنح مع المشركين الى السلم ويحاورهم بالتي هي أحسن، ويلتمس معهم وسائل الاقناع بالحجة والبرهان كما كان يستلهم الله تعالى الصبر على ما كان يلقاه منهم من أذى. ولما اتجه معهم وجهة الحرب والدفاع المسلح كان إذ ذاك قد مضى عليه ثلاثة عشر عاماً من التحمل والصبر والدعوة بالتي هي أحسن. وكان قد طفح منه الكيل، وبلغ السيل الزبى، ويئس من جدوى مراوحة

---

(١) القلم ٣.
(٢) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧.
(٣) النحل ١٠٣.
(٤) الاسراء ٩٣.
(٥) الاسراء ٥٩.

منهج اللين والتحمل بعد أن لجأ الى الدفاع عن النفس محافظة على الذات ودفاعاً عن الحرية والكرامة وصيانة للدين والعقيدة، وكان الله تعالى قد أذن له بالقتال لردّ الظلم وصرف العدوان، فكانت معارك قاسية استأصل فيها النبي بفضل الله وعونه وصدق أصحابه معه، شأفة الشرك من الجزيرة كلها وأرسى على أنقاضه دعائم الاسلام. ونشر نوره المبين في أرجائها كافة.

ولم يكد يستقر الأمر بالاسلام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حتى كان قد تمكن من تحقيق وصية النبي ﷺ وجعل الجزيرة العربية حصناً للاسلام والمسلمين، فطهر أرضها نهائياً من مظاهر الشرك والوثنية وصيّرها كما ارادها الله مثابة للناس وأمنا يلوذون بها من كل مكان ليجدوا فيها سكينة القلب وطمأنينة النفس وارتياح الفكر..

الكتاب الثاني

موقف الإسلام من اليهودية

رؤية تاريخية




الفصل الأول

في منشأ اليهود واليهودية

١ ـ نظرة العلماء إلى منشأ اليهود
٢ ـ معنى لفظة اليهودية
٣ ـ إبراهيم واليهودية




نظرة العلماء الى منشأ اليهودية:

يربط كثير من العلماء بداية منشأ اليهودية وظهورها بزمن ظهور إبراهيم عليه السلام، بينما يربطه البعض الآخر بموسى عليه السلام، ويحدّدون زمن ظهورهم هذا بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد [1]، ويجعله البعض مردوداً إلى زمن عودة الاسرائيليين من بابل بعد الأسر [2].

معنى لفظة اليهودية:

ولا بدّ هنا، وقبل ضبط منشأ اليهودية، من التعرف إلى المعنى اللغوي للفظة « اليهودية » وذلك لأن تفهم هذا المعنى ييسّر علينا إلى حدّ ما تحديد اتجاهنا في ضبط تاريخ منشأ اليهودية...

يقول الفخر الرازي في توضيح عبارة « الذين هادوا » التي كثر تردّدها في القرآن الكريم: « لقد اختلفوا في اشتقاقه على وجوه: « أحدها » إنّهم سمّوا به حين تابوا من عبادة العجل وقالوا « إنا هدنا إليك » أي تبنا ورجعنا إليك يا الله، وهو عن ابن عباس. « وثانيها » سُمّوا به لأنهم نُسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب. وإنما قالت العرب بالدّال للتعريب، فإنّ العرب إذا نقلوا أسماء من العجميّة إلى لغتهم

---

(١) مدخل الى كتاب العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسه، ص ٩.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، المجلد الأول، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

غيّروا بعض حروفها. و« ثالثها » قال أبو عمرو بن العلاء سُمّوا بذلك لأنّهم يتهوّدون أي يتحركون عند قراءة التوراة »[1] .

ويقول القاسمي في محاسن التأويل « والذين هادوا » أي تهوّدوا ، يقال هاد يهود ، وتهوّد إذا دخل في اليهودية وهو هائد والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم لأن الاسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ومن سبي بابل إلى موطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب »[2] .

ويقول القرطبي في جلاء هذه العبارة : « معناه صاروا يهوداً ، نسبوا إلى يهوذا . وهو أكبر ولد يعقوب » . ويقول محمد فريد وجدي : « كلمة يهود ، من هاد الرجل أي رجع وتاب . وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول بني إسرائيل إنا هدنا إليك ، أي رجعنا وتضرّعنا . وهم أمة موسى فكتابهم التوراة » ويقول في موضع آخر « اليهود هي الأمة المشهورة في تاريخ العالم ببني إسرائيل ، أصلهم من الساميّين . رحلوا تحت قيادة إبراهيم عليه السلام في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ونزلوا بأرض كنعان جنوب الشام . وكان من نسله اسماعيل واسحاق ويعقوب وهو إسرائيل الذي وصل أحد أولاده يوسف إلى أن صار عزيز مصر كما هو مشهور ، فأحضر بني إسرائيل لمصر ، فمكثوا فيها أربعة قرون فكثروا . ولكنّهم لقوا من ملوك مصر اضطهاداً شديداً . فأرسل الله اليهم موسى عليه السلام فأنقذهم من فرعون مصر من الأسرة الثامنة عشرة »[3] .

والأستاذ محمد فريد وجدي حين يقول هنا إن بني إسرائيل رحلوا تحت قيادة إبراهيم في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، لا يمكن أن يكون مراده أن بني

---

(١) تفسير الفخر الرازي ، الجزء الثاني ، ص ١١٢ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ، الجزء الأول ، ص ١٤٣ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .

إسرائيل قد رَحَلوا بالفعل من بلدهم الأصلي، لأن الحقيقة المؤكدة أن إبراهيم عليه السلام قد هاجر من بلده مع لوط ابن أخيه كما رواه ابن عباس وقد كانت بلده في العراق في حدود بابل كما نقله الفخر الرازي، إلى الأرض المباركة وذلك كما ورد في قوله تعالى بعد أن كاد له قومه وهموا بأحراقه لولا أن نجاه الله تعالى: ﴿ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾(١) وهي أرض الشام ووصفت بأنها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادن الأنبياء، ولم يكن معه حينذاك شعب ولا أقل من ذلك، بل إنه لم يكن له أولاد إلا بعد ذلك حيث وهبه الله اسماعيل ثم اسحاق ويعقوب.

وعلى كل حال فإنه يظهر لنا من متابعة أقوال أعاظم المفسّرين أن اليهود نسلوا من بني إسرائيل وأنهم سمّوا يهوداً من عهد موسى عليه السلام عندما هادوا إلى الله تعالى وتابوا إليه. وبذلك بدأت نشأة اليهودية في التاريخ.

إبراهيم واليهودية:

بيد أن القرآن الكريم يجزم بتبرئة سيدنا إبراهيم عليه السلام من الانتماء إلى اليهودية وإن كان هو جد يعقوب الذي ينسب إليه بنو إسرائيل، ويؤكد بأنه عليه السلام كان سليماً منها كل السلامة، وأنه كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم، وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟ ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علم، فَلِمَ تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يَعْلم وأنتُم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾(٢).

يقول الفخر الرازي تعليقاً على هذه الآيات: «إعلم أن اليهود كانوا يقولون

---

(١) الأنبياء ٧١.

(٢) آل عمران ٦٥ ـ ٦٧.

إن إبراهيم كان على ديننا . والنصارى كانوا يقولون كان إبراهيم على ديننا ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والانجيل ما أُنزلا إلاّ من بعده ، فكيف يعقل أن يكون يهودياً أو نصرانياً ؟! »[1] .

ثم يقول: « وأما أن اليهود ليسوا على ملّة إبراهيم ، فذلك لأنه لا شك أنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى عليه السلام . ولا شك أن الموصّل لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر . ولا شك أن ذلك الإنسان كان مؤيداً بالمعجزات ، وإلا لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه . فإذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء ، وكانت لهم شرائع معيّنة ؛ فإذا جاء موسى ، فإمّا أن يقال إنه جاء بتقرير تلك الشرائع أو بغيرها ؛ فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة ، بل كان كالفقيه المُقرّر لشرع من سبقه . واليهود لا يرضَوْن بذلك . وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من سبقه ، فقد قال بالنسخ ، فثبت أنه لا بدّ وأن يكون دين كلّ نبيٍّ من الأنبياء جواز القول بالنسخ ، واليهود ينكرون ذلك ، فثبت أن اليهود ليسوا على ملّة إبراهيم . فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً »[2] .

ومن هذه النقول يتجلّى أن اليهود من الناحية العرقيّة والنسْليّة يرجعون إلى إسرائيل بن إسحاق ابن ابراهيم ، وأنهم من ناحية وصفهم باليهودية لا يمتّون إلى إبراهيم عليه السلام بصلة ، وأنهم على الحق يعودون بذلك إلى عهد موسى عليه السلام بعد أن أنقذهم الله من أيدي فرعون ، وتابوا إلى الله تعالى ورجعوا إليه وإلى الالتزام بالحدود التي حدّها لهم . أو إلى عهد عودتهم من الأسر من بابل تائبين منيبين إلى الله تعالى . .

وقد ورد في القرآن الكريم نصٌّ في سورة مريم قد يومىء الى شبيه هذا المعنى

---

(١) الفخر الرازي ، الجزء الرابع ، ص٩٦ .

(٢) الفخر الرازي ، الجزء الرابع ، ص ٩٧ .

كما يتهيأ لنا والله أعلم. إذ يقول الله تعالى بعد سرد إسم عدد من الأنبياء وفضائلهم: ﴿أولئك الذين أَنْعَمَ الله عليهم من النَّبيِّين من ذُرّية آدمَ ومِمَّنْ حملنا مع نوح، ومن ذريّة إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا وآجْتَبينا﴾[1]. ويؤكد هذا الفهم ما قاله الفخر الرازي « ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خصّ بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح. والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام فقد كان سابقاً على نوح على ما ثبت من الأخبار. والذين هم من ذرّية إبراهيم ثم خصّ بعضهم بأنه من ولد اسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى من قبل الإسلام »[2].

وكل ما تقدم يرجّح أن يكون اليهود قد بدأت تسميتهم بذلك من بعد أن أرسل الله تعالى موسى إليهم وأنقذهم بعونه تعالى من بطش فرعون وجنوده، وأخرجهم من أرض مصر إلى صحراء التّيه، ومن بعدها إلى فلسطين ارض كنعان حيث بدأ العهد الذي أطلق عليهم فيه وصف اليهود...

---

(١) مريم ٥٨.

(٢) الفخر الرازي، الجزء الحادي عشر، ص ٢٣٤.




الفصل الثاني

اليهود بعد دخولهم فلسطين

١ ـ تعريف فلسطين
٢ ـ أرض الميعاد
٣ ـ معنى وعد الله تعالى لابراهيم
٤ ـ حكم بني إسرائيل في فلسطين
٥ ـ اليهود الفرس
٦ ـ اليهود في عهد البطالسة والرومان

تعريف فلسطين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم آذكروا نعمة الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين. يا قوم آدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ (١).

ولقد روى ابن عساكر عن معاذ بن جبل أن الأرض المقدّسة التي أمر موسى قومه بدخولها هي الأرض الممتدة ما بين العريش إلى الفرات... والمشهور عند عامة الناس أنها ما يسمونه اليوم فلسطين. والقول الأول هو الصحيح، لأن بني إسرائيل ملكوا سورية وهي وفلسطين شيء واحد. واليهود يسمّون الأرض المقدسة أرض الميعاد، وهي التي وعد الله تعالى بها ذرّية إبراهيم، ويدخل فيها وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب.

وقد ثبت أن موسى عليه السلام قد خرج من مصر ببني إسرائيل ليسكنهم الأرض المقدسة هذه، التي وعدوا بها من عهد إبراهيم عليه السلام. وموسى عليه السلام إنما كان يريد بالأرض المقدسة وأرضِ الموعد أرضَ الشام ما عدا بلاد الحجاز التي هي أرض أولاد عمومتهم العرب.

قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس: «اختص اسم فلسطين أولاً

---

(١) المائدة ٢٠ ـ ٢١.

بأرض الفلسطينيين ثم أطلق على كل أرض الإسرائيليين غربي الأردن. فكان يطلق عليها في الأصل اسم كنعان. وكانت فلسطين معروفة أيضاً بالأرض المقدسة وأرض إسرائيل وأرض الموعد وأرض اليهودية، وهي واقعة على الشاطيء الشرقي للبحر المتوسط بين سهول النهرين الدجلة والفرات والبحر المذكور وبين ملتقى قارتي آسية وأفريقية. وهي متوسطة بين أشور ومصر وبلاد اليونان والفرس. إلى أن قال: « ويعسر علينا معرفة حدود فلسطين. فإنه مع دقة الشرح عن التخوم التي تفصل بين سبط وآخر لم يشرح لنا في الكتاب المقدس شرحاً مستوفى تتميّز به فلسطين عن تخوم الأمم المجاورة لها. ويظهر أن هذه التخوم كانت تتميّز من جيل إلى جيل. أما الأرض الموعود بها إبراهيم والموصوفة في كتابات موسى، فكانت تمتدّ من جبل هور إلى مدخل حماه، ومن نهر مصر العريش إلى النهر الكبير نهر الفرات... وأكثر هذه الأراضي كانت تحت سلطة سليمان. فكان التخم الشمالي حينئذٍ سوريا، والشرقي الفرات والبريّة السورية والجنوبي بريّة التيه وأدوم والغربي البحر المتوسط »[١].

أرض الميعاد:

ويحسن بنا هنا وقد تكلمنا عن الأرض المقدسة وحدودها آن نوضح أن معنى قوله تعالى: ﴿التي كتب لكم﴾ هو كما يريد به موسى عليه السلام ما وعد الله به إبراهيم يعني كتب لكم الحق في سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد. ولا يجوز أن يفهم من هذا النص ما أراد أن يفهمه اليهود وهو أن هذه البلاد هي ملك دائم لهم لا يزاحمهم فيها أحد، وذلك لأن هذا مخالف للواقع، ولن يخلف الله وعده. أما النص الذي ورد بهذا الخصوص فهو كما جاء في سِفر التكوين أنه لما مرّ إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب: وقال « لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض »[٢]

---

(١) المنار، الجزء السادس، ص ٣٢٥ ـ ٢٦.

(٢) ١٢: ٧.

كما ورد أيضاً في سفر التكوين: « في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً « لِنَسْلِك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »[1].

معنى الوعد:

ولكن هذا الوعد قد ذكر قبل ذكر ولادة إسماعيل. ولما ولد إسماعيل لابراهيم ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون أمام جميع إخوتهم ﴿وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم﴾ [2] فإن هذا وذاك يدلان على أن العرب أولى أولاد إبراهيم بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق، والوفاء الأبدي لا يتحقق إلا به. وبالفعل، فقد أصبحت تلك البلاد عربية كلها. وليس فيه بعد ذكر ولادة إسحاق وعد لإبراهيم مثل هذا ببلاد ولا بأرض. ولكن فيه أن يقيم معه عهداً أبدياً لنسله وأن هـذا العهـد لاسحـاق دون اسماعيل فما هذا العهد!؟ إن كان عهد النبوة فالواقع أنها ليست أبدية في نسل اسحاق. لأنها انقطعت بالفعل منهم من زهاء ألف سنة، وكان خاتم النبيين من ولد اسماعيل. وإن كان عهد امتلاك الأرض المقدسة فهو لم يكن أبدياً فيهم لأنها نزعت منهم قبل العرب، ثم أخذها العرب وصارت لهم بالامتلاك السياسي ثم بالامتلاك الحقيقي، إذْ غلبوا على سائر العناصر التي كانت فيها. وأدغموها في عنصرهم المبارك الذي وعد الله إبراهيم بأن يباركه ويثمره ويكثره جداً جداً[3].

نعم إن الفصل الرابع والثلاثين من سفر العـدد، صريـح في أمـر بني إسرائيـل بدخول أرض كنعان وآقتسامها بين أسباطهم. وهذا حق قد وقع، وهو يوافق ما قلناه قبل من أن بني إسرائيل يكون لهم حظ في تلك البلاد في وقت ما، وأن وعـد الله لإبراهيم يشمل ذلك ولكنه لا يفيد أنه خاص بهم أو أنهم أولى به من أولاد

---

(١) ١٥: ١٨.
(٢) سفر التكوين ١٧: ٨.
(٣) راجع ١٧: ١٨.

عمومتهم العرب. بل هؤلاء هم الأولى كما حصل بالفعل وكان وعد الله مفعولاً.

على أن مما ينبغي الإلتفات إليه هو أن ذكر الرب لإسحاق ما وعد به أباه إبراهيم من إعطاء نسله تلك البلاد معلل بحفظ أوامره وفرائضه وشرائعه يقول: « ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والحِثيين والأموريين والحِوّيين واليبوسيين التي حلف لآبائك أن يعطيك أرضاً تفيض لبناً وعسلاً أنك تصنع هذه الخدمة في هذا الشهر سبعة أيام تأكل فطيراً، وفي اليوم السابع عيد الرب، فطيرٌ يؤكل السبعة الأيام ولا يُرى عندك مختمر ولا يرى عندك خمير في جميع تخومك ».

« وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلاً من أجل ما صنع إليّ الربُّ حين أخرجني من مصر، ويكون لك علامة على يدك وتذكاراً بين عَيْنَيْك لكي تكون شريعة الرب في فمك لأنه بيد قوية أخرجك الرب من مصر، فتحفظ هذه الفريضة في وقتها من سنة إلى سنة »[1]. وهذا عين الوعد الذي ذكره ليعقوب في المنام في الفصل ٢٨ وإن لم يذكر هناك التعليل. وهو يدل على انتفاء المعلول بانتفاء العلة. وتحرير هذا المعنى هو الذي أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله محمد صلّى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفْسدُنَّ في الأرض مرّتين ولتعلُنَّ عُلُواً كبيراً، فإذا جاء وَعْدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بَأْسٍ شديد فَجَاسُوا خِلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّة عليهم وأَمْدَدْناكُم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نَفيراً. إن أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لِأَنْفُسِكُم وإنْ أسَأْتُم فلَهَا، فإذا جاء وَعْدُ الآخِرَة لِيَسُوؤوا وجوهكم وَلِيَدْخُلوا المسجدَ كما دخلوه أول مرّة وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيْرا عسى ربُّكُم أنْ يَرْحمكم وإنْ عُدتُم عدنا وجعلنا جهنّم للكافرين حصيرا﴾[2]. وقد قال المفسّرون بأن اليهود قد عادوا وعاد انتقام العدل الإلهي منهم فسلّط عليهم الروم قبل المسيحية وبعدها ثم المسلمين ومزّقوا كل مُمَزّق.

---

(١) خروج ١٣: ٤ ـ ١٠.

(٢) الاسراء ٤ ـ ٨.

حكم بني إسرائيل في فلسطين:

ولما وصل موسى عليه السلام إلى جهة الطور تلقى شريعته من ربه: وكان ذلك حوالى ١٠٨٠ ق م، فجعل يوصي بها قومه ويحضهم على الأخذ بها وتطبيقها وعدم التقصير فيها. ولما توفي تولاّهم من بعده يوشع حوالي (١٦٠٥) ق م فاجتاز بهم نهر الأردن، وآحتل الأرض المقدسة التي وعدوا بها أرض كنعان؛ فقسمها بين الأسباط الاثني عشر. وبعد موته خلفته حكومة القضاة الذين تولّوا الحكم مدة أربعة قرون. فأقاموا العدل وقادوا الجيوش. ثم جاء بعدهم طالوت فداوود، فسليمان. وقد آزدهرت المملكة الاسرائيلية في عهدهما ازدهاراً عظيماً. وفي «عهد سليمان آعتز شأن الاسرائيليين وآمتد ملكهم من البحر الأحمر إلى نهر الفرات الكبير. وهابتهم الأمم المجاورة لهم... وأرسل سفنه في الآفاق تجوب البحار. وتأتيه بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وكانت مدة حكمه أربعين سنة ذاق فيها الاسرائيليون الهناء والرخاء»[1].

اليهود والفرس:

ولكن هذا الهناء تعكّر بعد سليمان وانقلب في عهد ابنه (رحيعام) الى منازعات واضطرابات آنتهت بانقسام المملكة إلى قسمين:

(١) مملكة يهوذا ، (٢) ومملكة إسرائيل.

وكانت عاصمة مملكة يهوذا أورشليم وملكها هو رحيعام، وكانت تتكون من سبطي يهوذا وبنيامين. وقد تعاقب عليها واحد وعشرون ملكاً. وكانت نهايتها البائسة على يد بختنصر الذي غزاها سنة ٥٨٨ ق.م فدمرها تدميراً. وساق الأحياء من أهلها أسارى إلى بابل حيث مكثوا في الأسر قرابة خمسين سنة.

وأما مملكة إسرائيل فكانت عاصمتها السامرة وهي نابلس الآن. وكان ملكها

---

(١) بنو اسرائيل في القرآن والسُّنَّة، الدكتور محمد سيد طنطاوي، الجزء الثاني، ص ٣٤٩.

(بريعام) أخو (رحيعام). وكانت تضم الأسباط العشرة الباقية من بني إسرائيل. ولقد تعاقب عليها تسعة عشر ملكاً. وكانت نهايتها على يد « سرجون » ملك أشور الذي غزاها، وآنتصر عليها وأجلى سكانها من اليهود إلى ما وراء الفرات سنة ٧٢١ ق م.

وقد نشبت حرب ضروس بين ملك الفرس « قورش » وملك بابل « بختنصّر » سنة « ٣٥٨ » ق.م. وانتهت بانتصار ملك الفرس الذي سمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م، بالعودة إلى بلادهم، ولما كانوا قد ألفوا الحياة فيها، فقد تردد الكثيرون منهم في العودة، بينما قبل بها عددٌ قليل منهم، أكثرهم من سبطي يهوذا وبنيامين. وهم الذين أعادوا بناء الهيكل بإذن من « قورش » سنة ٤٥١ ق.م.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت كلمة « اليهود » في رأي البعض كما رأينا سابقاً تعنى من آعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بني إسرائيل وهذا هو الفرق بين اليهودي والاسرائيلي. وبقوا كذلك حتى زال عنهم حكم الفرس سنة ٣٢٢ ق م.

اليهود في عهد البطالسة الرومان:

ثم تغلب عليهم الاسكندر المقدوني الذي طرد الفرس من سوريا وفلسطين. وسقطت مملكتهم بعد مماته في يد بطليموس ملك مصر وخلفائه من بعده، فكانت أيام اليهود معهم تتراوح بين الاضطهاد والقسوة وبين المعاملة اللينة العطوفة.

ثم خلف البطالسة السلوقيون سنة ١٩٨ ق.م. فأوقعوا فيهم أشد الأذى، واحتل أنطوخيوس السلوقي أورشليم وهدم أسوارها ونهب ما فيها وقتل من سكانها ما يقارب الثمانين ألفاً وأذل كهنتهم إذلالاً كبيراً.

وقد تخلل حكم السلوقيين ثورات من اليهود المكابيين وهم فريق من كهانهم بقيادة مكابياس الكاهن وأبيه من قبل لم تنجح كل النجاح وإن كانوا قد توصلوا إلى الاستقلال بحكم أورشليم لفترة من الزمان.

غير أنهم في سنة ٦٣ ق. م. بلغ الخلاف أشده فيهم فانقضت الدولة الرومانية على أورشليم فاحتلتها. وبقيت كذلك تحت حكم الرومان إلى أن عاد الفرس وآستولوا عليها سنة ٦١٤ م ثم عادت إلى الرومان سنة ٦٢٨ م.

وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه سقطت فلسطين في يد المسلمين. وظلت تحكم الحكم الإسلامي حتى الانتداب الانكليزي الذي أظلها بعد سنة ١٩١٨ م عقب الحرب الكونية الأولى.

بيد أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أن اليهود عقب المنازعات الشديدة بينهم، والثورات القاسية التي كانوا يقومون بها في وجه الحكام السلوقيون والرومان وما كانوا يلقونه من هؤلاء من عسف وتنكيل، تمزق شملهم وانشقت نهائياً عصا وحدتهم الاجتماعية والسياسية، فتفرقوا في بلاد الله أيدي سبا، فهاجرت مجموعة منهم الى آسيا ونزلت شواطىء نهر الفرات. وقصدت أفواج منهم بلاد الأفغان، بينما هبط قسم منهم بلاد الهند والصين، ورحل آخرون إلى أوروبا فلقوا ما لقوا هناك من العذاب. أمرّه والهوان أشده[1].

---

(١) راجع في هذه المعلومات دائرة معارف القرن العشرين، لفريد وجدي، الجزء الأول، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣ وكذلك كتاب بنو إسرائيل في القرآن والسُّنَّة، الجزء الثاني، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

الفَصْلُ الثّالِثُ

دخول اليهود الجزيرة العربيّة

١ - زمن دخولهم
٢ - الأماكن التي اختاروها من الجزيرة




زمن دخولهم وسببه:

ليس من اليسير التحقق بدقة من الزمن الذي بدأ فيه دخول اليهود جزيرة العرب. ولكن يبدو أن ذلك قد وقع قبل ظهور الإسلام بقرون [1].

ويقول الدكتور جواد علي: «ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعيّاً للحجاز، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز، واتصال سكان الحجاز بفلسطين، وذهاب جاليات يهودية إلى العربية الغربية للاتجار وللإقامة هناك خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها، وهجرة اليهود إلى الخارج. فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة والمناسبة لهجرة اليهود إليها وإقامتهم فيها. ولا سيما عند مواقع المياه، وفي الأرض الخصبة العامرة. غير أننا لا نستطيع كما قلنا، التحدث عن هجرة اليهود هذه الى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات والتواريخ» [2].

ومع ذلك فإن أكثر الأخبار تكاد تلتقي على أن سبب نزوح بعض الجاليات اليهودية إلى شبه الجزيرة العربية هو الغزوات المتوالية التي تعرضت لها فلسطين والشام بكاملها في القرن الميلادي الأول. ثم القهر والإذلال المتواصلان اللذان كان يلاقيهما اليهود سكان تلك المنطقة من الذين كانوا يشنّون تلك الغزوات فرساً كانوا أو روماناً.

---

(١) موجز تاريخ العرب والاسلام، د. حسين قاسم العزيز، ص ١٠.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء السادس، ص ٥١٣.

ولذلك فقد أرغم هذا البعض منهم على البحث عن منتجع قريب يلوذون به، ويأمنون فيه على أرواحهم وعلى معتقداتهم، فكانت شبه الجزيرة أقرب المناطق إليهم وأشدها اتصالاً والتصاقاً بمواطنهم. وبخاصة وأن الأخبار الدينية تؤكد لهم قرب ظهور نبيٍّ فيها. كما أن وعورة أرضها وغلظة طبيعتها وقسوة مناخها وجدب أراضيها كل أولئك أيأس الغازين من الطمع بها.

الأماكن التي اختاروها من الجزيرة:

ولقد آجتذبت مناطق اليمن الخصبة المهاجرين منهم، كما آجتذبتهم المناطق الأخرى الخصبة من شبه الجزيرة؛ فنزل قسم منهم في نجران. بينما آستهوت قسماً آخر منهم بعض الواحات المنتشرة في مناطق الحجاز؛ فنزلوا فيها واستعمروا بعضها. مثل تَيْماء وفَدَك وخَيْبَر ووادي القُرى ويَثْرب التي سكنها منهم ثلاث قبائل وهم بنو النَّضِير، وبنو قَيْنُقاع وبنو قُرَيْظة [1].

وقد ركزوا إقامتهم فيها. وبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم ومزارعهم من آعتداء جوارهم العربي عليهم. وقد مكّنوا لأنفسهم وأَمِنُوا عليها بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة حولهم وإلى جانبهم. وبدفع إتاوةٍ لهم أو تقديم الهدايا إليهم. وكثيراً ما كانوا يلجأون الى إثارة الشحناء بينهم لتفريق جموعهم وكياناتهم حتى لا يهدد آتفاقهم والتئامهم وجودهم.

وقد كان هؤلاء اليهود الذين نزلوا منطقة الحجاز، قبائل وعشائر وبطونا. غير أنهم لم يكونوا أعراباً أي بدواً ينتقلون من مكان إلى مكان سعياً وراء الكلأ والمرعى. بل كانوا حضراً استقرّوا في الأماكن التي نزلوا فيها. ومارسوا مهن أهل المدن.

ولقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ «الكاهنين» نسبة إلى

---

(١) فجر الاسلام، أحمد أمين، ص ٢٤.

جدهم الذي يقال له [الكاهن] . وهو هارون بن عمران كما زعمته بعض الأخبار . فهم على هذا من أصل إسرائيلي رفيع يميزهم عن بقية طوائف اليهود . وإلى هذا الرأي ذهب [نولدكه] المؤرخ وكذلك [أوليري] الذي يرى كأمثاله من المستشرقين أن بني قريظة وبني النضير يرجعون إلى اليهود وأنهم غادروا فلسطين وجاؤوا هذه الديار في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل عام « ٧٠ » للميلاد وتنكيل « هادريان » باليهود عام ١٣٢ ميلادية [١] .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء السادس ، ص ٥٢٢ .

الفصل الرابع

بعض مميزات اليهود

١ - شجاعة بعض قبائلهم
٢ - حكمهم وخصالهم
٣ - اهتمامهم بالزراعة والصناعة
٤ - صلتهم بالعرب وأثرهم فيهم
٥ - ظهور مفاهيم جديدة في الجزيرة بوجودهم
٦ - نزول اليهود في المدينة
٧ - نزول اليهود في مكة
٨ - تمنّعهم عن الدعوة لدينهم وحدود علاقتهم بالعرب
٩ - لغتهم وكيانهم الديني
١٠ - فخرهم على العرب
١١ - اخلاقهم وطباعهم
١٢ - من أوصافهم الواردة في القرآن الكريم




شجاعة بعض قبائلهم:

اشتهر يهود خيبر من بين يهود الحجاز بشجاعتهم. واشتهرت خيبر لذلك بالحمى، فكانوا ينتسبون إليها فيقولون «حمى خيبرية». وقد كان في خيبر قلاع وحصون متعدّدة تحمي أهلها من غارات الأعراب. فمن حصونها حصن ناعم والغموص وهو أقواها وأعزّها، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن وجدة، وحصن الوطيح وحصن الكتيبة.

وقد كان التنافس يأخذ طريقه بين قبائلهم، ويؤدي بهم الى نشوب معارك ضارية. وقد أشار القرآن الكريم الى شيء من ذلك في قوله تعالى: ﴿بأسُهم بينهم شديد تَحْسَبُهم جميعاً وقلوبهم شتّى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[1]. كما أنبهم لتخاصمهم وتنابذهم وأسر بعضهم بعضاً، كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير. يقول الله تعالى: ﴿وإذْ أخذنا ميثاقكم لا تَسْفِكُون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقْرَرْتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنْفُسَكم وتُخرجون فريقاً منكم من دياركم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإنْ يأتوكم أُسَارَى تُفادُوهم، وهو مُحرّمٌ عليكم إخْراجهم. أفَتُؤْمِنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاءُ منْ يفعل ذلك منكم إلاّ خِزْيٌ في الحياة الدنيا ويومَ القيامة يردّون الى أشَدِّ العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾[2].

---

(١) الحشر ١٤.

(٢) البقرة ٨٤.

وكثيراً ما كان يستحر القتال بينهم وتسقط القتلى فيهم ويؤدي بعضهم الديّة للبعض الآخر. وعن ابن عباس: «وكان بنو النضير أشرف من بني قريظة، فكان إذا قَتَلَ رجل من قُرَيْظة رجلاً من بني النضير قُتِل به. وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من بني قريظة وَدَى مِئة وَسْق من تمر»[1].

حكمهم وخصالهم:

وذكر أهل الأخبار والرواية أنه كان لليهود حكام يحكمون بينهم ويفصلون منازعاتهم، ويقيمون عليهم الحدود. وذكر علماء التفسير، أن أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بين الناس بالحق. بل كانوا يحابون ويتحزّبون. وكثيراً ما كانوا يحكمون بالباطل ويأكلون الرشا جزاء محاباتهم وحكمهم بالباطل. كما كانوا يتساهلون في تطبيق أحكام شريعتهم مع الشريف لشرفه، ويتشددون مع الوضيع لوضاعته وفقره[2].

اهتمامهم بالزراعة والصناعة:

وقد اشتهر اليهود من سكان فَدَك وخيبر ويثرب، بل أكثر المنتشرين منهم في مناطق الحجاز باشتغالهم بالزراعة وببعض الحرف وبالتجارة. وقد تمهّروا في فلاحة الأرض واستصلاحها وزراعتها وحفر الآبار لها، وتربية المواشي والدجاج. كما اهتموا بالتجارة فاشتغلوا بتجارة البلح والبُرّ والشعير والخمر التي كانوا يجلبونها من الشام. وكانوا يبيعون بالرهن فيرهن المشترون عندهم بعض أمتعتهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه. وقد ثبت أن الرسول ﷺ رهن دِرْعاً له عند يهودي من أهل يثرب مقابل شعيرٍ كان به حاجة شديدة إليه[3].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب، الجزء السادس، ص ٥٣٤.
(٢) المفصل في تاريخ العرب، الجزء السادس، ص ٥٣٥.
(٣) المفصل في تاريخ العرب، الجزء السادس، ص ٥٣٥.

وقد عنوا بالصناعة؛ فاشتغلوا بالنسيج الذي كان من اختصاص نسائهم على الأكثر، وبالصياغة. وقد تفوّق بها بنو قَيْنُقاع. ومهروا بالحدادة والنجارة وبالصناعات المعدنية كصناعة الأسلحة[1]. ولم يعرف عنهم أنهم نزلوا في منطقة من شبه الجزيرة إلا كانت وفيرة المياه صالحة للاستصلاح والإحياء والزراعة.

صلتهم بالعرب وأثرهم فيهم:

وكل هذه المهن من الزراعة والصناعة والنجارة والحدادة، أعمال كان يأنف العربي من تعاطيها ويعتبرها من أعمال الخِسّة، الأمر الذي جعلهم يختلفون في كثير من الخصائص عن محيطهم العربي الذي نزلوا فيه، وإن كانوا قد آندمجوا إلى حدّ ما فيمن حولهم فاستعملوا بعض أسمائهم وتعلموا لغتهم ومهروا فيها. وكانت حياتهم الاجتماعية بالاجمال لا تختلف كثيراً عن حياة العرب الاجتماعية وكذلك السياسية.

بيد أنهم مع ذلك كانوا يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وأحبارهم، فيدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة. وكان أحبارهم يتولّوْن أمورهم الدينيّة وينفّذون فيهم أحكام الدين، وينظرون فيما يجدّ بينهم من منازعات وخصومات. ويقيمون لهم الصلوات والشعائر ويعلمونهم.

وقد كان لهم بعض الأثر فيمن كان يعيش حولهم من العرب من سكان شبه الجزيرة العربية؛ فتهوّد قسم منهم. ومن أشهر الذين تهوّدوا من عرب الجزيرة ذونواس الذي ذاع تحمّسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران بسبب ذلك.

وقد انتشرت بوجودهم بين القبائل العربية تعاليم التوراة الى حدّ ما مثل تاريخ خلق الدنيا، والبعث والحساب والميزان والأساطير التي كان ينثرها مفسّروهم. كما كان لهم بعض الأثر في اللغة العربية؛ إذْ أدخلوا عليها كلمات لم يكن العرب

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٤ ـ ٢٥.

يعرفونها من قبل مثل جهنّم والشيطان، وإبليس ونحو ذلك، وبخاصة وأن هؤلاء اليهود قد وفدوا من شمال الجزيرة حيث كانوا الى قرونٍ خلت تحت الحكم اليوناني والروماني، وكان بعض أحبارهم قد تعلّم الفلسفة اليونانية، وتأدّب بآدابها. وقد حملوا معهم في هجرتهم الى موطنهم الجديد كل ما كانوا قد تعلموه وتأثروا به.

ظهور مفاهيم جديدة في الجزيرة بوجودهم:

ولقد ثبت أن هؤلاء اليهود قد عاشوا في الجزيرة معيشة أهلها، فلبسوا لباسهم وتصاهروا معهم وتزوجوا منهم، وتزوج منهم العرب حتى كثر الاندماج فيما بينهم ووصل الى حد إزالة الكثير من عوائقه. ولقد كان من آثار ذلك ظهور مفاهيم حديثه ونزعات عقـدية لم تكن معروفة من قبل بين بعض أبناء القبائل العربية، ومنها عقيدة الحُنَفَاء الذين تكشّفت لهم جليّا الخزعبلات الوثنية وزيف أفكارها وتفاهة طقوسها، فدعَوْا الى نَبْذ عبادة الآلهة المتعدّدة وحضّوا على التبصّر بأمور الكون والمعاد، ودَعَوْا الى التعفّف والتقشّف والزهد[1].

ويلاحظ بعض المؤرخين أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم ولا على خصائصهم التي يمتازون بها، ويحافظون عليها محافظة شديدة، وأنهم كما سبق لم يكونوا يختلفون في حياتهم العامة اختلافاً كبيراً عن العرب اللهم إلا في شؤون العقيدة والدين.

نزول اليهود في المدينة:

وقد نزلت في المدينة كما علمنا سابقاً مجموعات كثيرة منهم وذلك لخصب أرضها ووفرة مياهها وطيب مناخها؛ فتوزّعت فيها في مناطق مختلفة. وكانت أبرز هذه المجموعات بنو قَيْنُقاع وبنو النضير وبنو قريظة. وقد كانت هذه

(١) موجز تاريخ العرب والاسلام، د. حسين قاسم العزيز، ١٠٢.

القبائل الثلاث شبه متضامنة ومتكتّلة. فكانت لهم مكانة وطيدة في جوارهم العرب، كما كان لهم شأن رفيع عندهم ومركز مهيب فيهم...

نزول اليهود في مكة:

ولكن يبدو أنه لم يكن لهؤلاء اليهود وجود كبير في مكة، وذلك لأنهم لم يُولّوا وجههم شطرهـا على غرار ما فعلوه في يثرب وغيرها بصورة جماعية. فلم يكن فيها منهم عددٌ ذو شأن[1]. ولعل السبب في ذلك أن مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع فلم يستهوهم للإقامة فيها، ولذلك لم يكن لهم فيها من الوقائع ما يستأهل إطالة الحديث عنهم فيها اللهم إلا ما تقتضيه حاجات البحث من الإشارة الى بعض ما روته كتب السيرة من تنبيه بعض الكهنة والرهبان ذوي النبي ﷺ الى ضرورة السهر عليه وحمايته من كيد اليهود[2]. أو ما روي أيضاً مما سنرى، من أن بعض اليهود من سكان المدينة كانوا يتآمـرون على النبي ﷺ بعـد بعثتـه مـع قـريش ويساعدونها عليه لتفشيل دعوته والقضاء عليها وعليه. ومع ذلك فقد ذكرت بعض كتب السير والتراجم صلة بعض هؤلاء اليهود بالمكّيين ومحالفتهم لهم وإقامة عدد قليل منهم فيها للتجارة.

تمنّعهم عن الدعوة لدينهم وحدود علاقتهم بالعرب:

ولم يكن هؤلاء يميلون الى نشر دينهم في الأقوام المجاورين لهم. خلافاً لما كان عليه النصارى. وذلك لأنهم كانوا ولا يزالون يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار من بين شعوب الأرض كافة. ومن أجل هذا كانوا لا يرغبون في أن تكون لغيرهم مثل ما لهم من الميزات والخصائص، مما يعبر بوضوح عن عراقـة أنـانيتهـم وحرصهم. ولئن كانت قد انتشرت بعض تعاليمهم في الأوساط العربية وتهوّد

---

(١) ابن هشام، الجزء الأول، ص ١١٩.

(٢) ابن كثير، الجزء الثاني، ٢٦٧.

بعض العرب أو تأثروا بأفكارهم وآدابهم وثقافاتهم وعاداتهم فليس ذلك بضغط منهم ولا بفعل دعوة مشجعة ومتابعة. ومن أجل هذا ظلّت البطون العربية المتاخمة لمناخات هؤلاء اليهود محافظة في غالبيّتها على تقاليدها وعقائدها وعاداتها وعلى دين آبائها وأجدادها. يضاف الى هذا أن من التعاليم المنزلة عندهم أنه لا يجوز لهم مقاربة الشعوب المجاورة لهم بالمصاهرة والمداخلة فيهم لأن الرب يمتنع حينذاك عن تغليبهم عليهم. ولذلك فإن المطلوب هو العكس إن تمكنوا منهم أن يبطشوا بهم لكفرهم[1].

ومع ذلك فقد أقاموا الصلات مع القبائل العربية القريبة منهم ولكن بالشكل وفي الحدود التي لا تصل بهم الى التلاحم معهم أو الى مشاركتهم النزوع العصبي، الأمر الذي جعل صلاتهم بهم مقتصرة على حلف أو على مصالح مشتركة في أغلب الأحوال[2].

ومن أجل هذا لم يكن لهم من قبائل العرب من وقف الى جانبهم عصبيّة حين أحتدم النزاع بينهم وبين الرسول ﷺ وأنتهى بحرب كان النصر فيها له عليهم، فقضى على بعضهم وطرد البعض الآخر خارج المدينة. ولما خرجوا منها لم يلوذوا بقبائل العرب لتحميهم أو لتثأر لهم، بل الى إخوانهم في خيبر وتيماء ووادي القرى ثم رحلوا الى الشام.

ولقد قلنا فيما سبق إنهم في وجودهم في شبه الجزيرة في الأماكن التي أناخوا فيها ما كانوا يستروحون الطمأنينة. فاتخذوا الحصون وبنوا القلاع والقرى المحصّنة ليفوزوا فيها بالدفاع عن أنفسهم في حال توجّه غارات عليهم من القبائل العربية المجاورة لهم. وكثيراً ما كانت تقع بينهم وبين العرب، كما يشهد التاريخ حروب خطيرة.

---

(١) الاصحاح السابع، من سفر التثنية والثالث العشرين من يشوع.
(٢) مكة والمدينة، أحمد الشريف، ٣١٢.

لغتهم وكيانهم الديني:

وقد كان هؤلاء اليهود يتكلمون اللغة العربية التي كانت تشوبها الرّطانة العبريّة، وذلك لأنهم في الأساس لم يتخلّوا عن لغتهم الأم التي كانوا يستخدمونها في دراستهم وقراءة كتبهم وفي صلواتهم. ويدل على ذلك أنه ﷺ لما كان يرى منهم من مخادعة ومخاتلة وتلاعب بالألفاظ كان لا يأمن لهم ولا يستريح في معاملتهم ويتخوّف من غشهم فأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يتعلّم كتاب اليهود وهو يقول: «لا آمن أن يبدّلوا كتابي». ولعل هذا الحديث كان من رسول الله ﷺ قبل نزول آية الحفظ التي تكفل الله تعالى فيها بحفظ القرآن الكريم وذلك بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

وكذلك كان لهم كيانهم الديني ومعابدهم ومدارسهم وأحبارهم وربّانيّوهم الذين يحترمونهم ويحتكمون اليهم في منازعاتهم.

فخرهم على العرب:

وقد ثبت أن هؤلاء اليهود كانوا يفتخرون على العرب بما كانوا يلمّون به من ثقافة واسعة في علوم الأديان وعقائدها وشرائعها. وما يعرفونه من أخبار وسير الأمم السابقة. كما كانوا يفتخرون عليهم بدينهم السماوي ويستفتحون عليهم أيضاً عندما تستحر الحرب فيما بينهم وبين العرب ويقولون لهم «إن نبيّاً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

اخلاقهم وطباعهم:

لقد أشتهر اليهود بين العرب بخصال كانوا يعرفون بها، ولا يزال لهم حتى الآن خصالهم المميّزة في المجتمعات الحديثة التي يوجدون فيها. ولقد تكلّم عنهم

---

(١) الحجر ٩.

قديماً ابن القيم الجوزية فوصفهم بقوله « هم أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء وأكلة السحت [وهو الربا والرشا] أخبث الأمم طويّة، وأرداهم سجيّة وأبعدهم من الرحمة وأقربهم من النقمة. عادتهم البغضاء، وديدنهم العدواة والشحناء. بيت السحر، لا يرون لمن خالفهم حرمة ولا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمّة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نَصَفَة، ولا لمن خالطهم طمأنينة. بل أخبثهم أعقلهم، وأحذقهم أغشّهم. وسليم الناحية فيهم [وحاشا أن يوجد فيهم] ليس بيهودي على الحقيقة. أضيق الخلق صدراً وأظلمهم بيوتاً وأنتنهم أفْنية. وأوْحشهم سجيّة. تحيّتهم لعنة. ولقاؤهم طيرة شعارهم الغضب ودثارهم المقت »[1].

من أوصافهم الواردة في القرآن الكريم:

ولقد اعتنى القرآن الكريم بكشف أخلاقهم وطباعهم وخصالهم التي بها يتعاملون مع الناس ليحذّر منهم المؤمنين وليساعدهم على تفادي أساليبهم الخادعة. ومن أوصافهم التي أماط اللثام عنها أنهم لا يحفظون عهداً ولا يلتزمون بميثاق قال عنهم في سورة البقرة: ﴿وإذْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تَعْبدُون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليّتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾[2]. وقال عنهم أيضاً ﴿وإذْ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقْرَرْتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان..﴾[3] ثم قال في سورة المائدة: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبيّاً. وقال الله إني معكم لئن أقمتُم

---

(١) هداية الحياري.
(٢) البقرة ٨٣.
(٣) البقرة ٨٤ ـ ٨٥.

الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرْتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأُكَفِرّن عنكم سيئاتكم ولأُدْخِلَنّكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل. فَبِما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونَسُوا حظّاً مما ذُكّروا به ولا تزال تطّلعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾[1].

٢ - ومن أوصافهم التي لفت القرآن الكريم نظرنا اليها سوء أدبهم مع الله وعداوتهم للملائكةِ وقتلهم الأنبياء. فقد وصفوا الله تعالى بأنه فقير، وأنه يتضرع إليهم، وأنّ يده مغلولة. وقَتَل أسلافُهم الأنبياءَ بغير حق مما يعبّر عن أصالتهم في الشر والعدوان، فلما كانوا هم لم يستنكروا ذلك الفعل من أجدادهم بل ساروا على طريقتهم، والرسول ﷺ يقول: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فَرَضِيها كان كمن شاهدها»[2] كانوا كأنما قد فعلوه.

ولقد عادوا جبريل لا لشيء إلا لأن جبريل كان يتنزّل بالوحي على رسول الله ﷺ بينما ينزل عليهم بالبلاء من الله تعالى. فقد روى الامام أحمد والترمذي والنسائي: «قال اليهود للنبي ﷺ بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها، إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا عن صاحبك. قال جبريل. قالوا جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا. لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿قُلْ مَنْ كان عَدُوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قَلْبك بإذن الله، مصدّقاً لما بين يَدَيْه وهُدًى وبشرى للمؤمنين. من كان عَدُوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌ للكافرين﴾[3].

---

(١) المائدة ١٢ - ١٣.

(٢) بنو اسرائيل في القرآن والسُّنّة، الدكتور محمد سيد طنطاوي، الجزء الثاني، ص ٣٥.

(٣) البقرة ٩٨ - ٩٩.

وانظر هنا الى سخف هؤلاء القوم وتناقضهم، الذين يدعون أنهم يؤمنون بالله، ويؤمنون بأن جبريل هو ملك مرسل من عنده، ثم هم بعد ذلك يعادونه ويكرهونه ويحقدون عليه. وهم ولا شك يعلمون أن عداوة جبريل هي في الحقيقة مصوبة الى الله مرسِلِه ووليّ أمره. ولذلك ردّ الله عليهم عداوتهم هذه بقوله، ﴿فإن الله عدوّ للكافرين﴾.

٣ ـ ومن خصالهم تحايلهم على محارم الله لاستحلالها وعلى حدوده للاعتداء عليها. ولا يكون مثل هذا الطبع في النفس إلا اذا كانت حريصة على زينة الحياة ومتاعها، ضنينة بها على الغير ولو كان في ذلك ما فيه من غضب الله ومَقْته. ومما يدل على ذلك قصة أصحاب السبت التي أوردها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذْ يعدُون في السبت إذْ تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتهم شُرَّعاً ويوم لا يَسْبتُون لا تأتيهم، كذلك نَبْلُوهم بما كانوا يفسقون. وإذْ قالت أمّة منهم لم تعظون قوماً الله مُهْلِكُهم أو مُعَذِّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلّهم يتّقون. فلما نَسُوا ما ذكّروا به أنجينا الذين يَنْهَوْن عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون فلما عَتَوْا عمّا نُهُوا عنه قُلْنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين﴾[1].

ومجمل قصة أصحاب السبت هؤلاء أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل عهداً بان يجعلوا يوم السبت يوماً خالصاً لعبادته. لا يأتون فيه عملاً أيّاً كان هذا العمل غير العبادة لله. وكان هؤلاء صيادين. ولمزيد من ابتلاء ما هم عليه من الالتزام بأمر الله والوفاء بعهده جعل الحيتان تتكاثر يوم السبت، دون غيره من أيام الأسبوع. فلما يكون من حقهم العمل تختفي الحيتان ويرجعون بشباكهم فارغة، وعندما يكون يوم السبت تأتيهم الحيتان شُرَّعاً ومترائية. وبعد زمن، فكروا بأن يحفروا على ساحل البحر الذي تأتي فيه الحيتان حياضاً تدخلها مياه البحر يوم

---

(١) الأعراف ١٦٣ ـ ١٦٦.

السبت وتدخل معها الحيتان فيتركونها ولا يقربونها يوم السبت، حتى اذا مضى وجاء بعده اليوم التالي اصطادوا الحيتان، ويكونون بذلك قد وفقوا بين نهي الله عن العمل يوم السبت وبين مصلحتهم في ضمان تحقيق المكاسب لأنفسهم بالحصول على الصيد الكثير... وعلى الرغم من أن بعضاً من قومهم قد نصحوهم ونهوهم عن هذا الفعل إلا أنهم لم يسمعوا لهم ونفذوا ما خطر لهم. وكانت الكارثة حيث غضب الله عليهم ومسخهم قردة وجعلهم سلفاً ومثلاً وعبرة للآخرين.

وقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « قاتل الله اليهود حُرِّمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها »[1] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بلغ عمر رضي الله عنه أن سَمُرة باع خمراً فقال قَاتَلَ الله سَمُرة، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها ـ أي أذابوها ـ فباعوها ».

وقد قال ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان): « ومن مكايد الشيطان، الحيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرّم الله وإسقاط ما فرضه ومضادته في أمره ونهيه. وهي من الباطل الذي اتفق السلف على ذمّة. فإن الرأي رأيان: رأي يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار وهو الذي اعتبره السلف وعملوا به. ورأي يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار وهو الذي ذموه وأهدروه. وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به الى فعل ما أمر الله تعالى به أو ترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام، وتخليص المُحِق من الظالم المانع له وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود بثبات فاعله ومعلمه، ونوع يتضمن إسقاط الواجبات وتحليل المحرّمات وقلب المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً والحق باطلاً والباطل حقاً، فهذا الذي اتفق السلف على ذمّه وصاحوا بأهله من أقطار

---

(١) صحيح البخاري باب (لايذاب شحم الميتة)، جـ٣ ص١٠٢، ومسلم في « كتاب المساقاة »، جـ٣ ص١٢٠٦.

الأرض...» ثم قال: «إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما تحايلوا على إباحة ما حرّمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها، وليس التحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه. ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وانما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء وباطنه باطن الاعتداء. ولهذا مسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبّه من صورة الإنسان. فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض مظاهره دون حقيقته، مسخهم سبحانه قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقا. وفي الحديث: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[1]. باختصار.

٤ ـ ومن أوصافهم التي أوردها القرآن الكريم وذمهم لأجلها جحود الحق عن علم واطلاع وذلك بسبب إفراطهم في عنصريتهم وتعصبهم الذميم لذاتهم الأمر الذي يجعلهم يتمسكون بأن يكون كل الخير لهم ويكرهون أن يكون شيء منه لسواهم. يقول الله تعالى: ﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[2] ويقول: ﴿وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يَرُدّوكم من بعد إيمانكم كفاراً حَسَداً من عِنْد أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق، فآعفوا وآصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾[3].

٥ ـ ثم آتباعهم للسحر والأوهام ونبذهم لكتاب الله كان من أبرز خصالهم

---

(١) اغاثة اللهفان، الجزء الأول، ص٣٥٨.
(٢) البقرة ١٠٥.
(٣) البقرة ١٠٩.

وطباعهم؛ فهم فئة يغلب في جماعتها استحباب العمى على الهدى واستحباب الذي هو أدنى على الذي هو خير، فتفشى فيها خبث النفوس ومرض القلوب وتفاهة الفكر، وجروا وراء الأوهام والسحر يهتمون بها ويتبعونها ونبذوا كلام الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، يقول الله تعالى: ﴿ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّق لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كَفَر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾[١].

٦ ـ وكذلك تحريفهم للكلِم عن مواضعه وحملهم له على غير ما وضع له وعلى غير وجهه الصحيح. يقول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسْمعون كلام الله ثم يُحَرِّفونه من بعد ما عَقَلُوه وهم يعلمون﴾[٢]. ثم يقول: ﴿فَوَيْلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وَوَيْلٌ لهم مما يكسبون﴾[٣].

وسيأتي الحديث عن التحريف ومعناه في فصل لاحق إن شاء الله. ولكن المهم هنا تثبيت ظاهرة نفسيّة لدى غالبية اليهود.

٧ ـ ومن أوصافهم أيضاً التي ذمهم القرآن الكريم لأجلها حرصهم على الحياة وجبنهم بالتالي وتقاعسهم عن الجهاد في سبيل الله. يقول الله تعالى: ﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يوَدُّ أحدُهم لو يعمَّرُ ألف سنة وما هو بمَزْحِزِحه من العذاب أن يُعمَّر والله بصير بما يعملون﴾[٤]. نعم، إن كل الناس وما نستثني أحداً يحرصون على الحياة ويتمنون الخلود فيها والمزيد من نعمها وخيراتها. وبذلك يقاسمون اليهود أصل هذه الصفة. ولكن اليهود لم يتركوا في

---

(١) البقرة ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) البقرة ٧٥.
(٣) البقرة ٧٩.
(٤) البقرة ٩٦.

حرصهم عليها وحبهم لها مزيداً لمستزيد لدرجة أنهم في سبيل ذلك يضحّون بعقيدتهم ودينهم وبكرامتهم، وينقلبون خائري العزائم ضعفاء النفوس جبناء يؤثرون الذل والهوان مع الراحة والوفرة على العزة مع الجهاد. وللتدليل على ذلك يسوق الله تعالى لنا قوله المجيد: ﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قوم آذْكروا نِعْمة الله عليكم إذْ جَعَلَ فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم آدْخلوا الأرضَ المقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدْباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين، وإنّا لن نَدْخُلَها حتى يخرجوا منها، فإنْ يخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون، أنْعم الله عليهما آدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فآفرُق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين﴾[1].

٨ - يضاف الى ما تقدم أنهم بطبيعتهم يميلون الى التنطّع في الدين والمغالاة فيه مغالاة لا تتفق وفلسفته والمصلحة المرجوّة منه وتعنّتهم تعنّتاً مؤذياً. ومن الأمثلة التي أوردها القرآن الكريم للبرهنة على هذا الطبع الصعب قصة البقرة التي أمرهم الله تعالى بذبحها على لسان نبيّه موسى عليه السلام. يقول الله تعالى: ﴿وإذْ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتّخذنا هُزُواً؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا آدْعُ لنا ربّك يبيّن لنا ما هي؟ قال إنّه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون. قالوا آدْعُ لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونُها تَسرُّ الناظرين. قالوا آدعُ لنا ربّك يبيّن لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة

---

(١) المائدة ٢٠ - ٢٦.

لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث مُسَلَّمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. قلنا اضْرِبوه ببعضها كذلك يُحيي الله المَوْتَى ويريكم آياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء، وإنّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافلٍ عما تعلمون﴾[1].

والقصة كما نقلها المفسرون هي أنه كان لأحد أغنياء بني إسرائيل ابن عم فقير هو وريثه الوحيد وكان يطمع في أن يرثه. فلما طالت حياته عدا عليه وقتله وأخفاه؛ ثم جاء موسى عليه السلام يطلب ثأره من أناس اتهمهم بقتله، فلما جحدوا ذلك، دعا موسى ربه ببيان الحقيقة، فأوْحى الله إليه بأن يأمرهم بذبح بقرة. وكان المفروض أن يستجيبوا للأمر ويذبحوا أي بقرة كانت. ولكنهم تنطعوا وتعنتوا وجعلوا يلحفون في المسألة حتى سقطوا في الحرج فكلفوا بذبح بقرة لم يكن لمثلها وجود إلا في بيت واحد، الأمر الذي كلفهم أن يدفعوا له فيها ثمناً باهظاً.

وفي هذه القصة دلائل كبيرة على ما جبل عليه بنو إسرائيل من الخصال السيئة مثل سوء أدبهم مع أنبيائهم وتنطعهم وإلحافهم في السؤال دونما مبرر لمزيد من المراوغة والتهرّب من الانصياع للأمر. وفي هذه القصة قد شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ومن أجل هذه الطبيعة السيئة جاءت تعاليم الاسلام تنهى عن كثرة السؤال بدليل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزّلُ القرآن تبدَلكم عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا

(١) البقرة ٦٧ - ٧٤.

أمرتكم بشيء فأتوه واذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم »[1].

وهكذا لو رحنا نتصفح الكتاب الكريم فيما نزل منه بوصف بني إسرائيل وخاصة الآيات التي حوتها سورة البقرة لرأينا ما يخيف منها ، ففيها ما يدل على أنانيتهم وجشعهم وبخلهم ونفاقهم وغدرهم ودسّهم وأخذهم بمبدأ الغاية تبرر الواسطة واستحلالهم ما في أيدي الغير ، ونظرتهم الى الغير على أنهم دونهم وتستباح لهم أموالهم ولا يلزمون بالوفاء لهم بالعهود . ومن طباعهم اللجاج والحجاج والمكابرة[2].

ومن الطباع التي غلبت عليهم وأخبرنا القرآن الكريم بها وكذلك التوراة من قبله أنهم سريعو التقلّب ؛ فقد ثبت أن الله تعالى قد أرسل موسى إلى فرعون ليدعوه الى الله وينقذ بني إسرائيل من بين يديه . وقد فعل ، ولما خرج بهم الى صحراء التيه ، وكان قد أراهم من نعم الله وأفضاله عليهم ومن معجزاته وعظيم قدرته الشيء الكثير ، وتركهم لفترة وجيزة من الزمن لميقاة ربّه ،نَسُوا ذلك كلّه ، وبادروا الى عبادة العجل ولم يسمعوا الى نصائح هارون عليه السلام ولا الى تحذيراته . . .

ولقد آذَوْا موسى ، وهم به مؤمنون وبفضله عارفون ؛ فقالوا عنه إنّه آدر [أي منتفخ الخصية] وآتهموه بقتل أخيه هارون ، وهو قد مات ميتته الطبيعيّة ، وقالوا عنه إنه قتله وغَيّبه ، الأمر الذي جعل الملائكة بأمر الله يرفعون تابوته بين السماء والأرض ليعاينوه ميتاً . وعلى الرغم من الرعاية الفائقة التي لقوها من العناية الربانيّة وقيام الإرشادات والوصايا الدينية المتلاحقة على ألسنة انبيائهم ورسلهم الكرام ، فقد عموا وصموا عن الحق ، وعبدوا الأصنام بعد عصر يوشع وقتلوا الأنبياء

---

(١) تفسير ابن جرير ، الجزء الأول ، ص ٣٤٧ .

(٢) مكة والمدينة ، أحمد شريف ، ص ٣٤ ، ثم راجع سورة البقرة من الآية ٤٠ ـ ١٤٦ .

بغير حق، حتى قتلوا منهم في يوم واحد سبعين نبيّاً في أول النهار وأقاموا السوق في آخره[1].

لقد أصابهم الغرور الى حد أنهم ينظرون الى سواهم على أنهم كلاب. وعللوا ذلك بنص ورد في التوراة التي بين أيديهم يقول: «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلون للكلب ألقوه» وفسّروه بقولهم ألقوه لمن ليس على ملّتكم فهو الكلب فاطعموه إياه بالثمن[2].

---

(١) هداية الحياري لابن القيم ١٣٣.

(٢) هداية الحياري لابن القيم ١٣٤.

الفصل الخامس

التوراة والتلمود

١ ـ التوراة
٢ ـ التلمود

التوراة:

قال صاحب الكشاف التوراة والانجيل إسمان أعجميان والاشتغال باشتقاقهما غير مفيد... وإن هذا القول هو الحق الذي لا محيد عنه. أما الفرّاء فيقول إن التوراة لفظ بمعنى الضياء والنور من قول العرب ورى الزند يري الزند إذا قدح وظهرت النار. قال تعالى: ﴿فالموريات قدحا﴾ وقد سميت التوراة بهذا الاسم لظهور الحق بها. يدل على هذا قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾[1].

أما الفخر الرازي فيقول: «فلو كانت التوراة إنما سميت توراة لظهورها، وجب في كل ما ظهر أن يسمّى توراة.. ومعلوم أنه ليس كذلك.. ثم إنهم عند إيراد هذه الالزامات عليهم لا بد من أن يتمسكوا بالوضع ويقولوا: العرب خصصوا هذين اللفظين بهذين الشيئين على سبيل الوضع، وإذا كان لا يتم المقصود في آخر الأمر إلا بالرجوع الى وضع اللغة، فلم لا نتمسّك به في أول الأمر ونريح أنفسنا من الخوض في هذه الكلمات. وأيضاً فالتوراة والانجيل إسمان أعجميان: أحدهما بالعبريّة والآخر بالسريانية فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب؟!»[2].

---

(١) الأنبياء ٤٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي، الجزء السابع، ص ١٧٢.

ويقول القاسمي: «والتوراة اسم عبراني معناه الشريعة والانجيل لفظه يونانية معناها البشرى أي الخبر الحسن. هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابيْن في مصنفاتهم. وقد حاول البعض تطبيقها على أوزان لغة العرب واشتقاقها منها وهو خبط بغير ضبط»[١].

وفي تفسير المنار أن «التوراة كلمة عبرية معناها الشريعة أو الناموس. وهي تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار يقولون إن موسى كتبها وهي: سفر التكوين وفيه الكلام عن بدء الخليقة وأخبار بعض الأنبياء، وسفر الخروج، وسفر اللاويين أو الأخبار، وسفر العدد، وسفر التثنية أو تثنية الاشتراع. ويطلق النصارى لفظ التوراة على جميع الكتب التي يسمونها العهد العتيق وهي كتب الأنبياء، وتاريخ قضاة بني إسرائيل وملوكهم قبل المسيح، ومنها ما لا يعرفون كاتبه. وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معاً وهو المعبر عنه بالانجيل. أما في عرف القرآن فالتوراة هي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه السلام ليبلغه قومه لعلّهم يهتدون به. وقد بين أن قومه لم يحفظوه كلّه إذ قال في سورة المائدة: ﴿ونسوا حظًّا مما ذكّروا به﴾[٢] كما أخبر عنهم في آيات أنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه وذلك فيما حفظوه واعتقدوه. وهذه الأسفار الخمسة التي في أيديهم تنطق بما يؤيد ذلك، ومنه ما في سفر التثنية من أن موسى كتب التوراة وأخذ العهد على بني إسرائيل بحفظها والعمل بها. ففي الإصحاح الحادي والثلاثين ما نصه: «فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلٰهكم ليكون هناك شاهداً عليكم، لأني أنا عارف تمرّدكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حيّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب،

---

(١) تفسير القاسمي، الجزء الرابع، ص ٦.
(٢) المائدة ١٣.

فكم بالحري بعد موتي؟ أجمعوا إليّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تعملون الشرّ أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم، فنطق موسى في مسامع كل جماعة اسرائيل بكلمات هذا النشيد الى تمامه»[1].

وتابع حديثه ليبرهن على أن هذه التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم دخل فيها ما ليس منها. وإن التوراة قد ضاعت. وإن عزرا الكاهن هو الذي كتب لهم الشريعة بأمر ارتحشستا ملك الفرس الذي أذن لهم بالعودة الى أورشليم. مما يؤكد أن جميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي، كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق. بدليل كثرة الألفاظ البابلية فيها. وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى التي هي أصل دينهم وأساسه. قال صاحب كتاب «خلاصة الأدلة السنيّة على صدق أصول الديانة المسيحية» والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود الى الآن ولا نعلم ماذا كان من أمرها. والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرّب بختنصّر الهيكل. وربما كان ذلك سبب حديث كان جارياً بين اليهود على أن الكتب المقدسة فقدت، وأن عزرا الكاتب الذي كان نبيّاً جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطها وبذلك عادت الى منزلتها الأصلية»[2].

وقد يتساءل البعض كيف تسنّى لعزرا أن يكتب التوراة ويجمعها بعد أن فقدت. فهو إذا جمع فإنما يجمع الموجود والمفقود غير موجود.. والجواب أنه قد جمع ذلك إلهاماً، وإن كان لا دليل لهم على هذا الجواب.

وقد بين بعض علماء أوروبا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة مما لا

---

(١) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ١٥٧.

يمكن أن تكون كاتبه واحداً. ومهما يكن، فالتوراة اليوم هي كتب تاريخية مشتملة على كثير من تلك الشريعة المنزلة، لأن القرآن يقول في اليهود: ﴿إنهم أوتوا نصيباً من الكتاب﴾. كما يقول: ﴿إنهم نسوا حظاً مما ذكّروا به﴾ ولأنه يستحيل أن تنسى تلك الأمة بعد فقد كتاب شريعتها جميع أحكامها، فما كتبه عزرا وغيره مشتمل على ما حفظ منها الى عهده وعلى غيره من الأخبار[١].

التلمود:

ولم تعد التوراة هي المصدر الوحيد للشريعة اليهودية ولا المرجع الفريد للتعرف على عقائدها ودعاواهم، بل هناك أيضاً التلمود. وهو عبارة عن «المشنا» و«القامارا» وهما ما يحفظ بالذكر والاستظهار من المأثورات من أيام النفي في «بابل» وهي تفسّر التوراة وتؤول نصوصها ويدخل فيها الشروح التي وضعها مفسّروهم ممن بلغوا مرتبة الرئاسة في التعليم[٢].

على أن ثمة كثيراً من اليهود يؤمنون بالتلمود على أنه كتاب منزل كالتوراة، بل أعظم من التوراة[٣] والتلمود مطبوع باللغة الانكليزية بأصوله وشروحه وتعليقاته. ويبلغ ستة وثلاثين مجلداً من القطع المتوسط وقد طبعت أول طبعة كاملة للتلمود الفلسطيني والعراقي سنة ١٥٢٠ - ١٥٢٤ في البندقية. ولغة كل من الطبعتين مختلفة عن الأخرى.

وأهم المباحث التي يتناولها هذا التلمود هي: الفلاحة، والأعياد والمواسم، والنساء وما يتعلق بهن من زواج وطلاق وحضانة ونذور وإرث ووصيّة. والنواهي والعقوبات، والذبائح، وما يتعلق بالتقدمات والقرابين ومراسم الهيكل في ذلك،

---

(١) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ١٥٨.
(٢) ابراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص ٣٧.
(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود، يوسف نصر الله، ص ٤٢ - ٤٤.

والطهارة. ثم أخذت الفروع تمتد، وتكثر الآراء والشروح جيلاً بعد جيل حتى رست مواد التلمود في اثني عشر مجلداً ضخماً في ستة أبواب وسبعة وستين مبحثاً وخمسمئة وأربعة وعشرين فصلاً أو حكماً [1].

---

(١) برتوكولات حكماء صهيون، الجزء الثالث، ص١٥٣ ـ ١٥٤.



الفصل السادس

عقائدهم

١ ـ عقيدتهم في الله
٢ ـ الله والحاخامات
٣ ـ الملائكة والشياطين
٤ ـ نظرتهم إلى الروح
٥ ـ حكم السرقة
٦ ـ قتل غير اليهودي
٧ ـ الزنا واليمين
٨ ـ الحرمان عندهم
٩ ـ مشتملات التلمود
١٠ ـ تعريف السحر
١١ ـ حكم الاسلام
١٢ ـ عقيدة اليهود في عيسى
١٣ ـ عقيدتهم في الآخرة
١٤ ـ نظرتهم إلى المرأة والى تعدد الزوجات
١٥ ـ بعض احكام شريعتهم
١٦ ـ عداوتهم للمسيحية
١٧ ـ عداوتهم للاسلام

عقيدتهم في الله :

ومعتقدات اليهود كثيرة العجب ؛ فهم موحّدون. ولكن إلههم إله غريب ، لأنـه كما هو وارد في التوراة التي بين أيديهم جاهل حيناً وعالم حيناً آخر ، وضعيف تارة وقوي أخرى ، يفضّل سكنى البيوت والخيـام على سكنـى السحـاب. إنـه جشـع متعطش الى سفك الدماء. ولهم إله خاص بهم. هو يهوه. وهو سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعدائه. وهو يحبهم. وقد اصطفاهم من بين جميع شعوب الأرض وجعلهم شعبه المختار.

ثم إنهم يخلعون عليه الصفات الحسيّة التي يختص بها الإنسان. كالنسيان[١] والندم[٢] والتشجيع على السرقة[٣] والجهل[٤] والبساطة بحيث تنطلي عليه الحيل[٥] وأنه متردد[٦] ويتعب ويحتاج للراحة[٧] وأنه فقير.

ومع اعتقادهم بأن إلٰههم هو يهوه ، غير أنهم يعتقدون حسبما هو وارد في التوراة

---

(١) خروج اصحاح ٢

(٢) خروج اصحاح ٣٢.

(٣) خروج اصحاح ١٢.

(٤) عدد اصحاح ٢٢.

(٥) تكوين اصحاح ٢٧.

(٦) تكوين اصحاح ٨.

(٧) تكوين اصحاح ٣.

التي بين أيديهم بوجود آلهة كثيرة[1] . وهم لا يسمحون لإلاههم بأن يتصل بسواهم من الشعوب لهدايتهم،كما لا يسمحون لتلك الشعوب بالاتصال به لتتعرّف عليه وتعبده[2] . وفي هذا يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الله » : « وكان معنى الكفر في الاسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة والوطنية في هذه الأيام ؛ فكان للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرّمون عبادتها كتحريم الانتماء الى دولة أجنبية . فربّ الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى »[3] .

وهم يعتقدون أنهم يمثلون عناقيد العنب ، وسائر الأمم تمثل الشوك المحيط بالكرم لحفظه ، وأن الله سيقيم لهم نبيّاً من آل داوود إذا حرّك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى على وجه الأرض إلا اليهود . وهذا النبي الذي سيقيمه الله لهم هو المسيح الذي وعدهم به .

والله تعالى بزعمهم يرقد . وهم لذلك ينبّهونه دوماً في صلاتهم فيقولون له في دعائهم له : « يا أبانا إنتبه في رقدتك كم تنام[4] . وأنه تعالى يندم . وقد ندم ، بل وبكى على الطوفان الذي أغرق به الناس قديماً . وعضّ أنامله أسفاً وحزناً . وأنه تعالى صارع يعقوب ، فصرعه يعقوب . وأنّه ندم أيضاً لأنه خلق الإنسان[5] . وأنه تنطلي عليه الحيل ويستغفله الإنسان[6] .

---

(١) تثنين اصحاح ٦ .
(٢) جذور البلاء، عبد الله التل ، ص ١٥ ـ ٣٨ .
(٣) الله ، عباس محمود العقاد ، ص ١٣١ .
(٤) هداية الحيارى، ص ١٩٠ .
(٥) تكوين اصحاح ٦ و٩ .
(٦) تكوين اصحاح ٢٧ .

الله والحاخامات:

والحاخامات عندهم في مكان العصمة والتنزيه. ومن آحتقر أقوالهم استحق الموت. وهم يعتقدون بأنه لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود، واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى[1]. وقد قال الحاخام روسكي: «إلْتَفِتْ يا بني الى أقوال الحاخامات أكثر من التفاتك الى شريعة موسى». وقد جاء في كتاب أحد الحاخامات المؤلف سنة ألف وخمسمئة بعد المسيح «أن الحاخامات لا يمكن نقض أقوالها ولا تغييرها ولو بأمر الله. وقد وقع يوماً الاختلاف بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة؛ فبعد أن طال الجدال، تقرّر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين. وآضطر الله تعالى أن يعترف بِغَلَطِهِ بعد حكم الحاخام المذكور[2].

ويقول الرابي مناحيم كباقي الحاخامات: «إن الله تعالى يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء» وقد جاء في كتاب يهودي اسمه كرافت مطبوع سنة ألف وخمسمئة وتسعين «إعلَم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء». وقد جاء في التلمود: «ومن يجادل حاخامه أو معلّمه فقد أخطأ، وكأنه جادل العزّة الإلهية». وجاء في التلمود أيضاً «إن النهار اثنتا عشرة ساعة، في الثلاث الأولى منها يجلس فيها الله ويطالع الشريعة وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم. وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الاسماء»[3].

وقال مناحيم: «إنه لا شغل لله في الليل غير تعلّم التلمود مع الملائكة ومع «اسموديه» ملك الشياطين في مدرسة في السماء ثم يصرف «اسموديه» منها بعد

---

(١) الكنز المرصود، ص ٤٤.
(٢) الكنز المرصود، ص ٤٧ وما قبلها وما بعدها.
(٣) الكنز المرصود، ص ٤٧.

صعوده إليها كل يوم »[1].

والله في اعتقاد اليهود ليس معصوماً من الطيش الذي يستولي عليه عند الغضب، كما حصل منه ذلك يوم غضب على بني إسرائيل وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية. ولكنه عاد فندم على ذلك بعد أن ذهب الطيش عنه، ولم ينفذ تلك اليمين لأنه عرف أنه فعل فعلاً ضد العدالة[2].

وقد جاء في التلمود أن الله تعالى عن ذلك، اذا حلف يميناً غير قانونية آحتاج الى من يحلّله منها. وقد سمع أحد العقلاء من الاسرائيليين الله تعالى يقول: ﴿ من يحلّلني من اليمين التي أقسمت بها ؟ ولما علم باقي الحاخامات أنه لم يحلّله منها أعتبروه حماراً لأنه لم يحلل الله من يمينه. ولذلك نصبوا ملكاً بين السماء والأرض اسمه « مي » لتحليل الله من أيْمانه ونذوره عند اللزوم ».

الملائكة والشياطين:

ويعتقد اليهود أن الملائكة قسمان: قسم لا يطرأ عليه الموت، وقسم يموت يوم يخلق، بعد أن يرتّل لله ويقرأ التلمود ويسبّح التسابيح، أو يموت بعد مكثه زمَناً طويلاً مقدّراً له. أما الشياطين: فهم في آعتقاد اليهود أنواع: بعضهم مخلوق من مركّب مائي وناري. وبعضهم مخلوق من الهواء وبعضهم مخلوق من الطين. وبعضهم مخلوق من نسل آدم. وهم بالاجال يموتون.

نظرتهم الى الأرواح:

أما نظرتهم الى الأرواح فتختلف باختلاف صاحبها. فإن كان يهودياً، فروحه متميّزة عن أرواح الناس. وذلك لأنها جزء من الله تعالى. ولذلك فهي عزيزة عليه. وإن لم يكن يهودياً، فروحه روح شيطانية، وشبيهة بأرواح الحيوانات.

---

(١) الكنز المرصود ٤٩.
(٢) الكنز المرصود ٥١.

ثم هم يقولون بتناسخ الأرواح اليهودية المرتدّة عن دينها وذلك رحمة بها، ولتمرّ في أدوار تكوينية تتطهّر بها ويتسنّى لها معها دخول نعيم الله.

ويعتقدون، بأنهم هم الخير الفائض على الأرض، ولو لم يخلقوا لانعدمت البركة منها، ولما خلقت الأمطار ولا الشمس. وكل كائن أيّا كان ما دام غير يهودي فهو غير إنسان ولا يصح أن تستعمل معه الرأفة. ومحظور على اليهود تلمودياً أن يُحيّوا الكفار بالسلام ما لم يخشوا ضررهم. ولذلك كانت شريعة النفاق فيهم[٢].

حكم السرقة:

والسرقة عندهم محرّمة من الإنسان أي من اليهودي. ولكنها جائزة من غيره أي من الخارجين على دين اليهود. وذلك لأن الدنيا كلها قد خلقت لأجلهم فهي تخصّهم وحدهم ولهم عليها حق التسلّط. والسرقة إذا كانت من غير اليهودي، لا توصف بأنها سرقة، لأنها في هذه الحال استرداد للمال. وهكذا فإن لليهودي سرقة من يشاء من غير اليهود، وله أيضاً أن يغشهم وأن يأكل منهم الربا بل والربا الفاحش.

قتل غير اليهودي:

ولا يعتبر في نظرهم قتل اليهودي لغير اليهودي جناية لأنه في شريعة التلمود فعل مرض لله، لأن لحم الأميين هو لحم حمير، ونطفتهم نطفة حيوانات. وقد جاء في التلمود «أقتل الصالح من غير الاسرائيليين. ومحرّم على اليهودي أن ينجّي أحداً من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون

---

(١) الكنز المرصود ٥١.

(٢) الكنز المرصود ٦٧ - ٧١.

حفظ حياة أحد الوثنيين»[1].

الزنا واليمين:

ثم إن شريعة اليهود تحرم الزنى على اليهودي إذا كان مع يهودية، ولكنها تبيحه له مع غير اليهوديات. وتجعل يمين اليهودي مع غير اليهودي غير ملزمة له بشيء. وعلى هذا فإنه يجوز له أن يحلف زوراً، كما يجوز له أن يحلف وينوي شيئاً آخر.

والظاهر في شريعة اليهود شيء والخفاء شيء آخر. وما لا يجوز فعله في الظاهر يمكن فعله في الخفاء. ومن هنا كان لليهودي أن يفعل الشر في الخفاء. ومن حق اليهودي أن يؤدي عشرين يميناً كاذبة إذا كان يهدف الى ألا يعرض أحد إخوانه اليهود لضررٍ ما.

وعلى كل حال فإن كل خطايا اليهود تغفر لهم يوم الغفران العمومي الذي يصلّون فيه مرة في كل عام.

الحرمان عندهم:

ومن سننهم الغريبة الحرمان. وهو على مرتبتين: **الأولى** أن ينفرد الذي اتخذ قرار الحرمان بحقه، عن مخالطة الجماعة اليهودية ما عدا زوجته وأولاده. وأن يحرم عليه خلال مدة الحرمان التي تطول شهراً الحلق والاغتسال. وإذا مات في مدة الحرمان، فإنه لا يحزن عليه أحد من أهله ولا يمشون خلف جنازته. **أما الثانية** فيحرم على المذنب فيها مخالطة الغير، ويمنع من التعلّم والتعليم، وأن تُؤَدَّى له خدمة ما أو أن يُؤَدِّي هو خدمة ما لغيره.

ويتحقق هذا الحرمان بحكم عشرة أشخاص وفي محفل رسمي، بخلاف الأول

---

(١) الكنز المرصود، ص ٧٣ ـ ٨٤.

فإنه يمكن أن يصدر حكمه عن شخص واحد من العوام.

ومن أسباب الحرمان احتقار الحاخامات ولو بعد وفاتهم، وآحتقار أقوالهم أو أقوال الشريعة، وبيع الحقول لغير اليهودي، والتسبّب في إضلال الناس [اليهود] وتأدية اليمين ضد يهودي أمام محكمة غير يهودية[1].

مشتملات التلمود:

ومن محتويات التلمود المواد المنظمة للحياة اليهودية علمانية كانت أو دينية، شخصية أو مجتمعية. كما يشتمل على القصص والتاريخ والآداب والأساطير[2]. وهو كتاب السحر الأول في العالم. ولذلك كانت ممارسة اليهود للسحر قديمة منذ أيام بابل[3] وهو من جمع الآباء الأولين ما بين عام ٤٠٠ ـ ٥٠٠ م[4].

يقول الله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مُصدّقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. وآتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله. ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن آشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا وآتّقَوْا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾[5].

لقد نبذ اليهود التوراة التي أرسلها الله إليهم، وراء ظهورهم. كما نبذوا القرآن

---

(١) الكنز المرصود، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) الملل المعاصرة في الدين اليهودي، اسماعيل الفاروقي، ص ٢٠.

(٣) جذور البلاء، ص ٧٦.

(٤) اليهودية واليهودية المسيحية لفؤاد حسين، ص ٢٥.

(٥) البقرة ١٠٢ ـ ١٠٤.

الكريم فلم يعيروا كل ما جاء به آهتمامهم وعنايتهم، وجروا وراء ما كانت تقصه الشياطين على عهد الملك سليمان وفي عصره من الخرافات والأكاذيب والضلالات والكفر، كقولهم بأن ملك سليمان قام على الاشتغال بالسحر، وأن سليمان ارتدّ في اخر أيام حياته وعبد الأصنام ارضاء لنسائه الوثنيات، وقولهم إن الجن تعلم الغيب.

وفي هذه الآية تبدو صراحة الجزم بأن اليهود كانوا يهتمون بالسحر ويفعلونه ويمارسونه ممارسة فيها إضرار بالناس. إذْ كانوا يستعينون بـه للتفـريـق بين المرء وزوجه. وقد كانت معلومات السحر معروفة قبل سليمان. فقد أخبرنا القرآن الكريم بأن فرعون كان أيضاً يستعين بالسحرة ويعتمد عليهم في شؤون ملكه. وكانت هذه المعلومات مَدَوّنة في صحف اليهود وقد توارثوها خلفاً عن سلف الى أن وصل الى من كان يعاصر النبي ﷺ منهم..

وقد كانت بابل أكثر البلاد عناية بالسحر وعملاً به. وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم زيّنوا لهم به عبادة الأصنام والكواكب فعمّت الأوهام وانتشرت الأباطيل والخرافات وحدث في البلاد فساد عظيم، فألهم الله تعالى هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه حتى يروه على ما هو به، وتزول عن قلوبهم الغشاوة ويعرفوا أن السحرة هم خادعون مضلّون، ويعودوا الى الحق والى الطريق المستقيم...

تعريف بالسحر:

والسحر هو لغة الصرف، ومنه قوله تعالى ﴿فأنّى تسحرون﴾ أي فكيف تصرفون عن الحق الى الباطل. وجمهور علماء أهل السنة يذهبون الى أن للسحر آثاراً حقيقية. وأن الساحر قد يأتي بأشياء غير معتادة، ولكن الفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله. وذلك لأن الله تعالى أمر نبيّه الكريم بأن يستعيذ بالله من شر النفّاثات في العقد. والنفاثات في العقد هم السحرة على الأرجح كما يقول مجاهد

وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك[1].

ويقول القرطبي: «ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلّم الناس فيه، ولم يبد أحد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله[2]. وقد قال القاضي عياض «وقد جاءت روايات مبيّنة أن السحر إنما تسلّط على جسده ﷺ وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده» وذلك تعليقاً منه على الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها من أنه ﷺ قد اعتراه أثر السحر «حتى كان يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن» أي يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القدرة عليهن، فاذا دنا منهنّ أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور»[3].

وقد ذهب بعض علماء المسلمين وفي مقدّمتهم المعتزلة الى أن السحر ليس حقيقة، وإنّما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[4]، وكما قال أيضاً: ﴿فلما ألقَوْا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾. ولذلك فهؤلاء يرون أن السحر لا يقع منه قلب الحقائق وتغيير ذواتها كقلب الإنسان حيواناً والحيوان إنساناً. ولو كان يقع منه ذلك لاختلط الأمر بينه وبين عمل المعجزة التي يأتي بها الأنبياء بإقدار الله تعالى تصديقاً لدعواهم وتأييداً لهم.

والفرق بين نظرة المعتزلة هؤلاء ونظرة أهل السنة للسحر، أن هؤلاء يرون السحر حقيقة ويمكن أن يقع إذا أذن الله بوقوعه. والفرق بينه وبين المعجزة أن

---

(١) ابن كثير، الجزء الرابع، ص٥٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، الجزء الثاني، ص٤٦.

(٣) صحيح مسلم كتاب السلام «باب السحر» الجزء الرابع، ص١٧١٩ شرح وتعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) طه ٦٦.

المعجزة خارق للعادة يظهر على يد من ادعى النبوّة تحدّياً ومعارضة للجاحدين والكفرة. والسحر هو خارق للعادة ولكنه ليس فيه دعوة نبوّة ولا معارضة. أما المعتزلة أولئك فإنهم يروْن أن المعجزة هي كما وصفها أهل السنة، وأن السحر هو تخييل وتمويه وليس حقيقة بدليل الآيات الواردة في القرآن الكريم والتي أشرنا الى بعضها آنفاً. يقول الشيخ محمد خضر حسين: «وربما كانت الحاجة الى الفرق بين المعجزة والسحر فرقاً واضحاً تقتضي عدم صحة وقوعه؛ فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعباناً ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش، ولا أن يجعل الماء ينبع من بين الأصابع فتروى منه العطاش. وأعني أنه لا يجري على يده من خوارق العادات مثل ما يجري على أيدي الأنبياء للأعجاز»[1].

على أن مفكري المسلمين كافة متفقون على وقوع السحر بمعنى مزاولة أسباب وأفعال يترتب عليها آثار ظاهريـة لا حقيقية لإرعاب الناس أو ترغيبهم ولحضّهم أو ثَنْيهم ولتشجيعهم أو تثبيطهم في موقف ما أو تجاه أمر ما.

حكم الاسلام:

ومهما يكن من أمر هذا السحر، فقد حذّر الاسلام المسلمين من تعاطيه بقصد الأذى. وتوعّد مرتكبيه بأشد العقوبات وفي الحديث قوله ﷺ: «حدّ الساحر ضربة بالسيف»[2]. وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق. وأفتى البعض الآخر بقتله إن كان رجلاً حتى يتوب عنه، ويحبسه إن كان امرأة حتى تتركه. وأفتى آخرون بأن الساحر إذا كان قد أحدث في المسحور جناية توجب القصاص آقتص منه، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه حكم عليه بدية مناسبة[3]. وروى عن الشافعي أنه لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول

---

(١) مجلة لواء الاسلام، السنة الثالثة، العدد الثالث، ص ٨.

(٢) الجامع للأصول في أحاديث الرسول، الجزء الثالث، ص ٣٠ الشيخ منصور علي ناصف.

(٣) بنو إسرائيل في القرآن، الجزء الثاني، ص ٩٥ ـ ٩٧.

تعمدت القتل، وإن أضرّ به أدب على قدر الضرر [1].

بيد أن العلم بالسحر كما قلنا سابقاً غير قبيح ولا محظور، ما دام القصد منه مجرّد المعرفة أو للاستفادة منه لتجنب الوقوع بضرره.

عقيدة اليهود في عيسى عليه السلام:

هذا وقد افتروا على مريم عليها السلام أكبر الفرية فرمَوْها بالزنى ونسبوا اليها ارتكاب الفاحشة. ووصموا عيسى عليه السلام بأنه دعي وأنه ابن زنى... ثم أنكروا بعثته وأنكروا بالتالي دعاوى النصارى من أنه ابن الله أو أنه إله. وجحدوا الانجيل. وحكموا على عيسى بأنه وثني وساحر ومجنون ويهودي مرتد [2] على الرغم من انهم كانوا يترقبون بعثة المسيح الذي بشرت به أنبياؤهم قبل الميلاد ببضعة قرون [3]. كما رفضوا وتنكروا لكل عقيدة انبثقت عن بعثته وكل شريعة ترتب ظهورها على ظهوره. بل ادعوا بأنهم قتلوا عيسى بن مريم عليهما السلام وأنهم صلبوه كما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ [4].

عقيدتهم في الآخرة:

هذا وإن التوراة التي بين أيديهم لم تأت على ذكر الآخرة أو البعث كأنما هي ليست واردة على لسان موسى عليه السلام أو لسان أنبياء بني إسرائيل؛ فالأرض السفلى أو الجب أو شيول هي الهاوية التي تأوي إليها الأيتام بعد الموت. ولا نجاة

---

(١) القرطبي، الجزء الثاني، ص ٤٨.
(٢) الكنز المرصود، ١٠٠ - ١٠١.
(٣) الله، عباس محمود العقاد، ص ١٦٥.
(٤) النساء ١٥٦.

منها... وإن الذي ينزل الى الهاوية لا يصعد[1]. كما أنه لم يرد فيها أي وعد لليهود يتحقق لهم في الآخرة مقابل طاعتهم. بل إن ما ورد فيها من وعود مقابل المحافظة على أحكام الشريعة لم تكن سوى ضمان الأمان في الحياة الدنيا والنعم المادية فيها. فليس في التوراة للمسيئين أي ترقّب منهم لعذاب أليم ينالهم مقابل عصيانهم في الدنيا[2]. ولذلك كان من أوائل الإشارات ليوم كيوم البعث ما ورد في الاصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد، وفيه نبوءة عن يوم «يطالب فيه الرب جند العلاء في العلاء ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم» ثم ما ورد في الاصحاح الثاني عشر عن كتاب دانيال وهو أصرح من السابق حيث يقول فيه النبي: «إن كثيرين من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء الى الحياة الأبدية، وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدي»[3].

وعلى الرغم من هذه الإشارات المذكورة، يبقى حديث الآخرة والجزاء فيها بالنعيم الأبدي للمحسنين والعذاب الأليم المقيم للكافرين الجاحدين، شبه مفقود في التوراة ككل. ويبقى الاعتقاد عند اليهود واضحاً بأن الجزاء دنيوي ومادي كما هو ظاهر، فيكون العقاب مثلاً قحطاً أو هلاكاً أو ذلاً أو عاراً أو استعباداً لأعداء لهم، ويكون الثواب بزيادة غلال الأرض ونماء ثمار أشجارها ووفرة نتائج البهائم أو نصراً على الأعداء.

نظرتهم الى المرأة والى تعدد الزوجات:

أما المرأة فهي في نظر اليهود كالصفر. وهي لزوجها كالقوت[4] وهي تخرج من

(١) الله، للعقاد، ص ١٣٠.

(٢) راجع الاصحاح ٣، ٤، ٩، ٢٢، ٢٧ تكوين والاصحاح ٢٣ خروج و٢٦ لاويين وغيرها

(٣) الله، لعباس محمود العقاد، ص ١٣٠.

(٤) الكنز المرصود، ص ٩١.

ميراث أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، ولا يحق لها أن تأخذ من ماله إلا ما يهبه هو لها . وإذا آل الميراث الى البنت لعدم وجود الذكور معها فإنه لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر إذ لا يحل لها أن تنقل ميراثها الى غير سبطها . فقد جاء في الاصحاح السابع والعشرين من سفر العدد أن بنات صلفحاد بن حافر « وقفن أمام موسى والیعازر الكاهن وأمام الرؤساء وكل الجماعة لدى باب خيمة الاجتماع قائلات : أبونا مات في البرّية ، ولم يكن في القوم الذين اجتمعوا على الرب في جماعة قورح ، بل بخطيئته مات ولم يكن له بنون . . . لماذا يحذف اسم أبينا من بين عشيرته لأنه ليس له آبن . . . اعطنا ملكاً بين إخوة أبينا . . . فقدّم موسى دعواهن أمام الرب ، فكلّم الرب موسى قائلاً : بحق تكلمت بنات صلفحاد فتعطيهن ملك نصيب بين أخوة أبيهن ، وتنقل نصيب أبيهن إليهن ، وتكلم بني اسرائيل قائلاً ، أيّما رجل مات وليس له نصيب ابن ، تنقلون ملكه إلى ابنته . وإن لم يكن له آبنة تعطوا ملكه لإخوته . وإن لم يكن له إخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه وإن لم يكن لأبيه إخوة تعطوا ملكه لنسيبه إليه من عشيرته فيرثه . فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاءً كما أمر الرب موسى » .

ثم يأتي بعد ذلك في الاصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد ويقول : « فلا يتحوّل نصيب لبني إسرائيل من سبط الى سبط . بل يلازم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه . وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني إسرائيل تكون آمرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط آخر ، بل يلازم أسباط بني إسرائيل كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى » .

والمرأة في نظر التوراة التي بين أيديهم هي التي غوت باغراء إبليس أوّلاً . ثم هي التي جاءت الى آدم وأغوته وحسنت له الأكل من الشجرة حتى تأثر بها وأكل منها : ورد في الاصحاح الثالث من سفر التكوين : « وكانت الحية أحيل جميع

حيوانات البرّية التي عملها الرب الإله ، فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنّة ؟ فقالت المرأة للحيّة من ثمر الجنّة نأكل ، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا : بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهيّة للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر » .

والشريعة الموسوية حسبما هو موجود في التوراة التي بين أيدي اليهود تبيح تعدد الزوجات ؛ فقدتزوج إبراهيم عليه السلام بسارة وتسرّى بهاجر[١] . كما تزوج يعقوب براحيل وليئة وبَلْهة وزلفة [٢] . وقد ورد أن داوود عليه السلام وسليمان عليه السلام وهما نبيان وملكان جمعا بين عشرات الزوجات الشرعيات والإماء . وقد ورد في الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك أن الملك سليمان : « أحب نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأورميات وصيدونيّات وحثيّات .. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري ... » ويقول تيوفلد صاحب كتاب « قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين » : « إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه ، وإن كان بعض الربّانيين ينصحون بالقصد في عدد الزوجات »[٣] .

ومن حق اليهودي أن يطلق زوجته في شريعة التوراة . ولها أن تتزوج بغيره . ولكنه يحظّر عليها أن تعود الى زوجها الأول إذا طلقها زوجها الثاني أو توفي عنها . جاء في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج

---

(١) تكوين الاصحاح ١٦ .
(٢) تكوين الاصحاح ٣٠ .
(٣) المرأة في القرآن ، عباس محمود العقاد .

بها ، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته ، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر ، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتّخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجسّت لأن ذلك رجس لدى الرب ».

يضاف الى ما تقدم أن الشريعة الموسوية كما هو وارد في التوراة التي بين أيديهم تبيح زواج العمّة ؛ فقد تزوج يوكابد عمته فولدت له هارون وموسى . وفي التوراة « وأخذ عمْرام يُوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى »[1] .

بعض أحكام شريعتهم :

ولا بأس ونحن في هذا البحث من أن نسوق بعض ما تضمّنته الشريعة الموسوية من أحكام مختلفة . فقد ورد فيها وجوب الختان ففي التوراة : « هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر فتختنون في لحم غُرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم »[2] وورد فيها تحريم عبادة الأوثان والغصب والسلب ، وتأخير أجرة الأجير ، وتحريم الظلم والوشاية والحقد والانتقام على أبناء شعبهم وتحريم الزنى واللواط وتطفيف الكيل وإخسار الوزن ، وعقوق الوالدين[3] ، وتحريم السحر والعيافة والعياذة بالجن ، وشهادة الزور وتحريم أكل لحم الخنزير .

ورد في شريعتهم الرجم للمرأة الزانية ، ووجوب الغسل من الجنابة ، وتحريم

---

(١) خروج اصحاح ٦ .
(٢) تكوين ١٧ .
(٣) لاويين اصحاح ١٩ ـ ٢٠ .

أكل الربا من اليهود وتحريم صناعة التماثيل[1]. ووجوب عدم مهادنة الخارجين على عبادة الله، وهدم مذابحهم وأصنامهم[2].

عداوتهم للمسيحية:

ولقد سبق أن لفتنا النظر الى موقف اليهود من السيدة مريم عليها السلام ومن ابنها عيسى عليه السلام، ونزيد هنا بأنهم لا يعترفون بعيسى عليه السلام، ويصفونه بأنه دعي كما يصفون أمه بأنها زانية. وقد تصدّى له أجدادهم وأسلافهم قديماً لأنه في نظرهم قد زوّر الحقيقة وآدعى ما ليس له، فحاولوا قتله بعد أن ناوأوه. ثم أشاعوا بأنهم صلبوه. وهم الذين أثاروها حرباً ضروساً على المسيحية وعلى المسيحيين، ففتكوا بهم عام ٤١ م، ودبّروا لهم المذابح المتعددة في عهد تراجان (٩٨ - ١١٧) في قبرص والقيروان ومصر وليبيا. وهم الذين سببوا لهم مذبحة الأخدود في نجران في عهد ذي نواس التي أومأ اليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذْ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾[3].

عداوتهم للاسلام:

وكما لا يعترفون برسالة عيسى عليه السلام، فإنهم أيضاً لا يعترفون بنبوّة محمد عليهالصلاة والسلام ولا برسالته ولا بكتابه. بل يكرهونه ويكرهون دينه وأتباعه. وقد حسدوه ﷺ لأنه قد ظهر من العرب ولم يكن منهم، وحسدوا أتباعه

---

(١) تثنية ٢٢، ٢٣، ٢٧.

(٢) خروج ٣٤.

(٣) البروج ٤ - ٨.

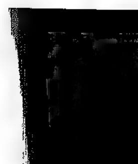
وحقدوا عليهم. وكان كل همهم بعد أن هاجر الرسول ﷺ الى المدينة موطن بعضهم، الكيد له ومناصبته العداوة والخصام، وخذلانه والصدّ عنه حتى يبوء بالفشل والخيبة الكاملة.

الفصل السابع

ترقب اليهود في مكة والمدينة وظهور النبي

١ - يعرفونه كما يعرفون أبناءهم
٢ - البشارة بالنبي من التوراة
٣ - الاسلام المصلح





يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

كان اليهود، وبخاصة يهود المدينة منهم يتحدثون قبيل بعثة سيدنا محمد ﷺ عن قرب مبعث نبي في الجزيرة، وأنه قد أظل زمانه، وأنهم سيكونون من أتباعه ومن أنصاره، وأنهم سوف ينتصرون به على منافسيهم من الأوس والخزرج سكان المدينة إذْ ذاك. وقد أنبأنا الله تعالى في الكتاب بأنه قد أخذ عليهم موثقاً بأن يستقيموا فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا فيهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لَئِن أقمتُم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم بِرُسُلي وعزَّرْتُموهم وأقرضْتم الله قَرْضاً حسناً لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيئآتكم وَلأُدْخِلنّكُم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[1].

وقد بيّن لنا علماؤنا أن مفهوم الميثاق وركائزه الإيمان بمحمد ﷺ الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وكانوا ينتظرون مبعثه. فقد روى عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد قال: «كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت. وذلك قبل مبعث النبي ﷺ. فقالوا: وَيْحك يا فلان!! وهذا كائن أن الناس

(١) المائدة ١٢.

يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنّة ونار يُجْزَوْن بأعمالهم؟! قال: نعم!! والذي يحلف به لَوَدِدْتُ أن حظّي من تلك النار أنْ توقدوا أعظم تنّور في داركم فتحمونه ثم تقذفوني فيه، ثم تطبقون عليّ، وأني أنجو من النار غداً!! فقيل يا فلان ما علامة ذلك؟! قال نبي يبعث من ناحية هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا فمتى نراه؟! فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي. وأنا أحدث القوم فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله وإنه لحيٌّ بين أظهرنا فآمنّا به وصدّقناه، وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا يا فلان!! ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا به؟! قال ليس به»[1].

وعن ابن عباس قال «كان يهود قُرَيْظة والنّضِير وفَدَك وخَيْبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم قبل أن يبعث. وأن دار هجرته المدينة. فلما ولد رسول الله ﷺ قالت أحبار يهود ولد أحمد الليلة. وهذا الكوكب قد طلع. فلما تنبأ قالوا: تنبأ أحمد قد طلع الكوكب. كانوا يعرفون ذلك ويُقِرُّون به ويصفونه، فما منعهم إلا الحسد والبغي».

وعن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس فقال: «أخْرِجوا الى أعلَمَكم. فقالوا عبد الله بن صوريا. فخلا به رسول الله ﷺ فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المنّ والسَّلْوى وظلّلهم من الغمام، أتعلم أني رسول الله؟ فقال: اللهم نعم. وإن القوم ليعرفون ما أعرف وإن صفتك ونعتك لمبيّن في التوراة. ولكن حسدوك. قال فما يَمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم»[2].

والأخبار في هذا الموضوع مستفيضة. وكلها تؤكد أن اليهود كانوا يعرفون

---

(١) هداية الحيارى، لابن القيم، ص ١٨.
(٢) هداية الحيارى، ص ٩٣ - ٩٤.

أوصاف الرسول ﷺ قبل أن يبعث نقلاً عن أخبارهم ومن التوراة التي بين أيديهم. والله تعالى يقول: ﴿أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفُسُكم آسْتَكْبَرْتم ففريقاً كَذّبتم وفريقاً تقتلون وقالوا قلوبُنا غُلْف، بل لعنهم الله بِكُفْرهم، فقليلاً ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1].

يقول الفخر الرازي: «أما قوله تعالى ﴿أفكلّما جاءكم رسول﴾ الخ فهو نهاية الذم لهم لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يَهْوَوْن كذّبوه، وإنْ تهيّأ لهم قتله قتلوه. وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتهم والترؤس على عامّتهم وأخذ أموالهم بغير حق... وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذّبونهم لأجل ذلك... الى أن يقول: «أما قوله تعالى ﴿وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ ففي سبب النزول وجوه (أحدها) أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام ونزول القرآن كانوا يستفتحون، أي يسألون الفتح والنُّصْرة. وكانوا يقولون «اللهم آفتح علينا وآنصرْنا بالنبي الأُمي. (وثانيها) كانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبيٌّ قد أظل زمانه ينصرنا عليكم عن ابن عباس. (وثالثها) وكانوا يسألون العرب عن مولده ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا ويتفحّصون عنه على الذين كفروا، أي على المشركين العرب عن أبي مسلم. (ورابعها) نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل المبعث عن ابن عباس وقتادة. (وخامسها) نزلت في أحبار اليهود، كانوا إذا قرأوا وذكروا محمداً في التوراة وأنه مبعوث وأنه من العرب سألوا مشركي العرب عن تلك الصفات ليعلموا أنه هل ولد فيهم من يرافق حاله حال هذا المبعوث؟»[2].

---

(١) البقرة ٨٧ - ٨٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي، الجزء الثالث، ص ١٦٢ - ١٦٤.

وهذا الكلام والذي سبقه يشير بوضوح الى أن اليهود كانوا يترقبون ظهور النبي الذي كانت تبشّر به رسلهم. وكان يتوفّر لهم كثير من المعلومات والأخبار التي تساعد على معرفته للتصديق به، وفي مقدّمتها المعجزات التي كانت تظهر على يديه والتي يؤيد بمثلها كل رسول ليثبت للمتصدين له صدق دعواه.

البشارة بالنبي ﷺ من التوراة:

لقد ورد في التوراة: أقيم لهم نبيًّا من وَسَط إخوتهم مِثْلَك وأَجْعَلُ كلامي في فمه فَيُكَلِّمُهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه »[1].

وهذا كلام واضح بالوعد بظهور نبي في المستقبل. وهو وعد موجّه الى بني إسرائيل، في موعود به لا يمكن أن يكون هارون عليه السلام لأنه قد أرسل مع موسى ومات قبله. كما لا يمكن أن يكون يوشع لأنه قد أقيم نبيًّا قبل أن يوجه هذا الخطاب بكثير ثم هو من بني اسرائيل. والرب يقول لموسى عليه السلام « اقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم » ولم يقل من أنفسهم فتعين أن يكون من غير أبناء اسرائيل ولكن من إخوتهم. وإخوتهم هم أبناء اسماعيل عليه السلام أخي اسحاق عليه السلام فتعين أن يكون من أبناء اسماعيل. ولم يخرج من ولد اسماعيل نبي إلا محمد ﷺ.

وورد في التوراة في السفر الأول: « قال الله لإبراهيم إني جاعلٌ لآبنك اسماعيل أمّةً عظيمةً لأنه من زرعك » وإسماعيل لم يظهر من نسله أمة عظيمة إلا أمة محمد ﷺ.

وورد في التوراة في السفر الخامس « أقبل الله من سيناء وتجلّى من ساعير وظهر من جبال فاران معه ربَوات الاطهار عن يمينه »[2] والمشهور أن سيناء هو الجبل

---

(٢) سفر التثنية ١٨ ـ ١٩.

(٣) قابل تثنية ٣٣ : ٢.

الذي ظهر عليه موسى وكلّمه، وهو عليه، ربه. وساعير هو جبل الخليل. وفاران هو جبل بني هاشم جبل مكة الذي كان محمد ﷺ يتحنّث فيه ويتعبّد الليالي ذوات العدد. ومعنى إقبال الله من سيناء، إقبال رسالته فيمن يرسلهم من رسله. وهنا كان موسى عليه السلام. ويفهم من عبارة تجلّى من ساعير ظهور نعمته تعالى أيضاً بإرسال رسول آخر من مكان آخر هو ساعير وهو هنا عيسى عليه السلام لإحياء ما ورد في التوراة من تعاليم. وظهوره تعالى من جبال فاران معناه كذلك ظهور رسالة محمد ﷺ. وفاران هي مكة باتفاق أهل الكتاب، فقد ورد عندهم أن اسماعيل وأمه هاجر كانا ببريّة فاران. وهما قطعاً كانا في مكة. والبريّة التي تقع بين مكة وطور سيناء تسمّى بريّة فاران. ولا يَتَسَنّى لأحد أن يَدّعي أنه نزل بعد عيسى عليه السلام كتاب في شيء من تلك الأرض، ولا أن يدّعي أنه بعث نبيٌّ أو رسولٌ غير محمد ﷺ والقرآن الكريم.

وورد في التوراة أيضاً أن الله تعالى قال لهاجر أم اسماعيل حين دعته: «قد سمعتُ خشوعكِ في إسماعيل، وستكون يده فوق يد الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع» والمنقول أن اسماعيل وولده كانت أيديهم تحت يد إسحاق الذي كانت النبوّة في يده وكان الأمر كذلك الى أن بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، وجعل يد بني اسماعيل فوق يد الجميع وردّ النبوّة فيهم، وأنْماهم وعظّمهم وبارك عليهم جداً جداً كما ورد في التوراة[1].

ولقد قال أشعيا النبي عن الله: «عبدي الذي سرّت به نفسي أنزل عليه وَحْيي فَيُظْهِرُ في الأمم عدلي، ويوصي الأمم بالوصايا، ولا يضحك ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العورْ ويُسمع الآذان الصم ويُحيي القلوب الغُلف. وما أعطيه لا أُعطيه أحداً غيره. أحمد يحمد الله كثير حديثاً يأتي من أقصى الأرض. تفرح البرّيّة ومكانها، يهلّلون لله على كل شرف. ويكبّرونه على كل رابية. لا

(١) تكوين الاصحاح ١٦.

يضعف ولا يغلب، ولا يميل الى الهوى، ولا يسمع في الأصوات صوته. ولا يذل الصالحين الذين هم كالعَصْفَة الضعيفة. بل يقوّي الصدّيقين. وهو ركن المتواضعين. وهو نور الله الذي لا يطفأ ولا يخضع حتى تثبت في الأرض حجتي وينقطع به العذر والى توراته ينقاد الحق»[1].

ولو ذهبنا نسوق الوثائق التي تثبت معرفة اليهود الحقيقية بالنبي ﷺ من المراجع الاسلامية ومن التوراة وغيرهما لطال بنا البحث. بيد أنه مع كل هذه المعرفة الدقيقة به ﷺ التي ظهرت لنا في الوثائق والأخبار التي أوردناها، وما سقناه قليل من كثير كثير، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم عندما بعث محمد ﷺ وثبت لهم أنه من غير اليهود ورفضوا اتّباعه. روى ابن عباس قال: «كانت يهود خيبر تقاتل غَطَفان، فلما التقوا هُزِمت يهود فعاذت بهذا الدعاء «إنا نسألك بمحمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم» قال فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان. فلما بعث النبي ﷺ كفروا به[2] فأنزل الله تعالى ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فَلَعْنة الله على الكافرين﴾[3].

الاسلام المصلح:

ولقد أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام رسولاً الى بني اسرائيل ليصحح عقيدتهم وينقّي شريعتهم بعد أن شابها الكثير من الزيف كعبادة الذهب والفضة، والحرص على المصالح المادية، ولو أدى ذلك الى الأضرار بمصالح الآخرين. أرسله

---

(١) كتاب بين الاسلام والمسيحية، ص ٢٦٠ وما بعدها، تحقيق للدكتور محمد شامة، والأجوبة الفاخرة لشهاب الدين المالكي، ص ٢٣٥ وما بعدها، وهداية الحيارى، ص ٦٧ ـ ٧٣.

(٢) القرطبي، الجزء الثاني، ص ٢١٧.

(٣) البقرة ٨٩.

ليهذّب أخلاقهم التي فسدت الى حدٍّ مخيف، وساءت بها مجتمعاتهم حتى عم فيها الظلم والبغي والانحراف عن هدى السماء، بل ليغسل قلوبهم بنور الحق لتنفتح عليه أينما كان وكيفما كان ولتغرف منه ما يضيء جوانبها ويزيدها صفاءً ونبلاً، وعلّهم يَرْعَوُون ويعودون الى جادة الخير وسبيل الهدى. وغب ستة قرون من بعثته، ومن نضال مسيحيته الخالصة من الشوائب[1] لباطل اليهودية وافتراءاتها على تعاليم السماء وعقائدها وآدابها كما نقلها رسولها الكريم موسى عليه السلام، ظهر عجز المسيحية في ذلك، وصار لا بد من بعثة جديدة تحمل لها وللعالم كله رسالة الاصلاح والحب والسلام، وتعرض لهم هدى السماء، بأسلوب جديد وعرض جديد، مع إضافات لا بد منها وتكملات تقتضيها ظروف الإنسان المتطورة، فاصطفى الله محمداً، وأرسله حاملاً خاتم الرسالات، وخاتم الكتب ليتحقق على يديه ما وعد به بني إسرائيل، والكثير مما عجز عن تحقيقه أسلافه من الرسل الكرام من الاصلاح والتطوير...

لقد كان لليهود في فترة بعثة الرسول ﷺ كما شهدنا سابقاً وجود في الحجاز، وكان هذا الوجود ضئيلاً جداً في مكة وكثيفاً في المدينة وما حولها. وقد عاش هؤلاء اليهود في المحيط العربي وهم من هم بالنسبة الى العرب الوثنيّين مهارة وخبرة في حقول الزراعة والصناعة والتجارة بل وثقافة وعلماً ومدنية وتحضراً. يمارسون طباعهم وأخلاقهم ولا يتورّعون عن الانغماس في الضلالات والإمعان في الباطل. بل وكثيراً ما كانت أنانيّاتهم ونزوعاتهم الشرّيرة تسوّغ لهم إثارة روح الشقاق والنزاع بين عرب المدينة التي كثيراً ما كانت تفضي بهم الى الحروب الطاحنة.

---

(١) إن الحق الذي ندين به هو أن المسيحية الخالصة واليهودية الخالصة هما الاسلام لأن الله تعالى لم يرسل من يوم آدم حتى محمد غير هذا الدين. وتسمية الدين المسيحي بالمسيحية واليهودي باليهودية تسمية محوّرة عن مسمّاها الحقيقي كما يحاول البعض في هذا العصر أن يطلق علينا وصف المحمديين لغاية في نفس يعقوب..

كل هذا جعلهم في موقع يحذرهم فيه العرب كما يحذرونهم، فلم يتمكنوا من الفوز بحبّهم ولا بثقتهم في الغالب بل العكس كان هو الصحيح. فقد كان البارز في المجتمعات العربية كرههم لليهود واحتقارهم لهم ونفورهم من عاداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ودينهم وتفضيلهم لوثنيّتهم عليه. والغريب أن الوثنيّين أبناء العصر الجاهلي الذين شاع فيهم الكثير من العيوب والمثالب الأخلاقية والاجتماعية، والذين ضلوا عن الحق كل الضلال، نقول إن الغريب العجيب أن هؤلاء الوثنيّين كانوا يتحلّون بصفات حميدة لم يكن أولئك اليهود يتحلّون بمثلها وهم الذي ينتسبون الى كتاب سماوي ويتباهون بأنهم أبناء الله وأحباؤه!!

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم
من اليهود الموجودين في مكة

الفصل الثامن

موقف الرسول ﷺ من اليهود الموجودين في مكة

١ ـ الأمل باسلام أهل الكتاب
٢ ـ من أوائل آيات التصدّي
٣ ـ إطالة النفس في الحديث عنهم لاستمالتهم
٤ ـ تأكيد وحدة الرسالات
٥ ـ إيمان بعض أهل الكتاب في هذه الفترة وأثره في المؤمنين
٦ ـ ردة فعل أهل الكتاب
٧ ـ بعض ما تناوله الوحي في مكة من الخرافات اليهود
٨ ـ في مناقشة النصارى مناقشة لليهود أيضاً
٩ ـ سمة الفترة المكية.

الأمل باسلام أهل الكتاب:

لم يكن إنتشار اليهود كثيراً في مكة. بل كانت القلة التي كانت تعيش فيها، كما أشرنا سابقاً، تمثل أفراداً لا يحسب لهم حساب، ولا يخشى لهم بأس. يتعاطون أعمال التجارة أو الصناعة أو ما سوى ذلك. وقد كان الوحي يتنزّل على قلب رسول الله ﷺ وهو في مكة فيتناول بعض أخبار أهل الكتاب، وبعض صفاتهم وعقائدهم. كما يتناول عقائد الوثنيّين وصفاتهم بالنقد والتخطيء[1]..

وقد جاءت الرسالة الجديدة التي حملها رسول الله ﷺ، وهي رسالة الاسلام، تريد العودة بالناس إلى التوحيد الصحيح. وبخاصة أولئك الذين يشاطرونها أصول عقيدتها، نعني أهل الكتاب. فكانت الآيات المكية ترق لهم وتتلطف معهم وتمدّ لهم الجسور، جسور الصلة والقربى ليستأنسوا بها فتشجعهم على تقبّلها والتصديق بها والعودة إلى الحق الذي تحمله جذورهم الأصيلة. ثم تغريهم للتعاون مع النبي الجديد ضد الوثنية والوثنيين وضد الباطل عامة وكل المبطلين.

وكان يفترض من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وتلك نظرة الإسلام الجديد اليهم، أن يستمعوا الى آيات الوحي وهي تتنزّل على قلب الرسول الكريم وتتلى، بوعي وإخلاص وتجرّد، ويحاكموها بعقول خلت من التعصّب والحسد والحقد والأنانية والهوى ليستووا معها على الحق المبين.

---

(١) راجع سورة القمر والأعلى والذاريات وق والجاثية والدخان والزخرف والأنعام وغيرها.

من أوائل آيات التصدّي:

ورغم ذلك فقد كانت آيات الكتاب تتناول أهل الكتاب وتلمح الى بعض خصالهم. وكان من أوائل تلك الآيات، التي هبط بها الوحي الشريف على رسول الله ﷺ متناولا اليهود بالذات وأهل الكتاب عامة، ما نزل منها من سورة الأعلى وهي قوله تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى﴾. وقوله في سورة الأعراف: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأمّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون﴾. وقوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾[1].

وفي آيتي سورة الأعلى، يلفت القرآن الكريم نظر أهل الكتاب الى أن الرسالة الجديدة تعترف بالصحف التي أنزلت على ابراهيم وموسى وتؤمن بما جاء فيها. وفي هذا ما فيه من البراعة في المدخل والتوجيه الحكيم، ومن نزوع سليم الى استمالة اليهود ووضعهم في صورة مسار الدعوة العقيدي وعند منطلقها الأساسي في أيامها الأولى. أما في آية الأعراف ففيها تقرير جلي لمسلّمة كان اليهود يجهرون بها قبل بعثة محمد ﷺ. وهي أوصاف النبيّ الأمي المنتظر المكتوبة عندهم في التوراة. ثم تقرير حاسم بالتوافق بين الأصول الموجودة في كتبهم وبين ما جاءت به الآية، وإحراج لهم في ضرورة الإتّباع والإنقياد. وفي الآية الثانية دعوة صريحة لمتابعة النبي الجديد ونصرته.

---

(١) الأعراف ١٥٦ - ١٥٧.

إطالة النفس في الحديث عنهم لاستمالتهم:

وقد تابع الوحي الكريم أسلوبه هـذا خطـوة خطـوة مطيلا نفسـه مـع أهـل الكتاب، ومفسحاً لهم في المجال ليراجعوا فكرهم ويحكّموا ضمائرهم ويستفتوا قلوبهم لأنهم سَيَرَوْن ما يجلي لهم الحق فيقبلوا عليه في قناعة تامة وآرتياح كبير مـن خلال ما يضعه بين أيديهم من معلومات وتوجيهات وإشارات لا تصدر إلا من باسط الأرض ورافع السماء.

وهذا الوحي يجاهر فيقول: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقّ مصدّقاً لما بين يَدَيْه إن الله بعباده لخبير بصير. ثم أورثنا الكتاب الذين آصطفَيْنا مِنْ عبادنا فَمِنْهم ظالم، لنفسه ومِنْهم مقتصد، ومنهم سابقٌ بالخَيْرات بإذْن الله﴾ (١) فيخبر محمداً في الآية الأولى بأن القرآن جاء مُصدِّقاً لما سبقه من الكتب المُنزَّلة، مؤيداً لها فيما آحتملته من أصول ومبادىء وأهداف، مركّزاً فيها بالذات على مبدأ وحدة الرسالات السماوية. كما يقرّر في الثانية أن القرآن جاء ليكون الكتاب العام والختامي والمهيمن وحامل شريعة الله التامّة الى الناس والأمم جميعاً، حتى تقوم الساعة، وأن الذين آمنوا ويؤمنون به هم الذين آصطفاهم الله ليكونوا ورثة الأنبياء وحملة كتب الله مثبتاً بهذا أن دعوة محمد ﷺ هي مصدّقة لما سبقها ووارثة له (٢).

ويقول الله تعالى متلطفاً مع اليهود من أهل الكتاب: ﴿فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ ممّا أنزلنا إليك فآسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحقُّ مِنْ ربّك فلا تكوننَّ من المترين﴾ (٣) وهو هنا في هذه الآية، وإن كـان يـرمـي إلى تثبيـت الرسول ﷺ على الحق الذي أنزل إليه ويريد أن يُخلّي عنه أي آرتياب قد يحاول

---

(١) المخاطر ٢١.
(٢) سيرة الرسول، محمد عزت دروزه، الجزء الأول، ص ٣٢٠ - ٣٢١.
(٣) يونس ٩٤.

الآنْسِياب الى نفسه أو نفس أيٍّ من أتباعه المؤمنين، فإنه يهدف ضِمناً أيضاً الى التلطف مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة، ويحملهم من جهة أخرى على الإلتزام بالحق والاعتراف بما عندهم على الأقل، كمدخل الى التلاقي وبعد ذلك لكل حادث حديث.

تأكيد وحدة الرسالات:

ولقد كان الأساس الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية في خطواتها الأولى مع أهل الكتاب هو التأكيد لهم بأن هذه الرسالة ليست بدْعاً في الرسالات السابقة وهي منها، ولكنها هي الرسالة الخاتمة والرسالة العامة الخالدة الثابتة على الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وقد تجلّى ذلك في آيات من سورة الأنعام وغافر والأنبياء والشورى وغيرها. لا يحيد عن ذلك ولا يتتعتع، حتى في الإشارات التي لا يكون بدٌّ منها والتي وجّه فيها الى اختلاف الكتابيّين وانحرافهم عن أصول الدين وأهدافه السامية.

إيمان بعض أهل الكتاب في هذه الفترة وأثره في المؤمنين:

وقد وقع ما كان يترقبه الوحي، إذْ لفت هذا الأسلوب الرائع والمنهج الحكيم قلوب الذين كانوا في مكة من أهل الكتاب، فكانوا يتردّدون على رسول الله ﷺ ويحاورونه. ولقد كان من آثار ذلك إيمان البعض منهم، مثل سلمان الفارسي وصهيب الرومي، وبلال الحبشي وغيرهم. وقد كان لهذا الإقبال الإيماني من هؤلاء أثره القوي في تعزيز دعوة النبي ﷺ وتثبيت قدمه في رسالته وتقوية مكانته أمام أتباعه من العرب، بل وفي أعين المخالفين له. ولقد نزلت بعد ذلك بعض الآيات المُعزِّزَة له مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ آمنوا أوْ لا تؤمنوا، إن الذين أُوتوا العلم مِنْ قَبله إذا يُتلى عليهم يخِرّون للأذقان سُجّداً ويقولون سبحان ربّنا إنْ كانَ وَعْد ربّنا لَمَفْعولا. ويَخِرّون للأذْقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[1].

يقول الفخر الرازي تعليقاً على هذه الآيات بعد أن فصّل مناقشتها ومعانيها

---

(١) الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩.

«وآعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم»[1].

وهكذا تكون هذه الآيات قد كشفت بقوّة أن جحود العرب الوثنيين الأُمّيين للحق الذي جاء به محمد ﷺ لا قيمة له ولا آعتبار ما دام الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب قد صدّقوه وآمنوا به وآتبعوه وخشعت له قلوبهم وسجدت له رقابهم طوعاً وإذعاناً. ولا شك في أن مثل هذه الآيات كانت تشحن المؤمنين المسلمين بمزيد من الإيمان والخضوع والصبر في وجه ما كانوا يلْقَوْنه من المشركين من أذى وقهر وتعذيب...

ردّة فعل أهل الكتاب الأولى:

ويبدو أول الأمر، أن بعض أهل الكتاب المقيمين إذ ذاك في مكة، قابلوا دعوة رسول الله ﷺ بصورة عامة مقابلة طيّبة؛ فرحّب البعض منهم بها وشهدوا بصدقها كما رأينا، وتابعوه عليها رغم ما كان عليه حينئذ من ضعف وقلّة حيلة، بينما لم يظهر من البعض الآخر أيّ موقف عُدْواني وإن كانوا سلكوا معه سلوك المكابرة والتنكّر، إمّا لوقوعهم تحت تأثير وضغوط مشركي مكة، أوْ لأنهم كانوا يعانون من مشاعر الحذر والحسد والحقد...

ومثل هذا الواقع كان يتطلب من رسول الله ﷺ مزيداً من الصبر والتلطف والحيطة والحذر. ولذلك كان مما نزل في مكة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم. وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزِلَ إليكُم وإلاهُنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنْزَلْنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به. ومن هؤلاء من

(١) تفسير الفخر الرازي، الجزء ٢١، ص ٧٠.

يؤمنُ به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾[1].

يقول بعض المفسّرين في قوله تعالى: ﴿ومن هؤلاء من يؤمن منه﴾ أي من أهل مكة. ويقول البعض الآخر المراد بـ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب، ومن هؤلاء، أيْ الذين هم في زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب. ويفهم من قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ إن المراد تَنْفيرُهم مما هم عليه، كأنّما يعني أن يقول لهم: «إنكم آمنتم بكل شيء وآمْتَزْتم عن المشركين بكل فضيلة إلا هذه المسألة الواحدة، وبإنكارها تَلْتَحِقون بهم وتُبطلون مزاياكم. فإن الجاحد بآية يكون كافراً»[2].

بعض ما تناوله الوحي في مكة من انحرافات اليهود:

وفي هذه الفترة المكية تناول القرآن الكريم ذكر بعض مواقف اليهود في عهد موسى وبعده، وطرفاً من قصصهم وأخبارهم وآنحرافهم الى عبادة العجل، وتمرّدهم وتقلّبهم من حين لآخر على أنبيائهم وعلى أوامر الله وحدوده. كما عرض لمامَةً من ماضي اليهود وما كانوا يصادفونه من عذاب من مختلف الحكام على تطاول الأجيال، وبيّن عاقبة الطغاة والظلمة والجاحدين لأنعم الله.

وساق القرآن الكريم في هذه الفترة أيضاً من أيام الدعوة، بعض أخبار النعم التي منحها الله تعالى لبني إسرائيل على سبيل التذكير، وطلب إليهم أن يسترجعوا في أنفسهم ما كانت تعبّر عنه من عناية ربانيّة ورعاية كبيرة عزّ نظيرها في تاريخ الأمم والشعوب. كما ذكّرهم بما كان يقع منهم من اختلاف في الحق. يقول الله تعالى كمثل على ما أخبرنا عنه: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على العالمين وآتيناهم بيّنات من الأمر فما آختلفوا

---

(١) العنكبوت ٤٦ - ٤٧.

(٢) الفخر الرازي، المجلد الثالث عشر، ٧٧.

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. إن ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[1].

ويقول الإمام الفخر الرازي تعليقاً وتوضيحاً لقوله تعالى: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ «المقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة. لأن حصول العلم يوجب آرتفاع الخلاف، وها هنا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف... وذلك لأنهم - أي بني اسرائيل - لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدّم»[2].

وتحدّث القرآن الكريم في هذه الفترة عن ظاهرة تردّيهم الخلقي والاجتماعي وعن مواقفهم الماكرة والجاحدة، ولمح بإيماءات الى زوغان عقيدتهم والى بغيهم وقذفهم مريم ابنة عمران وآبنها، يقول الله تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتُكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون، إن الله هو ربّي وربُّكم فآعبدوه هذا صراطٌ مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾[3].

بيد أنه ظل في خطابه معهم يسلك الحدود التي لا استغضاب فيها ولا إثارة، بل تذكير وعظة، وحض على العودة الى الحق. يقول الله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تَدْعُوهم إليه الله يَجْتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب. وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكٍّ منه مريب﴾[4].

---

(١) الجاثية ١٦ - ١٧، ويمكن قراءة بعض آيات سورة البقرة أيضاً المتعلقة ببني اسرائيل.

(٢) تفسير الفخر الرازي، المجلد الرابع عشر، ص ٢٦٦.

(٣) الزخرف ٦٣ - ٦٥.

(٤) الشورى ١٣ - ١٤.

في مناقشة النصارى مناقشة لليهود أيضاً:

والجدير بالذكر والتوجيه أن القرآن الكريم، وهو يناقش عقيدة النصارى في العهد المكي أو المدني ويكشف أخطاءهم، كان يناقش في الوقت ذاته موقف اليهود من طرف خفي، لأنّه عندما يُضفي على مريم ما يُضفيه من سمات الطهر والأصالة والبراءة ويثبت أنها سيدة مُصْطفاة، وأنها والدة عيسى عليه السلام من غير سفاح ولا نكاح، وأن عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأن قومه ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبّه لهم، فإنه في الحقيقة والعمق يردّ أيضاً دعاوى اليهود وعقائدهم الزائغة فيه وفي أمه وفي رسالته وكتابه. وإن إثارة هذه النقاط في وجه اليهود في هذه الفترة، وإن كان يعبّر عن آختلافٍ معهم في بعض الأصول، ويصادم شيئاً من عقائدهم، إلا أنه لا يفيد التصدي القاسي والمنازعة الغليظة، بل إعلان بعض الحقائق مع الفصل بين المنهج والمبدأ والوسيلة والفكرة.

لقد لاين القرآن الكريم أهل الكتاب في هذه المرحلة من الدعوة، وبخاصة اليهود، وطوى الكلام عن بعض أخطائهم وضلالاتهم في العقيدة والشريعة والسلوك، وظل يوحي بالأمل بآستمالتهم الى الحق واستدراجهم للعودة الى صراط الله السويّ ومساندة الدعوة الجديدة. كما ظل الكتاب الذي يمثل الحق منهجاً ومبدأ وأسلوباً وفكرة ولا يحيد عن أصوله ومبادئه وإن لاين، ولا يخطىء فكرة وإن رق..

سمة الفترة المكية:

وهكذا فقد كانت الفترة المكية من العهد النبوي فترة سلام بين المسلمين وأهل الكتاب، فتحت الأبواب أمامهم مشرعة للاطمئنان الى النبي الجديد والثقة به وبدعوته، والمبادرة الى احسان العلاقة معه وتقبل رسالته. ويمكن التعرّف الى هذا المعنى بشكل واضح بالرجوع الى سورة الأنعام والأعراف ويونس والإسراء ومريم

والعنكبوت وهود وغيرها من السور المكية. وبهذا تكون هذه الحقبة الزمنيّة من عمر الدعوة قـد آقتصرت في علاقتهـا مـع اليهـود على المحـاورات الاجتماعيـة والعقدية والتاريخية والاخلاقية...



الفصل التاسع

موقف الرسول ﷺ من اليهود في المدينة

١ ـ ثراؤهم ووفرة عددهم
٢ ـ تفوقهم العلمي والديني والاجتماعي والاقتصادي
٣ ـ ترقب اليهود مجيء الرسول الى المدينة
٤ ـ وضع الكفار في المدينة عندما دخلها الرسول
٥ ـ زمن ظهور المنافقين
٦ ـ معرفة الرسول بذلك
٧ ـ المعاهدة ومضمونها
٨ ـ صلاته إلى بيت المقدس
٩ ـ توجيه الدعوة إلى اليهود
١٠ ـ أثر المعاهدة وهذه المعاملة
١١ ـ بداية تنمّر اليهود
١٢ ـ اسلام عبد الله بن سلام
١٣ ـ انكشاف عدواتهم ومنهجهم فيها

سبق أن قلنا إن اليهود بعد هجرتهم الى شبه الجزيرة العربية آتخذوا لهم مواقع في الحجاز وفي اليمن. وقلنا إن من أهم المواقع التي نزلوا فيها في الحجاز هي الواحات التي تقع في شماله كالمدينة وخيبر ووادي القرى وتَيْماء وغيرها. وأوضحنا أيضاً أن هؤلاء اليهود كانوا قد حملوا معهم من دار هجرتهم ثقافاتهم وعاداتهم وعقائدهم وما عرفوا به من مهارة في الصناعة والزراعة والتجارة.

ثراؤهم ووفرة عددهم:

وقد نتج عن ذلك مع ترامي الأيام والسنين أن أصبح لهم وفرة عدد وثروة وكيان بارز ومؤثر في المحيط الذي كانوا يعيشون فيه.

تفوّقهم العلمي والديني والاجتماعي والاقتصادي:

وكانوا بالاضافة الى ذلك يمتازون بتفوّقهم العلمي بأخبار السابقين من الأمم التي خلت، واستئثارهم بواسع الاطلاع في قصص الأنبياء ووقائعهم وارتباطهم بهم والمعرفة بالكتب السماوية، الأمر الذي جعلهم في مركز الريادة الاجتماعية بالنسبة الى من حولهم، وإن كانوا مكروهين من كثرة العرب الذين يعايشونهم بسبب معظم معاملاتهم معهم، التي كانت تقوم على الربا والمراهنات المالية التي لا تقتصر على الرهائن المالية والمادية، بل تتجاوزها الى المراهنة على النساء والولدان. وقد جاء في قصة كعب بن الأشرف النضري التي رواها الامام البخاري رحمه الله في صحيحه أن « محمد آبن مسلمة قال لكعب هذا، قد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين،

فقال: نعم إرهنوني. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسبّ أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين. هذا عار علينا ولكنّا نرهنك اللأمة[1].

وقد ترتب على تفوق اليهود في هذه الحقول أن سيطروا على الجوانب الاقتصادية في المناطق التي كانوا يسكنونها في المدينة وضواحيها خاصة، وقوي بذلك نفوذهم المالي، وصاروا يتحكّمون في الأسواق التجارية تحكّماً فاحشاً ويحتكرون البضائع لمصلحتهم ومنفعتهم. ويرفعون نسب الربا الذي كانوا يأكلونه، مما زاد في كره الجوار العربي لهم[2].

ترقب اليهود مجيء الرسول الى المدينة:

ولما هاجر الرسول ﷺ الى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قضاها في مكة المكرمة طِبْق ما رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جده[3] كان أول من رآه رجل من يهود كان على سطح أُطُمٍ له [الاطم البيت المبني من الحجارة] فنادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلة [يريد الأوس والخزرج وقَيْلة اسم أمّ لهم قديمة] هذا جَدُّكم الذي تنتظرون. وإن مثل هذا الخبر يفيدنا ظناً لا علماً، بأن بعض اليهود أيضاً كانوا قد خرجوا مع الذين خرجوا يترقبون وصول الرسول ﷺ الى المدينة..

وضع الكفار في المدينة عندما دخلها الرسول ﷺ:

وقد نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله عن ابن القيّم قوله: «بأن الكفار

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، وقد سرد القصة ابن هشام باختلاف يسير في السيرة النبوية.

(٢) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص ١٩٧ - ٢٠٠.

(٣) امتاع الأسماع للمقريزي، الجزء الأول، ص ٤٥.

كانوا ثلاثة أصناف عندما دخل الرسول ﷺ المدينة. صنف صالحه ووادعه، وصنف ناصبه العداوة، وصنف تركه وشأنه فلم يصالحه ولم يعاده.

ثم انقسم الصنف الأخير الى أقسام: قسم كان يحب انتصار النبي في الباطن، وقسم كان يتمنّى هزيمته. وقسم دخل معه في الظاهر وبقي عدوه في الباطن ليأمن الفريقين. وهذا القسم هم المنافقون. وأن هذه الاصناف لم تظهر كلها مرة واحدة وفي وقت واحد بل على امتداد وتراخي الزمن[1].

زمن ظهور المنافقين:

ثم يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، إن النفاق لم يظهر في المدينة، كما تدل عليه الوقائع التاريخية إلا بعد النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة بدر الكبرى عندما شَرِق بنو قَيْنُقاع بهذا النصر، وأبدوا العداوة واعتزموا الشر، ويؤكد ذلك بما نقله عن ابن كثير من أنه بعد غزوة بدر «خضع المشركون من أهل المدينة واليهود الذين هم بها من بني قَيْنُقاع وبني النضير وبني قُرَيْظَة ويهود بني حارثة وصانعوا المسلمين، وأظهر الاسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود وهم في الباطن منافقون؛ منهم من هو على ما كان عليه ومنهم من انحَلّ بالكلية فبقي مُذَبذَباً[2].

وقول الشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله هذا مناقض لكلامه السابق الذي يثبت فيه أن الكفّار كانوا عند دخول الرسول ﷺ المدينة ثلاثة أصناف أحدها كان المنافقين. بيد أنه لا مناص من اختيار أحدهما واعتماده أو اختيار رأي ثالث متوسط بينهما.

ويظهر أن النفاق كان قد ظهر فعلاً، قبل غزوة بدر الكبرى وبدأ يتجمّع له

---

(١) خاتم النبيّين، القسم الثاني، ص٦٩٩.

(٢) خاتم النبيّين، القسم الثاني، ص ٧٨٠.

كيان بشري في المدينة وإن لم يكن بالضبط قد برز البروز الكافي الذي يميزه اصحابه عن باقي سكان المدينة بهذا الوصف الفئوي، وأن النصر الذي أحرزه المسلمون في هذه الغزوة شد من عزائم أصحابه وعزز مشاعر الحقد والحسد في نفوسهم فبرزوا على صورتهم التي عرفوا عليها بأنهم جماعة المنافقين..

ويقوي هذا الرأي أن المقريزي يروي بأنه عندما نصر الله المسلمين في غزوة بدر «قدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصْواء يبشر أهل المدينة، فلم يصدّق المنافقون ذلك وشنّعوا» الى أن يقول: «فأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين واليهود فلم يبق في المدينة يهودي ولا منافق إلا خضع عُنقُه. وأسلم حينئذ بشر كثير من أهل المدينة ومن ثم دخل عبد الله بن أبي بن سلول وجماعته من المنافقين في دين الإسلام تقيّة»[1].

ويفيدنا هذا الكلام أن دخول رسول الله ﷺ المدينة محوطاً برعاية المؤمنين منها من الأوسيين والخزرجيين وغيرهم، لم يكن مقبولاً كل القبول، كما يخيّل للبعض، من جميع سكانها. بل يفيدنا أن منهم من كان يسوؤه أنْ يدخلها رسول الله على الوصف الذي دخلها فيه أو غيره، مثل اليهود والكفار الوثنيين الذين لم يعتنقوا الاسلام وآثروا البقاء على دين الآباء ثم المنافقين. ولئن كان هؤلاء قد آحتفظوا بصمتهم ولم يبدوا أيّة ظاهرة احتجاج أو آعتراض أو مخالفة فلأن الغالبية من سكان المدينة كانوا مع الرسول ﷺ.

معرفة الرسول ﷺ بذلك:

ويبدو أن هذا لم يكن سراً خفيّاً، وأن الرسول ﷺ كان قد آنتبه اليه كل الانتباه، فمثله من لا تفوته أبداً مثل هذه البوادر الاجتماعية. كما انتبه الى ما كان قائماً بين الأوس والخزرج من منازعات وخلافات، وهو العليم بطباع اليهود، الذي

---

(١) أمتاع الأسماع، الجزء الأول، ص ٩٩.

يدرك ما انقلب اليه حالهم بمجرّد دخوله المدينة دخول الفاتحين، من الحنق على المؤمنين الذين آمنوا به من سكان المدينة، وبعد أن تأكّدوا بأن الذي كانوا ينتظرونه قد بعث، وكان على خلاف ما يرتغبون ويتوقعون، فقد كان من أولاد إسماعيل لا من أولاد إسحاق، لذلك كانت أولى خطواته الآجتماعية والسياسية في المدينة هي مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار تأليفاً لقلوبهم، وتعزيزاً لوجوه التعاون فيما بينهم ولصور التماسك والاتحاد والارتباط الاجتماعي فيهم، واحتياطاً من استغلال أي مناسبة لتجديد قيام المنازعات بين سكان المدينة الأصليين الأوسيين والخزرجيين.. ثم مبادرته الحكيمة بعقد حلف مع اليهود جعل فيه له ما لهم وعليه ما عليهم وعاهدهم على البر والتقوى.

ونستطيع أن نقول هنا إن موقف اليهود من الرسول ﷺ عند دخوله المدينة لم يكن كما ينبغي، بل كان موقف الحاقد الحاسد والمتآمر الذي يخفي ما في نفسه خوفاً وحذراً وتهيّباً. وإن هذا الموقف قد انكشف للرسول ﷺ على حقيقته. وقد عالجه بما آتاه الله من الحكمة والرشاد؛ فبادر الى خطوته التي ألمحنا إليها سابقاً فأدخلهم معه في حلف ليتّقي شرّهم ويُخلي ساحته من أذاهم، ولتصبح له الفرصة سانحة لتنظيم جماعته وتجميع قوته، وتحسين وضعه الأجتماعي والسياسي والعسكري ويتفرّغ بالتالي للردّ على تصدّي أعدائه القرشيين الذين يتابعون مناوأته ويلاحقونه بها الى المدينة بعد هجرته من مكة اليها..

وقد ثبت أنّه ﷺ، رغم الذي عرفه من خصال اليهود مما كان الزمن لم يكشفه بعد للناس، كان يترفق بهم ويتلطف معهم ويسارع الى محاسنتهم. وكان أول دليل على ذلك الموقف السياسي الرائع الذي سعى إليه بحكمته الرائدة ورحابته المشهودة حيث عقد معهم عقد الموادعة والمعاهدة الذي كان ولا يزال أحد المواثيق السياسية الجليلة في تاريخ الاسلام بل الإنسانية[1].

---

(١) عيون الأثر، الجزء الأول، لابن سيد الناس، ص ٣٨٥.

مضمون المعاهدة:

وفي هذه المعاهدة وادع الرسول اليهود، وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ومراكز عبادتهم. واشترط عليهم وشرط لهم. وقرر فيها حريّة العقيدة، وحريّة الرأي. وحرمة المدينة وحرمة الحياة. وحرمة المال، وتحريم الجريمة[1]. ولذلك كانت حدثاً جديداً منفتحاً في الحياة السياسية والاجتماعية إذْ ذاك.

ومما جاء في هذه الوثيقة: « إنّ من تبعنا من اليهود، فإنّ لهم النُّصْرة والأُسْوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه فإنّه لا يُوتغ [يهلك] إلا نفسه وأهل بيته. وإن على اليهود نفقتهم. وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم[2].

صلاته عليه السلام الى بيت المقدس:

ولقد ثبت أنه ﷺ ظل يتوجّه في صلاته الى بيت المقدس ستة عشر شهراً بعد هجرته. علماً بأن اليهود يتجهون اليها في صلاتهم إذْ كان أنبياؤهم يصلّون الى بيت المقدس، وكانت صخرة المسجد الأقصى قبلتهم[3] ومثابة بني اسرائيل جميعاً. وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فسأل ما هذا؟ قالوا يوم ظهر فيه موسى على فرعون فقال النبي ﷺ لأصحابه « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » ».

ولا مشاحة في أن الإسلام دين يبغي نشر السلام والحريّة والعدل والوئام بين

---

(١) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص ٢٤١.

(٢) من مجموعة الوثائق السياسية، للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ص ٣٧.

(٣) المنار، الجزء الثاني.

البشر، وجمع كلمتهم على أساس من التوحيد الخالص لله تعالى، ولذلك بعث الرسول ﷺ. ومن أجل ذلك منحه الله الخُلُق العظيم والاسلوب الحكيم. وموادعة الرسول لليهود ظاهرة طيّبة على طريق هذا الهدف العظيم مع رجاء أن يجتذبهم إليه، وهم أشد بأساً من أهل مكة وأكثر دراية في شؤون الحياة، وأوفر مالاً وأكثر جمعاً وأحسن تنظيماً وأوسع حيلة، تساندهم الحصون كما تساندهم ميول كثيرٍ من الأوْسيين والخزرجيين الى ديانتهم[1].

توجيه الدعوة الى اليهود:

ومن أول يوم دخل فيه الرسول ﷺ المدينة وواجه فيه اليهود أفهمهم أن دعوته التي يحملها، هي دعوة لهم كما هي دعوة الى العرب والناس أجمعين. وقد جاءت الآيات الأولى نزولاً في المدينة تحمل طابع الدعوة العامّة والعالميّة التي يدخل في عمومها أهل الكتاب اليهود والنصارى، وكانت تتوجه أحياناً الى اليهود بوصفهم. وتخصّهم بالذات بالخطاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوْفوا بِعَهْدي أوف بعهدكم وإيّاي فآرهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فآتّقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وآركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبرّ وتَنْسَوْن أنْفُسكم وأنتم تَتْلُون الكتاب أفَلا تعقلون﴾ [2] كما كانت أحياناً أخرى تتوجّه الى اليهود والنصارى معاً في خطاب واحد كما في قوله تعالى ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأُميّين أأسْلمتم، فإن اسْلموا فقد اهتدوا، وإن توَلّوْا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[3].

---

(١) الروض الأنف، الجزء الثاني، ص ٢١.
(٢) البقرة ٤٠ - ٤٤.
(٣) آل عمران ٢٠.

أثر المعاهدة وهذه المعاملة:

ولقد أرْخت المعاهدة هذه، بين المسلمين من ناحية ويهود المدينة من ناحية ثانية، جواً اجتماعياً رخياً هادئاً له ظلال وارفة على مجتمع المدينة بأسره، فنعم جميع سكانها بالأمن والطمأنينة وبافضال التعاون، وآرتاحوا للاستقرار الاجتماعي والسياسي الذي تمتّعت به كل الربوع هناك.

ونجم عن ذلك، أن سكن المسلمون الى دينهم، وكذلك اليهود خاصة، وأهل الكتاب عامة، لا يخاف أحد منهم أذى يمسّه ولا يخشى بأساً أو عدواناً يطاله. بل كان له أثره الكبير على مجتمع المسلمين الناشيء كما ألمحنا سابقاً. هذا المجتمع الذي ما برح في طور التجمّع والتكوّن؛ إذْ مَنَحه فرصة للالتفات الى الذات، وتوسيع الدعوة ولملمة القوى، وتعزيز الكيان والاستعداد للعدو المتربص به. فلم يكد يمضي وقت طويل حتى آزداد أشياعه وأنصاره، وآشتدّ وآستوى على سوقه. وقد استمر هذا الحال حتى قبيل وقعة بدر حيث أخذت تزداد مخاوف اليهود بازدياد قوة المسلمين ونماء مظاهرهم المسلحة وتجمّع صفوفهم، وشيوع معالم التراحم والتواد والتعاون فيما بينهم، وتأكد التصاق بعضهم ببعض التصاق المتآخين والمتحابين في الله...

بداية تنَمّر اليهود:

وفي هذه الفترة جعلت الريبة المتيقظة في نفوسهم من الدعوة ومن صاحبها تأكل أكبادهم وتتفاعل في دواخلهم، وتأخذ طريقها الى الترسخ. فهم كما يبدو وإن كانوا قد أظهروا للنبي ﷺ الرغبة في التعاون معه، فعقدوا بالفعل معه عقد الموادعة والأمان، إلا أن ذلك قد كان منهم على أمل أن تتغيّر الأحوال لصالحهم، وأن يكون لهم من هذا التعاقد معه قوة على خصومهم من النصارى وسواهم. أما أن يروه، يزداد قوة وبأساً ويكثر عدداً وأنصاراً، ويفكّر بأن يأخذ موقعاً رَدْعياً من قريش ردّاً على ما كان منها تجاهه وتجاه اتباعه المؤمنين، وأن يباشر ذلك عن

طريق السرايا التي يبعثها والغزوات التي يقوم هو بها على الجهات المتاخمة، فهذا شيء مخيف ويدخل في إطار الخطورة التي ينبغي التنبّه لها.. وقد آرتفعت حرارة هذا التخوّف والحذر وتنامت عندما تأكّد لهم التفاف أهل المدينة وبعض جوارها حوله، وثبت لهم قوّة آندماجهم بمجتمعه بشكل لم يكونوا يتوقّعونه. وعندما بدأوا يشهدون انضمام بعض أبنائهم إليه، بل وبعض أحبارهم ويعتنقون الاسلام.

اسلام عبد الله بن سلام وموقفهم منه:

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبدالعزيز بن صُهيبْ عن أَنَس ابن مالك قال: «أقبل رسول الله ﷺ الى المدينة، فقالوا جاء نبيّ الله فآسْتشرفوا ينظرون إذْ سمع عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف [يجني] لهم منه فجعل يضع الذي يخترف لهم فيها. فجاء وهي معه فسمع من النبي ﷺ ثم رجع الى أهله. فلما خلا نبيّ الله ﷺ، جاء عبد الله بن سلام فقال: «أشهد أنّك نبيّ الله حقاً وأنّك جئت بالحق. ولقد علمت اليهود أني سيّدهم وآبن سيّدهم وأعْلمهم وابن أعلمهم، فآدعُهم فآسألهم عنّي قبل أن يعلموا أني أسلمت، فإنّهم إنْ يعلموا أني أسْلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ. فأرسل نبيّ الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم نبيّ الله «يا معشر اليهود يا ويلكم!! آتقوا الله!! فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً. وأني جئتكم بحق اسلموا» قالوا: ما نعلمه فأعادها عليهم ثلاثاً وهم يجيبونه كذلك. قال: «أيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذلك سيدنا وابن سيّدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال أفرأيتم إن أسْلم؟ قالوا: حاشالله ما كان ليسلم. فقال: «يا ابن سلام أخرج عليهم» فخرج إليهم فقال: «يا معشر اليهود ويلكم، اتقوا الله. فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقاً وأنه جاء بالحق. فقالوا: كذبت، فأخرجهم النبي وفي رواية أخرى أنهم انتقصوه وعابوه أو شتموه وعابوه»[1].

---

(١) الجامع الفريد، ص ٥١٤.

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: «سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ له، فأتى النبي ﷺ فقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ. ما أول أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنّة؟ وما ينزع الولد الى أبيه أو إلى أمه قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال: «جبريل»؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «ثم قرأ هذه الآية: «من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله» أمّا أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق الى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت. وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد الى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه». فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. إن اليهود قومٌ بُهْت، وإنهم إنْ يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني. فجاءت اليهود إليه، فقال: أيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه. قال هذا الذي كنت أخاف يا رسول»[1].

إنكشاف عداوتهم ومنهجهم فيها:

ولما لم يكن بالامكان لأسباب عديدة لا محل لتتبّعها هنا، إعلان مخاصمتهم النبي ﷺ، فقد آرتأوا اعتماد منهج جديد للتعامل معه في ضوئه، يظهرون فيه بشخصيّتهم المتميّزة ولا يتورّطون معه في عداوة ظاهرة. فابتدروا معه أسلوب الحوار والجدل الذي يتقنونه، وطرح الأسئلة عليه، بما ظاهره محاولة فهم ما عنده لتعقّله، وباطنه زعزعة يقين بعض من آتبعوه ممن لا يزالون على عتبة الايمان، أو صرف من يفكّرون بآتباعه عنه نهائيّاً، ولَمْلَمة فلول المناوئين له والمخالفين

(١) الجامع الفريد، ص ٥١٥.

ليكوّنوا معهم كتلة واحدة قادرة على المجابهة والمعارضة، حتى إذا لم يجُدهم هذا الأسلوب نفعاً لجأوا الى أسلوب حرب الدسائس والإشاعات والمخاتلة والكيد والنفاق ثم القتال السافر والمجابهة المسلّحة إن اقتضى الأمر ذلك.

صور من الجدل والأسئلة:

١ - من صور هذا الجدل الماكر، ما جرى يوماً بين فنحاص اليهودي وأبي بكر رضي الله عنه، فقد ورد أن أبا بكر تحدّث يوماً الى يهودي يدعى فنحاص ودعاه الى الإسلام. فقال له فنحاص إثر جدال قام بينهما عن الإسلام: «والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرّع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه أغنياء، وما هو عنا بغنيّ. ولو كان غنيّاً عنّا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولو كان عنا غنيّاً ما أعطاناه» وفنحاص يشير بقوله هذا الى قوله تعالى: ﴿منْ ذا الذي يُقْرض الله قرْضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾[١].

وبالطبع لم يكن مثل أبي بكر رضي الله عنه ليطيق هذا الأسلوب الوقح والمخادع في الخطاب من فنحاص ولذلك لم يكن منه حين سمعه إلا أن لطم وجهه بشدة وقال له: «والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله»[٢].

وسعى فنحاص الى رسول الله ﷺ يشكو إليه ما فعله أبو بكر، وأنكر بالطبع ما قاله هو له فنزل قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتْلَهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾[٣].

---

(١) البقرة ٢٤٥.

(٢) المفصل في تاريخ العرب، الجزء السادس، ص٥٤٨.

(٣) آل عمران ١٨١.

٢ - وروى الحسن وقتادة أنه لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في الكتاب الكريم، وضرب للمشركين بهما المثل في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له، إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدْره إن الله لقويّ عزيز﴾[1] وقوله: ﴿مثلُ الذين آتخذوا من دون الله أوْلياء كمثل العنكبوت آتخذت بيتاً، وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يَدْعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون﴾[2] ضحكت يهود وقالوا: «ما يشبه هذا الكلام كلام الله»!! وذلك للتَّشْكيك به. فانزل الله تعالى قوله: ﴿إنّ الله لا يستَحْيِي أنْ يضرب مثلاً ما بعوضة فما فَوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربّهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾[3]..

مع أن المشهور لدى افهام الناس وفي تعاملهم لتوضيح ما يقولون وتقريب صورته الى أذهان المخاطبين استحسان ضرب الأمثال. وقد أطبق العرب والعجم على تعاطي ذلك في أحاديثهم حتى كان من أقوال العرب في التمثل بأحقر الأُشياء أحياناً: أجمع من ذرّة، وأضبط من ذرة، وأخفى من الذرّة، وأجرأ من الذباب وأخطأ من الذباب وأطيش من الذباب. وقد ورد في الانجيل من الأمثالُ ما لا يحصى كقوله: ﴿لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة وكذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون العمل في صدوركم﴾ وقوله: ﴿قلوبكم كالحصاة التي لا تنضجها النار ولا يلينها الماء ولا تنسفها الرياح﴾ وقوله: ﴿لا تدخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة فتفسدها ولا في البرّية حيث السموم واللصوص فتحرقها السموم وتسرقها اللصوص ولكن ادّخروا ذخائركم

(١) الحج ٧٤.
(٢) العنكبوت ٤١ - ٤٣.
(٣) البقرة ٢٦.

عند الله﴾ وقوله: ﴿لا تثيروا الزنابير فتلدغكم ولا تخاطبوا السفهاء فيشتموكم﴾ .

ومن جمال التعبير وحسن الأداء تنويع أسلوب الخطاب والتفنن به لادخال المسرّة على قلب السامع ولإدخال الفكرة من خلالها إليه بيسر وخفّة. بيد أن إنكار اليهود هؤلاء على الله تعالى التمثيل لم يكن لجهلهم بهذه الحقائق وغيرها مما يمكن أن يكون من فوائد الأمثال، بل كان لمجرّد المكابرة والمعاندة وتنفير الناس منه ﷺ بما يثيرونه حوله ومعه من شبهات.

٣ ـ ولقد خرّج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: « قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي « هل يعلم نبيّكم عدد خَزَنَة جهنّم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيّنا. فجاء رجل الى النبيّ فقال له: يا محمد غلب أصحابك اليوم. قال: « وَبمَ غلبوا »؟ قال سألهم يهود هل يعلم نبيّكم عدد خَزَنَة جهنّم؟ قال: « فماذا قالوا »؟ قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيّنا؟ قال: « أَفَغُلِبَ قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبيّنا؟ ولكنهم قد سألوا نبيّهم فقالوا: أرنا الله جَهْرة!! أَعَلَيَّ يا أعداء الله!! إني سائلهم عن تربة الجنّة وعن الدَّرْمك » فلما جاؤوا، قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنّم؟ قال هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرّة تسعة. قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ ما تُربة الجنّة؟ قال: فسكتوا هُنَيْهة ثم قالوا: أخُبزةٌ يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ الخبز من الدَّرمك. والدرمك كجعفر دقيق الحوّارى والتراب الناعم.

٤ ـ وحينما بلغ اليهود أن محمداً يقول إن الله أخذ عليهم الميثاق، وإن من أسس هذا الميثاق الإيمان به. قال مالك بن الصيف للنبي ﷺ: « والله ما عهد إلينا قبلك عهد وما أخذ لك علينا ميثاق » فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أو كلما عاهدوا عَهْداً نبذه فريق منهم﴾[1].

---

(١) البقرة ١٠٠، وابن هشام، الجزء الثاني، ص ٢٦.

٥ ـ ودخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله فقال له نعيم آبن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟! قال: «على ملّة إبراهيم ودينه». قال: فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما: «فَهَلُمّا الى التوراة فهي بيننا وبينكم» فأعرضوا فانزل الله تعالى قوله: ﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريقٌ منهم وهم معرضون﴾[1].

٦ ـ وسأل شهر بن حَوْشب يوماً رسول الله ﷺ عن أربع: عن سرّ انتقال شبه الأب والأم الى الولد وعن نومه مع يقظة قلبه كيف يكون، وعن الذي حرّمه إسرائيل على نفسه، وعن الروح.. وفي الترمذي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها». قالوا صدقت. ويقال إنه نذر إن برأ منه ليتركَنّ أحب الطعام والشراب إليه. وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها[2]. وقد حكى الطبري أن اليهود قالوا لقريش: سلوا محمداً عن أصحاب الكهف وخبر ذي القرنَيْن وقال في الروح: «قل الروح من أمْر ربي»[3].

على الرغم من أنه ﷺ كان يأخذ عليهم المواثيق بأنه إن هو أجاب على أسئلتهم آمنوا، فقد كذبوه، ورفضوا مقالته حتى اضطر يوماً أن يخرج جماعة منهم من المسجد بعد أن دخلوه ليسألوه بعض أسئلتهم الموْسومة دوماً بطلب الاحراج والمضايقة والتشكيك، وذلك بعد أن رآهم يتهامسون ومخايل الريبة بادية على تصرفاتهم[4].

---

(١) آل عمران ٢٣.

(٢) القرطبي، الجزء الرابع، ص ١٣٤.

(٣) القرطبي، الجزء العاشر، ص ٣٢٥.

(٤) ابن هشام الجزء الثاني ص ٢٩ ـ ٣٤.

ولقد ثبت أن هؤلاء اليهود كانوا مع مَنْ نافقوا من الأعراب من أشد الناس أذى للنبي ﷺ وأصحابه، ومن أكثرهم سَعْياً لاحباط جهوده في دعوته وللصد عن سبيل الله.

صور من تحدّياتهم وتشكيكاتهم ودسائسهم:

١ ـ قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد مرّة لرسول الله ﷺ: «يا محمد أئتنا بكتاب تنزّله علينا من السماء نقرؤه وفجّرْ لنا أنهاراً نتّبعْك ونصدقك» فأنزل الله تعالى: ﴿أمْ تريدون أن تسْألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقدْ ضلّ سواء السبيل﴾[1].

٢ ـ وقال رافع هذا مرّة أيضاً لرسول الله ﷺ «يا محمد إنْ كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلِّمْنَا حتى نسمع كلامه» فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم. تشابهت قلوبهم، قد بيّنا الآيات لقوم يعلمون﴾[2].

٣ ـ وهكذا كانوا يسلكون كل سبيل لتشكيك الناس بالنبي وَبدَعْوته، ويستعينون بكل وسيلة وحيلة وفجور. ولقد زعموا أن الله هو الذي يعبده بنو إسرائيل، وأما الناس الآخرون فلا يحق لهم أن ينتسبوا الى هذا الإله لأنه لا يجوز في نظرهم أن يستوي معهم غيرهم وهم شعب الله المختار وأصفياؤه الأبرار.

وفي مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، أنه عمد أبو ياسر بن أخطب أخو حُيَيّ بن أخطب وهو أبو صفية زوج النبي ﷺ، فجلس الى الرسول فسمع منه وحادثه، ثم رجع الى قومه وذلك قبل أن تصرف القبلة نحو المسجد الحرام فقال أبو ياسر: يا قوم أطيعوني، فإن الله عزّ وجلّ قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون

---

(١) البقرة ١٠٨ وابن هشام، الجزء الثاني، ص ٣٦.

(٢) البقرة ١١٣.

فاتّبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حُيَيّ حين سمع ذلك وهو سيد اليهود يومئـذٍ وهما من بني النضير، فأتى النبي ﷺ فجلس إليـه، وسمع منه فرجع الى قومه وكان فيهم مطاعاً فقال: «أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدوّاً»، فقال له أخوه أبو ياسر: «يا ابن أُمي أطعني في هذا الأمر ثم آعصني فيما شئت بعده لا تهلك. قال لا والله لا أطيعك. واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه».

وروت السيدة صفية بنت حُيَيّ أم المؤمنين قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب، فلم يُرَحِّبا به حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالَّيْن كسلانين متساقطيْن يمشيان الهُوَيْنى، فهششت إليهما، فما التفت إليَّ أحد منهما مع ما بهما من العلم، فسمعت عمي ياسر يقول لأبي أهُوَ هُوَ؟ أي المبشر به في التوراة؟ قال نعم والله؟! قال أتثبته؟ يعني هل أنت متأكد من ذلك؟ قال نعم. قال فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبداً». وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[1].

٤ ـ وقد اتفق يوماً عبد الله بن صيف وعَدِيٌّ بن زيد والحارث بن عوف، أن يظهروا للناس الايمان ثم يعلنوا بعد ذلك عدولهم عنه ويجهروا بالكفر. وهم يزعمون أن الناس اذا رأوا ذلك منهم قالوا: «لولا أنه ظهر لهم كذب محمد لما عدلوا عن الايمان به وهم أهل علمٍ ودراية» وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم وكشف به ما يبيّتون للاسلام. قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنْزِل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون﴾[2].

بل وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: «صلت يهود مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكراً منهم ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن

---

(١) المائدة ٨٢.

(٢) آل عمران ٧٢.

كانوا اتبعوه »[1].

وخسر هؤلاء وفاتتهم معالم الحق وتلاعبت بهم أهواؤهم وضلوا عن سواء السبيل فلم ينتبهوا الى ما آنتبه اليه هرقل ملك الروم، إذْ كان مما سأل عنه أبا سفيان بن حرب يوم حمل إليه رسول النبي ﷺ الرسالة التي يدعوه فيها الى الإسلام، بعد أن استدعا أبا سفيان ما تعرف عن شؤون الذين يؤمنون بمحمد: « وهل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان لا »[2].

ولا ريب أن في هذا المسلك ما فيه من الخطورة حتى رأينا الشيخ محمد رشيد رضا يقول: « ويظهر لي أن النبي ﷺ ما أمر بقتل المرتدّ إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبّرون المكايد لإرجاع الناس عن الاسلام بالتشكيك فيه. لأن مثل هذه المكايد اذا لم يكن لها أثر في نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه الى علم اليقين، فإنها قد تخدع الضعفاء الذين يدخلون في الاسلام لتفضيله على الوثنية في الجملة قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان كالذين يعرفون بالمؤلّفة قلوبه. وبهذا يتفق الحديث الآمر بذلك مع الآيات النافية للاكراه في الدين والمنكرة له فيما أرى »[3].

ولعلّهم أرادوا بمثل هذا التصرف شيئاً آخر أيضاً بالاضافة الى الذي أوردناه سابقاً، وهو أنهم أدركوا إنْ هم كذبوا محمداً ﷺ في جميع ما جاء به، فإن عوامهم سيكتشفون حيلتهم ويعرفون كذبهم، لأنهم يدركون بفطرهم السليمة الحق في الكثير مما جاء به. ولذلك لجأوا الى هذا التصرف، فكذبوه ببعض ما جاء به، وصدقوه بالبعض الآخر فترة من الزمن لينصفهم قومهم التابعون لهم، وكثير من الناس الذين ما فتئوا يسايرونهم في موقفهم من الرسول ﷺ.

٥ ـ ثم إنهم في حوار صريح مع الرسول ﷺ طرحوا دعواهم بأنهم شعب الله

---

(١) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ٣٣٣.

(٢) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ٣٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣٣٤.

المختار . فقد ورد أن نفراً منهم فيهم النعمان بن إحنا وبحرى بن عمرو وشاس بن عدي تصدى لهم الرسول ﷺ ذات يوم فدعاهم للاسلام فما كان منهم إلا أن أجابوه: «أتخوننا يا محمد ونحن أبناء الله وأحباؤه» فردّ الله عليهم بما معناه: إن حبيب الله هو المؤمن التقيّ الذي يتمنّى لقاءه، أما من كفر به وعصاه فهو له عدو . وكذلك اليهود لأنهم لا يتمنّوْن لقاء الله لعلمهم بحقيقة أمرهم ومصيرهم عنده، وقال تعالى: ﴿قُلْ إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون المؤمنين فتمنّوا الموت إنْ كنتم صادقين. ولن يتمنّوْه أبداً بما قدَّمتْ أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة...﴾[1].

٦ ـ وادّعَوْا بأنهم لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودات فنزل قوله تعالى ردّاً عليهم: ﴿وقالوا لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودة. قُلْ أتّخَذْتم عند الله عهداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عهده، أم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كَسَبَ سيّئة وأحاطتْ به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2].

يقول الأستاذ اسحاق موسى الحسيني «وقد أسهب الحاخامات لدى كتابتهم التلمود بشقيه، المشنا ـ والجامارا، التلمود الفلسطيني في القرن الثاني بعد المسيح، في شرح هذه العنصرية وتفنّنوا في تمجيد الشعب وتأليهه، وأسرفوا في ذم الشعوب غير اليهودية لا سيما المسيحية، وأباحوا للشعب الاسرائيلي ما لا يقرّه عقل ولا خلق. وتكوّن من ذلك قواعد العنصرية القائمة على العقيدة والعهد، لا على الأخلاق والعقد. ومن ذلك قول التلمود: «إن أرواح اليهود تتميّز عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده وكما أن الإنسان يعلو البهيمة، كذلك اليهود هم أرفع من شعوب الأرض لأن زرع الأغراب كزرع

---

(١) البقرة ٩٤ ـ ٩٦ .

(٢) البقرة ١١١ .

الحصان. وشعب الله المختار وحده يستحق الحياة الأبدية »[1].

لقد كان من ثمرة هذه النزعة العنصرية أن هؤلاء الاسرائيليين لم يطيقوا في تاريخهم حكماً لغريب. وكان ما عرف في التاريخ « بمناهضة الساميّة » التي كان من آثارها المذابح الوحشيّة ومحاكم التفتيش »[2].

٧ ـ وهكذا ظلوا يبذلون قصارى جهدهم لصرف الناس عن القرآن وعن محمد ﷺ ولفتنة المسلمين في دينهم؛ ينقلون لهم الأخبار الكاذبة ثم توراتهم ليضلوهم. وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: « كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ للمؤمنين « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا: « آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون »[3]. وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال: « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ».

٨ ـ وقد حاول بعض البارزين منهم استجرار الرسول ﷺ واستمالته الى آرائهم والى صفّهم مخاتلة وخداعاً. ولكن الله تعالى كان يعصمه من فتنتهم ويصرف عنه كيدهم. وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: « قال كعب بن أسد وعبد الله ابن صوريا وشاس بن قيس من اليهود، اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا « يا محمد إنّك عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن آتبعناك آتّبعَنا يهود ولم يخالفونا. وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونؤمن

---

(١) اسحاق موسى الحسيني، في مجموعة حقوق الإنسان، الصادر عن المؤتمر السادس لمجمع البحوث ١٣٩١، ص ٢٩٤.

(٢) اسحاق الحسيني، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٣) البخاري، الجزء التاسع، ص ١٣٩.

لك ونصدّقك فأبى ذلك »[1] وأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿وأن آحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وآحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. وإن تولّوْا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أَفَحُكْم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[2].

٩ ـ ومن الشكوك التي طرحوها في وجه الإسلام، وأرادوا أن يربكوا بها فكر محمد وصحبه أنهم قالوا إن محمداً يدّعي أنه أولى الناس بإبراهيم وأنه على طريقته وملّته. وهو في الوقت نفسه يُحِلّ أكل لحوم الإبل وهي محرّمة عند إبراهيم، فأنزل الله تعالى على محمد ﷺ ردّاً عليهم وتكذيباً لهم، بأن الطعام واللحوم كلها كانت حلاّ لبني إسرائيل إلا ما حرّمه اسرائيل منها على نفسه، وإن ذلك كان قبل أن تُنزّل التوراة. وتحدّاهم بأن يأتوا بالتوراة فيتلوها ليجدوا صدق هذا وكذب ما يدّعون. قال الله تعالى: ﴿كل الطعام كان حِلاّ لبني إسرائيل إلا ما حرّم اسرائيل [يعقوب] على نفسه من قبل أن تُنزّل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾[3].

ولقد سئل الرسول ﷺ عن الشيء الذي حرّمه اسرائيل على نفسه وسبب هذا التحريم فقال: « أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل. هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إلى إسرائيل ألبان الإبل ولحومها، وأنه آشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرّم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله فحرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها »[4]. ونقل عن ابن اسحاق وابن عباس أن الذي حرّمه إسرائيل على نفسه هو زائدتا الكبد والكليتان والشحم إلا ما علا الظهر منها »[5].

---

(١) تفسير المنار، الجزء التاسع، ص ١٣٩.

(٢) المائدة ٤٩.

(٣) آل عمران ٩٣.

(٤) ابن هشام[جزء الثاني، ص ٣٤.

(٥) ابن هشام، الجزء الثاني، ص ٣٥.

١٠ ـ وقد روى شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من أحبار اليهود جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدّقناك وآمنا بك. قال: فقال لهم رسول الله ﷺ « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدِّقُنّي. قالوا: نعم. قال: « فاسألوا عما بدا لكم ». قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه وانما النطفة من الرجل. قال لهم رسول الله ﷺ: « أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتها غلبت صاحبتها كان لها الشبه ». قالوا: اللهم نعم.. ثم قالوا: فأخبرنا كيف نومك. قال: « أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون، أن نوم الذي تزعمون أني لست به، تنام عينه وقلبه يقظان » قالوا: اللهم نعم، قال: « فكذلك نومي تنام عيني وقلبي يقظان ». ثم تابعوا الأسئلة التي أوردنا بعضها سابقاً ورفضوا رغم الإجابة، أن يصدقوا ويؤمنوا »[1].

١١ ـ ولقد كان الرسول ﷺ يتجه في صلاته الى بيت المقدس وظل بعد هجرته على ذلك ستة عشر شهراً، ثم حوّلت الى المسجد الحرام. وحينذاك حاول هؤلاء اليهود استغلال ظاهرة التغيير هذه فقالوا: « إن كان اتجاه محمد الى البيت المقدس صواباً، فلماذا ترك الصواب الى غيره وهو الكعبة؟ وإن كان اتجاهه الى بيت المقدس خطأ، كان ذلك دليلاً على جهله وتضليله لأتباعه وإضاعتــه لصلاتهم التي صلّوها متجهين إليها. وقد ردّ الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿سيقول السفهاء ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبَيْه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله. وما كان الله ليُضيع إيْمانكم﴾[2] أي صلاتكم التي صليتموها قبل هذا التحويل.

---

(١) ابن هشام، الجزء الثاني، ص ٣٤.

(٢) البقرة ١٤٢ ـ ١٤٣.

١٣ ـ وتصدوا للقرآن الكريم وجاهروا بانه لا يمكن أن يكون منزّلاً من عند الله وعللوا ذلك بأن واسطة إنزاله جبريل. وهو عدوٌّ لهم لأنه كان يتنزّل عليهم بأشق التكاليف. فردّ الله تعالى ذلك كما تقدم وأشرنا إليه سابقاً وأنـزل قـولـه: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يَدَيْه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾ (١).

صور لعداوتهم السافرة وموقف النبي منها:

ولقد أمعن هؤلاء اليهود في عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وبالغوا في حسدهم وحقدهم عليهم. وقد أغلظوا في التآمر عليهم والكيد لهم وشاركهم في ذلك الذين كانوا هم يشجعونهم وينمّون لديهم خصال الشك والتمرد والمكر، وهم المنافقون، بل ويلهبون نفوسهم بروح العداوة والبغضاء.

١ ـ وقد كان هؤلاء اليهود بحسدهم وبحقدهم لا يراعون عهدا ولا حقّاً ولا ذمّة، ويندفعون فيهما الى أقصى ما يكونان عليه ولا يتورّعون من أن يصل بهم ذلك الى حدّ يفضّلون معه الشرك وعبادة الأوثان على عقيدة التوحيد. وقد ورد أن حُيي بن أخطب وأبا رافع بن سلام بن أبي الحقيق والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق وأبا عمار الوائلي وهم من بني النضير، ونفراً من بني وائل ساروا في وفدٍ الى مكة لتأليب قريش على محمد ﷺ. فقالت لهم قريش: «يا معشر يهود أنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف عليه نحن ومحمد. أَفَدينُنا خير أم دينه؟! قالوا: «بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق فنزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله. ومن يَلْعَنِ الله فَلَنْ

---

(١) البقرة ٩٧ ـ ٩٨.

تجد له نصيراً. أم لهم نصيبٌ من المُلْك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً. أمْ يَحسُدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به ومنهم من صَدّ عنه وكفى بجهنّم سعيرا ﴾[١].

ولقد أعمى حسدهم وحقدهم أبصارهم وطمس على قلوبهم فجمدوا الحق كما رأيت وتخلّوا عما انتهى اليهم من العلم الصحيح. فقال حيي بن أخطب وكعب ابن أسد وأبو رافع لعبد الله بن سلام حين اسلم «ما تكون النبوّة في العرب ولكنّ صاحبك مَلَك»[٢].

٢ - بل لقد سمح لهم شعورهم الفوّار بالحقد أن يطلقوا ألسنتهم بألفاظ حداد كانوا ينالون بها من شخص النبي ﷺ مواجهة أو مواربة. وأن يجنّدوا مجموعة منهم للطعن به علناً وبين أصحابه. فكان بعضهم إذا سلّم عليه لوى لسانه بلفظ السلام فقال: «السام عليك يا محمد» والسام هو الموت. فكان النبي ﷺ يردّ عليهم بقوله «وعليك» ويأبى أن يزيد على ذلك تفضّلاً منه وترفعاً، بل كان ينهى أصحابه الذين ينتبهون الى ذلك عن الردّ الفاحش ويعلّمهم كيف ينبغي عليهم الاعتصام بالحكمة والتسامي.

وقد حصل أن وقع ذلك مرة وعائشة رضي الله عنها حاضرة فسمعت ذلك فردّت بقولها «بل عليكم السام واللعنة». فقال لها رسول الله ﷺ وقد سمعها يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كلّه. فقالت أَوَ لَمْ تسمع ما قالوا؟! قال: «قلت وعليكم»!!

هذه الصور المختلفة التي عرفناها في مظاهر التشكيك والعداوة والحقد وسواها قد استخرجت من تاريخ طويل لمعاش الرسول ﷺ وصحبه مع جماعة اليهود فيما بعد هجرته الى المدينة. وهي صور لم تقع له معهم بصورة متتابعة دونما انقطاع، بل

---

(١) النساء ٥١ - ٥٥.

(٢) ابن هشام، الجزء الثاني، ص ٤٤.

كانت تقع له معهم في ظروف ومناسبات وفي أزمان قد تكون متقاربة أو متباعدة أو متلاحقة. وقد جمعناها من سيرته ﷺ. كما تيسّر لنا استخلاص ما تعبّر عنه من موقف واضح لليهود إزاء الرسول ودعوته وبالتالي من موقف الرسول ﷺ تجاه اليهود..

اليهود هم الذين شجعوا على قيام جماعة المنافقين:

لا نستبعد أن يكون اليهود هؤلاء هم الذين شجعوا على قيام كتلة المنافقين المذبذبين بين الشرك والاسلام في المدينة، وأنهم هم الذين كانوا يغرونهم بالرسول ﷺ ويزيّنون لهم سوء عملهم، ويوحون لهم بمواقف التآمر به والكيد له. يدل على ذلك قوله تعالى للمؤمنين، محذّراً لهم من إطاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود طبعاً، فيردّوهم بعد إيمانهم كافرين، وذلك في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾[1] ويمكن أن يكون مفهوم هذا القول أن بعض سكان المدينة قد أطاعوا الذين أوتوا الكتاب فمردوا على النفاق واستطالوا فيه فكان أشدّ ضلالاً وكفراً...

ولقد برع هؤلاء المنافقون في مهمتهم التي اختاروها لأنفسهم، فكانت لهم مع الرسول ﷺ ومع المؤمنين وقائع وأحداث نقلتها كتب السيرة كما أشار القرآن الكريم الى جزء كبير منها في سورة البقرة والنساء والتوبة والأحزاب والحشر والمنافقون وغيرها. ولقد كان مما قاله الله تعالى فيهم: ﴿ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم

---

(١) آل عمران ١٠٠.

هم المفسدون ولكن لا يشعرون واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا الى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾[1].

ولقد كان الرسول ﷺ يصبر على هؤلاء كما كان يصبر على أولئك. وذلك دأب الرسل والأنبياء، ويعاملهم رغم معرفته بهم كما لو كانوا مؤمنين. ولكن إساءة بعضهم كانت تتجاوز الحدود التي يمكن معها التحمل بما تعبّر عنه من معاني الحقد العميق والكيد الأسود الخطير. حتى روي أن كعب بن الأشرف اليهودي وهو عربي من طيء، وقد كان غنيّاً وشاعراً كان يعطي أحبار اليهود المال ليستمروا على مناوأة النبي ﷺ. ولما انتصر ﷺ في بدر غاظه ذلك، فذهب الى قريش يحرّضهم على الثأر والقتال مُكثِراً من هجو الرسول ومشبّباً بنساء المسلمين. وكذلك كان يفعل أبو عفك وعصماء بنت مروان وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وأخوه الربيع وحيي بن أخطب.

ولم يكن رأس المنافقين أقل من هؤلاء كيداً للرسول وصحبه، وعملا في سبيل مؤآذاته والاضرار به، وذلك بإثارة الفتن بين المؤمنين عن طريق تذكيرهم بعصبيّاتهم الجاهلية...

بداية الردّ الفردي والعفوي من المسلمين:

ولقد كانت عصماء بنت مروان تؤذي رسول الله كثيراً وتعيب الإسلام وتحرّض على النبي ﷺ شعراً ونثراً كما أشرنا سابقاً حتى استثارت حفائظ بعض أفراد المسلمين. فنذر عمير بن عدي إنْ ردّ الله رسوله من بدر الى المدينة

---

(١) البقرة ٨ - ١٦.

لَيَقْتُلَنّها. فلما رجع ﷺ جاءها ليلاً حتى دخل عليها وقتلها. وكان ذلك على رأس تسعة عشر شهراً من دخول الرسول ﷺ المدينة. وكان في الوقت نفسه شيخ من بني عمرو بن عوف واسمه أبو عَفَك اليهودي يقوم بمثل ما كانت تقوم به عصماء، فنذر سالم بن عمير بن ثابت ليقتلَنّه أو يموتُ دونه. وقد قتله على رأس عشرين شهراً من مهاجر النبي ﷺ[1].

وكذلك لم يكن قد مضى على مهاجر النبي ﷺ خمسة عشر شهراً حتى كان بعض الصحابة قد قتلوا كعب بن الأشرف اليهودي. وهكذا فقد قرر الصحابة رضوان الله عليهم مرة بإذن من الرسول ﷺ وأخرى بصورة تلقائية، التصدّي لأشرار اليهود وحسم الموقف معهم بأية صورة حتى ولو اقتضى الأمر قتلهم كما رأينا في الذين ذكرنا أسماءهم آنفاً دفعاً لأذاهم وشرّهم.

بداية الموقف العسكري من اليهود:

وهكذا لقد بدأت العلاقات القائمة بين الرسول ﷺ وصحبه من جهة، واليهود من جهة أخرى تسوء ويتخللها سحائب من الشك وسوء الظن والتصرف. وبدأت القلوب تغيم بموجات معتمة من الغيظ. وصارت المعاهدة معرّضة لما يهدم أصولها وينقض مبادئها، وبخاصة بعد عودة الرسول ﷺ منتصراً على قريش في بدر. حيث أخذ اليهود بحقدهم وبداع من حسدهم، يبغون ويقطعون ما كان بينهم وبين الرسول ﷺ من مضمون العهد حتى اضطر الرسول ﷺ الى أن يجمعهم بسوق بني قَيْنَقاع ويخطب فيهم ويقول: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يوقع الله فيكم مثل وقعة قريش. فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله» فقالوا: «يا محمد لا يغرّنّك من لَقِيت. إنك قهرت قوماً أغماراً وإنا والله أصحاب الحرب. ولئن قاتلْتنا لَتَعْلَمَنّ أنك لم تقاتل مثلنا»[2].

---

(١) أمتاع الأسماء، الجزء الأول، ص ١٠١ - ١٠٣.

(٢) الأمتاع، الجزء الأول، ص ١٠٤.

ونشطت يهود في التعبير عن تحديها لرسول الله وللمسلمين قولاً وفعلاً وفي إظهار العداوة، ثم في نبذها لبنود المعاهدة ومضامينها. وبينما هم على ذلك، إذ جاءت آمرأة من الأنصار الى سوق بني قَيْنُقَاع فجلست عند صائغ في حُلِيٍّ لها. فجاء أحد بني قينقاع فحَلَّ دِرْعها [قميصها] من ورائها بشوكة وهي لا تشعر بذلك. فلما قامت بدت عورتها فضحكوا بها فاتّبعه رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع عليه بنو قَيْنُقاع وقتلوه، ونبذوا العهد الى النبي ﷺ وأعلنوا الحرب وتحصنوا في حصنهم.

موقف الرسول الحاسم من بني قينقاع:

وبلغ الرسول الذي فعله بنو قينقاع والذي قالوه، وانزل الله تعالى قوله: ﴿وإمّا تخافنّ من قوم خيانةً فانْبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾(١) فقال ﷺ: « أنا أخاف بني قينقاع » وسار إليهم يوم السبت النصف من شوال بعد بدر ببضع وعشرين يوماً. وكانوا أشجع يهود. وكانوا أول من غدر منهم. فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر بهم فربطوا. ثم خلّى عنهم بشفاعة حليفهم عبد الله ابن أبي بن سلول وأمرهم أن يجلوا من المدينة. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾(٢) الى قوله ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾.

ولقد كان رأي كبار المسلمين القضاء عليهم قضاءً كلياً لما شهدوا منهم من تجبّر وكيد، ولما لقوا منهم من فعالٍ سيئة ومعاملة حاقدة. ولكن رسول الله ﷺ شاء أن يلبّي طلب حليفهم إذْ ذاك عبد الله آبن بن أبي سلول نزولاً عند الحاحه،

---

(١) الأنفال ٥٨.

(٢) ٥١ ـ ٥٦.

ولعلّه أراد أن يكسب عبد الله واتباعه من جهة[١] ويتفادى خوض معارك أخرى مع إخوانهم اليهود الآخرين وهو لا يزال قريب عهد في معركة طاحنة مع المشركين. ولعله سيصبح على قاب قوسين أو أدنى من معارك أخرى معهم أو مع سواهم ممن هم على تخوم أرضه ومدينته.

موقف الرسول ﷺ من اليهود بعد غزوة بني قينقاع:

ولم تحسم هذه المعركة الموقف مع اليهود كلهم، فقد ظل في المدينة منهم عدد وفير. وبقي الرسول وصحبه ملزمين بالتقيّد بنصوص المعاهدة التي عقدها معهم. ولكن مما لا ريب فيه أن قلوب كلّ من الطرفين بدأت تتغير، وأخذت تقع يوماً بعد آخر تحت تأثير أحداث ووقائع وكلمات وأخبار تنمّي العداوة وتؤرث البغضاء وتشعلها، حتى فقد الرسول ﷺ كل مبرّرات أمله باليهود بصورة كاملة.

موقفه منهم يوم أحد وبعده:

ولما كان يوم أحد، وأصبح جيش قريش على قاب قوسين أو أدنى من المدينة وخرج الرسول ﷺ لملاقاة عدوّه، حتى إذا كان بالشيخين [موقع خارج المدينة] التفت فنظر الى كتيبة خشناء لها صوتٌ وجلبة. فقال: «ما هذه؟» قالوا هؤلاء حلفاء عبد الله ابن أبي بن سلول من يهود. فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»[٢]. إنه أراد أن يكون جيشه مكوّناً من الذين يؤمنون بما يؤمن به، ويريدون القتال معه دفاعاً عمّا به يؤمنون، ولأنّ الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتّم قد بدت

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ٢٨٩ - ٢٩٣.

(٢) الأمتاع، ص ١١٨، الجزء الأول.

البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكمَ الآيات إن كنتم تعقلون﴾ (١).

ولما كانت نهاية معركة أحد في غير صالح المسلمين كليًّا، وكان قد أصابهم فيها قرح وأذى، وقتل منهم عددٌ كبير، وإن كان عدوهم لم ينل منهم كل النيْل؛ فقد فرح اليهود فرحاً شديداً، وخيّل إليهم ان هذه النهاية هي في غير صالح المسلمين كلياً، وأنه أصبح بإمكانهم التطاول عليهم والثأر منهم لإخوانهم بني قينقاع، فاقتحموا طريق العداوة وبدت البغضاء من أفواههم.

ورأى المسلمون ردّة الفعل لدى اليهود، فزادتهم الأيام التي آنصرمت بعد أحد حذراً منهم وسوء ظن بهم واحتراساً لفرط ما كانوا يلقونه منهم من بغي سراً وجهراً قولاً وفعلاً...

ومع ذلك فإن هذا كله لا يسوّغ لنا الغفلة عما كان يقع بين الحين والآخر من اسلام بعض أحبار اليهود وكبارهم، فقد كان مُخَيْريق من أحبار يهود. ولكنه يوم أحد خلع عنه كلّ السمات اليهودية وقال لجماعته: «يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن محمداً لنبي، وأن نصره عليكم لحق». فقالوا له إن اليوم يوم السبت، فقال لا سبت لكم اليوم. ثم أخذ سيفه وعدته وخرج للمعركة وهو يقول: «إنْ أُصِبْتُ فما لي الى محمد ﷺ يصنع به ما شاء» ثم غدا فقاتل مع رسول الله حتى قتل، فقال فيه ﷺ «مُخَيْريق خير يهود» (٢).

من أجل هذا ظل رسول الله ﷺ يتلطف معهم ويُمْهلهم رويداً. ولما أظهرت اليهود بعد ذلك مزيداً من السوء في أقوالهم فقالوا: «ما محمدٌ إلا طالب مُلك»!! ما أُصيب هكذا نبي قط!! أُصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه. وجعل المنافقون يخذّلون عن رسول الله أصحابه، ويحضونهم على التفرّق عنه ويقولون: «لو كان من

---

(١) آل عمران ١١٨.
(٢) الأمتاع ١٤٦.

قتل منكم عندنا ما قتل »، وسمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قَتْل من سمع منه ذلك من يهود والمنافقين فقال عليه الصلاة والسلام: « يا عمر إن الله مظهرٌ دينه، ومعزّ نبيّه، ولليهود ذمّة فلا أَقْتُلهم » فقال فهؤلاء المنافقون!! قال: « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ » قال بلى يا رسول الله، وانما يفعلون ذلك تعوّذاً من السيف فقد بان لنا أمرهم، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة. فقال: « نُهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. يا ابن الخطاب إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن »(١).

بيد أن توالي غدر المشركين بالمؤمنين وتمكنهم منهم مخاتلة يوم الرجيع الذي قتل فيه من المسلمين ستة من الدعاة الأبرار ويوم بئر معونه زهاء أربعين أيضاً من الدعاة والمرشدين، جعل اليهود يطمعون مرة أخرى بالنيل من الرسول وأصحابه، وحملهم على الاسترسال من جديد في أساليبهم الغادرة، الأمر الذي حدا برسول الله ﷺ الى المزيد من الحذر منهم وترصد حركاتهم والاستعداد لهم.

موقف الرسول ﷺ من بني النضير:

ولقد كان عمرو بن أُميّة الضَّمْري قد قَتَل رجلين من بني عامر، كان رسول الله ﷺ قد أعطاهما جواره. ولما كان قتلهما خطأً، فقد تعهد النبي ﷺ بأن يدفع ديتهما الى أهلهما. ولأجل ذلك ذهب الى يهود بني النضير، وكان قد تم الاتفاق بينه وبينهم حسب المعاهدة على التعاون في أداء الديّات، ليحصل على معاونتهم. وكان يصحبه يومذاك أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وجلس معهم يكلّمهم في الأمر ويذكرهم الواجب فَلاَنُوا له في القول. وأظهروا له الميل الى التعاون ولكنهم أخفوا الغدر به.

---

(١) الأمتاع ١٦٥ - ١٦٦.

وقد لحظ الرسول ﷺ حينذاك أنه قد خلا بعضهم الى بعض وتساروا الحديث، فأوجس منهم خيفة، ودخل في نفسه منهم بعض الظن. وجاءه الوحي فجأة يثبت له سوء ظنّه ويخبره بما همّ به هؤلاء اليهود، وهو أن يطرح عليه أحدهم صخرة من سطح البيت الذي كان رسول الله ﷺ مستنداً الى جداره ويقتلوه. فما كان منه إلا أن نهض سريعاً وقد اصطنع حالاً أظهر فيها كأنه يريد حاجة ومضى الى المدينة. ولما طال مكثه فيها لحق به أصحابه فأخبرهم بما همّت به يهود وأمر أحد الصحابة، وهو محمد بن مَسْلمة، بأن يذهب الى يهود بني النضير ويقول لهم «إن رسول الله أرسلني اليكم أن اخرجوا من بلده، فإنكم من نَقَضْتُم العهد بما هَمَمْتُم به من الغدر، وأنه قد أجّلكم عشراً فمن رؤي بعد ذلك ضرب عُنُقَه»[1].

ولا ريب أن رسول الله ﷺ لم يتجنّ على يهود بني النضير في هذا القرار، فهو لم يأخذه متعجّلاً، ولا ردّة فعل لهذا التصرف وحده، بل ثمرة معاملة سيئة مديدة ومتطاولة، وهو لم يلجأ الى هذه المبادرة إلا مكرها. فالمواطنية إذا لم ترتق في أخلاقها وصفاتها الى مستوى الالتزام بالعهود والقيم والمواثيق المتفق عليها تصبح مواطنية مخادعة مخاتلة فارغة من مضمونها عارية من الخير ومبرّرات التعايش. لأن مفهومها في هذه الحالة ان بعض العائشين في ظلها يوفون بما عاهدوا عليه من واجبات ويؤدون ما التزموا به، والبعض الآخر لا يلتزم بشيء بل على النقيض يتصدى لنقض الميثاق والنكث بالعهد وواجباته. وتعايش يكون مع مثل هؤلاء لا يتحقق منه جوار طيب ولا تعامل حميد!!

من أجل هذا المفهوم الذي آل يتظلله الرسول مع هؤلاء اليهود كان موقفه ﷺ منهم، ومن بني النضير بالذات، وكان قراره الذي شاء أن يبلغه بواسطة الصحابي الجليل محمد بن مسلمة اليهم. فلما ردّوا عليه باعلان نقض العهد، وبأنهم لن يخرجوا،

---

(١) الأمتاع، الجزء الأول، ١٧٨.

وليصنع محمد ما بدا له، كبّر رسول الله ﷺ، وسار الى بني النضير وحاصرهم خمسة عشر يوماً انتهت برضوخهم لقرار الرسول وجَلَوْا عن المدينة الى الأبد. وقد نزل بعضهم خيبر، والبعض الآخر أذْرِعات بالشام[1]. ونزلت في هذه الغزوة سورة الحشر بكاملها. وفيها وصف دقيق لأخلاق اليهود وعرض لخصالهم وتحذير من غدرهم ومكرهم ومن التلبس بمثل خصالهم وطباعهم...

وتتابع بعد هذا غدر اليهود بشكل فردي، يحرضون أحلافهم من المنافقين غير اليهود، ويَسْلِقون الرسول ﷺ بألسنة حداد.. وتتابعت مواقف الصحابة منهم؛ فكان قتل عبد الله ابن عتيك لأبي رافع اليهودي الذي أَجْلَبَ في غَطَفان ومن حولهم من مشركي العرب وجعل لهم الجُعْل العظيم لحرب رسول الله ﷺ. وتحرك المنافقون بشدة على أثر ما أصاب أصحابهم اليهود من خزي وَوَبال، فكانوا ينتهزون الفرص والمناسبات ليخذّلوا الناس عن قائدهم الرسول، وليثيروا عليه الفتن ويضعوا في طريقه العقبات.. وبينا المسلمون ذات يوم على ماء المُرَيْسِيع إذْ أقبل سِنان بن وَبَره الجُهَني ومعه فتيان من بني سالم يستقون، وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار فأدْلى دَلْوه، وأدْلى جَهْجاه بن مسعود أجيرُ عمر بن الخطاب دَلْوه، فَالْتَبَسَتْ دلو سنان ودلو جهجاه وتنازعا. وضرب جهجاه سناناً فسال دمه فنادى يا للخزرج، وثارت ثائرة الرجال، وهرب جهجاه وهو ينادي في الجيش: يا لقريش!! يا لكنانة!! فأقبلت قريش وأقبلت الأوس والخزرج. وشهروا السلاح حتى كادت تكون فتنة عظيمة، لولا أن قام رجال في الصلح فترك سنان حقه!!..

وكان عبد الله بن أُبي بن سلول جالسا في عشرة من المنافقين فغضب وقال: « والله ما رأيت كاليوم مذلّة!. والله إنْ كنتُ لكارهاً لِوَجهي هذا. ولكنّ قومي قد غلبوني. قد فعلوها. قد نافرونا، وكاثرونا في بلدنا، وانكروا مِنّتنا. والله ما

---

(١) الأمتاع، الجزء الأول، ص ١٧٨.

صبرنا وجلابيب قريش هذا إلا كما قال القائل « سمّن كلبك يأكُلْك » والله لقد ظَنَنْت أني سأموت قبل أنْ اسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر لا يكون لذلك منّي غِيَـر . والله لئـن رجعنـا إلى المدينـة ليخـرجَـنّ الأعـزّ منهـا الأذل . . . » .

وكان زيد بن أرْقم حاضراً ، وهو غلام لم يبلغ أو قد بلغ . فحدّث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نفرٌ من المهاجرين والأنصار فتغيّر وجهه ثم قال : « يا غلام لعلّك غضبتَ عليه »! ! قال : لا والله لقد سمعت منه . قال : « لعلّه أخطأ سمعُك » قال : لا يا نبي الله ، قال : « فلعلّه شُبّه عليك »؟! قال لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله . وشاع في العسكر ما قال ابن أبي حتى ما كان للناس من حديث إلا هو . وأنّب جماعة من الأنصار زيد بن أرقم . وقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله مَرْ عبّاد بن بشر قَلْيأتك برأسه . فكره رسول الله ﷺ ذلك وقال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » وجاء أُسَيْد بـن حضير فقال : يا رسول الله أرفق به ، فَوَالله لقد جاء الله بك وإنّ قومه لَيَنْظُمون له الخَرَز ما بَقِيَتْ عليهم إلا خَرْزة واحدة عند يُوشع اليهودي ليتوّجوه . فما يرى إلا قد سلبته ملكه . .

ثم نزل الوحي يصدق حديث الغلام ويكذّب ابن أبي وجمعه . يقول الله تعـالى : ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون آتخذوا أيْمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله إنّهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنّهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خشب مسنّدة يحسبون كل صيحةٍ عليهم هم العدو فآحْذَرْهم قاتلهم الله أنّى يُؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسول الله لوَّوْا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مُسْتكبرون سواءٌ عليهم أسْتَغْفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ، ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى

المدينة ليخرجَنّ الأعزّ منها الأذلّ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون. يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخّرْتني الى أجلٍ قريبٍ فأصّدّق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾[1].

ويجيء بعد ذلك ابن عبد الله، وكان قد أسلم، الى رسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله، إن كنتَ تريد أنْ تقتل أبي فيما بلغك عنه فَمُرني به. فوالله لأَحْمِلَنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا. والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبَرّ بوالده مني، وإني لأخشى أنْ تأمر غيري فيقتله فلا تَدَعُني نفسي أن أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار. وعَفْوُك أفضل ومنّك أعظم. فقال رسول الله ﷺ: «ما أردت قتله، وما أمرت به ولنحسننّ صحبته ما كان بين أظهرنا»[2].

شماتة المنافق اليهودي:

وفقدت ناقة الرسول، القصواء وهي سارحة فتطلّبها المسلمون في كل وجه. فقال زيد بن اللّصَيْت القينقاعي اليهودي، وكان منافقاً، تعليقاً على ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء «أفلا يخبره الله بمكانها؟» فأنكر عليه القوم ذلك وأسمعوه كل مكروه وهمّوا به، فهرب الى رسول الله ﷺ متعوذاً به وقد جاءه الوحي بما قال. فقال ﷺ والمنافق يسمع: «إن رجلاً من المنافقين شَمِتَ أن ضلّت ناقة رسول الله. وقال: ألا يخبره الله بمكانها؟ فلعمري إن محمداً ليخبر بأعظم من شأن الناقة، ولا يعلم الغيب إلا الله، وإن الله قد أخبرني بمكانها، وإنها في هذا الشِّعْب

---

(١) سورة المنافقون.

(٢) الأمتاع، الجزء الأول، ص ٢٠٠ - ٢٠٤.

مقابلكم قد تعلق زمامها بشجرة فاعمدوا عَمْدها » فذهبوا فأتوْا بها من حيث قال رسول الله ﷺ[1].

ونحن هنا ما كنا نريد أن نعلق على هذه الإجابة لولا ما فيها من الترفع والعمق اللذين يتطلبان وجوباً لفت نظر القارىء اليها. فلقد كان مفروضاً وقد جاء الرسول ﷺ الوحي واعلمه بما كان من هذا اليهودي المنافق، أن يخزيه ويقابل سوءه بسوء. وشماتته بمثلها. وهو في الموقف المتمكن الذي جعله الله تعالى فيه!! ولكنه دأبه في كل أمر، آثر موقف النبل والترفع وآعتبر العائذ كأنه غير موجود، وتكلم عن غائب غير معروف!! وكان بالامكان أن يعمد الى كشف الحقيقة ويخبر مباشرة عن مكان وجود الناقة ليثبت للشامت وأقرانه نقيض ما يريدون إشاعته. ولكنه بادر أولاً الى لفت النظر الى أن غياب الناقة وضياعها شأن ليس بذي بال، وأنه هو يخبر بما هو أعْظم منه، ولكنه يخبر بذلك بإذن الله واقداره، وذلك لأن علم الغيب هو من اختصاصه. وأنه وهو يخبر الآن عن مكان الناقة الضائعة يخبر بإقدار من الله واخبار منه!!

لم تخرجه شماتة الشامت عن حدوده، ولم تنسه واقعه وامكاناته الذاتية. فهو بشر من الناس يعلم كما يعلم الناس، ويعيش كما يعيشون ويعتريه ما يعتريهم، ومع ذلك فهو يوحى إليه... وبوحي الله، يمكنه أن يعرف الغيب، ويكشف الخفي ويفعل الخوارق.

من آثار غزوة بني النضير:

وبعد أن أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير عن المدينة، اهتزّ شعور الكثيرين من يهود قريظة وأحسوا بالهول يرعد فرائصهم ويبلغ بقلوبهم الحناجر. فأقبل عمرو بن سُعْدى القرظي على أرضهم وبعد أن طاف بمنزلهم ورأى ما أصابها

---

(١) الامتاع، الجزء الأول، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

من الخراب استرجع فكره وأعاد نظره فيما يعرفه من أخبار التوراة، فمال قلبه للايمان. فجاء قومه وقال لهم: قد رأيت ما رأيتم ما وقع ببني قينقاع وبني النضير، فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، والله إنكم لتعلمون. فتصدّى له كعب بن أسد وقال له ما يمنعك من اتّباعه؟ قال: أنت يا كعب!! قال: فَلِمَ؟ وما حُلْتُ بينك وبينه قط؟ فقال بعض اليهود الحاضرين: «بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه وإن أَبَيْتَ أبينا».

وكان الذي حمل عمراً هذا على هذا القول والمَيْل، وكذلك بعض قومه، هو ما رأوه جميعاً من مآل بني قينقاع وبني النضير، فهزّ أعصابهم، وأثار في نفوسهم داعية الحق، وهم العارفون به والمتمرّدون عليه بسبب أهوائهم وأنانيّاتهم وحبّهم لذواتهم وكبرهم. ولكنّهم عادوا فترددوا وأصرّوا على كفرهم[1] دأبهم في الغالب الأغلب.

موقفه من بني قريظة:

ولقد كان يوم الخندق عظيماً؛ فقد تضافرت فيه قوى الأحزاب، وتضامّ بعضها الى بعض أملاً بالقضاء على وجود الرسول ﷺ وعلى دعوته. وكان ممن أسهم في السعي في هذا اليوم لإنجاح الأحزاب وتحقيق هزيمة المسلمين فيه يهود بني قريظة، وفي مقدمتهم حيي بن أخطب الذي جاء قريشاً وقال لأبي سفيان «إن قومي قريظة معكم. وهم أهل حلقةٍ وافرة وهم سبعمئة وخمسون مقاتلاً» علماً بأن قريظة كانت في جملة يهود قد عاقدت رسول الله ﷺ حين قدومه الى المدينة بألاّ يكونوا معه ولا عليه. ويقال بأن ينصروه ممن دَهَمه ـ ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخزرج.

ولما اشتد على المسلمين يوم الأحزاب فوجىء الرسول ﷺ بعمر بن الخطاب

---

(١) خاتم النبيّين، الجزء الثاني، ص ٩٠٤.

يقول له « يا رسول الله بلغني أن بني قريظة قد نقضت العهد وحاربت » فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وقال: « حسبنا الله ونعم الوكيل » . ولما تحقق الرسول من الخبر ، وتأكد له غدر بني قريظة ومجاهرتهم بالعداوة ، كما تأكد له تسرب الخبر في صفوف المسلمين، آشتد الخوف وعظم البلاء وكان الناس في حال وصفهم الله تعالى فيه فقال: ﴿إذْ جاؤوكم من فَوْقكم ومن أسفل منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا هنالك آبتلي المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً﴾[٢] ..

وهمّت قريظة أن يغيروا على المدينة ليلاً لولا أنْ تدبّر رسول الله ﷺ الأمر مع صحابته بحكمته وحسن سياسته.

وقد نقل بعض الرواة أن سبب غزوة الأحزاب هذه هو أن نفراً من يهود ، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانه بن الربيع ابن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير وبني وائل ، هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ وهم الذي دعوا قريشاً إلى حربه. ولم يكتفوا بذلك ، بل ذهبوا إلى تحريض غطفان على حرب الرسول وأخبروهم أنهم يكونون معهم. وقد تجمّع المشركون من أكثر القبائل العربية وخرجوا لمقاتلة المسلمين يوم الأحزاب. وقد أمر الله تعالى نبيّه بالتصدّي لهم لمقاتلتهم وأخبرهم بأنه ناصرهم عليهم جميعاً فقال تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾[١] .

وقد نقضت قريظة العهد الذي كان بينها وبين رسول الله وآنضمت الى الأحزاب كما رأينا سابقاً ، وساهم معهم في ذلك المنافقون . وكثيراً ما كان يتسلل منهم أفراد الى دور النبي ﷺ في غيبته ليتعرفوا من أخباره ثم ليجهزوا عليها

---

(١) الأحزاب ١١ .
(٢) التوبة ٣٦ .

فيشفوا منها غيظهم وينالوا ثأر بني قينقاع وبني النضير ولكن أبطال المؤمنين ردّوهم على أعقابهم خاسرين.

ولما آنتهت معركة الأحزاب بقرار الأحزاب أنفسهم، وبردّ الله تعالى أياهم دون أن ينالوا شيئاً غير الخزي الدائم، جاء جبريل عليه السلام النبي ﷺ وقت الظهر على بغلةٍ وعليها قطيفة، وعلى ثنايا النّقع، فوقف عند موضع الجنائز فنادى: عَذيرك [تنبيه وتحذير بمعنى هات من ينصرك ويعذرك] من محارب. فخرج رسول الله ﷺ فزعاً فقال: «ألا أراك وَضَعْتَ اللأمة ولم تضعها الملائكة بعد؟! إن الله يأمر أن تسير الى بني قريظة فإني عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم حصونهم. وخرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه حتى انتهى الى بني قريظة فاستقبلهم اليهود يشتمون رسول الله وأزواجه. ولما سمع ذلك رسول الله منهم دنا منهم وقال: «يا إخوة القردة والخنازير وعَبَدَة الطاغوت أتشتموني!! ثم احتدمت المعركة، ودارت الدائرة، بعد حصار شديد، على بني قريظة الذين استسلموا ورضُوا بحكم سعد بن معاد سيد الأوس الذين كانوا حلفاء بني قريظة. وكانوا يلحون من قبل على رسول الله بأن يعاملهم كما عامل بني النضير، فرضي رسول الله ﷺ بأن يترك الحكم على بني قريظة الى سيد الأوس وهو سعد بن معاذ. وكان حكمه فيهم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم والذريّة وتقسم الأموال[1].

ولا ريب أن هذا الحكم يبدو للنظرة الأولى شديداً، ولكن سرعان ما تنحسر عنه صفة الشدة هذه عندما نتذكر أن هؤلاء كانوا معاهدين، فنقضوا العهد، ثم قاتلوا المسلمين وهم في أشد الأحوال ضعفاً وحرجاً وضيقاً وحاجة الى النصرة. وماذا كان ينتظر أن يفعل فيهم رسول الله غير هذا، وهم الذين كان دأبهم النكول والنكوص ونقض العهد والميثاق؟ هل كان ينتظر منه أن يعفو عنهم ليعودوا من جديد الى مناجزته ومقاتلته عندما تساعدهم الظروف أو تسنح لهم

(١) الأمتاع، الجزء الأول، ٢٤٠ - ٢٤٧.

الفرصة؟! أليس مثل هذا التصرف لو كـان، يعتبر خطلاً وفسـاداً كبيراً؟ أليس العفو عن مثل هؤلاء الذين ثبتت فيهم طبيعة الغدر والخيانة، يكون انحرافاً عن الحق؟! وظلماً في حدّ ذاته لأنه لم ينزل القصاص فيمن يستحقه عندما كان بالامكان انزاله به والله تعالى يقول: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾؟

لقد كان هذا المعنى واضحاً وثابتاً حتى في نفس البعض منهم. فقد روي عن حُيَي بن أخطب أنه أدرك ذلك وقال عندما اقتيد للقصـاص، لـرسـول الله ﷺ « والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكن من يَخْذُل الله يَخْذُله». ثم أقبل على الناس وقال «أيها الناس إنـه لا بـأس بـأمـر الله. كتـاب وقـدر وملحمـة كتبهـا» ثم تقدّم لضرب عنقه[1].

والحق أنه لم يكن لهم من جزاء على ما فعلوا إلا القتل، إنهم هم الذين قتلوا أنفسهم بما دبّروا من كيد وقاموا به من فعالٍ خسيسة ودسائس مخزية وكذلك جزاء الظالمين...

موقف الرسول ﷺ من خيبر:

لقد كان ينبغي أن يكون ما وقع لبني قينقاع والنضير وقريظة مثلاً وسلفاً لمن وراءهم من يهود خيبر وفَدَك وتَيْماء وغيرها. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. فقد آستطال أهلها وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم وأسلحتهم وأموالهم من الله. ولذلك فإنه ما إن بلغ يهود بني النضير، ويهود خيبر ما وقع لبني قريظة، حتى قال سلاّم بن مِشْكم، وكانت له رياسة بني النضير «بعد اليوم بعاث»[2] ثم أشار على اليهود جميعاً بأن يسيروا معه ولا يجلبوا معهم أحداً من العرب حتى يغزوا محمداً في عقر داره فوافقوه على ذلك.

---

(١) خاتم النبيّين، الجزء الثاني، ص ٩٤٩.

(٢) بعاث يوم من أيام الخزرج والأوس انتصر فيه الأوس على الخزرج بمساعدة بني قريظة. وهو هنا يريد أن يقول ستكون معركة طاحنة شبيهة، بالمعركة التي كانت يوم بعاث بين الخزرج والأوس.

وبلغ رسول الله ﷺ أن أُسَيْرَ بن زارم وقد تأمر على اليهود بعد أبي رافع، قام فيهم يريد حرب الرسول ﷺ. وسار في غطفان فجمعها ليسير بها الى المدينة، فندب رسول الله ﷺ الناس لملاقاته، فانتدب له جمع كبير وأمّر عليهم عبد الله بن رواحة الذي قدم خيبر وقضى على أسَيْر بن زارم وجماعته.

وكان يهود خيبر يعتزّون بقلاعهم وحصونهم، ووفرة رجالهم وأموالهم، ولا يتصوّرون بشكل من الأشكال أنه سيأتي زمن يغامر فيه الرسول ﷺ بجيشه ويغزوهم وهم على ما هم عليه من المنعة والقوّة. وبخاصة وأنهم كانوا كل ليلة قبل الفجر يقومون فيلبسون السلاح ويُصِفُّون الكتائب ويخرجون عشرة آلاف مقاتل. ويقولون: «محمد يغزونا!! هيهات! هيهات!!»[1]

وبالاضافة الى هذا، فقد نشط زعماؤهم بتجميع العرب معهم لمقاتلة رسول الله ﷺ فخرج كنانة بن أبي الحقيق في أربعة عشر رجلاً الى غطفان يدعوهم الى نصرهم ولهم نصف تمر خيبر سنة كاملة.

لقد كانوا إذن يستعدّون لقتال الرسول، ويجمعون كل قواهم وكل أنصارهم لليوم الموعود. وقد كان ذلك منهم مكشوفاً.. كان يعلم به العرب، ويعلم به الرسول ﷺ حتى آضطر أن ينتدب لمقابلة أحد قادتهم وهو أُسَيْر بن زارم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

ومثل هؤلاء، ولهم ما لهم من مثل هذه الركائز النفسيّة والطبائع الخلقية والأهداف لا يُهملون، ولا يتركون يسرحون ويمرحون دون موقف حاسم رادع في الوقت نفسه. ولذلك فإن رسول الله ﷺ خرج لغزو خيبر بعد أن استنفر من حوله، فلم يسمح بأن يخرج معه منهم إلا راغب في الجهاد. ولما أشرف على خيبر أوقف أصحابه ودعا ربّه، والصحابة يؤمّنون ويقولون وراءه هذا الدعاء: «اللهم

---

(١) الأمتاع، الجزء الأول، ص ٣١٠.

رب السموات السبع وما أظلّت وربّ الأرْضين السبع وما أقَلّت وربّ الشياطين وما أضلّت ورب الرياح وما ذرت، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها» ولما آنتهى قال لأصحابه آدخلوا على بركة الله..

فلما نزل رسول الله ﷺ بساحة خيبر لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصحْ لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم وغَدَوْا إلى أعمالهم مع المساحي والكرازين والمكاتل، فما هالهم إلا أن نظروا المسلمين فقالوا: محمد والجيش!! [الجيش الكبير] وَوَلّوْا هاربين الى حصونهم، ورسول الله ﷺ يقول: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين».

ولقد نشبت بين الرسول ﷺ وبين يهود خيبر معارك حامية الوطيس عند أبواب خيبر وحصونها المنيعة. ولقد قاتل اليهود دفاعاً عنها قتالاً مستبسلاً ومريراً، ولكنه انتهى رغم ذلك وبفضل الله تعالى بنصر مؤزّر للمسلمين وهزيمة نكراء لليهود. وكان شهداء هذه المعركة من المسلمين، خمسة عشر؛ أربعة من المهاجرين والبقيّة من الأنصار. بينما قتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

ولما رأى اليهود هذه العاقبة طلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على النجاة بأنفسهم، وأن يسلّموا كلّ ما بأيديهم. فقبل الرسول وصالحهم على أن يحقن دماءهم، وعلى أن يتركوا له ما لهم من الأرض والأموال الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، وأن لا يكون لهم إلا ما يكون على ظهر الناس[1].

وبالقضاء على قوة اليهود في خيبر تم القضاء على أشد قواهم والاستحواذ على أمنع معاقلهم وحصونهم ومواقعهم في الجزيرة، ذلك لأن جموع اليهود فيها هي أشد الطوائف الإسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً وأكثر عديداً وسلاحاً. وبذلك أمن المسلمون من بأس اليهود، وآطمأنوا بأنه لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة في شبه

---

(١) خاتم النبيّين، الجزء الثاني، ص ١٠٤٧.

الجزيرة العربية أبداً، وبخاصة وأن أهل فدك لما عرفوا ما وقع لسكان خيبر سارعوا وصالحوا رسول الله، وكذلك أهل وادي القرى الذين أخذوا عنوة، فقد أذعنوا لحكم الرسول وخضعوا خضوعاً كاملاً.

وعلى الرغم مما كان لهؤلاء من إساءات، وما ظهر منهم من غدر وكبر وعناد، فإن رسول الله ﷺ استجاب لطلبهم وارتضى بعد انتصاره عليهم الانتصار الساحق أن يستعملهم على أرضهم التي آلت للمسلمين، على أن يكون لهم شطر الثمار وشطر الزروع. واستعمل على ذلك عبد الله بن رواحة ليقدّر المحاصيل وعلى أن يقول إذا خَرَصَ [قدّر] إن شئتم فلكم وتضمنون نصف ما خَرَصْت، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم نصف ما خرصت.

ولقد أحسن الرسول ﷺ معاملتهم وأبى على أصحابه أن يزعجوهم كما يكون أحياناً من بعض جنود الفتح أو يقعوا في حرثهم بدوابهم. فقد ورد أن المسلمين بعد الصلح جعلوا يقعون في حرثهم بدوابّهم لترعى فيه من غير حذر، فشكت اليهود ذلك الى رسول الله ﷺ، فنادى عبد الرحمن بن عوف الصلاة جامعة واجتمع المسلمون، فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « إن يهود شكوا إليّ أنكم وقعتم في حظائرهم وقد أمّنّاهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم [أي بعد الصلح] في أراضيهم وعاملناهم. وإنه لا تحِلُّ أموال المعاهدين إلا بحقّها. فكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئاً إلا بثمن »[1].

ولقد كان من بين الغنائم التي وقعت بأيدي المسلمين من خيبر عدّة صحائف من التوراة، ولما علم اليهود بها طلبوا ردّها اليهم فأمر النبي ﷺ بتسليمها اليهم،

---

(١) الأمتاع، الجزء الأول، ص ٣٢٨.

ولم يصنع صنيع غيره كالرومان عندما فتحوا أورشليم حيث أحرقوا الكتب الدينية وداسوها بأرجلهم[٢].

(٢) حياة محمد، هيكل، ص ٣٩٧.



الفصل العاشر

موقف الرسول ﷺ الديني من اليهود

١ ـ موقف الرسول من التوراة
٢ ـ التوراة والتحريف
٣ ـ معنى التحريف وصورته
٤ ـ تعليل لعدم تحديد التحريف من القرآن الكريم
٥ ـ موقف الرسول من أنبياء اليهود
٦ ـ موقف الرسول من بعض ما نسب اليهم في التوراة التي بين أيديهم
٧ ـ موقف الرسول من المعتقدات والشرائع اليهودية
٨ ـ اليهود وعيسى وأمه مريم وكتابه الانجيل
٩ ـ موقف الرسول من ذلك
١٠ ـ اليهود والتوراة وموقف النبي
١١ ـ موقف النبي من عقيدتهم في الآخرة
١٢ ـ موقفه من اساس العمل التشريعي
١٣ ـ موقفه من مبدئهم بأن الغاية تبرر الواسطة

١٤ ـ اليهود ووحدانية الله وتنزيهه
١٥ ـ موقف الرسول من أحكامهم الدينية
١٦ ـ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً
١٧ ـ موقفهم من المرأة
١٨ ـ موقف النبي من ذلك

عنـدمـا نقـول إننـا نـريـد أن نـوضح مـوقـف الرسـول ﷺ الديني مـن اليهود ، نعني بذلك تسليط الأضواء على موقف الإسلام منهم ، موقفه من كتابهم التوراة ، من عقيدتهم في الله ، ومن نظرتهم ومعاملتهم للأنبياء والملائكة ، واليوم الآخر ، ومن شريعتهم إجمالاً وبعض أحكـامهـا الواردة ، . . فمحمـد ﷺ هـو رسول الله ، وحامل كتابه ودينه الذي ارتضاه للناس . ودينه هذا هو الاسلام كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ وهو كما أخبر عن نفسه بأمر الله تعالى مبلغ ﴿إنْ عليك إلا البلاغ﴾ .

بيد أن الحديث في هذه الموضوعات وغيرها مما له علاقة بها في هذا البحث ؛ لا ينتظر منه الاستيعاب الكامل لكل الجوانب ، بقدر ما ينتظر منه الإلمام به الماماً يفي بالحاجة منه وهي . التعريف بموقف الرسول ﷺ من اليهودية كاملة . . .

ولقد كان لنا فيما تقدم لمحات في منشأ اليهودية ، وسبب دخول اليهود الى شبه الجزيرة العربية ، وبعض معتقداتهم وسماتهم الأخلاقية ، وفي موقف الرسول ﷺ الاجتماعي والسياسي والعسكري منهم في مكة والمدينـة قبـل الهجـرة وبعـدهـا . وسنتناول فيما يلي موقفه الديني منهم .

موقف الرسول ﷺ من التوراة :

لقد وردت في القرآن الكريم آيات في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها تذكر التوراة ذكراً عطراً ، وتصفها بأنها الكتاب الذي أنزله الله تعالى على

موسى والذي فيه هدى ونور. يقول الله تعالى: ﴿آلم. الله لا إله إلا هو الحيّ القيّوم، نزّل عليك الكتاب بالحقّ مُصَدّقاً لما بَيْن يَدَيْه وأنزل التوراة والانجيل﴾[1] ويقول في آية أخرى إن الله تعالى أنزل التوراة وجعل فيها هدى ونوراً ليحكم بها النبيّون الذين أسلموا لله وخضعوا لأوامره، وبذلك بين الذين تابوا الى الله ورجعوا الى حظيرة هداه، كما يحكم بها علماؤهم من الربانيين والأحبار ولا يتجاوزوها. وذلك دأب الذين يخشون الله تعالى ومن لا يلتزم بذلك فهو كافر. يقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فلا تَخْشَوْا الناس، وآخْشَوْن، ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمناً قليلاً. ومَنْ لَمْ يَحْكُم بما أنْزَلَ الله فأولئك هم الكافرون﴾[2].

ثم يخبر الله تعالى عن اليهود والنصارى، بأنهم لو التزموا بما ورد في كتابهم التوراة أو الانجيل التي أنزلها الله تعالى وآستقاموا لكان لهم من الله رعاية كبرى وعطاء عظيم، ولأفاض عليهم من بركات الأرض والسماء ما جعلهم في طمأنينة ورغد. ولكن الكثيرين منهم ساء فعلهم، وقليل منهم الذين استقاموا. يقول الله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمّةٌ مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾[3].

وليست هذه الآيات وحدها كما أشرنا سابقاً التي وردت في القرآن الكريم وتناولت التوراة بالوصف والذكر الحميد. وقد اكتفينا بايرادها وحدها للفت النظر فقط الى موقف الاسلام أو موقف الرسول ﷺ منها.

---

(١) آل عمران ٣.
(٢) المائدة ٤٤.
(٣) المائدة ٦٦.

التوراة والتحريف:

ولكنه مع ذلك فقد ورد في القرآن الكريم آيات أخرى في سور مختلفة منه تنسب إلى اليهود تحريف كلام الله بهذه اللفظة بالذات، وذلك دون أن تذكر صراحة صورة هذا التحريف والجهة التي وقع عليها. أهي التوراة نفسها أو غير ذلك.

والآيات التي وردت تحمل هذا المعنى كثيرة نحصرها هنا في ست منها: يقول الله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[1] ويقول: ﴿ومن الذين هادوا يحرّفون الكلِم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾[2] ويقول: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكروا به. ولا تزال تطلع على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾[3] ويقول: ﴿يا أيها الرسول لا يَحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[4] ويقول: ﴿وإنَّ منهم لفريقاً يَلْوُون ألسنتهم بالكتابِ لِتَحْسَبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[5] ويقول: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسون الحق بالباطل وتَكْتُمون الحق وأنتمُ تعلمون﴾[6].

وعلى العموم فإن مضمون الآيات كلها هو بالاجمال الإخبار بوقوع التحريف

---

(١) البقرة ٧٥.

(٢) النساء ٤٦.

(٣) المائدة ١٣.

(٤) المائدة ٤١.

(٥) آل عمران ٧٨.

(٦) آل عمران ٧١.

من اليهود لكلام الله والتأكيد على كذبهم وافترائهم على الله، دون التصريح بأن التحريف المخبر عنه قد وقع في التوراة ذاتها أو في غيرها.

ولقد تناول علماؤنا هذه الآيات بالشرح والتفسير ودخلوا في مناقشات واسعة حولها وبالذات في معنى التحريف وموضع وقوعه.

معنى التحريف وصورته:

ولقد كثر كلامهم في معنى التحريف. فقال القفّال هو التغيير والتبديل وأصله من الانحراف عن الشيء والتحريف عنه. قال تعالى: ﴿إلا متحرفاً لقتال أو متحيّزاً الى فئة﴾ والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه. يقال قلم محرف إذا كان رأسه قُطَّ مائلاً غير مستقيم.. وقال ابن كثير هو بمعنى التأويل. والى هذا المعنى ذهب أكثر العلماء..

ومعنى لفظة «يحرفونه» الواردة في الآيات كلها إذاً هو يبدّلونه ويغيّرونه. أو يميلونه عن الحق الذي هو عليه أصلاً.

وقد رُوي أن موسى عليه السلام آختار بأمر الله تعالى سبعين رجلاً من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التي كان يكلمه الله تعالى بها. وقد سمعوا وشاهدوا وصدقوا لأنه تأكد لنا ذلك من إخبار الله تعالى في قوله: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾[1]. ولكنّهم لما رجعوا الى قومهم وأرادوا إخبارهم بما رأوا وسمعوا، حرفوا كلام الله الذي حضروا وحيه فصرفوه عن وجهه الصحيح.

يقول صاحب المنار «إن التحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم وآطلعوا على كتبهم التي يسمّونها التوراة وغيرها، هو أن التحريف اللفظي والمعنوي كلاهما واقع في تلك الكتب ما له من دافع وأنّها غير متواترة. فالتوراة التي كتبها موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها كما هو

(١) الأعراف ١٥٥.

مسطور في الفصل الحادي والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع قد فقدت قطعاً باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى، ولم يكن عندهم نسخة سواها. ولم يكن أحدٌ يحفظها عن ظهر قلب كما حفظ المسلمون القرآن كلّه في عهد النبيّ ﷺ. وهذه الأسفار الخمسة التي ينسبونها الى موسى. فيها خبر كتابة التوراة وأخذه العهد عليهم بحفظها وهذا ليس منها قطعاً. وفيها خبر موته وكونه لم يقم بعده أحد مثله الى ذلك الوقت. أي الذي كتب فيه ما ذكر من سفر التثنية. وهذا نصٌ قاطع في أن الكاتب كان بعد موسى بزمن طويل، وكون ما ذكر ليس من التوراة في شيء. ومن المشهور أنها فقدت عند سبي البابليين لليهود. وفي هذه الأسفار ما لا يحصى من الكلم البابلي الدال على أنها كتبت بعد السبي. والمرجح عند محقّقي المؤرخين من الافرنج أن هذه التوراة الموجودة كتبت بعد موسى ببضعة قرون. والمشهور أن أول من كتب الأسفار المقدّسة بعد السبي عزرا الكاهن في زمن ارتحشستا الذي أذن له بذلك، إذْ أذن لبني إسرائيل بالعودة الى بلادهم »[1].

وعلى كل حال فإن التحريف كما نقله العلماء يصدق بتحريف الألفاظ وذلك بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة، وَبحمْلِ الألفاظ على غير ما وُضعت له.. وقد كان تحريف كلام الله بالمعنى الأخير فيما حصل من السبعين رجلاً الذين صحبوا موسى لميقات ربّه، حيث نقلوا الى قومهم بعد أن رجعوا اليهم، كلام الله الذي حضروا وحيه الى موسى، محرفاً ومصروفاً عن وجهه الصحيح كما حققه ابن جرير الطبري إذ يقول: « لو كان المراد بما هنا، تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه فزيادة « يسمعون » هنا لا بدّ لها من حكمة. ولولا ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الأخرى التي ذكر فيها التحريف. كأن يقول، وقد كان فريق منهم يحرّف كلام الله، وقوله تعالى ﴿من بعد ما عقلوه﴾ نص في التعمّد وسوء القصد ». ويقول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق

(١) تفسير المنار، الجزء السادس، ص ٢٨٢.

منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أي يسمعون التوراة ويؤولونها تأويلاً فاسداً حسب أغراضهم[1].

على أن أكثر المفسّرين يَرْوُون ما نقلناه سابقاً أن قوماً من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلّم موسى بالطور وما أمره به ونهاه عنه، ثم قالوا عندما لقوا قومهم: «سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس».

ويقول بعض العلماء هنا «إن التحريف هو بمعنى الزيادة وذلك أن هؤلاء السبعين علّقوا الأمر بالاستطاعة والنهي بالمشيئة فلا يتقابلان. وكأنهم أرادوا بالأمر غير الموجِب على معنى افعلوا إن شئتم وإن شئتم فلا تفعلوا».

ويقول الفخر الرازي: «اعلم أنا إن قلنا بأن المحرّفين هم الذين كانوا زمن موسى، فالأقرب أنهم حرفوا ما لا يتّصل بأمر محمد... وأما إن قلنا: المحرفون هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام فالأقرب أن المراد بالتحريف تحريف أمر محمد عليه الصلاة والسلام. وذلك إما أنهم حرّفوا نعت الرسول وصفته أو لأنهم حرفوا الشرائع كما حرّفوا آية الرجم. وظاهر القرآن لا يدل على أنهم أيّ شيء حرّفوا...»[2].

ويروي الامام الطبري قولين في موضوع التحريف؛ قولاً يرى أن المحرّف هو التوراة وهو رأي السدّي، وقولاً آخر يرى أن المحرّف هو المسموع من النبي ﷺ وهو رأي الربيع. ثم يرجح قول الربيع بن أنس ويقول نقلاً عن بعض أهل العلم: «إن الله تعالى يعني بقوله ﴿افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أن اليهود الذين بين أظهركم وهم من بقايا نسل أولئك اليهود الذين كانوا يسمعون كلام الله تعالى

---

(١) روح المعاني، للألوسي، الجزء الأول، ص ٢٩٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي، الجزء الثالث، ص ١٤٤.

مع موسى ثم حرّفوه، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق وهم لا يسمعون من الله وإنما يسمعون منكم »[1].

أما ابن القيم فيوضح معنى التحريف بشكل عام فيقول: « وأما التحريف فقد أخبر سبحانه عنه في مواضع متعددة من الكتاب... وهو يكون بلَيّ اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. وليلبس على السامع اللفظ المُنْزل بغيره، ويكون بأن يلبس الحق بالباطل، ويخلط به حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر ويكون بكتمان الحق أو بإخفائه. فهو إما تحريف اللفظ أو تحريف المعنى. واليهود قد ارتكبوا هذه الأمور كلها لأغراض دعتهم الى ذلك في الماضي، وهم اليوم مع الرسول ﷺ الى ذلك أحوج »[2].

ويؤكد ابن القيم أن التحريف وقع في التوراة ذاتها فيقول: « ونحن نذكر حقيقة سبب تبديل التوراة. فإن علماء القوم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحد من علمائهم وأحبارهم أنها عين التوراة المنزلة على موسى بن عمران البتة. لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل ولم يبثها فيهم خوفاً من اختلافهم من بعده في تأويل التوراة المؤدي الى انقسامهم أحزاباً. وإنما سلمها الى عشيرته أولاد لاوي. ودليل ذلك قول التوراة ما هذه ترجمته: « وكتب موسى هذه التوراة ودفعها الى أئمة بني لاوي. وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكّامهم. لأن الأمانة وخدمة القرابين والبيت المقدّس كانت فيهم. ولم يبد موسى لبني إسرائيل من التوراة إلا نصف سورة. وقال الله لموسى عن هذه السورة: ﴿وتكون لي هذه السورة شاهدة على بني إسرائيل ولا تنسى هذه السورة من أفواه أولادهم﴾ وأما بقيّة التوراة فدفعها الى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عن سواهم. فالأئمة الهارونيّون هم الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها،

---

(١) بتصرف من الطبري، الجزء الثاني، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) بتصرف من هداية الحيارى، ص٤٩.

فقتلهم بختنصّر على دم واحد وأحرق هيكلهم يوم استولى على بيت المقدس، ولم تكن التوراة محفوظة على ألسنتهم، بل كان كل واحد من الهارونيّين يحفظ فصلاً من التوراة. فلما رأى عُزَيْر، أن القوم قد أحرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرّق جمعهم ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفّق منه هذه التوراة التي بين أيديهم. وقد بالغوا في تعظيم عزير غاية المبالغة وقالوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز. وزعموا أن النور على الأرض الى الآن يظهر على قبره عند بطائح العراق، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ دينهم. فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب عزير. وإن كان فيها أو أكثرها من التوراة التي أنزلت على موسى »[1].

ثم يقول: « وفي التوراة التي بين أيديهم من التحريف والتبديل، وما لا يجوز نسبته الى الأنبياء، ما لا يشك فيه ذو بصيرة ». ثم يسترسل في ذكر الوقائع التي وردت في التوراة عن لوط، وموسى، وابراهيم، وعن الله سبحانه وتعالى، ثم عن يهوذا بن يعقوب.

ولقد كانت مثل هذه الوقائع وغيرها سبباً في أن يتفشى الشك في سلامة التوراة من التحريف، حتى يصيب عدداً كبيراً من رجال اللاهوت اليهودي والمسيحي.

يقول الفيلسوف اليهودي سبينوزا بعد كلام طويل في شرح أقوال ابراهيم بن عزرا المتوفي في غرناطة سنة ١١٦٧ في التوراة، وأنها ليست من تأليف موسى بل من تأليف شخص آخر عاش بعده بزمن طويل. « يمكن إبداء ملاحظات أخرى متعددة أكثر خطورة على الأسفار فمثلاً:

١ ـ لا يتحدث الكتاب عن موسى بضمير الغائب فحسب، وإنما يعطي عنه

---

(١) هداية الحيارى، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

شهادات عديدة مثل: « تحدّث الله مع موسى » « كان الله مع موسى وجهاً لوجه » « كان موسى رجلاً حليماً جداً أكثر من جميع الناس » (العدد ١٢٥ :٣ الخ) ثم يقص موسى أفعاله على العكس بضمير المتكلم في التثنيـة فيقـول: « كلّمني الرب » [التثنية ٢ :١: ١٧ الخ] إلا في آخر السفر حيث يستمر المؤرخ بعد أن نقل أقوال موسى ويحكي فيه روايته كيف أعطى موسى الشعب هذه الشريعة [التي شرحها] كتابة ثم أعطاهم تحذيراً أخيراً وبعد ذلك آنتهت حياته. وكل ذلك ـ أعني طريقة الكلام والشواهد ، ومجموع نصوص القصة كلها يدعو الى الآعتقاد بأن موسى لم يكتب هذه الأسفار ، بل كتبها شخص آخر.

٢ ـ يجب أن نذكر أيضاً أن هذه الرواية لا تقصّ فقط موت موسى ودفنه ، وحزن الأيام الثلاثين للعبرانيين ، بل تروي أيضاً أنه فاق جميع الأنبياء إذا قورن بالأنبياء الذين عاشوا بعده « ولم يقم من بعد نبيٌّ في إسرائيل كموسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه » [التثنية ٣٤ : ١] هذه شهادة لم يكن من الممكن أن يدلي بها موسى نفسه ، أو شخص آخر أتى بعده مباشرة ، بل شخص عاش بعده بقرونٍ عديدة. لا سيما أن المؤرخ قد استعمل صيغة الفعل الماضي. ويقول عن القبر : « ولم يعرف أحد قبره الى يومنا هذا » [التثنية ٣٤ : ٦].

٣ ـ يجب أن نذكر أيضاً أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى ، بل أطلقت عليها اسماء عرفت بعده بزمن طويل. إذْ يقال إن ابراهيم تابع أعداءه حتى دان [انظر التثنية ١٤ :١٤] وهو اسم لم تأخذه المدينة التي تحمله إلا بعد موت يشوع بمدّة طويلة. [انظر القضاة ١٨ : ٢٩].

٤ ـ تمتد الروايات في بعض الأحيان الى ما بعد موت موسى؛ فيروى في الخروج: [١٦ :٣٥] أن بني اسرائيل أكلوا المن أربعين يوماً حتى وصلوا الى أرض مسكونة على حدود بلاد كنعان أي حتى اللحظة التي يتحدّث عنها سفر يشوع [٥ :١٢]. وكذلك يخبرنا سفر التكويـن [١٦:٣١] « وهـؤلاء الملـوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل أن يملك ملكٌ في بني إسرائيل » ولا شك في أن

المؤرخ يتحدث عن الملوك الذين كانوا يحكمون الأدوميين قبل أن يخضعهم داوود لحكمه ويضع حاميات ضدهم في أديميا [انظر صموئيل الثاني ٨ :١٤].

من هذه الملاحظات كلها يبدو واضحاً وضوح النهار : أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة »[1].

ويقول الدكتور موريس بوكاي بعد سرد بعض التناقضات التاريخية في التوراة « وعلى هذا فإنه لا يمكن اعتبار الروايات الثلاث للتوراة، كما لو كانت حاملة للناس سرداً للوقائع مطابقاً للحقيقة، لأننا لا يسعنا اذا كنّا موضوعيين، إلا التقرير بأن النصوص التي هي موضع الحديث والتي وصلت إلينا لا تعبّر عن الحقيقة!! وهل يمكن أن يكون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة؟ إنه لا يمكن تصوّر أنه يعلّم الناس بواسطة الأوهام، بل الأوهام المتناقضة فوق ذلك. الأمر الذي ينتهي بنا الى الوصول بصورة طبيعية إلى إثارة افتراض تَشْويهٍ حصل بواسطة الناس، أو تقاليد نقلت حرفياً من جيل الى جيل، أو نصوص بعد تثبيت هذه التقاليد ».

« وعندما نعلم أن مؤلّفاً مثل سفر التكوين قد حرّف مرّتين على الأقل في مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش بأن نجد فيه مستحيلات؟! أو روايات غير متفقة مع حقيقة الأشياء منذ أن أمكن أن يسمح تقدم المعارف الإنسانية بأن نحصل على الأقل اذا لم نعرف كل شيء، من خلال بعض الأحداث، على معرفة كافية لنقدر على الحكم بدرجة ما عليه الروايات القديمة المختصة بها من التوافق معها ».

« وماذا ثمة أكثر منطقاً من أن نبقي على هذا التفسير لأخطاء النصوص التوراتيّة التي لا تقحم إلا الإنسان، انه لمن المؤسف ألاّ يتبنّاه أغلبية المفسّرين يهوداً

(١) عن كتاب بين الإسلام والمسيحية، بتحقيق الدكتور محمد شامة، ص ١٠٩ ـ ١٢٢.

كانوا أو مسيحيين. وعلى كلّ فإنّ الأدلة المسوقة جديرة بأن تستوقف الانتباه»[1].

وقد تطرق للحديث في موضوع التحريف الذي دخل على التوراة على تقلّب التاريخ عديد من علماء المسلمين كما قلنا وعلماء اليهود والمسيحيين. وكان أكثر المحققين المسلمين يؤكدون في كتبهم أن القرآن الكريم في تعرضه لعمل أحبار اليهود في تحريف الكلام عن موضعه، وكتمان الحق، وكتابة الكتاب بأيديهم مع قولهم إنه من عند الله، والحق أنه ليس من عند الله، إنما هو للتوجيه الى ما كان منهم بالفعل من تحريف للتوراة وتلاعب بما ورد فيها من تشريع وأحكام إما بالاخفاء والكتمان وإما بالزيادة أو النقصان.

تعليل لعدم تحديد التحريف من القرآن الكريم:

بيد أن ثمة منهم من يقف أمام هذه النصوص وقفة المتسائل فيقول: لماذا لم يكشف القرآن الكريم وهو الوحي المنزل من الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، حقيقة التحريف، فيبيّن كيف وقع وممّن وقع وفيم وقع؟ ولماذا اكتفى بالإخبار عنه وسكت فيما عدا ذلك؟

وقد وجد هؤلاء الإجابة على هذا التساؤل فقالوا: «إن أسلوب القرآن الكريم في معالجة أخطاء التوراة، يدل على أنه ليس من أعمال البشر، بل هو منزل من عند الله الذي يعلم دقائق الأمور وأسرار الطبائع البشرية. ومنزل هذا القرآن ركّز على ناحيتين هامتين:

أ ـ تأكيد وحدانية الله وسوق الأدلة المقنعة بها وتيسير هذه القناعة بما ضرب من أمثال وأشار إليه من آيات كونية.

---

(١) التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث، الدكتور موريس بوكاي، دار الكندي، ص ٤٥ ـ ٤٦.

ب ـ إثبات أن محمداً هو رسول الله وأنه قد تلقى الوحي منه.

والدعوة اذا أفلحت في إقناع الفرد بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً هو رسوله والمبلغ عنه، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله أوحى به الى محمد ﷺ، لزم من ذلك أنه لم يعد للتوراة ولا لغيرها تأثير. ذلك لأن التشريعات القرآنية وتوجيهات القرآن وأوامره ونواهيه والحدود التي يبيّنها ستكون صاحبة التأثير الأول والأخير، وستأخذ مكان الصدارة ولن يكون للعبد المؤمن معها مرجع سواها يتخذها منهاجاً له في سلوكه، وركيزة له في معتقداته وآدابه. وبالتالي يعتمدها المجتمع ويتخذها له قانوناً تنظم شؤونه الحياتية كلها.

وعندما يكون للقرآن الكريم هذه المكانة وهذا التأثير المطلق، تصبح التوراة شيئاً ثانوياً، ويصبح إثبات وقوع التحريف فيها أمراً توضيحياً يؤكد واقعة تاريخية ويكشف حقيقة علمية، ويستوي بعده ثبوته لفظاً أو معنى، أو وضوح الصورة التي وقع عليها والشيء الذي وقع فيه وغير ذلك، لأنه يتناول شيئاً لم يعد معمولاً به ولا ساري الحكم في المجتمع الذي آمن أفراده بوحدانية الله، وبأن محمداً رسول الله، وبأن القرآن الكريم كتاب الله أنزله عليه هدى للناس، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

ولا ريب في أن هذا الفهم جيد وصحيح بالنسبة الى كل مؤمن بالله ربّاً لا شريك له، وبمحمدٍ رسولاً صادقاً وأميناً، وبالقرآن كتاباً يحمل كلام الله الى الناس أجمعين. لأنه في هذه الحالة يكون قد آستوفى ما يضمن له سلامة عقيدته واستقامة سلوكه إذ أسلم وجهه لله الواحد القهار مرتكزاً الى ركنين ثابتين كفياه مؤنة الحيرة ويسرا له الهداية والحق...

---

(١) يتصرف من كتاب بين الاسلام والمسيحية، ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

موقف الرسول ﷺ من أنبياء اليهود :

ولو تتبعنا القرآن الكريم الذي يمثل المصدر الأول والأساسي للتشريع الاسلامي، والمرجع الأول والأخير لرسالة محمد ﷺ ولكل ما حمله من أخبار وأحكام لرأينا منه ما يحمل على إجلال هذا الرسول العظيم الذي جاء يثبت صدقه وعلو مقامه عند الله، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين. وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ولقد استعرض هذا الكتاب العظيم أنبياء بني اسرائيل وبدأ بذكر جدهم إبراهيم عليه السلام، فقال فيه قولاً عظيماً وأنزله مكانة رفيعة فأخبرنا عنه بقوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين﴾[1] وأخبرنا بأنه سبحانه وتعالى قد أكرمه ورعاه وأنجاه من كيد قومه الذين أرادوا أن يحرقوه ووهب له على الكبر اسماعيل وإسحاق. يقول الله تعالى: ﴿ونجّيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاًّ جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[2] ويقول على لسانه عليه السلام: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء﴾[3] ويقول: ﴿فبشرناه بغلام عليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحُك فآنظر ماذا ترى، قال يا أبت آفعلْ ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[4].

ويخبرنا القرآن الكريم عن طهارة نفس ابراهيم وحرصه على عبادة الله وتجنّب

---

(١) الأنبياء ٥١.
(٢) الأنبياء ٧١ ـ ٧٣.
(٣) ابراهيم ٣٩.
(٤) الصافات ١٠٠ ـ ١٠٢.

عبادة الأصنام كما يحدثنا عن بنيه من بعده اسماعيل واسحاق ويعقوب حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام فيقول بإيجاز ﴿وآذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيّاً، إذْ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾[1] ويقول: ﴿ومن أحسنُ ديناً ممن أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو محسن وآتّبعَ مِلّة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾[2] ويقول: ﴿إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾[3] ويقول: ﴿ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيته داوود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل وآليسَع ويونس ولوطاً وكلاًّ فضّلنا على العالمين ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم وآجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم﴾[4].

ولقد أثنى الرسول ﷺ على أنبياء بني إسرائيل ثناءً عطراً أيضاً، فذكر أفضالهم وتحدّث عن فضائلهم وآدابهم وجهادهم ومقامهم الرفيع عند الله بما لا مزيد عليه. فيقول مثلاً عن إبراهيم عليه السلام فيما رواه البخاري عن ابن عباس «إن النبي ﷺ لما رأى الصُّوَرَ في البيت، لم يدخل، أمر بها فَمُحِيَتْ. ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: قاتلهم الله والله ما استقسما بالأزلام قط»[5] وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في خمسة وثلاثين موضعاً كلها ثناء مجيد له.. ولقد قال عنه ﷺ إنه أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ. كما أثنى عليه وعلى أولاده اسحاق ويعقوب ويوسف، وعندما أراد الثناء على يوسف قال عنه «إنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن

---

(١) مريم ٤٣.
(٢) النساء ١٢٥.
(٣) التوبة ١١٤.
(٤) الأنعام ٨٤ - ٨٧.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الأول، ص ١٦٩.

ابراهيم »[1] . وقال عن اسماعيل عليه السلام : « أول من فتق لسانه بالعربية البيّنة إسماعيل وهو ابن آربع عشرة سنة »[2] وقال في يونس عليه السلام : « من دعا بدعاء يونس آستجيب له » ودعاء يونس هو قوله تعالى : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك ، إني كنت من الظالمين﴾[3] وقال في موسى عليه السلام : « إن موسى كان رجلاً حيّياً ستيراً » ولما أوذي الرسول ﷺ ببعض الكلام يوماً من بعض الأعراب قال : « يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر »[4] .

ولقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم كثيراً ، وسرد قصته كلها من يوم خلقه حتى بعث رسولاً ثم اصطحب معه بني اسرائيل وعاش معهم في صحراء التيه دهراً الى أن انتهى قبيل دخوله الأرض المقدسة . وجعل فيها ما يروّح عن فكر النبي ونفسه ويساعده لتخطي الصعاب والصبر على المشاق التي تعترض طريقه في دعوته الى الله .

كما ذكر الله تعالى عيسى عليه السلام وأمّه ذكراً مستفيضاً ، معلياً مقامهما ومثنياً على سلوكهما ومبرّئاً ساحتهما مما شاء أن يلصقه الظلمة المفترون بها من البهتان والإفك فقال في مريم ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك وآصطفاك على نساء العالمين . يا مريم آقْنُتِي لربّك وآسجدي وآركعي مع الراكعين﴾[5] وقال في عيسى ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيحُ عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين . . .﴾ .

ويصف ﷺ السيدة مريم عليها السلام فيقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد » ويقول : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم

---

(١) البداية والنهاية لأبن كثير ، الجزء الأول ، ص ١٧١ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء الأول ، ص ٢٣٥ اما الآية فهي من سورة الانبياء
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء الأول ، ص ٣١٥ .
(٥) آل عمران ٤٢ ـ ٤٣ .

بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد »[1]
ويقول في عيسى عليه السلام: « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب » ويقول « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنّة على ما كان منه من العمل »[2].

بيد أنه ينبغي قبل ختام الحديث في هذا الموضوع أن نلفت النظر الى أن ثناء الرسول ﷺ وتعطيره لسيرة أنبياء بني إسرائيل وشهادته لهم الطيبة بما أوحى الله إليه من آيات القرآن الكريم أو من جوامع الكلم في الحديث الشريف ليؤكد أيضاً صدقه ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى، وإنما عن وحي قد أوحي اليه. ويشهد له في الوقت نفسه بعلو المقام ونبل المقصد. إذ لو كان إنساناً عادياً يتكلم من فكره الذاتي لفاته أولاً الكثير من الأخبار الخاصة بأولئك الأنبياء الأجلاّء الذين مرّوا على التاريخ من بني إسرائيل يتبع بعضهم بعضاً، ولأخذته ثانياً مشاعر الغيرة منهم أو الحسد، أو اعتراه ما يعتري الناس عادة من أحاسيس المنافسة. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل الذي كان هو موقفه منهم جميعاً موقف المعترف بأفضالهم على أقوامهم والمتحدث عن سيَرِهم الجهادية الرائعة المعتزّ بهم والمقتدي بأخلاقهم والقاص لآثارهم. ولا غرو فهو موقف الأخ المحب والمشارك لهم في مسيرة الاصلاح والنضال على صراط الله الذي أمره بالسير عليها تظلله أنواره وتهديه..

موقفه ﷺ من بعض ما نسب اليهم في التوراة التي بين أيديهم:

والذي يؤسف، ويحمل في الوقت نفسه على الدهشة والاستغراب، ما نقرأه في التوراة التي بين أيديهم اليوم من أخبار عن بعض أنبياء بني إسرائيل، تضع من

---

(١) البداية والنهاية، الجزء الثاني، ص ٥٩ .

(٢) البداية والنهاية، الجزء الثاني، ص ٩٦ .

أقدارهم وتسقط مكانتهم بين الناس حتى عن مستوى بعض الناس العاديين، وهم الذين آصطفاهم الله لأعلى المقاصد وأسمى المهام وجمّلهم بأحلى الخصال وأرفع الصفات والكمالات الخلقية والفكرية والنفسية.

١ - ومن هذه الأخبار ما أوردته التوراة عن لوط عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه: «خرج من صوغر وسكن في كهف الجبل، ومعه آبنتاه. فقالت الصغرى للكبرى قد شاخ أبونا فأرقدينا معه لنأخذ منه نسلاً. فرقدت معه الصغرى ثم الكبرى، ثم فعلتا في الليلة الثانية مثل ذلك وكانتا قد سقتاه الخمرة. وحملتا منه بولدين هما موآب وعمون»[١].

هذا ما احتملته هذه التوراة من بعض أخبار لوط الجليل هذا الذي يقول فيه كتابنا العزيز: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين، إذْ قال لهم أخوهم لوط ألاَ تتّقون. إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر، إنْ أجْريَ إلاّ على ربّ العالمين. أتأْتونَ الذُّكْران من العالمين، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون، قالوا لَئِنْ لم تنتهِ يا لوطُ لتكونَنّ من المُخْرَجين. قال إني لِعَمَلِكم مِنَ القالين. ربِّ نجّني وأهلِي مما يعملون. فنجّيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً من الغابرين﴾[٢].

ولقد بلغ الفساد بقوم لوط أن آنتهوْا الى ما حكاه الله عنهم في هذه الآيات من الخزي، والتمزّق الأخلاقي. وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً أن الملائكة وَجَدت على لوط حين قال ما قال وبخاصة قوله: ﴿.. لو أن لي بكم قوة أوْ آوي الى ركنٍ شديد﴾[٣] وقالوا له: ﴿يا لوط إنا رُسُل ربك لن يصلوا إليك فأسْرِ بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ولا يلْتفت منكم أحد إلا امرأتك، إنه مصيبها ما أصابهم، إن موعدهم

---

(١) تكوين ١٩: ٣٠ - ٣٨.
(٢) الشعراء ١٦٠ - ١٧١.
(٣) هود ٨٠.

الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مُسَوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾[1].

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَرْحَمُ الله لوطاً لقد كان يأوي الى ركن شديد».

ثم يقول الله تعالى في لوط: ﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين وادخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾[2].

٢ ـ ومما ورد في هذه التوراة عن ابن يعقوب رأوبين أكبر اولاده «أنه لما سكن يعقوب بذلك الموضع مشى آبنه رأوبين، وهو أكبر أولاده فضاجع سُرِّية أبيه يعقوب»[3].

٣ ـ وفيها أيضاً أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنّته «تامار» امرأة ولديه، وقد هلكا عنها واحداً إثر الآخر، فردّها يهوذا الى بيت أبيها ووعدها بتزويجها للولد الثالث المسمّى «شيلة» إذا كبر ولما ماتت امرأة يهوذا، وانتهت أيام العزاء تصدّت «تامار» ليهوذا وهو في طريقه الى غنمه، وسترت وجهها فظنها بغيّاً فعدل إليها ودعاها الى نفسه. فسألته أجراً فوعدها بجدي من غنمهِ. فطلبت منه رهناً فأعطاها خاتمه ومنديله وعصاه، وواقعها بزعمهم فحملت منه. ثم إن يهوذا أرسل رسولاً بالجدي ليطلب رهنه. فلم يجد المرأة فجاء بنفسه الى أهل القرية وقال لهم: أين قحابكم [وهي المرأة الفاجرة] المتطلّبة على الطريق. قالوا ما كان منا على الطريق قحباء. ثم إنه قيل له بعد حين: إن كنّتك «تامار» حبلى، فقال تحرق بالنار فأخرجت لتحرق. فقالت: إنما أنا حاملٌ منه، وهذا رهنه بيدي حين زنى بي.

---

(١) هود ٨١ ـ ٨٣.
(٢) الأنبياء ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) تكوين ٣٥: ٢٢.

فلما رأى يهوذا الرهن فكر ثم قال هي أصدق مني »[1].

٤ ـ وفيها أيضاً أن « دِيْنَـه » بنـت يعقـوب قـد اغتصبهـا شكيم بـن حمور الحِوّي[2].

وآنظر بعد، ماذا يقول القرآن الكريم في ابراهيم وآل بيته المكْرمين وقارن إن شئت بين الموقفين والمعاملتين. يقول الله تعالى: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد﴾[3]. ويقول في يعقوب وآله ﴿.. ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحاق﴾[4].

٥ ـ وقد جاء في هذه التوراة أن الله تعالى قد قال لموسى عليه السلام لما تجلّى عليه في سيناء « أدخل يدك في جيبك وأخرجها مَبْروصةً كالثلج »[5] يريد أن يعطيه بذلك آية لفرعون تقنعه بنبوّة موسى. ولكن متى كان البرص وهو مرضٌ مخيف يتخذه الله تعالى آية لرسله الذين يرسلهم الى خلقه أو الى ملوكهم. أو ليس المطلوب في مواجهة الرسول للناس ملوكاً وسوقة هو ترغيبهم وسوق الأدلّة والبراهين المشجعة؟ وهل في البرص ما يشجع أو فيه ما ينفّر؟! ولا شك أن في هذا التعبير خطأ. ولعلّـه ثمرة مـداخلـة الأيـدي البشريـة في النـص المقـدس. بيد أن القرآن الكريم عندما جاء يقص علينا خبر هذه الآية، ذكرها بما لا يوحي إلا بالثقة والطمأنينة وأن الكلام هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، ولا يصيبه التحريف. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾[6].

---

(١) تكوين ٣٨ : ٦ ـ ٢٢.
(٢) تكوين ٣٤ : ١ ـ ٣.
(٣) هود ٧١.
(٤) يوسف٦.
(٥) خروج: ٤ : ٦.
(٦) النمل ١٢.

ولقد قال الفخر الرازي: «لقد كنّى الله تعالى بالسوء عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة. والبرص أبغض شيء الى العرب فكان جديراً بأن يكنى عنه. ويروى أنه عليه السلام كان شديد الأدمة فكان اذا أدخل يده اليمنى في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق قيل مثل الشمس من غير برصٍ ثم اذا ردّها عادت الى لونها الأول بلا نور»[1].

٦ - وورد في التوراة أيضاً أن الله تعالى سخط على الأمة بسبب العجل الذي عمله لهم هارون[2]. صنعه لهم بالأزميل. وكأنه عليه السلام هو الذي وجههم الى تعظيم العجل وعبادته من دون الله تعالى. مع أن هارون هو نبي وهو أخ لسيدنا موسى، وقد أرسله الله تعالى له ليكون له وزيراً وردئاً. فهل يعقل أن يكون النبي هو الذي يشجع قومه على عبادة العجل من دون الله!! إن الدعوة الى عبادة العجل، وإن صناعة العجل لذلك كليهما من عمل الشيطان. ورسول الرحمن لا يلتقي عمله مع عمل الشيطان في شكل من الأشكال!!

ولذلك فإن القرآن الكريم يدافع عن هارون ويسوق قصة عبادة الاسرائيليين للعجل فيقول: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى. قال هم أولاء على أثري، وعجلت اليك ربّ لترْضى، قال فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامري. فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً. قال يا قوم ألَمْ يَعِدْكمْ ربُّكم وعداً حسناً. أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يَحلّ عليكم غَضَبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي. قالوا ما أخْلَفْنا موعدك بِمَلْكِنا ولكنّا حُملنا أوْزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلاً جسداً له خُوار. فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فَنَسي. أفَلاَ يَرَوْن ألاّ يَرْجعُ إليهم قَوْلاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً. ولقد

---

(١) تفسير الفخر الرازي، الجزء الثاني والعشرون، ص ٢٩.

(٢) خروج: ٣٢ - ١٩.

قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتِنْتُم به وإن ربكم الرحمٰن فاتّبِعوني وأطيعوا أمري﴾[1].

وهل يجوز من نبي بعثه الله تعالى الى قومه ليهديهم الى الله ويعبدوه حق العبادة أن يخون الأمانة، ويخالف الأمر ويضع لقومه عجلاً ليتخذوه لهم إلاهاً من دون الله؟! والله تعالى هو الذي يقول في القرآن الكريم: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأَخَذْنَا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾[2].

يقول ابن القيم: «ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلاههم حتى جعلوه إلٰه موسى، فنسبوا موسى عليه السلام الى الشرك وعبادة غير الله، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعاً عن نفسه بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل... ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالاً مخطئاً فقالوا: «فنسي..» قال ابن عباس: «أي ضل وأخطأ الطريق»... وفي رواية عنه أيضاً «نسي أن يذكر لكم أن هذا إلاهه وإلاهكم» وقال السُّدِّي: «أي ترك موسى إلاهه ها هنا وذهب يطلبه»... ويقول السدّي «لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني اسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحُلِيّ من القبط. فلما نجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل الى موسى ليذهب به الى الله، فأقبل على فرسٍ فرآه السامريُّ فأنكره، ويقال: انه فرس الحياة، فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس. فانطلق موسى عليه السلام واستخلف هارون على بني إسرائيل. وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر. فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تَحِلُّ لكم، وان حُلِيَّ القبط إنما هو غنيمة فاجمعوها جميعاً واحْفروا

(١) طه ٨٣ - ٩٠.
(٢) المعارج ٤٤ - ٤٧.

لها حفرة فادّفنوها ؛ فإن جاء موسى فأحلّها أَخَذْتُموها [وإلا كان شيئاً لم تأكلوه] فجمعوا ذلك الحُلِيّ في تلك الحفرة ، وجاء السامريّ بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحُلِيّ عجلاً جسداً له خوار . [وعدّت بنو إسرائيل موعد موسى ، فعدّوا الليلة يوماً واليوم يوماً ، فلما كان تمام العشرين أخرج لهم العجل] فلما رأوْه قال لهم السامري (هذا إلهكم وإلاه موسى فنسي) ... فعكفوا يعبدونه ، وكان يخور ويمشي فقال لهم هارون : يا بني إسرائيل (إنّما فُتِنْتُم به) أي إنما ٱبْتُلِيتُم بالعجل (وإن ربكم الرحمٰن) .. فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل » حتى جاء موسى وكان الذي قصه الله تعالى في سورة طٰه وأوردنا قسماً منه سابقاً .

ويقول الأستاذ محمد حامد الفقي تعليقاً على هذه القصة : « وهذه الروايات ليس فيها شيء مُسندٌ الى رسول الله ﷺ . وظاهر من سياقها أنها إسرائيلية . وظاهر فيها التكليف . والأقرب الى معنى القرآن وأسلوبه ـ والله أعلم ـ أن السامري كان صانعاً ومثّالاً يصنع تلك الصور والتماثيل في مصر للعجول وغيرها . وأنه كان كنوداً حسوداً يحسد موسى على ما وهبه الله من النبوّة والرياسة بالحق على بني إسرائيل . فانتهز فرصة ذهابه لميقات ربّه ، وقال لبني إسرائيل : إن ما تحملون من حُلِيّ القبط عليه من صور آلهتهم ومعبوداتهم وذلك مشاركة لهم في وثنيّتهم فاجمعوا ذلك وألقوه عنكم ، فجمعوه وأعْطَوْه إياه . فأخذه وصاغه بصنعته الهندسية على صورة العجل ، واحتال عليه حتى جعله يخرج الريح من فمه كشبه خوار العجل ، مثل الذي يصنعه اليوم أصحاب السيارات في نفيرها الذي ينبّهون به ، على أصوات مختلفة . ثم أخرجه الى بني إسرائيل وقال لهم : « هذا إلهكم وإله موسى وقد نسي أن يأمركم بعبادته ، وأنا أبلغكم عنه ذلك . يقول السامريّ هذا ويفعله يبتغي الرياسة على بني إسرائيل بالباطل والكفر . فعكفوا عليه يعبدونه طاعة للسامري حتى جاء موسى غضبان أسفاً وقال للسامريّ : (ما خَطْبُك يا سامري ؟ قال : بَصُرْت بما لم يبصروا به) أي من فنّ الهندسة والصياغة ، فصنعت لهم هذا العجل ، وقد كنتُ قبضت قبضة من أثر الرسول ، ولم يقل من أثر المَلَكِ ،

ولا من أثر جبريل. وليس ثم رسول إلا موسى. يقول: أَخَذْتُ قليلاً من أثرك يعني من دينك الذي تأثره عن ربّك. ولكن ذلك الدين لم يصل الى قلبـي ولم يجاوز يَدي. وقد كان ما أخذته قليلاً قدر ما يقبض الإنسان في يده شيئاً بسيطاً من الطعام ونحوه. ثم طرحت ذلك ونبذته وكفرت بك وبما جئت به حسداً لك على ما أوتيت من هذه الرياسة. ويدل على ذلك قوله « فنبذتها » فإنما النبذ يقال لطرح الشيء المكروه أو الحقير الممتّهن. وما يذكر في الروايات الاسرائيليّة يدل أنه كان معتزاً بما قبض من أثر فرس جبريل ومكرّماً له فلا يناسبه التعبير بالنبذ. هذا وينبغي أن يفهم قصص القرآن الكريم بنص الآيات فقط، بعيداً كل البعد عما يروى في ذلك من الاسرائيليات. وإن كان قد رواه ابن جرير وابن كثير أو غيرهما. اللهم إلا اذا كان ذلك عن الرسول ﷺ. فينظر في الرواية، فإن صحت فعلى العين والرأس، وإن لم تفهمها عقولنا القاصرة، فإن قلوبنا المؤمنة تطمئن إليها ولا تجد لها أدنى حرج. أما اذا كانت ضعيفة السند أو واهية، فإنها تضاف الى الاسرائيليّات. وإنما كان ذلك لما يروى عن الرسول لأنه لا يكون من عند بشريته. وإنما يكون من إيحاء الله. أما ما كان عن الصحابة فهو بلا شك من بشريّتهم وأفهامهم أو من مسموعاتهم من مسلمة بني إسرائيل: أمثال كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأمثالها والله أعلم بما أصاب التفسير من أقوالها وقصصها، بل وبما أصاب الاسلام كله ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١].

على أن هذا الرأي قد سبق وعرضه الامام الفخر الرازي نقلاً عن الامام أبي مسلم الاصفهاني، ودار حوله نقاش علمي رائع بين مجموعة من العلماء تحبّذه وأخرى تعارضه وتشجبه. ولكن الامام الرازي رجحه وقال فيه: « واعلم أن هذا القول الذي قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسّرين ولكنه أقرب الى التحقيق »[٢].

---

(١) اغاثة اللهفان، لابن القيم، الجزء الثاني، ص ٣٠٢ – ٣٠٤، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) تفسير الفخر الرازي، الجزء الثاني والثلاثون، ص ١١٢، طبعه عبد الرحمن محمد.

٧ ـ ثم إن هذه التوراة تذكر أيضاً أن موسى عليه السلام قد أمر قومه بأخذ أموال جيرانهم من أهل مصر على طريق العارية، فلما استحصلوا عليها قال لهم اهربوا بها ففعلوا، وقالوا هي أجرة سخرتنا[١]. فهل يمكن لمثل من له شبيه منزلة موسى عليه السلام أن يقول أو يفعل مثل هذا؟ وهل لقوم موسى عليه السلام أجرة لدى سكان مصر من أهل جوارهم، أو أن الحقيقة هي أن أجرتهم هي على فرعون وأركان مملكته؟... إن هذا الفعل يتناقض مع قواعد الشرائع الأرضية فضلاً عن شرائع السماء. ويأبى أن يأتيه أقل عقلاء الارض مكانةً خوفاً من أن يقع في الظلم أو يصيب ما لا يملك الوقوع عليه.

ومن أجل هذا فإن رسول الله ﷺ كانت لديه قبل هجرته من مكة ودائع استأمنه عليها بعض مشركي مكة، فلما أذن الله تعالى له بالهجرة لم يشأ أن يهاجر الى المدينة إلا بعد أن ضمن إعادة الأمانات الى أصحابها، فالله تعالى يقول ﴿إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها﴾[٢].

٨ ـ وورد في التوراة أن داوود عليه السلام آطلع يوماً من قصره فرأى آمرأة من نساء المؤمنين تغتسل في دارها فعشقها وبعث إليها وحبسها أياماً عنده حتى حبلت منه ثم ردّها. وكان زوجها وآسمه أوريا غائباً في العسكر. فلما علمت المرأة بالحمل أرسلت بخبره الى داوود، فبعث داوود الى يوآب قائده على العسكر يأمره بأن يبعث إليه بأوريا. فجاءه وسقاه الخمر حتى سكر. ثم أمره بالانصراف إلى أهله ليواقعها لينسب الحمل إليه. ولكن أوريا فهم ذلك وتخابث عليه ولم يفعل. فلما يئس داوود منه ردّه الى العكسر وأمر قائده بأن يقذفه في المعركة. ففعل، فقتل مع سبعة آلاف من الجند. فلما بلغ ذلك داوود سرّ بموت أوريا وهانت عليه بسبب اشباع أهوائه دماء آلاف المؤمنين»[٣].

---

(١) خروج ٣: ١٥ ـ ٢٢.
(٢) النساء ٥٨.
(٣) صموئيل ١١: ٢ ـ ٢١.

٩ ـ وفيها كذلك أن ابن داوود «أمنون» عشق «تامار» أخته وأنه آغتصبها، وأنها شكت ذلك الى أخيها الثاني «أيشالوم» فهوّن الأمر عليها ثم قتل أخاه «أمنون». وأن «أيشالوم» هذا ثار على أبيه داوود وأخرجه من قصره، ودخل الى نسائه فوطئهن كلّهن على أعين بني إسرائيل مبالغة في الانتقام من أبيه»[١].

١٠ ـ وتسوق التوراة هذه عن سليمان بن داوود من الأخبار ما هو غريب عجيب، فتقول إنه ختم عمره بعبادة الأصنام والشجر وأن نساءه قد سبت دينه[٢].

ولكن القرآن الكريم لم يقبل مثل هذه الدعاوى المنسوبة الى داوود وأولاده جميعاً أصلاً، بدليل أنّه جاء، وهو الصادق الذي لا يرقى الى كلامه شك، يثني عليهم جميعاً ويعدد محامدهم ويضفي عليهم أجمل الصفات وأطيب الحديث. وفي هذا المدار يقول عن داوود: ﴿وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء﴾[٣]. ويقول: ﴿ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبالُ أوّبي معه والطير وألَنّا له الحديد﴾[٤] ويقول ﴿واذكر عبدنا داوود ذا الأيْد إنّه أوّاب، إنا سخرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق والطيْر محشورة كلٌّ له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

ولقد سقط بعض العلماء ببعض شباك الظلمة المفترين من اليهود، فجروا وراء أقوالهم آنخداعاً بعد أن زينوها لهم وأوهموهم بنسبتها الى رسول الله ﷺ وتصديق ما أوردته التوراة من خبر عشق داوود لأمرأة أوريا وزناه بها. ولكن أجلة العلماء من القدامى والمحدثين أجمعوا على رفض هذه القصة والحكم عليها بأنها من تلفيقات الاسرائيليين وما أكثرها.

---

(١) صموئيل ١٣، ١٥، ١٦.
(٢) سفر الملوك ١١: ١٠ ـ ١٣.
(٣) البقرة ٢٥١.
(٤) سبأ ١٠.

يقول ابن حزم في الفصل: «وما حكاه تعالى عن داوود عليه السلام قول صادق صحيح لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود.... وتالله إن كل آمرىء منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرّض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفسّاق المتمرّدين، لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داوود الذي أوحى الله إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه؟ لقد نزّهه الله عزّ وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيفه إلى أفعاله».

وقال البرهان البقاعي في تفسيره «وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود». ثم قال، «وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمّدون ذلك في حق داوود لأن عيسى عليه السلام من ذرّيته ليجدوا سبيلاً الى الطعن فيه».

ويقول ابن كثير: «قد ذكر المفسّرون ها هنا قصةً أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب آتباعه» وقال القاضي عياض في «الشفا» وأما قصة داوود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت الى ما سطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيّروا ونقله بعض المفسّرين ولم ينصّ الله على شيءٍ من ذلك ولا ورد في حديث صحيح... وقال الداوودي ليس في قصة داوود وأوريا خبر يثبت..

وقد روى الزَمَخْشري أن عمر بن عبد العزيز حدث بنبأ داوود على ما يرويه القصاص، وعنده رجل من أهل الحق، فكذّب المحدّثَ به، وقال إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يُلتمس خلافها. وأعظِمْ بأن يقال غير ذلك. وإن كانت على ما ذكرتَ وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه فما ينبغي إظهارها عليه. قال عمر: لَسَماعي هذا الكلام أحبّ الي مما طلعت عليه الشمس....

وقال الناصر في «الانتصاف» وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام داوود وغيره، منزّهون من الوقوع في صغائر الذنوب مبرّؤون من ذلك[1]...

هذا وقد جاء في الصحيحين عنه ﷺ الثناء كل الثناء على صلاة داوود عليه السلام وكذلك على صيامه. ومن يكن هذا شأنه في عبادته لله، إضافة الى ما أخبر الله عنه، فكيف تراوده نفسه أن يذكر عنـه أمـامهـا مـا لا يليـق بصـالحي الناس؟ وهو يقول: «أحب الصلاة الى الله صلاة داوود وأحب الصيام الى الله صيام داوود». وأخبرتنا الآثار عنه أنه كان يقتدى به في العدل وكثرة العبادة وأنواع القُرُبات والطاعات، حتى أنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليـل وأطـراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً. يقول الله تعالى: ﴿اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾[2].

أما سليمان عليه السلام، فقد قال الله تعالى فيه: ﴿ووهبنا لداوود وسليمان نعم العبد إنّه أوّاب﴾[3]. ويقول: ﴿وان له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[4] وفي تفسير ابن كثير عنه ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن عفريتاً من الجنّ تفلت علي البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تعالى منه وأردت أن أربطه الى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام (رب آغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب)[5] وفي هذا القول ما فيه من تكريم سليمان وتقدير مكانته عند الله تعالى. ومثل من تكون هذه منزلته لا يقال عنه إنه ختم عمره بعبادة الأصنام وغير ذلك..

---

(١) عن تفسير القاسمي، الجزء الرابع عشر، ص ١٦٠ وما بعدها.
(٢) سبأ ١٣.
(٣) ص ٣٠.
(٤) ص ٣٠ و٤٠.
(٥) تفسير ابن كثير، الجزء السادس، ص ٦٤.

وهذا وغيره قليل من كثير ورد في التوراة عن أنبياء بني إسرائيل وهو ما لا يقره دين ولا خلق ولا سلوك صالح. ولقد أوردنا موقف الرسول ﷺ منه وأبنّا ما فيه من انحراف عن خط السماء وسبيل الهدى والحق.

موقفه ﷺ من المعتقدات والشرائع اليهودية:

ولقد لفتنا النظر من قبل الى طرف من معتقدات اليهود وشرائعهم وأوضحنا أنها لم تعد هي وحدها التي جاءت بها التوراة التي بين أيديهم، بل غدت تشمل معها أيضاً ما قد زاده لهم أسلافهم الفقهاء بما صنّفوه لهم من الكتب التي أهمها كتابان هما: «المشنا» ويبلغ حجمه نحو ثمانمئة ورقة «والغامارا». وهما يفسّران التوراة ويتألف من مجموعها التلمود، الذي يكاد يوازي حمل بعير.

ولم يكن المؤلفون لهما من عصر واحد، بل من عصور مختلفة وأجيال متباعدة. وقد نظر متأخروهم فرأوا أنه كلما تقدّم الزمان زادوا فيهما، وأن الزيادات المتأخرة قد حوت ما ينقص بعض السابق عليها. فبدا لهم أنهم اذا لم يقفلوا هذا الباب فسيصلون الى وضع خطير وسينتهي بهم حالهم الى خلل فاحش في الدين. فحظروا ذلك على فقهائهم ووقف الأمر عند هذا الحد[1].

وندرك من هذا أن معتقداتهم وشرائعهم قد توسعت كثيراً وتجاوزت حدود ما أنزله الله منها عليهم بواسطة أنبيائهم. ومفهوم هذا أيضاً أن كتابهم التوراة لم يعد يحتفظ بحاله الذي أنزل عليها، وبخاصة بعد احتراقه[2]. فقد أصبح فيه وهو كتاب التوحيد في الأصل ما لا يجوز نسبته الى الله تعالى.

١ - إنهم ينسبون الى الله تعالى، وهو الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء، ومالك الملك؛ ينسبون اليه أنه استراح في اليوم السابع من خلق السماوات

---

(١) هداية الحياري، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) هداية الحياري، ص ١١٢.

والأرض. وقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ ما يكذّب هذا الزعم فيقول: «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لُغوب، فاصْبر على ما يقولون وسبّح بحَمْد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» (١).

٢ ـ ووصفوه تعالى بالفقر والاحتياج، بينما يصفون أنفسهم بالغنى واليسر. وقالوا عن رب العزة بأن يده مغلولة.. وقد ردّ الله تعالى عليهم قالتهم هذه فيما أنزله على النبي من القرآن الكريم فقال: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ وقال: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾(٢).

٣ ـ ونسبوا الى الله تعالى أنه قد عهد إليهم بأن لا يؤمنوا برسول إلا اذا جاءهم بقربان تأكله النار فأنزل الله تعالى ما يجبه هذه الدعوى ويردها عليهم فيقول: ﴿قلْ قد جاءكم رُسُلٌ من قبلي بالبيّنات وبالذي قلتم، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾(٣).

٤ ـ وزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودة. وقد أجاب الله تعالى على هذا الزعم بقوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذّبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشرٌ ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير﴾(٤). ويقول أيضاً: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. قل إن

---

(١) ق ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) المائدة ٦٤.
(٣) آل عمران ١٨٣.
(٤) المائدة ١٨.

الموت الذي تفرّون منه فإنه مُلاقيكم ثم تردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون﴾[1].

٥ ـ وقد أنزلت التوراة التي بين أيديهم، الله تعالى منزلة الإنسان فوصفته بما يوصف به وجعلت له جوارح ومشخّصات جسدية. وأخبرت عنه بأنه يمشي، وانه ينزل ويصعد ويرحل ويقيم ويحزن ويبكي ويندم وغير ذلك دون أن يقارن ذلك ما يشعر بأنه على سبيل المجاز وليس على سبيل الحقيقة.

ولقد ورد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بالاستواء والمجيء وأن له يدين ووجهاً. كما ورد في الحديث أوصاف أخرى غير ذلك مثل أن له أصابع، ولكن ذلك كله قد استدرك في القرآن، كما استدرك في الحديث، بما يؤكد أن ذلك على سبيل التقريب والتوضيح، وإن الحقيقة هي أن الله تعالى منزّه عن كل ما هو من خصائص الإنسان. فاستواء الله تعالى ليس كاستوائنا ويداه ليست كأيدينا ووجهه ليس كوجهنا وأصابعه ليست كأصابعنا وهكذا وهو سبحانه قد وصف نفسه فقال: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[2]. قال السيوطي « في الأكليل » « في الآية ردّ على المشبهة. وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حال في مكان ولا زمان ». ويقول القاسمي تذييلاً على هذا القول « وكان حقه أن يتم الاستنباط فكما أن صدر الآية فيه ردٌّ على المشبهة، فكذا تتمّتها وهو قوله تعالى: ﴿وهو السميع البصير﴾ ردٌّ على المعطّلة. ولذلك كان أعدل المذاهب مذهب السلف. فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه »[3].

ثم إن الله تعالى وصف نفسه في آية أخرى فقال ﴿لا تدركه الأبصار وهو

---

(١) الجمعة ٦ ـ ٨.
(٢) الشورى ١١.
(٣) تفسير القاسمي، الجزء الرابع عشر، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

يدرك الأبصار﴾[1] وقال أيضاً ﴿سبحان الله عما يصفون﴾.

ولئن كان إذن قد ورد في القرآن أو السنة ما يفيد آتصاف الله جل وعلا بأوصاف يطلق مثلها على الإنسان، فقد ورد أيضاً في القرآن والسنة، ما يفيد وجوب حمل ذلك على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى وتنزيهه عما يشابه البشر في شيء . . .

اليهود وعيسى وأمه مريم وكتابه الانجيل:

واليهود ينكرون بعثة عيسى عليه السلام ويرفضون الاقرار بأنه هو المسيح الذي بشرت به التوراة والذي ما فتئوا ينتظرونه[2] من بعيد. وهم يقولون في عيسى إنه ابن يوسف النجار من الزنى[3] وينسبون الى والدته البتول بهتاناً عظيماً وأنه ضال ومُضِل، وهم أيضاً لا يعترفون بأن الانجيل كتاب مقدس كالتوراة سواء بسواء.

موقف النبي ﷺ من ذلك:

وقد جاء القرآن الكريم فانصف السيدة مريم عليها السلام وبرّأ ساحتها، وأضفى عليها أكرم الصفات وأزكاها فقال فيها: ﴿ما المسيح آبن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صدّيقه كانا يأكلان الطعام. أنظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم آنظر أنّى يؤفكون﴾[4].

ولقد تكلم الامام الرازي في قوله تعالى ﴿وأمه صديقه﴾ فنقل فيه ثلاثة وجوه أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها. قال تعالى: ﴿وصدقت

---

(١) الانعام ١٠٣.
(٢) الجواب الصحيح، لابن تيمية، الجزء الأول، ص ٣٧٨.
(٣) في ظلال القرآن سيد قطب، الجزء السادس، ص ١٨.
(٤) المائدة ٧٥.

بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ فلما كلّمهـا جبريـل وصـدقتـه وقـع عليهـا اسم الصديقة. وثالثها: أن المراد بكونها صدّيقة غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدهـا واجتهادها في إقامة مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صدّيقاً. قال تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين﴾[1].

وقد قال بعض العلماء: ليس يعلو على مقام الصدّيقية إلا مقام النبوّة بحيث إن من تخطّى مقام الصدّيقيّة حصل في مقام النبوّة. ولذلك فإن الله تعالى لم يجعل بين مرتبتي النبوة والصدّيقية مرتبة أخرى تتخللها.. ولقد قال الجنيد: «حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك فيه إلا الكذب» وقال المحاسبي: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قَدْر له في قلوب الخلق من إجل إصلاح قلبه، ولا يُحبّ اطّلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطّلع الناس على السيّيء من حاله، لأن كراهته لذلك دليل على أنه يُحبّ الزيادة عندهم وليس ذلك من أخلاق الصديقين[2].

ثم يقول الله تعالى في مريم أيضاً: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك وآصطفاك على نساء العالمين﴾[3].

ويقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: «إعلم أن مريم ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى﴾ واذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام اليها، إما أن يكون كرامة لها وهو مذهب من يجوّز كرامات الأولياء أو إرهـاصـاً لعيسى عليـه السلام..» إلى أن يقول: «والنوع الأول من الاصطفاء هو أمور: «أحدها» أنه تعالى قَبِل تحريرها

---

(١) الفخر الرازي، الجزء الثاني عشر، ص ٦٤.
(٢) القاسمي، الجزء السادس، ص ٣١٩.
(٣) آل عمران ٤٢.

مع أنها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث. «وثانيها» قال الحسن إن أمها لما وضعتها ما غذّتها طرفة عين، بل ألقتها الى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنّة. «وثالثها» أنه تعالى فرّغها لعبادته وخصّها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة. «ورابعها» أنه كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى: ﴿أنّى لَكِ هذا قالت هو من عند الله﴾. «وخامسها» أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها ولم يتَّفق ذلك لأنثى غيرها. فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول. وأما التطهير ففيه وجوه: «أحدها» أنه تعالى طهّرها عن الكفر والمعصية. فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ «ويطهركم تطهيراً». «وثانيها» أنه تعالى طهّرها عن مسيس الرجال. «وثالثها» طهّرها عن الحيض. «ورابعها» طهّرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة. «وخامسها» طهّرها عن فعالة اليهود وتهمتهم وكذبهم. وأما الاضطفاء الثاني فالمراد منه أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال آنفصاله منها حتى شهد بما يدلّ على براءتها عن التهمة وجعلها وابنها آية للعالمين»[1].

ثم أنه أيضاً أطلق آسمها على سورة كاملة من القرآن الكريم، هي سورة مريم أورد فيها قصتها من ساعة أن جاءها المَلَك جبريل عليه السلام ونفخ فيها من روح الله حتى أكّد في الخاتمة براءتها، وأن ولادة عيسى كانت ثمرة معجزة من الله تعالى، وأنه تعالى ما كان له أن يتخذ من ولد وأنه ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون﴾[2].

وإذا كان هؤلاء اليهود قد تجرّأوا على مقام السيدة مريم فبهتوها بالزنى ونسبوا آبنها إليه وهو رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه، فهم بالتّبع ينكرون رسالة المسيح عليه السلام أصلاً ويجحدون أن يكون قد حمل إليهم من الله

(١) الفخر الرازي، الجزء الثامن، ص ٤٧.
(٢) مريم ٣٥.

كتابه الإنجيل ولا يعترفون به مطلقاً.

وعلى النقيض منهم يأتي الرسول ﷺ وبعد زهاء ستمئة سنة، فيصدّق بظهور أولي العزم من الرسل وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل؛ يصدّق بابراهيم وإسحاق ويعقوب واسماعيل وموسى وداوود وسليمان وعيسى عليهم السلام، ويصدّق بما حملوه من صحف وكتب فيؤمن بالتوراة والزبور والانجيل إضافة الى تكريمه للسيدة مريم وتنزيهها مما نسبوا اليها من الوصف فيقول الله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل الى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾(١)

وسبق ذكر الآيات التي تنص صراحة على تصديق الرسول ﷺ بالتوراة والانجيل، وانّهما كتابان أوحى بهما الله تعالى؛ أوحى بالأول الى موسى، وأوحى بالثاني الى عيسى عليهما السلام. وكلّ هذا يكشف قيمة الدور العظيم الذي كان لا بد من أن يقوم به محمد ﷺ عندما شاء الله تعالى أن يكشف على لسانه الحق ويجلّي ما غمض منه بفعل بني إسرائيل وتلاعبهم بكتب الله وآعتدائهم على أنبيائه.

اليهود والتوراة وموقف النبي ﷺ:

ولم يقتصر عدوان هؤلاء على أنبياء بني إسرائيل، وعلى مريم وعيسى عليهم السلام وعلى الانجيل، بل المذهل أنهم حتى كتابهم الذي يبدو أنهم يؤمنون به ويقدّسونه، وشتان بين إيمان وإيمان، لم ينج من أن تناله أيديهم بالتبديل والتغيير. ولقد سبق وتناولنا هذا الموضوع. بيد أننا نزيد هنا بأن كلمة التوراة تعني التعليم وتشمل في أول أمرها شريعة موسى أو أسفاره الخمسة. ولكنها مع الزمن صارت تشمل أسفاراً أخرى لأنبياء بني إسرائيل، وأسفاراً تتعلق بتاريخ اليهود وأسفاراً أدبية وشعرية.

---

(١) البقرة ١٣٦.

على أن الزمن المتمادي بين يوم ظهور موسى عليه السلام الى يوم السبي ثم العودة منه هو ما يقرب من ألف سنة. وقد جمعت التوراة على يد عَزْرا الكاتب المعروف في الاسلام باسم «عُزَيْر» الوارد اسمه هذا في سورة البقرة من القرآن الكريم. وقد كان الجمع بعد العودة من السبي. ولقد كان عدد الأسفار هذه في القرن المسيحي الأول في زمن يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير آثنين وعشرين سفراً. وهي التي تسمى «العهد القديم» ولكن عددها هذا آل اليوم الى تسعة وثلاثين سفراً. تشمل الأسفار التاريخية والشعرية وأسفار الأنبياء[1] كما تقرّها الطائفة البروتستنتيّة.

ولقد كتب أصلاً على رقاع من الأديم أو الجلد. وكتبت كلّها بالعبريّة ما عدا شيئاً قليلاً من سفري عزرا ودانيال كتب بالآرامية[2]. ومن كلمات هالي صاحب التوراة المختصرة: «أن الظاهر في بعض الحالات كانت تحشيات النسّاخ وتعليقاتهم وشروحهم تلحم بالنصّ الأصلي وتدمج به على يد ناسخٍ بعد ناسخ»[3].

ولقد آلت التوراة بعد ظهور التلمود أثراً مقدساً. ووجد اليهود في التلمـود، وهو الشريعة الشفوية التي تركها موسى إلى جانب التوراة كما يزعمـون[4]، مجالاً واسعاً وتربة خصبة للزيادات على الشريعة أو التوراة حتى بعد ظهور الإسلام الى أن بلغوا في ذلك حدّاً صار معه التلمود مغلقاً فاضطروا للعودة الى آختصاره.

ولقد آعتبر موسى بن ميمون اختصاره هذا آخر ما صنع في سبيل تسهيل التلمود الذي أصبح اليوم بأصوله ومتونه وشروحه وتعليقاته يبلغ ستة وثلاثين مجلداً من القطع الوسط[5].

ولا يزال هذا التلمود حتى الآن بعيداً عن متناول العرب مسلمين ومسيحيين

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، الجزء الثاني، ص ٢ ـ ٤.

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون، الجزء الثاني، ص ٢٠.

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون، الجزء الثاني، ٢٠.

(٤) بروتوكولات حكماء صهيون، الجزء الثاني، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٥)

وذلك إما بفعل اليهود أنفسهم أو لاعتقاد العرب أنه بضاعة قديمة بالية لا تستحق الاهتمام وصرف الجهد فيها..

ولقد تفنّن اليهود في هذا التلمود على مرّ القرون الطويلة، وسلكوا فيه تزوير شريعة موسى عليه السلام أو التوراة الحقيقية كل سبيل. حتى قالت فيه مجلة المقتطف كما نقله كتاب بروتوكولات حكماء صهيون: «اليهود يضعون التلمود فوق التوراة والحاخام فوق الله [استغفر الله] والله يقرأه وهو واقف على قدميه. وما يقوله الحاخام يفعله الله. وإن تعاليم اللاهوتيين في التلمود لهي أطيب من كلام الشريعة. والخطايا المقترفة ضد التلمود لهي أعظم من المقترفة ضد التوراة»[1].

ولقد أجاز الربّانيّون لليهودي كل شيء في هذا التلمود؛ أجازوا له أكل الربا من غير اليهودي وسرقته والتصرّف بممتلكاته، والاستفادة من خيرات أمم الأرض. كما أجازوا له من الأقوال والأفعال والمعتقدات ما هو كفر بواح، وخروج عن منطق البشر. بل وما يخجل العاقل من سرده أو تناوله في حديث.

وإذا وصل الأمر بالربانيّين اليهود، صانعي التلمود بالاجمال الى مثل هذا، فهل نعجب بعد أن يصدر الله تعالى حكمه عليهم باللعنة والغضب فيقول في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تر الى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون. اتخذوا أيْمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ويقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قَوْماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ ويقول: ﴿ضربت

---

(١) بروتو كولات حكماء صهيون، الجزء الثاني، ص ١٧٠.

عليهم الذِلّة أين ما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المَسْكَنَة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾

لقد بلغوا الذروة في تجاوز حدود الله تعالى؛ تلاعبوا بالكتاب، بأوامره ونواهيه وأحكامه، فآمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آزدادوا كفراً. ولقد آذَوْا أنبياءهم. فآذوا موسى عليه السلام حتى سجل الله تعالى عليهم قوله في هذا المعنى: ﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم﴾[1] ثم اتهموه بقتل أخيه هارون. كما آتهموه بسرقة المال. وقالوا فيه وفي غيره الكثير، بل قتلوا الأنبياء بغير حق. وأخبرنا الله تعالى عنهم بأنهم عصوا وكانوا يعتدون..

موقف النبي ﷺ من عقيدتهم في الآخرة:

ولقد تقدّم الحديث عن عقيدة اليهود في الآخرة، فقلنا إنه ليس في التوراة التي نقرأها اليوم ذكر للدار الآخرة وما سيكون فيها من جزاء ونعيم وعذاب، جزاء ما قدّمه الإنسان من عمل صالح أو غير صالح. كما قلنا إن مفهوم الجزاء عندهم قد آقتصر أن يكون في حال الاساءة عقاباً على هذه الاساءة تصيب المسيئين بالذلة أو بالهلاك أو بالقحط أو بالعار أو استعباد الأعداء لهم، واقتصر أن يكون في حال الاحسان والطاعة ثواباً طيّباً على هذا الإحسان يصيب المحسنين زيادة في غلّة الأرض وثمارها ووفرةً في نتاج البهائم أو نصرا على أعدائهم... ولا سبيل الى العثور، منذ آدم حتى موسى عليه السلام وآخر عهده أيضاً على أيّة إشارة في أي فصل من التوراة الى حياة بعد الموت أو جزاء بثواب أو عقاب. حتى ليخيّل الى القارىء كأنه ليس في دين اليهود مكان لعقيدة في الحياة الأخرى.

ويتجلّى،على العكس، القرآن الكريم بوضوحه في هذا الموضوع، فيحدّثنا أن

---

(١) الصف ٨٦ - ٨٧.

ابراهيم عليه السلام قد ذكر الدار الآخرة لقومه كما ذكرها موسى عليه السلام من بعده وأنبأ قومهما بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء في يوم تخشع فيه الأصوات وتخضع فيه الرؤوس وتزلزل فيه النفوس، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿واغْفِرْ لأبي إنه كان من الضالّين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وأُزلفت الجنّة للمتقين، وبرّزت الجحيم للغاوين، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إنْ كنا لفي ضلال مبين إذْ نُسوّيكم بربّ العالمين وما أضلّنا إلا المُجرمون. فمَا لَنا من شافعين. ولا صديق حميم فلو أن لنا كرّة فنكون من المؤمنين﴾[1] ويقول على لسان موسى عليه السلام: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾[2] ويقول أيضاً مخاطباً بني إسرائيل: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عَدْل ولا هم ينصرون﴾[3].

فالحياة في نظر القرآن واضحة جليّة لا إبهام فيها. فهي ذات صورة مزدوجة. حياة في الدنيا، وحياة في الآخرة. والحياة الدنيا هي الطريق الوحيد المؤهل الى ولوج الحياة الأخرى، وما يقدمه الإنسان فيها هو وحده الذي يمنحه الشهادة المرشحة الى دار النعيم أوْ دار البؤس والشقاء، يقول الله تعالى: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفّى أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوْفى. وأن إلى ربّك المنتهى. وأنّه هو أضحك وأبكى. وأنّه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزّوْجين

---

(١) الشعراء ٨٦ - ١٠٢.
(٢) الأعراف ١٥٦.
(٣) البقرة ٤٨.

الذكر والأنثى من نطفةٍ إذا تُمنى. وأنّ عليه النشأة الأخرى﴾[1].

ولا يكتفي القرآن الكريم ببيان هذه الحقيقة والتذكير بأنها حقيقة ذكرها الأنبياء والرسل السابقون، وأنبياء بني اسرائيل بالذات، بل يباشر مهمة التحضير لها بالإيحاء التربوي عندما يقول في وصف المؤمنين بأنهم على صنفين. صنف يعيش في دنياه الحاضرة ولا ينسى دنياه الأخرى، ويستعين بالله ويلجأ إليه بالدعاء والرجاء ليجعلها معاً موفورتي البركة والعطاء والأمن واليمن، وصنف شغلته الدنيا التي يعيشها وأسكره ما فيها من لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، حتى احتبس بكل طاقته ووجوده وفكره لهالا يَحيد، ولا يتشوف إلى ما سيكون بعدها فيقول الله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾[2] ثم يقول في آية أخرى ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾[3] ويقول في موضع آخر: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ له في حرثه. ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[4] ومثل هذا النقص في التوراة في شأن عظيم كالحياة الأخرى، وما يكون فيها يؤكد بلا ريب صحة اتجاه البعض إلى القول بوقوع الزيادة والنقص فيها، وبدليل أن العهد الجديد قد اشتمل على نصوص عدة تذكر الجزاء الأخروي.

موقفه ﷺ من إساس العمل التشريعي:

ثم إن تتبع بعض تعاليم التلمود وهو الذي له المنزلة المتقدّمة على التوراة في نظر اليهود، يضعنا وجهاً الى وجه مع أساس العمل التشريعي المعتمد منهم. وبشيء من

---

(١) النجم ٣٦ ـ ٤٧.
(٢) البقرة ٢٠١.
(٣) البقرة ٢٠٠.
(٤) الشورى ٢٠.

الاهتمام بقضاياهم التشريعية ومصادرها ، يتحقق أحدنا من أن أبرز ركائزهم في ذلك هو الحاخام والرباني، اللذان تعلو مرتبة أحدهما على الله[1] جل وعلا فهو يملك حق التشريع والحظر والإباحة. وهو أخطر ما آنتهت إليه اليهودية من صور العمل الديني التي تؤكد فتح المجال مشرع الأبواب أمام ذوي الأهواء الذين لا يتورعون عن التلاعب بالدين في سبيل أنانياتهم و« ليشتروا به ثمناً قليلاً » كما يقول الله تعالى..

وهذا الأصل مرفوض أساساً في الاسلام. لأن التشريع فيه أصلاً هو حق الله وحده لا ينازعه فيه منازع. يقول الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾[2]. ويقول: ﴿قل أريأتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً. قل الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[3].

بل إن الكثيرين من أكابر العلماء كانوا يخشون الفتيا وينفرون من إعطاء الرأي في كثير من الأحكام خوفاً من السقوط في غضب الله. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل، فلم أزل أخاف الفتيا الى يومي هذا. وقد قال البعض إن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنّة رسول الله ﷺ كما يقع كثير من المؤثرين للرأي، أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة. ولقد أخرج الطبرانيّ عن ابن مسعود قال: عسى رجل يقول: إن الله يأمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عز وجل: كذبت أو يقول: إنّ الله حرّم كذا أو أحل كذا. فيقول الله له: كذبت[4].

---

(١) بروتوكولات، الجزء الثاني، ص ١٧٠.
(٢) النحل ١١٦.
(٣) يونس ٥٩.
(٤) القاسمي، الجزء العاشر، ص ١٧٢.

والآيتان السابقتان تنبهان على أنّ الإباحة والحظر في الأصل هما حق لله تعالى وحده. فالحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه. وليس لأحد من خلقه أن يرقى الى هذه المرتبة. ولسنا نريد هنا أن نتوسع في استعراض مدلول الآيتين بالتفصيل، ولكننا نكتفي حسب، بالاستفادة منهما من صريح مفهوم النص الذي يحرّم القول في شيء من كل ما هو كائن في الحياة، إنه حرام أو إنـه حلال، والذي يحكم على من يفعل ذلك بغير إذن من الله بأنه مفترٍ عليه[1].

على أن الله تعالى يخاطب داوود عليه السلام فيقول له: ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فَيُضِلّك عن سبيل الله..﴾[2] ويجعل للحكم طريقين: طريق الحق، وهو ما جاء به الوحي الذي أنزله الله عليه وعلى رسله، وطريق الهوى، وهو ما خالفه.. وذلك بدليل أن الله تعالى يخاطب سيدنا محمداً ﷺ في سورة أخرى ويقول له: ﴿ثمَّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً وإنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾[3] وهو هنا أيضاً يجعل الأمر بين طريقتين: الشريعة التي أمر الرسول باتباعها والعمل بما ورد فيها هو وأمته من بعده، والهوى الذي نهاه عن اتباعه، ومطاوعته هو وأتباعه ﷺ.

بل إن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[4].

وقد أمر في هذه الآية بطاعته وبطاعة رسوله. وأعاد فعل الطاعة إعلاماً بأن

---

(١) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم، الجزء الأول، ص ٥٨ .

(٢) ص ٢٥ .

(٣) الجاثية ١٨ ـ ١٩ .

(٤) النساء ٥٩ .

طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير أن يُعْرض ما يأمر به على الكتاب. ولكنه مع أولي الأمر لم يعد فعل الطاعة ليفيد أنه تعالى لم يأمر بطاعتهم استقلالاً، بل جعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم إنّما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول؛ فمن أمر منهم بما فيه طاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ذلك فلا سمع له ولا طاعة. ولقد صح عنه ﷺ ما يشهد لهذا المعنى وهو قوله: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» كما ورد عند قوله الذي يحدد فيه موجب طاعة أولي الأمر: «من أمركم منهم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة». وهو بهذا كأنه يؤكد أن طاعة أولي الأمر تكون فيما فيه طاعة فحسب.

ولقد ورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا ينْزع العلم بعد إذْ أعطاكموه انتزاعاً ولكنّه ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُسْتَفْتَوْن فَيُفْتُون برأيهم فيضلّون ويُضِلّون» وقد روى عوْف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفْتَرق أمتي على بِضْعٍ وسبعين فرقة أعظمها فتنةً قوم يقيسون الدين برأيهم يحرّمون به ما أحلّ الله ويُحلّون ما حرّم الله».

فنظرة الاسلام التشريعية أن الأساس فيها هو أن الحظر والإباحة منوطان بالله تعالى؛ فما ورد تحليله في كتاب الله وسنة رسوله حلال، وما ورد حظره أو تحريمه في كتاب الله وسنة رسوله محظور أو حرام..

فإذا لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله نص يبين حكم الله في أمر، أمكن حينذاك اللجوء الى الاجتهاد والأخذ بالرأي قياساً على ما في الكتاب أو السنة، أو استنباطاً مما ورد فيهما من قواعد. كل ذلك في حدود، ومع اتهام النفس خوفاً من انجرافها مع الهوى والرغائب.. وقد ورد عن عبد الله بن مسعود قوله: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيّه ﷺ. فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، ولم يقض فيه نبيه ﷺ

فليقض بما قضى فيه الصالحون. فإن جاء امر ليس في كتاب الله ولم يقض فيه نبيه ﷺ، ولم يقض فيه الصالحون، فليجتهد رأيه. فإن لم يحسن فَلْيَقُم ولا يستحيي... »

بل الذي نقله العلماء أن أصحاب أبي حنيفة متّفقون على أن ضعيف الحديث عند أبي حنيفة أولى من القياس والرأي[1].

وقد كان علماؤنا ولا يزالون يتحرجون جداً من الحكم بأن هذا حلال وهذا حرام إلا في حال العلم بأن الله سبحانه وتعالى قد أحله أو حرّمه. وقد نهى النبي ﷺ في الحديث الصحيح أميره «بريده» أن يُنْزل عدوّه إذا حاصرهم على حكم الله وقال له: «فإنّك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا. ولكن أنْزِلْهم على حكمك وحكم أصحابك» كما روى أنه لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حكماً حكم به فقال: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر قال له: «لا تقلْ هكذا، ولكن قل: هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»[2].

وهكذا فإن الاسلام يحرّم على المسلم ولو كان عالماً أن يقول على الله ما لا يعلم، ويفرض عليه دوماً أن يوثق قوله بنص من كتاب الله أو من سنّة رسول الله، لأنه إذا لم يكن الحكم أو الخبر مطابقاً لما شرعه الله أو قاله كان قائلاً على الله بغير علم، فإذا كان عارفاً ذلك كان مفترياً: ورسول الله ﷺ يقول: «من كذب عليّ متعمداً فليتبّوأ مقعده من النار» والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿فَمَنْ أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذْ جاءه أليس في جهنم مثوىً للكافرين﴾[3]. ويقول: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاعٌ قليل ولهم عذاب أليم﴾[4].

---

(١) أعلام الموقعين، لابن القيم، الجزء الأول ٧٧.
(٢) أعلام الموقعين، لابن القيم، الجزء الأول ٣٩.
(٣) الزمر ٣٢.
(٤) النحل ١١٦ - ١١٧.

ولكن المسلم إذا آجتهد عند عدم وجود النص واستفرع وسعه في معرفة الحق، ثم أخطأ لم يلحقه الوعيد، وعُفي له عما أخطأ به وأُثيب على اجتهاده. ولكنه في هذه الحال الاجتهادية يبقى مفروضاً عليه أن يسند الحكم الى نفسه. وقد صح عن ابن مسعود أنه في [المفوّضة] وهي التي تفوض غيرها في تزويج نفسها أنه قال: « أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان. والله ورسوله بريء منه، وعنه ﷺ انه قال: « من قال عليّ ما لم أقل فليتبوّأ بيتاً في جهنم، ومن أُفْتِيَ بغير علم كان أثمه على من أفتاه. ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد في غيره فقد خانه ».

هذا موقف الاسلام صريحاً واضحاً في الحظر والإباحة، بينما نرى أحبار اليهود قد سلكوا هم وحاخاماتهم سبيل الافتراء على الله دون أن يرف لهم جفن خوفاً أو خجلاً أو حياءً من الله تعالى حتى وصفهم الله بقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم. وما أمروا إلا ليعبدوا إلاهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عما يشركون﴾[1].

ولقد شرح المفسّرون هذه الآية فقالوا فيها، إنه ليس المراد هنا من اتخاذ هؤلاء الأحبار أرباباً، أنّهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم وأنزلوهم منزلة الله في قبول حكمه والطاعة لقضائه. وقد نقل أن عدي بن حاتم كان نصرانياً فانتهى الى رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة براءة فوصل إلى هذه الآية. قال: فقلت لسنا نعبدهم فقال: « أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويُحِلّون ما حرّم الله فَتَسْتحلّونه؟ فقلت بلى... قال: « فَتِلْكَ عبادتهم ».

وقال الربيع قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبيّة في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربّما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا

(١) التوبة ٣١.

يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله[1].

موقفه ﷺ من مبدئهم بأن الغاية تبرر الواسطة:

ولقد عرفنا بأن لليهودي الحق بأن يحلف زوراً. وأن من حقه أن يحوّل اليمين لوجهة أخرى، كما أن له أن يؤدي يميناً كاذبة أمام حكام البلد كلما سئل عن شيء لا يجوز له أن يقوله طبقاً للشريعة اليهودية. وذلك عملاً بالقاعدة العامة عندهم وهي «أن الإنسان مهما كان شريراً في الباطن وأصلح ظواهره يخلص» والكذب سائغ لأجل الاصلاح. والنفاق جائز. ولليهودي الحق بأن يكون مؤدباً مع الكافر، ويدّعي محبّته كاذباً، إذا خاف وصول الأذى منه إليه. كما أن لليهودي الحق بأن يوقع الضرر على الأمي [غير اليهودي] وأن يسرق مـالـه، وأن يظلمـه ويغشّه ويخدعه ويرابيه[2] لأن حياته وأمواله مباحة له.

وقد أخبرنا الله تعالى عنهم بشبيه هذه الأوصاف، ولا يخرج عن أصلها الذي نقلناه. فقال ﴿ومن أهل الكتاب من إن تَأْمَنْه بقنطار يؤدّه اليك، ومنهم من إن تأمَنْه بدينار لا يؤدّه إليك إلاّ ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأُمّيين سبيل. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[3]. وقد شرح الفخر الرازي هذه الآية فقال: «الآية دالة على انقسامهم [أهل الكتاب] الى قسمين: بعضهم أهل الأمانة. وبعضهم أهل الخيانة. وفيه أقوال: «الأول» أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا. أما الذين بقوا على اليهودية فهم مُصرّون على الخيانة، لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأَخْذُ أموالهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّةٌ يَتْلُون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ مع قوله: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ «الثاني» أن أهل

---

(١) الفخر الرازي، الجزء السادس عشر، ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) الكنز المرصود ٧٠ - ٧٥.

(٣) آل عمران ٧٥

الأمانة هم النصارى وأهل الخيانة هم اليهود. والدليل عليه ما ذكرنا أن مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان...»[1].

ولتوضيح السبب في استباحة اليهود لهذا المنهج الخطير يقول بعد ذلك: «الأول» أنهم مبالغون في التعصب لدينهم، فلا جرم يقولون: يحل قتال المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان وروى في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤدّاة الى البرّ والفاجر. و«الثاني» أن اليهود قالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحدٍ علينا اذا أكلنا أموال عبيدنا. و«الثالث» أن اليهود إنما ذكروا هذا الكلام لا مطلقاً لكل من خالفهم، بل للعرب الذين آمنوا بالرسول..» الى أن يقول: «إنهم قالوا إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه. ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم..»[2].

ويقول الامام محمد عبده في تفسير هذه الآية: «كأنهم يقولون إن كل من ليس من شعب الله الخاص، وليس من أهل دينه فهو ساقط في نظر الله، ومبغوض عنده، فلا حقوق له. ولا حُرمة لماله ويحل أكله متى أمكن ذلك. وقد ردّ الله عليهم هذه المزاعم بقوله: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن ذلك كذب عليه لأن ما كان منه هو ما جاء في كتابه. وليس في التوراة التي عندهم إباحة خيانة الأميّين وأكل أموالهم بالباطل وهم يعلمون. إن ذلك ليس فيها. ولكنهم لا يأخذون الدين من الكتاب.. وإنما لجأوا الى التقليد فعدّوا كلام أحبارهم ديناً ينسبونه الى الله. وهؤلاء يقولون في الدين بآرائهم ويحرّفون الكلم عن مواضعه ليؤيدوا بذلك أقوالهم. فكلّ هذه الدواهي جاءتهم من هذه الناحية ناحية

---

(١) الفخر الرازي، الجزء الثاني، ص ١١٠.

(٢) الفخر الرازي، الجزء الثاني، ١١٢ ـ ١١٣.

التقليد والأخذ بكلام العلماء في الحلال والحرام وهو مما لا يؤخذ فيه إلا بكتاب الله ووحيه. والآية التي جاءت عقب هذه تقول: ﴿بلى من أوْفى بعهده وآتّقى فإن الله يحب المتقين﴾ والعهد هو ما تلتزم الوفاء به لغيرك. فإذا آتفق آثنان على أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلةً ومجازاةً يقال إنهما تعاهدا. ويقال عاهد فلان فلاناً عهداً، فيدخل فيه العقود المؤجلة والأمانات؛ فمن آئْتَمَنَكَ على شيء أو أقرضك مالاً إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل، وجب عليك الوفاء بالعهد وأداء حقه إليه في وقته من غير أن تلجئه الى التقاضي والالحاح في الطلب. بذلك تقتضي الفطرة وتحتّمه الشريعة. وهذا مثال العهد مع الناس. وهو المراد هنا أولاً وبالذات للردّ على أولئك اليهود الذين لم يجعلوا العهد مما يجب الوفاء به لذاته. وانما العبرة عندهم بالمعاهَد؛ فإن كان إسرائيلياً وجب الوفاء له لأنه إسرائيلي. ومن كان غير إسرائيلي فلا عهد له ولا حق يجب الوفاء به»[1].

وهذا الكلام والذي سبقه يجعل موقف الاسلام بيّناً جليًّا وفي غاية السمو والنبل فهو يرفض قاعدة: الغاية تبرر الواسطة، ويثبت أنه لا بد من الإلتزام بالعهد والوفاء به لذاته بغض النظر عمّن عقد معه، فالخلاف في الدين في غير حالة الحرب لا يبرر عدم الوفاء وأداء حقوق الآخرين، وعدم الالتزام بما أوجبته الأعراف الاجتماعية والخلقية. وهذا رسول الله ﷺ يقول: «من آذى ذمياً فأنا خصمه. ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[2] وهو يعلن بكل قوة وعزم التزامه بالعهد مع الذمي وهو المسيحي أو اليهودي غير المحارب. والتزامه بحمايته وحماية محارمه ومقدساته ومصالحه وكرامته وأمواله وممتلكاته. بل يقول مطلقاً: «من أمّن رجلا على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً»[3] وذلك لأنه أمّنه وأدخله معه في عهد.

---

(١) تفسير المنار، الجزء الثالث، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) فيض القدير، للمناوي، الجزء السادس، ص ١٩ .

(٣) فيض القدير، المناوي، الجزء السادس، ص ١٩ .

وللناس في نظر الاسلام حرمة سواء كانوا مسلمين أو كانوا غير مسلمين، أهل كتاب مسيحيين أو يهوداً، وكذلك لأعراضهم وبيوتهم وتجاراتهم وأموالهم ومؤسساتهم وشؤونهم الخاصة والعامة، حرمّها لا يسمح لأحد الانتقاص منها ولا العدوان عليها أيّاً كانت منزلته أو سلطته. ولذلك فقد وقف رسول الله ﷺ يوم الجمعة، يوم حجة الوداع، وألقى خطبته الرائعة التي ورد فيها قوله: ﴿أيها الناس إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تَلْقَوْا ربكم﴾.

وفي خطاب رسول الله ﷺ يدخل المعاهدين من الناس من أهل الكتاب جميعاً. ولذلك فقد كان قوله بصورة عامة ﴿فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ٱئْتَمَنَه عليها﴾ دون تفريق بين مسلم وغير مسلم. لأن الناس في ظل القانون والشرع سواء، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

بل لقد جعلت الشريعة الإسلامية المطهّرة حق العهد والميثاق فوق حق الدين نفسه في بعض الأحوال؛ فاذا قتل مشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد، وكان القاتل مسلماً، كان لهذا المقتول حق الديّة يدفعها القاتل إلى أهله، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين ميثاق دية. بل إن الديّة المستحقة للذمي المقتول هي في مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه مثل دية المسلم سواء بسواء[1].

وقد حرّمت الشريعة الإسلامية المطهّرة نصرة المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم لقوله تعالى: ﴿وإن ٱستنصروكم في الدين فعليكم ٱلنصر إلاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾[2] وبهذا خطّت هذه الشريعة المكرّمة في علاقاتها الدولية وتعامل البشر بعضهم مع بعض، أرفع الأنظمة وأحسن المعاملة.

ولقد بلغ من احترام المسلمين للعهود والتزامهم بمضامينها أنْ أقرّوا الفرد منهم على تأمينه لطائفة من المحاربين. فقد كتب أبو عبيدة عامر بن الجرّاح الى عمر بن

---

(١) الفخر الرازي، الجزء العاشر، ص ٢٤٢.
(٢) الأنفال ٧٢.

الخطاب وهو الخليفة يومذاك، أنّ عبداً أمّن أهل بلد في العراق، وسأله رأيه فكتب إليه عمر: «إن الله عظّم الوفاء فلا تكونون أوْفياء حتى تَفُوا، فوفّوا لهم وآنصرفوا عنهم» وعمر بهذا يَقْبس من نور هدي القرآن الكريم وهدي الرسول ﷺ الذي يقول: «ويسعى بذمتهم أدناهم». بل ذهبوا الى أبعد من ذلك، فأجازوا أمان المرأة، وذلك كما ورد في قوله ﷺ: «قد أجرْنا من أجَرْت يا أمّ هانىء»[1].

وقصة الرسول ﷺ يوم الحديبية مع سهيل بن عمرو الذي كان يفاوضه نيابة عن المشركين لعقد الصلح والرجوع عن مكة في ذلك العام، لأعظم شاهد على موقف الاسلام وبالتالي موقف الرسول ﷺ من موضوع الالتزام بالعهود والمواثيق مهما كانت الظروف، فإنه بينما كان يملي عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو وقد عاهده على أن من جاء من الكافرين مسلماً فعلى محمد أن يردّه الى قومه، جاءه ابن سهيل هذا يرسف في الأغلال، وهو المؤمن وقد فرّ من المشركين أعداء الرسول الذين كان يمثلهم أبوه في مفاوضاتهم مع الرسول ﷺ، جاءه يستصرخه بعد أن آنْفَلَتَ من أيدي المشركين. فلما رآه سهيل قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال «يا محمد لقد لجّت القضية بيني وبينك» أي فرغنا من المناقشة فيها قبل أن يأتيك هذا. فقال رسول الله ﷺ: «صدقت». فقال أبو جندل ابن سهيل مخاطباً المسلمين ومستصرخاً «يا معشر المسلمين أأُردّ الى المشركين يَفْتِنوني في ديني!؟» ومع ذلك فقد ردّه الرسول وفاقاً للعهد الذي تم بينه وبين المشركين على الرغم من أن المعاهدة لم تكتمل كتابتها بعد. وقد أفهم القرآن الكريم المسلمين بأنه لا يجوز لهم نقض العهد إلا في حال خوفهم من خيانة المعاهد أو تحققهم من خَتْله وسوء قصده. فعندئذ يجوز لهم نبذ عهده وإبلاغه ذلك. يقول الله تعالى ﴿وإما تخافَنّ مِنْ قوم خيانةً فآنْبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[2]. ويكون نبذ العهد

---

(١) الرسالة الخالدة، لعبد الرحمن عزام، ص ١٦٩.

(٢) الأنفال ٥٨.

بأن تخبرهم إخباراً مكشوفا بيّناً أنك قطعت ما بينك وبينهم. ولا تبادرهم الحرب وهم على توهّم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة. ولقد بيّن العلماء أيضاً معالم نقض العهد المجيزة للنبذ، وذلك إما بأن تظهر ظهوراً محتملاً أو ظهوراً مقطوعاً به. فإن كان الأول وجب الإعلام كما ذكر سابقاً، وذلك لأن قريظة عاهدوا الرسول ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله، فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه، فها هنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب. أما اذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فها هنا لا حاجة الى نبذ العهد كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة؛ فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي ﷺ وصل إليهم جيش رسول الله بمَرّ الظهران وذلك على أربعة فراسخ من مكة»[1].

اليهود ووحدانية الله وتنزيهه:

ولو ذهبنا نتصفح كتبهم الدينية من التوراة والتلمود ووصايا أحبارهم لرأينا أنهم يكثرون الحديث عن الله، ويطيلون بالذات في قربهم منه وأنهم هم أبناؤه وأحباؤه وأولياؤه من دون الناس. بيد أننا مع ذلك نرى ما يمجه المنطق السليم ويرفضه الايمان الصحيح، إذْ إنهم مع إعلانهم الايمان بالله، واعتزازهم بالاختصاص بالتقرّب إليه وكونهم ابناءه وأحباءه وأولياءه، تراهم ينسبون اليه صفات الضعف التي هي من خصائص الذوات العاجزة الفانية. فهو كثير الندم، والحزن. وهو عاجز عن حل مشاكله الذاتية. وهو يدرس التلمود ويتعلّمه ليليًّا في مدرسة السماء. وهو يلعب ويلطم نفسه ويبكي. والحاخامات هم الذين يحلّون مشاكله[2].

فهل من يستجيز نعت الله جل وعلا بشيء من هذه الخصال، يمكن أن يدرج

---

(١) من تفسير الفخر الرازي، الجزء الخامس عشر، ص ١٩٠.

(٢) الكنز المرصود، ص ٤٤ ـ ٥٧.

في عداد المؤمنين فضلاً عن أن يكون من الموحّدين المنزهين؟!. فأين هذا الوصف البشري الأرضي من الوصف السماوي الرفيع الذي يضفيه القرآن الكريم على ذات الله تبارك وتعالى عمّا يصفون في قوله: ﴿فاطر السماوات والأرض جَعَل لكُم مِن أنْفُسكم أزْواجاً ومنَ الأنْعام أزْواجا يَذْرَؤكم فيه لَيْس كَمِثْله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السماوات والأرض يَبْسطُ الرزق لمن يشاء ويَقْدر إنه بكل شيء عليم﴾ [1] وقوله: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [2] وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [3] وقوله: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك مِمَّن تشاء وتُعِزّ من تشاء وتُذِلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج اللّيل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميّت وتُخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب﴾ [4] وقوله: ﴿إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولَئِنْ زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ [5] وقوله: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشدَّ منهم قُوّة. وما كان الله ليعجزه من شيءٍ في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ [6].

هذا الوصف السامي الرفيع المناسب لجلال الله وعظيم سلطانه وواسع قدرته الذي يفوت عقول البشر وأمْداءها الفكرية والتصوّرية، المتجلّي في هذه الآيات الربانيّة الراقية وفي سواها، مما لا يتسع له المجال هنا، مما ورد في كتاب الله تعالى،

---

(١) الشورى ١١ - ١٢.
(٢) الزمر ٦٧.
(٣) الأنعام ١٠٢.
(٤) آل عمران ٢٦ - ٢٧.
(٥) فاطر ٤١.
(٦) فاطر ٤٤.

وعلى لسان رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. هو الجدير بمن يتّجه الناس إليه بالرجاء والسؤال، والخضوع. إنه الوصف الحق للمعبود المنزّه عما لا يليق به والمتجمّل بكل الكمالات، وإلا فكيف يكون إلٰهاً ومعبوداً؟ وكيف يكون في مكان الربوبية، ومخلوقاته الضعيفة تتفوّق عليه قوّة وفكراً وحيلة وعطاءً؟

إن اليهود، وهم يلحقون بالله تعالى هذه النعوت المختصة بالبشر والمخلوقات عامة، لا يمكن أن يدرجوا في جماعة المؤمنين فضلاً عن أن يكونوا في مجموعة الصالحين المرْضيين. ويكفي أن يكون الله تعالى قد لعنهم، وغضب عليهم، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة، حتى ندرك مدى ما هم عليه من البعد عن الحق وعن مفهوم التوحيد لله سبحانه، وأنهم لما يقولونه ويفعلونه من سوء، مطرودون من حظيرة الصالحين من عباد الله. يقول الله تعالى فيهم: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يَعْتدون كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه لَبِئْس ما كانوا يفعلون﴾[1] ويقول: ﴿قُلْ هل أنَبّئكم بِشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل وإذا جاءوكم قالوا ءآمنّا وقد دخلوا بالكُفْر وهم قَدْ خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يعملون لولا ينهاهم الربّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾[2].

وفي هذه الآيات يكشف الله تعالى شرّ اليهود وعلامات من كمال شرهم وضلالهم. وقد ذكر من صفاتهم أنه تعالى قد لعنهم وأنه قد غضب عليهم، وأنه قد جعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. وقد عنى بالقردة أصحاب

---

(١) المائدة ٧٨ - ٧٩.
(٢) المائدة ٦٠ - ٦٣.

السبت، وبالخنازير كفار مائدة عيسى عليه السلام، أو على بعض الروايات عنى بالمَسْخَيْن اللذين كانا في أصحاب السبت لأن شبانهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير[1] ثم ذكر من علامات كمال شرهم النفاق والمسارعة في الاثم والعدوان وأكل الحرام كالرشا..

موقف النبي ﷺ من أحكامهم الدينية:

وبعد أن أطلعنا على ما ألحقه هؤلاء اليهود بالله من نعوت وأحكام. وبعد أن تأكّد لنا بأنهم ينسبون الى ذاته العلية ومقامه المقدس ما يحلو لهم مما ينزل قدره حتى عن قدر بعض البشر العاديين أحياناً، فإنه لن يستبعد منهم أن تطال أفكارهم كل شيء بعد ذلك بما فيه الشريعة وأحكامها. والذين يعتمدون في تعاطيهم مع الناس قاعدة: «الغاية تبرر الواسطة» ويستندون اليها في كل شيء، في علاقاتهم معهم، في سلوكهم الفردي والجماعي، في الاقتصاد والسياسة والعلم والقانون والأخلاق، يصبح التلاعب بأمور الدين بالنسبة إليهم أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ولا عيب.

ومن هنا كان الخزي الكبير في الذي سنراه من تشريعاتهم وأحكامهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي لم توجد حتى في تعامل أكثر البشر تخلّفاً وأبعدهم عن المفهوم الحضاري للانسانية.

أمثلة من ذلك:

وفي مقدمة ذلك أنّهم فرّقوا بين البشر، فجعلوا منهم الأصفياء والأحباء لله. وهم هم اليهود. ومنهم الحيوانات في صورة الإنسان وهم من تبقى من البشر. ذلك لأن اليهودي في نظرهم جزء من الله، فهو أعلى قدراً عند الله من الملاك. ولو لم يخلق لآنْعَدَمَت البركة من الأرض.

---

(١) الفخر الرازي، الجزء الثاني عشر، ص ١٢.

ولعل هذه النظرة العرقية المدّعاة من هؤلاء اليهود هي الأصل في دعوى العنصرية البشرية التي شاع التأثر بها في كثير من الدول الغربية في هذا القرن العشرين..

٢ - بل إنهم في الحقيقة، قد انطلقوا منها في أكثر تشريعاتهم، تماماً كما تبنّى إبليس قديماً قاعدة خيريّته على الإنسان، وبنى عليها موقفه المتمرد على أمر الله كبراً وتعالياً وغروراً فانتهى الى السقوط في أكبر العصيان، وطرده الله ولعنه وجعله شيطاناً رجيماً... فقد حرّم أحبارهم عليهم مؤاكلة من كان على غير ملّتهم وحظّروا عليهم الأكل من ذبائحهم كما حرموا عليهم مناكحتهم [١] وحرّموا عليهم إطعام الأجنبي وإغاثته اذا لم يكن يهودياً.

٣ - والأقبح من ذلك والأدْهى أنهم ألزموا المرأة اليهودية إذا خرجت من الحمام ورأت كلباً أو حماراً أو إنساناً غير يهودي بأن تعيد آستحمامها. وحرّموا على اليهود تحية غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم. بل أجازوا لهم النفاق مع غير اليهود، وسرقتهم وظلمهم وأكل أموالهم بالباطل، وغشهم ومخادعتهم والكذب عليهم وأكل الربا منهم بل وقتلهم إن أمكنهم ذلك. وأجازوا لهم الزنى بغير اليهوديات واغتصابهن. وأعلنوا لهم بأن الزنى بغير اليهود ذكوراً واناثاً لا عقاب عليه...

٤ - وتمادوا بعد هذا في ذلك، فأطلقوا لليهود حريّة التصرف؛ فأباحوا لهم بأن يسلموا أنفسهم للشهوات اذا لم يمكنهم مقاومتها ما دام ذلك منهم سراً. وابتدعوا لأنفسهم قاعدة الحرمان وجعلوا من نتائجها منع المحروم من مخالطة الغير ومن التعليم والتعلّم والأكل والشرب مع أي شخص ومن أن يخدمه أو أن يخدم أي شخص آخر [٢].

---

(١) هداية الحياري، ص ١٣٢ - ١٣٦.

(٢) راجع هذه المعلومات في كتاب الكنز المرصود ص ٤٩ - ١٠٢، وكتاب بروتوكولات حكماء صهيون من ١١٨ - ١٨٩.

٥ ـ ولقد كذبوا جميع الرسل حتى رسلهم الذين بشروا بظهور عيسى عليه السلام ومن بعده محمد ﷺ وذلك لما رفضوا الإيمان بهما والإذعان لرسالتهما، وبما آفْتَرَوْه عليهم من وقائع وأخبار يتنزّه منها عاديو الناس وأدنياؤهم..

ولقد صوّروا إبراهيم عليه السلام برجل يتاجر بعرض زوجته ليحصل على بعض المكاسب. وصوّروا موسى عليه السلام بصورة العشيق. ووصفوا داوود بالعشيق المتآمر. وصوّروا يعقوب بصورة المحتال على أبيه والسارق لصنم خاله. ونعتوا سليمان بالمنافق الذي يعبد الأصنام ظاهراً ليهدمها من الداخل. وأظهروا يوسف بمظهر المحتكر، وبعض أنبيائهم بالسفاحين مثل إيليا، ووصفوا لوطا بالزنى وأخبروا عنه بأنه زنى بآبنتَيْه. وغير ذلك كثير. وكله كان لهدف واحد هو استباحة الفساد من كل نوع وتبرير إثباته لبني قومهم. وهو ما يؤكد ما وصفهم الله تعالى به من الفساد والإفساد والضلال والإضلال يقول تعالى فيهم: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾[1] ويقول: ﴿سمّاعون للكذب أكّالون للسحت﴾[2] ويقول: ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون﴾[3].

٦ ـ ولقد تناول القرآن الكريم كثيراً من آفتراءاتهم على الله وعلى رسله فيما كانوا يشرّعون ويَبْتَدعون من أحكام، فآستهزأ من نسبتهم إبراهيم الى اليهودية وأثبت لهم ولغيرهم بالبرهان والحجة الواقعة أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً. بل كان حنيفاً مسلماً. يقول الله تعالى: ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[4] وذلك بعد قوله: ﴿يا أهل الكتاب لم

(١) البقرة ١٧٥.
(٢) المائدة ٤٢.
(٣) المائدة ١٧.
(٤) آل عمران ٦٧.

تحاجّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده افلا تعقلون﴾ ﴿ ها أنتم هؤلاء حاجَجْتم فيما لكم به علم، فَلِمَ تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

٧ ـ وردّ على افترائهم على اسرائيل [يعقوب عليه السلام] وكذّبهم بنسبتهم للتوراة ما ليس فيها تارة وامتناعهم عن الإقرار بما هو فيها تارة أخرى، وأثبت لهم بخبر السماء وإن كانوا لا يؤمنون به ظاهراً وهو حق، أن لحوم الإبل وألبانها لم تكن حراماً في دين إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب، وأن التحريم حصل من يعقوب على نفسه ولسبب سبق وأشرنا اليه، ثم انسحب هذا التحريم على ذرّيته من بعده. وتحدّاهم بأن يحضروا التوراة ويتلوها ليتبيّن لهم الحق من الباطل والصدق من الكذب. يقول الله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتْلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قُلْ صدق الله فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[2].

ولمزيد من التوضيح نقول نقلاً عن الزمخشري: المعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني اسرائيل من قبل إنزال التوراة. وتحريم ما حرّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرّم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه[3].

وقد روى أن الذي حرّمه إسرائيل لحوم الإبل وألبانها. وقيل العروق. كان به عرق النسا فنذر إن شفي أن يحرّم على نفسه أحب الطعام إليه وكان ذلك أحب إليه فحرّمه. وقيل أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو

(١) آل عمران ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) آل عمران ٩٣ ـ ٩٤.
(٣) تفسير الكشاف، الجزء الأول، ص ٣٣٥.

كتحريم الله ابتداءً[1]. وهذا ما نقلته الروايات عن الامام أحمد والترمذي في حديث.. أو عن ابن عباس رضي الله عنه[2].

وفي هذا ولا شك ردّ على اليهود كما قلنا. وفي أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم ويبكّتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرّم عليه حادث وليس بقديم، يدلّ على عظيم رسوخه ﷺ وتمكنه مما يخبر، وعلى صدقه وكذبهم الكامل حيث لم يجسروا على إخراج التوراة..

على أن قوله تعالى في آخر الآية ﴿قل صدق الله...﴾ إلى قوله ﴿وما كان من المشركين﴾ فيه تعريض رائع بما في اليهودية من شرك وآنحراف عن ملته الصحيحة التي جاء بها.

٨ ـ وتناول القرآن الكريم أيضاً موضوع الربا، واستباحة اليهود لأكله وآلسحر ونسبتهم إياه الى بعض أنبيائهم وبالذات الى سليمان. وأكّد لهم ولسواهم أنه نهاهم عنها وعن السحر بالذات، وانه ما من أحد من أنبيائهم ولا سليمان، كان يتعاطى السحر. ولكنهم دوماً هم المفترون. فقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحِلّتْ لهم وَبِصَدِّهم عنْ سبيل الله كثيراً، وأَخْذِهم الربا وقد نُهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل. وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾[3].

٩ ـ وأما السحر فقد قال تعالى عن افتراءاتهم فيه: ﴿وآتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أُنزل على المَلَكَيْن ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فِتْنَةٌ فلا تكفرْ فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه. وما هُم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله. ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن آشتراه

---

(١) تفسير الكشاف، الجزء الأول، ص ٣٣٥.
(٢) القاسمي، الجزء الرابع، ص ١٤٧.
(٣) النساء ١٦٠ ـ ١٦١.

ماله في الآخرة من خلاق. ولَبِئْس ما شَرَوْا به أنْفُسَهم لو كانوا يعلمون ولو أنّهم آمنوا واتقَوْا لَمَثوبةٌ من عِنْدِ الله خير لو كانوا يعلمون﴾[1].

ومفهوم هذه الآية، والله تعالى أعلم، أن هؤلاء اليهود بدل أن يتبعوا الرسول الذي جاءهم من عند الله يخاطبهم بأمره ونهيه ويبين لهم حدوده، راحوا يتبعون ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام على عهد سليمان، ويَفْترون على سليمان بأنه كان ساحراً وأنه ما كان له من الملك الواسع ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرات من تسخير الجن والريح لولا ذلك...

وقد كذبهم الله تعالى فقال ﴿وما كفر سليمان﴾ بتعلم السحر والعمل به كما قال اليهود. ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلم السحر وتعليمه للناس وتعليمهم ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، من وصف السحر وماهيّته وكيفيّة الاحتيال به. ولقد كان الملكان لا يعلمان أحداً السحر حتى ينصحاه بقولهما له: إن هذا السحر هو للتفريق بين المطيع والعاصي وبين السحر والمعجزة، كما يحذرانه من استعماله فيما نُهي عنه. بخلاف الشياطين الذين كانوا يعلمونه لغيرهم لاستخدامه فيما يضر ويؤذي ولإحداث الشقاق والنزاع والتفريق بين الزوجين..

ورغم هذا كله يؤكد الله تعالى للمؤمنين أن هذا السحر على ما فيه لا يمكن أن يحقق ضرراً لأحد إلا إذا شاء الله ذلك.

وقد أخرج ابن جرير عن السدي قال في قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون...﴾ أي لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت فذلك قوله تعالى ﴿كأنهم لا يعلمون﴾.... أي لا يعلمون

---

(١) البقرة ١٠١ - ١٠٣.

ما في التوراة من الأمر باتباع محمد وتصديقه[1].

ولقد نقلنا من قبل أن اليهود كانوا يعتقدون كفر سليمان وآرتداده في آخر عمره وعبادته الأصنام. ولذلك فإن الله تعالى ردّ عليهم بقوله ﴿وما كفر سليمان﴾ فنزهه بهذا عن التهمة التي آفتروها عليه من الردّة والشرك، كما برّأه من عمل السحر الذي كان يتعاطاه الشياطين وينسبونه اليه زوراً وبهتاناً.

ولقد كانت بابل حيث كان منفى اليهود عند السبي اكثر البلاد حينذاك اهتماماً بالسحر وعملاً به. وكان سحرتها يسخرون سحرهم في تسخير العامة لهم في ابدانهم وأموالهم ومصالحهم حتى آنتهوا بهم الى ترويج عبادة الأصنام والكواكب، فانتشر الفساد وعمّ الباطل فارسل الله تعالى الملكين ليكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه ليتعرفوا الى ما أوقعهم به سحرتهم من الضلال المبين.

١٠ ـ ومن مراجعة التوراة التي بين أيديهم يتأكد لنا أنها لم تحظّر على اليهود في نص من نصوصها مناكحة غير بني جنسهم ولا مؤاكلتهم لمجرّد ذلك، أو لأنهم الناس وغيرهم الحيوانات كما يدّعون، ولكن يبدو لنا أن التحريم منصبٌّ على أكل لحوم الوثنيين وذلك لعلّة شرعية هي أنهم ـ أي الوثنيين ـ لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم. أما تحريم التوراة مناكحة اليهود لغيرهم من الأمم لئلا يوافقوا أزواجهم الوثنيين والكافرين في عبادة الأصنام والكفر بالله. تقول التوراة: «لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرْهم. بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لآبنك لأنه يردّ آبنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيَحْمى غضب الربّ عليكم ويهلككم سريعاً»[2].

ومن هنا كان موقف الاسلام على لسان النبي محمد ﷺ في هذا الموضوع مبدئياً، فقد نهى المؤمنين من أتباعه عن أكل لحوم الذبائح التي لم يذكر آسم الله

---

(١) تفسير ابن جرير، الجزء الأول، ص٤٤٣ بتصرف.

(٢) تثنية الاصحاح ٧.

عليها لكونها فسق.. وفسقها جاء من خروجها عن القاعدة العامة، قاعدة مباركة كل شيء بذكر اسم الله عليه ابتداءً. ورسول الله ﷺ يقول: «كل عمل لا يُبدؤ فيه باسم الله فهو أبتر» ويقول: «كل طعام لا يذكر اسم الله عليه فإنما هو داء ولا بركة فيه وكفّارة ذلك إن كانت المائدة موضوعة أن تسمّي وتعيد يدك، وإن كانت قد رفعت أن تسمّي الله تعالى وتلعق أصابعك»[1]. أما إطلاق هذا النهي كما أطلقه اليهودي فحرّموا أكل ذبائح غير بني جنسهم، وحرّموا مؤاكلتهم بصورة شاملة فهذا شيء عجيب. ولذلك فإن الاسلام قد أجاز على العكس للمسلم بأن يؤاكل اليهودي والنصراني وغيرهم ما دام ما يأكلونه أو يشربونه مباحا. كما أجاز ذبيحة أهل الكتاب. قال ابن كثير: «وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله وان اعتقدوا فيه ما هو منزّه عنه» بل ان الفقيه محمد الدليميّ السوسيّ المالكي في (فتاويه) وقد سئل عن ذبيحة الكتابي، هل تحِلّ المذكى كيف كانت سواء وافقت ذكاتنا أم لا؟ فأجاب قائلاً: «قال الامام ابن العربي: إذا سل النصراني عنق دجاجة، حل للمسلم أكلها لأن الله تعالى أحل لنا أكل طعامهم الذي يستحلونه في دينهم. وكل ما ذكّوْه على مقتضى دينهم حل لنا أكله. ولا يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا. وذلك رخصة من الله تعالى وتيسير منه علينا»[2].

هذا وإن في شريعة اليهود هذه فضلاً عن مخالفتها للحق، تضييقاً على الناس وتقطيع أواصر اللقاء والتعارف الذي من أجله كان خلق الإنسان كما قال الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى و جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[3]. وكيف يتيسّر للناس التلاقي والتحاور في الحق والخير ومن ثم

---

(١) فيض القدير، للمناوي الجزء الخامس، ص ٢١.

(٢) تفسير القاسمي، الجزء السادس، ص ٧٨.

(٣) الحجرات ١٣.

التعارف إذا لم يتيسّر لهم اللقاء في مؤاكلة مباحة أو ما هو قريب منها. فضلاً عن أن في تحريم مؤاكلة المخالفين ما يخلق المنافرة والمباعدة ومن ثم المباغضة. وكلها لا يتأتى منها إلا الحرمان من الخير والحيْلولة دون تعميم فضله ونشره على الناس...

١١ - ثم إن القرآن الكريم نفى ما يزعمه اليهود من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم أفضل من الناس الآخرين، وانهم جزء من الرب، وان الناس كل الناس بعدهم حيوانات وكلاب كما ورد في التلمود[١] بل قال عن الناس جميعاً بأنهم مخلوقون مكرمون وانه خلقهم في أحسن صورة وأن أفضلهم هو أتقاهم قال الله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً﴾[٢]. وقال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[٣].

ولقد تحداهم الله تعالى أن يثبتوا أنهم أبناء الله وأحباؤه فيتمنوا الموت ولقاءه إن كانوا صادقين، أو ليبرزوا ما بأيديهم مما يدل على صدقهم فيما يدّعون. قال الله تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾[٤] ويقول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فَلِم يعذّبكم بذنوبكم. بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾.

فالحبيب لا يعذب حبيبه ولا يشقيه. ولا يتعبه ولا يحزنه. وهؤلاء اليهود قد غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً وضرب عليهم الذلة

---

(١) الكنز المرصود، ص ٦٧ وغيرها.
(٢) الاسراء ٧٠.
(٣) الطور.
(٤) الجمعة ٦.

والمسكنة وأصابهم بكل هوان في الأرض والحياة الدنيا، فأين هم مما يزعمون. قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ وهذا ولا شك فهم جيد وله شاهد من مسند الامام أحمد حيث روى عن أنس قال: «مرّ النبيّ ﷺ في نفر من أصحابه وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني! ابني! وسعت فأخذته. فقال القوم يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار قال: « فخفضهم النبي ﷺ فقال: لا، ولا يلقي الله حبيبه في النار ».

لقد كان يمكن قبول قولهم هذا لو كانوا مؤمنين بالفعل وعلى صراط الله المستقيم. فالله قد فضّل المؤمنين على الكافرين، ورفع منزلة أهل التقوى على منزلة أهل الفجور. ولم يجعل المسلمين كالمجرمين. فقد قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] وقال: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[2] وقال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ [3]. أما وهم من هم في الخصال السيئة والأخلاق الذميمة والطباع القبيحة والسيرة المستنكرة المرذولة، فهم، على الحق، بعد غيرهم وأدنى منهم. وغيرهم ممن زكت نفوسهم وآمنت قلوبهم وأخلصت لله ولرسله، وسمت سيرهم وأخلاقهم، أعلا منزلة وأدنى قرباً من الله.

والغريب العجيب هو ما آنتهوا إليه من تخريج باستباحة أموال غير اليهود وسرقتهم واستباحة غشهم ومخادعتهم والكذب عليهم وظلمهم والزنى بنسائهم وغيره مما لا سبيل الى مجاراته هنا، فهذا في نظر الإسلام مردود ومرفوض أساساً وتفريعاً وشكلاً وموضوعاً. ولذلك فقد نص القرآن الكريم على حرمة السرقة

---

(١) الحجرات ١٣.

(٢) القلم ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) ص ٢٨.

وجعل عقابها قاسياً للردع والحسم اللذين يكفلان راحة الناس وأمنهم وسلامة العلاقة بين بعضهم بعضاً وطمأنينة نفوسهم. كما نص على حرمة أكل أموال الناس بالباطل. وحرّم الغش مطلقاً وكذلك الكذب والخداع والظلم والزنى. يقول الله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[1] وقد ذهب الشافعي ومن قبله عمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز والليث والأوزاعي وأبو ثور وداوود الظاهري الى قطع يد السارق اذا كان قد سرق ما قيمته ربع دينار فما فوق. وحجتهم جميعاً الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في البخاري ومسلم ومنها قوله: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

أما أبو حنيفة فلا يجيز قطع يد السارق إلا اذا كان قيمة ما سرقه عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة وهو ما يعادل ثلاثة أضعاف النصاب الذي اعتمده السابقون. وحجته الحديث الذي رواه أبو بكر بن شيبة في سنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن» وكان ثمن المجن عشرة دراهم... والاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات.

ومما يذكر أن أبا العلاء المعرّي لما قدم بغداد، آشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم ذلك شعراً فقال:

يدٌ بخمسِ مئين عسجد وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَت في ربع دينار؟

وكان من الأجوبة جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أنه قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة. فإن في باب الجنايات، ناسب أن تَعْظُمَ قيمة

---

(١) المائدة ٣٨.

اليد بخمسمئة دينار لئلا يجنى عليها ، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع به ربع دينار لئلا يسارع الناس في سرقة الأموال.

ولقد قال ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » « فإن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد في سبيل الله. وينبغي أن يعرف أن إقامة الحد رحمة من الله بعباده، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحد لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطّله ويكون قصده رحمة الخلق بكفّ الناس عن المنكرات لا إشفاء غيظه وإرادة العلو على الخلق، بل بمنزلة الوالد إذا أدب ولده؛ فإنه لو كفّ عن تأديبه ، لفسد ، وإنما يؤدّبه رحمة واصلاحاً بحاله[1].

ثم إن الله تعالى يقول في النهي عن أكل الأموال بالباطل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾[2].

ويقول ﷺ في النهي عن الغش: « من غش فليس منا » وقد قال هذا القول عندما مر على صُبْرة طعام فأدخل يده فيها فابْتلّت أصابعه. فقال: ما هذا ؟ قال: أصابته السماء. قال: « أفلا صببته فوق الطعام ليراه الناس »[3] ؟ والله تعالى يقول: ﴿ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[4].

ويقول الله تعالى حاضاً على الصدق: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[5]. ويقول ﷺ في هذا المعنى: « إن الصدق يهدي الى البر. وإن البرّ يهدي الى الجنّة وإن الرجل ليصدُق حتى يكتب عند الله صدّيقاً. وإن الكذب

---

(١) تفسير القاسمي، الجزء السادس، ص ٢٠٠.
(٢) البقرة ١٨٨.
(٣) فيض القدير، للمناوي، الجزء السادس، ص ١٨٥.
(٤) البقرة ٤٢.
(٥) التوبة ١١٩.

يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّابا » . متّفق عليه [١] .

وأما بالنسبة الى ظلم الناس والعدوان على حقوقهم، فقد ورد التحذير منه والنهي عنه والتخويف من عاقبته في أكثر من مئتي موضع في القرآن الكريم. وحسبنا أن نسوق هنا قوله تعالى: ﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يشوي الوجوه﴾ [٢] وقوله: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [٣] .

موقفهم من المرأة:

وتنال المرأة نصيبها من هذا الوابل الصّيّب من الوقاحات على الحق والعدوان على القيم وحدود الشريعة ، فإذا بهم أولاً وقبل كل شيء يحمّلونها وزر الابتداء بالأكل من الشجرة يوم نهاها الله تعالى مع زوجها آدم من مقاربتها والأكل منها . بل ووزر إغراء آدم عليه السلام حتى أكل منها . إنها في نظرهم تتحمل لعنة الخطيئة الأولى ، وبتعبير النصارى لعنة الخطيئة الأبدية التي أصابت بني آدم يوم أكل أبواهما من الشجرة وخالفا نهي الله تعالى . كما تتحمل وصمة الجسد المرذول . جاء في الاصحاح الثالث من سفر التكوين: « وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّية . فقالت للمرأة: أحقّاً قال الله لا تأكلا من شجر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة: من ثمر شجر الجنّة نأكل ، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله لا تأكلا منها ولا تمساها لئلا تموتا . فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا ، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان

---

(١) منهل الواردين ، شرح رياض الصالحين ، الجزء الأول ، ص ٨٩ .
(٢) الكهف ٢٩ .
(٣) هود ١٨ .

كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيّدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وان الشجرة شهيّة للنظر وأخذت من ثمرها وأكلت. وأعطت رجلها معها فأكل وآنفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ... ».

وهم بالاضافة الى هذه الغِرْية، يحرّمون على المرأة اذا ما طُلّقت من زوجها وتزوجها آخر ثم طُلّقت من بعد من الجديد، أن تعود الى زوجها الأول، لأنها تكون قد تنجّست. وتقول التوراة التي بين أيديهم: « إذا أخذ رجلٌ آمرأة وتزوج بها فإن لم تجدْ نعمة في عَيْنَيْه لأنّه وجد فيها عَيْب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الأخير الذي آتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أنْ تنجّست، لأن ذلك رِجْسٌ لدى الرب فلا تجلب خطِيّة على الأرض التي يعطيك الرب الٰهك نصيباً ».

موقف النبي ﷺ من ذلك:

وقد جاء الإسلام وحدّد موقفه من المرأة على لسان النبي ﷺ فرفع قدرها وأعلى مكانتها، واعتبرها الكنز الذي لا يفنى حال صلاحها، وشقيقة الرجل والمساعدة له على مسؤولية الحياة وتبعات الأسرة. والمشاركة في بناء المجتمع الكبير، وأبعد عنها لعنة الخطيئة الأبدية التي أنزلتها الكتب السابقة عليه الموجودة بين يدي أصحابها اليوم، ومسح عنها وصمة الجسد المرذول. إذ نسب ذلك الى الزوجين معاً فقال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لهما الشيطان لِيُبْدِي لهما ما وُورِيَ عنهما من سوآتهما﴾ ويقول: ﴿فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ وبهذا يثبت القرآن الكريم الخطأ عليهما ويجزم أن الإثم وقع منهما وانهما معاً سقطا في الخطيئة. ولما انتبها الى سوء تصرفهما وأدركا زلتهما التي اكتسباها رفعا أكف الضراعة الى الله وسألاه

المغفرة والرحمة، فغفر لها وتاب عليها ورحمها. يقول الله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونّن من الخاسرين﴾.

ثم إن آدم وحواء إن كانا قد أخطآ وجنيا إثم المعصية، فإن ذلك لم ينته بهما الى الذي انتهى اليه إبليس. فقد كان خطأهما ثمرة نزوة وانجرافة مع الهوى، وغفلة عن الأمر، ولم يكن مطلقاً ثمرة تمرّد على الأمر كما كان من إبليس، ولا نتيجة كبر على حكم الله وقضائه، ولذلك فإن الله تعالى العارف بالقلوب والمطلع على نجوى النفوس، تلقى منهما أوبتهما إليه واستغفارهما، فتاب عليهما وهداهما الى صراط مستقيم. وبذلك مسح إثم الخطيئة عنهما وعفا عنهما فانكفأت وحُسِمت ولم يعد جائزاً مدّ ظلالها بحيث تنعكس على ذرّياتهما من بعدهما حتى تقوم الساعة... فكل امرىء، في الاسلام، رهين بما كسب مسؤول عما جنى وارتكب، ولكل انسان ما سعى، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون﴾.

هذا وإن القرآن الكريم وهو دستور الاسلام وكتابه الخالد ومعجزة محمد الثابتة على الدهر يرفض الحكم القائل بتنجّس المرأة بعد طلاقها من زوجها الثاني. ولقد أباح الطلاق للزوجين، وأباح لها بعده اختيار ما شاءا من الأزواج في حدود ما شرعه الله، كما أباح لهما بعد ذلك في حال الطلاق، أن يعود أحدهما الى الآخر دونما حرج أو اثم أو خطيئة. وكيف يعقل أن يحكم على المرأة بالنجاسة لمجرد تزوجها شرعاً برجل جديد بعد مطلقها الأول؟ ولماذا لا يحكم بتنجّسها بعد طلاقها من زوجها الأول كما حكم بتنجّسها بعد طلاقها من زوجها الثاني؟ وما السبب الذي حمل على إعطاء مثل هذا الحكم في الحالة الثانية من الزواج دون الأولى؟ ولماذا أصلاً مثل هذا الحكم؟ وما الذي يسبّبه؟ وهل هو للزواج مطلقاً أو الزواج للمرة الثانية؟ وكيف يحكم على امرأة تزوجت حسب الشريعة الإلهية بأنها تنجّست سواء كان للمرة الثانية أو للمرة الأولى أو لغيرهما، ما دام زواجها كان بسبب مشروع وبعيداً عن التلاعب بالدين؟ أليس مثل هذا الحكم عجيباً وغريباً؟ وكيف سيكون حال

النساء اللواتي يطبق عليهن مثل هذا الحكم عندما تلجئهن الضرورة الى داعي الزواج في شبيه هذه الصورة؟ بل كيف يؤول وضع المجتمع الذي يطبق عليه مثل هذا التشريع وفي ظل مثل هذه الروح التي تمليه؟!

لا ريب أنه سيصبح من العسر تَفَهّمه والالتزام به لأنه فوق طاقة البشر وليس في مصلحتهم. والشرائع عندما لا تراعي مصالح الناس في مقاصدها التشريعية تفقد مبرر تنفيذها والآلتزام بها.

الفصل الحادي عشر

موقف الرسول ﷺ من عامة اليهود

١ ـ رسالة محمد العامة
٢ ـ دخول اليهود في عموم الرسالة
٣ ـ سنة الرسول في دعوته
٤ ـ بشارة التوراة بالرسول
٥ ـ فضل هذه البشارات

رسالة محمد العامة:

لقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ ليكون رسولاً للعالمين؛ بعثه ليكون رسولاً للعرب وللعجم في شرق الأرض وغربها، الى أبيضهم وأسودهم، والى إنسهم وجنّهم وعلى اختلاف ألسنتهم ومللهم. قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1]. قال ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم، إنّ الله تعالى فضّل محمدا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا يا ابن عباس! فبم فضّله الله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه، إنّ الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسانِ قومه ليبيّن لهم﴾[2] وقال للنبي ﷺ «وما أرسلناك إلا كافّة للناس» ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3] وقوله: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[4].

وهكذا فإن الله تعالى قد أرسل محمداً ﷺ الى الإنس والجن عامة. قال ابن كثير تعليقاً على قول ابن عباس السابق: «وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيت

---

(١) سبأ ٢٨.

(٢) ابراهيم ٤.

(٣) الأعراف ١٥٨.

(٤) الفرقان ١.

خمساً لم يُعطَهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْت بالرُّعْب مَسِيرَة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيّما رجل أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلّتْ لي الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلي وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه، وبُعثت الى الناس عامة»[1]. وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحد قبلي: أرسلت الى الأحمر والأسود الخ...»[2]. قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره يعني العرب والعجم.

وقد قال القاسمي إن التحقيق في معنى عموم إرساله ﷺ هو أنه قد جاء يحمل شرعاً ينطبق على مصالح الناس، وصالحاً للقضاء في حاجاتهم وسياستها أينما كانوا وأي زمان وجدوا. وهو ما لم يتفق في شرع قبله قط. ومن أجل هذا كانت رسالته خاتمة الرسالات جميعها.

وأخرج مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار..» وكل من وصله خبر بعثة ﷺ وخبر معجزاته وشرائعه سمعاً وقراءة جب عليه الإيمان به، وإلا كان عرضة لعقاب الله تعالى.

دخول اليهود في عموم هذه الرسالة:

وعندما يكون محمدٌ ﷺ مرسلاً الى الناس كافة كما ظهر من مفهوم الآيات السابقات والأحاديث، يكون أيضاً وفي هذا العموم والشمول مرسلاً الى اليهود والى النصارى والى جميع ذوي الديانات على تنوعها. ولذلك فقد قام الرسول ﷺ بمهمته في ضوء هذا المفهوم وتوجه بدعوته الى بني قومه العرب، فبدأ بأهل مكة ثم توسع حتى عمت دعوته الجزيرة بكاملها. وكانت الجزيرة تضم بين أطرافها الوثنيين وأصحاب الكتب السماوية من اليهود والنصارى.

---

(١) القاسمي، الجزء الرابع عشر، ص٢٦.

(٢) تفسير روح المعاني، للألوسي، الجزء الثاني والعشرون، ص ١٤٢.

سنّة الرسول في دعوته:

ولقد كانت سنّة الرسول ﷺ ودعوته قائمة على الأساس الذي رسمه الله تعالى له يقول: ﴿أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بِمَنْ ضَلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1] ومفهوم هذه الآية أدعُ إلى سبيل ربك بالكلمة المستندة الى البراهين القطعية اليقينيّة، أو بالمقالة المعتمدة على الدلائل الظنيّة، وعلى العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ليحذروا بأس الله تعالى ويعودوا الى الحق. ثم أمره في حال الدخول مع المخالفين له في الدين في محاورة، أنْ يكون جداله وحواره معهم بالطريقة الحسنى والخطاب الرقيق الليّن من غير ما قسوة أو عنف. وأعلمه بأن دعوته هذه حتى بالأسلوب الذي نصحه به لا تضمن له دوماً وفي كل الأحوال استجابة المخالفين وانخراطهم في سلك المؤمنين. ولذلك فإن عليك الدعوة والبلاغ فقط، واياك أن تذهب نفسك على من أعرض واستمرّ في ضلال أسفاً وحسرات «فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب» والله أعلم بالمهتدين..

ولقد تابع دعوته مع جميع الناس بما آتاه الله من رحابة صدر وحسن خلق ودماثة طبع وحلاوة لسان ورقة حاشية حتى لم يعرف عنه في معاملات قسوة أو غلظة. وكان كما وصفه الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ كما كان عزيزاً عليه عنت الناس والمؤمنين بالذات وكان بهم برّاً كريماً ورؤوفاً رحيماً. يقول الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[2] فكان كالأب الرحيم والراعي الشفيق والطبيب الحاني الرقيق.

ولقد اشتهر عنه حسن معاملته لقومه؛ فصبر على أذاهم ومجافاتهم مدة ثلاث عشرة سنة لم يقابل سيئهم بسيّئة، ولا أذاهم بأذى ولا قسوتهم بقسوة. بل إنه بعد

---

(١) النحل ١٢٥.

(٢) التوبة ١٢٨.

معاناته المديدة معهم وبعد أحد عشر عاماً خرج الى الطائف، وقد كاد يفقد كل وسائل الأمل الطبيعيّة للوصول الى آستجابتهم لدعوته، أو كفّهم عن مؤاذاته ومؤاذاة أصحابه، فعرض له وهو في طريقه إليها، ومن خلال سحابة أظلّته، جبريل عليه السلام، فناداه فقال: « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [وهما جبلا مكة أبو قبيس وقُعَيْقُعان الذي يقابله] أيْ لَفَعَلْت. قال النبي ﷺ: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عزّ وجل وحده ولا يشرك به شيئاً »[١].

ولقد عامل الرسول ﷺ اليهود عندما هاجر الى المدينة، بمثل ما عامل به قومه، ولقد كان معروفاً أنه ﷺ كان يتجه في صلاته وهو في مكة الى بيت المقدس، وأنه بعد أن هاجر منها الى المدينة لبث كذلك يتوجه بصلاته إليها ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً على رواية أخرى[٢].

ولسنا نقبل أن يفهم من قولنا هذا أنه ﷺ شاء بهذا ممالأة اليهود ومجاراتهم والتودّد إليهم بالباطل، فإن مثل هذا الفهم مردود أصلاً، لأن أمر الرسول ﷺ وأمر رسالته هما بين يدي الله رب العالمين وأحكم الحاكمين العليم الخبير. ولكننا نريد أن نذكر بأنه ﷺ عقب دخوله المدينة ورغم وعيه لدسائس اليهود وتآمرهم عليه، ظل بأمر الله وبحكمته يتوجه إلى بيت المقدس في صلاته، وهـو مـا يـؤكـد إقامته على مبدئه وخطته؛ مبدأ وخطة الملاينة مع الجميع مهما كانت الظروف والأحوال ما لم يكن ثمة مساس بحرمة العقيدة وسلامة الشريعة وأحكام الله تبارك وتعالى...

ولقد تلاحق موقفه هذا من اليهود خطوة خطوة حتى أقنعهم بعد لأي بأن

---

(١) البخاري، بدء الخلق ٤٥٨/١ ومسلم باب مالقي النبي من أذى المشركين والمنافقين.

(٢) خاتم النبيّين، لأبي زهرة، الجزء الثاني، ص ٧٣٢.

يعقد معهم معاهدة حسن الجوار التي ضمنت له التفرّغ لدعوته ولتجميع صفوفه والآنتباه الى مكايد خصمه اللدود القرشيين، وفتح باب الحوار مع اليهود في العقيدة والشريعة...

ولقد كانت سيرة الرسول ﷺ معهم مثلاً رفيعاً في التسامي ورفعة الخلق والسلوك؛ في الصبر على أذاهم وتحمل كيدهم ومكرهم، ومحاولاتهم الخسيسة التي كانوا يمارسونها في الخفاء طوراً وفي العلن أخرى.

ولم يدع الرسول الأكرم هذا المنهج الصبور الكريم مع هؤلاء، ولا مع القرشيين من قبل، ولا مع بعض قبائل العرب المنيخين حول المدينة؛ منهج الملاينة والتلطف والإحسان إلا عندما صار يتعذّر عليه ذلك، فكان ما كان من معارك مصيرية بينه وبينهم جميعاً...

وهكذا فقد كانت معاملة الرسول لليهود وسواهم معاملة المبعوث من الله الذي ترافقه عنايته وتحدوه رعايته وتراقبه وترشده.

ولقد كان اليهود يعلمون من الرسول ﷺ، مما كانوا يسمعون منه من الوحي القرآني أو السني، ما يثبت لهم أنه رسول رب العالمين.. فهم أبناء اسرائيل واصحاب كتاب سماوي فيه الكثير من الأخبار التي تشهد له ﷺ وهو الصادق المصدوق، وتؤكد لهم أنه رسول الله وأنه لا ينطق عن الهوى. ولكن كان يصرفهم عن التصديق به والايمان، الحسد والحقد لأنه عربي، ومن ذرّية اسماعيل وليس عبرياً ومن ذريّة اسحاق....

بشارة التوراة بالرسول ﷺ:

ولقد كانوا يقرأون التوراة ويطبّقون ما يريدون من الأحكام الواردة فيها. ولقد كانوا يجدون فيها كلما قرأوها ما يؤكد لهم أوصاف هذا الرسول العظيم ويثبت لهم أنه النبي الذي ما زالوا ينتظرون ظهوره. ويمكننا فيما يلي أن نسوق بين يدي القارىء طرفاً من النصوص التوراتية الشاهدة على ذلك...

١ - ورد في سفر التثنية الاصحاح [١٨ : ١٨ - ١٩] « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون ان الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه ».

ومفهوم هذا النص أن الذي سيبعث بعد موسى وقد بشرت به التوراة لن يكون من بني إسرائيل، بل من إخوة بني إسرائيل. وإخوة بني إسرائيل هم العرب المستعربة الذين يرجعون بنسبهم الى اسماعيل أخي اسحاق، أو الروم الذين يعودون بنسبهم إلى عيسو أخي يعقوب فأما الروم فقد يُئس أن يكون منهم نبي، ولم يكن منهم سوى أيوب وكان قد جاء قبل موسى عليه السلام بزمن طويل، ويرجح بعض المؤرخين أنه قد بعث قبل إبراهيم عليه السلام[١]. وهكذا يكون النبي الذي بشرت التوراة بظهوره من إخوة بني إسرائيل هو من العرب. ولم يبعث من العرب رسول يحمل تلك المواصفات وكانت له الآثار الكبيرة إلا محمداً ﷺ. وبخاصة وأن التوراة عندما تحدثت عن اسماعيل جد العرب قالت في سفر التكوين الاصحاح [١٦ - ١٢] « وأمام جميع اخوته يسكن ».

٢ - وورد في التوراة التي بين أيديهم: « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربْوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم »[٢]. ويتضمن هذا النصّ الإشارة إلى النبوات الكبرى الثلاث: نبوّة موسى ونبوة عيسى، ونبوّة محمد عليهم الصلاة والسلام. وعبارة « جاء من سيناء » هي التي تحمل الإشارة الى نبوة موسى عليه السلام لأنه هو الذي كلّمه الله تعالى على جبل سيناء ونبأه بخبر نبوته.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وآذكر في الكتاب موسى إنه كان مُخلَصاً وكان رسولاً نبيّاً وناديناه من جانب الطور الأيْمن وقرّبناه نَجِيّاً﴾[٣] ويقول: ﴿فلما قضى موسى الأجَلَ وسار بأهله آنَسَ من جانب الطّوز

---

(١) بين الاسلام والمسيحية، ص ٦١١، تحقيق محمد شامه.

(٢) التثنية ٣٣ : ٢.

(٣) مريم ٥٢.

ناراً. قال لأهله آمكثوا إنّي آنَسْتُ ناراً لَعَلّي آتيكم منها بخبر أَوْ جَذْوة من النار لعلّكم تصطلون. فلما أتاها نُودِي من شاطىء الوادي الأيمن في البُقعة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين. وأنْ الق عصاك، فلما رآها تهتزّ كأنها جانٌّ ولّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنّك من الآمنين. أسْلُكْ يَدَك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء وآضْمُمْ إليك جناحِك من الرَّهْب فَذَانِك برهانان من ربك الى فرعون وملإه إنهم كانوا قوماً فاسقين. قال ربّ إني قَتَلْتُ منهم نَفْساً فأخاف أن يقتلون. وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردْءاً يُصدّقني إني أخاف أن يكذبون. قال سَنَشُدُّ عَضُدَك بأخيك ونَجْعَلُ لكما سلطان فلا يصلون إليكما، بآياتنا أنتما ومن آتّبعكما الغالبون﴾[1].

وكلمة «وأشرق من ساعير» عبارة تشير الى نبوّة عيسى عليه السلام. لأن «ساعير» قرية معروفة عند بيت المقدس. وكلمة «وتلألأ من جبل فاران» تشير الى نبوّة محمد ﷺ، لأنّ «فاران» هي مكة. فقد ورد في التوراة أيضاً، أن إسماعيل لمّا فارق أباه إبراهيم سكن مع أمه في برّية فاران. ولا يشك علماء أهل الكتاب بأن فاران هي مسكن لآل اسماعيل عليه السلام واسماعيل وآله لم يسكنوا سوى مكة. فتأكد بهذا أن المشار إليه بهذه البشارة هو محمد ﷺ.

على أن لهذه البشارات الثلاث نظير في القرآن الكريم، فقد ورد قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾[2] والمراد بـالتين والزيتـون مكان نباتها وأرضها، وهي الأرض المقدسة التي هي مكان ظهور عيسى عليه السلام و«طور سينين» هو الجبل الذي كلم الله تعالى عنه موسى عليه السلام فهو مكان ظهور نبوّته. وأما عبارة «وهذا البلد الأمين» فهو مكة المكرّمة حَرَمُ الله وموضع أمنه التي ولد فيها الرسول ﷺ وبعث منها نبيًّا للعالمين..

---

(١) القصص ٢٩ ـ ٣٥.

(٢) سورة التين ١.

وفي نص التوراة: «جاء الربُّ من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران» ما يلفت النظر؛ وذلك أن قوله: في الأول «جاء أو ظهر»، وفي الثاني «أشرق» وفي الثالث «استعلن أو تلألأ»، هو لأن مجيء التوراة كان مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك. ونزول الانجيل مثل إشراق الشمس حيث يزداد به النور والهدى. وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، وقد قال ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأرضُ فرأيت مشارقها ومغاربها. وسيبلغ مُلْكُ أُمّتي ما زُوِيَ لي منها»[1].

وان الله تعالى قد أخبرنا في الكتاب العزيز بما يجزم أن مسكن إسماعيل وابراهيم كانت مكة، يقول الله تبارك وتعالى على لسان ابراهيم: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريّتي بواد غير ذي زَرْعٍ عند بيتك المحرّم. ربّنا لِيُقِيمُوا الصلاةَ فاجْعَلْ أفْئِدةً من الناس تَهْوِي إليهم وارْزُقْهُم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾[2]. ويقول أيضاً ﴿وإذْ جعلنا البَيْت مَثَابةً للناس وأمْناً واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى. وعَهِدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طَهِّرَا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود وإذْ قال ابراهيم ربّ اجْعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كَفَرَ فَأُمَتِّعهُ قليلاً ثم أضطرّه الى عذاب النار وبئس المصير. وإذْ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منا إنّك أنْت السميع العليم ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذرّيتنا أمّة مُسلمةً لك وأرِنَا مَنَاسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التوّاب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يَتْلُوْ عليهم آياتِكَ ويُعَلّمُهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[3].

٢ ـ وقد ورد في التوراة نص يخاطب الله به هاجر أم اسماعيل حين أقبلت عليه

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الجزء الثالث، ص ٣٠٤.

(٢) ابراهيم ٣٧.

(٣) البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩.

بالدعاء فيقول: ﴿قد سَمِعتُ خشوعَك في إسماعيل وستكون يداه فوق يد الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع﴾[1]. والمعلوم من التاريخ ان إسماعيل لم يكن له ملك يعلو فيه على من حوله، بل العكس هو المعروف. فقد كانت أيدي إسماعيل وأولاده تحت يد إسحاق لأن النبوّة كانت في ولده. ولكن الذي حقّق هذه النبوءة هو محمد ﷺ، وهو من أولاد اسماعيل؛ فإنه لما بعث وانتشر دينه على يَدَيْه جعل يَدَ بني إسماعيل فوق يد الجميع، وردّ النبوّة فيهم وأنْماهم وعظّمهم وبارك عليهم جداً جداً كما ورد في التوراة[2]، ولم يكن في الأرض سلطان أعزّ من سلطانهم، حيث قهروا فارس والروم والقبط واليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين، فكان ذلك ولا ريب تحقيق قوله في التوراة: «وتكون يداه فوق يد الجميع».

٣ ـ وقد ورد في الزبور أيضاً ما يؤكّد هذه البشارة ويزيدها وضوحاً وجلاءً وهو قوله: «سبّحوا الربّ تسبيحاً حديثاً. سبّحوا الذي هيكله الصالحون ليفرح إسرائيل بخالقه وبنات صهيون من أجل أن الله آصطفى لهم أمة وأعطاهم النصر وأيّد الصالحين منهم بالكرامة يسبّحون الله على مضاجعهم، ويكبّرونه بأصوات مرتفعة. بأيديهم سيوف ذوات شَفْرتين لينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال»[3].

فمن غير أتباع محمد ﷺ يكبّرون الله بأصوات مرتفعة في الأذان وفي غيره، في الأعياد وفي الأماكن المرتفعة. كما قال جابر بن عبد الله: «كنّا مع رسول الله ﷺ، إذا عَلَوْنا كَبّرنا وإذا هَبَطْنا سبّحنا فوضعت الصلاة على ذلك» رواه البخاري. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر قال «كان رسول الله ﷺ إذا قفل

---

(١) تكوين ١٦ : ١٢.
(٢) تكوين ١٦ : ١٢.
(٣) راجع المزمور ١٤٩.

من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوْفى على ثَنِيّة أو فَدْفَدٍ كبّر ثلاثاً ثم قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربّنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[1] وكل هذا آستجابةً لأمر الله تعالى له ولأمّته في قوله: ﴿ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون﴾[2] وقوله: ﴿كذلك سخّرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾[3].

ولقد أصبح التكبير شعار المسلمين حتى أن الرسول ﷺ كان اذا غزا أقواماً لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذانا أمسك وإن لم يسمع أذانا أغار بعد ما يصبح.

ثم من هي هذه الأمة التي بشّر بها داوود وسيوفها ذوات شفرتين أو ذات حدّين، وهي كما هو مشهود لها سيوف عربية، اذا لم تكن أمة محمد ﷺ؟ ومن هم الذين يسبّحون الله تعالى على مضاجعهم؟ أليسوا هم اتباع محمد الذين يقيمون الصلاة ويذكرون الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. وقد ورد في الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذْ نظر الى القمر ليلة البدْر فقال إنكم ستَرَوْن ربّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته. فإن آستطعتم ألاّ تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها». ولما علّم جبريل الرسول ﷺ الصلاة وأوقاتها قال له: «هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك».

إن هذه الأوصاف لا يمكن إلا أن تكون خاصة بمحمد عليه الصلاة والسلام وأمّته لأن هذه الخصال لا تكون إلاّ فيهم، ولا يمكن أن تكون في النصارى الذين جاؤوا بعد اليهود لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة، ولأنهم لا يحملون في قتالهم سيوفاً ذات شفرتين، بل إنهم كانوا لا يحملون في قتالهم السيوف مطلقاً.

---

(١) الجواب الصحيح، الجزء الثالث، ص ٣١٥.
(٢) البقرة ١٨٥.
(٣) الحج ٣٧.

٤ ـ وورد في صحف أشَعْيا التي بين أيديهم: « ستمتلىء البادية والمدائن من قصور آل قيدار يسبّحون الله، ومن رؤوس الجبال ينادون. هم الذين يجعلون لله الكرامة ويبثون تسبيحه في البر والبحر »[1].

وقيدار هو وَلَدُ إسماعيل عليه السلام. والبادية التي امتلأت من قصور آل قيدار ليْسَت إلا بادية الجزيرة، وآل قَيْدار هم الذين ينادون بالأذان ويرفعون أصواتهم بالتَلْبية أيام الحج من رؤوس الجبال ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج الى بيت الله.

٥ ـ وفي صحف أشَعْيا أيضاً: « لِتَفْرَحْ أرض البادية العطشى، ولْتَبْتَهج البراري والفَلَوَات لأنها سَتُعْطَى بأحمد محاسن البستان وستكون مثل الرياض حسناً وبهاءً[2]..

ولو رحنا اليوم وفي هذا القرن العشرين نتجوّل في أطراف الجزيرة في جدة ومكة والمدينة والقصيم وتبوك وأبْها والطائف وغيرها وغيرها ثم في دولة الامارات مدينة مدينة وفي الكويت وقطر، فهل نرى إلا ما يؤيد هذا القول الذي يشهد لمحمد ﷺ بأنه معطى الصحراء بفضل الله... الصحراء القاحلة، اليابسة الجدباء، محاسن البستان وجاعلها مثل الرياض حسناً وبهاءً.

٦ ـ وفي صحف أشَعْيا أيضاً يقول: « قم ناظراً فأنظر: فما ترى؟ قلت أرى راكبيْن مُقْبِلَيْن أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها النخرة »[3]..

وقد اتفق جميع علماء النصارى أن المراد بصاحب الحمار هو عيسى عليه السلام. ولكن من هو صاحب الجمل وراكبه اذا لم يكن محمداً ﷺ. أوَ لَيْس

---

(١) اشعيا ٤٢: ١١ ـ ١٣.

(٢) عن كتاب دين الاسلام والمسيحية، ص ٢٧٧.

(٣) أشعيا: ٢١: ٦ ـ ٩.

محمداً أشهر بركوب الجمل من عيسى بركوب الحمار؟ ثم متى سقطت الأصنام ببابل وألغيت عبادتها؟ أليس كان ذلك بمجيء النبي محمد ﷺ وانتشار رسالته من بعده. أو ليس ملوك بابل قد ظلوا يعبدون الأوثان ويسجدون لغير الله من عهد إبراهيم عليه السلام حتى بعث الله محمداً فسقطت بابل على أيدي أصحابه الميامين وزالت بذلك عبادتهم للأوثان؟

فضل هذه البشارات:

ولقد كان لهذه البشارات فضل كبير إذْ شجعت الكثيرين من اليهود والنصارى على الدخول أفواجاً في دين الله... بيد أن ذلك لم يحل دون وقوع المآسي والحروب وما تجر وراءها من مصائب وويلات. فقد جعل المشركون في مطلع الدعوة في آذانهم وَقْراً، وكانت قلوبهم غلفاً وعلى أبصارهم غشاوة. وقد عموا وصموا واجترحوا أسوأ السوء وصدوا عن سبيل الله يبغونها عوجاً، وكانوا لا يزدادون مع الزمن إلا ضراوة وبعداً عن الحق، فكان لا بد من وقوع حروب بينهم وبين الرسول ﷺ الذي وفقه الله تعالى في الختام عليهم، ودخل مكة منتصراً وخضعت قريش للاسلام ودخلوا في دين الله افواجاً.

وأما اليهود فقد سبق واطلعنا على ما حصل منهم من اساءات للنبي وصحبه ثم من تآمر وكيد، حتى انتهى بهم الأمر الى تلك الخاتمة المخزية فطردهم الرسول ﷺ شر طردة من المدينة ثم من الجزيرة حيث طردهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهده.

الفصل الثاني عشر

خلاصة موقف اليهود من الدعوة وصاحبها

لقد ثبت مما تقدم أن موقف اليهود من الدعوة الاسلامية وصاحبها محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ومن أصحابه، كان في الأساس موقف الجاحد الرافض حسداً وبغياً رغم كل الأدلة التي وضعها بين أيديهم، والتي تثبت لهم دونما ريب أنه رسول الله المنتظر. ثم موقف المعادي والمخاصم رغم اقتناع مجموعة كبيرة من أحبارهم وأبنائهم وفي مقدمتهم عبد الله بن سلام، أن الله تبارك وتعالى جعل محمداً ﷺ خاتم النبيّين، وأنه به أكمل له ولأمته الدين، وأنه قد بعثة للناس على فترة من الرسل ليقمع به الشرك ويستأصل عبادة الأصنام ويردّهم الى الله رداً جميلاً. ورغم آقتناعهم جميعاً أن الدين واحد، ورغم معرفتهم الدقيقة بمحمد ﷺ وبدينه الذي جاء يحمله الى البشر قاطبة.

ولقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: «أنا أعلم به مني بابني. قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنّه نبي. وأما ولدي فلعلّ والدته خانت. وهذا يؤيد قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطّيّبات ويُحرّم عليهم الخبائث ويَضَعُ عنهم إصْرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين

---

(١) البقرة ١٤٦.

آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[1] .

ولقد كانت قناعتهم ومعرفتهم مبنيّتين على ما كان سبق واطّلعوا عليه من بشارات تشير أو تصرّح بمبعثه ، وعلى ما وَضَعه رسول الله ﷺ بين أيديهم وتحت أنظارهم من آيات باهرات ومعجزات قاهرات لا تبرح للحيرة مكاناً ولا للشك سبباً ولا مسوغاً . أفليس محمد ﷺ هو الذي كان يخاطبهم ويحدثهم بما كان قد وقع لآدم عند خلقه وبعد خلقه من أخبار وهو في الجنة وبعد أن أهبط منها صححت الكثير مما هو وارد في التوراة التي بين أيديهم اليوم؟ ثم ألم يحدّثهم عن نوح وقومه والطوفان وكيف حصل وكيف رعى الله نوحاً والذين آمنوا معه وأنقذهم منه؟ ثم ألم ينقل اليهم أخبار ابراهيم مع أبيه ومع قومه والكلمات التي كان يردّدها كل من هؤلاء وكيف انقذه الله تعالى من مكرهم وأنجاه من النار التي أرادوا أن يحرقوه بها؟ ثم ألم يحدثهم عنه بعد هجرته الى فلسطين وعن ولادة اسماعيل ثم إسحاق ببشارة من الله تعالى وإبراهيم شيخ وامرأته عجوز؟ ثم ألم يحدثهم ما جرى بينه وبين الملائكة وما حصل للوط وقومه وامرأته؟ ثم عن بناء الكعبة ورفع قواعدها مع ابنه اسماعيل؟ ثم ألم ينقل اليهم خبر يعقوب وابنه يوسف مع بعض التفاصيل التي يعز سردها وروايتها كالمنام الذي رآه يوسف ثم كيف تحقق كله على أرض الواقع وكيف جمع أبويه على العرش؟ وقصة ولادة موسى وأمه، وقصته مع امرأة فرعون وفرعون بالذات بعد أن بعثه الله اليه رسولاً مع أخيه هارون وما كان بينهما وبين فرعون ثم خروجه بقومه وتجاوزه البحر بالمعجزة العجيبة وغرق فرعون وجنوده، ثم دخوله صحراء التيه وما وقع له فيها من خوارق وعجائب لا يعلمها ولا يحدث بها إلا الخبير العليم؟..

ثم ألم يروِ لهم خبر من جاء بعد موسى وما جرى على أيديهم من وقائع وعلى

---

(١) الأعراف ١٥٦ .

ألسنتهم من أحاديث ؟ ألم يحدثهم عن طالوت وجالوت، وداوود وسليمان وما أجرى الله تعالى على ايديهما من خوارق وعجائب وما امتازا به من خصائص ؟ ثم عن عيسى وعن أمه البتول الطاهرة؛ عن ظروف ولادتها وما رافقها حتى بعث عليه السلام، وحتى آذاه قومه وهم الإسرائيليون أنفسهم، فنسبوا إليه ما نسبوه وبهتوا والدته واشاعوا عنه أنه ابن زنى، ثم حرضوا عليه الناس ثم السلطة وتوصلوا حتى زيّنوا لها القضاء عليه، ثم أشاعوا أنهم صلبوه. ألم يروِ لهم هذا ثم يصحح لهم الخبر ويكشف لهم الحقيقة، ويخبرهم أنهم في الواقع لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكنهم صلبوا وقتلوا سواه وهو الذي اشتبه عليهم أمره فظنّوه عيسى عليه السلام؟

ألم يحدثهم الرسول ﷺ بهذه الأحاديث ويضف إليها أيضاً المعجزات الإنسانية الكثيرة التي أيّدته وأكّدت صدق دعواه؟ ألم يسمعوا آيات الله تتلى عليهم وتثبت لهم بذاتها وبما تنطق به من إعجاز وبلاغة وحكمة وإخبار بمغيّبات سابقة ولاحقة تؤكد لهم كلها أنه رسول الله الذي بشرت به التوراة وبشّر به أنبياء بني إسرائيل؟

نعم لقد فعل كل هذا وغيره مما لا نكون قد آهتدينا إليه وآطّلعنا عليه. ولكنّهم كما أخبرنا القرآن الكريم عَمُوا وصَمّوا ثم عَمُوا وصَمّوا وضلوا عن سواء السبيل، وبالغوا في عداوتهم للاسلام وله ﷺ وللحق، وآتبعوا أهواءهم واستجابوا لما تمليه عليهم من حقد وحسد وبغي ونفاق ومخادعة وتآمر، وتجاوزوا في ذلك كل آعتبار وكل معنى وقيمة، ولم يبالوا بأية عقيدة أو دين أو حق. ووصل بهم الأمر أن مالأوا الشرك على التوحيد والوثنيين على المسلمين. بل ومالأوا مدّعي النبوّة والكذّابين أمثال طليحة بن خُوَيْلد الأسدي، والأسود العنسي. وآستخدموا وسائل الدّس الرخيص عليه وعلى دعوته. كما آبتدعوا أساليب الحوار المشكك وصور السلوك والمعاملة الهادفة الى الصدّ عنه وتنفير الناس منه وآختلاق الأكاذيب والآفتراءات عليه، وإلباس الحق بالباطل وتشويه المعلومات الصحيحة أو كتمها.

لقد استهزأوا بالاسلام وبالرسول وشهّروا به وحرّضوا عليه، وحاولوا شل حركته ودعوته بكل الوسائل الخفيّة والظاهرة حتى السحر والقتل. وآذوا المسلمين آجتماعياً وآقتصادياً فجرّبوا حتى آحتكار السلع بل والماء. فكان أحدهم يبيع ماء بئر رومة للمسلمين. ولما شاء الرسول حسم الأمر وشراء البئر تمنّعوا حتى عن بيعها، وتلاعبوا في ذلك، ولكن الله وفّقه عليهم فآشتراها عثمان بن عفّان رضي الله عنه ووهبها للمسلمين.

لقد كان كل ذلك منهم، وكان من الرسول ﷺ بالمقابل ما رأينا مما لا بدّ من تلخيصه أيضاً.

الفصل الثالث عشر

خلاصة موقف الرسول ﷺ من اليهود

١ ـ تأمينه اليهود عن ممتلكاتهم

٢ ـ اجازة التعامل معهم

٣ ـ احلال ذبائحهم

٤ ـ اجازة عقد الصلات معهم

٥ ـ زيارتهم

٦ ـ اليهود مجموعة بشرية خطيرة

٧ ـ وصيّة الرسول باخراج اليهود من الجزيرة

٨ ـ معنى هذه الوصية وسببها

٩ ـ موقف الإسلام السمح بالنسبة لأهل الديانات

١٠ ـ اليهود هم الذين لعبوا أدوار تخريب الكيان الاسلامي

خلاصة موقف الرسول ﷺ من اليهود:

لقد كان لنزول الوحي على رسول الله ﷺ منجماً، وتبعاً للأحداث ولمقتضيات الدعوة والظروف التي تلابسها وتحيط بها الفضل الأول في رعايته ﷺ ورعاية دعوته وحمايتها من خطر ذئاب البشر وكيد شياطين الإنس والجن؛ إذْ المعلوم أنه بنزوله على تلك الصورة، كان يتابع نشاط الرسول ﷺ وحركته الإصلاحية متابعة المساعد والمسدّد والموضح والمصلح والمنبّه والمعلّم والمؤيّد والمشرع والحافظ. حتى أنه لم يؤذن له بالخروج مهاجراً الى المدينة إلا وهو محفوفٌ بكامل الرعاية. وهو لم يدخل المدينة إلاّ بعد أن كانت نفسه مهيّأة كل التهيّؤ لتحمل مسؤولياتها فيها. سواء كان في مواجهة اليهود خاصة أو في مواجهة المنافقين، أو في مواجهة سكان المدينة وما حولها بوجه عام. ولذلك فإن مواقف اليهود العدائية والمشاكسة على اختلاف صورها وأسبابها ونتائجها، ورغم ما كان يقترن بها من مهيّجات، لم تُفْقد الرسول ﷺ عصمته واستمساكه بالحق. فبعد الذي كان من يهود بني قينقاع والنضير وقريظة، كان يفرض أن يحمله الغيظ من هؤلاء على تفجير غضبه في يهود خيبر بعد أن فتحها. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن. ولولا تحرشهم به لما أقدم على غزوهم. ولما فرض عليه غزوهم حماية لكيانه وصيانة لكرامة الاسلام ورداً على تحدّيات الخيبريين المتكرّرة، تلطف بهم وقبل أن يصالحهم بعد آنتصاره عليهم، وأن يعاملهم على أن يبقوا في أرضهم ويقوموا بزراعتها له وإصلاحها، وعلى أن تبقى لهم معابدهم وبِيَعُهم. ولما وجد في الغنائم

بعد انتهاء المعركة نُسَخاً من التوراة، أمر أصحابه بردّها إليهم[1].

١ ـ تأمينه اليهود على ممتلكاتهم:

ولما شكى يهود خيبر إليه سوء معاملة المسلمين لهم، وأنهم كانوا يقعون في حرثهم وينزلون بدوابّهم فيها لترعى منها دونما حذر، أمر ﷺ عبد الرحمن بن عوف فنادى الى الصلاة جامعة، ثم قام في الناس خطيباً، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن يهود شكوا إليّ أنكم وقعتم في حظائرهم. وقد أمّنّاهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم من أراضيهم وعاملناهم. وأنه لا تحِلّ أموال المعاهَدين إلا بحقّها. فكان المسلمون بعد ذلك لا يأخذون من بقولهم شيئاً إلا بثمن»[2].

٢ ـ إجازته التعامل معهم:

وثبت عن النبي ﷺ رغم حذره من اليهود، ووعيه الكامل لسلوكهم السيّء وطباعهم المرذولة، أنه أجاز التعامل معهم للمسلمين. فقد اشترى من يهودي سلعة الى مَيْسرة. وأخذ من يهودي آخر ثلاثين وَسْقاً من شعير ورهنه درعه. وثبت عنه أنه أجاز مزارعتهم ومساقاتهم والأكل من طعامهم. وكل هذا يدل بما لا لَبْس فيه على أنه ﷺ ما كان يبغي مضارّة اليهود ولا العدوان عليهم، ولا قطع التواصل والتعامل معهم..

ولقد أجاز للمسلمين مشاركة اليهود في الزرع وفي الثمر. وذلك أنه لما أراد بعد انتصاره في خيبر أن يُجلي اليهود عنها بعد فتحها قال اليهود له: «يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها». ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فأعطاهم أراضي خيبر على أنّ لهم الشطر من كل

---

(١) أمتاع الاسماع، للمقريزي، صفحة ٣٢٣ .

(٢) الأمتاع، ص ٣٢٨ .

زرع وثمر، ما بدا لرسول الله ﷺ [1].

وجمهور العلماء على أن الأفضل أن يكـون المسلم هـو الذي يلي الأمـر خـوف تسرب الحرام الى معاملاتهم وذلك لاستحلال اليهود للربا وأكل المال بالباطل [2].

٣ ـ إحلال ذبائحهم:

وقد أقر الرسول ﷺ اليهود على أنكحتهم. وأحل ذبائحهم للمسلمين. ونقل ابن القيم الاجماع في ذلك في كتابه احكام أهل الذمة وقال: «اجمع على ذلك كل من يحفظ عنه من أهل العلم» كما نقل عن ابن عباس قوله: «كلوا من ذبائح بني تغلب وتزوّجوا من نسائهم»[3] وثبت أن الرسول ﷺ أجاز استئجارهم فيما لا ضرر فيه أو إيجار النفس إليهم. وقد آجر علي رضى الله عنه نفسه من يهودي يستقي له كل دلو بتمرة. وأكل النبي ﷺ من ذلك التمر. على أن هذا الإيجار مشروط بأن لا يكون في محرّم أو فيما يتناقض مع عقائد المسلمين ومصالحهم الخاصة والعامة.

٤ ـ إجازة عقد الصلات معهم:

وقد أجاز عقد الصلات الاجتماعية معهم، تلك الصلات التي تقيم تعايشهم على تفاهم وتراض؛ فأجاز عيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وتهنئتهم في أفراحهم شرط ألا يصدر عمّن يقوم بذلك ما يدلّ على رضاه عما يمارسون من أعمال الكفر ومظاهر الضلال والانحراف عن الحق. ولقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي

---

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، الجزء الأول، ص ١٨٣.

(٢) أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٣) أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٤) أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، ص ٢٤٥ ـ ٤٦.

يعوده. فَقَعَدَ عند رأسه فقال له: «أسلم» فنظر الغلام الى أبيه ورسول الله عنده، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فخرج الرسول ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار». وفي الصحيحين عن سعيد بن المسيّب أنّ أباه أخبره، قال لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أميّة بن المغيرة. قال رسول الله ﷺ لأبي طالب «أي عم!! قل لا إله إلا الله أشهدُ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أميّة بن المغيرة: «يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟» وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ «أما والله لاستغفرَنّ لك ما لَمْ أنْهَ عن ذلك» فأنزل الله عزّوجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى منْ بَعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم﴾ (1).

٥ - زيارتهم:

بل إن مواصلة الناس في إطار تعزيز العلاقات العامة بين بعضهم البعض كانت موضع تشجيع النبي ﷺ فكان يزور كل من كان بامكانه زيارته من أبناء وسكان المدينة، وقد ثبت أنه كان يتعاطف حتى مع رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول. وانه قد صلى عليه يوم مات. ونزل عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿ولا تُصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تَقُم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ (2).

وبسبب مؤانسة الرسول ﷺ للجميع، طمع به هؤلاء المنافقون ورأسهم بالذات. فقد روى الشيخان في سبب نزول الآية عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبيّ، جاء آبنه عبد الله الى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكَفّنْ فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ، فقام عمر فأخذ

---

(1) التوبة ١١٣.

(2) التوبة ٨٤.

بثوب رسول الله فقال: يا رسول الله! تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنّما خيّرني الله فقال: ﴿استغفرْ لهم أو لا تَستَغْفِر لهم إنْ تسْتَغْفِر لهم سبعين مرّة فَلَنْ يغفر الله لهم﴾[1] وسأزيده على السبعين. قال: انه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم..﴾ الخ..

وهذه الأخبار وغيرها وما تحمله من حسن معاملة الرسول ﷺ لليهود والمشركين والمنافقين، تكشف الفرق بين معاملة الرسول ﷺ لهم ومعاملتهم له؛ الفرق بين معاملة ذي البصيرة ومعاملة الأعمى، معاملة ذي النفس الكبيرة الرحبة المحبة للخير والسلام أن يعما كل الناس ويجدا طريقهما الى حياتهم الفردية والجماعية، ومعاملة النفوس المريضة المنطوية على السوء والفساد والضن بالخير..

ولا غرو فقد كان من أهم ما جمّله به الوحي صفة الصبر والثبات والسلوك الرضي والمعاملة الكريمة لكسب المناوئين والأعداء. يقول الله تعالى: ﴿فآصبر إن وَعْد الله حق ولا يستخِفَنَّك الذين لا يوقنون﴾ ويقول: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتُوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإنْ تصبروا وتَتَقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[3] ويقول: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[4].

ومهما يكن من أمر، فقد كان تصدي الرسول ﷺ لليهود وللمشركين وللمنافقين ولكل من ناوأ الاسلام، تصدّي المعان من الله المتمكّن والواثق من نصر الله الذي لا يؤخذ على غِرَّة أو من ضعف. ولذلك لم تستطع مخاتلات اليهود

---

(١) التوبة ٨٠.
(٢) الروم ٦٠.
(٣) آل عمران ١٨٦.
(٤) العنكبوت ٤٦.

ولا حيل المنافقين وألاعيبهم جميعاً وعداوتهم الظالمة من الإيقاع به أو النَّيْل منه، لأنه كان يتصرّف تصرّف المالك لزمام أمره الذي لا يَظْلم ولا ينحرف ولا يزل ولا يجهل، ويعرف متى ينبغي الاقدام فيقدم، ومتى ينبغي الأحجام فيحجم...

ولقد كان من مقتضيات الحكمة الراشدة الهادية المهديّة أن يكون الرسول ﷺ متجمّلاً بما سبق من الصفات ليوفّر الأجواء الصالحة لهؤلاء اليهود ومن انحرف معهم من العرب، علّهم يهتدون أو يكون قد أقام عليهم الحجّة، فإذا أخذهم أخذهم بحق، واذا نال منهم نال منهم بالعدل.

ولقد أوضحنا أن الوحي الكريم قد كشف في مراحل الدعوة سواء عن طريق القرآن الكريم أو عن طريق الحديث النبويّ، ما انطوت عليه العقيدة اليهودية من زيف وتحريف وانحراف، وما اتَّسَمَتْ به من ضلال مبين ووثنية صريحة. كما كشف ما انطوت عليه النفس اليهودية من نزعات العنصرية والغرور والنفاق والأثرة والغدر، ونبّه الى خطر كل هذه الأمور على الجماعة الإنسانية بشكل عام والمسلمة بشكل خاص. وقد تقدم الكثير مما يوضح هذا.

٦ ـ اليهود مجموعة بشرية خطيرة:

ولقد كان من أخطر ما أعلنه الوحي الكريم وكشفه للرسول ﷺ وصحبه والناس أجمعين من بعده أن هؤلاء اليهود مجموعة بشرية خطيرة؛ قد يئس من الفوز في التعامل معهم بصدق المعاملة الذي يضمن معايشتهم معايشة الثقة والأمان؛ فهم الذين قد أحاطهم الله بغضبه، وحكم عليهم بالإذلال والخذلان والتشتّت مدى الحياة. وهم قد عرفوا هذا فيئسوا من رحمة الله وقنطوا من غفرانه كما يئس الشيطان من قبل، وكما يئس الذين اتّبعوه ونصروه وحازبوه من الكافرين والمنافقين يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوْا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور﴾[1] ويقول: ﴿ضربت

(١) الممتحنة ١٣.

عليهم الذلّة أينما ثقفوا إلاّ بحَبْلٍ من الله وحَبْلٍ من الناس. وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾[1]. ويقول في حزب الشيطان عامة: ﴿إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين كتب الله لأغْلِبَنّ أنا ورُسُلي إن الله قوي عزيز﴾[2].

إنهم قتلة الأنبياء، والناقضون للعهود، والخافرون للذمم والمحرّفون للشرائع والجاحدون لأنعم الله. وهم العصاة المعتدون على حدود الله ومحارمه الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. وهم الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشدّ قسوة، وإن من الحجارة لما يخشع ويتصدّع من خشية الله. يقول الله بعد سرده نعمه عليهم: ﴿ثم قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة. وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، وإنّ منها لَمَا يشَّقّقُ فيخرج منه الماء وإنّ منها لَمَا يَهْبط من خشية الله وما الله بغافلٍ عما تعلمون﴾[3] ويقول: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾[4] ويقول: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فَعَلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولَّوْن الذين كفروا لبئس ما قدَّمتْ لهم أنْفُسُهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾[5].

٧ ـ وصية الرسول باخراج اليهود من الجزيرة:

ولقد تيقّن الرسول ﷺ من غرورهم وتماديهم في الباطل والعدوان والانحراف

---

(١) البقرة ٦١.
(٢) قد سمع ٢٠ ـ ٢١.
(٣) البقرة ٧٤.
(٤) البقرة ٧١.
(٥) المائدة ٧٧ ـ ٨٠.

عن الحق وجادة الصواب، وأنه لا جدوى من مدّ الجسور معهم بالملاينة والمحاسنة. ولذلك لم يكن منه قُبيل وفاته إلا أن أوْصى باخراجهم من شبه الجزيرة العربية. روى الامام أحمد عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قال: «آخر ما تكلم به الرسول ﷺ قال: «أخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب». وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأُخرِجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أَدَعَ إلاّ مسلماً». وورد عنه أيضاً قوله: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب».

٨ ـ معنى هذه الوصية وسببها:

ولقد آختلفت الآراء الواردة في مفهوم هذه الوصية؛ اختلفت في مفهوم حدود الجزيرة العربية واختلفت في مفهوم اخراج اليهود والنصارى منها.

أما الاختلاف في مفهوم حدود الجزيرة العربية فيقول ابن قدامة صاحب المغنى «وجزيرة العرب ما بين الوادي الى أقصى اليمن... وقال الأصمعي وأبو عبيدة هي من ريف العراق الى عدن طولاً ومن تهامة وما وراءها الى أطراف الشام. وقال أبو عبيدة هي من حضر أبي موسى الى اليمن طولاً، ومن رمل تبرين الى منقطع السماوة عرضاً. وقال الخليل: إنما قيل لها جزيرة لأن بحر الحبش وبحر فارس والفرات قد أحاطت بها. ونسبت الى العرب لأنها أرضها ومسكنها ومعدنها. وقال أحمد: «جزيرة العرب المدينة وما والاها يعني أن الممنوع منه هو سكنى الكفار المدينة وما والاها. وهو مكة واليمامة وخيبر والينبع وفَدَك ومخاليفها وما والاها. وهذا قول الشافعي لأنهم (أي اليهود) لم يجلو من تيماء ولا من اليمن»[1].

وفي هذا المنقول صراحة قول الشافعي وأحمد بأن المراد من الجزيرة العربية

---

(١) المغنى، لابن قدامة، الجزء العاشر، ص ٦١٣ ـ ٦١٤.

المدينة ومكة وما حولها مما ذكر آنفاً بدليل قوله أخيراً: «فكأن جزيرة العرب في تلك الأحاديث أريد بها الحجاز لأنه حجز بين تهامة ونجد. ولا يمنعون أيضاً من أطراف الحجاز كتَيْماء ونحوها لأن عمر لم يمنعهم من ذلك»[1].

وبهذا تتكوّن لدينا صورة جليّة للمفهوم الجغرافي الواسع الذي يتلقّاه الناس حديثاً عن الجزيرة والذي يمثل حدودها السياسية، وصورة أخرى لحدودها في مفهوم نصوص الأحاديث الذي استنبطها هؤلاء العلماء منه وتنحصر في الحدود التي ذكرناها آنفاً.

وقد جاء الرواة بنقولهم عن عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعمن جاء بعدهما من الخلفاء يؤكدون صحة هذا المفهوم، بدليل أن اليهود قد ظلوا يستوطنون عمق اليمن ومناطق مختلفة من الجزيرة دون أن يعترض وجودهم أحد أو يحول دون رواحهم وغُدوّهم فيها..

وأما آلاختلاف في مفهوم إخراج اليهود والنصارى من الجزيرة وسببه فيقول فيه جواد علي في كتابه المفصّل: «وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الاسلام... وأنه كان حوالي ١٢٥٠ م أسقف في عدن. إن بقاء النصرانية في نجران، ومواضع من اليمن وانحاء أخرى من جزيرة العرب وبقاء اليهود في اليمن الى زمن غير بعيد، يشير الى أن ما ذهب إليه كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة عمر عن جزيرة العرب، ثم بقيّة الخلفاء الذين ساروا على: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» فيه مبالغة. والظاهر أن الاجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيه جاليات أهل الكتاب للاسلام بسوء؛ فطبق على جاليات يثرب ومن كان يسكن الى الشمال منهم لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً للاسلام، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين. ومن يدري فلعلّهم ولعلّ أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردّة وتشجيع المتنبئين، للقضاء على الخطر الذي

---

(١) المغنى، لابن قدامة، الجزء العاشر، ص ٦١٣ - ٦١٤.

زعموه، خطر ظهور الاسلام وانتشاره في جزيرة العرب وخارجها ».

ثم يقول: « إن الذي أفهمه من سياسة إجلاء عمر لأهل الكتاب، هو أن ذلك الاجلاء كان خاصا بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيما بين فلسطين ويثرب، وقاصراً عليها بسبب وقوفها موقفاً معادياً للاسلام. أما النصارى فلم تكن لهم من جاليات هنا، فلم يقع إجلاء لهم فيها ».

ومع ذلك فإن الاجلاء هذا لم يطبق تطبيقاً دقيقاً وعاماً، فقد بقي بعض الأسر وبعض الافراد يقيمون في يثرب وفي مكة والطائف بدليل قول الدكتور جواد علي فيما بعد: « ولكن عمر ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلاء على الأسر والأفراد بدليل ما نجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود ونصارى في يثرب ومكة والطائف بعد وفاة عمر ».

أما فيما يتعلق في غير مناطق الحجاز، فقد ظلت جاليات اليهود والنصارى تتحرك في الجزيرة بحرّية وأمان يقول جواد علي: « أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب فلم يطبق قانون « عمر » على أهل الكتاب. بدليل دفع جالياتهم الجزية عن رؤوسهم في أيامه الى وفاته. ثم في أيام من جاء بعده من الخلفاء. فكأنّ الخليفة قد طبق أمر الجلاء على يهود الحجاز لخوفه من خطر بقائهم في مقرّ الإسلام وفي مدينة الرسول ﷺ، ومن احتمال عودة من هاجر منهم الى أرضهم وتكتّلهم من جديد، وإثارتهم من لم يكن قد تمكّن الإسلام من قلبه بعد، فيقع للإسلام ما وقع في أيام الرسول من اتصالهم سرّاً بكفّار قريش ومن حدوث ردّة جديدة، فقرر إجلاءهم جماعة عن تلك الديار »[1].

ويبدو أن مفهوم الأحاديث الواردة في موضوع الإجلاء هذا، على النحو المشروح آنفاً في أقوال الفقهاء، قد فسّر تماماً من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم من الخلفاء الذين جاؤوا من بعده؛ فقد كان لليهودية ولليهود وجود في الجزيرة

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جوار على الجزء السادس، ص ٦٢٠ - ٦٢١.

العربية بمفهومه المحدود الذي لا يتعدى منطقة الحجاز. وكذلك كان للنصرانية وجود فيها. ولو أنه تيسّر لهذين الوجودين أن يتحققا على غرار ما يشتهيه أربابها وخلافاً لتوصية الرسول ﷺ، لنجم عن ذلك مع نشأة دولة الإسلام ونهضته القويّة، تحدٍّ وصدام، بل وصراع خفيّ أو ظاهر يتوسل القوة فيكون الخطر على المنطقة. فضلا عن أنه يؤدي الى جعلها مسرحاً للفوضى والقلاقل والاضطرابات، وأرضاً خصبة لتغذية الأحقاد وافتعال المجازر. وهو ما لا يتفق مع ما شاءه الله لهذه المنطقة من أن تكون مثابة للناس وأمناً استجابة لدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الوارد في قوله تعالى: ﴿وإذْ قال إبراهيم ربِّ آجْعَلْ هذا بلداً آمناً﴾ [(٢)] وقوله تعالى: ﴿أوَ لَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء رِزقاً من لَدُنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [(٣)] وقوله تعالى: ﴿أو لم يَرَوا أنّا جَعَلْنا حَرَماً آمنا وَيُتَخطّفُ الناس من حولهم أفَبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ [(٤)].

وقد ثبت أن الناس في الجاهلية كانوا مُتَمَسّكين بتحريمه لا يهيجون على أحد آلتجأ إليه. وكانوا يسمّون قريشاً أهل الله تعظيماً له.. وقد جاءت الأخبار بتحريم مكة. فروي عنه ﷺ: «إن الله حرّم مكة، وأنها لم تحِلَّ لأحد قبلي ولا تحِلُّ لأحدٍ بعدي. وإنّما أُحلَّت لي ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها كما كانت»[(٥)] وفي رواية: «إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحُرْمة الله تعالى الى يوم القيامة وإنه لم يَحِلَّ القتال فيه لأحدٍ قبلي ولم يَحِلَّ لي إلا ساعة من نهار. فهو حرام بحُرْمة الله الى يوم القيامة لا يُعْضَدُ [يقطع] شوكهُ ولا يُنَفّرُ صيده ولا تُلْتقط لقطته إلا من عرّفها. ولا يختلي خلاها [والخلى

---

(١) البقرة ١٢٦.
(٢) القصص ٥٧.
(٣) العنكبوت ٦٧.
(٤) الفخر الرازي، الجزء الثاني، ص٥٢.
(٥) القرطبي، الجزء الثاني، ص١١٨.

بالقصر النبات الرطب الـرقيق ما دام رطباً واختلاؤه قطعه].

لعل من أجل هذا كانت وصية الرسول ﷺ. ولعله كان يريد ألا يسمح أيضاً بقيام كيان في الوقت نفسه لأحد هذين الدينين في الجزيرة أو لسواهما غير الاسلام. وذلك ليبقى الكيان في الجزيرة للاسلام وحده ولتبقى له السلطة وحده دون سواه فيتحقق ضمان الأمان والسلام لأهلها ولِمَنْ يفدون عليها.. وبخاصة وأن فيها المسجد الحرام، وقبلة المسلمين في الصلاة، وفيها مسجد الرسول ﷺ وقبره، وقبر أجلة الصحابة وكبار المجاهدين من بناة الاسلام ورافعي لوائه.

ونستطيع أن نجزم بعد هذا وفي ضوئه أن موقف الاسلام هذا في الجزيرة العربية نحو أتباع الديانات الأخرى وبخاصة اليهودية والنصرانية لم يكن من منطلق العداوة والمبادأة بإعلان الخصومة، بقدر ما هو للمحافظة على أمن المنطقة وسلامها وعلى كيانها كمصدر للاشعاع الاسلامي وكحرم ثابت خاص يجد المسلمون فيه آسترواحهم النفسي والديني. ويتلقون منه باستمرار المدد الروحي.

٩ ـ موقف الاسلام السمح بالنسبة لأهل الديانات:

ويؤكد هذا المعنى أنه لما تيسر له أن ينتشر، لم يكن موقفه بالنسبة الى هذين الدينين في الأقاليم والديار التي آحتلها كموقفه منهما في الجزيرة العربية. قال آدم متز في كتابه «الحضارة الإسلامية» في القرن الرابع الهجري «لم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال. وكان قدمهم راسخا في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوافرة فكانوا صيارفة وتجاراً، وأصحاب ضياع وأطباء. بل إن أهل الذمّة نظّموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً يهوداً. على حين كانوا أكثر الأطباء والكتبة نصارى. وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده. وكان أصغر دافعي الضرائب هم اليهود الخيّاطون والصبّاغون والأساكفة والخرّازون ومن اليهم.. أما حياة الذمّي فإنها عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافىء

حياة المسلم وَدِيتُه دِيَةَ المسلم. وهي مسألة مهمة جداً من حيث المبدأ... ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة. بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم »[1].

ويقول في موضع آخر: « ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدّونها، وإنْ آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين. وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية »[2].

ولا ريب أن مثل هذه الأخبار، وهي قليل من كثير الذي نقله علماء الأخبار والرواية عن معاملة المسلمين لليهود والنصارى، ومدى ما كانت عليه من التسامح والرحابة وحسن التصرّف يؤكد أن الاجراء الذي أوصى به الرسول ﷺ بالنسبة إلى إخراج اليهود والنصارى من الجزيرة ما هو إلا اجراء خاص بها للمعنى الذي أشرنا إليه سابقاً.

ورغم كل ما لقيه الإسلام والمسلمون والرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه من هؤلاء اليهود فقد ظل موقفه هو موقف المواصلة والمقاربة، موقف المحاسنة والملاينة، فإذا أصحابه من بعده ثم التابعون لهم ومن لحقوهم فيما وراء ذلك بإحسان، يلتزمون معهم بقوانين الإسلام وأنظمته التي فرضت عليهم تخصيص أهل الذمّة بالمعاملة التي لا يلقى مثلها أي شعب في التاريخ كان له مثل ما لهم من الوضع والظروف تحت سلطة المنتصر.

ولم تكن هذه المعاملة من أصحابه ثم من أتباعهم وتابعيهم ثمرة نظر خاص واجتهاد ذاتي، بل كانت التزاماً منهم بوصية صادرة عنه ﷺ هي الوصية التي أوردناها سابقاً وهي قوله: « من آذى ذِمّيّاً فأنا خصمه ومن خاصمته خصمته »

---

(١) الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد أبو ريدة، الجزء الأول، ص ٨٧.

(٢) الحضارة الإسلامية، المرجع السابق، ص ٨٧.

وهو الذي عانى من كثيرٍ منهم ما عاناه من دسّ وكَيْدٍ وظلم وعدوان وآفتراء وتحريض جميع القوى عليه مكراً به وبرسالته السماوية التي جاء بها...

لقد كان منه ﷺ هذا الموقف العظيم، في الوقت نفسه الذي يقول فيه دانتيه كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر: « كان اليهود معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة في كل مكان، محبوسين في أقسام منعزلة من المدينة، ومحكوماً عليهم بوضع علامات مهينة على ملابسهم لتميزهم من غيرهم. وكانوا لأقل هفوة يحكم عليهم بالغرامات الباهظة أو بالطرد العام. فإنه في سنة (١٣٥٥) م حكم عليهم في انجلترا بدفع خمسة آلاف مارك من الفضة وفي سنة (١٣٩٠) م صدر أمر الملك أدوار الأول، بطردهم من المملكة. أما في المانيا فكان اليهود ملكاً للامبراطورة أو للأمراء. فحدث أنهم بيعوا أكثر من مرة وطردهم من فينّا (ماتياس كورفان) ولم يدخلوها إلا في عهد فرديناند الأول».

ونقلت أيضاً تقول: « أما في اسبانيا حيث عاش اليهود تحت حكم المسلمين زماناً طويلاً في هدوء كامل، فإنه بمجرّد أن آمتلك بلاد الأندلس فرديناند الكاثوليكي طاردوهم كما تطارد الكواسر. وجاءت محكمة التفتيش فأمرت بطردهم، فطردوا. فذهب بعضهم لهولاندا والبعض الآخر الى سواحل إيطاليا. وقد آضطهد اليهود في المانيا طوال القرون الوسطى ولا تزال بعض الصنائع ممنوعة الى اليوم هناك عن اليهود. أما اسبانيا والبورتغال فقد أوْصدتا أبوابها في وجوههم حتى الى هذه السنين الأخيرة. ولم تفتح لهم السويد أبوابها إلا منذ سنة ١٨٥٤ م. وقد سمحت لهم انجلترا بدخول البرلمان منذ نحو أربعين سنة. أما فرنسا فقد اعترفت لهم بالمساواة منذ سنة ١٧٩٦ م. أما في رومانيا فإن اليهود كانوا قبل دخول هذه المدينة في حوزة سلطة الملك سنة ١٨٧٠ م مضطرين بحكم القوة لسكنى قسم قذر من المدينة يقال له: « الجيتو». وكانوا يقفلون أبوابه عليهم في الليل. ويشدون الأبواب بسلاسل من الحديد. وحدث أن اختطفت السلطة الدينية ولداً يهودياً في العهد الأخير، وربته على الديانة المسيحية رغماً عن أهله، وعلى

مرأى ومسمع من العالم المتمدّن الذي أظهر لذلك غاية الدهشة. وكان على اليهودي إن أراد الانتقال الى بعض الجهات الرومانية ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ رخصة بذلك من السلطة الكهنوتية. وكان محرّماً عليهم هناك أن يتخذوا كنائس أوْ ديوراً، وأن يتحدثوا مع المسيحيين أو يصاحبوهم. ومن خالف كان يحبس مدة لا حدّ لها، ويغرّم خمسة ريالات (صدر هذا الأمر سنة ١٨٦٥).

إلى أن تقول: «ومما يجب أن نلفت إليه نظر القارىء أن المسلمين بين جميع الأمم، أعطوا اليهود الحقوق الإنسانية والحرّية الاجتماعية، في العهد الذي كانت فيه أرقى دول أوروبا تعامل اليهود معاملة الأفاعي السامّة والكواسر الضارية. فهل لا يصح هذا المثال الباهر، وهو مثال من الف غيره، دليلاً على أن المسلمين بطبيعة دينهم، وبتعاليم كتابهم، أمّة منزّهة عن الأحقاد الدينية والتعصّبات المذهبيّة. أليس بمثال مدهش أن نجد في تاريخ الأديان أمة شديدة البطش قوية السلطان متماسكة القوى، مغرمة بعقيدتها، تعامل الأمم التي تخالفها في الدين معاملة قصّر عنها ورثة الكتب السماوية القديمة وحفظة المدنية الإنسانية العتيقة؟ أمة بدْوية لم يكن لها عهد بنظام ولا تسامح، تقوم فتعلم غطارفة الشرائع والحقوق، كيف يجب التسامح للأجنبي عن الدين، والتواد مع المعاشر في الوطن مهما خالفها في العقيدة والنظر، لهو مثال من أبهر الأمثلة على سموّ التعاليم الإسلامية وبعدها عن السفاسف. أليس من المدهش أن يُرى أوائل المسلمين على هذا الصدر الرحب والذراع الواسع والكرم الجم في معاملة الأجانب عن الدين، فينعق في القرن العشرين ناعق بأن الاسلام دين التعصّب الذميم وأن المسلمين يحفظون بين جوانحهم أشد درجات الحقد على سواهم من أهل النحل الأخرى»[1].

إن هذا الكلام، وهو قليل من كثير، وغيره مما شهدت به قرائح كبار المؤرخين من معاملة العالم الأوروبي والشرقي لذوي الديانات، وبخاصة اليهود

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، المجلد الأول، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

المعاملة القاسية الظالمة في القرون الخالية والقرون الوسطى بمقابلة معاملة العرب المسلمين لهم بالحسنى والتسامح ليؤكد لكل ذي بصيرة فضل الإسلام، وفضل حامل رسالته محمد ﷺ على الإنسانية في القديم والحديث.

١٠ ـ اليهود هم الذين لعبوا أدوار تخريب الكيان الاسلامي:

واليهود هؤلاء الذين أظلّهم الحكم الاسلامي بكثير من الرأفة واللطف، هؤلاء هم الذين سدّوا على رسول الله ﷺ كل المداخل التي يمكن أن ينفذ منها للتعاون معهم. وهم الذين أخلدوا الى عنصريتهم لا يزيحون عنها. والى حسدهم وحقدهم لا يتزحزحون عنهما، بل هم الذين ذهبوا من بعده على تقلّب الدهر من منطلق عنصريتهم وحقدهم على كل حق وخير، يلعبون الأدوار تلو الأدوار لقتل كل عظيم في الإسلام، أو لنسف كيان أو لتفريق جمع، أو لبعث فتنة، أوْ دسّ فكرة خبيثة أو خبر كاذب.

يقول المؤرخون: إن كعب الأحبار، وهو يهودي أسلم، هو الذي تآمر على قتل عمر بن الخطاب، فكانت أعظم أول فتنة ظهرت في تاريخ صدر الاسلام. ويقولون إن عبد الله بن سبأ، وهو يهودي أسلم أيضاً، هو الذي دفع الناس من مصر للثورة على الخليفة الثالث عثمان بن عفّان وأرّث الفتنة وأشعلها وأوقد عليها حتى آنتهت بقتله، وتمزّق الكيان السياسي في الدولة الإسلامية، وهو الذي نفخ في كير الخلافات السياسية حتى أفضت الى صراع دموي وحرب طاحنة بمساعدة قومه اليهود...

ويقول جواد علي في كتابه المفصل: «فلعلّهم ولعلّ أهل الكتاب عموماً ساعدوا على قيام الردّة والمتنبئين في الجزيرة العربية والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه، خطر ظهور الإسلام وآنتشاره في جزيرة العرب وخارجها» ولم يكن قد مضى على فترة إجلائهم من منطقة الحجاز أكثر من خمس عشرة سنة وهو زمن لا ينسيهم علاقاتهم ولا يضيع فاعليتهم وتأثيرهم في الجزيرة وقبائلها وعشائرها.

وهم الذين لهم معهم تاريخ عريق وصلات حميمة قديمة..

بل إن عبد الله بن سبأ هو أول من بذر فكرة التطرف والغلو في رأي أكثر المؤرخين وأدقّهم نظرة من المحدثين في الشرق والغرب. يقول الأستاذ أحمد أمين: «وقد ذكروا أنّ أول من دعا الى تأليه علي عبد الله بن سبأ اليهودي. وكان ذلك في حياة علي.. فهو الذي حرّك أبا ذرّ الغفاري للدعوة للاشتراكية. وهو الذي كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان... والذي يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام. وألّف جمعيّة سرّية لبثّ تعاليمه... وآتخذ الاسلام ستاراً يستر به نيّاته. نزل البصرة بعد أن أسلم ونشر فيها دعوته فطرده واليها. ثم أتى الكوفة فأخرج منها ثم جاء مصر فالتف حوله ناس من أهلها. وأشهر تعاليمه في الوصايا والرجعة. فأما الوصايا فقد أبنّاها قبل. وكان قوله فيها أساس تأليب أهل مصر على عثمان، بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة من علي بغير حق. وأيّد رأيه بما نسب الى عثمان من مثالب. وأما الرجعة فقد بدأ قوله بأن محمداً يرجع. وكان مما قاله: «العجب ممّن يصدق أن عيسى يرجع ويكذّب أن محمداً يرجع» ثم نراه تحوّل، ولا ندري لأيّ سبب الى القول بأنعلياً يرجع. وقالآبن حزم إن ابن سبأ قال لما قُتِل علي: «لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدّقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً» وفكرة الرجعة هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية. فعندهم أن النبي «الياس» صعد الى السماء وسيعود فيُعيد الدين والقانون. ووجدت الفكرة في النصرانية أيضاً في عصورها الأولى»[1].

ولا يُستَبعد في ضوء ما تقدم، أن يكون هؤلاء وراء كل دسيسة أو تآمر على الاسلام والمسلمين، وأنهم هم الذين كانـوا ولا يـزالون خلـف كبرى الثـورات والنزاعات في داخل الجسم الديني والسياسي في الاسلام والنصرانية. وهم الذين أثاروا فكرة الفرق الإسلامية، وسوّلوا لأربابها مبرّرات وجودها. وهم الذين

---

(١) فجر الاسلام، أحمد أمين، ص٢٦٩ - ٢٧٠.

لعبوا أسوأ الأدوار للقضاء على الأمبراطورية العثمانية وبخاصة بعد وقفة الخليفة عبد الحميد في وجه رغبتهم التي أعربوا عنها لإقامة وطنهم الإسرائيلي في فلسطين بالرغم من كل الإغراءات السخيّة التي بذلوها له. بل إنهم هم الذين يكمنون اليوم وراء أهم الأزمات المتلاحقة التي تعصف بالأمة العربية والاسلامية في هذا العصر الحديث من الشرق حتى الغرب، ويكفي أنهم الآن محتلو فلسطين ومشعلو الحرب والثورات وما تستتبعه من فتن ومحن وبلاء.

الفصل الرابع عشر

اليهود وأزمة لبنان

١ - اسرائيل سبب الأزمة
٢ - دخول جنوب لبنان
٣ - على مشارف بيروت
٤ - مجزرة صبرا وشاتيلا
٥ - اليهود ونقض العهود

١ ـ اسرائيل سبب الأزمة:

وأخيراً، وليس آخراً هل يمكننا أن ننسى ما جرّه إنشاء وطنهم القومي في فلسطين من مآس وثورات وحروب وقتل ودمار في العمران والاقتصاد على لبنان وشعبه؟ هل ننسى الاضطرابات والمظاهرات منذ سنة ١٩٣٦ م؟ وهل ننسى ثورة ١٩٥٨ وما كان يكمن وراءها من سياسة الأحلاف وارتباطها بقضية فلسطين وقضية الشرق الأوسط؟ والاضطرابات والمظاهرات الخطيرة التي آجتاحت وعمت لبنان منذ سنة ١٩٦٧ ثم ١٩٦٩ ثم ١٩٧٣ وما خلفته وراءها من تضعضع نظامه وظهور بوادر الانقسامات في الشعب ومعالم الخلافات السياسية واضرارها على الاقتصاد والاجتماع والتربية العامة؟ ثم الثورة الجامحة التي ذرّت قرنها في اطلالة عام ١٩٧٤ واشتعل فتيلها وانتشرت نارها وعم لهيبها كل منطقة وقرية وحي حتى كادت تأتي على البقية الباقية من أحاسيس التواصل ورغبة التعامل بين طرفي الشعب اللبناني الكريم؟ ثم الاجتياح الأخير، آجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان الجنوبي ثم لصيدا وبيروت، وما استتبع ذلك من عسف وقهر وتخريب وتدمير لم يشهد له التاريخ مثيلاً حتى أيام الحروب العالمية الثانية!! دمار لم يفرق بين مساكن الآمنين والمقاتلين وبين مؤسسات الشعب والدولة، ولا بين مدارس التربية والتعليم ومواقع القتال والحرب، بين المستشفيات ودور المعاقين والأيتام والعجزة وثكنات الجنود...

٢ ـ دخول جنوب لبنان:

لقد أثاروا هذه الحرب بمسوّغ أشاعوا عنه وروّجوا له في أجهزتهم الإعلامية، هو تحقيق السلام لمنطقة الجليل الأعلى وتخليصه من خطر الغزوات المتتالية من عناصر الفلسطينيين التي كانوا يطلقون عليها اسم العناصر الثائرة والمخرّبة، فكانت، كما هو بادٍ، في وجه محاربيهم ومقلقي مضاجعهم الفلسطينيين.. ولكنهم ما إن دخلوا الحدود حتى أطلقوا لآليّاتهم البرّية وطائراتهم من كل نوع وبوارجهم البحرية العنان على مسمع ومشهد من كل العالم المتحضّر، فداسوا كل العهود والمواثيق والحريّات والكرامات والحقوق الشخصية والدولية وآجتاحوا لبنان الجنوبي بأسره. ولم يقفوا حتى وصلوا الى مشارف بيروت في قتال شرس استعملوا فيه أحدث ما أبدعته قرائح علماء الحرب من الأميركان ومن الغربيين من وسائل الموت والدمار والخراب..

٣ ـ على مشارف بيروت:

ثم إنهم، وهم على مشارف بيروت أنزلوا عليها من حممهم، ما الله به عليم، وما لا طاقة لشعب آمن بتحمله.. وقد أصبحت بيروت هياكل من الخراب بعد شهرين ونصف من الصمود في وجه الحملات العسكرية الغاشمة جوّاً وبرا وبحراً، ومن الصمود في وجه الحصار الظالم الآثم الخانق الذي استعملوا فيه اسوأ الوسائل والاجراءات التي يتّخذها عدوّ، حيث منعوا عن سكانها الماء والكهرباء والغذاء والدواء. وسلطوا عليهم كل أساليب الإرجاف والتخويف التي تستعمل في مثل هذه المناسبات لتحطيم الأعصاب، أعصاب المواطنين وإضعاف مناعتهم النفسية وتسليط الضغوط عليهم لحملهم على الهجرة من بلدهم وتشريدهم في الضواحي والقرى والسفوح والجبال... فعلوا كل هذا، وهم يدّعون أنهم يقومون بحملة السلام لمنطقة الجليل الأعلى!! وأي سلام هذا الذي يحمل كل مظاهر الحرب، وما تحمله وتطويه من موت زؤام وخراب أغبر ودمار طاحن ورعب صاعق؟ أي

سلام هذا الذي يشهر حرباً ضروساً في وجه شعب مسالم ووطن آمن وجوار ضعيف مستضعف؟!

مجزرة صبرا وشاتيلا:

وليتهم انتهوا عند هذا الحد؛ فقد انتهت المعركة. ورضى المقاتلون الفلسطينيون بتسليم السلاح والخروج من بيروت الى بعض البلدان العربية. وكان لليهود ما أرادوا. وسلّم السلاح الى الجيش الاسرائيلي، والجيش اللبناني. وخرج المقاتلون الى سوريا وتونس واليمن والعراق ومصر والسودان. وفرغت الشوارع من المظاهر المسلّحة في بيروت الغربية، وأزيلت المتاريس ورفعت الحواجز وطمرت الخنادق وانتزعت الألغام وبدت بيروت الغربية على مثل كامل من الاستقرار والهدوء.. كل ذلك في ظل معاهدات واتفاقات وقعت من جميع الأطراف؛ من الاسرائيليين أولاً ثم من الفلسطينيين واللبنانيين وباشراف الاميركيين، وفي مقدّمتهم ممثل الرئيس الأميركي الرئيس ريغان وهو الاستاذ فيليب حبيب.

وما أن استتبّ الوضع في بيروت وانتشر فيها الجيش اللبناني آخذاً فيها مواقعه العسكرية المتمكنة. وبعد أن قام بمهمته المرسومة له، حيث داهم أكثر المنازل وسحب منها كل سلاح وأكثر من ذلك، وخرج الأستاذ فيليب حبيب الى أميركا.. وفجأة وعلى حين غفلة من أهل بيروت، وبعد أن أزيلت كل العوائق من الطرق والمنحنيات، وفي ساعة من ساعات الليل البهيم وهدأه مخيفة منه، إذ بمجاميع من السفّاحين يهاجمون تحت جنح من الليل مخيّمي صبرا وشاتيلا حيث يقيم الفلسطينيون المسالمون وبعض اللبنانيين ويُعملون في رقابهم الخناجر وفي أجسادهم الرصاص، ويصبّون على منازلهم الهزيلة القنابل والصواريخ، فيقتلون المئات ويسيلون الدم البريء ظلماً وعدواناً. ومرة أخرى على مشهد ومسمع كل المسؤولين في العالم المتحضّر!! وأي عالم هذا وتقع مثل هذه المجازر تحت سمعه وبصره، دون أن يتحرك تحركاً زاجراً ورادعاً؟!..

اليهود ونقض العهود :

وهكذا فإن هذا الاجتياح المتعسف الظالم الذي يدعي تأمين السلام على الجليل الأعلى من قبل دولة إسرائيل، يأتي على ما وصفنا، على حساب شعب مسالم ليس بينه وبين اسرائيل حرب. بل بينه وبين اسرائيل اتفاقية هدنة ما تزال بنودها قائمة. ولم يزل هذا الشعب ملتزماً بنصوصها كل الالتزام. ولكن صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إن شرّ الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرّة وهم لا يتّقون﴾[1] ويقول: ﴿أوَ كُلّما عاهدوا عَهْداً نَبَذَه فريقٌ منهم. بل أكثرهم لا يؤمنون﴾[2]. قال الفخر الرازي في تفسير الآية الأولى: « قال أهل المعاني: إنما عطف المستقبل على الماضي لبيان أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة. قال ابن عباس، هم قريظة فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر ثم قالوا أخطأنا. فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضاً يوم الخندق »[1]. وقال في الآية الثانية: « أو كلما عاهدواعهداً بعد عهد نقضوه ونبذوه. بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم. فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن ذلك ليس ببِدْع منهم، بل هو سَجيّتُهم وعادتهم وعادة سلفهم »[2].

---

(١) الأنفال ٥٢ ـ ٥٦.
(٢) البقرة ١٠٠.
(٣) الفخر الرازي، الجزء الثامن، ص١٨٨.
(٤) الفخر الرازي، الجزء الثاني، ص٢١٦.

الفصل الخامس عشر

المسلمون واليهود حديثًا

١ ـ اليهود وفلسطين
٢ ـ اليهود ليسوا أصلا سكان فلسطين
٣ ـ الشعوب الاصليون لفلسطين
٤ ـ أسر اليهود إلى بابل
٥ ـ ليس اليهود وحدهم نسل ابراهيم
٦ ـ شهادة التاريخ للعرب بالسماحة

واليوم وبعد أن عرفنا الكثير من عقائد وشرائع وطبائع وخصال اليهود، وتطلّعنا الى نبذة عن تاريخهم وأخبارهم مع الله ومع رسله وأنبيائه، ومع الشعوب والأمم المخالفة لهم في الجنس والعقيدة والدين. وعرفنا أيضاً طرفاً من سيرتهم مع الرسول ﷺ، وموقف الرسول الاجمالي والتفصيلي منهم، ومن كثير من عقائدهم وشرائعهم وأخلاقهم. نطرح على أنفسنا السؤال التالي: ما هو موقفنا نحن المسلمين في هذا العصر الحديث من اليهود عامة، ومن الصهيونيين حماة دولة اسرائيل؟ هل هدفنا وديدنا قتالهم، أو تتبع وجودهم للقضاء عليهم وسحلهم وإزالتهم من الوجود كما يحلو للبعض أن يظن؟

ونقول إجابة على هذا السؤال الذي طرحناه على أنفسنا: صحيح أن اليهود هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم وأعدّ لهم جهنّم. وصحيح أنهم زرعوا الشر والفساد في كل أحقاب التاريخ فعصوا، واعتدوا وقتلوا الأنبياء بغير حق. وصحيح أيضاً بأنهم خذلوا الرسول ﷺ خذلاناً مبيناً، ولعبوا في التاريخ العربي والاسلامي أدواراً مخزية وخطيرة لهدم الاسلام كشريعة ودين وكدولة ونظام من الداخل والقضاء على هيكليّته وبنيته كلها. وصحيح أنهم الشعب الأناني الذي لا يريد الخير لسواه، والذي يحقد على كل كائن لا يمت إليه بصلة العرق والجنس والدم. صحيح كل هذا وسواه مما قد لفتنا النظر إليه في الفصول المتقدمة من هذا البحث، ومما لم نلفت النظر إليه ليجري القارىء بحثاً عنه... ولكن كلّ هذا لا يبرّر لنا العدوان عليهم، أو العمل على استئصالهم في الوجود. أو مصادمتهم بشكل

من الأشكال. بل كل ما يمكن أن يبرره لنا هو الاحتياط والحذر من التعامل معهم وتصرفاتهم، وتفادي قدر الامكان ما قد يشكله طبعهم ونظامهم الاجتماعي والديني علينا من ضرر أو أذى...

وكل هذا يجب أن يكون في حال انكشاف ضررهم وأذاهم عنا. وأما في حال عدوانهم علينا، أو على مصالحنا ومؤسساتنا، فإننا لا يسعنا إلا أن نكون في مستوى المسؤولية التي تحتّمها علينا ظروفنا معهم، وتكفل لنا كرامتنا وحماية كياننا ووجودنا... فلا يمكننا في شكل من الاشكال الاستسلام للضعف والخور والهوان أو السكوت على الضيم والخني، والرضى بالهزيمة والخسران مهما كانت النتائج والعواقب. فإن الدفاع في مثل هذه الحال جهاد، والجهاد شرف وفوز برضوان الله دنيا واخرة وهو الذي يقول: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفّار ولا يَنَالُوْن من عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[1] ويقول: ﴿إن الله اشْترى من المؤمنين أَنفُسَهم وأموالهم بأنَ لهم الجنّة، يُقاتِلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلون وَعْداً عليه حَقّاً في التوراة والإنْجيل والقرآن. ومَنْ أَوْفى بعهده من الله، فاسْتَبْشروا بِبَيْعِكُم الذي بايعْتُم به وذلك هو الفوزُ العظيم﴾[2].

اليهود وفلسطين:

ولقد أتى هؤلاء اليهود في هذا العصر بمعاونة بعض دول أوروبا وأميركا عدواناً مبيناً على العرب في فلسطين، فأخرجوهم من ديارهم ومؤسساتهم وتجاراتهم بغير حق إلا أنهم هم يريدون أن ينشئوا لأنفسهم وطناً صهيونياً، ولأن توراتهم

---

(١) التوبة ١٢٠.

(٢) التوبة ١١١.

بحسب اعتقادهم قد وعدتهم بأرض المعاد..

ولما آنبرى العرب للذود عن حياضهم والدفاع عن كراماتهم وحرّياتهم وممتلكاتهم وأوطانهم آعتبرهم الذين في قلوبهم مرض والظالمون الجائرون، معتدين. ووصفوهم بأنهم مخرّبون وأنهم إرهابيّون. وتألبت عليهم الدول الكبرى لتحول بينهم وبين استرجاع أرضهم المغتصبة ليبقوا مشتّتين في أرض الله تتقاذفهم الأنظمة وتتلاعب بهم الأهواء ويسامون خلال ذلك صروفاً من الخسف والذلّ والهوان تحت ستار أنهم ثوار وأنهم فدائيون وانهم ارهابيون هدامون مخربون.

اليهود ليسوا أصلاً سكان فلسطين:

ولو رجعنا نستقرىء التاريخ بحثاً عن أصول اليهود لرأينا أن أجداد هؤلاء ليسوا هم السكان الأوائل لهذه الأرض، أرض فلسطين. وأنهم وإن دخلوا عليها فيما بعد، فليسوا بناة أمجادها.

أما أجداد هؤلاء، فقد وفدوا على فلسطين كما وفدَ عليها غيرهم من الشعوب في احقاب العهود الغابرة؛ ولقد وفد عليها في الأصل إبراهيم عليه السلام وهو الجد الأعلى لمن ينتسبون الى يعقوب [اسرائيل]، مع لوط. وفيها سكن وأنسل اسماعيل وإسحاق. وخلف اسحاق يعقوب وعيسو. وكان من أبناء يعقوب الأسباط الاثنا عشر ومنهم يوسف عليه السلام. وقد هاجروا جميعاً مع والدهم يعقوب الى مصر ولبثوا فيها مئات السنين. ثم عادوا مع موسى عليه السلام بعد أن عاشوا أزماناً من الخسف والذل والنكال على يد فراعنة مصر.

الشعوب الاصليون لفلسطين:

ولما عاد هؤلاء الى فلسطين وبعد تيه طويل في صحراء سيناء بقيادة سيدنا موسى عليه السلام. وكان فيها شعوبها القديمة الأصلية التي كانت نزلتها قبل الاسرائيليين وهم كما ورد في التوراة التي بين أيديهم: الكنعانيون والحِثّيّون

والحِوّيون والأموريون والفِرْزيون واليَبُوسيون[1]. جاء هـذه الأرض ليطـردهـم منها تقول التوراة التي بين أيديهم: « وقال الربّ لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصْعَدته من أرض مصر الى الأرض التي حَلَفْتُ لابراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً: لنسلك أُعطيها وأنا أرسل أمـامـك ملاكـاً وأطـرد الكنعـانيين والأمّـوريين والحِثيين والفِـرْزِيين والحِوّيين واليبـوسيين الى أرض تفيـض لبنـاً وعسلاً »[1].

أسر اليهود الى بابل:

وقد دخلوا هذه الأرض المقدسة بالفعل، وكانت الحرب سجالاً بينهم. ولم يدم للاسرائيليين مُلْك في مراحل صراعهم مع هؤلاء في كل مرة يتغلبون عليهم أكثر من نصف قرن تقريبا. إلى أن دخل عليهم غزاة من الخارج وكان أخطرهم بختنصّر الذي هدم عاصمة ملكهم وأخذ أكثرهم اسارى الى بابل ولبثوا فيها سنين مديدة تشتتوا فيها...

ولما عادوا الى الأرض مرة ثانية لم يكن حالهم بأحسن من ذي قبل الى أن ظهر عيسى عليه السلام وانتشر دين النصرانية. ونشأ صراع دامٍ ومُريع بين اليهودية والنصرانية، فاكْتووا من جديد بناره، وحكم عليهم بالتشرد في بلاد الله. وكـان منهم من نزل أرض الجزيرة العربية في اليمن أو في الحجاز كما رأينا سابقاً.

وهذا لا يرسخ لهؤلاء اليهود في هذه الأرض حقاً من دون سكانها الأصليين ولا على حسابهم، وبخاصة وأن أبناءها بَقُوْا فيها. وتغلّب عليهم غـزاة متعـدّدون ومختلفو الجنسيات حتى كانت الحملة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. علماً بأن أغلب سكانها الأصليين الذين ذكرناهم هم من أصل عربي.

---

(١) خروج ٣٣ - ٣.
(٢) خروج ٣٣ - ٣.

ليس اليهود وحدهم نسل إبراهيم:

أما ما وعدتهم به التوراة التي بين أيديهم كثمرة لتكريم الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ونسله، فالجواب عليه أنهم ليسوا هم وحدهم نسل إبراهيم. بل إن من المسيحيين ومن المسلمين، وهم الأكثر عدداً، من هم أيضا من نسل ابراهيم. وذلك لأن المسيحيين هم في الأصل اسرائيليون تنصروا، ولأن المسلمين هم في الأصل سكان هذه المنطقة أو وافدون عليها. وسكانها وقسم كبير من الوافدين عليها إما من الاسرائيليين الذين أسلموا، أو النصارى الذين أسلموا، أو من العرب المسلمين الذين هم في غالبهم من نسل اسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم. فالوعد إذن ليس خاصاً بهؤلاء اليهود، بل بمن يرجع منهم في نسله الى ابراهيم وبكل من كان من نسل وذرّية إبراهيم. وهذا متوفر الآن في المنطقة كلها ومن النيل الى الفرات!!..

وهذا القرآن الكريم يثبت دعاء إبراهيم عليه السلام بعد أن دخل مكة وأسكن فيها ولده وفلذة كبده اسماعيل وأمه هاجر وذلك بأمر الله ووحيه الكريمين فيقول: ﴿وإذْ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً، واَجْنُبْني وَبنِيَّ أن نعبد الأصنام. ربّ إنهُنّ أضْلَلْن كثيراً من الناس، فَمَنْ تَبِعَني فإنّه منّي ومنْ عصاني فإنّك غفور رحيم. ربنا إني أَسْكنت من ذُرّيتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاَجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم واَرزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾[1].

قال الفخر الرازي: «طلب إبراهيم من الله نعمة الأمان وهو قوله: «رب اَجعل هذا البلد آمناً» والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لا يتمّ شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به. وسئل بعض العلماء، الأمن أفضل، أم الصحة؟ فقال الأمن أفضل. والدليل عليه أن

---

(١) ابراهيم ٣٥ - ٣٧.

شاة لو آنكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ثم إنها تُقْبِل على الرعي والأكل. ولو أنها رُبِطت في موضع، وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله الى أن تموت، وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد. ثم طلب: «أن يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله: «وآجنبني وبني أن نعبد الأصنام». ثم طلب قائلاً: «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع» الخ الآية أي بعض ذرّيتي وهو اسماعيل ومن ولد منه. والوادي هو وادي مكة.. الى أن يقول: «رُوي أن هاجر كانت أَمَةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت له اسماعيل عليه السلام. فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله لي ولداً من خليله فَمَنَعنيهُ ورزقه خادمتي. وقالت لإبراهيم: بَعِّدْهما مني. فنقلها الى مكة واسماعيل رضيع ثم رجع. فقالت هاجر: الى من تَكِلُنا؟ فقال الى الله. ثم دعا الله تعالى بهذا الدعاء. ثم إنها عطشت، وعطش الصبي فانتهت بالصبيّ الى موضع زمزم، فضرب بقدمه ففارت عيناً. وقد قال ﷺ: «رحم الله أم اسماعيل لولا أنها عجّلت لكانت زمزم عيناً معيناً ثم إن ابراهيم عليه السلام عاد بعد أن كبر إسماعيل واشتغل مع اسماعيل برفع قواعد البيت»[٢].

ولهذا، فإنا نقول إنه لا مستند لدعوى الإسرائيليين بأن فلسطين هي وطنهم القديم. ولا مبرّر بعد هذا لعدوانهم على سكانها الأصليين وطردهم منها بغير إثم أو سبب مشروع.

واعتداء الإسرائيليين رغم هذا على الأرض، وعلى الشعب المقيم فيها، ولو تحقق بمساعدة من بعض الدول الكبرى لا يشكل حقاً ولا يرتّب ملكاً مشروعاً. فالأرض الفلسطينية ملك للعرب والاستيطان عليها حقهم. وإخراجهم منها عدوان وبغي، وعلى جميع دول العالم التنادي لمساعدتهم ولمساندتهم في مطالبتهم في

(١) الفخر الرازي، الجزء العاشر، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

حقهم. وعليهم هم أولاً التصدّي لذلك بكل الوسائل المشروعة حتى ولو آقتضى ذلك استعمال القوة ليعودوا الى أرضهم ويسترجعوا ديارهم ومؤسساتهم ومرابعهم وممتلكاتهم... وهل يجوز أن يوصف مثل هذا العمل تخريباً أو عدواناً أو بغياً؟ إنه حق مشروع توجبه مقتضيات الحياة الاجتماعية، وتفرضه الشرائع المدنية ثم الشرائع السماوية كلها؛ إنّه حق الدفاع عن النفس والعرض والأرض والمال والأهل والعقيدة والتاريخ، حق الدفاع عن الأوطان وحماية شعوبها وتراثها... بل إن التخلّي عن القيام بهذه المهمة هو العمل غير المشروع، وهو الذي تعاقب عليه الأنظمة والقوانين والشرائع كلها في حال القدرة على ذلك، لأنه يعبّر عن الخيانة بأجلى صورها للأرض التي أعطته بسخاء كل ما يريد، وللشعب الذي آحتضنه وكرّمه وحفظه وللأصالة التي ينتمي اليها...

شهادة التاريخ للعرب بالسماحة:

والعرب إذْ ينبرون لهذه المهمة المشروعة، بل لهذا الواجب الشريف السامي، لا يكونون قد أخذوا بمبدأ العدوان على اليهود. بل بمبدأ ردّ العدوان وحماية الذات من البغي والظلم.. فهم خَيْرُ مَنْ مثّل السماحة والنبالة في التاريخ بين الأمم كافة. وشهادة أعدائهم أسبق من شهادة أصدقائهم لهم في ذلك. وإن دينهم وكتابهم يَنْهيانهم في الأساس عن العدوان على أهل الكتاب واليهود منهم ولا يأمرانهم بمقاطعتهم، ولا ينهياهم عن أن يتعاملوا معهم وأن يقسطوا إليهم ما لم يقاتلوهم في الدين وما لم يخرجوهم من ديارهم. وهذا القرآن الكريم يقول: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أنْ تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أنْ توَلَّوْهم. ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾[1].

---

(١) الممتحنة ٨ ـ ٩.

يقول السيد قطب: « رخّص الله للمسلمين في موادة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم. ورفع عنهم الحرج في أن يبرّوهم. وأنْ يتحرَّوْا العدل في معاملاتهم معهم، فلا يَبْخسوهم من حقوقهم شيئاً » ثم يقول: « وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتّفق مع طبيعة هذا الدين ووجهة نظرته الى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر عن إله واحد، والمتّجه الى إله واحد، المتعاون في تصحيحه اللّدُنّي وتقديره الأزلي من وراء كل آختلاف وتنويع. وهي أساس شريعته الدولية التي تجعل حالة المسلم بينه وبين الناس جميعاً هي الحالة الثابتة؛ لا يغيّرها إلا وقوع الاعتداء الحربي، وضرورة ردّه، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة وهي تهديد بالاعتداء. أو الوقوف بقوة في وجه حرية الدعوة وحرّية الاعتقاد. وهو كذلك اعتداء. وفيما عدا هذا فهي السلم والمودّة والبر والعدل للناس أجمعين »[1].

وقد نقل الامام أبو الفَرَج علي بن محمد الجوزي عن علماء التفسير فقال: « قال المفسّرون: وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجوازِ برِّهم، وإن كانت الموالاة منقطعة منهم »[2]. ونقل أيضاً أن: « بعض المفسرين قد ذكر أن معنى الآية والتي قبلها منسوخ بآية السبق. قال ابن جرير: لا وجه لآدّعاء النسخ لأن برّ المؤمنين للمحاربين سواء كانوا قرابة أو غير قرابة، غير محرّم إذا لم يكن في ذلك تَقْوِيَةٌ لهم على الحرب بكراع أو سلاح، أوْ دلالة لهم على عورة أهل الإسلام ويدل على ذلك ما روته اسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قَدِمَتْ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذْ عاهدوا. فأتيت النبيّ ﷺ فقلت يا رسول الله إنّ أمي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ. أفَأَصِلُها؟ قال: « نعم صِلِي أمّك »[1].

---

(١) في ظلال القرآن، الجزء السادس، ص ٣٥٤٤ ـ ٣٥٤٥، طبعة دار الشروق.

(٢) تفسير زاد المسير، الجزء الثامن، ص ٢٣٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٣٧.

ولهذا، فإنّا نقول بأننا نأبى عرباً أو مسلمين أن نُلبَس ثوب العداوة لأحدٍ فرداً كان أو جماعة، شعباً كان أو دولة. ونرفض أن تكون لنا مشاعر البغض والكره تجاه أيٍّ من الأمم والشعوب لمجرد أنها تنتمي الى عرق خاص أو قومية خاصة أو وطن مخصوص. فالناس كل الناس بالنسبة الينا إخوة في الإنسانية. ومن أولى واجبات الأخوة التناصر والتحاب والتعاون...

على أن الكره والبغض والعداوة، والحب والود والسماحة مشاعر تتكوّن في قلوب الناس فتتجه نحو الأفراد أو الجماعات أو الشعوب والأمم والحكومات نتيجة عمل أو موقف أو قول أو تصرف. وبنسبة ما يكون عليه هذا العمل أو الموقف أو القول أو التصرف من السوء والقبح والعدوان، يكون الكره والبغض والعداوة... وبنسبة ما يكون ذلك كله من الحسن والسماحة يكون الحب أو تكون العداوة وإن الكره والبغض والعداوة، والحب والود والسماحة لا تلتصق بنفس الإنسان نحو صاحب ذلك العمل أو الموقف أو القول فيبقى ملازماً له نحوه في كل الظروف ومطلق الأحوال بل إنه إذا آنْفَكّ عنه فاعله تغير شعور ذلك الانسان نحوه من الشيء الى نقيضه.

فالكافر لا نرضى له الكفر. ونكرهه منه. ولكننا نتعاون معه ونبرّه ونقسط إليه ما بادلنا ذلك اطراف النهار وآناء الليل. فاذا آمن رضينا له الإيمان وزاد مِنّا التعاون معه والبرّ به والإقساط إليه. والمحارَب لا نرضى له حرابته. ونقابل حربه بحرب. ولكنّه إذا أقلع عن ذلك ودخل معنا في الأمان، فتحنا له الصدور وبادلناه ثقة وسلاماً.

وخلافنا مع اليهود ليس هو في الأصل خلاف طبع. وليست العداوة معه عداوة جنس بل كل ما بيننا ثمرة عدوان وقع منهم على أبنائنا وإخواننا وعلى أرضهم وديارهم ومؤسساتهم، ومن واجبنا الدفاع عن النفس والوطن واستخلاص الأرض وحماية الملك والعرض.. وكتابنا الكريم يوصينا ويأمرنا فيقول: ﴿وقاتلوا

في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[1].

ويفهم كل العلماء من هذه الآية أن القتال عند المسلمين مع الآخرين، لا يكون للهوى، بل طاعة لله ورغبة في الحصول على رضاه؛ أي في سبيل معنى وقيمة دلّنا الله تعالى عليهما، هما طاعته ورضاه. ولا معنى ولا قيمة فوق طاعته ورضاه. والرسول ﷺ يقول «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»..

---

(١) البقرة ١٩١.

الكتاب الثالث

موقف الإسلام من النصرانية

الاسلام والمسيحية وجهًا الى وجه في لبنان:

سوف يرى القارىء في الجولة الفكرية الواسعة التي سيقوم بها خلال الدراسة التي نقدمها، نبذة واضحة عن النصرانية تعرفه إلى حامل رسالتها، وإلى أمه، وإلى ما أحاط بها ورافقها من رعاية إلٰهية. كما تعرفه على الجذور التي نشأت فيها، وعلى كتابها الانجيل وما انبثق عنها من عقائد وتشريعات وأنظمة.

ويمكن القول أيضاً بأنها ستعرفه إلى موقف الاسلام من ذلك بجلاء ووضوح. وإن كان البحث قد اضطرنا أحياناً لاستعراض الفكر الإسلامي في عمقه الديني، وفلسفته التشريعية، وهدفه من الدعوة، ومنهجه فيها، وفي التعامل مع أهل الكتاب، بصورة عامة، والنصارى بصورة خاصة، داخل الجزيرة وخارجها. وفي عهد الرسول ﷺ وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى عندما تحوّلت القيادة الدينية والسياسية إلى خلفائه من صحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا فإن المسيحية بقيادتها الأولى وأصولها وفروعها ثم بتطورها، عقدياً وتشريعياً، مع تقلب الزمن، يمكن أن تكون واضحة بهذه اللمامة لكل من يطلع عليها.

وإن من حق كل انسان غير مسيحي، المسلم خاصة، والمسلم اللبناني بصورة أخص، أن توضع بين يديه مثل هذه المعلومات عن المسيحية التي يعايشها، ويلتقي

مع اتباعها سحابة النهار وزلفاً من الليل ، في مجالات عمله ونشاطه : في المدرسة أو المؤسسة أو الدائرة الرسمية ، أو المجتمعات العامة والخاصة ، ويختلف معهم أو يتفق في السياسة والادارة والحقول العلمية والأدبية والاقتصادية .

ومن حق المسلم اللبناني بالذات أن تتجمع له هذه المعلومات ، عن عقيدة ودين من يجاوره ويحاوره ويشاركه العيش في وطنه ، ويقاسمه مسئولية المحافظة على كيانه وسلطاته ، وعلى مؤسساته الادارية والمالية والعسكرية والثقافية والاجتماعية والصناعية ، ليعرف من يصاحب ومن يشارك ومن يقاسم . وليعرف الأسس التي ينبغي له أن يعامله في ضوئها والأسلوب الذي ينبغي أن يسلكه معه ، خصوصاً وأن ثمة كتابات تبشيرية كثيرة ما تزال تطلّ علينا ، يوماً بعد يوم ، بأفكار ومعلومات مزيّفة ومشوهة تعتمد أسلوب المغالطة ؛ لتقتنص فكره وتستحوذ على قلبه . . .

وكما يحق للمسلم أن يتعرف على عقيدة المسيحي وشرائعه وآدابه وأنظمته الكنسية ، ليعرف ما يحل له وما يحرم عليه ، ويعرف بالتالي كيف يتعاطى معه ، فكذلك من حق المسيحي أن يعرف المسلم على حقيقته ويُلم بنبذة لا بأس بها عن عقائده وشرائعه وحلاله وحرامه وحدوده الدينية ، ويعرف بالتالي كيف يجاوره ويعاشره ويتعامل معه ، وموقفه منه .

ولأن يعرف كل من المسلم والمسيحي ما لدى الآخر من عقائد وشرائع وحدود والتزامات أخلاقية ودينية ، خيرٌ من أن يكون جاهلاً بها . بل إنَّ تعرّفَ كل منهما إلى ما عند الآخر من هذه المفاهيم يجعل طريق الحوار والتفاهم بينهما أكثر يسراً وأحسن تعبيراً ، ويُنجح مقاصدهما في التعامل والتعاون في مجالات الحياة المتنوعة التي هم ملزمون بخوضها جنباً إلى جنب ويداً بيد . .

ولقد مضى زمن طويل عليهما وهما يتعاملان مجاملة وترقيعاً ، لأن كلاًّ منهما يتهيّب الآخر ويخشاه أو يحذره ويخشى أن يسيء إليه أو إلى معتقده ودينه وآدابه .

كل ذلك لأنه يجهل الأسس الصحيحة التي نشأ منها الدين؛ دين النصرانية، أو دين اليهودية أو دين الإسلام والينابيع الصافية التي تتحدر منها ليغمر قلوب الناس كلّ الناس ومجتمعاتهم بالمحبة، والتعاون والسلام...

وساعة يلم كل مواطن مسلم أو مسيحي بجذور النشأة الدينية وينابيعها الأصيلة التي آنساب منها، والأهداف السامية النبيلة التي تشرئب إليها، وتتجمع لديه المعلومات الكافية في دينه ومعتقده تنجلي له الرؤية الدينية السليمة والصحيحة، ويهتدي للأسس التي ينبغي له أن يرتكز عليها في تعامله مع من يقاسمه العيش على أرض الوطن...

وعند ذلك يخيب أمل الطبقة الاجتماعية التي بنت معاشها على تحريك النفوس وآستغلال نوازعها الطيبة أو الخبيثة لتحقيق بعض المكاسب الماديّة أو الأدبية على حسابها.

فالدين، ليس كما افترى بعض قادة الشيوعية عليه بأنه أفيون الشعوب ومخدّر قواها وقدراتها، وليس أيضاً كما يحلو للبعض أن يفهمه ويوجهه أداة تفريق وتمزيق وخصام واقتتال... بل هو باعث طاقات الإنسان ومحرّك قواه وموجهها للبناء والعطاء وللتفاهم والتعاون والمحبة والسلام: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله» وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننّ أهون على الله تعالى من الجعلان».

وإن أدنى مراتب التقوى التي يفضل بها الإنسان أخاه عند الله أن يكون عاقلاً لمبادىء دينه عاملاً بموجباتها، بحيث يجتنب المناهي ويأتي الأوامر، ولا يجد أَمْنَهُ

وقراره إلاّ في طاعة الله. ومن هنا كان قول الرسول ﷺ « لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ».

وعندما يدرك الإنسان مبادىء دينه ويفهم مقاصدها القريبة والبعيدة يعرف جيداً أن قيمة الإنسان في مجتمعه؛ ليست بانتمائه الديني، أو انتسابه الى الجدود وأحسابهم فحسب، بل بما يبذله من عمل صالح لنفسه ولقومه وشعبه ووطنه أيضاً. وما أجمل ما رواه الفخر الرازي في هذا الصدد، فقد قال: « سمعت أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان في النسب أقرب الناس إلى عليّ عليه السلام، غير أنه كان فاسقاً. وكان هناك مولى أسود تقدّم بالعلم والعمل ومال الناس إلى التبرك به. واتفق أنه خرج يوماً من بيته قاصداً المسجد فاتّبعه خلق كثير، فلقيه الشريف سكران. وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له: يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر ابن كافر. أنا ابن رسول الله أذلّ وتُجَلّ، وأذَمّ وتُكْرم، وأهان وتعان؟! فهمّ الناس بضربه. فمنعهم الشيخ وقال للشريف: يا أيها الشريف بَيَّضْتُ باطني وسوّدت باطنك فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنتُ، وأخذتُ سيرة أبيك وأَخَذْتَ سيرة أبي، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنّوني ابن أبيك وظنّوك ابن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي وعملوا معي ما يعمل مع أبيك!! »[1].

على أن المسيحي والمسلم وجدا في لبنان بعمق تاريخي عريق وجهاً إلى وجه. ولعلهما كانا من أسرة واحدة، أو عقيدة واحدة... لقد وجدا على كل حال كذلك في كل مكان من ربوع هذا البلد الجميل، وتعاهدا وتساندا لحمل مسئولياته وأنشآ لأنفسهما في سبيل ذلك دولة يتظلّلان أنظمتها وسلطتها، ويعملان جنباً إلى جنب للابقاء على سلطانها وهيبتها لتوفر لهما الأمان والطمأنينة والرخاء والعيش الهادىء الرغيد.

---

(١) الفخر الرازي، ١٣٩/٢٨.

ولا أظن المسيحية القائمة اليوم بمعتقداتها وأنظمتها تمنع هذا التعاون، أو ترى فيه ما يضر بمسارها أو يسيء إلى منهجها، وهي كما تعرّف نفسها الداعية إلى السلام والمبشّرة به في كل آن ومكان.

أما الإسلام، وهو الذي يقرر جمهور فقهائه من الأحناف والحنابلة والمالكية، أن مناطق القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء، وليس الكفر[1]، والذي يأمرنا بألاّ نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، ويأمرنا بأن نقول لهم دوماً ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[2]. والذي يوجهنا إلى أفضل السلوك معهم ومع غيرهم حين يقول: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة آدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾[3].. هذا الإسلام هو الذي يدعونا إلى محاسنة المعاهدين من أهل الكتاب والكفار، ومعاملتهم المعاملة التي تحفظ لهم حقوقهم وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم.

والمسلم والمسيحي قد تعاهدا في لبنان على أن يتعاونا ليضمنا معاً لكل منهما في وطنه عيشاً حراً كريماً، وتعاقداً فيه ليوفر كل منهما للآخر حرّيته الفكرية، وحرّيته الدينية في حدود عدم الاساءة إلى الغير، بقصد الاساءة إليه وتحدي مشاعره ومفاهيمه. لقد تعاهدا وتعاقدا ومشيا خطوات عديدة وهما يحاولان الالتزام بذلك ويتخاصمان في كل مناسبة أو عند كل بادرة أو شائبة انحراف عما تعاهدا وتعاقدا عليه.

وما وقع حتى الآن ولا يزال؛ من نزاع ما برحت آثاره بل ووقائعه قائمة تجر

---

(١) **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، دكتور وهبه الزحيلي، ص١٠٦.

(٢) العنكبوت ٤٦.

(٣) فصلت ٣٣ - ٣٤.

وراءها المآسي والكوارث والدمار والخراب والموت والهموم والأحزان... كل هذا نقدر أن نقول عنه إنه من ثمرات الأنانيات والأهواء والسياسة الخرقاء التي أحسنت استغلالها الألاعيب السياسية الكبرى التي تمارسها في شرقنا القريب، وبالذات في منطقتنا العربية، الدول الكبرى المتنازعة على ثرواته ومواقعه الاستراتيجية الهامة..

ويمكن القول بكثير من الدقة، خلا ما يجوز أن يقع بين حين وآخر على صعيد الأفراد من أحداث ليست مقصودة بمفهومها المبدئي العام، أنه لم تقع أية حادثة عامة بارزة في لبنان سواء من المسلمين أو من المسيحيين تعبّر عن نقض ذلك العهد أو الإساءة إليه عملاً أو قولاً.

بل وعلى الرغم من أن اللعبة السياسية الكبرى ما تزال تأخذ مداها بمحاولة تعميق النزاع بين اللبنانيين مسلمين ومسيحيين، والانعطاف به إلى دروب توصل الى تهييج الفكر الديني والعواطف والأحاسيس الروحية فيهم لاثارة النفوس وتحريكها لتندفع وتتقاتل على أساس من العقيدة والدين... نقول إنه على الرغم من هذا، ومما تبعه من تسلّط العدوّ الاسرائيلي وبذله كل وسعه للاستفادة من وجوده وهيمنته وقوته في الوصول إلى ذلك، فقد تمكن أولو الحل والعقد من اللبنانيين حتى الآن من التأكيد للملأ العالمي أن تعايش المسلمين والمسيحيين ممكن في لبنان كما هو ممكن في كل مكان من أجزاء العالم الكبير...

ولئن كانت المطامع الفردية والأهواء السياسية لدى بعض اللبنانيين بفعل المؤثرات الخارجية قد ساعدت وتساعد مع الأسف على تسهيل مهمة العدو الاسرائيلي على أرضنا وتحقيق الكثير من أهدافه، وذلك عن طريق إذكاء نيران الثورة والاضطراب في كل أجزاء لبنان أو أكثرها، وعلى الاندفاع بها إلى الطرف الأقصى بما تنثره على صفحات المجلات والكتب والصحف والبيانات اليومية في الشئون السياسية والحزبية من كلمات لا يمكن أن تبدر من أصحابها في ساعات

الصفاء وأيام الأمن والاستقرار، فإن العقلاء من كلا الطرفين، وفي مقدّمتهم رؤساء الطوائف، ما برحوا يتصدّون لذلك بحكمتهم ويعلنون بحزم كلّ ما يؤكد رغبة أبنائهم وأتباعهم في التماسك والتعايش اللذين يعتمدان الاستمرار في التعاون والتعامل على أسس من العدل والمساواة.

ولقد اشتدّت هذه الثورة وَقَسَتْ سيقانها وآنعكست آثارها المريرة على الطرفين؛ على حياتها ومعاشها وأشخاصها بؤساً وقهراً ودماءً زكية سفكت بغير حق ودماراً واسعاً وخراباً مخيفاً ورعباً دائماً. وما زالت هذه المظاهر تجرّ أذيالها في كل مكان من لبنان، تفرخ فيه من ساعة لأخرى ويوم ليوم، حدثاً مزلزلاً أو مأساة تتطاير من هولها القلوب من صدورها. ولا تكتفي بحصاد أرواح أبناء الطرفين، بل بحصاد ما بقي في نفوس أبناء الطرفين من معالم الخير أو إدراك لمعان الرأفة والرحمة، فضلاً عما تزيد فيه من الخراب الاقتصادي والعمراني والصناعي.

ومع ذلك كله فقد ظلّ أولئك العقلاء على مواقعهم لا يجمحون ولا يتطرفون، ويحملون بأيديهم مشاعل النور لتكون للمتقاتلين والواغلين في ظلمة التناحر والبغي والعدوان منارات تضيء لهم الطريق إلى ساحل الأمان والسلام...

وكذلك يكون الحكماء والمصلحون في مسارات الشعوب والأمم دعاة رفق ومحبة، وأئمة رشاد ووفاق على دروب حياتهم التي تعصف فيها رياح الخصام والمنازعات... ولولا بقية هؤلاء التي بها ينهون عن الفساد في الأرض واتباع الهوى والشهوات ويأمرون بالمعروف والبر والاصلاح لانقلبت مجتمعات الناس إلى ساحات أشبه بحقول الوحوش الضارية يأكل فيها القوي الضعيف...

وهكذا فقد أثبت الدين، في الإسلام الذي يعبر عنه أو المسيحية، رغم أنف الحاقدين والمتآمرين واللاعبين في النار من شياطين الإنس والجن الذين يرغبون في تشويه حقائقه وإبطال دوره، فيلعبون ورقة استغلاله في صالحهم بعيداً عن صالح المجموع من الشعوب وصالح الأوطان وبعيداً عن الحق، أنه دوماً ظاهرة بناء

وعطاء واطلالة تسامح وسلام ونسمة خير وبر بالناس جميعاً.

ومن هنا كان الدين بهذا المفهوم لا يسمح للحقد بأن يكون له في دستوره مكان، كما لا يسمح كذلك بأن تشغل منه العداوة والبغضاء حيزاً.

ومن هذا المنطلق كان الاسلام ولا يزال يوقّر مخالفيه ويحفظ حقوقهم ويصون شعائرهم وطقوسهم الدينية ويحمي لهم معابدهم من كنائس وبيع وصوامع. وهو في مواقفه التي وقفها من خصومه على انطواء الأحقاب والقرون لم يزدْ كما أبَنا في هذه الدراسة، على أن كشف لهم ما لديهم من أخطاء وانحرافات عن سواء الحق وسواء السبيل.

بل إنه ما فعل ذلك إلا لأنه يعتبر نفسه استمراراً لما سبقه من دفقات الوحي الكريم وعطاءات السماء... استمراراً لما جاء به إبراهيم واسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من رسل الله وأنبيائه الكرام.

والدعوة إلى الحق لم تكن يوماً جريرة يقترفها من يقوم بها ما دامت تؤدى في حدود ما أمر الله به من المعروف والحكمة والموعظة الحسنة والأسلوب المرن الرقيق. بل إنه إذا لم يفعل ذلك كان في نظر من انتقدهم وكذلك في نظر غيرهم، مخطئاً وآثماً، لأنه لم يسمُ على مشاعر الذات ويتقدم لتبصير من يؤمن بأنهم على خطأ فيما هم فيه مخطئون.

والاسلام في موقفه من اليهودية والنصرانية بالذات وغيرهما من الديانات والمعتقدات التي كانت شائعة إبان ظهوره، يصدر من هذا المعنى. فهو موقف الغيور الرؤوف الرحيم الذي يشاء أن يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة ويوضح صورة الحق من منظوره الجديد السليم ليستمتع بها من شاء ويفيد منها من يريد دونما إكراه ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [1] ﴿وقد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [2].

---

(١) الكهف ٢٩.

(٢) الأنعام ١٠٤.

وإذا كان الاسلام قد آتخذ هذا الموقف من مخالفيه. فقد آتخذ موقفاً أشدّ حزماً بالنسبة إلى أتباعه المؤمنين بما جاء به والمؤيدين له. فهو لم يقبل منهم إلا أن يكونوا على مستوى رفيع من الاعتصام بحبل الله والتمسّك بأهداب الشريعة والالتزام بحدودها والتجمل بآدابها وأخلاقها.

والاسلام إذ يقف من أنصاره وأبنائه وقفة الحزم والشدة، فليس لأجل أن ينشيء منهم فئة متزمتة تندفع في دروب التعصب الأعمى المحتبس على الحقد للآخرين، بل ليصنع منهم أماثيل بشرية صالحة محبّة يعبّرون في سلوكهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم عن جمال ما يحملون من مفاهيم العقيدة ومعاني التدين.

هذا التدين الذي هو في نظر الاسلام ثمرة فهم صحيح لعقائده وأحكام شريعته، ونظرته العليا إلى الله المعبود، وإلى الكون المحدود والممدود، وإلى الإنسان فرداً وجماعة. وهو بالتالي التطبيق الذي يعيشه من خلال هذا الفهم في العلاقة بينه وبين أخيه، وبينه وبين الله ثم بما حوله من معالم الكون وآيات الوجود.

والتمسك بالدين، أو التدين في ضوء هذا هو التزام المتمسّك بما آمن به وصدّق وفهم وعرف خيره عليه وعلى الناس، ليعيش بشرا سوياً ينفع نفسه وينفع الناس بالنعم التي أفاضهاالله تعالى على عباده مما يرونه أو لا يرونه، ومما يحسون به ويلمسون آثاره أو مما يجهلونه...

أما التمسك الأحمق بالدين الذي لا يرتكز على وعي لحقائقه وأهدافه السامية ولا يصدر عن استيعاب رشيد لأحكامه ومعالمه، فهو تعامل أهوج معه وطائش تحركه مشاعر وعواطف صماء وعمياء تفور وتغور بنسبة ما يتوفر لها من بواعث خلفية شاحنة مستغلة أحياناً، وبنسبة ما يكون عليه ظرف المتحرك المندفع من حيث القابلية للاندفاع أو عدم القابلية لذلك. إنه التعصب الذميم الذي لا يعبر عن معنى التدين في شكل من الأشكال.

والدين لا يعلو بالتعصب، ولا تنفتح له القلوب به.. تلك القلوب التي يريد

أن يعمرها بضيائه الرقيق ومعانيه السامية المشرقة.. بل إن التعصب ليحد من شفافيته ويضعف من انطلاقته وانتشاره. إنه يسيء إليه اساءة الغمام لضياء الشمس، واساءة الفوضى للنظام، والجهل للعلم...

ومن أجل ذلك فقد جاء الاسلام يشجب العصبيات، ويرفض التعصب والعصبية. قال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى العصبية» وقد نهى الرسول ﷺ اتباعه أن يتعصب بعضهم لبعض لمجرد أنهم إخوة في الدين والعقيدة، أو إخوة في النسب، أو إخوة في الوطن، ما لم يكن ثمة حق يتطلب ذلك ويبرّره. ذلك لأن رابطة الدين هي فوق العصبيات لأنها تستمد قوتها من الحق الذي التزمت به، والذي يأمرها بقوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾. ولأن في الانجراف مع العصبيات عودة إلى الجاهلية التي تقوم على التفاخر بالأنساب والفوضى. ورسول الاسلام يقول: «لينتهينّ أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم حطب جهنم وليكونُنّ أهون على الله من الجُعَل الذي يدهده الخرء بأنفه.. إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء».

وما أكثر ما نقله لنا التاريخ من مواقف تعبر عن إنصاف غير المسلم من المسلم وتجاوز العصبيات الدينية الهوجاء، حتى ولو كان ذلك في وجه أمير عظيم، بل وفي وجه خليفة الرسول وأمير المؤمنين. وما أروع المثل الذي ضربه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يوم انتصف للقبطي من عمرو بن العاص ورفع درته فوق رأسه وأمر القبطي بصوته الجهوري وقال: اضرب ابن الأكرمين اضرب ابن الأكرمين! وذلك رداً على ابن عمرو إذ كان يقول وهو يضرب القبطي عندما سبقه بفرسه اتسبقني وأنا ابن الأكرمين!!؟ ثم وجه خطابه إلى عمرو بن العاص وهو أحد كبار الصحابة ذوي السابقة في الاسلام وأمير مصر وفاتحها، وقال يا عمرو!! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!!

وما خرّب المجتمعات والشعوب والحكومات والأوطان في القديم والحديث مثل التعصب... التعصب للدين بعمى وضلال، والتعصب للجماعة، والتعصب

للحزب، والتعصب للأسرة، والتعصب للفرد أخاً أو قريباً أو صديقاً..

ولسنا نعني بهذا أننا لا نشاء أن تتحقق لحمة الجماعة والتصاق بعضها ببعض؛ فَيَدُ الله مع الجماعة. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. ووقوف الفرد إلى جانب جماعته التي ينتسب إليها بالحق والعدل والحكمة، هو قربى يتقرّب الانسان بها إلى الله. وقد تعلمنا من إسلامنا أن تكون وقفتنا إلى جانب الحق والخير وإلى جانب العدل والقيم الصالحة، وإلى جانب هدى الله الذي شاء أن يعم به الوجود والناس أجمعين.

لقد كان العربي في القديم وفي الجاهلية بالذات يغضب لغضب أسرته وعشيرته وقبيلته ويفرح لفرحها، ويصادق من تصادق ويعادي من تعادي، ويتحرك لنصرة أخيه ونجدته في السراء والضراء والمكره والمنشط ولكن في الحق وفي الباطل وسواء كان ظالماً أو مظلوماً..

وجاء الإسلام بضيائه المبين ومنهجه المستقيم، وشدّ على هذه النزعة المنحرفة وعدّلها وسوّاها ووجّهها لتكون في صالح الفرد والجماعة على بصيرة ونور وبالحق والعدل.

فلقد كان من أقوالهم المأثورة في الجاهلية: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. على أساس ذلك المفهوم. فلما جاء الإسلام آستبقى هذا القول ولكنه عدّله وجعله بحيث يكون متناغماً مع كرامة الانسان فقال ﷺ «لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً. فإن كان ظالماً فَلْيَنْهَهُ فإنه له نُصْرة وإن كان مظلوماً فَلْيَنْصُرْهُ»(1).

---

(1) فيض القدير، للمناوى، ٣٩٨/٥.

وهكذا نحن مسلمون مؤمنون بالله. موحّدون. نكنّ الحب ونبغي الخير لكل الناس ونبرّهم في وجودهم وفي غيبتهم، ونحرص على أن نقدّم لهم كل عطاء فيه رضاهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هنا فإننا نبغض التعصب ونكره الحقد والحسد والبغي والعدوان، والإثم. ونندفع لكل تعاون على البر والتقوى. نمدّ يدنا للصديق والقريب والبعيد، ولمن نعرف ومن لا نعرف ونقيم على العهد ما أقام، فلا ننكث عهداً ولا نخفر ذمة ولا نخون أمانة...

نحن لا نريد بأحد شراً ولا ضراً، ونؤمن بمبدأ الخطأ والصواب. ونقرّ بأننا خاضعون له، نخطىء كما يخطىء الناس ونصيب كما يصيبون.. وإذا وضح لنا خطأ في الاجتهاد أو في السلوك أو في الحكم عدلنا عنه إلى الحق، لأننا نؤمن بأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.. إذْ المهم أن نكون على الجادة المستقيمة والصراط السوي صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير...

وهكذا فإننا إذْ كتبنا في النصرانية واستعرضنا في هذه الدراسة مجمل عقائدها وشرائعها وأنظمتها، ثم استعرضنا بمقابلها موقف الإسلام فقد فعلنا ذلك بقصد نبيل وهدف سامٍ كريم. فقد كثرت كتب التبشير في هذا البلد ونشراته ومؤسساته التربوية والثقافية والترفيهية والاجتماعية، وتنوعت وتفنّنت. ودخلت هذه الكتب والنشرات إلى كل بيت من بيوتنا، بل إلى كل مؤسسة من مؤسساتنا. كما امتد أثر تلك المؤسسات على اختلاف وسائلها وبرامجها إلى كل فرد من ناشئتنا ودخلت من خلال ذلك تعاليم وعقائد المسيحية الى قواعدنا وبيوتنا ومدارسنا ونوادينا وكثر تساؤل أولادنا فيها وفيما تحمل من حق. وفي القدر الذي تلتقي وتشترك مع ما لدينا أو تتنافر وتتعارض معه.

ولقد كان لا بد في هذا البلد الذي أتاح للنصرانية بأن تتحرك بهذا الشكل من الحرّية والتسامح، أن نضع فيه بين يدي أبنائنا اللبنانيين جميعاً، النظرة

الاسلامية العقائدية والتشريعية كما نفهمها من منطلق كشف الأمور على ما هي عليه بعيداً عن العواطف والانفعالات وفي حدود العلم والمعرفة والحق والحقيقة.

ومنذ أيام تقريباً طلعت علينا دور النشر بكتاب جديد ظهر باللغة الفرنسية[1] وضعه أحد كبار البارزين في الصرح البابوي وترجمة عنوانه هي: « نحو حوار إسلامي مسيحي » فيه كثير من الاعتدال، كما فيه اعتراف بما كان في الماضي للنصارى من موقف متأزم ومتعصب تجاه الإسلام والمسلمين، ومن ثمّ، حضّ للنصارى في كل مكان من العالم على أن يعيدوا النظر في موقفهم هذا وأن ينطلقوا بعد اليوم تجاه الإسلام من المعرفة والعلم لا من التعصب والانفعال العاطفي...

ونحن ولا ريب نرحب بمثل هذه الخطوة الجليلة ونعتبرها انقلاباً صالحاً في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين يحدث في هذا القرن العشرين بتوجيه من أعلى مستوى كنسي في الديانة النصرانية، ونتمنّى أن تؤتى ثمارها الطيبة ونتائجها الحميدة..

وما أجمل نداء الإسلام منذ ألف وأربعمئة سنة تقريباً إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى معاً بل إلى غيرهم ممن لهم كتاب من الأمم والشعوب: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا آشهدوا بأنّا مسلمون﴾ [2].

ولما كان الخطاب في هذه الآية موجهاً من حيث السبب الى النصارى [لأن سبب نزولها هو ما جرى بين رسول الله ﷺ ونصارى نجران من الحوار، على

---

(١) Orientations pour un dialogue, entre chrétiens et musulmans.

(٢) آل عمران ٦٤.

الأصح] فإنا نلاحظ كيف أنه تعالى وجهه إليهم بأحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله، مبالغة في تعظيمهم وفي تطييب قلوبهم، ودعاهم إلى كلمة فيها إنصاف بعضهم لبعض، لا ميل فيه لأحد على صاحبه ولا ظلم ولا عدوان، وهي ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله...

وكل حوار ينطلق من مبدأ التشبث والتعنّت هو حوار ظالم ومنحرف يؤذي ولا ينفع ويسيء ولا يصلح. وكل حوار ينطلق من مبدأ الحرص على الحق وتمنى الحصول عليه والفوزِ به، حوار مستهد وسوِيٌّ، تنفتح له القلوب وتستنير به النفوس ويظلّه الله برحمته وتوفيقه ورضاه، ويجعل فيه البركة والخير..

وما أحوجنا في لبنان في هذه العتمة القاتمة التي تكتسحه منذ سنوات إلى مثل هذه القاعدة في التّحاوُر نستند إليها ونتحرك منها. فنحن أبناء مجتمع واحد، ووطن واحد، وذوو تاريخ واحد ولغة واحدة، ومصالح مشتركة، ونحن بحاجة ماسة إلى التماسك والتلاحم والتفاهم والتعاون لنتصدى للعدو المشترك بعزم وقوّة، ولنحقق أهدافنا المشتركة بالعيش المستقر الهادي الهنيء.. واعتماد هذه القاعدة في تحاورنا، يعرف بعضنا إلى بعض ويساعدنا على أن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه من عقيدة وشريعة، ويمكننا في أن نتعاون فيما تفاهمنا عليه والتقينا فيه. وما أكثر ذلك في شئوننا الحياتية والمسلكية...

من أجل هذا كله شئت أن أقدم هذه الدراسة بإخلاص المواطن المحب الذي يتطلع إلى العطاء الخير، يقدّمه إلى إخوانه، آملاً لهم الصلاح ومتمنياً لهم السداد والرشاد. فإن وفقت في إصابة الهدف فذلك فضل من الله. وإن أخطأت فليس ذلك عني ببعيد ولا عن أمثالي من البشر. ولكن يبقى دوماً أن نطمع بعفو الله

وغفرانه، ثم بأن نجد لدى إخواننا المواطنين المعذرة، والتوجيه الكريم الرشيد...

مقدمة في تاريخ المسيحية قبل دخولها الجزيرة العربية:

لقد كانت أرض الجليل من فلسطين البيئة الأصلية التي رأت فيها المسيحية الشعاع الأول من فجر حياتها. وهي تمثل الجزء الشمالي من الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وقد عرفت في التاريخ القديم بأنها أرض كنعان. وأطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » وذلك لميل لون صخور جبالها الى الحمرة...

امتازت هذه البقعة قديماً بموانئها الواقعة على طريق التجارة الساحلي للبحر الأبيض الى خليج فارس، والى أقصى الشرق. وكان أشهر هذه الموانىء إذْ ذاك صيدا وصور وحيفا.

لقد دخلت قديماً بعض بلادها في مملكة داوود. فاستفاد اليهود كثيراً من الكنعانيين؛ أخذوا عنهم معالم حضارتهم واعتمدوا عليهم الى حدٍّ بعيد، في الصناعة والتجارة. ونقلوا عنهم الكتابة وأناشيد الصلوات. بل كثيراً ما كان يتمادى تأثيرهم في اليهود، حتى كان هؤلاء يتركون عبادتهم ويتحوّلون الى عقائد هؤلاء وعبادتهم. وإلى هذا يشير العهد القديم في سِفْر القُضاة إذ يقول: «وفعل بنو اسرائيل الشرّ في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر».

كان أبناء شعب الجليل يتكلمون اللغة الآرامية، لغة سورية الداخلية، أو اللغة اليونانية، لغة القادمين من البحر، أو من آسيا الصغرى. واتفق جمهرة المؤرخين

على أن عامّة سكان الجليل كانوا عرباً يتكلمون اللغة الآرامية، ويلفظون اللغة العبريّة برطانة يتميّز بها أهل الجنوب من فلسطين.

وقد آشتهرت العداوة بين سكان الجليل وسكان الجنوب من فلسطين. وكان سكان الجنوب، وكثرتهم العامّة من اليهود، قد ذاع على ألسنتهم من أمثالهم حينذاك «لا خَيْر يأتي من الجليل». وقد ورد في إنجيل يوحنا أن رجال الهيكل كانوا يقولون متهكّمين «إنه لم يقم نبيٌّ من الجليل».

ويردّ الكثيرون من المؤرخين هذه العداوة الى أن أهل الجليل في غالبيّتهم وثنيون. ولئن كان قد دخل منهم على مرّ الدهور في اليهودية عدد كبير، فقد ظلوا رغم اعتناقهم لها متأثرين بكثير من عاداتهم الأصيلة، وطباعهم الموروثة عن آبائهم وأجدادهم؛ فاشتهروا بقلّة التحرُّج في الدين، وبالسماحة في التعليم، والتعاطي مع الناس. بينما كان سكان الجنوب وهم من اليهود الأُصلاء معروفين بالجمود والتقوقع، وإباء كل آنفتاح وتسامح.

وتنقل كتب التاريخ أن الأمة اليهودية خضعت في تقلّب الدهور لنفوذ أشور وبابل والفرس واليونان والرومان. وأنهم ذاقوا على أيدي هؤلاء أشد النكال وأمرّ الهوان والذل.

ولقد كان الشعب اليهودي طيلة المراحل التي مرّت عليه بعد العودة من السبي مقيماً على آعتقاد خاص، هو أنه شعب الله المختار، وأن دينه هو الدين الأفضل، وأنّ فلسطين هي أرض الميعاد، وأن جميع الشعوب هم دونه. وهم خطاة. ويحرم عليه التعامل معهم والاختلاط بهم. وكان هؤلاء اليهود ينظرون الى السامريين سكان الجليل، على أنهم يهود منشقّون عنهم ومنحرفون. وهم أكثر ضلالاً من الشعوب الأخرى، لأنهم قد بَنَوْا لأنفسهم هيكلاً آخر على قمة جبل غريزيم قرب نابلس يعبدون فيه إلهم «يَهْوَه» في الوقت الذي يعتقد فيه الشعب اليهودي أن

مقرّ «يَهْوه» لا يكون إلا في هيكل واحد هو هيكل أورشليم القائم على جبل «موريا».

وفي هذه الغمرة من الاعتقاد، كان هؤلاء يعتقدون أيضاً بنبوءة ظهور المخلّص، وقرب مجيئه وأنهم على يَدَيْه سوف يتحرّرون من سلطان الوثنيين وأمثالهم ويخوضون بقيادته حروباً تضمن لهم النصر على الأمم قاطبةً فيتحقّق سلطان إسرائيل(٢).

وفي الأيام الأخيرة من حكم هيرودوس الروماني الجنسية؛ ألادومي من جهة أبيه، والعربي من جهة أمه، ولد المسيح عليه السلام ونشأ وترعرع، واكتمل نضوجه في عهد بيلاطس الذي كان محصّل اليهودية في أيام طيباريوس.

ولم يكن المسيح عليه السلام كما يشتهي هؤلاء اليهود. فقد وُلد في منطقة الجليل، وجاء ينظر الى الناس جميعاً نظرة محبة وتسامح وعفو، ويدعوهم جميعاً الى الله، والى الالتزام بما أمر به. ولم يحمل السيف كما كانوا يترقّبون منه ليقاتل في صفّهم من خالفهم. وقد كان مع ذلك مؤيداً بمعجزات خارقة؛ فكان يُبْرىء الاكْمه والأبرص بإذن الله، ويُحْيي الموتى بإذْن الله، وينبّئهم بما يدّخرون في بيوتهم ويشفي المرضى بإذن الله ويخبرهم ببعض المغيّبات.

وهو إيْضاً قد جاء يدعو الى نقيض ما أخذوا به. فإذا كان الحكم في الشريعة الموسوية هو: العين بالعين والسن بالسن، فقد جاء عليه السلام ليعلن: «من ضربك على خدّك الأيمن فقدّم له الآخر» وليعلن أيضاً: «أحبوا أعداءكم وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم». بل إنه لم يمنع أصحابه في حال الضرورة من العمل يوم السبت. وجعل ينهض بأفكارهم وقلوبهم لتسمو في مدارج الفضل والنقاء

---

(١) راجع هذه المعلومات في كتاب حياة المسيح، لعباس محمود العقاد، ص ٧٨ - ٨٢، وكتاب في خطى المسيح، للدكتور نصري سلهب، ص ١٨ وما بعدها.

(٢) في خطى المسيح، ص ١٣٧.

الروحي بعيداً عن الطمع في الجاه والسلطان والمال وخيرات الحياة المادّية وعن عالم الجشع والعنف.

ومن أجل هذا كان كلامه يتنزّل على البعض تنزُّل الندى الرطيب على الورق الذي كاد يجفّفه العطش وهو القسم القليل القليل من الشعب. بينما كان يسقط على الجمهرة منهم سقوط الهراوات على ظهورهم ورؤوسهم فيهيج خواطرهم، ويحرّك نفوسهم للثورة عليه، وإسكات صوته الهادىء الرصين إلى الأبد. كيف لا، وقد جفا أملهم العريض، وآنحرف عن تطلعهم العريق. انهم ما فتئوا يئنّون من ضغط الوثنية وبطشها وجبروتها وأذى جهالاتها، وهم ينشدون الحريّة والخلاص على يد بطل عظيم يمنحهم القوة والبطش ويحقق لهم السيطرة والعلو في الأرض، فإذا بهم يسمعون منه حديث السماحة والعفو والترقي والعلاء، حديثاً يتناول معهم الملكوت الآخر؛ ملكوت الروح، ويتركهم في ضيقهم يتخبّطون، فارتدّ الكثيرون عنه «ولم يعودوا يمشون معه» ودبّ الخلاف والنزاع بينه وبين عامتهم، وبخاصة الفِرّيسيّين والكتبة أصحاب النفوذ في أورشليم وكذلك الصدوقين الذين حرضوا الجموع على الكفر به وبدعوته. ووقعت الكارثة...

وتروي كتب التاريخ المسيحي أن عيسى قد سيق الى المحاكمة، وأن المحكمة اليهودية إذْ ذاك حكمت عليه بالموت، وأن بيلاطس لم يسعه إلا التصديق على حكمها بعد أن غسل يديه قُدّام الجميع وقال: «إنّي بريءٌ من دم هذا الصدّيق»[1].

وصلب المسيح كما هو اعتقاد النصارى ثم مات، ثم قام وارتفع الى السماء يقول الانجيل: «ثم إن الرب بعدما كلّمهم آرتفع الى السماء وجلس عن يمين الله»[2]. ولم

---

(١) في خطى المسيح، ص ٣٧٤.

(٢) انجيل متى ٢٧، ٢٨، وانجيل مرقس ١٦، ولوقا ٢٤. أما نحن المسلمين فنقول بأن بيلاطس قد حكم بالصلب على المسيح ونفذه على من شبه له بأنه هو. أما المسيح فقد أنقذه الله، ورفعه اليه =

يمض وقت طويل حتى شعرت السلطة بثقل وطأة أنصاره فأخذت تطاردهم وتضطهدهم وتعذّبهم بألوان العذاب وصنوف التنكيل حتى آضطر الكثيرون من سادتهم ورهبانهم الى الفرار بدينهم في رحاب الأرض.

وهكذا نشب صراع خطير، ومن نوع جديد بين أبناء شعب واحد ودين واحد، آنضمّت إليه فيما بعد أبناء شعوب أخرى وأديان أخرى. واستطال زمن هذا الصراع وتلوّن مع تقلّب الأيام. وصار الناس ما بين مؤيد لليهودية حامل على النصرانية وجاحد لها، أو مناصر للنصرانية ومنكر لليهودية وثائر عليها. والجمهور في تخبط من أمر هذا الصراع وضلال مبين.

ومع ذلك، فقد كان الطرفان؛ أعني الذين حملوا مشعل اليهودية والمروّجين لها، والذين حملوا راية المسيحية والداعين لها. كان الطرفان يؤمنان بِقُرْب ظهور نبيٍّ جديدٍ بَشّرتْ به التوراة وكذلك الانجيل، والأنبياء من بني إسرائيل.

لقد انتقل المسيح عليه السلام الى ربه وقد ترك وراءه من الأتْباع الصادقين المخلصين من حملوا رسالته من بعده بصدق وإخلاص واندفعوا في أطراف المعمورة يدعون اليها ويتحمّلون في سبيلها اسوأ العذاب والأذى والظلم؛ حتى كان الرجل منهم يقاد الى المحاكمة فيؤمر بترك دينه فيأبى، وعند ذلك يسلّط عليه زبانية السجون، فينزلون به من ألوان التنكيل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيموت من ذلك التعذيب على حال لا يموتها غريق في لجج البحر، ولا ملقى في أتون النيران، ولا ساقط من شاهق أو مطروح لوحوش البر.

= يقول تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف.بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظنّ. وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

ولقد ألجأت قسوة الاضطهاد هذا أكابر مؤمني النصرانية الى الهروب بدينهم واللواذ بأعماق الصحارى ورؤوس الجبال وأغوار الوديان حيث ينشؤون لأنفسهم فيها صوامع وبيعاً يتعبّدون فيها الليالي والأيام بعيداً عن أعين الملاحقين والراصدين..

الفصل الأول

النصرانية في الجزيرة العربية

١ - النصرانية على طريق اليهودية
٢ - خصوص الرسالات السابقة
٣ - قيود في اليهودية دون النصرانية
٤ - زمن دخول النصرانية الى الجزيرة العربية
٥ - النصرانية في بعض القبائل
٦ - النصرانية في مكة
٧ - النصرانية في الطائف
٨ - النصرانية في المدينة
٩ - النصرانية في اليمن وفي اطراف الجزيرة
١٠ - تأثر المسيحية التي دخلت الجزيرة العربية بالوثنية
١١ - سبب ذلك.

النصرانية على طريق اليهودية:

ليس عجيباً من المضطهد أن يبحث وهو في عنت اضطهاده عن مخرج يلتمس فيه طريق النجاة والخلاص. واذا كانت اليهودية في الأيام التي كانت تذوق فيها مرارة العذاب وكيَّ العبودية وآلام التشريد، قد آهتدت الى أطرافٍ في الجزيرة العربية، فاختارت لها فيها ملاجىء ومغاور آحتمت فيها من مطاردة الأعداء، وتابعت مسيرتها بصبر وثبات ومعاندةٍ لكل المناوئين... فكذلك النصرانية عندما لقيت على أيدي يهود أورشليم وما حولها، ووثنيي ربوع فلسطين من الحكام وعامّة الشعب ما لقيته من المطاردة والكبت والتضييق والتنكيل، التمست لها من محيطها مخارج؛ فكان من أتباعها من لاذ بصحارى سورية وأغوار وبطون أوديتها ورؤوس جبالها وسفوحها، ومنهم من شق طريقه الى مصر، ومنها الى إفريقية الشمالية، ومنهم من ولّى وجهه صوب الجزيرة العربية...

والنصرانية دين قام على أسس اليهودية ومبادئها وأحكامها وتشريعاتها؛ فقد كان عيسى عليه السلام وهو حامل مشعلها، وباني ركائزها من بني إسرائيل. ولمّا اصطفاه الله للرسالة كان يتوجه في دعوته ورسالته الى بني إسرائيل وحدهم. ولم يعرف عنه فترة وجوده وقيامه بأعباء رسالته أنه توجّه إلى غير بني اسرائيل، وإن كان الأمر قد تغيّر في عهد بولس فتطورت الديانة النصرانية تطوراً خطيراً وآتسع مدى تَوَجُّهها، ورَحُب أفقها رحابةً ملفتةً للنظر.

خصوص الرسالات السابقة:

والذي كان معروفاً من الديانة اليهودية أنّها كانت ثمرة رسالة موسى عليه السلام الى بني إسرائيل، وأن اليهود في هذه الناحية قد التزموا بالوقوف عند هذه الحدود فلم يعرف عنهم مطلقاً أنهم تحركوا لنشر دعوتهم فيمن عداهم؛ فهم كانوا ينظرون الى الله على أنه ربٌّ بني اسرائيل وإله بني اسرائيل في الغالب[1]. وصحف العهد القديم والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو من ذكر الله كرب للعالمين، ولذلك فإن من العبث العثور في سيرة أنبيائهم مثل موسى وهارون وداوود وسليمان على مثل هذا المعنى.

أما النصرانية فقد قامت كما قلنا على يد المسيح عليه السلام والمسيح لم يدّع يوماً أنه رسول الله الى العالمين، بل الذي نقل عنه أنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالّة[2]. وحين لفت البعض نظره الى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببني اسرائيل ليعالجهم اعتذر وقال: «إني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب»[3]. وقد ثبت قطعاً بأن كل مخاطباته كانت موجَّهةً الى بني إسرائيل. وفي القرآن الكريم كل الدلالات الظاهرة والمؤكدة لهذا المعنى. يقول الله تعالى: ﴿قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء، اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل...﴾[4] ولكنها رغم هذه الحقيقة تحوّلت، لأمر أراده بعض قادتها وعلى رأسهم بولس من رسالة خاصة الى بني اسرائيل، الى رسالة عامّة موجّهة الى جميع البشر.

---

(١) السيرة النبوية، لأبي الحسن علي الحسني الندوى، ص ٥٢٤.
(٢) انجيل متى ١٥/٢٤.
(٣) انجيل متى ١٥/٢٦.
(٤) آل عمران.

ولا تختلف الديانات الشرقية والآسيوية والهندكية خاصة عن ذلك في المنحى ؛ بل إنها تسبق الديانات السابقة أحياناً في تقديس النسب والسلالة وتوزيع الناس في طبقات توزيعاً خاصاً. حتى كان المنبوذون في المجتمع الهندي محرومين من كل نوع من أنواع التكريم والشرف، ومن أوائل حقوق الإنسان، فلا يجوز لهم تحصيل العلم والتطلع الى الهضبة الروحية. وقد صرح « منو شاشتر » أن المنبوذين لم يخلقهم الله إلا لغرض واحد، وهو خدمة الطبقات الثلاث. بيد أن جعل رسالة الأنبياء السابقين على محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، خاصة بأقوامهم، لم يكن الهدف منه تمييز أقوامهم على سواهم بالخير وتفضيلهم عليهم، كما بدا لأصحاب الديانات الشرقية، وكما انتهى إليه بنو إسرائيل ظلماً وبغياً: فقد كثر عدد الأنبياء الذين ظهروا في أقوامهم. وقد روى وهب بن منبه: « أن الأنبياء كلهم مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلاثمئة وخمسة عشر »[٤]. وقد انتشر هؤلاء الأنبياء والرسل في أقوامهم. ولا يعلم إلا الله أماكن انتشارهم. وكانوا يقومون بابلاغ رسالة ربّهم بهم وتعليم أقوامهم وتزكيتهم. ولم ينقل عن أحدٍ من رسل الله أنه كان يفاضل بين بني قومه فيميز بعضهم عن بعض، ويفضل بعضهم على بعض، اللهم إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

قيود في اليهودية دون النصرانية:

ولقد حبست اليهودية نفسها في بني إسرائيل بقيود قيّدت بها المؤمنين بها، وكادت تضبط كل حركاتهم وسكناتهم، ففرضت عليهم فروضاً ثقيلة وآصاراً باهظة، وسلسلتهم بأغلال لا فكاك لهم منها. يقول الله تعالى مشيراً الى هذا في كتابه الكريم على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إنْ هي إلا فتنتُك تُضِلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت وَليّنا فآغفرْ لنا وآرْحَمْنا وأنت خير الغافرين. واكْتُب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك. قال عذابي أُصيب به

---

(١) أعلام النبوة، للماوردي، ص ٤٠.

من أشاء ورحمتي وَسِعَت كلَّ شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويُؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيّبات ويُحرِّم عليهم الخبائثَ وَيَضَعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾. قال العلاّمة الفخر الرازي تعليقاً على هذه الآية: «المراد من الطيّبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع وذلك لأن تناولها يفيد اللذّة. والأصلُ في المنافع الحِلُّ إلاّ لدليل منفصل... وكل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سبباً للألم، الأصل في المضارّ الحرمة، فكان مقتضاه أن كلَّ ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل منفصل. وعلى هذا الأصل فرّع الشافعي رحمه الله تحريم بيع الكلب لأنه روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ في كتاب الصحيحين أنه قال: «الكلب خبيث، وخبيثٌ ثمنه» وإذا ثبت أن ثمنه خبيث وجب أن يكون حراماً لقوله تعالى: ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾ وأيضاً الخمر محرّمة لأنها رجسٌ بدليل قوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر...﴾ الى قوله تعالى ﴿رجس﴾ والرجس خبيث بدليل إطباق أهل اللغة عليه والخبيث حرام لقوله تعالى ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾... الى أن يقول «إن شريعة موسى كانت شديدة، والشدائد التي كانت في عبادة قومه كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتّبع العروق من اللحم، وجعلها الله أغلالاً لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل»[1].

وقال العلاّمة جمال الدين القاسمي «الطيّبات أعمّ من الطيّبات في المأكل كالشحوم وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام. ومن الطيّبات في حكم الشريعة كالبيع وما خلا كسبُه عن سُحت. وكذا الخبائث ما يُسْتَخْبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغيرِ الله به، أَوْ ما خَبُثَ في الحكم كالربا

---

(١) تفسير الفخر الرازي، المجلد الثامن، ص ٢٧ ـ ٢٨.

والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. قيل يُسْتَبْعد إرادة ما طاب أو خبث في الحكم لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحِلّه أوْ حكم بحُرْمَته؛ فيرجع الكلام الى أنه يحل ما يحكم بحلّه ويحرّم ما يحكم بحرمته ولا فائدة فيه. وردّوه بأنه يفيد فائدة وأيّ فائدة لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع لا بالعقل والرأي.. وأما قوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم﴾ ففيه إشارة الى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة كما ورد في الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بالحنيفيّة السمحة». وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما الى اليمن: «بشّرا ولا تنفّرا ويسّرا ولا تعسّرا وتطاوعا ولا تختلفا»..

و«الاصر والاغلال» استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة. فمنها تحريم طبخ الجدي بلبن أمه، ومنها نظام الأعياد التي يعيدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال، وكذلك عيد السبت الذي لا يعملون فيه أي عمل، وسبت المزارع ففي كل سنة سابعة سبت للأرض لا يزرع فيها ولا يقطف الكرم، بل تترك الأراضي عطلاً وغلاّت الكروم مأكلاً لفقراء شعبهم ووحوش البرّية. ومنها أن من ضرب أمه أو أباه أو شتمهما أو تمرّد عليهما وعصاهما يقتل حدّاً. وكذا من يعمل يوم السبت يقتل. ومن كان به جنٌّ أو تابعه، يرجم بالحجارة حتى يموت. ومن تزوج فتاة فادّعى أنه لم يجد لها عذرة ثم تبيّن كذبه جميعاً يقتلان. وإذا أمسكت امرأة عورة رجل تقطع يدها. واذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات المنطوح يرجم الثور ولا يؤكل لحمه. ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم. ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر وطلقها أو مات عنها، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها[1].... ونقل في موضع آخر إضافة الى هذه الآصار، أن على صاحب الأرض أن يحضر الى بيت الرب أول أبكار أرضه. وإن من مسّ مَيتة إنسان ما يكون نجساً سبعة أيام. وإذا مات إنسان في خيمة

(١) تفسير القاسمي، المجلد الخامس، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

فكل من دخل الخيمة وكل من كان فيها يكون نجساً سبعة أيام. وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة نجس. والقاتل لا تؤخذ منه دية بل يجب أن يقتل. وكل من مسّ حائضاً تنجّس حتى المساء. وكل ما تضطجع عليه أو تجلس عليه ينجس وكل من يمس فراشها ينجس وعليه أن يغسل ثيابه.

وقد كثرت هذه الآصار وتنوعت حتى تناولت نوع اللباس ووسائل الحراثة وطريقة التعامل بين الأبناء والآباء والمرأة وزوجها والانسان وما حوله من الحيوانات والطيور. ويمكن الرجوع فيها الى سفر الخروج في الاصحاح الثاني عشر والحادي والعشرين والثالث والعشرين. وفي سفر العدد في الاصحاح الخامس عشر والتاسع عشر والخامس والثلاثين. وفي سفر التثنية في الاصحاح الخامس عشر. وفي سفر اللاوين في الاصحاح الرابع والخامس والسادس والحادي عشر والثاني عشر والخامس عشر والسابع عشر والتاسع عشر والخامس والعشرين وفي سفر التثنية أيضاً في الاصحاح الحادي والعشرين والثاني والعشرين والرابع والعشرين..

قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار حول هذا المعنى: «إن بني إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدّة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنيّة والعقوبات كالذي يحمل أثقالاً يئطّ منها، وهو مع ذلك موثق بالأغلال، والسلاسل في عنقه ويديه ورجليه... بينما جاء الاسلام بالحنيفية السمحة[1]...

أما النصرانية فقد كانت أكثر تيسيراً وتسهيلاً، وأعظم تسامحاً حيث وسعت على أتباعها فلم تقيدهم بقيود آصرة. ولم تفرض عليهم فروضاً وأحكاماً مثقلة مهلكة اشترطت عليهم وجوب تنفيذها ليصح إيمانهم وتقبل طاعتهم. بل خفّفت عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشدّدت عليهم في الأحكام الروحية وشجعت اتباعها على الحركة والانطلاق بالدعوة ونشر محاسنها وعقائدها بين بني إسرائيل.

---

(١) تفسير المنار، ٩/٢٢٠.

زمن دخول النصرانية الى الجزيرة العربية:

ويكاد يكون من المتعذر تقريباً تتبع الزمن الذي دخلت فيه النصرانية الجزيرة العربية وتحديده بالتعيين، وإن كان بعض رجال التأريخ الكنسي يميلون الى أن يردوا ذلك الى الأيام الأولى من التاريخ النصراني[1]. بيد أن الكثيرين من المؤرخين ينسبون دخول النصرانية الى الجزيرة العربيّة الى سبب التبشير الذي كان يقوم به بعض الرهبان، كما ينسبونه الى تسرّب بعض النسّاك من النصارى الذين هربوا بدينهم من ضغط اليهود ومكارهتهم، ومن ضغوط الحكام الرومانيين الى عمق الصحراء ليعيشوا بعيدين عن ذلك، ومجافين في الوقت نفسه لأطايب الدنيا وملذات الحياة...

بل ويجعل بعضهم من الأسباب التي عملت على دخول النصرانية الى قلب الجزيرة العربية وأطرافها هو تجارة الرقيق من الجنْسين، الرقيق المستورد من أمبراطوريتي فارس والروم خاصة.

ولقد كان من هذا الرقيق أعداد وفيرة في مكة والطائف، وفي يثرب، وفي مواضع أخرى من الجزيرة. وكانوا يقرأون ويكتبون لأسيادهم، ويفسّرون لهم إن كانوا من أهل الكتاب ما جاء في التوراة أو في الانجيل، ويقصون عليهم أقاصيص اليهودية والنصرانية وأخبارهما.

بل لقد ثبت أن من هؤلاء من تمكّن بفضل ملكاته الفكرية والبيانية أو السلوكية أن يؤثر في أسياده، أو في الذين كانوا حوله من الأعراب، فيقنعهم باعتناق عقيدته ودينه، أو على الأقل، في أنه يشكّكهم في وثنيّتهم، ويسفّه أحلامها وطقوسها وعبادتها...

وقد ثبت أيضاً أن أديرة رهبان النصارى ونسّاكهم قد انتشرت في أماكن

---

(١) النصرانية وآدابها، القسم الأول، لويس شيخو.

متفرقة من الجزيرة؛ في نجد والحجاز، وجنوب الجزيرة وشرقها، وأنها كانت ذات أثر فعّال في تعريف أصحاب القوافل من تجار العرب بالنصرانية. وبخاصة وأنّ هؤلاء التجّار، كانوا يجدون في تلك الأديرة ملاجىء يأوون اليها من وعثاء السفر ومشقّته فيرتاحون فيها بعض الوقت، ويتجهّزون منها بما يفتقرون إليه من الماء والزاد. وكثيراً ما كانوا يجدون فيها الانس والسمر واللهو والشراب والطرب. ومن خلال ليالي الأنس والسمر هذه كان يتيسّر لهم الإلتقاء ببعض أولئك الرهبان والنسّاك فيستمعون الى نبذ من مواعظهم ونصائحهم وحكمهم، ويتعرفون الى بعض شعائرهم الدينية..

وهكذا فقد لعبت هذه الأديرة في بطون الصحاري ومجاهلها دورها، فكانت مواطن للتبشير بالدعوة النصرانية ونشر أفكارها ورؤاها الدينية عن الحياة الدنيا وعن الآخرة...

النصرانية في بعض القبائل:

ولقد آنتشرت النصرانية في بعض القبائل العربية العريقة، فكانت في ربيعة، وغسّان، وقسم من قضاعة وطيء ومذحج وبهراء وتنوخ ولخم. ولقد تنصّر من قريش عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى وورقه بن نوفل بن أسد[1].

وكما دخل في النصرانية كثير من ملوك الغساسنة، فقد أشار أهل الأخبار الى تنصّر بعض ملوك الحيرة. ونسبوا إليهم بناء الأديرة؛ فنسبوا الى المنذر والى النعمان بن المنذر وإن كان بعض المؤرخين يخالف ذلك.

وهكذا فقد آستطاعت النصرانية الأولى بفضل روّادها الذين مزجوا بين التبشير، والتجارة والعبادة والعمل أن تمعن في التوغل في بطن الجزيرة وفي أطرافها، فكسبوا من التبشير بعض الترسيخ لأقدام نصرانيتهم في أرض الجزيرة

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ٥٨٦/٦.

ومناكبها، وكسبوا في تحصيل مرابحهم المادية التي كانوا يقصدون إليها في تجارتهم...

النصرانية في مكة:

ولقد كان لمكة من هؤلاء النصارى المهجّرين نصيب، فكان منهم فيها رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم. وكان منهم الأسود والأبيض. وكان من هؤلاء كما أشرنا سابقاً من آتاه الله نصيباً جيداً من الفهم والمعرفة والقراءة والكتابة؛ فكانوا يقومون بالأعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة وذكاء. ومنهم من كان يقص على أسياده ما حفظه ورواه من أخبار الماضين من الأمم الغابرة. وكانت لغة أكثرهم غير عربية. ولذلك فقد كانوا يرطنون بها، ويؤدونها بكثير من التكلف والتردّد. وكان من هؤلاء سلمان ويسار أو جبر أو بلعام وهو الذي نسب اليه أهل مكة تعليم الرسول ﷺ ما كان يحدّث به الناس ويبلّغهم أياه من رسالته. وقد أشار القرآن الكريم الى هذا في قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربيٌ مبين﴾[1] وكان منهم أيضاً نسطاس مولى صفوان بن أميّة، ويوحنا عبد صهيب حتى وصهيب نفسه؛ فقد كان رومياً وَفَد على مكة من بلاد الشام. وقد ورد في الحديث: «صهيب سابق الروم، وقد كان من أوائل المسلمين. ويذكر أنه حينما همّ بالهجرة الى المدينة ليلحق برسول الله ﷺ قال له كفّار قريش: «أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا. وبلغت الذي بلغت، وتريد أن تخرج بمالك ونفسك!! والله لا يكون ذلك» فقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلت لكم مالي تأخذونه، أتُخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال فإني جعلت لكم مالي»[2] وترك قريشاً وهاجر الى المدينة.

---

(١) النحل ١٠٣.

(٢) الإصابة ١٨٨/٢.

وكان من الجواري عدد كبير من مختلف الجنسيات؛ من اليونان من أصل أوروبي أو رومي أو من الشام أو من أقباط مصر، يضاف الى هؤلاء وأولئك الأحابيش ومنهم العديد من النصارى.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن بعض الرهبان والشمامسة قد وفدوا على مكة أيضاً فكان منهم من يقوم بالتطبيب. وقد عجب أهل مكة ببعض هؤلاء فأطلقوا على أحدهم وهو عثمان بن الشريد بن سويد لفظ «شماس». وكان من أبناء قريش من تنصر أيضاً كما عرفنا سابقاً مثل عثمان بن الحويرث فكانت له منزلة عند قيصر فمنحه براءة بأن يكون ملكاً على مكة. ومنهم أيضاً ورقة بن نوفل الذي كان له علم بالكتاب وتوغل في دراسته. وقد رأى الرسول ﷺ قبل موته. والعلماء من إيمانه على خلاف؛ فمنهم من يرى أنه قد آمن بدليل أنه قال «لئن يدركني يومك لأنصرنّك نصراً مؤزّراً» ومنهم من يقول إن النصرانية قد استحكمت منه وقد مات عليها»[1].

النصرانية في الطائف:

وقد توغلت النصرانية الى الطائف أيضاً فكان فيها بعض الموالي من أتباعها وقد تركهم أسيادهم عليها. ومنهم «عدّاس» الذي قابل رسول الله ﷺ يوم سفره الى الطائف قبل الهجرة وهو أصلاً من «نِيْنَوَى» وقدم له طبقاً فيه عنب. فلما أكل منه وقال باسم الله، قال له عدّاس إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل البلاد هذه، فقال له النبي ﷺ «ومن أي البلاد أنت وما دينك؟» قال: أنا نصراني، ومن أهل نينوى. فقال ﷺ «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» قال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال ﷺ: «ذلك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبي». حينذاك أكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه[2].

---

(١) المفصل ٦٠٧/٦.

(٢) خاتم النبيين، الشيخ محمد أبو زهرة، الجزء الأول، ٥٤٨.

النصرانية في المدينة:

وكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم القرشيين، فقد كان أيضاً منهم في المدينة نفر، يتولّون مختلف المهام التي يعهد بها إليهم أسيادهم؛ فقد ثبت أن هذه الفئة من الناس المستجلبة من خارج الجزيرة، كانت ذات فعالية بعيدة الصدى في حياة أبناء الجزيرة العربية، وذلك لأنها كانت تمثل إحدى أعظم الركائز التي كان يقوم عليها بنيان الاقتصاد فيها، فقد كانت لها الخبرة والمعرفة والقدرة على القيام بأدق التكاليف وفعل أجمل الصناعات، بأيسر الكلفة وأقلها. في الوقت الذي كان فيه العرب يأنفون من القيام بالأعمال الحرفية ولو بلغ منهم الفقر مبلغاً عظيماً، لأنها في نظرهم لا تليق بالرجل الحر. وكان في المدينة سوق تُدْعى سوق النبط. ولعلها موضع كان ينزل فيه تجار النبط الذين كانوا يقصدون المدينة لتجارة الحبوب، فصارت موضعاً لسكنى النصارى ونسبت إليهم[٢]. ويشير الى هذا قول حسان بن ثابت في قصيدته التي رثى بها رسول الله ﷺ:

فرحت نصارى يثرب ويهودها ... لما توارى في الضريح الملحد

وقد ورد أن الخليفة عمر بن الخطاب آستعمل على المدينة أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه. وأن أبا زبيد هذا كان أيضاً مقرّباً الى الخليفة عثمان ابن عفّان. كما روي أن أبا عامر الراهب كان ممن آعتنق النصرانيّة من أهل يثرب، وأنه قد تمكّن من إقناع بعض شبان الأوس من اعتناق النصرانية، وأنه خرج من المدينة مغاضباً للرسول ﷺ وذهب الى مكة فحرّض أهلها وأيّدهم ضد الرسول ﷺ، وكان معه يومذاك جمع كبير يتراوح عدده بين خمسة عشر وخمسين رجلاً من الأوس، وأنه لما يئس أن تستجيب له قريش خرج الى بلاد الشام ليطلب من الروم مدداً يعينه في زحفه على المدينة.

---

(٢) المفصل ٦٠٢/٦.

ولا يستبعد الدكتور جواد علي المؤرخ المعروف احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا إليها، واحتمال وجود مبشرين فيها كانوا يطمحون بإدخال أهلها في النصرانية، يؤيدهم الروم في ذلك ويمدّونهم بالمال. ولكن اعدادهم لم تكن كبيرة بدليل أنه لم تقع بينهم وبين رسول الله ﷺ واتباعه المؤمنين مثلما وقع بينه وبين سكانها من اليهود[1].

النصرانية في اليمن وفي اطراف الجزيرة:

وقد ثبت أن أهل دومة الجندل كانوا خليطاً، وكان فيهم النصارى. وكذلك كانت «أيلة». وكان اسم صاحبها يوجنا بن رؤبة وهو نصراني. وقد دعاه المسعودي أسقف «أيْلة». وكان في وادي القرى نفرٌ من الرهبان. وقد وجدت النصرانية طريقها سهلاً الى قبيلة طيء. وكان عدي بن حاتم الطائي قبل إسلامه نصرانياً. وقد أعلن اسلامه. وجرى له مع الرسول حوار سنورده إن شاء الله فيما بعد.

ودخلت النصرانية اليمن، فكان لها فيه تاريخ يحدونا الى ذكره أن القرآن الكريم أشار إليه في سورة البروج. وتروي كتب التاريخ والسير أصول هذا التاريخ وتقول: «إن الذي نشر النصرانية في اليمن رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى عليه السلام اسمه «فيميون» وكان رجلاً زاهداً مجاب الدعوة. وكان سائحاً يتنقّل من قرية الى أخرى ولا يأكل إلا من عمل يده. وكان يعظّم يوم الأحد فلا يعمل فيه، ففطن له رجل من قرية من قرى الشام اسمه «صالح» فأحبّه، وتبعه على دينه. وبينما هما في سياحة من سياحتها، عدا عليهما نفرٌ من العرب واختطفوهما وباعوهما بنجران، وكان أهلها يعبدون العزّى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم، فابتاع رجل من أشرافهم «فيميون» وآبتاع آخر «صالحاً». وقد

---

(١) المفصل ٦٠١/٦.

آمن صاحب « فيميون » بدينه بعد الذي رآه منه. وانتشرت النصرانية في أهل نجران، وكان من أبرز من آمن بالنصرانية حينذاك رجل اسمه عبد الله بن التامر، فجعل يبشّر بها. وكان لصلاحه، يظهر على يديه كثير من المعجزات التي بهرت الناس وجذبتهم الى النصرانية جذباً، حتى أنه لم يبق في نجران رجل به ضر، إلا أتاه ودعا له، فَعُوفي فاتّبعه على أمره حتى رفع شأنه الى الملك فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي. لأمثّلَنَّ بك!! قال له: لا تقدر على ذلك. فجعل الملك ينكّل به؛ فأرسل به الى أعلى الجبل ثم أمر بإلقائه منه على رأسه فسقط على قدميه سالماً. وقيّده وطرحه في عرض البحر، فعاد ناجياً سالماً. حتى حار في أمره. فقال له عبد الله بن التامر بعد لأي إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به. فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطْتَ علي فَقَتَلْتَنِي. فوحّد الملك الله تعالى وشهد شهادة عبد الله بن التامر ثم ضربه بعصا في يده فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله ثم هلك الملك مكانه. واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر. وكان على ما جاء به عيسى عليه السلام من الإنجيل والحكمة. ثم أصابهم مثل ما أصاب أهل دينهم من الأحداث فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم الى اليهودية وخيّرهم بينها وبين القتل فاختاروا القتل، فخدّلهم الأخدود فحرّق من حرّق بالنار وقتل من قتل بالسيف ومثّل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً. وفي ذي نواس وجنده أنزل الله تعالى قوله[1] ﴿قُتِلَ أصحاب الأُخدود النار ذات الوقود إذْ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾[2].

وقد روى مسلم في صحيحه هذه القصة بإسهاب وفيها يخبرنا الرسول ﷺ أن عبد الله بن التامر قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال وما

---

(١) ابن هشام علي حاشية الروض الآنف ٣٠/١ ـ ٣٤.

(٢) البروج ٤ ـ ٧

هو ؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم تأخذ سهماً من كنانتي ثم تضع السهم في كبد القوس ثم تقول : باسم الله رب هذا الغلام ثم ترميني . فإنك إن فعلت ذلك قتلتني. فجمع الملك الناس في صعيد واحد وصلب عبد الله على جذع وأخذ سهماً من كنانته ووضع السهم في كبد القوس ثم قال باسم الله رب هذا الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغ الغلام ، فوضع الغلام يده في صدغه في موضع السهم ومات. فقال الناس بصوت واحد : آمنّا بربّ هذا الغلام!! آمنّا برب هذا الغلام!! آمنا بربّ هذا الغلام. فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر ؟! قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السّكك فَخُدَّت واضرم النيران . وقال : من لم يرجع عن دينه ، قيل له آقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : « يا أمّه آصبري فإنّك على الحق » وقد خرّجه الترمذي بمعناه[١] .

وقد ثبت أنه قد كان بين نصارى اليمن ونصارى الحبشة صلات، وأن نصارى اليمن كانوا يرسلون بهداياهم الى النجاشي، وأنهم فوق ذلك كانوا يدفعون له الضرائب، وهذا يؤدي الى الظن بأن دخول النصرانية الى جنوب الجزيرة كان من البر والبحر ؛ من ديار الشام الى الحجاز فاليمن ، ومن العراق مع قوافل التجارة. ومن البحر بواسطة السفن اليونانية ومع الأحباش الذين كانوا يفدون على الساحل العربي ، فكانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن . ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت فيه[٢] .

وعندما ظهر الاسلام كانت نجران ما تزال المركز الرئيسي للنصرانية في اليمن ، وكان لها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له . وكان عليها بموجب هذا النظام « العاقب » وهو أمير القوم وصاحب الرأي والمشورة فيهم فلا يصدرون في

---

(١) تفسير القرطبي، الجز ٢٨٨/٩ .

(٢) المفصل ٦١٥/٦ - ٦١٦ .

أمر إلا عن رأيه. ثم « السيد » وهو ثمالُهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم. والثمال هو بمعنى الغياث الذي يقوم بأمر القوم ومنه قول أبي طالب يمدح الرسول ﷺ :

وأبيض يُسْتَسْقى الغمام بِوَجْهِهِ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ثم الأسقف. وهو حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. وهو بتعبير آخر رئيس نجران الديني[1].

وقد صالح خالد بن الوليد أهل نجران في عهد النبي ﷺ في السنة العاشرة للهجرة، ودخل أكثر أهلها حينذاك في الاسلام. وفرضت الجزية على من بقي منهم على دينه[2]. وقد كان العاقب في اليمن في أيام النبي ﷺ « عبد المسيح » وهو رجل من كِنْده. وقد قدم كما سنرى على رأس وفد من أهل نجران الى يثرب فقابل الرسول ﷺ. وكان معه « الأيْهم » وهو سيد نجران يومئذ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم. وكان قد شرف في قومه ودرس كتب النصرانية حتى حسن علمه فيها. وكان ملوك الروم النصارى قد شرّفوه وموّلوه، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما كان يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه .

وقد كانت للنصارى في اليمن كنائس فكان من أهمها الى جانب كنيسة نجران، كنيسة صنعاء التي كانت تسمى « القُلّيْس » وقد اكتسبت شهرة كبيرة في كتب التاريخ لأنها كانت كنيسة أبرهة، الذي شاء أن يجمع عليها العرب بدلاً من الكعبة المشرّفة. وكانت قصته الشهيرة التي رواها الطبري وغيره. يقول الطبري: « ثم إن أبرهة بني القُلّيْس بصنعاء فبنى كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض. ثم كتب الى النجاشي بذلك. فلما تحدّثت العرب بذلك غضب رجل من النَّسأة

---

(١) ابن هشام ٢٠٤/٢.

(٢) ابن هشام ١٥٧/٣ وابن سعد ٣٥٨/١.

فخرج حتى أتى القلّيس فقعد فيها ثم خرج فلحق بأرضه. فأخبر بذلك ابرهة. فقال من صنع هذا فقيل صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكّة. فغضب عند ذلك. وحَلَفَ لَيَسيرَنّ الى البيت فيهدمه. فخرج سائراً بالحبشة ومعه الفيل فتصدّى له بعض العرب لثنيه عن قصده بقوّة السيف ولكنه هزمهم. وتابع مسيرته يدله شخص اسمه أبو رغال حتى أنزل قرب مكة في موضع اسمه المغمّس فمات أبو رغال هذا فدفن ورجمت العرب قبره. ولا يزال قبره هو القبر الذي يرجمه الناس بالمغمّس. ومن هناك أوفد أبرهة الى قريش حَبَشياً على خيل فاستاق أموال قريش وفيها مئتا بعير لعبد المطلب. وهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من الناس بقتاله ثم تركوا ذلك عندما عرفوا أنه لا طاقة لهم به. ثم بعث أبرهة الى قريش واستدعى سيّدها وكان يومئذ عبد المطلب جد النبي ﷺ، فلما دخل عليه أجلّه أبرهة وأكرمه ونزل عن سريره وجلس الى جانبه احتفاءً به ثم قال للترجمان سله عن حاجته! ففعل. فقال عبد المطلب: إن حاجتي هي في أن يردّ الملك علي مئتي بعير أصابها لي. عند ذلك قال أبرهة للترجمان قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك. ثم زهدت فيك حين كلمتني.. أتكلمني في مئتي بعير قد أصبتها لك. وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه؟! قال عبد المطلب: اني أنا ربّ الإبل وإن للبيت ربّاً سيمنعه. قال: ما كان ليمنعه مني!! قال أنت وذاك!! أردُد اليّ إبلي. ثم خرج عبد المطلب الى البيت وأخذ بحلقة الباب ومعه نفر من قريش ودعا الله قائلاً:

لا هُمَّ إن العبد يمنع	رحله فامنعْ حلالك
لا يغلِبَنّ صليبُهم	ومحالهم عدواً مِحالك
فلئن فعلت فربّما	أولى فأمْرٌ ما بدا لك
ولئن فعلت فإنه	أمر تتم به فعالك

ثم انطلق ومن معه الى شعف الجبال فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا

دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيّأ لدخولها وهيّأ فيله وعبّأ جيشه. وكان اسم الفيل محمود، فلما أمر جيشه بالتقدّم حرد الفيل وامتنع عن التقدّم في آتجاه الكعبة وحينذاك أرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيراً أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره واثنان في رجليه مثل الحمص والعدس لا تصيب منهم احداً إلا هلك وليس كلهم أصابت. فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق. وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير. فما مات حتى آنْصَدَع صدره عن قلبه فيما يزعمون(١).

وممن كان على دين النصرانية من مشاهير العرب قِسّ بن ساعدة الإيادي. وكان حكيم العرب، وأمية بن أبي السلط الثقفي. وكان شاعراً عاقلاً. وورقه بن نوفل وهو ابن عم خديجة بنت خويلد وعبد الله بن جحش الأسدي، وأبو قَيْس صِرْمة ابن أبي أنس وكان قد ترهب ولبس المسوح في الجاهلية. وأبو عامر الأوْسي وغيرهم كثير(٢).

ويمكن القول بنظرة عامة، بأن تجار الروم كانوا ينزلون سواحل الجزيرة العربية الجنوبية للتزوّد منها بالماء والطعام والاتجار مع سكانها. وكان منهم من يقيم بها ويقضي حياته كلها فيها ويتعرّب. ومنهم من كان يقيم فيها للتبشير بالنصرانية وللعمل على نشرها بين عامة السكان. ولا يستبعد أن تكون الحكومة البيزنطية في تلك الأزمنة تهتم بالتبشير فترسل الى هذه المواضع مبشّرين ليقوموا بالدعوة الى النصرانية. كما لا يستبعد أن يكون ملوك الحيرة قد قاموا بمثل هذه المهمّة في هذه المناطق.

وقد وجدت النصرانية طريقها الى اليمامة فانتشرت في قراها وبين قبائلها. وقد

---

(١) بتصرف من تاريخ الأمم والملوك للطبري، ١١٣/٢ - ١١٤.

(٢) المسعودي ٨١/١.

كان حاكمها «هوذة بن علي» عند مبعث الرسول ﷺ نصرانياً. كما دخلت النصرانية البحرين وقطر وهجر وبعض جزر الخليج. وكانت غالبية نصارى هذه المنطقة على مذهب نسطور آخذين ذلك من نصارى الحيرة. ومن رجال البحرين النصارى الجارود بن عمرو. وقد قدم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة فاسلم وأسلم معه أصحابه[1].

تأثر المسيحية التي دخلت الجزيرة العربية بالوثنية:

على أن المسيحية هذه التي تغلغلت في بطن الصحراء العربية وأطرافها، بعد أن فرّت من تعسّف الرومان وظلمهم واضطهاد اليهود ومكرهم، لم تكن في الغالب تمثل النصرانية الصحيحة التي جاء بها عيسى عليه السلام، بل كانت قد تسرّبت إليها بفعل الفلسفة الشائعة يومذاك، والتي كان أحد أركانها أمنيوس وأفلوطين، ثم بفعل التنظيم الثالوثي في الوثنية القديمة لدولة الرومان، كثيرٌ من مفاهيم الصوفيّة الهندية وطقوس الوثنية الرومانية والتعاليم البوذية والبرهمية، وشوهت جمالها وعكّرت صفاءها وطمست بريق ضيائها وخلطت فيها الحق بالباطل[2].

سبب ذلك:

وسبب تأثر المسيحية هذه بتعاليم الصوفية الهندية وبالوثنية الرومانية والبوذية والبرهمية، هو أن العالم كله قبل ظهور المسيح عليه السلام كانت تموج فيه الآراء المضطربة القَلِقَة، كما كانت فيه الوثنية قد تزعزعت بتعاليم موسى ووحدانيته والفلسفة اليونانية والرومانية قد شاعت وازدهت ونمت الى حد بعيد حتى كادت تحل محل الدين.

ولما ظهر عيسى عليه السلام استأنف دين التوحيد مصادمة العقائد الوثنية،

---

(١) المفصل ٦٢١/٦ - ٦٢٢.

(٢) أضواء على المسيحية، متولي يوسف شلبي، ص ٣٠ وما بعدها.

والفلسفة. فلما برز أمنيوس الفيلسوف المتوفى سنة ٢٤٢ اعتنق المسيحية الأولى التي جاء بها عيسى غير أنه عاد فارتدّ عنها الى وثنيّة اليونان الأقدمين. وظهر من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م بعد أن رحل الى الهند وفارس واستقى من فلسفتها الكثير، وخرج بنظريته «الأفلوطينية الحديثة» التي وفّق بها بين الوثنية والمسيحية وخلاصتها: «إن للكون موجداً أزلياً لا تدركه الأبصار ولا الأفهام. وان جميع الأرواح شعب لروح واحدة تتّصل بالموجد الأول بواسطة العقل الذي صدر عنه صدور المعلول عن علّته. فهما متلاقيان في القدم. ويصح التعبير عن المنشيء الأول بأنه «الأب» والتعبير عن العقل بأنه «الابن» وإن كان أحدهما ليس متخلّفاً عن الآخر في الزمان. والعالم في تدبيره وتكوينه ونمائه وتطويره خاضع لهذه الثلاثة؛ المنشيء الأول، العقل، والروح. وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء. ومنه يكون الخلق والتدبير».

وبظهور هذه الفلسفة انشقت المسيحية على نفسها، فكان منها الملكانية واليعقوبية، واشتد الخلاف بينهما حتى آل الى عداوة ضارية جداً. فكثر الجدل واستبحر تضارب الأفكار حول العقيدة المسيحية فضعف الإيمان فيها وتزعزع[1].

وكانت فرصة جديدة للوثنية لتقفز مرّة أخرى على المسيحية وفرصة أيضاً لليهودية للتجسّس عليها وعلى المؤمنين الذين انتشروا في مناكب الأرض بحثاً عن الملاذ من أذى الحكام وبطش الظالمين والمضطهدين. حتى قيل إن نيرون الروماني كان يجعل النصارى المؤمنين مشاعل تسير في موكبه، إذْ يَطليهم بالقار ثم يشعل فيهم النار. وان دقلديانوس أوقع بنصارى مصر أشد الاضطهاد وأنزل بهم أوجع العذاب وآلمه، وقتل في مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق حتى اعتبر زمن هذا العذاب ابتداءً للتاريخ القبطي.

ومع ذلك، فقد كانت في غمرة هذه الخلافات تظهر بقايا الوحدانية على لسان

---

(١) راجع خاتم النبيين، القسم الأول، ص ٣٠ ـ ٣٤.

آريوس وأتباعه وأكثر كنائس الشرق وفي فلسطين وكثرة من كنائس مصر . غير أنه لما أعلن ـ قسطنطين الملك اعتناق النصرانية وعقد مجمع « نيقية سنة ٣٢٥ وأعلن ثلاثمئة وثمانية عشر من أصل ألفين وثمانية وأربعين من المجتمعين ألوهية المسيح ، مال بالمسيحية عن معناها وعن مسارها الحقيقيين ، فانعقدت من بعد ذلك مجامع اتخذت من القرارات ما أضاف الى النصرانية ما لم يكن منها ، فأضاف الى منصب الألوهية ، منصب الروح القدس .

ولكن ذلك لم يحسم الأمر كلياً ، فقد ظلت تظهر هنا وهناك أقوال ترفض قرارات مجمع « نيقية » وتقول بأن المسيح ليس آبناً لله بالحقيقة . واذا كان كذلك مجازاً فهو آبنٌ بالنعمة والمحبة لا بالألوهية . ولما انعقد مجمع أفسوس الأول سنة ٤٣١ م أبطل قوله وكفروه وتوالت الخلافات من بعده . وظهر من يقول إن مريم ولدت المسيح الإنسان ثم فاضت عليه النبوّة الإلهية التي هي اللاهوت . فكان في المسيح صفتان : صفة اللاهوت وصفة الناسوت . كما ظهر منهم من يقول : إن طبيعة المسيح واحدة تجسّد فيها العنصر اللاهوتي . ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معاً ، وإنها ولدت الإنسان والإله في الوقت ذاته .

وقد أخذ قسم من الكنائس بالمذهب الأخير بينما أخذ قسم آخر بالمذهب الأول . وظل اضطراب العقيدة النصرانية على أشده كذلك خلال القرن السادس الميلادي ، وكانت النفوس بالاجال في غمرة هذا الصراع المعقد تتجه باحثة عن العقيدة الصحيحة لتعتنقها حال ظهور ما يؤكد لها صحتها . . .

يقول المؤرخ هـ . ج . ويلز « إن الأصول التي تتكون منها العقيدة النصرانية لا تجد لها مسنداً حتى في الإنجيل نفسه » وتقول دائرة المعارف البريطانية « إن سيدنا عيسى عليه السلام لم تصدر عنه أيّ دعوى تفيد أنه من عنصر إلهي أو من عنصر أعلى من العنصر الإنساني المشترك »[1] .

---

(١) فصل الدين عن الدول ، اسماعيل الكيلاني ، ص ١٠٤ .

وفي دائرة المعارف البريطانية أيضاً « إنه أصبح من العسير على الباحث المنصف أن يجد فيما عدا فقرات تدور حول المنازعات كلمات تنسب فعلاً الى يسوع فسّر فيها الكفّارة والفداء، أو حضّ فيها أتباعه عـلى تقديم القرابين أو تناول سرّ مقدس، وهذه الأمور هي الأساسية الآن في النصرانية وهي وظيفة الكهنـوت »[1].

وهكذا يتضح بكثير من الجلاء والصفاء مدى ما كان عليه إنتشار النصرانية في الجزيرة العربية ومدى ما كان لها من تأثير في ابنائها ومعتقداتهم وتأثر بهم وبمعتقداتهم. ولعلنا نستطيع أن نقول - ولو لم يكن بين النصرانية والاسلام في عهود الاسلام الأولى أي صراع عسكري، ولا أية مقاومة بين نصارى يثرب وغيرها والرسول ﷺ كالذي وقع بين اليهود والرسول - إن النصرانية كانت أكثر انتشاراً في الجزيرة من اليهودية فيها. ولكن يبدو أن اليهودية كانت ذات كثافة بشرية بارزة في منطقة يثرب وما حولها من القرى، فساعدت على التمهيد لوقوع ما وقع بين المسلمين واليهود من الصدام والمعارك العسكرية..

ومهما يكن من أمر، فقد كان لوجود اليهودية من جهة والنصرانية من جهة أخرى في قلب الصحراء وفي القرى البارزة منها فضل كبير في التمهيد لظهور الاسلام وإبراز محاسنه، وتسيير انتشار دعوته في الجزيرة، ومن بعد في سورية والعراق وفارس ومصر وأفريقيا الشمالية وذلك لما يحملانه من الأصول التي تلتقي مع الأصول الاسلامية، ولكونهما في الجذور يرجعان الى المصدر نفسه الذي أشرق منه نور الاسلام البهي...

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ٦٩٢/٣، دائرة المعارف البريطانية ٦٣٣/٥، طبعه عام ١٩٥٣.

الفصل الثاني

بداية الاحتكاك بين الاسلام والمسيحيّة

١ ـ تاريخ بعثته
٢ ـ أخلاقه وسيرته قبل البعثة
٣ ـ ابو طالب مع بحيرا الراهب
٤ ـ خديجة وبحيرا الراهب
٥ ـ محمد وورقة بن نوفل
٦ ـ لقاء الرسول لبعض النصارى في مكة
٧ ـ المستشرقون وهذه الدسيسة
٨ ـ حادثة الأخدود
٩ ـ الهجرة إلى الحبشة
١٠ ـ عقيدة اهل الحبشة
١١ ـ إسلام النجاشي
١٢ ـ موقف النبي ﷺ من الروم
١٣ ـ انفتاح الاسلام دوماً على الأفضل
١٤ ـ وفد نصارى نجران
١٥ ـ الاحتكاك بالنصرانية بوجه عام في مكة
١٦ ـ القرآن والنصرانية في مكة

تاريخ بعثته ﷺ: كان مبعث الرسول ﷺ على رأس الأربعين كما هو الثابت من أرجح الروايات أي سنة ٦١٠ م. فقد روي أنّه حُبّبَ إليه الخلاء في التاسعة والثلاثين من عمره، فكان يخلو في غار حراء أياماً بعد أيام يتزوّد لها. وكان في تلك الأيام يرى أنواراً ويسمع أصواتاً. فلما دلف الى الأربعين وقبل ستة أشهر من مبعثه كان وحيه مناماً، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وكانت الأحجار والأشجار تسلم عليه[1].

ونقل ابن سعد في الطبقات فقال: «نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان ورسول الله ﷺ يومئذ ابن أربعين سنة وجبريل هو الذي كان ينزل عليه بالوحي[2]».

أخلاقه وسيرته قبل البعثة: وقد آشتهر الرسول ﷺ بأخلاقه الحميدة وسيرته الفاضلة. فكان لا يقول إلا حقاً. ولا يجادل بالباطل. ولا يقطع على أحد حديثه. ويكرّم كريم كل قوم. ويتفقّد أصحابه. ويحسن الحسن ويقومه ويقبّح القبيح ويوهيه. اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس. واذا سئل حاجة ردّ بها أو بميْسور القول. كان دائم البشر، لين الجانب ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مزّاح. اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على

---

(١) حدائق الأنوار، القسم الأول لابن الديْبع، ص.١٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الأول، ص ١٩٤.

رؤوسهم الطير. فإذا سكت تكلموا. يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته.
وقد وصفته زوجته السيدة خديجة يوم جاءه الوحي، وشعر بما شعر به من الخوف: «أبشر!! كلاّ والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتصدُق الحديث وتحمل الكلّ وتَكْسِبَ المعدوم وتَقْري الضيف وتُعين على نوائب الحق»(١).

وإن هذه السيرة الفاضلة والأخلاق الرفيعة هي التي فتحت له الأبواب مع الناس أفراداً وجماعات فكان محبّباً فيهم وقريباً منهم. وكانت له معهم الصلات الواسعة. واللقاءات المختلفة. وقد عرف عنه أنه من صغره أحب الحركة والانتقال. وأنه رحل الى الشام مرة مع عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة وقيل ابن تسع سنين فبلغ بصرى(٢). واشتغل بالتجارة. وشارك في ذلك السائب ابن أبي السائب الذي وصفه الرسول عندما قدم عليه يوم فتح مكة فقال: «مرحباً بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري». وفي رواية: «نعم الشريك السائب لا يشاري ولا يماري» ومعنى لا يشاري لا يلج في الشر(٣). واشتغل ﷺ برعي الغنم. وشهد حرب الفجار. وكان يناول عمه الزبير بن عبد المطلب النّبْل. وكان عمره يومئذٍ عشرين سنة. وقيل أربع عشرة أو خمس عشرة(٤). وقد رحل أيضاً الى الشام بتجارة لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها، وذلك مع غلامها ميْسرة. وكان له من العمر خمس وعشرون سنة. وقد رأى ميْسرة من شأنه ومعاملته ما بَهَرَهُ، فأخبر سيدته خديجة بما شاهد فرغبت خديجة رضي الله عنها إليه أن يتزوجها، لما رجت في ذلك من الخير، ولإعجابها بأخلاقه وخصاله(٥)..

أبو طالب مع بحيرا الراهب: ولما خرج أبو طالب بالرسول ﷺ الى الشام

(١) المختار من كنوز السنة، الدكتور عبد الله دراز، ص ٢٨ ـ ٣٠.
(٢) الامتاع للمقريزي، الجزء الأول، ص ٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٩.

في تجارته المعهودة بلغ به بُصْرى، فرأى أبو طالب ومن معه من آيات نبوّته ما زاده في الوصاة به والحرص عليه، وذلك مثل تظليل الغمام له وميْل الشجرة بظلّها عليه. وقد لقي معه الراهب بحيرا واسمه سَرْجِس بن عبد القيس لأول مرة. وقد لفت الراهب بحيرا نظر أبي طالب الى فضل النبي ﷺ، وبشّره بأنه سيكون له شأن عظيم. وأمره بأن يرجع به، ويحذر عليه اليهود خشية أن يعلموا به فيرموه بسوء[1].

خديجة وبحيرا الراهب: ولقد نقل السهيلي ان خديجة رضي الله عنها كانت توصف بالطاهرة في الجاهلية والإسلام، وانها كانت تسمّى سيدة نساء قريش، وان النبي ﷺ بعد أن تزوج بها وأخبرها عن جبريل ولم تكن قد سمعت باسمه من قبل قط، ركبت الى بحيرا الراهب فيما ذكر المسعودي فسألته عن جبريل فقال لها: « قدّوس » « قدوس » يا سيدة نساء قريش أنّى لك بهذا الاسم؟! فقالت بعلي وابن عمي محمد أخبرني أنّه يأتيه!! فقال: « قدوس » « قدوس »!! ما علم به إلاّ نبيّ مقرّب. فإنه السفير بين الله وأنبيائه. وإن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا أن يتسمّى باسمه »[2]. وقد روى في موضع آخر من كتابه، ان هذا الراهب ليس بحيرا، وإنّما هو نسطور، وهو الذي لَقِيَهُ ميسرة. وورد أنه كان بمكة غلام لعتبة ابن أبي ربيعة اسمه « عدّاس » كان عنده علم من الكتاب، وأن خديجة أرسلت إليه تسأله عن جبريل، فقال: قدّوس! قدّوس!! أنّى لهذه البلاد أنْ يذكر فيها جبريل يا سيدة نساء قريش. فأخبرته بما يقول زوجها محمد ﷺ فقال « عداس » المقالة المنسوبة الى الراهب. فكان مما زادها الله تعالى به إيماناً ويقيناً.

محمد وورقة بن نوفل: ولما جاء الرسول ﷺ الحق، ونزل عليه الوحي لأوّل مرّة رجع الى منزله يرجف فؤاده ويضطرب قلبه، فدخل على خديجة وهو يقول:

---

(١) الروض الآنف ١/١١٨.

(٢) الروض الآنف ١/١٢٣.

« زمّلوني، زمّلوني كما لو كان مقروراً ومحموماً. والحق أنه ما به شيء من ذلك سوى الخوف والهلع من هول المفاجأة، فزمّلته حتى ذهب عن الرّوْع فأخبر زوجته الخبر، وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولعل ذلك من الموت لضعف قوته على آحتمال تلك القوّة الملكية التي واجهها عند ملاقاته جبريل عليه السلام؛ فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قُصَيّ ابن عم خديجة، وكان آمرأً قد تنصّر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك!! فقال له « ورقة » يا آبن أخي!! ماذا ترى؟ فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى. فقال له « ورقة » هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها « أي في الدنيا » جَذَعاً، يا ليتني أكون حيّاً إذْ يخرجك قومك. فقال الرسول ﷺ: « أَوَ مُخْرِجِيَّ هم »؟! قال: « نعم سيعاديك قومك لأنه « لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوْدي. وإنْ يدْركْني يومك « يوم إعلان النبوّة » أنصرْك نصراً مؤزّراً »[1].

ولقد كان لقاء الرسول ﷺ هذا مع ورقة النصراني، هو اللقاء الأول الذي أثبتته كتب السيرة والتاريخ الذي كان للرسول ﷺ مع نصراني بعد الأيام الأولى من البعثة، ولعلّه اللقاء الأول الفريد مع شخص من أهل الكتاب نصرانياً كان أو يهودياً وكان لقاءً معبراً؛ لقد أسمع « ورقة » ما رأى وما سمع، واسمعه « ورقة » ما عنده من العلم وهو النصراني الذي قرأ الانجيل والتوراة، وقرأ من الكتب النصرانية اذ ذاك ما قرأ، وأعلن له عن استعداده المطلق لنصرته ومؤازرته، الأمر الذي فهم منه كثير من العلماء إيمانه به قبل أيّ من الناس.

ولا غرو فهو أول من اكتشف السر الذي نزل على محمد فقال له: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. يقول الزُّبَيْدي صاحب « التيسير » الناموس هو صاحب

---

(١) المختار من كنوز السُّنّة. ٣١ - ٣٧.

سرّ الملك. وسُمّي به جبريل لأنه مخصوص بالوحي والغيب اللذين لا يطّلع عليهما أحد من الملائكة غيره، أ هـ وكذلك قال غيره من أهل اللغة وغريب الحديث؛ حكاه عنهم النووي في شرحه لصحيح مسلم. و« ورقة » هو أوّل من تنبّأ بتصدّي قريش وتكذيبها إيّاه، وأول من أعلن عن استعداده لتأييده ونصرته. ولذلك نقل المقريزي إسلامه[1]. وقال بعضهم لقد مات مؤمناً بمحمد نبيّنا كما آمن بموسى وعيسى. فهو اذا لم يدرك يوم بعثته ليؤمن به رسولاً فقد ثبت قطعاً أنه تمنّى أن يُدرك ذلك اليوم لينصره. فهو مؤمن برسالته حكماً بل قد آمن به مقدّماً[2].

ومن هذه الواقعة يمكن القول بأن أول بيت كشف بعثة النبي ﷺ وأعلن الإيمان به هو بيت « ورقة » وأنه كان للنصرانية الواعية الخطوة الأولى في دعم رسول الاسلام وتثبيت خطاه.

لقاء الرسول لبعض النصارى في مكة: وقد ثبت كما نقلنا من قبل أنه كان في مكة العديد من العبيد والأرقّاء، وأنّ عامتهم كانوا على النصرانية. وأنهم كانوا ذوي كفاءة وبراعة في العلم والمعرفة والصناعة، وانهم كانوا أرباب خبرة عريضة في الحياة ومداخلها ومخارجها، وأنّ ساداتهم كانوا يعتمدون عليهم الى حد بعيد في تصريف شئونهم المعاشية، كما ثبت أنه قد كان منهم من تعلّم العربية ونطق بها، كما كان فيهم من ظلّ جاهلاً بها...

وقد روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يجلس في مكة عند المَرْوَة إلى مَبْيعَة غلام نصراني يقال له: « جبر » وهو عبد لبني الحضرمي. فكان كفّار قريش يقولون: « والله ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني » وقد نسوا أن جبر هذا أعجمي رومي وعربيّته ثقيلة ومزيج بالرومية، وأن مثل هذا لا تكون له فصاحة القرآن وبلاغته. كما نسوا أشياء كثيرة ليس موضعها هنا

---

(١) امتاع الاسماع ١٧/١.

(٢) المختار من كنوز السُّنَّة. ٣٧.

الآن. وقد ردّ الله تعالى على هذه الدسيسة السخيفة الجهلاء لما قد يكون لها من تأثير في بعض ضعاف العقول والغافلين فقال: ﴿ولقد نَعْلَمُ أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشرٌ لسان الذي يُلْحِدُون إليه أَعْجميٌّ وهذا لسان عربيٌّ مبين﴾ (١).

ورسول الله ﷺ كما قلنا هو من أهل مكة وأشرافها، وهو مقرّب فيها وليس معزولاً. ومن الطبيعي أن يكون له مع بني بلده ومساكنيه لقاءات، وأن يكون له معهم في ذلك تعاط وحوار في كل الأمور الحياتية التي أباح الله تعاطيها وممارستها. وطبيعي بالتالي أن يجتمع بأحرارها وعبيدها وأن يسمع لهم ويسمعوا له. وليس حتماً بصورة من الصور أن يكون لقاؤه مع واحد من أولئك مدخلاً الى الأخذ عنه والتعلم منه. بل حتى ولو تحقق الأخذ والتعلم، وهو أمر مفروض في تعامل الناس، وتخالطهم، فليس المفروض أن يكون ذلك هو ما جاء به ﷺ من العقيدة الإسلامية وشريعتها وفكرها الديني الذي انبثق عنها..

بيد أنه كان المرتقب والمفترض، وقد أصبح ﷺ حامل رسالة ومبلغ دعوة أن يقوم في تلك اللقاءات مع جبر النصراني وأمثاله، بواجب التبليغ والاقناع. وفي هذا يقول القرطبي: «فإن النبيّ ﷺ ربما جلس إلى هؤلاء في أوقات مختلفة ليعلّمهم مما علّمه الله وكان ذلك بمكة».

ولقد كثر الكلام عن هذا الشخص. واختلف الرواة في اسمه؛ فقال بعضهم أن اسمه بلعام. وقال القتبي اسمه أبو مَيْسرة يتكلم الرومية. وقال بعضهم إنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة. وقيل اسمه عابس غلام حُوَيْطب بن عبد العزّى ويسار أَبُو فُكَيْهَة مولى ابن الحضرمي وكانا قد أسلما (٢).

المستشرقون وهذه الدسيسة: ولقد استغل هذه الأخبار المنثورة في كتب

---

(١) النحل ١٠٤.

(٢) القرطبي ١٧٨/١٠.

السيـر بعض المستشرقين المغرضين، فنشبوا فيها، ونشطوا في الترويج لها، ونفش مضمونها، والدس من خلال ذلك، حتى خرجوا بها عما تحمله، كل ذلك لإثبـات أن محمداً مفترٍ، وأنه أخذ كتابه ودينه عن أمثال هؤلاء.

وقد قال جولد تسيهر في أكثر من موضع من كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله: «وقد ساهم في تكوين عناصر هذه المذاهب ـ يعني الإسلامية ـ الديـن اليهـودي والديـن المسيحـي على السواء» ويقول: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية. وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبيّة كانت في رأيه كذلك ضروريّة لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية»[1].

وقد علّق على هذا الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله في أكثر من مناسبة تعليقات مستفيضة داحضة خصوصاً وأن هذا الكاتب، شأنه شأن أمثاله، يكتفي بإيراد الشبهة ويعجز عن إسنادها الى وثيقة أو إلى دليل يشفع لها أو يثبتها، متهرباً بأن المجال لا يتّسع للتوسع فيـه. وكـان مما قـالـه رحمه الله: «يـذكـر ـ يعني جولدتسيهر ـ أن الاسلام اقتبس من الديانتين الموسوية والعيسوية في القواعد الوضعية الواقعية. وليـت شعري ماذا يريد بهذا الكلام المبهم؟ فهل يريد أن في الاسلام صلاة كما فيهما صلاة؟! ولكن أفلا يعلم أن الصلاة في الاسلام غيرها فيهما!! وكذلك الصوم والزكاة».

ونقول إضافة الى ذلك، أين نظام الحج وهيآته في الإسلام من نظام الحج في الديانتين إن كان فيهما حج مفروض!! ثم أين نظام البيوع والقصاص والديات والمواريث والوصايا والطلاق؟ وهل هي وغيرهـا كثير مما لا مجال لـذكـره هنـا، موجودة في هاتين الديانتين؟ وهل يُتَصَوَّر أن بـامكان محمد العربي القرشي الأمي

---

(١) العقيدة والشريعة جولدتسيهر ٥ ـ ١٧.

ابتداع مثل هذه الأنظمة التعبدية، ويضع مثل تلك المبادىء والأصول الاجتماعية والسياسية والعسكرية كما جاءت في الاسلام لو لم تكن وَحْياً من الله رب العالمين؟!

ثم من قال إن محمداً ﷺ ادّعى يوماً أنه صاحب الاسلام ومبدعه؟ ألا يكفي هذا المستشرق الكبير وأمثاله ما يكرره الله تعالى في القرآن الكريم مخاطباً هذا الرسول العظيم: ﴿إنْ أنْتَ إلاّ نذير﴾ [1] ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ [2] ﴿قُلْ ما كنت بدْعاً من الرُّسُل وما أَدْري ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُم، إنْ أتّبعُ إلاَّ ما يُوحى إليّ وما أنا إلاّ نذير مبين﴾ [3] ليدركوا هذه الحقيقة على وجهها الصحيح؟!

ولكن مع ذلك، فقد أقرّ بهذه الحقيقة وآمن بها مفكرون أجلاء من الديانتين في القديم والحديث أمثال «ورقة بن نوفل» وعبد الله بن سلام وغيرهما ملايين... وفي الحديث أمثال ليوبولد ڤايس، وروجيه جارودي والدكتور موريس بوكاي الذي يقول في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث» «إن هذا القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد من سيّد الملائكة جبريل»[4] ويقول: «والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرّة الأولى هو غزارة الموضوعات المطروحة، مثل الخلق والفلك وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وجنس الحيوان والنبات وتكاثر الإنسان؛ تلك الأمور التي نجد فيها في التوراة دون نص القرآن أخطاء علمية كبيرة تحملني على التساؤل إذا كان كاتب القرآن بشراً، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة مثل ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية»[5].

---

(١) فاطر ٢٣.

(٢) الشورى ٤٨.

(٣) الأحقاف ٩.

(٤) التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث بوكاي، ترجمتنا، ص ١١، طبعة دار الكندي.

(٥) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث بوكاي، ترجمتنا، ص ١١٤، طبعة دار الكندي.

ويقول: «إن هذه الملاحظة الأخيرة تجعل افتراض من يرون محمداً كاتباً للقرآن مرفوضاً، إذْ كيف يتيسّر لرجل حُرِم العلم والقراءة والكتابة في نعومة أظفاره ونشأته أن يصبح ـ على الأقل من وجهة نظر القيمة الأدبية ـ الكاتب الأول في الأدب العربي كلّه، ويخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وُسْعَ أيِّ كائنٍ إنساني في هذا العصر، دون أن يكون منه أيّ خطأ. إن الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراسة ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط الى الحكم بأن من المستحيل تصوّر رجل عاش في القرن السابع الميلادي، واستطاع أن يورد في القرآن أفكاراً في موضوعات متنوعة جداً ـ ليست أفكار عصره ـ تلتقي مع ما كشفه الناس منها بعد قرون متأخّرة عنه. أمّا بالنسبة إليَّ فليس للقرآن أي تفسير بشري»[1].

إن كل الذي نقل عن زعم تأثر الرسول ﷺ بالنصرانية أو اليهودية لا يعدو أن يكون ثمرة إثبات لقائه مع واحد أو آثنين أو أكثر من متنصرّة الجزيرة أو متهوّديها. وكل هذا لا يصلح كمستند لإثبات أن محمداً ﷺ قد أخذ دينه عن النصرانية أو عن اليهودية وهو المخالف لهما في كثير من الأصول والفروع وفي الشكل والموضوع.

ولقد كان الرسول ﷺ أمِيَّاً وكان يعيش مع قومه فيرونه صباح مساء ويسمعون له، والذين آمنوا به من قومه المكيين والمدنيين وعرب الجزيرة ومن اليهود والنصارى من أبناء الجزيرة الذين عايشوا أولئك الذين نسب إليهم تعلّم الرسول ﷺ منهم وأخذه عنهم، لو رجح عندهم شيء من هذا، أو عرفوه، لما آمنوا به وآتبعوه، ولما قاتلوا واستشهدوا في سبيل ذلك.. لأن الأصح والأفضل كان بإيمانهم بأولئك المعلّمين... ولكن شيئاً من هذا لم يكن، مما يقطع بأن هذه التهمة باطلة وساقطة.. ولكن مع ذلك، نريد أن نتساءل ونقول، ما الغرابة في أن

---

(١) المصدر السابق نفسه. ١١٨.

يلتقي محمد رسول الله ﷺ بمثل هؤلاء، وهو مأمور بذلك من ربه. مأمور بأن يبلّغهم الرسالة ويدعوهم الى الله ويذكرهم بالحق وباليوم الآخر، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنْزِلَ إليك من ربّك، وإن لم تَفْعَلْ فما بلّغْتَ رسالته. والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (١) وقد روى الحسن عن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالته فَضِقْتُ بها ذرعاً، عرفتُ أن الناس يكذّبوني واليهود والنصارى وقريش يخوّفوني، فلما أنزل الله هذه الآية زال الخوف بالكليّة» (٢).

ومع هذا! كله، فقد كان الرسول ﷺ يكرّر دوماً في أحاديثه، كما ينقل مراراً في الكتاب عن ربه أنه ومن سبقه من أسلافه الأنبياء والرسل، سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم ممن حمّلهم الله كتاباً أو صحيفة مبلّغون لرسالات ربّهم التي حمّلهم إياها إلى الناس. وأنه ليس بدْعاً فيهم، وأنه وإياهم لا يملك من أمره شيئاً ولا يطيق تحريف كلمة من ذلك. يقول الله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم، وما هو بِقَوْل شاعرٍ قليلاً ما يُؤْمِنون، ولا بِقَوْل كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون تنزيلٌ من ربّ العالمين. ولو تقوّلَ علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ (٣).

وأيّاً ما كان الأمر فقد أكّد محمد ﷺ أنه رسول رب العالمين الى الناس جميعاً. وهو مع اخوانه الرسل السابقين عليه قد اشتركوا في الأصول التي نقلوها عن ربّهم وَحْياً. فإذا كان بين تعاليمهم وتعاليمه شبه وتوافق في بعض ذلك فمردّه الى أنها كلها صادرة في أصولها ومبادئها الأولى من معين واحد..

---

(١) المائدة ٦٧.
(٢) تفسير الفخر الرازي، المجلد الثاني عشر ٥١.
(٣) الحاقة ٤٠ ـ ٤٧.

حادثة الأخدود:

وقد تطرق الوحي المنزل على قلب محمد ﷺ عندما كان بمكة إلى ذكر بعض أخبار النصارى وكتبهم وعقائدهم، كما أمر الرسول ﷺ أصحابه عندما اشتد عليهم عذاب قريش، بالهجرة إلى الحبشة أحد معاقل النصرانية الكبرى في ذلك العصر.

ولقد كان من أبرز أخبار النصارى التي نقلها الوحي إلى المسلمين ليزدادوا إيماناً وثباتاً حادثه الأخدود التي تقدم الحديث عنها. وفيها أنزل الله تعالى سورة البروج ومنها قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُود، النارِ ذات الوَقُود. إذْ هم عليها قُعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السمٰواتِ والأرض والله على كل شيء شهيد. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنّم ولهم عذابُ الحريق﴾ (١).

قال القرطبي: « قال علماؤنا »: أعلم الله عزّ وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وحّد قبلهم، من الشدائد، يؤنسهم بذلك. وذكر لهم الرسول ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقونه من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ليتأسّوْا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلّبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته... وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا في دينهم... » الى أن يقول « ولقد آمتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلْب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك. ويكفيك قصة عاصم وخُبَيْب وأصحابها وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق » (٢).

---

(١) البروج ٤ - ١٠.

(٢) تفسير القرطبي ٢٩٣/١٩.

ومن آثار ذلك ما رواه ابن عباس قال: «أخذ المشركون عماراً وأباه ياسراً وأمّه سميّة وصُهَيْباً وبلالاً وخبّاباً وسالماً فعذّبوهم. ورُبطت سُمَيّة بين بعيرين ووجىء قُبُلها بِحَرْبَةٍ. وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت وقتل زوجها ياسر. فكانا أول شهيدين في الاسلام.. وأما بلال وخباب وصهيب فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كلّ مبلغ من حرّ الحديد والشمس. ولما كلّوا كتّفوا بلالاً وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبيْ مكه حتى ملّوه وتركوه».

وكذلك كان يلقى المسلمون الجُدُد من أهليهم وذويهم وبني قومهم صنوف القهر وألوان الذل والهوان. ولقد صبروا على ما أوذوا، وما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا.

وكانت مثل هذه الأخبار التي نقلها القرآن الكريم للمؤمنين عن أصحاب الأخدود وغيرهم أو ما نقله الرسول ﷺ لهم كقوله لمن سأله أن يوصيه: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قطّعت أوْ حرّقت بالنار..» من أهم العوامل في تعزيز نفسيّة المؤمنين وتثبيت مواقفهم، وتصليب إرادتهم في مواجهة عدوان الآخرين عليهم.

وقد كان المسلمون الأوائل وهم في مكة، أحوج ما يكونون إلى مثل هذه الأخبار، لشدّ أزرهم. وبخاصة وأنه لم يكن مأذونا لهم بمقابلة القتال بقتال مثله، ولا السيئة بمثلها. وقصة أصحاب الأخدود ونظيراتها تفيدنا كيف أن الاسلام في مشرق فجره آعتمد إلى حدٍّ بعيد في استنهاض همم أتباعه وأنصاره على أخبار المسيحية الأولى وأخبار رجالاتها الصالحين والمناضلين. وآتخذ من بطولاتهم ومواقفهم وبطولات ومواقف من سبقوهم من أمثالهم عنواناً للاقتداء والتأسّي.

وإن دلّ هذا النهج على معنى، فإنما هو ما كان الاسلام ولا يزال يلحظه في العمق من المعاني المشتركة بينه وبين دعوة المسيح عليه السلام ودينه، ومن الأصول والأسس المتقاربة التي يمكن أنْ تتخذ ركيزة للتقريب بين أتباعهما، ولوصل قلوبهم برباط التعاون البناء ليكونوا دوماً جمعا موحداً في وجه أعدائهم المتربصين لهم

ولتوجيه نفوسهم وعقولهم إلى التحصّن بكثير من الرحابة والسعة والتحمل ليفهم كل منهم الآخر، وليأخذ عنه ما حسن بحميّة وشجاعة وينبذ ما قبح وساء بلطف وعزة.

الهجرة إلى الحبشة:

كذلك كان الرسول ﷺ في سلوكه ومنهجه مع النصارى وجميع أهل الكتاب. يدل على ذلك أنه لما لقي أصحابه من العنت والشدة من قريش ما لقوه واشتد عليهم ذلك حتى لم يعد بإمكانهم الصبر على ذلك، وكان لا بد من البحث عن مَلاَذٍ يلجأون إليه ويجدون عنده الأمان والطمأنينة والحماية والرعاية، اتجه فكر الرسول القائد ﷺ إلى الحبشة. وقال لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»[1].

وقد خرجوا بالفعل، ووجدوا عند النجاشي ما ترقّبه لهم الرسول منه. وكان أول من خرج من مكة فاراً بدينه إلى الحبشة عثمان بن عفان ومعه زوجته رُقيّة بنت رسول الله ﷺ وتبعه الناس، فخرج أحد عشر رجلاً وأربع نسوة. وكان ذلك في رجب سنة خمس من البعثة. وهي السنة الثانية في أظهار الدعوة. ثم لحق بهم فوج آخر وفي مقدمته جعفر بن أبي طالب، بلغ عدده مع الأوّلين آثنين وثلاثين. ثم توالوا حتى بلغ عددهم ثلاثة وثمانين.

عقيدة أهل الحبشة:

ولقد كانت الحبشة إذ ذاك داراً لنصارى يؤلهون المسيح كما هو شأن نصارى هذا العصر، ولا يقولون عنه إنه عبد الله ورسوله. وكان يملكهم ملك يطلق عليه لقب النجاشيّ. وكان نصرانيّاً على عقيدة قومه. وقد شاب عقيدته ما شاب

---

(١) خاتم النبيين ٤٨٩/١.

عقيدتهم الكثير مما يبعدها عن الأصول النقية. ولكنه مع ذلك أحسن وفادتهم، وأجمل جوارهم ورفض تسليمهم إلى قومهم الذين أرسلوا وراءهم لاسترجاعهم، وذلك بعد أن استمع إلى كلام الرسل في المهاجرين، وكلام المهاجرين في قومهم وعقيدتهم، ودعوة الاسلام وما تهدي إليه، وتبيّن له الحق وبكى من فرط تأثره به وقال: « إن ما يقوله هؤلاء والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة والله لا أسلمهم ». وقال للمسلمين المهاجرين « اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي » « أي آمنون ».

ولقد كان لهذا التعاون بين الرسول ﷺ والنجاشي ملك الحبشة أثره الطيب. إذْ تجاوب النجاشيّ مع أمنية الرسول، وبخاصة بعد أنْ سمع من جعفر بن أبي طالب حديثه الطويل في التعريف بالاسلام وسوء ما كان عليه قومه القرشيون من الاعتقاد والمعاملة وقوله له: « لقد خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك »[1].

اسلام النجاشيّ:

لقد كان الرسول ﷺ يعلم عقيدة النجاشيّ، وعقيدة قومه. وقد آختاره مع ذلك على من سواه من ملوك الأرض يومذاك ليكون مفيداً لأصحابه، لأنه كان يترقب منه حسن جواره وهو يعرف عدله وأمن الناس في ظله. ولعله كان يترقب منه أكثر من ذلك بدليل أنه كتب إليه ﷺ سنة سبعٍ من الهجرة كتاباً يدعوه فيه إلى الاسلام، فلما قرىء كتابه على النجاشيّ أسلم، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يقول فيه: « إن شئت أن آتيك فَعَلْتُ يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقوله حق ».

لقد آختار الرسول ﷺ أرض النجاشيّ لتكون ملاذاً للمسلمين المعذّبين المهاجرين إليه، وهو يعلم ما كان عليه هو وقومه من الاعتقاد والدين، هذا

---

(١) ابن هشام ٢١٣/١.

الاعتقاد الذي خالطه الكثير من الفلسفات والوثنيات، ويعلم أيضاً أنهم مع ذلك خير من المشركين الذين صادموه وجحدوا بالملائكة والنبيين واليوم الآخر. والنصارى وهم على ما هم عليه يؤمنون باليوم الآخر وبالنبيين الأوّلين، ويحملون كتاباً. وإن كان لا يصدق كل ما فيه فكذلك فإنه لا يكذب كل ما فيه.

إنه ﷺ لم تأخذه حُمَيّا التعصب، فتنسيه الحق أو بعضه كما فعل غيره قبله وبعده... لقد آحتكم للمنطق والخير، وآندفع يعمل بمقتضى ما يمليان عليه، فلم ينحرف إلى شبه ما آنحرف إليه اليهود، ولم تجرفه أهواؤه وتضلّه عن إبصار الحق وسواء السبيل كما فعلت بهم حين جاءهم القرشيون يسألونهم خبر أيّ الدينين أفضل، الإسلام أو ما هم عليه من الوثنية والشرك؟ فأجابوهم بأن وثنيّتهم وشركهم أفضل من الإسلام وتوحيده!!

موقف النبي ﷺ من الروم:

ويظل الرسول ﷺ منسجماً مع عقيدته وفكره في كل مواقفه مهما تقلّب به الزمن أو تبدّلت به الأحوال والمناسبات لا يحيد ولا يريم ولا يَتَتَعْتَعْ. ولما شهدت المنطقة العربية غزو أبرويز من آل ساسان مُلْك قيصر وآجتاح بلاده كلّها حتى لم يبقَ تحت يده إلاّ القسطنطينية وكاد أن يستولي عليها، فرح المشركون بنصره هذا على الروم. إذْ اعتبروه نصراً لهم، نصراً للشرك على المسيحية وفاخروا المسلمين. وقد روي أنه عندما بلغت هذه القصة اسماع القرشيين والمسلمين، وكان ما كان نزلت سورة الروم تبشر المسلمين بنصر قريب يحرزه الروم على الفرس، كأنما جاءت لتواسي نفوس المسلمين المكلومة بتحدي المشركين وشموخهم فقال تعالى: ﴿آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ. ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[1].

---

(١) الروم ١ ـ ٥.

ولما بلغت هذه الآيات أبا بكر رضي الله عنه خرج يتحدث بها في قومه ويجزم بانتصار الروم القريب فقال له ناس من قريش: « زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين. أفلا نراهنك على ذلك؟ قال أبو بكر: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، واتفقوا أن البضع ست سنوات. وجعلوا الرهان ثلاث قلائص. وجاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ يخبره عن الذي جرى بينه وبين بعض القرشيين فقال له الرسول ﷺ: « هلاّ آحْتطت، فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر، ولكن آرجع إليهم فزِدهم في الرهان واستزدهم في الأجل». ففعل أبو بكر وجعلوا القلائص سبعاً ومدّوا الأجل إلى تسع سنين. ولم تمض هذه المدة حتى كانت الروم قد غلبت فارس، وربطت خيولها في المدائن. وكسب أبو بكر الرهان. ولكنه لما قبضه أمره الرسول بالتصدق به [1].

انفتاح الاسلام دوماً على الأفضل:

ولقد كانت غلبة فارس على الروم سنة ٦١٤ م أي في أوائل مبعث الرسول ﷺ وهو في مكة، واتباعه يومئذ قليل. وغالبية الناس دوماً وكما هو مشاهد اليوم مع القوي، ومع الغالب وذي السطوة والسلطان. يندفعون في تأييده والترويج له. وقد كان يفترض في مثل هذه الصورة أن يتأثر المسلمون بهذا الواقع، ويتهيبوا الموقف وهم على ما هم عليه من القلّة والاستضعاف، فيصمتوا على الأقل ويتركوا الأمور تجري في أعنّتها إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً... ولكنهم اختاروا العكس، وما عرف عنهم في فجر نهضتهم تهوّر، ولا تورّط ولا اندفاع مع الهوى.. وما ذلك إلا لأن الخيرة لم تكن بيدهم، بل كانت بيد العليم الخبير الذي كان يوجههم وجهة الخير. وهذا هو مفْصِلُ الحق ومفتاح الرشاد والهداية والتوفيق والعصمة من الزلل وسوء المنقلب.

---

(١) القرطبي ٣٠٢/١٤.

ومن أجل هذا كان موقف الرسول ﷺ ما كان من النجاشيّ ثم من الروم موقف المعصوم، موقفاً معبراً عن الالتزام بالخط السويّ الذي لا ينحرف يميناً ولا يساراً، ولا ينجرف مع الهوى، ولا يحيد عن الحق والهدى قيد شعرة.

وفد نصارى نجران:

وليس هذا وصفاً خاصاً برسول الله ﷺ، بل هو وصف عام يشترك به كل ملتزم بالحق مستهد بنور الله أيّاً كان. فالهدى لا يختص بإنسان للونه أو لشكله أو لحجمه أو لمكانته أو لأسرته وبيئته التي نشأ فيها؛ إنه كالهواء والضياء.. إنه عطاء الله للإنسان، كل إنسان ليفيد منه رشفاً أو غرفاً، وليعكس بِرّه وفضله من بعد على نفسه وعلى من حوله من الناس. وهكذا، كان موقف اليهود والنصارى الصادقين المخلصين مع الله ومع أنفسهم والمنفتحين على معنى الهدى هذا، والحريصين عليه حرصهم على الحكمة التي يعتبرونها ضالّتهم ينشدونها ويلتقطونها أنّى عثروا عليها، لا يضرّهم وصف حاملها وسمته وخصائصه... فإنهم ما أن سمعوا بمبعث النبي ﷺ حتى بادروا، وهم أهل العلم بالكتاب والمعرفة بأخباره، إلى لقائه والاستماع إليه ودرس أوصافه وأحواله وأقواله وأعماله، فلما تيقنوا من الحق الذي يحمله وانطباق كل ما معه على ما عندهم من العلم، آمنوا به ونصروه وعزّروه. فكان شأنهم شأن السحرة الذين استدعاهم فرعون ليضاهوا بما عندهم من السحر ما عند موسى، وليقابلوه بالتحدّي وليبطلوا ما عنده، فلما ألقى عصاه واندفعت حيّة تسعى بين أيديهم، وتلقف ما يأفكون ويفترون على الناس، وانكشف لهم الحق، وتجلّى نوره وهداه، كان منهم ما قصّه الله تعالى عنهم في كتابه الكريم: ﴿ فأُلقي السحرة سُجّدا، قالوا آمنّا بربّ هارون وموسى قال آمنتم له قبل أنْ آذن لكم، إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر فلأقطّعَنّ أيْديَكم وأَرْجُلَكم من خِلاف وَلَأُصَلِّبَنَّكُم في جذوع النخل وَلَتَعْلَمُنَّ أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقى. قالوا لن نُؤْثِرَك على ما جاءنا من البيّنات، والذي فطرنا فاْقضِ ما أنت قاض؛ إنّما تقضي

هذه الحياة الدنيا. إنا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبـقى إنـه من يأت ربه مُجْرماً فإنّ له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيي ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى﴾[1].

روت كتب السير والحديث أنه قدم على رسول الله ﷺ، وهو في مكة كما نقل ابن اسحاق، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك، من نصارى نجران بعد أن بلغهم خبر ظهوره في الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة الرسول ﷺ عما أرادوا دعاهم الرسول إلى الإيمان به، وتلا عليهم بعض آيات القرآن الكريم، فلما سمعوها اقْشَعَرّت جلودهم، ولانت قلوبهم إلى ذكر الله، وفاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، ثم استجابوا لله وآمنوا به ﷺ وصدّقوه.

ولما قاموا من عنده مؤمنين، اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا قولاً مفترى؛ قالوا لهم: «خيّبكم الله من ركب!! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه فيما قـال؟ مـا نعلم ركبـاً أحمق منكـم!! فقـالـوا لهم: سلام عليكـم لانجاهلكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألوا لأنفسنا خيراً»[2]. وقد أشار الله تعالى إلى خبر هؤلاء في القرآن مبيناً من خلال وصف عام لبعض أهل الكتاب فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون. وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنّا به، إنه الحق من ربّنا، إنا كنّا من قبله مسلمين. أولئك يُؤْتَوْنَ أجرهم مرّتين بما صبروا، وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نبتغي الجاهلين﴾[3].

قال الإمام الفخر الرازي تفسيراً لقوله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين

---

(١) طه، ٦٦ ـ ٧٥.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل قول المسيح، ١/٨٧.

(٣) القصص، ٥٢ ـ ٥٥.

بما صبروا﴾ إنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل بعثته وإيمانهم به بعد بعثته. وهذا هو الأقرب، لأنه تعالى لما بيّن أنهم آمنوا به بعد البعثة، وبين أيضاً أنهم كانوا به مؤمنين قبل البعثة، ثم أثبت أجرهم مرتين، وجب أن ينصرف إلى ذلك. أو يكون المعنى، يؤتون الأجر مرّتين، مرّة بإيمانهم بالأنبياء الذين كانوا قبل محمد ﷺ ومرة أخرى بإيمانهم بمحمد ﷺ »[1].

ولا ريب أنهم بثباتهم على عقيدتهم، واستمرار استجلائهم لمفهومها ومداها، وبقائهم مستمسكين يكونون في اطار ذلك قدصبروا، كما أنهم بتحملهم مجاهلة القرشيين وامتناعهم عن مجاراتهم في سُوقها قد صبروا أيضاً، وصرفوا بذلك كله سيئة القوم وضلالهم بحسنتهم وباهتدائهم.

الاحتكاك بالنصرانية بوجه عام في مكة:

وما تقدم عرضه من علاقات جرت بين الرسول ﷺ وبعض رجال النصرانية في مكة قبل البعثة وبعدها، يمثل وقائع روتها كتب السيرة مجرّدة من التعليق. وهي وقائع محدودة لا يجوز اعتبارها الفريدة... وإن كان يمكن أن تكون فريدة من نوعها من حيث الأهمية، ومن حيث ما رافقها من معانٍ ومفاهيم، ومن حيث ما كانت تدلّ عليه من مقاصد وغايات. ولكن مع ذلك يمكن أن يكون قد وقع للرسول ﷺ مع النصارى المقيمين في مكة حينذاك، وكانوا كثراً، تبعاً لكثرة أعداد الرقيق الذين كانوا يقتنون فيها للخدمة، لقاءات مع من يختلفون معه في الرأي والعقيدة، هي في الغالب سطحية عابرة لا توصل إلى تأثير أو تأثر أو أخذ أو عطاء..

وعلى كل حال، فإن النصارى الوافدين على مكة والمقيمين فيها للتجارة أو للعمل، قد سمعوا حتماً ببعثة الرسول ﷺ واستقبلوا دعوته بهدوء. ولم تنقل لنا كتب التاريخ والسير أنه وقع من أحد منهم أي تحرّك غاضب أو ثائر أو معارض بعنف وحدّة، بل الذي نقلته هذه المراجع هو إيمان البعض منهم بالرسول

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ٢٤/٢٦٢.

وبالدعوة الجديدة فجبر، ويسار اللذان كانا عبدين لآل الحضرمي، ويعيش، الذي كان مولى لحويطب بن عبد العزّى. وبلعام الرومي وكذلك صهيب الذي كان في خدمة عبد الله بن جدعان، هؤلاء جميعاً أسلموا وتابعوا النبي ﷺ.

القرآن والنصرانية في مكة:

ولقد تناول القرآن بصورة عامة كما هو ثابت من بعض السور المكية أو الآيات المكية الواردة فيه، بعض عقائد وخصال أهل الكتاب دونما تفريق بين اليهود والنصارى، كالاعتراف بأن ما جاء به محمد ﷺ من الاعتقاد موجود في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى كقوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ (١) ومثله قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أم لم يُنبأ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفّى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى وأنّ سَعْيَه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى، وأن إلى ربك المنتهى، وأنه هو أضحك وأبكى، وأنّه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفةٍ إذا تُمْنى وأنّ عليه النشأة الأخرى وأنه هو أَغْنى وأَقْنَى وأنه هو ربّ الشعرى﴾ (٢). وفي هذه الآيات الأخيرة تفصيل رائع لهذا المعنى وإتيان مركّز على نقاط محدّدة مشتركة في الاعتقاد والعمل بين ما جاء به محمد ﷺ وما في صحف أهل الكتاب السابقين التي أشار إليها.

كما تناول الإشارة، بل الحكم الصريح بأن ما في الكتاب الذي حمله النبي ﷺ هو مصدق للكتب التي سبقته كقوله تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مُصدّقاً لما بين يَدَيْهِ إن الله بعباده لخبير بصير﴾ (٣) وقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الذي بين يديه وَلِتُنْذِر أُمَّ القُرى ومن حولها﴾ (٤) وغير

---

(١) سورة الأعلى، ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة النجم، ٣٦ ـ ٤٩.

(٣) فاطر، ٣١.

(٤) أنعام، ٩٢.

هذا ومثله كثير متنوع ومتفرّق في سور القرآن الكريم، يلفت النظر يقينـا إلى آهتمام الرسول ﷺ بأهل الكتاب بأمر الله ووحيه. كما يلفت النظر إلى أن أهل الكتاب هؤلاء كانوا في مكة في وفرة عددية إذْ كان يخصّهم مرّة بعد أخرى كما رأينا بتلميح إلى بعض ما عندهم مما يتفق مع ما جاء به الرسول، أو بتصريح يُعَدّد بعض معتقداتهم.

وقد تناول النصارى بالذات أيضاً؛ تناول بعض معتقداتهم، وبعض خصالهم. تناول صفة إيمانهم الخالص وآندفاعهم في سبيل الله حتى الشهادة. وتناول مولد عيسى عليه السلام وصفة خَلْقه التي جاءت على غير ما هي عليه صفة خلق عاديّي الناس، وذلك بسرد مفصّل ومطوّل مدهش ومعجز، حتى أنه لما سمعه النجـاشيّ ملك الحبشة لم يكن منه إلاّ أن دمعت عيناه، واحتضن المسلمين المهـاجـريـن إليـه وحماهم من أعدائهم المشركين، يقول الله تعالى في سورة مريم: ﴿وآذكر في الكتـاب مَرْيم إذِ آنْتَبَذَتْ من أهلها مكاناً شرقيّاً، فآتَّخذت من دونهم حجاباً فأَرْسَلْنا إليها رُوحنا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً. قالت إنّي أعوذُ بالرحمٰن منك إنْ كنتَ تقياً. قال إنّما أنا رسولُ ربّكِ لأَهَبَ لَكِ غلاماً زكيّاً. قالت أنّىٰ يكونُ لي غلامٌ ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولَمْ أكُ بَغِيّاً قال كذلك قال ربُّكِ هو عليَّ هيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيةً للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضيّاً. فَحَمَلَتْهُ فَآنْتَبَذَتْ به مكاناً قِصيّاً، فأجاءها المخاضُ إلى جِذْع النخلة قالتْ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً منسيّاً. فناداها من تحتها ألاّ تَحْزَني قد جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً. وهُزّي إليكِ بجذع النَّخْلَةِ تساقطْ عليكِ رُطَباً جَنياً فَكُلي وآشربي وقَرّي عيناً، فإمّا تَرينّ من البشرِ أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمٰن صوماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليومَ إنسيّاً. فأتتْ به قومَها تحمِلُهُ، قالوا يا مريمُ لقد جئت شيئاً فَريا. يا أخت هارون ما كان أبوكِ آمرء سوْءٍ وما كانتْ أمُّكِ بغِيّاً. فأشارتْ إليه قالوا كيف نكلِّمُ من كان في المهدِ صبيّاً. قال إني عبدُ الله آتانيَ الكتاب، وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوْصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً وبرّاً بوالدتي ولم يَجْعَلْني جباراً شقيّا والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم

أموتُ ويوم أُبعثُ حيّا. ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْترون ما كان لله أنْ يتخذ مِنْ ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله رَبّي وربُّكُم فاعبدُوه هذا صراطٌ مستقيم. فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ [١].

وفي هذه الآيات يجزم الله تبارك وتعالى بأن عيسى هو ابن مريم عليهما السلام، وأنها قد حملت به ثمرة هبة لها من الله تعالى ليكون آية للناس على أنه رسول الله حقاً. وليكون رحمة لهم مزجاة إليهم منه تعالى. وأنه قد تكلم في المهد مؤكداً ذلك. وأنه سبحانه وتعالى لا ولد له. وأنه صاحب الأمر كله، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. وكأنما يريد بهذه الآيات الباهرات أن يوطىء لموقف لم يأت زمنه بعد، في الوقت الذي يلفت فيه النظر وبخاصة نظر أهل الكتاب والنصارى منهم بالذات، إلى خطأ ما هم عليه من الاعتقاد.

ويبدو أن المشركين القرشيين كانوا يناقشون جدّياً عقيدة النصارى التي كانت شائعة فيهم ويقارنونها بعقيدتهم ويحاولون المفاضلة بينهما. وقد انتهوا إلى الحكم بأنه إذا كان النصارى يعبدون عيسى فإن آلهتهم خير منه، وذلك لأنهم يعبدون الملائكة. وهم في نظرهم أفضل من عيسى. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التفكير الجاهلي القرشي فقال:﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومُك منه يصِدُّون، وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو. ما ضربوه لك إلاّ جَدلاً. بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ [٢].

وقد ثبت أن عبد الله بن الزِّبَعْرى بعد أن سمع قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنَّم أنتم لها واردون﴾ [٣] جاء إلى رسول الله ﷺ يحاوره ويجادله فقال له: هذا القول خاصة لنا ولآلهتنا أم هو لجميع الأمم؟! فقال

(١) مريم ١٦ - ٣٦.
(٢) الزخرف ٥٧ - ٥٩.
(٣) الأنبياء ٩٨.

ﷺ بل هو لجميع الأمم »[1] ثم قال أليست النصارى يعبدون المسيح، وأنت تقول كان نبيّاً وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً، فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه. ففرحت قريش لهذه المناقشة الناجحة حسب ظنّهم وضحكوا وارتفعت أصواتهم استحساناً واستعْظاماً لـذلـك[2]. وقـد ردّ الله تعـالى هـذه اللمحة الفكرية الخبيثة الخاطئة ردّاً حاسماً وجميلاً وحكيماً فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم منّا الحُسْنى أولئك عنها مُبْعدون لا يسمعون حَسِيْسَها وهم فيما اشتهت أنْفُسُهم خالدون، لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر وتتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[3].

والحقيقة أن ابن الزبعري قد طرح مُساءلته هذه يوم كان كافراً. ولو أنّه يومـذاك كان مستبصراً لما طرحها لأنه عند ذلك يستبين ولو بقليل من التأمل أنه تعالى قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ ولم يقل ﴿ومن تعبدون﴾ والعرب يستعملون دوماً « ما » لغير العاقل و« من » للعاقل. وهنا يعني سبحانه وتعالى، أصنام المشركين المصنوعة من الحجارة أو ما شابهها فهي غير عاقلة. وينطبق هذا التعبير عليها وحدها ولا يمكن بصورة من الصور أن يشمل عيسى عليه السلام أو عُزَيْراً أوْ غيرهما ممن آفترى عليهما قومهما وأعطوهما ما لم يسألاه، ولا يمكن أن يسألاه...

والجدل أو الحديث حول نبوّة عيسى عليه السلام يفرض أن يفضي إلى الحديث في قصة ولادته وفي شخصه أيضاً. وقد سبق ورأينا كيف أن القرآن الكريم حدّثنا عن ذلك ببعض التفصيل في سورة مريم ليؤكد للعرب وللنصارى بالذات والناس أجمعين أن مريم عليها السلام بريئة مما بهتت به، وأن ولادة عيسى جاءت معجزة له ليتيقّن الناس الذين أرسل إليهم من رسالته وصدقها. وبخاصة وأنه قد سبقها

(١) زاد المسير في علم التفسير ٣٩٢/٥.

(٢) روح المعاني للألوسي ٩٤/١٧ بتصرف.

(٣) الانبياء ١٠١ - ١٠٢.

معجزات شبيهة بها مثل ولادة يحي لزكريا عليهما السلام الذي وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وكانت امرأته عاقراً. وقد ورد في الكتاب الكريم مما نزل أيضاً في مكة وقبل الهجرة قوله تعالى مفيداً هذا المعنى بعد أن أتى على ذكر عدد من الأنبياء وما حباهم به من نِعَمِهِ وأفضاله: ﴿وزكريا إذْ نادى ربه رب لا تذرني فرْداً وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له وَوَهَبْنا له يحي وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَباً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين، والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [1].

وبهذه المناسبة يمكننا أن نلفت النظر إلى أن الغالب في القرآن الكريم أنه يجمع بين قصة ولادة يحي لزكريا، وولادة عيسى لمريم عليهم السلام. وهو أمر يقتضي التأمل بما يشير إليه من معنى، ويقول الفخر الرازي في التعليق على تقديم قصة يحي على قصة عيسى عليهما السلام في سورة مريم [«إن الله تعالى بيَّن في هذه السورة أنّ زكريا دعا ربه ولم يبيّن الوقت، وبيّنه في سورة آل عمران بقوله: ﴿كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً. قال يا مريم أنّى لك هذا، قالت هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب، هنالك دعا زكريا ربّه، قال ربّ هبْ لي من لدنْك ذرّيةً طيّبةً إنك سميع الدعاء﴾ [2] والمعنى أن زكريّا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا ربه »] إلى أن يقول « وتقديم قصة يحي على قصة عيسى عليهما السلام لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الأب ألبتة، وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب، مترقياً، إلى الأصلب فالأصعب » [3].

---

(١) الأنبياء ٨٩ ـ ٩٢.

(٢) آل عمران ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٩٦/٢١.

وعلى كل حال فإن ولادة يحيىٰ لزكريا كانت معجزة، ولا يهم أن تكون أقرب إلى مناهج العادات أوْ لا. كما لا يهم أن تكون في معنى الدلالة على الاعجاز أدنى منها في قصة ولادة عيسى عليه السلام. فولادة عيسى عليه السلام من مريم، لو قورنت بخلق آدم أو بخلق حواء لكانت توضع في مثل ما وضع الامام الفخر الرازي قصة ولادة يحيىٰ بالنسبة الى قصة ولادة عيسى. ومع ذلك فقد جعل الله تعالى مَثَلَهَا عنده كمثل خلق آدم حيث قال: ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خَلَقَه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون، الحق من ربِّك فلا تكُنْ من المُمْتَرين﴾.

ومهما يكن من أمر فقد كان للنصارى وللنصرانية وجود في مكة المكرّمة، قبل مبعث الرسول ﷺ وبعده. غير أن وجودهما كان وجوداً طارئاً ودخيلاً وليس وجوداً عريقاً وأصيلاً. وكان للنبي ﷺ بهما لقاء. وكان له معهما آحتكاك قبل البعثة. ولكنه لم يؤت على ذكره بشكل مرموق لأنه كما يبدو لم يكن ذا بال، ولا على مستوى من الأهمية اللافتة للنظر. وقد كان للرسول ﷺ والمسلمين صلة ولقاءات بعد البعثة بالنصارى الوافدين على مكة والمقيمين فيها. وكان من آثار هذه الصلة واللقاءات دخول بعضهم في جماعة المسلمين وآعتناقهم لمبادىء الاسلام، وجهادهم في سبيله ممن أتينا على ذكر أسماء بعضهم من قبل. كما كان من آثار ذلك الآيات المتنوّعة والعديدة التي أفاضها الوحي الشريف على قلب الرسول ﷺ في عيسى وأمه عليهما السلام وفي ولادتها وفي ولادته الخارقة بالذات وما رافق الولادتين من مظاهر الرعاية والتكريم والاعجاز. وكانت مكة بالاجمال مسرحاً شهد حوار المشركين مع النصارى في عقائدهم وحوار المسلمين مع النصارى في عقائدهم أيضاً. وكان الحوار بين هؤلاء وأولئك. وبين المسلمين والنصارى على الخصوص في مظلّة من المنطق الهادف والهادىء، والفكر الواعي والحاني والقاصد للخير، والقلب المنفتح المتطلع للحق وللحقيقة والباحث عن الضياء في عتمة الليل الجاهلي البهيم...

ولم تشهد هذه الفترة، على الرغم من أنه قد نزل فيها آيات بيّنات كثيرات في عيسى وأمه عليهما السلام وفي الإنجيل وأهل الكتاب عامة، لم تشهد من النصارى أي تعصّب أو آنفعال ولا أيّ تزمّت أو آنفجار أو أي موقف حانق متهوّر خطير. وما أجمل أن يركن الإنسان فيما يسمع أو يقول وفيما يرى أو يفعل، إلى ركائزه العقلية فيعتمدها بعيداً عن الهوى وأحاسيسه وانفعالاته التي كثيراً ما تشكل خطراً على طاقة الإنسان الفكرية فتضعف قدرتها على الفهم والتحليل، وعلى جهازه العصبي والإرادي وتعجزه عن امتلاك ذاته عندما يتطلب منه الأمر ذلك، بل وبالتالي إيصال ما يريد إلى الغير...

وكلما كان الإنسان يعتمد عقله وفهمه الهادئين الصافيين المجرّدين من الأهواء، كان يصل الى كثير من المعرفة الصحيحة، ويستطيع أن يحقق الكثير من المكاسب على صعيد الفكر والعلم والدين. وفي هذه المجالات كانت تظهر النبوّات في الزمن القديم، وكان يبرز المؤمنون البارعون والأبطال المنصفون والملهمون، وكانت تقع النجاحات الرائعة في حقول الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية والدينية والاقتصادية وسواها...

ولسنا في هذا العصر أقل حاجة من ذي قبل الى الاعتماد على العقل السليم والفكر المخلص المجرّد لخدمة الإنسان فرداً ومجتمعاً، ولتصحيح أوضاعه، وتوفير الراحة والطمأنينة والسكون وانقاذه من دوّامات التعصب للفكر والدين والفن والذات، هذه الدوّامات التي تنبع من أهواء النفس وتنعكس بالغالب على المجتمع الكبير أذى وفساداً وضرراً كبيراً... فالعقل الحكيم، والتفكير المخلص الموزون هما بعد هدى الله الواحة الظليلة التي يمكن للإنسان أن يجد فيها ما ينشده في هذه الحياة من أمن وسعادة واكتفاء...

الفصل الثالث

النصارى في المدينة وموقف الرسول منهم

١ - النصارى في المدينة

٢ - اسلام بعض نصارى المدينة

٣ - عموم رسالة النبي ﷺ

٤ - موقف هرقل

٥ - موقف المقوقس

٦ - كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة

٧ - توجيه القرآن الكريم الدعوة إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى

٨ - تدرّج الرسول بالدعوة من الأهل حتى الخلق طراً

٩ - خصوص رسالة الانبياء السابقين ضرورة

١٠ - الرسالات السابقة هي رسالة الاسلام في اصولها

١١ - ختام رسالة محمد يؤكد عمومها

١٢ - رفض الروم للدعوة

النصارى في المدينة:

تحدث المؤرخون بإسهاب عن أهل يثرب، بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، أو عن المدينة كما آل إليه اسمها؛ تحدثوا عن الأوس والخزرج ومبدأ هجرتهم إليها بعد انهيار سدّ مأرب بسيل العرم، وما كان بينهم من نزاعات. وتحدثوا عن تاريخ حياتهم وأساليب معاشهم ومصادر رزقهم، وأبرز شخصياتهم. وتحدثوا عن اليهود وتاريخ دخولهم المدينة، والجهة التي انحدروا منها والنواحي التي نزلوا فيها، والأسباب التي حملتهم على هذه الهجرة، وما كان ينشب بينهم وبين سكان المدينة من الأوس والخزرج من عداوات وحروب ومحالفات وعن عدد قبائلهم، وما كانت تمتاز به كل قبيلة.. تحدثوا عن هذا وسواه مما له ارتباط بتاريخ المدينة، ولكنهم أقلوا الحديث عن النصرانية فيها...

وقد روت كتب السير أن الرسول ﷺ أجرى بين المسلمين عقد تآلف وتعاون اجتماعي، وأنه قام أيضاً بينهم من جهة وبين اليهود من جهة أخرى عهد أمان وتعاون وتناصر وتناصح، وأنهم جميعاً كانوا حين نشوب شجار بينهم، يرجعون بموجب هذا العقد إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ويلتزمون بالتناصر في وجه كل من يَدْهم يثرب...

ولم تشر هذه الكتب إلى وجود نصراني كبير يخشى بأسه، ويتطلب اتخاذ إجراء معه كالذي حصل مع اليهود، كما أنها لم تشر إلى قيام أي تصادم أو نزاع بين المسلمين والنصارى أو بين الرسول ومجموعات منهم. وهذا ولا ريب يفيد بأن

النصرانية لم تكن في المدينة ذات وجود قوي وأن جاليتها فيها لم تكن وافرة العدد [١].

بيد أنه لا يجوز أن يفهم من هذا أنه لم يكن للنصرانية وجود في المدينة كلياً. فقد نقلنا من قبل أنه ثبت بأنه كان في مكة موالٍ ورقيق يقومون بخدمة ساداتهم، كانوا في غالبيتهم من النصارى. ولا يستبعد مطلقاً أن يكون قد وجد أيضاً في المدينة أمثال أولئك يقومون فيها بمختلف المهام والأعمال التي يعهد إليهم أسيادهم القيام بها: فقد تأكّد في تاريخ الجزيرة الاجتماعي أنه كان لطبقة من العبيد والرقيق مكانة هامة، وأنهم كانوا يشكلون عموداً أساسيّاً من أعمدة الاقتصاد العربي في تلك العهود بل وبعدها، إذْ لم يكن للعرب خبرة في الصناعة والزراعة، فكان هؤلاء العبيد هم الذين يقومون مقام أولئك بأجور زهيدة، بدقّة ومهارة لم تكن توفر لدى الأحرار العرب. علماً بأن أحرار العرب حينذاك كانوا يأنفون من ممارسة الأعمال الحرفية ونحوها، مهما كانوا عليه من الفاقة والحاجة وشحِّ المورد، لأنها في نظرهم أعمال ساقطة يعيّر بها العربي الحر.

بل لقد نقل بعض المؤرخين بأن هؤلاء النصارى كانوا موجودين في المدينة يوم هجرةالرسول ﷺ إليها وظهور الاسلام فيها. وأنهم كانوا يسكنون في موضع خاص بهم يقال له سوق النبط، وهو الموضع الذي كان يزل فيه النبطيّون الوافدون من الشام إلى المدينة للتجارة.

ويرجّح بعض المؤرخين احتمال وجود مبشرين من النصارى في المدينة في عهد الرسول ﷺ مؤيدين من الروم بالمال والمعونة الأدبية. ويؤكد هذا بأنه قد روي بأن رجلاً من الأنصار يقال له «أبو الحصين» كان له ولدان التقيا نفراً من تجار الشام النصارى القادمين إلى المدينة ببضاعتهم للتجارة فاستمعا إليهم وتأثرا بهم وأخذا عنهم النصرانية ثم هاجرا معهم إلى الشام. كما روى بأن «أبا عامر

---

(١) المفصل ٦٠١/٦.

الراهب » كان ممن اعتنق النصرانية وهو من أهل يثرب. وأنه قد تمكن من أقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه، وأنه خرج من يثرب مغاضباً الرسول ﷺ ومتّجهاً إلى مكة مصحوباً بعدد من الرجال الأوسيين المتنصرين يتراوح عددهم بين خمسة عشر رجلاً إلى خمسين. وأنه ذهب إلى مكة مؤيداً ومحرّضاً، ولكنه فشل في ذلك. ولما أيس من قدرة أهل مكة على القضاء على دعوة الرسول فرّ إلى بلادالشام ليطلب من الروم مدداً يعينه ليحقق مطلبه فيزحف عل المدينة وينهى وجود الاسلام فيها [1].

ويذهب هؤلاء المؤرخون إلى الاعتقاد بأن تطبيق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسياسة إجلاء اليهود والنصارى من الجزيرة فيه مبالغة. وذلك أنه لم يطبق هذا المبدأ إلاّ فيما خصّ أولئك الذين وقفوا موقفاً معـاديـاً للاسلام، أو مـوقفـاً محرضاً ومؤلّباً عليه لإثارة الفتن على المسلمين ولتشجيعهم عـلى الردّة وتشجيع الخارجين على الدولة أيّاً كانت نزعاتهم بما في ذلك المتنبّئين. وذلك ليحفظ بيضة الإسلام ويصون المسلمين من خطرهم. ولذلك فإن هؤلاء المؤرخين لا يستبعدون أن يكون الروم والأحباش في جملة من حرّض أهل الكتاب الموحديـن في الجزيـرة وفي المدينة بالذات للدسّ على الإسلام والمسلمين، وأن بعض من أعلن الرّدة مثل « النعمان الغرور » وهو نصراني وغيره، ممن تبعه وارتدّ معه من النصارى، كـانـوا يتلقّون عوناً من الخارج. وأن هذا هو الذي برّر للخليفة الثاني عمر بن الخطاب تطبيع قاعدة إجلاء الدساسين من أهل الكتاب يهوداً كانوا أم نصارى، وذلك بقصد حماية الدين ودفع خطر الفتنة عن المسلمين [2].

اسلام بعض نصارى المدينة:

على أن بعض المؤرخين قد روى أنه كان بعض سراة نصارى الحيرة قد اشترك

---

(١) المفصل ٦٠٢/٦ ـ ٦٠٣.

(٢) المفصل ٥٨٨/٦ ـ ٦٢١.

مع بعض سراة قريش في الأعمال التجارية مثل كعب بن عدي التنوخي. وكان أبوه أسقفاً على مدينة الحيرة. وقد كانت له شراكة مع عمر بن الخطاب في الجاهلية في تجارة البزّ، وأنه قد قدم المدينة بعد أن هاجر إليها الرسول ﷺ فرأى الرسول وأسلم وثبت على الإسلام، واشترك في مقاتلة المرتدين في جيش اليمامة الذي بعث به الخليفة أبو بكر رضي الله عنه. وأن أبا بكر وجهه في عهده برسالة إلى المقوقس ثم وجهه عمر برسالة أخرى إليه. وأنه قد شهد فتح مصر [1].

عموم رسالة النبي صلّى الله عليه وسلم:

ولئن لم يكن من المطلوب منا أن نستعرض كل الوقائع التي تفيد لقاء الرسول ﷺ بالنصارى، غير أننا نقول أيضاً إنه ٱلتقى بِعَدِيّ بن حاتم الطائي. وكان من رؤساء النصارى، جاء الرسول ﷺ وهو في المدينة وأعلن اسلامه لما تبين له أن الاسلام هو الحق وأن محمداً رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين. روى الترمذي والحاكم قصة إسلامه عنه. قال عدِيّ: « أتيت النبي ﷺ في المسجد، فقال الناس هذا عديّ بن حاتم. قال وجئت بغير أمان ولا كتاب. وكان قال قبل ذلك إني لأرجو الله أن يجعل يده في يدي، فقام فأخذ بيدي، فلقيته آمرأة وصبي معها، فقالا إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتى أتى إلى داره، فألقت إليه الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه، فقال « هل تعلم من إله سوى الله »؟ قلت لا. ثم قال: « هل تعلم شيئاً أكبر من الله »؟ قلت لا. قال « فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضالّون » وفي رواية أحمد والبغوي « قال لما بعث النبي ﷺ كرهته كراهية شديدة، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشد من كراهته. فقلت لو أتيتُهُ، فإن كان كاذباً لم يخف علي، وإن كان صادقاً اتبعته. فأقبلت. فلما قدمت المدينة

(١) المفصل ٥٩٦/٦.

استشرفني الناس فقالوا: « عدي بن حاتم »!! فأتيْته فقال لي « يا عـدي أسلم تسلم » قلت إن لي ديناً « قال أنا أعلم بدينك منك. ألست ترأس قومـك » ؟ قلـت بلى!! قال « ألست تأكل المرباع »؟ قلت بلى!! قال « إن ذلك لا يحل لك في دينك » ثم قال « أسلم تسلم. قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها من حولي، وإنك ترى الناس علينا إلبا واحداً »!! قال « هل أتيت الحيرة» قلت لم آتها وقد علمت مكانها. قال: « يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وَلَتُفْتَحَنَّ عليها كنوز كسرى بن هرمز » فقلت كسرى بن هرمز؟! قال « نعم وَلَيَفِيضنَّ المال حتى يهمّ الرجل من يقبل صدقته » قال عدي « فرأيت آثنتين الظعينة وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى. وأحلف بالله لتجيئنَّ الثالثة » وقـد روى الشعبي عنه أنه بعد إسلامه كان لا يدخل وقت صلاة إلا وهو مشتاق إليها وأنه عمّر طويلاً في الإسلام (١).

وقد ثبت أنه ﷺ بعد عام الحديبية، ومهادنته قريشاً؛ أرسل رسله إلى جميع الطوائف. فأرسل إلى هرقل ملك الروم، وإلى المقوقس ملك مصر وهما من ملوك النصارى حينذاك وإلى غيرهما أيضاً يدعوهم إلى الإسلام ويحمّلهم مسئولية التردد في ذلك والتخلّف عن الانتماء إليه وأن عليهما إثم الأريسيّين..

واتجاه الرسول بدعوته هذه إلى ملوك الأرض في ذلـك العصر، وفيهم النصارى والمجوس والوثنيون، أمر ثابت قد أوردته كتب السير والتاريخ وتواترت فيه الروايات، وبلغت حداً لا يحتمل معه الكذب.

وهذا الاتجاه هو جديد في منهج الرسـل عليهم السلام في دعوتهم إلى الله، إذْ لم يثبت عن أحد منهم أنه توجه في دعوته إلى غير بني قومـه.. كما أنـه معبر بجلاء عن الارتفاع بنزعة الرحمة ومشاعر الحب للانسانية إلى قمتها وذروة سنامها وبخاصة في قوله ﷺ « مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٦١/٢.

الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها». وقال في آخر الحديث: «فذلك مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم عن النار هلمّ عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقحمون فيها»[1]. وقوله: «الراحمون يرحمهم الرحمان ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

ولقد كان خبر القرآن الكريم عن الأنبياء السابقين في حديث الإرسال، مبرزاً على أنه إلى قومهم بالخصوص. يقول الله تعالى مثلاً في نوح عليه السلام: ﴿إنا أرسلنانوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم[3]﴾ ويقول في إبراهيم: ﴿وإذْ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدون﴾[4]. ويقول في موسى: ﴿وأدخل يَدَكَ في جَيْبِك تخرج بيضاء من غير سوء في تِسْعِ آيات إلى فرعون وقومه﴾[5] ويقول: ﴿إذْ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذنني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم﴾[6] ويقول في عيسى: ﴿وإذْ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[7].

وهذه الآيات ومثيلاتها مما حفل القرآن الكريم بها في سوره، جازمة بخصوصية رسالة الرسل، جميعاً إلى أقوامهم، خلافاً لرسالة محمد ﷺ التي جاءت بقوله وفعله معبّرة عن عمومها وشمولها العالمين جميعاً.

أما فعله، فقد كان واضحاً أنه لم ينتقل إلى جوار ربّه حتى كان قد أرسل

---

(١) متفق عليه برواية أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داوود.

(٣) نوح.

(٤) الزخرف ٢٦.

(٥) النمل ١٢.

(٦) الصف ٥.

(٧) الصف ٦.

الرسل إلى ملوك الروم والفرس والعرب والأقباط والأحباش وإلى أمراء المناطق يعلمهم برسالته ويدعوهم إلى الإيمان بها ويجعلهم في حال الرفض مسئولين عن أنفسهم وعمن يلونهم من الناس..

وأما بقوله، فقد نقل إلينا قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [(١)] وقوله: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [(٢)] والخطاب في الآية الأولى موجه إلى الناس جميعاً دونما استثناء، العرب منهم والعجم. وأما في الثاني فالإخبار واضح بأنه تعالى أرسل محمدا للعالمين... ويفهم من كلا النصين أنّ رسالة محمداً ﷺ لم تكن إلى البشر جميعاً عربهم وعجمهم وأسودهم وأبيضهم فحسب، بل كانت أيضاً إلى الجن. ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى في القرآن الكريم الذي يثبت أن نفراً من الجن جاؤوا إلى رسول الله، ﷺ واستمعوا إليه، وآمنوا به ثم رجعوا الى قومهم وأنذروهم ودعوهم للايمان به ﷺ يقول الله تعالى: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفرٌ من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآن عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ [(٣)]. ويقول: ﴿وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنْصِتوا فلما قُضِي ولَّوْا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يَدَيْه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذُنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْس بِمُعْجِزٍ في الأرض، وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾[(٤)].

---

(١) الأعراف ١٥٨.

(٢) الفرقان ١.

(٣) الجن ١-٢.

(٤) الأحقاف ٢٦ - ٣٢.

وقد وردت في هذا المعنى والاطار أحاديث كثيرة صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة من دون الرسل طرّاً، نخص بالذكر منها حديث جابر الثابت في الصحيحين وسواهما. وقد قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ. وأُحِلّت لي الغنائم ولم تُحَلَّ لأحد قبلي. وأُعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وعلى هذا إجماع علماء الأمة يقول الفخر الرازي: «لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والناس» والقرآن يفيض بالآيات التي يتوجه فيها الخطاب إلى الجن والإنس معاً. منها لا على سبيل الحصر قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»[2].

ومن أجل هذا فقد ثبت أنه ﷺ كان وهو في مكة يتوجه بدعوته إلى أهلها وإلى الذين هم حولها. وأنه قد سافر إلى الطائف داعياً إلى الله ومبشراً ونذيراً. وكذلك ثبت أنه كان وهو في المدينة يدعو أهلها ويدعو كل من يدخلها من خارجها. وأنه كان يخرج إلى القرى حولها فيتصدى لهم داعياً ومعلماً ومبلغاً رسالة ربه. كما ثبت أنه بعد أن هادن قريشاً رمى ببصره إلى خارج تخوم الجزيرة وتطلع إلى الشعوب هناك وأرسل الكتب إلى ملوكها وأمرائها وإلى النصارى بالذات في الشام ومصر والحبشة يدعوهم إلى الله...

موقف هرقل:

وقد روى سنيد شيخ البخاري أن هرقل لمّا تسلّم كتاب النبي ﷺ من دِحْية

---

(١) فيض القدير للمناوي ٥٦٨/١.

(٢) الرحمان ٣٣.

الكلبي، جمع أساقفة الروم وأخبرهم الخبر فأبوا عليه. فلما كان يوم الأحد لم يحضر أسقفهم الكبير وتمارض، فأرسل إليه هرقل فأبى، ثم أرسل إليه مرة ثالثة فأبى ثلاث مرات. فركب إليه وقال له: «أليس قد عرفت أنه رسول الله؟ قال: بلى! قال: أليس قد رأيت ما ركبوا مني، فأنت أطوع فيهم منّي فتعال فادْعهم. قال: «أوَتأذن لي في ذلك؟» قال: نعم. قال اذهب هوذا أجيء. قال فجاءه بسواده إلى كنيستهم العظمى. فلما رأوه خروا له سجداً الملك وغيره. فقام في المذبح فقال: «يا أبناء الموتى. هذا النبيّ الذي بشّر به عيسى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فنخروا ووثبوا إليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه»[1].

وقد ورد أن هرقل لما تسلّم كتاب رسول الله ﷺ، جعله في قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له بعد أن قال: «هذا ملك هذه الأمة قد ظهر» ثم أذن «يا معشر الروم هل لكم بالرشد وأن يثبت الله ملككم فتتابعوا هذا النبي» فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها وقد غلّقت دونهم، فلما رأى هرقل نفرتهم هذه ويئس من الإيمان منهم ردّهم عليه وقال: «إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت..»[2].

موقف المقوقس:

وأما المُقَوْقِس، فقد روي أنه لما ناوله رسول رسول الله إليه، وكان حاطب ابن أبي بلتعة، كتاب رسول الله إليه قرأه ثم قال: «خيراً، قد نظرت في هذا، فوجدته قد لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهي عن مرغوب فيه. ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب. ووجدت معه آلة النبوّة، ثم جعل الكتاب في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه وكتب جوابه إلى رسول الله ﷺ وهو: «قد علمت أن نبيّاً

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل قول المسيح ٩٦/١.
(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل قول المسيح ٩٥/١.

قد بقي وقد أكرمت رسلك » وقد أهدى للنبيّ جاريتين وبَغْلة تسمى « الدُلدُل » فقبل النبي ﷺ هديته وٱصطفى الجارية الواحدة واسمها : « مارية » القبطية لنفسه فولدت له إبراهيم وأعطى الأخرى إلى الشاعر حسان بن ثابت ، فولدت له عبد الرحمن. وقد عاشت البغلة إلى زمن معاوية. وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال لما وردته رسالة المقوقس: « ضَنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه »[١].

كتابه إلى النجاشيّ ملك الحبشة:

وقد تابع الرسول ﷺ إرساله الرسل إلى الملوك، وبخاصة إلى ملوك النصارى الذين يهمنا أمر الحديث عنهم لنظهر مدى اتصاله واحتكاكه بهم وظروف ذلك وآثاره. وقد أرسل إلى النجاشيّ ملك الحبشة كتاباً حمله إليه عمرو بن أميّة الضمري وفيه يقول: « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول لله إلى النجاشيّ ملك الحبشة، فإني أحمد الله تعالى إليك، الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ونَفْخِه، كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله. وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ. وقد بلّغت ونصحت، فأقبلوا نصيحتي والسلام على من ٱتبع الهدى ».

وكان النجاشيّ قد استضاف جمعاً من أصحاب رسول الله وأكرمهم وحماهم وصدّ عنهم أعداءهم بعد أن استمع إلى مقالتهم وعرف عقيدتهم، وكان منه ما كان من قول وفعل، عبر في عمومه عن تقديره لرسالة الإسلام وثنائه عليها. وقد جاء كتاب الرسول إليه في مجموعة من الكتب المرسلة إلى ملوك الأرض حينذاك لتدعوهم إلى الإيمان والمتابعة على هذا الدين الجديد.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل قول المسيح ٩٧/١.

والمسلمون المهاجرون إلى الحبشة لم تكن مهمتهم، وهم لاجئون إليها، دعوة النجاشي أو سواه إلى الدين الجديد. فهم وإن كانوا قد دخلوا، بسبب مطاردة قومهم ودسائسهم عليهم لدى المقرّبين من النجاشي، في حوار مع النجاشي في الإسلام وحوله، وحتى في العقيدة بعيسى عليه السلام. إلا أنهم لم يباشروا دعوته الصريحة إلى الإسلام، ولم يكن منه أيضاً ما يدل صراحة على أنه دخل في الإسلام واعتنق مبادئه وعقائده..

وتوجيه هذا الكتاب إلى النجاشي بواسطة رسول رسول الله، عمرو بن أمية الضمري، فيه تحديد المهمة، وتسليط أهدافها على مطلب خاص هو دخول النجاشي في الإسلام وإيمانه بمحمد على أنه هو رسول الله إلى العالمين ولذلك فقد خاطب عمرو النجاشي ملك الحبشة عندما أذن له بالمثول بين يديه «إن عليّ القول وعليك الاستماع إنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيءٍ إلا أمِنّاه. وقد أخذنا الحجة عليك من فيك. الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرَدّ وقاض لا يجور. وفي ذلك الموقع الحزّ وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله في الناس فرجاك لما لم يَرجُهم وأمّنك على ما خافهم عليه بخيرٍ سالف وأجرٍ ينتظر».

وقد أجابه النجاشي فقال: «أشهد أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب. وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس أشفى من الخبر» وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً حمله عمرو إليه وقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي اصحمة. سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فوربّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت إنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا. وقد عرفنا ابن عمك (جعفر ابن أبي طالب) وأصحابك فأشهد أنك رسول الله

صادقاً مصدقا. وقد بايعتك وبايعت ابـن عمـك واسلمـت على يـديـه لله رب العالمين »[1].

وقد ثبت أن النجاشيّ هذا كان يخرج إلى هرقل ملك الروم خرجاً كل سنة. فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ منعه وقال: « والله لو سألني درهما واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك دينا محدثاً؟! قال هرقل: « رجلٌ رغب في دين فاختاره لنفسه فماذا أصنع به؟ والله لولا الضنّ بملكي لصنعت كما صنع ».

وليس هذا الخبر ببعيد عن الحق كما نظن، لأنه وإن كان هرقل قيصر الروم وكان له ما كان من القوة والسلطة وامتداد الهيمنة وسعة النفوذ، إلا أنه ولا ريب كان في فترة من الحكم وقد شاخ وطال عهده وأخذت أكثر ركـائـزه تتـداعـى، وكان وهو ذو النظر الثاقب والفكر العمـيق، لا يرى مصلحة في اثارة حروب جديدة غير محمودة العواقب والنهايات!!

على أنا هنا وإن تحدثنا عن بعث الرسول ﷺ للرسل والملوك وخصّصنا بعضهم هنا بالذكر لكونهم من أبرز سادة النصارى في ذلك العهد فقد بقي علينا ايراد بعض الأدلة المؤكدة لعموم رسالة النبي ﷺ.

توجيه القرآن الكريم الدعوة إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى:

ففي القرآن الكريم الشواهد العديدة من الآيات التي توجه الخطاب إلى أهل الكتاب بصورة عامة ثم إلى بني إسرائيل وإلى اليهود بالذات والنصارى على الخصوص؛ فيه دعوة للمشركين ولعبّـاد الوثـن، وللإنس والجن ودعـوة لأهـل الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾[2] ويقول ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ

---

(١) خاتم النبيين ١١٦٦/٢، للشيخ محمد أبي زهرة.

(٢) النساء ١٧١.

نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا آشهدوا بأنا مسلمون﴾[1] ومثل هذا الخطاب كثير.

وأما من أمثلة خطاب القرآن الموجه إلى بني إسرائيل، فقوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. وآتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾[2] وقوله: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيّاي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾[3].

ومن الخطاب الموجه إلى النصارى بالذات قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذْ أنتم مسلمون﴾[4] وقوله: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوْا حظّاً ممّا ذكّروا به فأَغْرَيْنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾[5].

وليس مفروضاً بنا هنا أن نورد كل أنواع الخطاب التي وجهت إلى أهل الكتاب عامة، أو إلى اليهود أو إلى النصارى خاصة. ولكن المطلوب هو أن نثبت بالنص الواضح الجازم ورود النصوص العديدة في الكتاب الكريم التي تناولت مخاطبة هؤلاء وهؤلاء من منطلق عموم رسالة النبي محمد ﷺ الشامل للخلق جميعاً.. الأنس والجن على السواء.

---

(١) آل عمران ٦٤.
(٢) البقرة ٤٧ - ٤٨.
(٣) البقرة ٤٠ - ٤١.
(٤) آل عمران ٧٩ - ٨٠.
(٥) المائدة ١٤.

تدرج الرسول بالدعوة من الأهل حتى الخلق طرّاً ؟

إن من الجلي لكل ذي بصيرة لدى قراءة الكتاب والتمرّس بتدقيق نصوصه، أن رسالة محمد ﷺ مرت في مراحل وتدرجت من مرحلة الدعوة الموجهة إلى الأهل ثم إلى القوم ثم إلى الأمة ثم إلى الخلق عامة إنسهم وجنّهم...

ولقد ثبت أن الوحي تنزّل عليه ﷺ يأمره أولاً وقبل كل شيء، أن ينذر أهله وعشيرته الأقربين. يقول تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن آتبعك من المؤمنين﴾ (١) ولقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية توجه رسول الله ﷺ بالخطاب إلى زوجته خديجة التي بادرت إلى الإيمان به والتصديق برسالته. ثم آتجه حتى صعد الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي، وهكذا بطنا بعد بطن من بطون قريش حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً، ما جرّبنا عليك كذباً. قال، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وعن أبي هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب ابن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار!! يا بني مرّة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار!! يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار!! يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار!! يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار!! يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار!! يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها».

وقد ثبت أنه ﷺ قد وجه الخطاب إلى قومه وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها

(١) الشعراء ٢١٤.

الناس آعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[1]. ووجه الخطاب إلى الجن والإنس وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾[2].

كما ثبت أنه ﷺ خرج بنفسه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة، وكانت العرب لم تزل تحج إلى البيت الحرام من عهد إبراهيم وإسماعيل، فكان ﷺ يأتيهم في منازلهم بمنى وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فلا يرى أحداً سميعاً عاقلاً إلا دعاه إلى الله وعرّفه على محاسن دعوته ورسالته وكان يقول: «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم آمركم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أُبيّن عن الله ما بعثني به. يا أيها الناس إن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربّي. يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم، فيقولون يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن أمرك هذا لعجيب».

ولقد دأب الرسول في نشر دعوته وإبلاغها إلى الناس وهم يؤذونه قولاً وعملاً، ويجادلونه بالباطل، ويردون عليه بأقبح الأقوال وأسوأ الردّ والفعال وهو صابر متجالد.. ومما كان يقول: «اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا» وخرج الى الطائف بعد أن لقي من قومه ما لقي، أملاً بأن يجد عندهم الإيمان والنصرة، فكان منهم ما هو أشد، فأغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى دميت قدماه، والجأوه إلى ظل نخلة أو كرمة في حائط لعُتْبَة وشيبة ابني ربيعة فرجع عنه ما كان من أولئك. وهناك وقف يناجي ربه، ويقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين!! أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي!! إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟! أم إلى عدوٍّ ملكته أمري؟ إن لم

---

(١) البقرة ٢١.

(٢) الأنعام ١٣٠.

يكن بك علي غضب فلا أبالي!! ولكنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يَحِلَّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»!!

وهنا رثي ابنا ربيعة لحال الرسول. فقالا لغلام لهما يقال له عدّاس وكان نصرانياً خذ قطفاً من عنب، ثم اجعله في طبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله. ففعل عدّاس وأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فمدّ يده إليه وقال: «بسم الله، ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجه الرسول ثم قال له: «والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة!! فقال له رسول الله ﷺ: «من أيّ البلاد أنت وما دينك؟» فقال عدّاس: «أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى» فقال له الرسول: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟ فقال له عدّاس وما يدريك ما يونس بن متّى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون متى!! من أين عرفت أنت متّى؟ فقال له رسول الله ﷺ «هو أخي، كان نبيّاً وأنا نبي.» فأكبّ عدّاس على رسول الله يقبّل رأسه ويديه ورجليه. فلما رجع عدّاس قال له ابنا ربيعة ويلك يا عدّاس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟! فقال «لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي».

خصوص رسالة الأنبياء السابقين ضرورة:

على أن خصوص رسالة كل نبي من الأنبياء السابقين بأقوامهم ضرورة لا محيد عنها، لأنها تتمشى مع طبائع الأمور الحياتية إذْ ذاك. إذْ لا يمكن أن يكون العكس بالنسبة إلى كل نبي. والمجتمع البشري القديم محدود الرقعة، وما يزال في طور النمو والترقي. وعدد الشعوب فيه ما زال ضئيلاً، بل والقارات الأرضية بعد مجهوله، شبه خالية من السكّان. والعالم كان في الغالب لا يزيد على منطقة الشرق الأوسط لم يتيسّر بعد الاتصال بين أطرافه. والتخلف الفكري والاجتماعي والانساني ضارب أطنابه. ولا بد في مثل هذه الصورة الحياتية للبشر من أن يرسل

لكل شعب أو قوم من يعلمهم ويهديهم ويزكيهم ويصلح أحوالهم ويضعهم على الطريق الصحيح الذي يبلّغهم أمانيهم ويوصلهم إلى ما يكفل لهم أمنهم وطمأنينتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة...

ولقد كان ذلك، وتوالى الرسل على هذا النسق، فبصروا الناس وعلّموهم وحاولوا بكل وسعهم صرفهم عن الشر وإبعادهم عن الجهالات وتوجيههم إلى الحق والخير فآمن بهم من آمن وكفر بهم من كفر.. ولكنهم على كل حال تمكنوا من وضع المسار البشري في الحدود المعقولة، ومهدوا بكل إخلاص لاطلالة الرسالة العامة التي بعث بها الرسول محمد ﷺ والتي اتجهت بالبشر كافة في المسار الصحيح ،ووضعت بين أيديهم الدين الكامل، الذي استوفى كل ما جاء به الرسل السابقون من الأصول، واشتمل بالإضافة إلى ذلك على تعديلات هامة في الإطار التشريعي والتوجيهي جعلته في غاية الكمال والغنى، وصالحاً لكل زمان ومكان ولكل الشعوب على تقلب الأيام واختلاف المكان. يقول الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (١).

الرسالات السابقة هي رسالة الاسلام في أصولها:

ويفهم من هذا أن الاسلام الذي ندين به اليوم يحتّم بأن كل الرسل الذين جاؤوا إلى الناس من قبل، حملوا إلى أقوامهم الرسالة نفسها التي حملها نبيّنا محمد ﷺ. وهي الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وعبادته وحده دون سواه. يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (٢).

فكذلك كان نوح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وصالح وهود وشعيب وموسى وهارون والياس واليسع وذو الكفل ويونس

---

(١) المائدة ٣.

(٢) الأنبياء ٢٥.

وزكريا ويحيى وعيسى وكل الرسل الذين بعثهم الله تعالى وقصّ خبرهم علينا أو لم يقصصه.

وهذا ابراهيم عليه السلام وبنوه من بعده يخبرنا الله تعالى عنهم فيقول: ﴿ومن يرغبُ عن مِلّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نَفْسَه. ولقد آصْطَفَيْناه في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. إذْ قال له ربُّه أسلم قال أسلمتُ لربّ العالمين. ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إنّ الله آصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذْ حضر يعقوبَ الموت إذْ قال لِبَنِيْه ما تعبدون من بَعْدي، قالوا نعبدُ إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون، تلك أمة قد خلت لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كَسَبْتُم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون. وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل مِلّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد آهتدَوْا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغه الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ [١].

وهؤلاء هم حواريو عيسى ينقل عنهم الله تعالى قولهم فيقول: ﴿فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله: قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله وآشهد بأنّا مسلمون﴾ [٢] ويقول: ﴿وإذْ أوْحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وآشهد بأننا مسلمون[٣]﴾ وكذلك كان قول السحرة بعد أن ثبت لهم صدق موسى عليه السلام وهددهم فرعون بالقتل بقوله: «لأقطّعَنّ

---

(١) البقرة ١٣٠ ـ ١٣٨.
(٢) آل عمران ٥٢.
(٣) المائدة ١١١.

أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأصَلِّبَنَّكُم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وما تَنْقِم مِنَّا إلاَّ أنْ آمنا بآيات ربّنا لما جاءتنا، ربَّنا أفْرِغْ علينا صبراً وَتَوَفَّنا مسلمين[1] »...

وكذلك كان من قبل قول نوح عليه السلام لقومه بعد أن ضارّوه وآذوه ونبذوا دعوته: « فإن تولّيتم فما سألتكم من أجر إنْ أجري إلا على الله وأُمِرْتُ أن أكون من المسلمين[2] ».

ثم قول يوسف بعد أن مكّن الله له في الأرض « ربّ قد آتيتني من المُلك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السمٰوات والأرض أنتَ وليّيّ في الدنيا والآخرة تَوَفّني مسلماً والحقني بالصالحين[3] ».

بل وقول فرعون لما أدركه الغرق وعلم خطأ ما هو فيه: « .. حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين[4] ».

وهو أيضاً كان قول بلقيس وسليمان من قبل عندما « قيل لها آدخلي الصرح فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرحٌ ممرّدٌ من قوارير، قالت رب إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين[5] ».

وكل هذه النقول عن بعض أولئك الأنبياء تثبت بما لا مجال معه للشك انهم كانوا يحملون الاسلام الى أقوامهم ويدعونهم إليه ولا يزيدون؛ ويحملون الاسلام لله رب العالمين والخضوع له وحده لا شريك له ولا ندّ. يعبدونه ويسلمون أمورهم له ويسألونه ويتوكلون عليه. له الملك وحده وله الحمد وحده. وهو على كل شيء قدير..

---

(١) الأعراف ١٢٤ - ١٢٦.
(٢) يونس ٧٢.
(٣) يوسف ١٠١.
(٤) يونس ٩٠.
(٥) النمل ٤٤.

ختام رسالة محمد يؤكد عمومها: ولم يكتف الكتاب الكريم بنقل الخبر الينا بأن رسالة محمد ﷺ هي رسالة عامة الى الخلق كافة عربهم وعجمهم وإنسهم وجنّهم، بل زادنا بأنها خاتم الرسالات كافة وانه لا نبي بعد محمد ﷺ. يقول الله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً[1]﴾ وقد أخرج البخاري في صحيحه ومسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «إنّ مَثَلي وَمَثَلُ الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟ قال: فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتم النبيين» واللفظ للبخاري[2]. وروى مسلم أيضاً في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بِسِتٍّ: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيّون»[3].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا نبوّة بعدي إلا ما شاء الله» قال أبو عمر: يعني الرؤيا التي هي جزء منها كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس يبقى بعدي من النبوّة إلاّ الرؤيا الصالحة[4]».

ولو لم تكن رسالة محمد ﷺ عامة، لما كان ثمة من موجب لختمها. بل على العكس كان المطلوب تتابعها في البشر لهدايتهم واعطائهم المزيد من التوجيه والنصح والتوعية.

وقد أخبرنا الله تعالى بأن رسالة محمد ﷺ هي خاتم الرسالات كما قال ابن

---

(١) الأحزاب ٤٠.

(٢) البخاري ٤٠٨/٤ ومسلم ١٧٩١/٤.

(٣) صحيح مسلم ٣٧١/١.

(٤) القرطبي ١٩٧/١٤.

كثير ليعلم الناس أن كل من ادّعى هذا المقام بعده، كاذب أفّاك وضال مُضِل ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم[1]. فقد كان الأسود العنسي وسجاحَ ومسيلمة كذّابين، وكذلك كان ويكون كل من يدّعي النبوة في أي عهد وزمان ومكان أيّاً كان مقامه وحجته. يؤكد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين كلّهم يزعم أنه رسول الله[2]» تنزّل عليهم الشياطين بالإفك والفجور تماماً كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون[3]﴾.

رفض الروم للدعوة: وقد ثبت من روايات المؤرخين أن القيصر وعامّة أمرائه على الأجناد والمناطق رفضوا دعوة الرسول ﷺ، ثم تحركوا لإسكاته وتأديبه والقضاء عليه. وقد اضطر الرسول ليعدّ لهم العدة كما أعدّها من قبل لمشركي قريش والجزيرة ويهودها، وان يتصدى لهم كما تصدى لهؤلاء دفاعاً عن النفس وعن الدعوة وحرية العقيدة واستجابة لنداء الواجب. وكان ما كان مما سجلته روايات المؤرخين من غزوات ومعارك وانتصارات خارقة فاز بها المسلمون المستضعفون في الأرض والصادقون المخلصون، على أولئك الملوك والأمراء الجبابرة قاهري الشعوب ومذلّي رقاب الأمم...

وتابع أصحاب الرسول من بعده خطواته الثابتة ودعواته الرحيمة في تبليغ الرسالة ونشرها وحماية مبادئها وأصولها حتى كان لهم ما أرادوا وانتشر الإسلام بين الخافقين. ولو لم تكن رسالة النبي عامة لما كلّف الرسول ﷺ نفسه مشقّة وخطر التصدي لأولئك الملوك القياصرة والأكاسرة وهو من هو قلّة عدد وندرة

---

(١) ابن كثير ٤٧٢/٥.
(٢) زاد المسير ٣٩٦/٦.
(٣) الشعراء ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

سلاح وخبرة في القتال والحرب وصـدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً[1]﴾ ويقول: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِـمّ نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسـولـه بـالهدى وديـن الحق ليظهـره على الديـن كلـه ولـو كـره المشركون[2]﴾.

---

(١) الفخ ٢٠.
(٢) الصف ٨ ـ ٩.

الفصل الرابع

تاريخ عيسى عليه السلام

١ - ولادته
٢ - ولادة عيسى في القرآن
٣ - التلمود وولادة عيسى
٤ - نشأة عيسى
٥ - عيسى ويوحنا المعمدان
٦ - موقف الفِرّيسيّين والصدوقيين منه
٧ - تآمر اليهود والحكم بقتله

ولادته: يقول اميل لودفيغ: « من الصعب وصف رجل كيسوع لا نكاد نعلم شيئاً عن حياته وأوصافه وسريرته قبل بلوغ الثلاثين من عمره. وليس لدينا غير معارف متناقضة عن عامَيْ سنّهِ الأخيرين: فالأناجيل الأربعة التي كل ما لدينا متباينة »[1].

وقد عرضت الأناجيل لشخصيته عليه السلام، فصوّرتها صورة لا يزال يشوبها الكثير من الظلال المعتمة بحيث بقيت مهزوزة الرؤية، غامضتها. وإن أقدم المصادر التي يرجع اليها لحيازة تصوّر ما لشخصيّته عليه السلام هي رسائل بولس الى أهل فيلبّي حيث تحدّث فيها في الاصحاح الثاني بما يفهم منه أن يسوع عاش كعبد ثم مات ثم بعث. ولقد كان من قوله الموجه في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس « إني سلّمت إليكم أولاً ما قبلته أنا أيضاً. وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا، وأنه دفن، وأنه قام في اليوم الثالث » ومن هذه العبارات وغيرها تفهم أن يسوع قد عاش على الأرض ومات عليها كما عاش الناس ومات مثلما يموتون »[2].

وفي الوقت الذي يعرض لوقا ومتّى في إنجيليهما الى ولادة يسوع فيعرّفان بها بأنها حصلت من العذراء مريم بواسطة الروح، نرى مرقس ينفي ذلك ولا ينظر

---

(١) ابن الانسان، ٩.

(٢) اليهودية واليهودية المسيحية، الدكتور فؤاد حسنين علي، ص١٥٨.

إليه كما لو أنه ولد عن طريق المعجزة ونرى يوحنّا يعرّف به بأنه ولد ليوسف ومريم[1].

وأما مكان ولادته فلا يقل غموض الأخبار فيه أيضاً عما هو قبل... فبينما يقول لوقا إن سكن مريم ويوسف كان في مدينة الناصرة ثم انتقلا منها الى بيت لحم، حيث كانت ولادة يسوع، يقول متى: إن سكن والدي يسوع كان بيت لحم ثم هجراها الى مصر خوفاً من هيرودوس، ثم عادا الى أرض اسرائيل ثانية بعد وفاته. وانتقلا الى الناصرة في الجليل. ولكن الأخبار بالاجمال تكاد تلتقي على أن مولد يسوع كان في بيت لحم وكان في زمن هيرودوس[2].

نسبه: أما نسبه فيقول عنه الدكتور فؤاد حسنين علي: «إن جدول النسب الذي ذكره متّى يظهر المسيح وقد انحدر من بيت داود الملكي، وهو ابن ليوسف الذي ينتهي نسبه الى داود.. تلك هي الفكرة الأولى عن المسيح كما تصوّره الأناجيل، أعني أنه ابنٌ ليوسف من نسل داود. ومن ثَمَّ ظهرت الفكرة الجديدة القائلة ببكارة العذراء[3]. والواقع أن الفكرة القائلة بانحدار المسيح من بيت داود هي المسيحيّة الأصلية، وهي التي يتّفق فيها متى ولوقا، على الرغم من وجود الخلاف في جدول النسب الوارد في «متّى»[4] ويذكر بولس في رسالته الى أهل رومية «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجد» وجاء في انجيل مرقس «يا يسوع ابن داود إرحمني».

ولادة عيسى في القرآن: وأما في القرآن الكريم فإن الله يجزم بأن ولادة عيسى كانت خارقة للعادة، وان أمه مريم حملت به بعد أن أرسل الله تعالى اليها

---

(١) اليهودية واليهودية المسيحية، الدكتور فؤاد حسنين علي، ص ١٥٨.

(٢) اليهودية واليهودية المسيحية، الدكتور فؤاد حسنين علي، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) أنظر لوقا، ص ١ ـ ي: ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) أنظر لوقا، ص ١ ولوقا ص ٣ ورسالة بولس إلى روحيه، ص ١، ي ٣.

الروح وهو جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ وقال لها: ﴿إنَّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً﴾[1]. ويخبرنا الله تعالى عن سرّ ذلك فيقول ﴿فَنَفَخْنا فيها من روحنا وجعلناها وآبنها آيةً للعالمين﴾[2] فحملت به، ثم وضعته في ظروف محفوفة بالاعجاز ومع قرائن شاهدة لها تطمئن لها قلبها وتؤكد لها أن ذلك من الله تعالى لتكون مع ابنها آية للناس ورحمة منه سبحانه وتعالى.

والقرآن الكريم يجزم بأن عيسى عليه السلام هو ابن لمريم بمعجزة النفخ الربّانية والكلمة الإلهية التي هي كما قال سبحانه ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[3] أو ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[4]. وهو بهذا ينفي أن يكون ابناً ليوسف النجار البتة...

التلمود وولادة عيسى: ولقد تعرّض التلمود لشخصية يسوع فسخر منها وهزّأها. ولذلك فقد لقي عليه السلام من اليهود ما لقيه من التجريح والكيد حتى ورد في إنجيل متّى الاصحاح الثالث عشر «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم، وإخوته يعقوب وموسى وسمعان؟ أوَ ليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟»... ويفهم من هذا انهم كانوا يستكثرون عليه أن يكون صالحاً أو نبيّاً، حتى كان تألّمه عليه السلام عظيماً من قولهم وفعلهم فيه. ولقد وصفوه بأنه «ابن زناء، وانه أحمق ومجنون وسامري وملعون وساحر رجيم ومضلل لئيم»[5]. فيئس من استصلاحهم وقال ما نسب إليه: «ليس لنبي كرامة في وطنه وفي بيته».

---

(١) مريم ١٩.
(٢) الأنبياء ٩١.
(٣) يس ٨٢.
(٤) مريم ٣٥.
(٥) اليهودية واليهودية المسيحية، ص ١٦٥.

نشأة عيسى: وعلى كل حال، فقد نقل أن هيرودوس ملك اليهود كان عند مولد يسوع. وقد أصدر أمراً بقتل كل مولود في بيت لحم خوفاً على مصيره. وأن الله تعالى أوحى - كما في إنجيل متى - الى يوسف النجار أن يأخذ الطفل وأمه ويرحل بهما الى مصر[١]. حيث أقاموا جميعاً بضعة أشهر، ثم أمروا بالعودة الى فلسطين أرض اسرائيل[٢]. فغادروا الى الناصرة فأقاموا فيها. وكانوا يذهبون منها كل سنة في عيد الفصح، الى أورشليم، ثم يرجعون بعد أيام. الى أن حدث للطفل وهو ابن اثني عشرة سنة، أن أمه ويوسف آفتقداه، ثم بعد جهد وبحث طويل عثرا عليه ووجداه جالساً في الهيكل يناقش العلماء[٣].

وهكذا فقد كانت نشأة عيسى عليه السلام في مجتمع تظلله في الغالب العقيدة اليهودية التي حملتها كتب العهد القديم وبخاصة ما حمله منها موسى عليه السلام. وكانت تعاليم هذه العقيدة تبشر بمجيء المسيح عليه السلام وتنتظر ظهوره يوماً بعد يوم.

ولا شك أن عيسى عليه السلام قد تدرّج في نشأته، وخالط الناس من قومه في دخولهم الأسواق وخروجهم منها وفي ترددهم على الحقول والنوادي والهيكل، وعاش مثلما كانوا يعيشون تحت هيمنة الجيش الروماني وسلطاته المختلفة. وكابد الاستماع والاصغاء الى الخلافات الدينية التي كانت ذائعة في محيطه إذْ ذاك. لقد كان اليهود حينذاك ينقسمون الى ثلاث فرق في الغالب.. فرقة الفَرِّيسيين: وهم أبناء الحدّادين والدّباغين والسّكافين، وأصحاب المهن. وأكثرهم من الفقراء الذين وقفوا على حدود الشريعة وأحكامها. وسهروا على تطبيق شعائرها. فكانوا يظهرون المكث في الصلاة والتقشّف، وإيتاء الزكاة على مرأى من الناس في الميدان

---

(١) متى ٢: ١٣ - ١٤.

(٢) متى ٢: ١٩ - ٢٠.

(٣) لوقا ٢: ٤١ - ٤٧.

العام وفي الهيكل. ويفرطون في الصوم وفي الوضوء والغسل. وكانوا بذلك يظهرون كأنهم أئمة للشعب مهذّبون له(١).

وفرقه الصدوقين. وهم شرذمة قليلة من الأشراف الأغنياء الأقوياء الذين آرتضوا نعومة الحياة. وامتيازاتهم فيها. ولم يشاؤوا أن يعرّضوها للخطر بالثورة على الأجنبي الغالب، أو بالمغالاة في القيام باداء الشعائر الدينية... وهم يرون اتّباع شريعة موسى، لا ما طرأ عليها من التفاسير.. فإذا كان الرومان أرجاساً، إلا أن الأموال التي يجلبونها من الغرب تبقى غير محرّمة عليهم ما داموا في الأيام المقرّرة.. وكذلك جمع الأموال والأكل بآنية من فضة أو ذهب، والتمتع بما أحله الله من أطايب العيش ولذائذ الحياة... لقد كانوا بذلك يمثلون الفئة المترفة البعيدة عن التعصب في المسائل الروحية، والمجافية للتشدّد في المسائل الدنيوية(٢).

وفرقة الأساة أو الآزيين. وهم الذين كانوا يمارسون طقوسهم الدينية بجد، ويَحْيَون حياة قريبة من الرهبنة والحياة الاشتراكية في حدود المال. ويباشرون أعمالاً يدوية وحرفيّة للارتزاق منها. ثم يتقاسمون ما فضل من مواردهم عن حاجاتهم الأصلية اليومية، ويهتمّون بالغسل اليومي كوسيلة للطهارة. ويرجّح البعض أن يكون من هؤلاء يوحنا المعمدان الذي عمّد يسوع، كما يرجّحون أن هذه المعمودية اليهودية مهّدت الطريق لظهور اليهودية المسيحية التي جاء بها عيسى، أو المسيحية اليهودية التي تغاير المسيحية التي بشر بها بولس الرسول، وهي مسيحية اليوم تقريباً(٣).

عيسى ويوحنا المعمدان: ولما بلغ عيسى عليه السلام الثلاثين من عمره شرع في نشر مواعظه في الجليل وفي مدينة كفر ناحوم ثم في أورشليم. إلا أنه كان من

---

(١) ابن الانسان ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) ابن الانسان ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) اليهودية واليهودية المسيحية، ١٣٩ ـ ١٤٠ وابن الانسان، ص ٥٩.

قبل ذلك قد استمع بشوق الى ما كان يحدثـه بـه النـاس عـن أوصـاف يـوحنـا المعمدان وعن صوته وكلامه. وعن أثر رسالته ومواعظه. وكان كلما استمع لأولئك في حديثهم الرقيق عن يوحنا قال: «آآزي فواعظ؟ أمعتزلٌ فرسول؟ أصامت فمتكلم؟ فكان هذا معبراً الى حدٍّ بعيد، الى أن كلام يوحنا وأخباره قد أيقظت فيه روح المسئولية ودفعت به للذهاب إليه مع أخلاط من الرجال والناس ينتظر التعميد..

وآرتفعت حرارة ايمان يسوع بعد ذلك. وانكشف له من الحجب ما لم ينكشف له من قبل. وبخاصة بعد أن علم بعد مدة بأن جنود الأمير هيرودوس انتيباس قد قبضوا على يوحنا المعمدان وساقوه مقرناً في الاصفاد الى سجن لا يقدر أحد على اطلاق سراحه منـه[1]. فـراح يعـظ ويكـرز ويفسر قـديم النبـوءات بـأسلـوبـه الجميل وعبارته الصافية، حتى ملك قلـوب الصيـاديـن والفلاحين الذيـن ملّـوا مناظرات الفَرّيسيين وسئموا أدْعية الكهان النّمطية ومواعظهم الصاخبة. وبدأت تظهر على يديه خوارق الوقائع كإخراج شيطان من جسم إنسان. وشفاء المرضى وإبراء الأكمه والأبرص. والمفلوج والمصروع. وأخبار النـاس بما يـدّخـرون في بيوتهم وإحياء الموتى... وفي غمرة هذا النشـاط تعـرف على بعـض الصيـاديـن فاصطفى منهم ومن غيرهم حوارييه. وهم اندراوس وأخوه سمعان الملقب ببطرس ويعقوب ويوحنا، وفيلُبّس وبرثو لَمَاوُس وتوما ومتّى العشار ويعقوب بن حَلْفى ولبّاوُس الملقب تدّاوس وسمعان القانوني ويهوذا الاسخريوطي[2].

وهؤلاء هم الذين يمثلون حوارييه الذين أوصاهم فيما بعد بأن يذهبوا الى خراف بيت إسرائيل الضّالة، ويعظوهم بأنه قد اقترب ملكوت السماوات، وأجازهم بأن يفعلوا مثل الذي يفعل من شفاء المرضى ومعافاة الكمه والبرص، واحياء الموتى

---

(١) ابن الإنسان ٧٠.

(٢) متى: أصحاح ١٠ ـ ١ ـ ٤.

واخراج الشياطين وشفاء الصرعى والمجانين، وأن لا يأخذوا على ذلك أجراً، والا يقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ولا مزوَداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا[1].

وقد زادهم بأن يكونوا حكماء وبسطاء وحذرين، وأن يبلغوا كل الذي علمهم إياه. وألا يخافوا من الذين يقتلون الجسد، بل من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم[2].

وقد استجاب هؤلاء التلاميذ الى وصايا عيسى عليه السلام وانطلقوا من بعد يسيحون في الأرض وينفّذون وصيته..

موقف الفَرِّيسيين والصدوقيّين منه: ورغم أن هيرودوس قد ساق يوحنا المعمدان مصفّداً بالأغلال الى السجن، فإن يسوع لم يرفع في وجهه عقيرة، ولم يفه بكلمة ضدّ رومة، أو ضد دولتها الكبرى. وعلى الرغم من انه كان إذا تحدّث عن المشركين، تحدَّث باشمئزاز، فقد كان يتجنّبهم. ولكنه كان يزداد مع الزمن عداوة للكهنة. كما كانوا هم أعداءه يتتبّعون خطواته بحذر ويعملون لحمل الجمهور على الانفضاض من حوله[3].

ورغم ذلك فقد كان يأمر الجمهور الذي يشايعه باتباع الفَرِّيسيين في أمور الشريعة ويقول له: «إنكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والفرّيسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات[4].

ومع ذلك فقد كانت بداية الخصام مع الفَرِّيسيين يوم رآه بعضهم يأكل مع العشّارين والخطأة، فسأل بعضهم أحد تلاميذه «لماذا يأكل معلمكم مع العشّارين

---

(١) متى: أصحاح ١٠: ٥ - ١٠.
(٢) متى: أصحاح ١٠: ١٦ - ٤٢.
(٣) ابن الانسان، ص ٩٧.
(٤) ابن الانسان ٩٧.

والخطأة »؟ ولما سمع يسوع هذا السؤال أجاب بحدّة قائلاً: « لا يحتاج الأصحاء الى طبيب. بل المرضى. فآذهبوا وتعلّموا، لم آت لأدعو أبراراً، بل خطأة الى التوبة ».

ثم تتابع الصدام بينه وبين الفرّيسيين على مرّ الأيام وتبعاً للوقائع الخلافية التي كانت تثور بينهم وبينه. فقد ذهب ذات يوم سبت مع تلاميذه، في وقت حصاد القمح، في نزهة وتروّح، فلما جاع تلاميذه وهم سائرون، قلعوا سنابل من القمح وأكلوها. فلقيهم فرّيسيان من الرقباء وسألاهم عن سبب خرقهم لحرمة يوم السبت وهو الناموس المقدّس. فما كان من يسوع إلا أن تصدّى لهما وقال: « أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله، وأكل خبز التّقْدِمة الذي لم يَحِلَّ أكله له ولا للذين معه، بل للكهنة... السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت. إذاً ابن الإنسان هو رب الشعب أيضاً »[1].

وهكذا كان كلما وقعت له حادثة مع الفَرّيسيين ردّ عليهم بحكمة وبقوة، فكانوا مع الزمن ينمّون حقدهم عليه، ويتصرفون حياله تصرّف المبغض المحاذر، إلى أن عزموا على تعقّبه وتصيّده. فدعاه ذات يوم أحدهم الى تناول الغداء في بيته فلبّى... وإن الآكلين لجالسون حول المائدة، إذ فتح الباب ودخلت عليهم فتاة حسناء بَغِيّ كانت سمعت عن محبة يسوع للآثمين، فرمت بنفسها على قدميه باكية حتى بلّلتهما بدموعها، وجعلت تمسح بشعرها الذي كانت تغوي به الناس قدميه، وهي تقبّلهما بلهف، وتدهنهما بيديها المرتجفتين من عطر كان معها.. وهنا قال الفرّيسي صاحب الدعوة: « لو كان هذا نبيّاً لعلم مَنْ هذه المرأة التي تلمسه وما هي. إنها خاطئة!! ».

وعلم يسوع ما دار في خلد صاحب الدار فقال بصوت عالٍ: « يا سمعان عندي شيء أقوله لك... فقال سمعان: « قل يا معلم ». فقال يسوع: كان لمداين

---

(١) ابن الإنسان ٩٨.

مدينان. على الواحد خمسمئة دينار، وعلى الآخر خمسون. وإذْ لم يكن لهما ما يوفيان، سامحهما جميعاً فقل أيهما يكون أكثر حبّاً له »؟ فقال سمعان: « أظن الذي سامحه بالأكثر » فقال يسوع: « بالصواب حكمت » ثم التفت الى تلك التي هي عند رجليه، وقال لسمعان: « أتنظر هذه المرأة؟.. إني دخلت بيتك، وماءً لأجل رجلَيّ لم تُعط.. وأما هي فقد غسلت رِجَلَيّ بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها... قُبلةً لم تُقَبلْني.. وأما هي فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رِجْلَيّ.. بزيت لم تدهن رأسي... وأمّا هي فقد دهنت بالطيب رجْلَيّ.. من أجل ذلك أقول لك، قد غُفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبّتْ كثيراً.. والذي يغفر له قليل يحبّ قليلاً »[1].

وتظل المواجهة تتوالى بين الفرّيسيين ويسوع حتى يتهموه بالجنون أو بالالحاد وبالكفر. ويطردوه من المعبد. ويصفوه بكل نقيصة. وصفوه بأنه مضلّ لئيم وسامري ملعون.. وقد ارتفعت بينه وبينهم حدة النزاع وحرارة المواجهة وتحركوا بالكيد له والتآمر عليه..

ولم يكن الصدوقيون، بأقل عداوة له من هؤلاء بعد أن هالهم منه مهاجمته لظاهرة الغنى واعتباره شبيهاً بالإثم، وساءهم منه رفض الرفاهية والنعيم الدنيوي.

وتتعدّد مع الأيام مآخذ الفرّيسيين والصدوقيين على مقالات يسوع وتصرّفاته ويزداد حقدهم عليه، وبخاصة بعد أن جعل يناهضهم بتقاليدهم، ويخاصمهم بكلام أنبيائهم ويصفهم بالجهل والخطأ والتعنّت... وفي غمرة هذا الصراع الخافت الموّار في الصدور، يستجيب هيرودوس لابنة زوجته هيروديا وهي سالومة ويحقق لها طلبها فيأمر بقطع رأس يوحنا المعمدان، فيقع ذلك من قلب عيسى موقعاً أليماً ومثيراً ومشجعاً أيضاً على المضيّ بقوّة في دعوته والاندفاع في درب الآلام بصبر وثبات.

---

(١) ابن الإنسان ١٠٠ ـ ١٠١.

تآمر اليهودية والحكم بقتله: ولما رأى اليهود عامة ارتفاع شأن عيسى وبخاصة الفَرّيسيين منهم تشاوروا وتآمروا، وقرّروا بعد محاورات عديدة أنه مجدّف وآتهموه بالسعي لإفساد الأمة، وبالتحريض على الامتناع عن دفع الجزية للقيصر، كما آتّهموه بأنه يدّعي أنه مسيح ملك اليهود... ويلتقي في ذلك مع الفريسيين الصدوقيون الذين نسوا تباغضهم، واتفقوا فيما بينهم على القضاء عليه.

ولا يمضي كبير وقت حتى تقع الكارثة، ويقبض عليه ويساق الى كبير أحبارهم ثم الى محافظ البلاد اليهودية وحاكمها من قبل الرومان وهو بيلاطس يومذاك، حيث صدق عليه الحكم بالجلد والتعذيب والموت صلباً.

وبالفعل نفذ فيه الحكم، كما يزعم المؤرخون المسيحيون ثم دفن. وبعد ثلاثة أيام قضاها في القبر، عاد فقام في الفصح - كما تقول نصوص المسيحية - ومكث مع تلاميذه أربعين يوماً ثم ارتفع أمامهم الى السماء بعد أن أوصاهم بمتابعة الدعوة ونشرها باسم الآب والابن والروح القدس. فكانت مدة دعوته للناس ونشر مواعظه فيهم ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام»[1].

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٢٠٩/١.

الفصل الخامس

اهم العقائد النصرانية

١ ـ مقدمة في المسيحية
٢ ـ مراحل التدوين
٣ ـ عقيدة بنوّة عيسى لله وألوهيته
٤ ـ عقيدة الصلب
٥ ـ عقيدة التثليث
٦ ـ تاريخ عقيدة التثليث
٧ ـ الافلاطونية الحديثة
٨ ـ الخطيئة والخلاص
٩ ـ أركان المسيحية الخمسة
أ ـ الغطاس
ب ـ الاعتقاد بالتثليث
جـ ـ الاعتقاد بأن أقنوم الابن قد التحم بعيسى وهو في بطن أمه مريم
د ـ الاعتقاد بالقربان
هـ ـ الاعتراف أو الاقرار بجميع الذنوب للقسيس

١٠ ـ تقديس الصليب وحمله
١١ ـ الاعتقاد بعموم رسالة عيسى عليه السلام
١٢ ـ المراتب الكهنوتية
١٣ ـ الرهبنة

مقدّمة في المسيحية: تعتبر المسيحية الدين الثاني بعد اليهودية. جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام منذ ألفي سنة تقريباً حاملاً معه كتابه الانجيل. ولد في بيت لحم من فلسطين. وفي الثلاثين من عمره. دعا الناس من بني إسرائيل إلى آتباعه فيما جاء به من ربه؛ فآمن به من آمن وكفر به من كفر. ولقد مرّت المسيحية عبر هذه الحقب الزمنية الطويلة في مكايدات اجتماعية وسياسية ودينية مريرة. ولكنها على كل حال ورثت كتب اليهودية المقدسة كما يقول بوكيه [1] وطوّرتها وأصبح يعتنقها الملايين من سكان الأرض في الشرق والغرب.

وعلى الرغم من أن المسيحية في الأصل، جاءت كما قال سيدنا عيسى مكمّلة للدين اليهودي أو بالأصح للرسالة التي جاء بها من قبل، موسى عليه السلام « لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل » [2] فقد اختلفت مع اليهودية مع الزمن في الأحكام وفي بعض المبادىء، التي من أهمها أن اليهودية حصرت ذاتها في بني إسرائيل ولم تعتبر شعباً في الأرض يستوجب النسبة الى الله سوى الشعب الإسرائيلي، وأما المسيحية الجديدة فقد أعطت ذاتها الحق في الانتشار والامتداد حتى وسعت كل شعوب الأرض.

ولقد مضى القرن الأول تقريباً على المسيحية وتعاليمها وهي تنقل مشافهة

---

(١) دراسات في العقائد والأديان، محمد جابر عبد العال الحيني ٢٣٨.

(٢) متى: الاصحاح ٥: ١٧.

ورواية من جيل لآخر الى أن أحس حملتها الأوائل الخطر عليها فعملوا على تدوين ما نقلوه عن روّاد المسيحية وعيسى عليه السلام بالذات، فتحقق وجود الأناجيل.

مراحل التدوين: ولقد مرّ هذا التدوين بمراحل ثلاث كما يقول بوكيه. والأولى منها هي التي دونت فيها الأناجيل الأربعة مع غيرها ولم تكن بعد معتمدة من المجامع المسيحية وهذه المرحلة تنتهي بحوالي سنة ٢٢٠ م. والذي نقل أن كلاً من هذه الأناجيل رغم تدوينها لم تأخذ صورتها الحالية الا بعد سنة ١٠٠ م أو ١٢٠ م.

وأما المرحلة الثانية فهي الفترة التي حاول فيها علماء المسيحية مثل أوريجن، ويوسيبيس[1] تقسيم الأناجيل المدوّنة الى ما يمكن الاعتراف به والى مشكوك فيه أو متأكد من انتحاله ووضعه. وتنتهي هذه المرحلة في سنة ٣٢٣ م تقريباً.

وأما المرحلة الثالثة، وهي مرحلة المجالس الدينية والمجامع التي أجازت الأعمال التي دونت في المرحلة الأولى والثانية. وإن الأسفار لم تتخذ وضعها المعترف به حالياً إلا بعد أن تم انعقاد المجلس الديني الذي دعا اليه الامبراطور جستنيان الثاني في القسطنطينية سنة ٦٩٢ م[2].

ورغم هذا، فقد ظل الخلاف قائماً بين المسيحيين في مسائل ذات أهمية أساسية في العقيدة كما هو بارز بين الكنيستين الشرقية والغربية.

١ ـ **عقيدة بنوّة عيسى لله وألوهيته**: ومن أوائل العقائد في النصرانية وأبرزها الاعتقاد ببنوة عيسى لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والاعتقاد بالتالي بألوهيته... أما الاعتقاد ببنوة الإنسان لله، فقد كانت معروفة من قبل لفراعنة مصر، وكذلك لبعض قياصرة الرومان وأكاسرة الفرس، أولئك الذين عاش

---

(١) اليهودية واليهودية المسيحية، فؤاد حسنين علي، ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) قاموس أكسفورد.

الكثيرون منهم وهم ينظرون الى أنفسهم على انها الآلهة وينظرون الى الناس على انهم لهم عبيد.

وقد أبرز لنا القرآن الكريم هذه الظاهرة في بعض سوره، وأخبرنا عن شيوعها في بعض فراعنه مصر، وبخاصة فرعون موسى وبعض أكاسرة الفرس وبخاصة النمروذ. وقد أفادنا القرآن الكريم بأن فرعون مصر كان يعتقد بأنه إله مصر الوحيد؛ وان النمروذ قال لإبراهيم: أنا أحيي وأميت. يقول سبحانه عن الأول: ﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادي المقدّس طوى، إذهب الى فرعون إنه طغى. فقل هل لك الى أن تزكّى، وأهديك الى ربك فتخشى، فأراه الآية الكبرى فكذّب وعصى، ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ [1] ويقول في موضع آخر: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقدْ لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطلع الى إله موسى وإني لأظنّه من الكاذبين﴾ [2].

ويقول سبحانه مخبراً عن الثاني: ﴿الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن أتاه الله الملك، إذْ قال إبراهيم ربّي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت. قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [3]. ولقد قال مجاهد معرفاً بالذي قال هذا القول: «هو نمروذ كنعان وهو أول من تجبّر وآدّعى الربوبية» [4].

ولقد روى مثل هذا عن أتباع الفيلسوف «فيثاغورس» إذْ كانوا يعتقدون

---

(١) النازعات ١٥ ـ ٢٥.
(٢) القصص ٣٨.
(٣) البقرة ٢٥٨.
(٤) الفخر الرازي ٢٣/٧.

بأنه الإله «أبولون». وأنه لم يمت. وهو يلهمهم الكشوف العلمية، ويلقّنهم أحسن العظات وأكرم الأخلاق[1] ويمكن تتبّع هذه العقيدة عند وثني اليونان وغيرهم بحيث نراها جليةواضحة عند الأمم الخالية، ونتأكد معها بأن المسيحية المرتكزة على بنوّة المسيح لله تعالى، ليست بدعاً في العقائد القديمة وإن كانت كاملة الانحراف عن العقيدة الإسلامية.

وعقيدة تأليه عيسى عليه السلام جاءت المسيحية من النص الوارد في انجيل مرقص وهو قوله: «ثم دخل كفر ناحوم أيضاً بعد أيام فسمع أنه في بيت. وللوقت اجتمع كثيرون حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب، فكان يخاطبهم بالكلمة. وجاؤوا إليه مقدمين مفلوجاً يحمله أربعة، وإذْ لم يقدروا أن يقتربوا إليه من أجل الجمع، كشفوا السقف حيث كان، وبعد ما نقبوه دلّوا السرير الذي كان المفلوج مضطجعاً عليه. فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج يا بني مغفورة لك خطاياك. وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكّرون في قلوبهم لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟ فللوقت شعر يسوع بروحه أنهم يفكـرون هكـذا في أنفسهـم فقـال لهم لماذا تفكّـرون بهذا في قلوبكم؟ ايّما أيسر أنْ يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك؟ أم أنْ يقال قم وآحمل سريرك وآمش، ولكن لكي تعلموا أن لآبن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا. قال للمفلوج لك أقول: قمْ وآحمل سريرك وآذهب إلى بيتك. فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدّام الكل حتى بهت الجميع ومجّدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط»[2].

وهذا النص يجعل يسوع رجلاً غير عادي يبرىء المفلوج ويغفر الخطايا. وإذا كان غفران الخطايا هو خاصة إلهية، فعيسى إذن إله.

---

(١) بين الإسلام والمسيحية، ص٦٨.
(٢) مرقس الاصحاح ٢: ١ - ١٢.

يضاف الى النص السابق ما ورد في أشعياء وهو: « هُوَذا عبديَ الذي أعضُدُه. مختاريَ الذي سُرّتْ به نفسي. وضعتُ روحي عليه فيُخرجُ الحق للأمم »[1].

وخلاصة هذه العقيدة ان الألوهية تكونت فيه كما ورد في انجيل يوحنا: « في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمةُ الله »[2]. ثم في موضع آخر « والكلمة صار جسداً، وحلّ بيننا ورأينا مجده مجدا، كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمةً وحقاً »[3].

ويلخص الشهرستاني المذاهب المختلفة في التجسيد الإلهي فيقول: « إنهم قضوا بتجسيد. ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام؛ فمنهم من قال أشرق على الجسد اشراق النور على الجسم المشف. ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش في الشمع. ومنهم من قال ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني. ومنهم من قال تدرع اللاهوت بالناسوت. ومنهم من قال ما زجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء والماء اللبن. وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة. قالوا: الباري تعالى جوهر واحد، يعنون به القائم بالنفس لا التحيّز والحجمية. فهو واحد بالجوهرية، ثلاثة بالاقنومية. ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها الآب والابن وروح القدس، وإنما العلم تدرّع وتجسّد دون سائر الأقانيم ».

٢ ـ **عقيدة الصلب**: يقول النصارى إن عيسى عليه السلام قد صلب حقاً، وإنه قد مات على خشبة الصليب ثم دفن. وإنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع الى السماء. وقد ورد « أيها الرجال الاسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقُوّات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مسلّماً بمشورة الله المحتومة

---

(١) أشعياء، الأصحاح ٤٢: ٩.
(٢) يوحنا، الاصحاح ١: ١.
(٣) يوحنا، الأصحاح ١: ١٤.

وعلمِه السابق، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه الذي أقامه الله ناقضاً اوجاع الموت إذْ لم يكن ممكناً أنْ يُمْسك منه »[1] وفي انجيل مرقس ورد: « فمضى به العسكر الى داخل الدار التي هي دار الولاية، وجمعوا كل الكتبة، وألبسوه أرجواناً وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه عليه. وابتدأوا يسلّمون عليه قائلين السلام يا ملك اليهود. وكانوا يضربونه على رأسه بقصبةٍ ويبصقون عليه ثم يسجدون له جاثين على ركبهم. وبعدما استهزأوا به نزعوا عنه الأرجوان وألبسوه ثيابه ثم خرجوا به ليصلبوه »[2]. وفي الاصحاح نفسه « فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح وآنشق حجاب الهيكل الى اثنين من فوق الى أسفل. ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقّاً كان هذا الإنسان ابن الله. وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد بينهنّ مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومه اللواتي أيضاً تبعنه وخدمنه حين كان في الجليل، وأخر كثيرات اللواتي صعدن معه الى أورشليم »[3]. وفيه أيضاً « وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومه حنوطاً ليأتين ويدهنّه. وباكراً جداً في أول الأسبوع أتين الى القبر إذ طلعت الشمس وكنّ يقلن فيما بينهنّ من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر. فتطلّعن ورأيْن أن الحجر قد دحرج لأنه كان عظيماً جداً. ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً عن اليمين لابساً حلّةً بيضاء فاندهشن. فقال لهن لا تندهشن. أنتنّ تطلبن يسوع الناصري المصلوب. قد قام ليس ها هنا. هوذا الموضع الذي وضعوه فيه »[4].

على أن المفيد أن نشير هنا الى ان قصة القبر هذه تختلف هنا عنها في انجيل

(١) أعمال الرسل، الأصحاح ٢: ٢٢ ـ ٢٥.
(٢) مرقس، الأصحاح ١٥: ١٦ ـ ٢٠.
(٣) مرقس، الأصحاح ١٥: ٣٧ ـ ٤١.
(٤) مرقس، الأصحاح ١٦: ١ ـ ٦.

يوحنا وفي انجيل لوقا. ولكن الروايات الانجيلية كلها متفقة على أن عيسى قد صلب وقتل ودفن ثم خرج من القبر وارتفع الى السماء.

٣ ـ **عقيدة التثليث**: من أبرز العقائد النصرانية الأساسية اعتقادهم بالتثليث أي اعتقادهم بألوهية الآب والابن والروح القدس.

ولو رجعنا الى الأناجيل الأربعة الشهيرة، لم نجد لهذا النص بهذا التعبير وجود، إلاّ في انجيل متى حيث ينسب الى عيسى قوله: « فآذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس »[1]. بل إن جميع أعمال الرسل ورسائلهم التي ألحقت بالأناجيل وصارت متمّمةً لها، لم تتحدث عن شيء من هذا المعنى. بيد أن رسائل بولس الرسول تحتوي على عبارات لاهوتية مشتبهة، قد يفهم من بعضها أن المسيح ابن الله بمعنى الولادة الفعلية لا الجسدية.

يقول: « ول ديورانت »: « وأضاف « بولس » الى اللاهوت الشعبي الموسوي بعض آراء صوفية غامضة. كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار « سفر الحكمة » و« فلسفة فيلمون ». من ذلك قول: « بولس » إن المسيح هو كلمة الله، وابن الله الأول.. وبكر كل خليقة... فإن فيه الكل... الكل به، وفيه يقول الكل... وليس هو المسيح المنتظر اليهودي الذي سينجي إسرائيل من الأسر، بل هو الكلمة التي ستنجّي الناس كلهم بموته »[2].

ويقول الدكتور شامة في كتابه بين الإسلام والمسيحية « وبولس هذا هو الذي قد عزل المسيح من اليهود وجعله مسيحاً عبر « المسيا » الذي ينتظرونه لخلاصهم، وذلك ليستطيع أن يجعل منه الإله الذي تجسّد ثم صلب من أجل خلاص العالم لا من أجل خلاص اليهود وحدهم. وبهذا يضمن لدعوته مجالاً يتحرك بها فيه في

---

(١) متى، الأصحاح ٢٨: ١٩.

(٢) قصة الحضارة ٢٦٦/١١.

الامبراطورية الرومانية بين اليهود والشعوب الخاضعة لدولتهم ويفسح المجال أيضاً لأمل اليهود في مسيح منتظر بعد يسوع الذي « صلبوه ».

وقد آعتمد مؤتمر « نيقية » على أقوال: « بولس » هذا وآتخذ قراره من طبيعة المسيح. وخلاصة ذلك انه في سنة ثلاثمئة وخمس وعشرين ميلادية اجتمع المؤتمر المسكوني في « نيقية » بأمر الملك قسطنطين الكبير. وقد حضر هذا المؤتمر ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً من أنحاء العالم ومختلف الطوائف المسيحية. وكانت المسألة الوحيدة التي ناقشها هي طبيعة المسيح وذلك بعد ان قرر « آريوس » ان طبيعته هي طبيعة بشرية وانه مخلوق.

ويروي سعيد بن البطريق، بطريق الاسكندرية، في تاريخه « نظم الجواهر » مقالة « آريوس » هذه وما كان حولها فيقول: « إنه كان في الإسكندرية رجل يقال له: « آريوس » يقول إنّ الأب وحده هو الله الفرد، والابن مخلوق مصنوع. وقد كان الأب إذْ لم يكن الابن... وبعد بعث قسطنطين الملك الى جميع البلدان فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع في مدينة « نيقية » ألفان وثمانمئة وأربعون أسقفاً كانوا مختلفي الآراء... فكان منهم من يقول: « المسيح ومريم إلآهان من دون الله وهم المريمانيّة.. ومنهم من كان يقول: المسيح من الأب بمنزله شعلة من نار تخلّقت من شعلة من نار، فلم تنتقص الأولى لإيقاد الثانية منها. وهي مقالة « سباريون » وأتباعه. ومنهم من كان يقول « لم تحمل مريم لتسعة أشهر، وإنما مرّ نور في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة « إليان » واتباعه. ومنهم من يقول « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحدٍ منا. وان ابتداء الابن من مريم. وانه آصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي صحبته النعمة الإلهية فحلّت فيه المحبّة والمشيئة. فلذلك سمّي ابن الله. ويقول إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد يسمّونه بثلاثة أسماء. ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس. وهي مقالة « بولس الشمشاطي » بطريق انطاكية واتباعه.. ومنهم من يقول « بثلاثة آلهة، صالح وطالح وعدل

بينهما. وهي مقالة « مرقيون » وأتباعه. ومنهم من كان يقول « ربنا هو المسيح وتلك هي مقالة « بولس الرسول ومقالة الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً »..

فلما سمع قسطنطين مقالاتهم عجب منها، فأخلى لهم داراً وأكرمهم واستضافهم وأمرهم بأن يتناظروا فيما بينهم لينظر من هو صاحب الحق فيتّبعه. فاتفق منهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً على دين واحد ورأي واحد، فناظروا بقية الأساقفة فأفلجوا عليهم حججهم، وأظهروا « الدين المستقيم » وكان القرار التالي: « نؤمن برب واحد، وأب واحد. ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وكل ما يرى وما لا يرى. نؤمن برب واحد يسوع ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور من نور، إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق. مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كل شيء. هذا هو الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا نزل من السماء وتجسّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس [أي صار إنساناً] وصلب على عهد « بيلاطس » وتألم وقبر، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث، كما كتب في الكتب وصعد الى السماء وجلس على يمين الرب. وايضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء.. ».

ويظهر جلياً في هذا القرار، النص على وجوب الايمان بالآب والابن فقط. أما الروح القدس، فإنه لم يرد له ذكر فيه، ولم يأخذ منزلته حينذاك التي هي معروفة الآن لدى الكنيسة المسيحية. ولقد ظل الأمر كذلك حتى عام ثلاثمئة وواحد وثمانين ميلادية حيث أمر الملك « تيتودوسيوس » الكبير بعقد مجمع مقدس في مدينة « القسطنطينية » للنظر في مقولة « مكونيوس » بطريرك القسطنطينية، وهي أن الروح القدس مخلوق كسائر المخلوقات.

وقد التقى في هذا المجمع مئة وخمسون أسقفاً يمثلون جميع الهيئات المسيحية وكان من بينهم « تيموتاوس » بطريرك الاسكندرية الذي كان رئيساً له. وانتهى المجمع بإدانة « مكونيوس » ومن كان على رأيه من الأساقفة. وأيّد قرار مجمع

« نيقية » وأضاف عليه نصّاً جديداً يتعلق بالروح القدس. وكان النص ما يلي: « نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب، نسجد له ونمجّده مع الأب والابن الناطق في الأنبياء وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. ونعترف بمعموديّة واحدة لمغفرة الخطايا. وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي آمين »[1].. وهكذا ينجلي لنا أصل تكون عقيدة التثليث عند النصارى...

تاريخ عقيدة التثليث: ويفضي بنا البحث هنا حتماً الى الكلام عن أصول هذه العقيدة وجذورها وذلك، بتتبع حنايا تاريخها القديم. حيث نرى بعض المفكرين يرجعون بها الى ظاهرة عبادة الأبطال التي مورست في فجر التاريخ ولا تزال بقاياها حتى هذه الأيام.. وخلاصتها: أن الجماهير في التاريخ القديم كانت تعبد البطل لعمل رائع يقوم به. حتى اذا ما تزوج آحتلت زوجته معه مكان الألوهية. فإذا أنجبا ولداً أو أكثر عيّنا أحد أبنائهما ليتولى مكانة الأب فيما بعد، فتسجد لهم الجماهير.. وهكذا يكون الثالوث[2]... وهكذا أصبح الثالوث مشهوراً لدى كل الأمم... ظهر في البابليين، ولدى الهنود الذين كانوا يقولون « براهما » إله واحد وذو ثلاثة أقانيم. فهو « براهما » من حيث هو موجود، وهو « فشنو » من حيث هو حافظ. وهو « سيفا » من حيث هو مهلك[3].. وكذلك ظهر في مدرسة الاسكندرية[4].

بل لقد توسع هذا التثليث فأصبح تعدداً للآلهة مطلقاً كما عرفه المصريون قديماً والاشوريون والبابليون والصينيون والهنود واليونان وعلى اختلافٍ في عدد الآلهة[5].

---

(١) **هداية الحيارى لابن القيم**، ص ١٧٤ وما بعدها. والجواب الصحيح لابن تيمية، ٣/١٥، وبين الإسلام والمسيحية، ص ١٩ وما بعدها.

(٢) **الأبطال وعبادة البطولة**، لكارليل.

(٣) **أديان الهند الكبرى**، للدكتور أحمد شلبي، ص ٤٨.

(٤) **المسيحية**، للدكتور أحمد شلبي، ص ١٣٢.

(٥) **تاريخ الفلسفة**، للدكتور إبراهيم مذكور، ص ٦ وما بعدها.

الأفلاطونية الحديثة: ويجرفنا هذا التأصيل حتى يصل بنا الى فلسفة أفلوطين الذي ظهر ما بين ٢٠٥ ـ ٢٧٠ م، والذي حاول تجديد فلسفة أفلاطون. وكانت نظريته أنه يوجد «الواحد» أو «الأول» وهو جوهر كامل فيّاض، فيفيض عنه غيره وهو «العقل» وهو شبيه به وهو أيضاً مبدأ الوجود. وهو بدوره يفيض فيصدر عنه «النفس» وهي صورة منه وتفيض النفس فيصدر عنها الكواكب والبشر. وباختصار يتحقق الثالوث الذي هو ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة، والثلاثة هي «الواحد ـ العقل ـ النفس»[١].

ولا ريب انه عندما ظهرت المسيحية وصادمها اليهود المصادمة المشهورة، كانت للوثنية إذ ذاك جذور عريقة في سورية ومصر ومنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وكانت الفلسفة الاغريقيـة منتشرة، وذات مـدارس. وبـولس الرسول كان في الأصل عدواً لدوداً للمسيحية، وكان ملمّاً بالثقافة الشائعة في عصره وبفلسفاتها...

يقول القس بولس سباط: في التعريف بالثالوث: «يرى النصارى أن الباري تعالى جوهر واحد موصوف بصفات الكمال. وله ثلاث خواص ذاتية كشف عنها القناع المسيح وهي: الآب، والابن وروح القدس. ويشيرون بالجوهر الى الأب الذي يسمونه الباري تعالى ذا العقل المجرّد، وبالجوهر نفسه الى الابن الذي يسمونه ذا العقل العاقل ذاته، وبالجوهر عينه الى الروح القدس الذي يسمّونه ذا العقل المعقول من ذاته، ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنياً عن الظرف[٢].

٤ ـ **الخطيئة والخلاص**: تثبت كل الكتب السماوية خطيئة آدم عليه السلام. وخلاصتها كما روى أن الله تعالى أسكن آدم بعد أن خلقه مع زوجته حواء الجنة، وتركهما فيها، وأمرهما بأن يأكلا منها رغداً حيث يشاءان. ولكنه نهاهما عن أن

---

(١) **تاريخ الفلسفة**، للدكتور إبراهيم مدكور، ص ٦٥.

(٢) **المسيحية**، للدكتور شلبي، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

يقربا شجرة مخصوصة، وأن يأكلا منها. وعلل لهما النهي بأنهما إن أكلا منها فسيكونان من الظالمين. وتروي التوراة هذه القصة فتقول: « أكلت [حواء] وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل.. فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فاكلت »[1].

والقصة الكاملة للخطيئة هي كما يلي في التوراة: « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البريّة التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة. من ثمر شجر الجنّة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلاّ تموتا. فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا، بل الله عالم انه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيِّدة للأكل وانها بهجة للعيون وأن الشجرة شهيّة للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ».

« وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فآختبأ آدم وآمرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنّة، فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فآختبأت، فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك الا تأكل منها. فقال آدم المرأة التي بعثتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة الحيّة غرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحيّة لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة. على بطنك تَسْعَين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. وهو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة تكثيراً أكثّر أتعاب حَبَلك، بالوجع تلدين أولاداً. والى رجلك يكون آشتياقك وهو يسود

(١) سفر التكوين، الأصحاح (٣).

عليك وقال لآدم لأنك سمعت لقول آمرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعون الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب والى تراب تعود »[1] .

وتثبت هذه القصة كما هو واضح ، ان الله تعالى نهى آدم وحواء من الأكل من الشجرة بعد أن أسكنهما الجنّة . وانهما عصيا نهي الله تعالى فأكلا منها . كما تثبت أن حواء هي التي أكلت أولاً ، وانها هي التي قامت بإغراء آدم حتى حملته على الاقتناع ثم الأكل من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها ، وبذلك تجعل حواء المسئولة الأولى عن خطيئة الأكل من الشجرة . ولكنها تكتفي بتحميل آدم وحواء وزر خطيئتهما هذه ولا تتعرض مطلقاً لذريتهما ومسئوليتهم فيها . فمن أين جاءت فكرة الفداء والخلاص ؟!!

يقول بولس في رسالته الى رومية : « وبرّ الله بالايمان بيسوع المسيح الى كلّ وعلى كلّ الذين يؤمنون لأنه لا فرق . إذْ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله متبرّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدّمه الله كفّارة بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة » .

وهذا القول من بولس مع خلو التوراة من المعنى الذي يتضمّنه يدل على انه من استنباطه وإدراكه الذاتي . وهذا القول من بولس جعل المسيحيين يعتقدون ان قتل المسيح كان فداء للبشرية مما وقعت فيه من اثم أو خطيئة ... هذه الخطيئة التي جرت في دمائها وراثة فأصبحت فيها فطرة منذ عهد آدم عليه السلام . ويدل على هذا قول بولس بالذات الى أهل رومية : « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية الى العالم . وبالخطية الموت . وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس إذْ أخطأ الجميع . فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم . على أنَّ الخطية لا تحسب

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح ٣ : ١ ـ ١٩ .

إن لم يكن ناموس ، لكن قد ملك الموت من آدم الى موسى . وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدّي آدم الذي هو مثال الآتي[1] .

ومن هذا الكلام يفهم أن العقيدة المسيحية تذهب الى الدينونة بأن الخطيئة إذا صدرت من الإنسان لم يكفّرْها غير الله . ويسوع الإبن والإله قد وجد على وجه الأرض ، فيما يعتقد المسيحيون ليكفر الخطايا البشرية . فكان صلبه وقتله ودماؤه المسفوحة لفداء الناس وتكفير خطاياهم وتحريرهم من جرثومتها .

ولكن التساؤل يبقى وارداً دونما حصر ، لماذا لم يكن هذا الفداء في بداية الخليقة ؟ أو لماذا لم يكن في آخرها ليتحقق الشمول المطلوب في الفداء والتكفير ؟ ! ولماذا يكون على هذا القرار فيقدّم الابن الإله نفسه فداء ويتحمل العذاب والذل والصغار ، ولا يكفي نفسه مؤنه ذلك والبشرية أيضاً إذْ يصدر عفوه المبدئي من اليوم الأول ليشمل كل الناس دون أن يصيبه هو من ذلك نصب أو وصَب أو شوك وهوان ؟ ! . .

يجيب على هذا كثير من علماء اللاهوت إجابات كثيرة نقتبس بعضها هنا وهو جواب الاب بولس إلياس الذي يقول : « مما لا ريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدي البشر ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوي . لكنه أبى إلا أن يتألم . ليس لأنه مريض يتعشق الألم . ولا لأن أباه ظالم يطرب لمرأى الدماء ، وأية دماء ، دماء ابنه الوحيد . وما كان الله بسافح ظلوم . لكنه الله الابن شاء مع الله الأب أن يعطي الناس أمثولة خالدة من المحبة تبقى على الدهر ، وتحركهم على الندامة على ما آقترفوه من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة[2] .

وعلى كل حال فالذي يبدو أن تكفير الخطيئة بالفداء الذي قدمه يسوع بذاته

---

(1) رسالة بولس إلى أهل رومية ، الأصحاح ٥ : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) السيحية ، الدكتور شلبي ، ص ١٦ .

ليس هو وحده بكاف، ولذلك فإنه لا بدّ في معتقدهم من مداومة الصلاة واطلاق الدعاء التالي «أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمك. ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، وآغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا. ولا تدخلنا في تجربة. لكن نجّنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد آمين[1].

وأياً كان الأمر فهذه أهم المعتقدات الدينية المسيحية، وإن لم تحظ باذعانهم جميعاً، حيث لقيت المعارضة من البعض بشدة حتى درجة الرفض، أو باعتدال من البعض الآخر في العصر القديم والحديث. ولعل من المناسب في هذا المجال الإشارة أيضاً الى أن البعض منهم يضيف الى تلك المعتقدات معتقدات أخرى نذكر منها على سبيل المثال تأليه العذراء...

٥ ـ **أركان المسيحية الخمسة**: وقد اصطفت المسيحية لنفسها خمسة أركان أصيلة أوْجبتها على كل من يرغب اعتناقها والدخول في جماعتها وهي:

أ ـ **الغطاس**: لقد جعلت كل كنيسة فيها حوضاً يملؤه القسيس ماءً ويتلو عليه بعض كلمات الانجيل. ويلقي فيه شيئاً من الملح ودهن البلسان. فإذا شاء أحد اعتناق النصرانية، حضّر في احتفال عام وقرأ عليه القسيس مبادىء المسيحية. ثم يسأله هل آمنت بهذا كله؟ فإن وافق أخذ القسيس قليلاً من هذا الماء وسكبه عليه وهو يقول له: وأنا أغطسك باسم الاب والابن والروح القدس، ثم يمسح الماء عنه بمنديل وبذلك يصبح مسيحياً.

أما أولاد المسيحيين، فيقام لهم هذا الاحتفال في اليوم الثامن من ولادتهم ويجيب أب الطفل في هذه الحالة القسيس على الأسئلة التي يسألها.

---

(١) متى، الأصحاح ٦: ٩ ـ ١٣.

ب: الاعتقاد بالتثليث.

جـ: الاعتقاد بأن أقنوم الابن قد التحم بعيسى وهو في بطن أمه مريم:

د: الاعتقاد بالقربان: وهو الاعتقاد بأن فطيرة من خبز تتحوّل بعد أن يقرأ عليها القسيس طرفاً من الانجيل، أو بعض كلماته، الى جسد المسيح. كما انه اذا قرأ على شراب الخمر مثل ذلك يتحوّل الى دم المسيح. وتجري هذه الطقوس في الكنيسة. فبعد أن يتم صنع الفطيرة، يأمر القسيس بضرب ناقوس الكنيسة فيأتي المسيحيون، ويقفون صفاً، ثم يتقدم القسيس أمام الصفوف ويستقبل المشرق ويقوم ببعض الطقوس، ثم يأكلون الفطيرة على انها جسد المسيح ويشربون الخمر على انه دم المسيح تأسّياً به كما فعل هو بالذات ليلة القبض عليه كما يعتقدون. وهذا ما يسمونه العشاء الربّاني. وبفعله يقع امتزاج بين الآكل وبين المسيح وتعاليمه[1].

هـ ـ الاعتراف أو الاقرار بجميع الذنوب للقسيس: وذلك أن كل مسيحي يعتقد بأنه لا سبيل له الى دخول الجنة إلا إذا غفرت ذنوبه، ومن وسائل غفرانها الاقرار والاعتراف بها أمام القسيس. فالقسيس ومن يعلوه من أصحاب الرتب الكنسية يملكون قبول التوبة ومسح السيئات والاعفاء منها.

هذه بالاجمال هي أهم عقائد النصارى التي اتفقوا عليها واتفقوا على آنه لا يتم لهم عيد ولا قربان الا بها.

ومع ذلك فإنه يضاف الى هذه عقائد أخرى بارزة وذات تأثير فعال في حياة كل نصراني نورد منها:

١ ـ تقديس الصليب وحمله؛ فإنه من مطالعة انجيل لوقا يتبيّن أن المسيح قد طلب ممن أراد أن يتبعه، أن ينكر نفسه ويحمل صليبه ثم يتبعه. وذلك كان منه قبل

---

(١) وحدة الدين والفلسفة والعلم للسيد محمود أبو الفيض ١٣٢.

أن تقع له حادثة الصلب التي روتها الأناجيل حسب اعتقاد النصارى اليوم. فقد ورد في الاصحاح ٢٣/٩ قوله: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني».

ويرمز شعار حمل الصليب هذا الى معنى الاستهانة بالحياة والاستعداد للموت حتى ولو كان في أقسى حالاته وأفظع ظروفه وأبشع صوره. وأصلها كما يبدو ما كانت تفرضه النظم الرومانية على الذين يصدر بحقهم الحكم بالإعدام صلباً، اذ كانت تفرض عليهم حمل الصليب، دلالة على صدور الحكم عليهم بالصلب.

٢ ـ **الاعتقاد بعموم رسالة عيسى عليه السلام**: يذهب أكثر آباء الكنيسة اليوم الى أن رسالة عيسى عليه السلام عامة الى الناس جميعاً. استنباطاً من النص الوارد في الانجيل والمتضمن أمر عيسى عليه السلام لحواريه قبل أن يرفع على الصليب، حسب اعتقادهم، بأن ينشروا دعوته على جميع الأمم وفي كل الآفاق. وقد ورد في انجيل متى ٢٨: ١٨ ـ ١٩ ما نصه: «فتقدّم يسوع وكلّمهم قائلاً دفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاّذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وورد مثل هذا النص في انجيل مرقس ١٦ ـ ١٥ «وقال لهم اذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها».

٣ ـ **المراتب الكهنوتية**: وقد أنشأ النصارى لهم على تقلب الزمن بعد عيسى عليه السلام، بقصد حفظ عقائدهم وتعزيز تماسك جماعتهم وحمايتها من خطر الأعداء كهنوتاً شبه مقدس وجعلوا له مراتب وألقاباً متدرجة حسبما يلي:

١ ـ شماس ٢ ـ قسيس ٣ ـ أسقف
٤ ـ مطران ٥ ـ بطريق ٦ ـ بابا

ويعتقد غالب النصارى أن الله تعالى قد جعل في أيدي المطارين ما لم يجعله في أيدي أحد. وذلك لأن ما يفعلونه هم في الأرض يفعله الله في السماء. فإذا أذنب النصراني فإن المطران هو الذي يقبل توبته ويعفو عن سيئته. ذلك لأن بيده بالجملة

صلاح الاحياء وصلاح الأموات[1].

ولقد ثبت بأن المجامع الدينية التي كانت تنعقد في تاريخ النصرانية، منحت البابا امتيازات كثيرة، وملكته سلطات دينية هامة رفعت مقامه وأعلت منزلته حتى نال مرتبة غفران الذنوب لكل الرعايا. وبخاصة ما كان في مجمع روما المنعقد سنة ألف ومئتين وخمس عشرة ميلادية، الذي قرر أن الكنيسة البابوية تملك حق غفران الذنوب، كما تملك الحق بأن تمنحه لمن تشاء.

والذي يملك حق الغفران، يكون من حقه أن يملك حق الحرمان. وقد باشر رجال الدين في الكنيسة مع دوران الدهر هذه السلطة وتوسعوا فيها، حتى وصلوا الى درجة بيع صكوك الغفران، واصدار قرارات الحرمان بحق الرعايا من أيّة طبقة كانوا حتى ولو كانوا من العظماء بل والملوك؟؟

وقد تهيّب الناس هذا الحق وهذه السلطة، وجعلوا يتحركون بجد للخروج من هيمنتها؛ فكان البعض منهم يشتري راحته وطمأنينته الروحية بالمال اذا كان مذنباً، فيدفع منه ما يطلب إليه مقابل الحصول على صك المغفرة.

ومستند الآباء الكنسيين في امتلاكهم حق الغفران والحرمان هو النص الوارد في إنجيل يوحنا « من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت »[2].

٤ ـ **الرهبنة**: ويتصل بالحديث عن المراتب الكنسية وسر الاعتراف الحديث عن الرهبنة عند النصارى، والعزوف عن متاع الحياة الدنيا وزينتها. ولا بد لنا قبل توضيح مفهومها وحدودها، من أن نلمّ بظروف انتشارها فيهم حتى أصبحت شعاراً من شعارات النصرانية. يقول بعض كتاب النصرانية: « إن الرهبنة هذه قد تسربت الى نفوس النصارى بعد أن رأى الكثيرون منهم ما كان يعانيه المتقدّمون

---

(١) بين الإسلام والمسيحية، ص ٩٦.

(٢) يوحنا ٢٠: ٢٢.

منهم من العنت والبلاء والعذاب من أعدائهم ومدى ما كانوا عليه من الصبر والتحمل والتضحية، في ظل الحكم الروماني. فإنهم في بداية عهد الحريّة لم يتمالكوا أنفسهم من التحسر على أولئك، ومن الشعور بالأسى لما فاتهم من آقتحام ميادين التضحية وسفك الدم فداء لعقيدتهم، فقرّروا أن يضحّوا بمتعهم وبراحتهم، فلجأوا الى العزلة في أعالي الجبال وأغوار الوديان، حيث يبتعدون عن صخب الحياة ويعيشون عيش الكفاف والحرمان من أطايب الدنيا ولذائذها، مترهبين متعبّدين مُتبتلين عاكفين على الفكر والتأمل والاتصال بملكوت السماء.

ويقول البعض الآخر إن سبب ظهور نزعة الرهبنة هذه في النصارى، هو أنهم رأوا السيد المسيح سبّاقاً اليها حيث كان محتقراً للمال، عازفاً عن متع الجسد ولذائذ الحياة، متفرّغاً لدعوته وعبادته، وبخاصة وأنه هو الذي ينسب إليه قوله: «إن أردت أن تكون كاملاً فآذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال وآتبعني» وقوله: «من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقّني. ومن أحب ابناً أو ابنة فلا يستحقني. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني ومن أضاع حياته من أجلي سوف يجدها» وقوله: «من ترك بيوتاً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية» وقد عاش عليه السلام كل أيامه كما ينسبونه له، فقيراً زاهداً متقشفاً متحملاً آلام الحرمان.

وأيّاً ما كان سبب ظهور هذه النزعة في النصرانية، فإنّنا نجد في نصوص الأناجيل الكثير منها مما يشجع عليها ويبرّر السلوك في طريقها...

ولئن كانت نزعة الرهبانية نزعة فردية في الابتداء، يلجأ الى تطبيقها من شاء كيفما يشاء وكما يروق له فيلوذ بأعماق الصحارى أو قمم الجبال ومجاهل سفوحها أو وديانها بعداً عن الناس وفراراً بالدين من إغراءاتهم ومفاتن أساليب معاشهم، فقد تطورت فيما بعد مع الزمن وأصبحت خاضعة الى أنظمة متبعة وأسس معتمدة يخضع لها الراغب فيها، وأصبح الرهبان يعيشون في شبه قلاع وحصون عيشاً جماعياً فقد الكثير من المعاني والأهداف التي وجدت الرهبانية من أجلها...

وعلى كل حال فالرهبانية قائمة، والآخذون بها، مهما كانت ظروفهم، ومهما كان سلوكهم موجودون في أديرة كثيرة منتشرة في بقاع الأرض، في الشرق والغرب. والرهبانية هذه صارت نظاماً خاصاً وسلوكاً متّبعاً يلجأ الى تطبيقه على نفسه الكثيرون من الرجال والنساء.

ولعلنا بهذا القدر من الحديث عن معتقدات النصرانية نكون قد ألممنا بأبرزها وأمهاتها تاركين جانباً ما هو بارز بينهم من خلافات فيها. وأصبح من المطلوب استعراض بعض ما أخذت به النصرانية من الشرائع والأحكام..

الفصل السادس

التشريع في الأناجيل

١ ـ مقدمة
٢ ـ الصلاة عند النصارى
٣ ـ الصوم عند النصارى
٤ ـ محبة الله ومحبة الانسان
٥ ـ التواضع ومغفرة الزلآت
٦ ـ الزواج والطلاق

مقدّمة: لو تتبعنا نصوص الأناجيل الأربعة، إنجيل متى، وانجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا لرأينا أنها تتناول باختصار شديد خبر مولد عيسى عليه السلام وبعض أفراد عائلته وأمه بالذات، وقصصاً من ظروف مواعظه وتنقلاته في الجليل ومنها الى أورشليم وغيرها. وهي خلال ذلك تعرض بعضاً من معجزاته التي كان بها يشفي المرضى من البرص والبكم والعمي والكُمه والذين تلبّستهم الشياطين والمجانين، وبعضاً من معجزاته التي أحيى بها الموتى وأخبر بالمغيبات وخرق بعض العادات والسنن الكونية..

ونجد في هذه الأناجيل أيضاً عرضاً لبعض وقائعه عليه السلام مع الناس، وما كان يتخللها من أحاديث ومواعظ وأمثال وحكم، وأخبار بعض المعارضين والمشاكسين له والكافرين به، وبعض أوامره ونواهيه وارشاداته في السلوك الدنيوي والتحضّر لليوم الآخر. ونجد وصفاً لحاله وللأوضاع التي كانت تحيط به، وبخاصة ساعة تمكنت السلطة من القبض عليه حسب اعتقاد النصارى وسوقه للمحاكمة، ثم ما دار في هذه المحاكمة بينه وبين القضاة والحاكم، ثم الحكم عليه بالموت صلباً، وطريقة صلبه، وما رافقه من وسائل الاستهزاء والتنكيل به...

ونلحظ جلياً أن هذه الأناجيل خلت من النصوص التشريعية التي تتناول تنظيم حياة الفرد والجماعة فتحدد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان أباً أو أمّاً أو ابناً أو بنتاً أو زوجة أو زوجاً أو أخاً أو أختاً أو غير ذلك كما تحدد علاقة الفرد بالجماعة،

وعلاقة الفرد بالله، وحقوق الفرد وواجباته وحقوق الجماعة وواجباتها، اللهم في حدود الأسرة وبشكل ضيق جداً...

والكثيرون ممن كتبوا في النصرانية يقولون إن السبب في ذلك يعود الى أن النصرانية في الأساس جاءت لتكمل ما جاء به موسى مع الالتزام، بما جاء به اللهم إلا بما أدخلته عليه من تعديل وتطوير بنص ثابت جاء به المسيح عليه السلام. وهكذا فقد كانت التوراة وما تحمله من نصوص وحدود وأوامر ونواه، شريعة كاملة للنصارى لا يجوز لهم الخروج عليها ولا التهاون في أدائها..

ويؤكد هذا أن أتباع المسيح وتلامذته من بعده ظلوا يلتزمون بهذا النهج، ويتقيّدون بكل ما ورد في التوراة من نصوص على آعتبار أنهم مخاطبون بها، وبخاصة وأن المسيح عليه السلام قد طبقها في حياته والتزم بالخضوع لها.. ولكنهم لم يستمروا على ذلك طويلاً، فإنه ما أن مضى على ارتفاع المسيح اثنتان وعشرون سنة حتى اجتمع البارزون منهم وخطب فيهم يعقوب مقترحاً عليهم حصر المحرمات في أربعة أمور: الزنى وأكل المخنوق، والدم وما ذبح للأوثان.

ويفسر بعض المؤرخين سبب صدور هذا الاقتراح من يعقوب، هو أن الناس كانوا رغم رغبتهم في اعتناق النصرانية يتحرّجون من عملية الختان، فكان في نظر كبارهم أنه لا بد من التيسير على الناس لتسهيل خطى الاقبال على النصرانية واعتناقها.. ومن أجل هذا أغفلوا عملية الختان ولم يدرجوها في الواجبات، وتركوا للناس الحريّة فيها، فمن شاء اختتن ومن لم يشأ لم يختتن. وقد ورد في الاصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال ما نصه: «حينئذ رأى الرسل والمشايخ، أن يختاروا رجلين منهم فيرسلوهما الى أنطاكية مع بولس وبرنابا، وهما يهوذا المسمى برْسابا وسيلا، رجلان متقدّمان في الأخوّة وكتاباً على أيديهم هكذا: من الرسل والكهنة والأخوة الى الأخوة الذين في الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية السلام. قد سمعنا أن قوماً منا خرجوا وأقلقوكم بأقوال مقلّبين أنفسكم ونحن لم نأمرهم

بذلك. فلذلك رأينا نحن المجتمعين بنفس واحدة أن نختار رجلين فنبعثهما إليكم مع حبيبنا برنابا وبولس اللذين قد أسلما أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح، فبعثنا يهوذا وسيلا اللذين يخبرانكم بهذه الأمور مشافهة، لأنه قد رأى الروح القدس ونحن، ألا نضع عليكم ثقلاً فوق هذه الأشياء التي لا بدّ منها، وهي أن تمتنعوا مما ذبح للأصنام. ومن الدم. والمخنوق والزنى، فإذا صنتم أنفسكم من هذا أحسنتم فيما فعلتم كونوا معافين».

وبهذا النص، يجيز المجتمعون لأنفسهم تحليل كلّ ما حرّمه الناموس، أي التوراة، وكل ما حرمته كتب النبيين السابقين، ويبيحون ذلك للناس أيضاً، ولا يجعلون محرّماً عليهم إلا الأمور الأربعة التي ذكرناها...

وبهذا النص أيضاً صار مباحاً للناس شرب الخمرة وأكل لحم الخنزير وأكل الربا وكل ما كانت التوراة والشرائع السابقة قد حرّمته من قبل، وذلك بالهام كما يقولون من الروح القدس.

وكأن المجتمعين كانوا ينظرون الى أنفسهم على أنه تنزل عليهم الروح القدس، كما تنزّل من قبل على الأنبياء والرسل. بدليل أن بولس يتكلم في مفتتح هذا الاجتماع فيقول كما هو وارد في الاصحاح المذكور آنفاً: «أيها الرجال الإخوة، أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة آختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الانجيل ويؤمنون. والله العارف للقلوب شهد لهم معطياً لهم روح القدس كما لنا أيضاً، ولم يميّز بيننا وبينهم بشيء إذْ طهّر بالإيمان قلوبهم فالآن لماذا تجرّبون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله؟ ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أنْ نَخْلُص كما أولئك أيضاً».

وهكذا فقد كان هؤلاء المجتمعون الذين بلغ عددهم مئة وعشرين يعتقدون بأنهم قد بلغوا ذروة تجلّي روح القدس عليهم، ودرجة امتلاك القرار بالحظر والاباحة. فكان منهم ما كان حسما رأينا.

١ ـ **الصلاة عند النصارى**: وإن من أهم العبادات في النصرانية الصلاة والصوم. والصلاة عندهم هي ركن من أركان الدين يقرّبهم الى الله عن طريق المسيح. وهي عندهم لا تتحقق إلا بشرطين: الأول أن تقدّم باسم المسيح. والثاني أن تكون مسبوقة بالإيمان الكامل بمبادىء النصرانية. وفي الشرط الأول ورد في الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا « الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الأب باسمي يعطيكم » وجاء في الشرط الثاني في الاصحاح الحادي عشر من إنجيل مرقس: « لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلّون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم ».

والصلاة في النصرانية ليست مرهونة بأشكال أو حركات أو أقوال مخصوصة. وهي أيضاً ليست مفروضاً فيها قراءة آيات محدّدة من الانجيل. ولا أن يكون القائم بها ملتزماً بشيء من الطهارة في الثوب أو الجسم أو المكان. فلا يفرض عليهم الاغتسال من الجنابة. ولا الإستبراء من البول والغائط ولا الوضوء، كما لا يفرض على النساء الطهارة من الحيض والاستحاضة والنفاس اضافة لما سبق. وكل ما فيها انها صلاة يفرض فيها الا تخرج عن القاعدة التي علمهم المسيح إياها، تاركاً لهم مشيئة آختيار العبارات التي تحلو لهم ويرتاحون اليها. وهي الصلاة التي نص عليها الاصحاح الحادي عشر من انجيل يوحنا، فقد ورد فيه أن المسيح: « وإذ كان يصلي في موضع، لما فرغ قال واحد من تلاميذه: « يا رب علمنا أن نصلّي كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه، فقال لهم متى صلّيتم فقولوا: « أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب الينا، ولا تدخلنا في تجربة، ولكن نجّنا من الشر ».

والصلاة في النصرانية، ليست ذات أوقات يجب أداؤها فيها، بل هي موكولة الى رغبة المصلين واستعدادهم. ومع ذلك فقد استنبطوا أنها لازمة في الصباح والمساء، أخذاً من صلاة اليهود، ولكنهم استحسنوا الإكثار منها مخالفة لهم.

وكثيراً ما تكون سبع صلوات في اليوم والليلة. وهي صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ومنتصف الليل[1].

٢ ـ الصوم عند النصارى: لما بعث يسوع عليه السلام كان اليهود يصومون ثلاثين يوماً تقريباً في السنة. وكانت هذه الأيام موزعة على مدار أشهر السنة. يضاف الى هذا ما كان مجلس الكهنة يفرضه من أيام للصوم لمناسبات يرى الصوم فيها. مثل صوم ثلاثة أيام للاستسقاء اذا تأخر المطر. ومثل الصوم قبل الخوض في حرب من الحروب، وعند وفاة ملك، أو لتجنب كارثة وغير ذلك[2].

أما المسيح وتلاميذه فما زالوا الى أن فارقوا الحياة الدنيا، يصومون صوم اليهود ويفصحون فصحهم ويلتزمون بشرائعهم، الى أن بدّل من جاء بعدهم ذلك وجعلوا مكان السبت الأحد، وأحدثوا صوماً آخر بعد أزيد من مئة عام حسبما جاء في عبارة ابن حزم[3].

وليس في الأناجيل التي بين أيدينا اليوم نص صريح في فريضة الصوم على النصارى، وإن كان فيها ذكره ومدحه واعتباره عبادة كالنهي عن الرياء وإظهار الكآبة فيه، كما أنها فيها أمر الصائم بدهن الرأس وغسل الوجه حتى لا تظهر عليه امارة الصوم فيكون مرائياً كالفرّيسيين[4].

ويقول الفخر الرازي «أما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحرّ الشديد فحوّلوه الى وقت لا يتغيّر. ثم قالوا عند التحويل نزيد فيه فزادوا عشراً. ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فنذر سبعاً فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم

---

(١) المسيحية، الدكتور شلبي ٢٣٣، ومحاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ١٣٤.

(٢) أتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، لابن حجر، ص ٣٠ ـ ٣٣.

(٣) الفصل في الملل والنحل ٢/٢٣.

(٤) تفسير المنار ٢/١٤٤.

ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وهذا مروي عن الحسن (وثانيها) أنّهم أخذوا بالوثيقة زماناً فصاموا قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً ثم لم يزل الأخير يستسنّ بسنّة القرن الذي قبله حتى صاروا الى خمسين يوماً. ولهذا كره صوم يوم الشك. وهو مروي عن الشعبي»[1].

وقد نقل بعض العلماء أن المسيح عليه السلام صام في مستهلّ حياته أربعين يوماً وأربعين ليلة في الصحراء وهو ثابت في انجيل متى[2].

والأناجيل والأسفار مليئة بذكر الصوم وأسبابه ومناسباته. ففي سفر أشعيا الاصحاح الثامن والخمسون: «يقولون لماذا صمنا ولم ننظر. ذلّلنا أنفسنا ولم نلاحظ. ها انّكم في يوم صومكم توجدون مسرّة وبكل أشغالكم تسخّرون. ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون وَلِتَضْربوا بلكمة الشرّ لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم في العلاء. أمثل هذا يكون صوم أختاره، يوماً يذلّل الإنسان فيه نفسه، يحني كالأَسَلَة رأسه ويفرش تحته مِسحاً ورماداً. هل تُسَمّي هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب».

وفي سفر صموئيل الاصحاح الثاني «ولكن الآن يقول الرب ارجعوا اليَّ بقلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح. ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلٰهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة... قدّسوا صوماً نادوا باعتكاف.

وورد في انجيل متى الاصحاح السادس ص ١١: «وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية».

وفيه أيضاً الاصحاح السابع عشر: «لما رأى عيسى فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٧٤/٥.

(٢) متى: ٢/٤.

بيد أنه لما كان المسيح قد صام في مستهل حياته أربعين يوماً، فقد شرعت الكنيسة فيما بعد الصوم الأربعيني الذي يسبق عيد الفصح[1].

والمسيحيون لم يحتفظوا بأي صوم من أيام صوم اليهود. ولذلك فقد غيروا وبدلوا صوم يوم الاثنين والخميس الى صوم يوم الأربعاء والجمعة. وابتدعوا صوم أيام أخرى لا تتصل بالعادات اليهودية ولا تنتسب اليها. بل إن الصوم عند المسيحيين انتشر وعمَّ وبخاصة عند آباء البريّة والرهبان الذين تركوا الدنيا وحطامها، ذلك لقمع شهوات النفس ولتحقيق سيطرة الروح على الجسم. الى أن اضطرت الكنيسة الى تنظيمه، فجعلت بعض أيامه اجبارية وتركت للناس الحق بالصيام فيما عداها تنفّلا وتطوعاً.

وفي بداية القرن الثاني للميلاد كان الصوم ما يزال غالباً متروكاً لحرية المسيحي. ولقد كان أول ذكر للصوم هو الصوم الذي يسبق عيد الفصح عند القديس ايرينوس في خطاب له الى البابا ورد في تاريخ أوزيبيوس. وكان صوماً لمدة يوم كامل أو لمدة أربعين ساعة دون تناول طعام أو شراب. ثم ورد في « تعليم الاثني عشر » « وبداكيه » أن على الشخص المقدّم للعماد وعلى معمده، وعلى بعض أشخاص آخرين معهما أن يصوموا يوماً أو يومين قبل العماد.

وفي القرن الرابع وهو قرن المجامع مست الحاجة الى تنظيم مزيد من تنظيم الصوم، ففرض الصوم قبل المناولة وهو سرّ من أسرار المسيحية. وحرّم الصوم أيام الآحاد وكل فترة العنصرة، أي من خمسين يوماً بعد الفصح.

وكان الصوم في هذه الفترة مختلفاً بين قوم وقوم. فبينما كان البعض يمسك فيه عن أكل كل ما هو حيّ. كان البعض الآخر يمسك عن البيض والفاكهة وغير ذلك.

---

(١) أتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، لابن حجر ٣٥.

وفي العصر الوسيط والحديث صار الصوم المفروض أربعين يوماً يضاف اليها صوم يوم عيد الميلاد، وصوم أيام التفرّعات الثلاثة قبل خميس الصعود، وهذا عند الغرب. أما عند البيزنطيين فأبرز الصوم عندهم الصوم الكبير استعداداً لعيد الفصح وهو أربعون يوماً، ثم يلحق به صوم الرسل وصوم العذراء وصوم الميلاد والغطاس وغيرها..

بيد أن الصوم عند الأقباط فيختلف عن الصوم عند الآخرين، إذ إن الصوم الكبير هو خمسة وخمسون يوماً يضاف اليه صوم الميلاد وصوم الغطاس وصوم الرسل والعذراء وغيرها مما يجعل أيام السنة عندهم حافلة بالصوم بشكل عظيم جداً [١].

وغالب معنى الصوم عند النصارى، هو الامتناع عن الطعام من الصباح حتى منتصف النهار ثم تناول طعام خال من الدسم. والصوم يشمل صوم يوم الأربعاء وهو اليوم الذي تمت فيه المؤامرة على المسيح وانتهت بالقبض عليه، ويوم الجمعة وهو اليوم الذي صلب فيه بزعمهم. كما شمل صوم الميلاد الذي تطول ايامه، حتى ثلاثة وأربعين يوماً تنتهي بعيد الميلاد، والصوم المقدس وعدد أيامه خمسة وخمسون يوماً هي عبارة عن الأربعين يوماً التي صامها المسيح مضافاً اليها أسبوعان، الأسبوع الأول منها قبل الأربعين ويسمّى أسبوع الاستعداد والتهيئة للصوم الأربعيني المقدس، والأسبوع الثاني أسبوع الآلام ويأتي بعد الأربعين وينتهي بأحد القيامة.

وفي الصوم يمتنع على الصائم عند الافطار أكل لحم الحيوان أو ما يتولد منه أو ما يستخرج من أصله، يقتصر على أكل البقول. كما يمتنع فيه من عقد سرّ الزواج [٢].

---

(١) أتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، لابن حجر ٣٨، وهي مقدمة موضوعة بين يدي الكتاب للأب قنواتي.

(٢) المسيحية، للدكتور شلبي ٢٣٥.

محبة الله ومحبة الإنسان: وقد جعلت المسيحية من أوائل الواجبات على الإنسان محبة الله من « كل القلب ومن كل النفس ومن كل القدرة ومن كل الفكر » كما أوجبت عليه محبة القريب لأن من يحب الله حقاً يحب قريبه.

التواضع ومغفرة الزلات: ومن الصفات المسيحية الواجبة على المسيحي وتشكل مبدأ جوهرياً، التواضع. لأنّ من كلمات المسيح « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات » ولأن « كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع ».

ولا يقل عن هذا وجوب أن تكون نفس المسيحي جانحة عن الانتقام، حريصة على محبة الأعداء ومغفرة الزلاّت. لأن الانتقام خصلة منفّرة اتصف بها الوثنيون من قبل وقد نهى عنها المسيح وقال: « احبوا أعداءكم. احسنوا الى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً »[1].

وبالإجمال فإن عيسى عليه السلام حسب نصوص الاناجيل الحاضرة لم يطل بتشريع جديد زائد على ما ورد في التوراة. ويعلل هذا أكثر المفكرين المسيحيين بأنه أراد الشريعة روحاً محركاً وباعثاً لا حرفاً جامداً مميتاً. وإنه أراد تجنيبها ما تفرضه عليها أحوال الزمان والمكان من تحوير وتطوير، وانه أراد أن يحترم حريّة الإنسان فلا يخضعه للشريعة إخضاعاً يحرمه جزاء أعماله[2].

الزواج والطلاق: ولقد عرفنا من قبل أن المسيح عليه السلام كان متزهداً متقشفاً صادفاً عن أطايب الحياة وزينة الدنيا. ولم يثبت عنه أنه قد تزوّج. ولذلك كان ثمة نزوع في النصرانية الى الترهّب، وكان ميل كثير من النصارى الى الرهبانية

---

(١) راجع هذه المعلومات في كتاب خلاصة الأدلة السنيّة على صدق أصول الديانة المسيحية للقس جيمس إنس، ص ١٨١ – ١٨٢.

(٢) الأب بولس الياس يسوع المسيح، ص ١٩٢، نقلاً عن المسيحية للدكتور شلبي، ص ١٧٣.

رجالاً ونساءً. ولكن هذا الميل ظل محصوراً في حدود التطوع والرغبة الشخصية ولم ينتقل الى حد الوجوب؛ فهو لا يتفق وجبلة الإنسان. وهو غير ممكن ما دام الإنسان إنساناً له جسده. ولجسده حاجاته وغرائزه ومطاليبه التكاملية.

وهكذا فقد أجازت النصرانية الزواج. وكان في الأصل مسموحاً به دونما تحديد لعدد. فكان من حق النصراني في مطلع عهد النصرانية أن يتزوج العدد الذي يشاء من النساء في حدود ما أباحته التوراة وما أخذ به السابقون منهم.. بيد أن سيرة المسيح ونزعة الرهبنة التي ظهرت في العصور الأولى في المسيحية، أثّرا الى حدّ بعيد في التشريع النصراني، وجنحت به بين نزعة الترهب ورغبة التعدد في الزوجات الى الأخذ بمبدأ الاقتصار في الزواج على واحدة فقط خوفاً من الوقوع في الزنى الذي حرّمه الله تعالى.

لقد شرَّع الله للإنسان الزواج وهو في جنّة عدن، فخلق آدم وحواء من ضلعه كما ورد في سفر التكوين «ليس جيداً أن يكون آدم وحده فاصنع له معيناً نظيره»[1]...

وليس في الأناجيل الأربعة ولا غيرها تحديد للزواج بواحدة فقط. وفي التوراة إباحة التعدد واضحة كل الوضوح. وقد تزوج كثير من أنبياء بني اسرائيل وأولادهم بأكثر من واحدة.

غير ان المسيح عليه السلام قد أجاز العزوبة حال العجز عن الزواج كما أفاد بولس في رسالته لأهل كورنثوس، وقال إنها تجوز عند استطاعة الرجل أو المرأة ضبط النفس وتوقي الزنى. وقد ورد في الاصحاح السابع منها: «ولكني أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرّق».

---

(١) سفر التكوين ٢.

ولكن الشريعة النصرانية على كل حال قد حدّدت الزواج بواحدة، وأوجبت على الزوجين وألزمتها بأن يلتصق أحدهما بالآخر التصاقاً أبديّاً يحرم معه الفراق أو الطلاق بحيث يكونان جسداً واحداً. لأن الذي جمعه الله لا يفرّقه الإنسان. جاء في انجيل متى: «وجاء اليه الفرّيسيون ليجرّبوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلّق امرأته لكل سبب، فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بآمرأته ويكون الإثنان جسداً واحداً. إذاً ليس بعد آثنين، بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرّقه إنسان. قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطي كتاب طلاق فتطلق؟ قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم إن من طلّق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني والذي يتزوّج بمطلقته يزني»[1].

وبهذا النص، يبين أن الطلاق محرّم في النصرانية، ولكن التحريم هذا ليس على إطلاقه بل باستثناء حالتين اثنتين: **الأولى**: حال زنى أحد الزوجين، فإنه يحل للآخر طلب التفريق وينبغي أن يجاب الى طلبه اذا ثبت وقوع الزنى المدعى به. **والثانية**: وهي الحالة التي عبَّرت عنها رسالة بولس الى أهل كورنثوس فقد جاء فيها «والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه لأن الرجل غير المؤمن مقدّس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل، وإلا فأولادكم نجسون. وأما الآن فهم مقدّسون، ولكن إن فارق المؤمن فليفارق».

ومفهوم هذا النص أنه اذا كان أحد الزوجين غير مسيحي، فإنه يصبح جائزاً في شريعة النصرانية، التفريق بينهما اذا تهاجرا ولم تكن الألفة قائمة بينهما.

فإذا وقع الفراق بسبب الزنى، فإن الشريعة النصرانية تحظّر الزواج على أيٍّ من

---

(١) متى: الأصحاح ١٩.

هذين الزوجين مرّة أخرى، أما إن وقع بينهما بسبب موت أحدهما فإنها تجيز للحي منهما الزواج.

هذا ما توفّر لدينا من معلومات حول عقائد النصرانية وتشريعاتها عرضناها نقلاً عن أوثق المصادر. وقد كانت هذه العقائد والتشريعات بمجملها شائعة في العهود الأولى والعهد الذي بعث فيه الرسول ﷺ وحمل رسالته الى الناس كافة...

الفصل السابع

موقف النصارى العقدي من دعوة الرسول ﷺ

١ - الأناجيل ورسالة النبي

٢ - وصف الرسول ﷺ

٣ - بشارات التوراة والانجيل

٤ - عود إلى موقف النصارى من محمد ﷺ ودعوته

١ ـ **الأناجيل ورسالة النبي**: عرضنا فيما تقدم عموم رسالة النبي ﷺ. وأتينا على أهم ما يؤكدها من النصوص والمواقف. وعرضنا لموقف النصارى بالذات من هذه الرسالة ورأينا موقف أكابر ملوكها في عصره ﷺ، وأن أكثرهم قد رفض دعوته، وأن بعضهم قد آمن به وحسن إسلامه.

ولقد استعرضنا في حينه أمثالاً لعاديي النصارى، وبعض علمائهم الذين تقبّلوا دعوة الرسول بقبول حق وأعلنوا انتماءهم إليها واعتناقهم لها. ولكن الذي يلفت النظر في التاريخ القديم، أن الأمر لم يقتصر على هذا، بل كانت ثمة ردّة فعل عارمة من الآباء الكنسيين ضد الإسلام وضد حامل رسالته محمد ﷺ، الأمر الذي فجّر العلاقة بين النصارى من طرف والمسلمين من طرف آخر وأثار حروباً طاحنة استطالت وأدّت الى كثير من الفواجع والكوارث والمآسي والآلام والأحزان على تقلب العصور والتاريخ...

وقد تساءل الكثيرون من الباحثين والعلماء والهداة والمصلحين من لدن عهد الرسول ﷺ عن سبب الحملة النصرانية على الإسلام وحامل رسالته، والمبرّر الذي سوّغ لها أن تثور تلك الثورة التي لم تهدأ نارها حتى لدى البعض في هذا العصر الحديث.

ولا بد من التعرف على سرّ هذه الحملة، وإن طال الحديث فيه قبل الدخول في بيان موقف الإسلام من العقائد النصرانية. وللتعرف الى هذا السرّ لا بد من تناول الحديث من موقف الأناجيل من رسالة محمد ﷺ، أو موقف العهد القديم

والعهد الجديد منها لارتباط هذا الموقف في العمق بموقف النصارى من رسالته...

وصف الرسول ﷺ في التوراة: يؤكد علماء المسلمين الأجلاء أن وصف الرسول ﷺ قد ورد في التوراة بصورة قاطعة لا تحتمل الشك. فقد ورد على سبيل التواتر أن الأنصار من الأوسيين والخزرجيين سكان المدينة كانوا ينقلون بأن جيرانهم من أهل الكتاب، كانوا يخبرونهم بمبعثه ﷺ وأنه رسول الله الذي ينتظرون ظهوره وأنه موجود وصفه عندهم في التوراة. والقرآن الكريم يخبر بذلك عن أهل الكتاب فيقول: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾[1].

وقد قال ابن إسحاق رواية عن ابن عباس «إن يهود كانوا يَسْتَفْتِحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه».

وقال أبو العاليه وغيره إن اليهود كانوا إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون. «اللهم آبعث هذا النبي الذي تجده مكتوباً عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم». فلما بعث من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون. وفي هذا كلام كثير يمكن الرجوع إليه في كتاب الجواب الصحيح[2].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب لما حدثه عن هرقل، وفيه أن هرقل قال له بعد أن وصف هو له رسول الله: «ان يكن ما تقول فيه حقاً، انه لنبي. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم. ولو أعلم أنّي

---

(١) البقرة ٨٩ - ٩٠.

(٢) الجواب الصحيح ٢٨٣/٣ وما بعدها.

أخلص اليه لأحببت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه» وفي الصحيحين أيضاً حديث ورقة الذي روته السيدة عائشة في بدء الوحي وفيه أن ورقة قال لرسول الله بعد أن سمع منه مقالته: «هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، ليتني جَزَعا أنصرك نصراً مؤزراً إذ يخرجك قومك قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وأن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً».

وقد تأكد أن الرسول ﷺ ذكر أكثر من مرة أن وصفه وارد في كتب أهل الكتاب. والقرآن الكريم ثبت ذلك في أكثر من موضع. فلو لم يكن واثقاً من صحة ذلك لما قاله على مسمع من أهل الكتاب الذين يرصدون أقواله وأفعاله في محيط كان العرب له مناوئين وينتظرون أن يلتقطوا عنه خبراً كاذباً صغيراً أو كبيراً ليذيعوا به وينالوا منه. ولو لم يكن بالفعل مكتوباً في كتب أهل الكتاب، ولو لم تكن أوصافه واردة عندهم، لشنعوا عليه ولم يدخروا وسعاً بالتشهير به وإقامة الدلائل على كذبه وافترائه. وشيئاً من هذا لم يقع. على أن الأنبياء أخبروا أتباعهم من أهل الكتاب بما سيكون منهم من أحداث وما سيسلطه الله عليهم من الملوك الذين يخرّبون ديارهم ويسفكون دماءهم مثل «بختنصّر وسنحاريب».

ومحمد ﷺ قد قهر أهل الكتاب وسبى من سبى وقتل من قتل، وأخرجهم من ديارهم، وقد دام حكمه وقهره طويلاً. فلو كان كاذباً، فلم لم يذكروه ويحذورهم منه؟ وقد ذكرت الأنبياء من كان أقل خطراً منه على أتباعهم، أليس هذا دليلاً على أنه ليس في كتب الأنبياء ما يوجب تكذيبه؟!!

فإذا كان الكتاب الذي يحمله للناس من رب العالمين مليئاً بالشواهد على شهادة أهل الكتاب له، وإذا كانت الكتب التي بين أيدينا من كتب أهل الكتاب تحمل في طياتها أكثر من بشارة به، والأخبار متواترة عمن اطلع على ما فيها من ذلك، بل والأخبار متواترة أيضاً عمن أسلم، لأجل ذلك فكانت كلّها براهين ساطعة

على صدقه ﷺ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

بشارات التوراة والانجيل: ١ ـ هذا ومن البشائر التي وردت في التوراة ما نصه: «أقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

إن النص واضح هنا بأن النبي الذي سيبعث هو من إخوة بني إسرائيل. وإخوة بني إسرائيل لا يكونون قطعاً أولاد اسرائيل، بل يكونون أولاد اسماعيل، ومحمد ﷺ هو من ذريّة اسماعيل عليه السلام ولم يظهر من ذرية اسماعيل من كانت له الأوصاف الواردة في النص الا محمد ﷺ، فقد كان أمياً وكان يبلغ عن ربه كل ما يوحى إليه منه. وقد ظهر أمره وعظم شأنه من المدينة المنورة من الوسط الذي كان يعيش فيه كثيرون من بني اسرائيل مثل بني قينقاع، وقريظة وبني النضير وأهل خيبر وغيرهم.

٢ ـ ومن البشائر الواردة في التوراة أيضاً ما نصه: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم»[١].

ولا ريب أن معنى مجيء الرب من سيناء هو إشارة الى ظهور النور على جبل الطور، وحصول كلام الله تعالى لموسى عليه السلام عنده وتحميله الرسالة الى فرعون وقومه. أما اشراقه من سعير، وهي قرية معروفة قرب بيت المقدس قديماً، ففي هذا التعبير رمز الى ظهور عيسى عليه السلام وبشارة بنبوته ورسالته الى بني

---

(١) تثنية: ١٨: ١٨.
(٢) تثنية: ٣٣: ١ ـ ٣.

اسرائيل. وأما تلألؤه من جبال فاران، فهو كناية عن البشارة بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

يثبت هذا أن فاران هي كلمة عبرية معرّبة وهي من أسماء مكة المكرّمة. ولا خلاف بين علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب في ذلك. وبخاصة وان التوراة ذكرت أن ابراهيم عليه السلام قد أسكن هاجر وابنها اسماعيل فاران.. وبل إن البريّة الممتدة من طور سيناء حتى مكة تسمى بريّة فاران ولما كان لم يثبت أنه قد ظهر نبي في هذه الأرض بعد سيدنا عيسى غير محمد ﷺ فقد ثبت أن المراد بهذه البشارة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان مجيء موسى عليه السلام بالتوراة واطلاله بالشريعة مثل طلوع الفجر، ولذلك قال « جاء الرب من سيناء » ثم استضاء الفجر حتى أشرقت الشمس فكانت بعثة عيسى عليه السلام ولذلك قال « وأشرق لهم من سعير » ثم استعلن وتلألأ وانتشر ببعثة سيدنا محمد ﷺ فقال « وتلألأ في فاران ». ويؤكد هذا قوله تعالى ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [1] وقوله: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً﴾ [2] وقد قال النبي ﷺ: « زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ».

ويزيد من تأكيد صحة هذه البشارة وصدقها أن القرآن الكريم قد أورد قسم الله تعالى بهذه الأماكن الثلاثة تشريفاً لها وتعظيماً. وهو يقول: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون﴾.

---

(١) الفتح ٢٨.

(٢) الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦.

والتين والزيتون تعبيران لشجرتين معروفتين يكثر ظهورهما في الأرض المقدسة، وقد كنّى بهما الله تعالى عنها حيث بعث عيسى عليه السلام وأنزل عليه فيها الانجيل. وأما طور سينين، فهو الجبل الذي كلّم الله فيه موسى عليه السلام وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة. وأما البلد الأمين، فهو مكة. وهي البلد الذي أسكن فيه ابراهيم ابنه اسماعيل وأمه هاجر. وهو الذي فيه البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً والناس يتخطفون من حوله، استجابة لدعاء ابراهيم في قوله: « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون »[1].

ويلاحظ هنا أن ترتيب المقسم بـه جاء في القرآن الكريم مشابهاً لوروده في التوراة الأمر الذي يقطع بأنها المعجزة وأنها البشارة لمحمد ﷺ بالبعثة.

٣ ـ ومن البشارات أيضاً ما ورد في إنجيل متى: « وفي تلك الأيّام جاء يوحنا المعمدان يكرز في بريّة اليهودية قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السمٰوات »[2]. وما ورد في الاصحاح الرابع منه: « ولما سمع يسوع أن يوحنا أُسْلم انصرف الى الجليل »[3] الى أن يقول: « من ذلك الزمان آبتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السمٰـوات »[4] وكذلك قول متى وعيسى يأمر تلاميذه بالصلاة ويعلمهم كيف يصلّون قائلاً: « فصلّوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض خبزنا كفافنا أعطنا اليوم »[5] ثم يورد خبر أمر المسيح لحواريّه عندما أرسلهم الى البلاد

---

(١) إبراهيم ٣٧.
(٢) متى ٣: ٤١.
(٣) متى ٤: ١٢.
(٤) متى ٤: ١٧.
(٥) متى ٦: ٩ ـ ١١.

الإسرائيلية ليقوموا بالدعوة والإرشاد فيقول: « وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد آقترب ملكوت السماوات.. »[1].

ونظير هذا ما جاء في انجيل لوقا في مواقع مختلفة منه من مثيل هذه العبارات التي تبشر جميعها باقتراب مجيء ملكوت الله.

والعجيب ان التفسير النصراني لهذه النصوص كلها هو أنها جاءت لتؤكد طريقة النجاة التي أظهرتها شريعة عيسى عليه السلام. وهو ما لا يتفق مع مفهومنا منها الذي هو التبشير بظهور رسالة محمد ﷺ الذي يؤكده ويرجّح صحته قول عيسى والحواريين والسبعين معهم: « إن ملكوت السماوات قد اقترب » وتعليم عيسى عليه السلام لأتباعه بأن يقولوا في صلاتهم: « وليأت ملكوتك.. » وهم لا يزالون يقولونه حتى هذا اليوم الأمر الذي يدل بصراحة وجزم على أن المدعو به كان مطلوباً في أيام عيسى عليه السلام رغم وجود عيسى وقيام دعوته به.

وبالفعل لقد جاء ملكوت الله بعد عيسى عليه بظهور محمد ﷺ ودعوته وسلطانه الذي حكم به الأرض.. علماً بأن صيغة الدعاء أتت تحمل لفظ « ملكوت السماوات » ويستحيل أن يكون هذا الملكوت بصورة الضعف والمسكنة والخذلان، بل يكون بصورة السلطنة والعلاء. وقد تحقق ذلك على أيدي شريعة محمد ﷺ ورسالته..

ويزيد في إثبات هذا المفهوم وتعزيزه ما جاء على لسان عيسى في إنجيل متى أيضاً بعد أن ساق لهم مثلاً طويلاً: « لذلك أقول لكم: « إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمّة تعمل أثماره.. »[2].

وهكذا فقد أخبر عيسى حوارييه بآقتراب مجيء ملكوت السماوات، وعلّمهم الدعاء الى الله لكي يرسل ملكوته، وزاد ذلك بأنه جزم لهم بأن هذا الملكوت لن

---

(١) متى ١٠ : ٧.

(٢) متى ٢١ : ٤٤.

يكون في أيديهم، بل سينزع منهم ويعطي الى أمة أخرى... وهذا الذي كان على يد محمد ﷺ تكميلاً لرسالة من سبقه واتماماً لها. وقد مكّن الله له في الأرض بعد أن استخلفه فيها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي آرتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [1].

٤ ـ ومن البشارات الواردة في الانجيل التي توجه النظر الى رسالة النبي ﷺ، وإلى شخصه بالذات وأنها المعنيّان والمرتقبان منه نص متى: « فإن ملكوت السماوات يشبه رجلاً رب بيت خرج من الصبح ليستأجر فَعَلَةً لكرمه، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم الى كرمه، ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطّالين، فقال لهم آذهبوا أنتم أيضاً الى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة، وفعل كذلك، ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطّالين فقال لهم: لماذا وقفتم ها هنا كل النهار بطّالين؟! قالوا لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم آذهبوا أنتم أيضاً الى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء، قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفَعَلَة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين الى الأولين. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة، وأخذوا ديناراً ديناراً فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر، فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً. وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحرّ، فأجاب وقال لواحد منهم يا صاحب ما ظلمتك. أما اتفقت معي على دينار؟ فخذ الذي لك وآذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أوَ ما يَحِلُّ لي أن أفعل ما أريد بمالي؟ أم عينك شرّيرة لأني أنا صالح؟ هكذا يكون

---

(١) النور: ٥٥.

الآخرون أولين، والأولون آخرين لأن كثيرين يُدْعَون، وقليلين يُنْتَخَبُون »[1] .

وفي القرآن الكريم نظير هذا التعبير، يقول تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقرّبون في جنّات النعيم ثُلَّة من الأوّلين وقليل من الآخرين﴾[2] قال الحسن: « ثلّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة، والثلّة هي الجماعة العظيمة. وقليل من أصحاب محمد ﷺ اللهم آجعلنا منهم بكرمك. وسمّوا قليلاً بالإضافة الى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدّمين كثروا فكثر السابقون الى الايمان منهم فزادوا على عدد من سبق الى التصديق من أمّتنا »[3] .

وفي صحيح البخاري ومسلم قال ﷺ: « مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل آستأجر اجراء فقال من يعمل لي من غدوة الى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى. ثم قال من يعمل لي من العصر الى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم. فغضب اليهود والنصارى وقالوا، ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟! قال هل نقصتكم من حقكم؟! وفي رواية « هل ظلمتكم من حقكم شيئاً » قالوا « لا » قال « فذلك فضلي أوتيه من أشاء ».

وورد عنه ما يؤكد أيضاً كلام الانجيل بشكل واضح: « نحن الآخرون السابقون » وقال: « إن الجنّة حرّمت على الانبياء كلّهم حتى أدخلها، وحرّمت على الأمم حتى تدخلها أمتي ».

٥ ـ ومما يؤكد البشارات بالرسول ﷺ ما جاء في انجيل متى وهو: « اسمعوا مثلاً آخر. كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلّمه الى كرآمين وسافر. ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده الى

---

(١) متى ٢٠: ١ - ١٦.
(٢) الواقعة ١٠ - ١٤.
(٣) القرطبي ١٧/٢٠٠.

الكرّامين ليأخذ أثماره، فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضهم وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً: يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالـوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلّموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين؟! قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا ردياً ويسلّم الكرم الى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الربّ كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ومن سقط على هذا الحجر سيرضض، ومن سقط هو عليه يسحقه»[1].

قال الامام محمد رشيد رضا تعليقاً على هذا النص، وكثير غيره من علمائنا السابقين «إن ربّ البيت كناية عن الله، والكرم كناية عن الشريعة. وإحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه. وبناء البرج كنايات عن المحرّمات والمباحات والأوامر والنواهي. والكرامون الطاغون كناية عن اليهود كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم. والعبيد المرسلون كناية عن الأنبياء عليهم السلام. والابن كناية عن عيسى. ولا بأس باطلاق هذا اللفظ عليه من الناحية المعنوية، وقد قتله اليهود أيضاً في زعمهم. والحجر الذي رفضه البنّاؤون كناية عن محمد ﷺ. والأمة التي تعمل أثماره كناية عن أمته. وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه».

ثم يعزز قوله هذا وتأويلاته فيتابع ويقول: «إن داوود عليه السلام قال في الزبور المئة والثامن عشر هكذا» «الحجر الذي رذله البنّاؤون هو صار للزاوية من قبل الرب، كانت هذه عجيبة. وهي عجيبة في أعيننا» فلو كان هذا الحجر عبـارة

---

(١) متى ٢١: ٣٣ – ٤٤.

عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود ومن آل يهوذا من آل داوود، فأي عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيسى رأس الزاوية، ولا سيا في عين داوود عليه السلام خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين أن داوود يعظّم عيسى في مزاميره تعظيماً عظيماً بليغاً، ويعتقد الألوهية في حقه، بخلاف آل اسماعيل فإن اليهود كانوا يحقرون أولاد اسماعيل غاية التحقير، فكان كون واحد منهم رأساً للزاوية عجيباً في أعينهم. ثم إنه وقع في وصف الحجر أنه من سقط عليه ترضض، وكل من سقط هو عليه سحقه. ولا يصدق هذا الوصف في عيسى عليه السلام لأنه قال: « وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم، بل لأخلص العالم كما هو وارد في انجيل يوحنا في الاصحاح الثاني عشر[1] وصدقه على محمد ﷺ غير محتاج الى بيان لأنه كان مأموراً بتنبيه الفجار الأشرار، فإن سقطوا عليه ترضضوا، وإن سقط هو عليهم سحقهم، وقد قال ﷺ « إن مثلي ومثل الانبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[2].

٦ ـ ورد في إنجيل يوحنا ايضاً ما نصته: « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر[3] ليثبت معكم الى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم. والفارقليط روح القدس الذي يرسله الاب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون »[4].

---

(١) يوحنا ١٢ : ٤٨.

(٢) تفسير المنار ٢٦١/٩ ـ ٦٢.

(٣) ورد تعريب هذه الكلمة في بعض الأناجيل إلى « المعزّى » أي المعين.

(٤) يوحنا ١٤ : ١٥.

وورد نظائر ذلك في الاصحاح الخامس عشر آية ٢٦ والاصحاح السادس عشر ٧ و١٢ فارجع اليها رعاك الله إن شئت.

ويكاد يلتقي أكابر العلماء على أن معنى كلمة فارقليط النبي المبشر به. وهو محمد ﷺ وليس سواه. لأنه إن كان القصد منه الروح النازل على تلاميذ عيسى يوم الدار، فلماذا يطلب عيسى الى تلاميذه أن يحفظوا وصاياه؟ ولماذا يعدهم بأن يطلب من الأب أن يعطيهم فارقليط آخر؟! وهم ما كانوا يستبعدون نزوله عليهم مرة أخرى...

يضاف الى ما تقدّم ان الروح متّحد بالأب مطلقاً، وكذلك بالابن نظراً الى لاهوته كما يقولون اتحاداً حقيقياً، فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به، فإن هذا القول يصدق عليه بلا تكلّف.

وقد جاء في نص الانجيل المذكور أن عيسى قال: «هو يذكّركم ما قلته لكم» بينما لم يثبت في أي رسالة من رسائل العهد الجديد ان الحواريين قد نسوا ما قاله لهم عيسى وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه. كما ورد في النص: «والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون» وهو مؤشر صريح صادق على النبي المبشر به وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إن عيسى عليه السلام قال في النص المساق: «هو يشهد لأجلي» وتلاميذه الذين كانوا معه، ما كانوا محتاجين الى من يعرّفهم بعيسى ويشهد لهم عنده، لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة. بخلاف محمد ﷺ فقد شهد للمسيح ضدّ من شنعوا عليه وكذبوه وبهتوه وبهتوا أمه، شهد لأجله وصدّقه وبرّأه مما قالوا فيه كما برّأ أمه عن تهمة الزنى.

على أن قوله: «إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم» يشترط فيه لمجيء الفارقليط ذهابه هو عليه السلام. وقد ثبت أن الروح نزل بنص الانجيل على الحواريين بحضور عيسى لما أرسلهم الى البلاد الاسرائيلية.

وقد نزل عليهم وعيسى عليه السلام فيهم، مما يجعلنا نؤكد أن المراد شخص آخر يكون مجيئه موقوفاً على ذهاب عيسى. وهذا الشخص هو محمد ﷺ لأنه لم يأت إلا بعد أن ذهب عيسى عليه السلام.

ومما ورد في النص أن الفارقليط الآتي: «يوبّخُ العالم» ومحمد ﷺ وبّخ العالم، واليهود بالذات لعدم إيمانهم بعيسى الرسول توبيخاً ظاهراً في القرآن الكريم. كما قال بأنه «ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما سمع». ولو كان يقصد منه الروح النازل يوم الدار، فليس مظنّة التكذيب عندهم حتى يسوق هذا الكلام الذي يراد منه تقرير صدقه، فإذاً، قطع بأنه لم يكن المراد منه إلا محمد ﷺ الذي كانت دعواه مظنّة التكذيب من الكفار والمشركين والملحدين، مع أنه كان في الحقيقة ونفس الأمر يتكلم بما كان يوحي إليه الله به. يقول الله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى﴾[1] ويقول: ﴿إن اتّبع إلا ما يوحي الي وما أنا الا نذيرٌ مبين﴾[2].

عود الى موقف النصارى من محمد ﷺ ودعوته:

وعلى الرغم من ورود هذه المبشرات برسالة محمد ﷺ وبعثته التي تؤكد صحة دعوته، فقد صح الخبر بأن موقف كبار ملوك النصارى في عهده كما نقلنا سابقاً، كان يرفض الإيمان به والقبول بدعوته، وكذلك كان موقف كثيرين من الاحبار والرهبان، كما صح إيمان البعض منهم وانتسابهم الى الجماعة الاسلامية.

إن رفض ذاك البعض لرسالة محمد ﷺ رغم جلاء البشائر الواردة في حقه في كل من التوراة والأناجيل واضح السبب في ثنايا النصوص التي جاءت بالبشائر به ﷺ وفي مضامين النصوص الواردة في القرآن الكريم. ويكفي أن نورد لذلك قوله

---

(١) النجم ٣ ـ ٥.

(٢) الأحقاف ٩.

تعالى: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾[1]. وقوله: ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾[2].

على أن دعوة الرسول ﷺ التي وجهها الى اولئك الملوك والامراء من النصارى ما انطلقت منه إلا لما كان يكنّه لهم من الرغبة في الاهتداء الى الحق. وهي رغبة كريمة تعبر عن مدى ما كان يحمله الرسول في قلبه لهم من آمال طيبة ورغائب نبيلة. وكان ينتظر لها ان تقابل بالمثل، فيرحب بها أو تستمهل لتدرس وتُتَفَهّم وليعرف ما تحمل من مباديء وعقائد تلتقي او تتنافر مع ما لديهم...

بيد أن الذي يؤسف أنها قوبلت بمثل ما قابلها المشركون الجاهليون، بمبادرة الصدّ والرفض، ثم بخطوات متشنجة متهورة أقلها ما كان من عامل هرقل على بصرى حيث قتل رسول رسول الله ﷺ الموفد إليه[3]...

ومثل هذه الاجراءات العنيفة تجاه رسول النبي ﷺ من قوم يطوي لهم هذا الرسول أطيب الرغائب وأخلص الآمال، ويظن بهم هو وأتباعه ظن الخير، ويتطلع اليهم تطلع الأمل، وينشد عندهم الاستجابة والتقبل والاستحسان لأنهم أهل كتاب، ولان فيهم سمّاعين للحق راغبين في الهدى والحكمة... إن مثل هذه الخطوات تحدث دونما ريب خضّة كبيرة في صفوف المسلمين، وتثير تساؤلات واسعة المدى حول الكتاب الذي يؤمن به النصارى على أنه كتاب الله، وحول

---

(١) البقرة ٩٠.

(٢) البقرة ٢١٣.

(٣) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص ٤١٠.

عيسى بن مريم عليهما السلام، وحول مختلف العقائد الأخرى التي يدينون بها وموقف الاسلام منها.

يضاف الى هذا أن دعوة الرسول ﷺ قد أحرزت في هذه الأثناء نصراً مؤزراً على أعدائها القرشيين ومحازبيهم وعلى جميع العرب الذين ناوأوها وأعلنوا الحرب عليها. وأحرزت أيضاً انتشاراً كبيراً في أطراف الجزيرة وعمقها. وبادرت القبائل من كل حدب وصوب وقرية وقطر، تفد على الرسول ﷺ لتعلن له عن ولائها وتأييدها ولتدخل في الدين الجديد.

وقد رتب هذا الجو المتحرك لصالح الاسلام ودعوته الكريمة، لقاءات هامة مع الرسول وأصحابه، من مختلف زعماء الجزيرة وأمرائها وأصحاب العقائد المتنوعة، وبالذات من رجال النصرانية من القسس والرهبان الذين جاؤوا مثل غيرهم الى المدينة ليلتقوا بالرسول ﷺ وليسمعوا منه ويحاوروه. فكان هذا سبباً آخر دافعاً المسلمين الى مزيد من التساؤلات حول النصرانية وكيانها وباعث عقائدها وديانتها عيسى وأمه مريم عليهما الصلاة والسلام.

الفصل الثامن

موقف الإسلام من العقائد النصرانية

١ ـ موقف الاسلام من مريم عليها السلام
٢ ـ طبقة الأنبياء
٣ ـ موقف الاسلام من عيسى عليه السلام
٤ ـ موقف الاسلام من ألوهية عيسى
٥ ـ موقف الاسلام من بنوّة عيسى لله
٦ ـ موقف الاسلام من الصلب
٧ ـ نقض اليهود الميثاق وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق
٨ ـ نفي القرآن للقتل والصلب بصورة قاطعة
٩ ـ الأناجيل والصلب
١٠ ـ تعارض الأناجيل واختلاقها يزيد في تأكيد شبهة عدم الصلب
١١ ـ الصلب في عقيدة الوثنيين
١٢ ـ عيسى والرفع
١٣ ـ موقف الاسلام من دعوى الفداء

١ ـ موقف الاسلام من مريم عليها السلام:

لا نستطيع أن نتجاهل في هذه المناسبة ما يتقوله اليهود على مريم ابنة عمران، وقد كانوا يموجون في منطقة المدينة بكثرتهم وأعمالهم وحركاتهم. ولا نستطيع أيضاً تجاهل انتهاء هذا التقوّل الى آذان الجمهرة من صحابة الرسول ﷺ. فهل سقطت مريم بالفعل، بسلوكها الى واقع النساء المتهتكات الفاجرات فزنت كما يفتري عليها أولئك اليهود، أم أنها طاهرة مطهّرة وبريئة مما ينسبونه إليها؟

لم يكن من سبيل الى إغفال هذه الواقعة الدائرة أخبارها على ألسنة القوم والمتقلّبة فيهم نفياً وإيجاباً، والرسول ﷺ بعثه الله هادياً ومعلماً، وبعث على يديه الإسلام منارة حق وهدى، فلا بدّ إذاً من أن يتصدى لكشف الحقيقة وجلائها... لا بد من التعريف بمنبت مريم عليها السلام وأصلها ونشأتها وسلوكها وسبب حملها وكيفيته ثم بولادتها المعجزة وظروفها.

وبالفعل لقد جاء القول الفصل في الكتاب الكريم ﴿إن الله آصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبل مني إنك انت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإني سمّيتها مريم وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها بناتاً حسناً وكفّلها زكريا، كلما دخل عليها

زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. قال يا مريم أنّى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب..﴾[1].

طبقة الانبياء:

إنه يبدأ هذه الآيات بإعلان حقيقة كبرى غفل عن إدراكها الكثيرون، وانجرفوا بسبب غفلتهم هذه الى العديد من الأخطاء المستهجنة قولاً وفعلاً. وهذه الحقيقة هي أن الله تعالى خلق طبقتين من البشر: طبقة صفّاها من الصفات الذميمة، والخصال القبيحة: وزيّنها بالأخلاق الحميدة والطبائع الحسنة. ومنحها من الطاقات ما هو عظيم وجليل، فجعلها على مثال من الإنسانية لا يرتقى إليه، فخالفت سواها بالقوى الجسمية والقوى الروحية والقوى الفكرية والنفسية... وطبقة أخرى عادية أدنى، وإن كانت قد أوتيت كل إمكانات الاستصفاء والترفع الى ما دون حدود الطبقة الأولى...

وقد أعلن في هذه الآيات أن من الطبقة التي اصطفاها وأعلى مقامها وأحسن تزكيتها، آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران..

ولقد تكلم العلماء في تحديد هويّة آل عمران هؤلاء، وهم الذين يهمّنا التكلم عنهم هنا لانتساب السيدة مريم اليهم، إذ هي ابنة عمران، فاختلفوا فيهم. فمنهم من قال إن المراد منهم آل عمران والد موسى وهارون عليهما السلام. وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.. ويريدون نسبتهم الى موسى وهارون وأتباعهما من الانبياء.. ومنهم من قال إن المراد عمران بن ناثان والد مريم. وكان من نسل سليمان بن داوود بن إيشا. وهم من نسل يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم. وبين العمرانين من الزمان ألف وثمانمئة سنة تقريباً.

---

(١) آل عمران ٣٤ ـ ٣٧.

ويبدو أن القول الثاني هو الأصح لأن سياق الآيات، قد انتهى بعد ذكر آل عمران، إلى الحديث عن مريم، ومريم هذه هي آبنة عمران بن ناثان جد عيسى عليه السلام من قبل أمه. يضاف الى هذا أن الله تعالى بهذه الآيات شاء توجيه النصارى الى ما تتضمّنه من الحقائق التي تكشف لهم بعض ما استغلق عليهم فهمه من ماضي مريم عليها السلام، وبعض ما نسوه من مميزات النبوّة.

ومن مميزات النبوة التي نسبها النصارى وضلوا عن معالمها، أن الله تعالى مالك الملك، ومالك القوى والقدرات، وواهب الوجود الى كل كائن في هذه الحياة، هو الذي آصطفى الأنبياء وآختارهم من أقوامهم لحمل رسالته. ولكي يتحقق اختياره لهم في مناخ من التفوّق والنجاح هيّأ لهم الظروف المؤاتية، وزوّدهم بالكفاءات والطاقات الجسمانية والروحية والفكرية السامية التي ييئس من الطمع بمثلها عاديو الناس..

ومن القوى الجسمانية التي منحهم الله تعالى إياها حواسهم الظاهرة والباطنة - النادرة والعجيبة التي ميّزتهم ومكنتهم مما لم يتمكن منه الآخرون. ومن دلائل عجيب حواسهم الظاهرة، وخرقها لطبائع الأمور، أن الله تعالى يقول في حق إبراهيم عليه السلام ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض﴾[1] وقد قال العلماء في تفسير هذه الآية إنه تعالى قوّى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل. وقد قال الحُلَيْمي رحمه الله: وهذا غير مستبعد لأن البصراء من الناس يتفاوتون، فروي أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام[2]. وقد روي عنه أنه كان يرى ما في السماوات من عبادة الملائكة والعجائب، وما في الأرض من عصيان بني آدم، فكان يدعو على من يزاه يعصي، فيهلكه الله، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم أمسك عن عبادي!! أما علمت أن من أسمائي

---

(١) الأنعام ٧٥.

(٢) تفسير الرازي ٨/٢٢.

الصبور ؟! وقيل كشف الله له عن السماوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين. وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النخعي قال: « فرجت له السماوات السبع فنظر إليهن حتى انتهى الى العرش وفرجت له الأرضون فنظر إليهن، ورأى مكانه في الجنّة »[1].

ولقد أوتي الرسول ﷺ ما هو مثل ذلك فقال: « زُويت لي الارض فأريت مشارقها ومغاربها ». وقال لأصحابه وهم يتهيأون للصلاة: « أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري ».

ذلك بالنسبة الى ما يهبهم من حاسة البصر. أما حاسة السمع فقد نقل عن الرسول ﷺ أنه كان يسمع أطيط السماء. وقد قال ذات يوم: « أطّت السماء وحق لها أن تئط [أي تصوّت صوت الانين] ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى » وأنه ﷺ سمع دوياً، وذكر أنه هُوِيُّ صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها الى الآن. وقال الامام الحليمي تعليقاً على هذا هُوِيٌّ الخبر لا سبيل للفلاسفة الى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيثاغورس راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك [2].

ونظير هذه القوة في السمع لدى النبي ﷺ كانت قوة سمع سليمان الذي سمع حديث النمل وتبسّم ضاحكاً من قولها. يقول الله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسّم ضاحكاً من قولها﴾[3] وقد نقل أن الرسول ﷺ تكلّم مع الذئب ومع البعير[4].

وقد أوتي أولئك الانبياء قوة عجيبة في الشم أيضاً. فقد روى عن يعقوب أنه

---

(١) القرطبي ٢٣/٧.
(٢) الفخر الرازي ٢٢/٨.
(٣) النمل ١٨ – ١٩.
(٤) الفخر الرازي ٢٣/٨.

بعد أن غاب عنه ابنه يوسف السنون الطويلة، وحمل له أولاده قميصه من مصر ليلقوه على وجهه بأمر يوسف، شم ريحه من مسيرة أيام، وقال كما نقل الله تبارك وتعالى ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾.

وأعطوا مثل ذلك في حاسة الذوق، فقد روي عن الرسول ﷺ أنه عندما قدّمت له اليهودية الشاة المسمومة، وأخذ منها الذراع ليقضم منها قال: «إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم». ولم يكن اللمس عند هؤلاء الاصفياء بأقل قوة من السابقات. وقد جعل الله تعالى النار لإبراهيم عندما ألقاه فيها قومه «برداً وسلاماً عليه».

وقوة الحواس الظاهرة هذه لم تكن محصورة بالصورة التي عرضناها هنا. ولو تتبع أحدنا جزئياتها فيما نقل عنهم من عجيب ذلك لرأى فيه العجب العجاب. بل لقد انتقل شيء من ذلك الى المقرّبين إليهم من صحابتهم وأصفيائهم فكان لهم من ذلك القريب المدهش كالذي وقع لعمر رضي الله عنه عندما كان يخطب في مسجد الرسول وشاهد وهو على المنبر سارية قائد جيش المسلمين في نهاوند وصرخ بأعلى صوته: يا سارية، الجبل!! يا سارية الجبل!! يحذّره من عدوّه وينبهه الى وجوب التحصن بالجبل القريب منه[1].

ومهما يكن، فقد كانت حواسهم الباطنة أيضاً على مستوى غريب من الطاقة والقوة العظيمة الفارهة. فقد ثبت أنه ﷺ قال لأصحابه يوماً وهو ينهاهم عن المواصلة في الصيام «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» كما ثبت أن الله تعالى قد وهبهم قوة الحفظ التي بها لا ينسون ما يلقى إليهم أبداً. وقد قال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله﴾. وعن ابن عباس انه ﷺ لم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات.

والله تعالى أعطاهم فوق ذلك كله، قوة الإحاطة والذكاء والفراسة فما كان

(١) رواه الواقدي والبيهقي في الدلائل واللالكائي في شرح السنة.

يفوته ﷺ شيء ولا تعوزه طاقة. وقد قال علي بن أبي طالب «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب» ومما قاله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1] وإذا كان المؤمن الصالح ذا فراسة ثاقبة، فكيف بالأولياء فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام!!؟

ومن آثار استصفاء الله سبحانه لرسله وأنبيائه وآل بيتهم الأقربين الطاهرين أنه أعطاهم من قوة الحركة والتمكن مما حولهم، ما لم يعطه أحداً من العالمين.. فقد أعطى سليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بنّاء وغواص، وفلق لموسى البحر، وأحيا لعيسى الموتى، وشق لمحمد القمر نصفين وعرج به الى السماء السابعة وغير ذلك كثير مما يمكن الرجوع اليه في مظانّة من كتب السير والحديث والتاريخ...

كل هذا الذي قدّمنا كان لبيان منزلة هؤلاء الأنبياء وآل بيتهم عند الله... وهو لذلك يضع المؤمنين بهذه الآيات، في الصورة البيّنة لينتقل بفكرهم إلى أن من كانت هذه منزلتهم عند الله، لا يستكثر عليهم العقل تحقق الخوارق والمعجزات على أيديهم... ومريم وهي من آل بيت النبوّة، وهي مهيّأة لتكون أم نبي من أولي العزم لا يستكثر الفكر عليها أن يقع لها ما روته كتب الأخبار وتناقلته ألسنة العلماء والفضلاء. فهي في نظر محمد ﷺ والإسلام الذي جاء يحمله ويدعو الناس للايمان بعقائده وشرائعه وآدابه، امرأة نشأت في بيت مبارك، من والدة مباركة، نذرت قبل أن تضعها، بأن تحرّرها لله وطاعته وخدمة بيوته ظناً منها أن حملها الذي ستضعه سيكون ذكراً. ولكنها لما وضعت، ورأت ان الذي وضعته أنثى وليست ذكراً كما كانت تتصوّر، دعت ربها وتضرّعت إليه تقول: «إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» أي سألته أن يحفظها من تسلط الشيطان واغوائه وأن يجعلها من الصالحات القانتات..

---

(١) كشف الخفاء ٤١/١.

وهذا أول الموقف الاسلامي والنبوي الكريم من مريم عليها السلام والدة عيسى صاحب الانجيل ومعقد العقيدة النصرانية اللذين تصدى لهما ملوكها وأعلنـوا عليهما الحرب، إنه الموقف المنبثق عن العلم والصادر عن الايمان والمؤيد للحقيقة وواقع الأمر بعيداً عن مزالق الهوى وتياراته الشاردة الضالة في غالب الأحيان عن سواء السبيل..

ويتبع هذا أن الله تعالى شاء أن يعرض لفكر الناس، كل الناس، المؤمن منهم وغير المؤمن، أن مريم هذه قد فازت برعايته وحفظه وعنايتـه فيقـول الله تعـالى: ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريا، كلّما دخل عليها زكريا المحراب، وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1].

وقد روى العلماء من آيات تقبّل الله تعالى لمريم أنه كان من المعتاد في شريعتهم حينذاك، انه لا يقبل في خدمة بيوت الله إلا الذكور العقلاء، بيد أنه تعالى سمـع لتضرّع أمّها حنّه وقبل آبنتها مريم، وهيّأ لها الإحاطة والرعاية الفاضلة. وذلك أن أمها حين وضعتها لفّتها ووضعتها عند الأحبار ابناء هارون، فتنافسوا فيمن تكون له كفالتها، واقترعوا على ذلك بإلقاء أقلامهم في ماء النهر لرؤية المنتصـب منها، حتى ثبت لهم في أكثر من مرّة أن قلم زكريا هو وحده الذي كان يرتفع فوق الماء فكفلها. وقد كانت كفالته هذه بتيسير من الله تعالى.

وروي أيضاً أنه ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إلا مريم وآبنها. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وآبنها»[2]. ونقل القفال عن الحسن أنه قال: «إن مريم تكلّمت في صباها كما

---

(١) آل عمران ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) الفخر الرازي ٨/٣٠.

تكلم المسيح، ولم تلتقم ثدياً قط، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة».

وقد تواتر بأن «زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء»[1].

وقد زادها الله من هذه الرعاية واللطف عندما جزم لها بخبره الصادق العظيم وبقوله: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك وآصطفاك على نساء العالمين، يا مريم آقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ فأكرمها كل الاكرام حيث أرسل إليها الملائكة يقدمهم جبريل عليه السلام. وهذا في منتهى الحفاوة والاعزاز لأنه باتفاق العلماء، لم يتفق أن وقع مثله لأنثى غيرها. وقد طهّرها وعصمها من الكفر والعصيان. وأغناها عن مسيس الرجال. ونقّاها من الحيض والنفاس، وخلاّها من الأفعال الذميمة والتصرفات القبيحة والعادات البشعة وأكد لها ولكل الناس الذين كانوا يلقونها ويهتمون بأخبارها أنها طاهرة ومبرّأة مما ينسبه إليها اليهود. وقد روي أنه ﷺ قال «حسبك من نساء العالمين أربع: «مريم وآسية إمرأة فرعون وخديجة وفاطمة». وقال الفخر الرازي إنه قد قيل إن هذا الحديث دلّ على أن هؤلاء النساء الأربع هنّ أفضل النساء، وهذه الآية دلّت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل، وقول من قال المراد أنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا متروك الظاهر[2]

ثم بعد هذا يخاطب الله تعالى رسوله الكريم، قاطعاً دابر كل ظن سيء فيقول ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾[3] وهو تصوير وإخبار، موضوعان في إطار

---

(١) المصدر نفسه ٨/٣٣.

(٢) الفخر الرازي ٨/٤٨.

(٣) آل عمران ٤٤.

حريز من الدقة وكمال الصحة اللذين يؤكدان صدقهما وخلوهما من الزيادة أو التحريف.

وعلى العموم فقد رأينا كيف مجّد الاسلام بلسان نبيّه محمد ﷺ ونقلاً عن ربّه، مريم عليها السلام ونزّه سيرتها من فعلة السوء التي افتراها عليها بعض اليهود ذلك الزمان، ورفعها الى المستوى البشري الذي لا ترتفع الى مثله انثى من العالمين..

٢ ـ موقف الاسلام من عيسى عليه السلام:

ولم يقتصر موقف الإسلام بلسان النبي ﷺ ونص القرآن الكريم عند هذا الحدّ. بل أفاض فشرح بتفصيل كيف تم حمل السيدة مريم، ثم كيف ولد آبنها عيسى دفعاً لكل شبهة ألقيت حولها ولإراحة قلوب المؤمنين فقال تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾[1]. وقال في سورة مريم موضحاً هذه الواقعة: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً فآتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوّياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنى يكون لي غلاماً ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّاً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربّك تحتك سريّا. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. وكلي وآشربي وقرّي عيناً، فإما تَرَيّن من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً. فأتت به قومها تحمله، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً

---

(١) آل عمران ٤٥ ـ ٤٦.

فرياً. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمُّك بغيا. فأشارت إليه. قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا. قال إني عبدالله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا. ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ـ فاختلفت الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأمر، وهم في غفلة وهم لا يؤمنون انا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾[1].

وهذا موقف آخر للاسلام بالنسبة الى السيدة مريم يكشف به الحقيقة ويزيل عنها كل لبس وغموض، ويؤكد أن حملها كان ظاهرة خارقة للعادة، وهي التي سبق وأكرمها الله ورعاها واصطفاها وطهرّها وأحاط نشأتها بالخوارق لطبائع الأشياء والسلوك والعيش.

وما دام منبت السيدة مريم ومنشؤها ونموّها، كل ذلك قد حفّه الله بالعجائب.. وكانت هذه العجائب في مدى أنظار ومعرفة من حولها من الناس، فلا عجب إذن أن يهبها فوق ذلك غلاماً زكيا دون أن يمسّها بشر وهي من بيت النبوّة الطاهر، وقد شملها باللطف وحباها بالاكرام، وأنشأها على خلاف ما أنشأ عليه غيرها من المواليد... وماذا في هذا من غريب على الله؟! ألم يستجب أيضاً لزكريا زوج خالتها وهو الذي وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً وبلغ من الكبر عتياً. وكانت أمرأته عاقراً يائساً من الحمل ومن الولادة؟! ثم ألم يهب من قبل

---

(١) مريم ١٦ ـ ٤٠.

لإبراهيم وسارة بعد أن بلغا ما بلغا من العجز والشيخوخة المؤيسة، الولد، فبشره باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب؟!

إن خوارق الله لسننه الكونية، التي صاحبت عباده الأطهار الصالحين من يوم بدء الخليقة، ٱحتفاء بهم وتأييداً لهم وتثبيتاً لصدقهم أكثر من أن تحصى وأعظم من أن يُمجد بها، وأظهر من أن يتجاهلها المتجاهلون أو يغفل عنها الغافلون.

وما العجب في ذلك، وفاعلها واهب الوجود وخالق القدرات والامكانات وباعث الحياة ومحرك كل شيء في هذا الكون الكبير، هو الله الذي خلق الانسان من قبل ولم يكن شيئاً مذكوراً... هو الذي خلق آدم من تراب، وخلق حواء من ضلع آدم[١]. وهو الذي يوجد الأشياء والكائنات، والناس على اختلاف طبائعها وطاقاتها الفكرية والنفسية واختلاف ألسنتها وألوانها بقوله لها كن فتكون. وهو الذي يستوي عنده خلق الإنسان من العدم، وخلقه من تراب، وخلقه من ذكر، وخلقه من أنثى، أو خلقه من ذكر وأنثى. وهو الذي يؤكد كل هذا فيقول: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[٢].

والله تعالى بهذا، يجزم بأنه ليس حتماً لكي يوجد الإنسان، أن يكون له أب أو تكون له أم أو يكون له أبوان. بل المطلوب أن ترتبط بوجوده ارادة الله وأن يقول فيه كلمته ليكون على أكمل ما يكون عليه الإنسان.. وقد ٱرتبطت إرادة الله أولاً بوجود أبي البشر آدم فأوجده من تراب بكلمته له «كن» وٱرتبطت إرادته كذلك بوجود حواء من ضلع آدم فقال لها «كوني» فكانت. وٱرتبطت

---

(١) نقل الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى «وخلق منها زوجها» من سورة النساء قولين: الأول وهو الذي عليه الأكثرون أنه لما خلق الله آدم ألقى عليه النوم ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما استيقظ رآها ومال اليها وألفها لانها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه. واحتجوا له بقوله ﷺ «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمها كسرتها وبها عوج استمتعت بها».

(٢) آل عمران ٥٩.

إرادته بوجود عيسى فقال له « كن » فكان. وترتبط إرادته بوجود كل إنسان وكل كائن فيكون ساعة يقول له « كن ».

والسيدة مريم المبرأة من كل عيب والمطهرة من كل دنس والمصطفاة، شاء الله لها أن تحمل بعيسى حملاً من غير مسيس رجل وبكلمته التي لا مرّد لها، فأرسل اليها الروح الذي أرسله من قبل إلى الأنبياء ومن بعد ونفذ أمره، وحمل لها كلمة التكوين وبلّغها إياها وكان ما شاء الله تعالى له أن يكون: ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

ولقد رافقت هذا الحمل والولادة الخارقين عجائب وخوارق أخرى، فقد تكلم عيسى بعد ولادته. فنادى والدته وهو تحتها. وهو ما قاله الحسن وسعيد بن جبير وجزم به الفخر الرازي وتكلم بعد أن لقي الناس أمه وعاتبوها مستنكرين متعجبين من الذي بين يديها فقال « إني عبدالله آتاني الكتاب، وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » وقد جعل الله الى جانب مريم عند ولادتها جدول ماء لتغتسل منه ولتتنظف، وجعل لها من النخلة اليابسة نخلة ذات حياة ونماء وحملها تمراً رطباً في وقت لم يكن لمثلها أن تحمل فيه. ثم أعطى مريم القدرة وهي النفساء العاجزة على أن تهز جذع النخلة بحيث يفعل هزّها له فعلاً مؤثراً يتداعى معه رطبها ويتساقط عليها.

كل هذا الذي ألمح إليه الكتاب الكريم في الآيات المسوقة آنفاً، وغيره من العجائب التي قرنها بولادة عيسى العجيبة، هو من آثار قدرة الله ومن عطائه الكريم الذي يكون بغير حساب، وبغير ما تعارف على شبيهه الناس...

وهكذا، شاء الله أن يزيح ستار الخفاء والغموض عن حقيقة نشأة مريم وحقيقة حملها بعيسى وحقيقة ولادتها له، وذلك لتنجلي على ما هي عليه وليدرك المؤمنون الباحثون عنها واقع ما اختلف فيه الأولون، وما يختلف فيه الناس الى يوم القيامة،

ويقفوا عنده وقفة القناعة والتسليم التي تملك الحجة للتصدي لكل شك يمكن أن يطرح حولها...

٣ ـ موقف الاسلام من ألوهية عيسى:

ويتلطف القرآن الكريم ويتابع كشف عناصر الحقيقة الواحدة وينزل على قلب رسوله الكريم من الآيات ما يزيدها جلاء ووضوحاً فيقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربّي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾[1].

وخلاصة المراد من قوله تعالى من الآية والله اعلم: لقد جحد القائلون بألوهية عيسى الحقيقة، وألقوا عليها ستاراً كثيفاً. والمسيح نفسه يقول للناس اعبدوا ربّي وربكم، وإن من يدعو مع الله إله آخر فقد أشرك به، ومن يشرك بالله تعالى فقد حرّم الله عليه الجنة وجعل مصيره إلى النار.

ولو كان المسيح إلهاً، أفما كان بمقدوره أن يدفع عن نفسه قهر الله..؟ الله الذي لو شاء لأهلكه وأمه؟ ولا يملك أحد في الأرض أن يصرف عن المسيح حكم الله الذي لا مردّ له، والذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، وله تصريف شئونه وإفناؤه.

والواقع أن هذا القول الواضح في القرآن الكريم والمعبر عن وجوب الإقرار لله تعالى بالألوهية ونفيها عمن سواه، وبخاصة عن المسيح، يتفق مع ما هو وارد أيضاً في العهد القديم والجديد.

فقد ثبت أن الأسفار القديمة قد أطلقت لفظة الله على المسيح، وأطلقتها أيضاً

---

(١) المائدة ٧٢.

على المَلَك وعلى القاضي، وعلى الشريف والقوي وعلى النبي.

فقد ورد في سفر القضاة «ولم يعد ملاك الرب يتراءى لمنوح [منوح هو والدشمشون الجبار] وآمرأته. حينئذ عرف منوح أنه ملاك الرب. فقال منوح لامرأته نموت موتاً لأننا قد رأينا « الله »[1] وورد في سفر التكوين خطاباً ليعقوب. « فقال لا يُدعى اسمُك فيما بعد يعقوب، بل اسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت »[2] ولا شك أن المراد هنا وهناك بلفظة الله، الملاك. وورد أيضاً في سفر التكوين: « وظهر الله » ليعقوب أيضاً حين جاء من فدّان آرام [موضع في الأرض المسماة الآن بما بين النهرين وفيها اتخذ يعقوب زوجته ومواشيه] وباركه وقال له « الله » اسمك يعقوب، لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل يكون اسمك اسرائيل، فدعا اسمه اسرائيل. وقال له « الله » انا « الله » القدير أثمر وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك، وملوك سيخرجون من صلبك، والأرض التي أعطيتُ ابراهيم واسحاق، لك أُعطيها، ولنسلك من بعدك أعطي، الارض، ثم صعد « الله » عنه في المكان الذي فيه تكلم معه »[3] وهنا قد أطلق لفظة « الله » على الملاك خمس مرات. ومثل هذا تجده مكرراً في سفر التكوين وفي سواه أيضاً.

وقد ورد في سفر الخروج ما نصه: « ولكن إن قال العبد أحب سيدي وآمرأتي وأولادي لا أخرج حراً يقدمه سيده الى « الله » ويقربه الى الباب أو الى القائمة ويثقب سيده أذنه بالمثقب فيخدمه إلى الأبد »[4] وما نصه: « وإن لم يوجد السارق يقدّم صاحب البيت الى « الله » ليحكم. هل لم يمد يده الى ملك صاحبه ؟ »[5]

---

(١) قضاة ١٣: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) تكوين ٣٢. ٢٩.

(٣) سفر التكوين ٣٥: ٩ ـ ١٣.

(٤) سفر الخروج ٢١: ٥ ـ ٦.

(٥) سفر الخروج ٢٢ :٨.

فالمقصود بـ « الله » في النصين القاضي كما يقول مفسرو النص النصارى.

وورد في سفر التكوين ما نصه: « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات أن أبناء « الله » رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا... وبعد ذلك أيضاً اذْ دخل بنو « الله » على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم[١] » وقد ثبت أن تفاسير اليهود للفظه ابناء الله بأنهم الشرفاء أو أرباب الرتب العالية، أو بالأقوياء..

وورد في سفر صموئيل ما نصه: « سابقاً في اسرائيل، هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل « الله » هلّم نذهب الى الرائي لأن النبي اليوم كان يدعى سابقاً الرائي »[٢] واصطلاح العهد القديم أن الرجل اذا ذهب ليسأل نبياً كان يقول انا ذاهب لأسأل الله كما هو ظاهر في النص هنا..

مما تقدم يبدو جلياً أن كلمة: « الله » أطلقت في أسفار التوراة على مخلوق، أطلقت على الملاك، وعلى الانسان. ولو جاز أن يكون اطلاق كلمة « الله » على المخلوق يقتضي أن تكون له طبيعة لاهوتية لوجب بموجب هذه النصوص التي أوردناها أن يكون هؤلاء الملائكة والقضاة والأشراف أو الأقوياء آلهة. وهو باطل كل البطلان... الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن هذا التعبير إن كان فهو سبيل المجاز لأن هؤلاء جميعاً هم نواب الله في تنفيذ أحكامه، أو لأن فيهم صفة المجد والقوة اللتين هما من خصائص الله.

يضاف الى ما تقدّم أمران هامان هما: أن المسيح عليه السلام وصف نفسه أكثر من مرة في الأناجيل الأربعة بأنه « ابن الإنسان ».. وأنه أبْدى عدم رضاه لوصفه بالصلاح من قبل بعض الناس.

---

(١) تكوين ٦: ٢ - ٤.

(٢) صموئيل ٩ :٩.

ويؤكد الأمر الأول قوله: « ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن انسان فينـدم »[1] ثم قوله في انجيل متى: « لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يُغفر للناس. وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلن يُغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي »[2] ثم قوله أيضاً « فتقدم إليه تلاميذه قائلين فسّر لنا مَثَل زوان الحقل فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت والزوان هو بنو الشرير. والعدو الذي زرعه هو ابليس والحصاد هو انقضاء العالم. والحصّادون هم الملائكة. فكما يُجمع الزوان ويُحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء هذا العالم »[3]، ثم قوله: « الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قومـاً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته »[4] ثم قولـه: « وفيما هـم يتردّدون في الجليل قال لهم يسوع ابن الإنسـان سـوف يُسلَّـم الى أيـدي النـاس فيقتلونه... »[5]. ثم قوله: « ... لأني أقول لكم إن ملائكتهم في السماوات كلَّ حين ينظرون وجه أبي الذي في السماوات لان ابن الانسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك »[6] ثم قوله: « ها نحن صاعدون الى أورشليم ».

أما الثاني فيشهد له ما ورد في إنجيل متى وهو: « وإذا واحد تقدّم وقال له أيها المعلم الصالح أيُّ صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية، فقال له لماذا تدعوني صالحاً ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله »[7] وما ورد في انجيل مرقس: « وفيما

---

(١) عدد ٢٣:١٩.
(٢) متى ١٢: ٣١ – ٣٣.
(٣) ١٣: ٣٦ – ٤٠.
(٤) متى ١٦:٢٨.
(٥) متى ١٧:٢٢.
(٦) ١٨:١١.
(٧) متى ١٩: ١٦ – ١٧.

هو خارج الى الطريق ركض واحد وجثاله وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله... »[1]. وما ورد في لوقا وهو: « وسأله رئيس قائلاً أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله »[2].

فاذا كان المسيح قد سمى نفسه في أكثر من موضع في الاناجيل الأربعة « آبن الانسان » فهو إذن ليس الله كما يقولون. وإذا كان قد رفض أن يوصف بأنه صالح. ثم نفى الصلاح عن كل ما سوى الله تعالى بل وحصر الصلاح في الله وحده، فهل يجوز أن يوصف بأنه إله؟!

من أجل هذا وسواه، وقف الاسلام موقف الرفض لألوهية المسيح بل، ولألوهية سواه أيّا كان وحصرها في الله الواحد القهار. وقال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم. وقال المسيح يا بني اسرائيل أعبدوا الله ربي وربّكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

بل إن القرآن لينفي قطعاً وقوع الشرك، ويؤكد وحدانية الله تعالى ثم يسوق الدليل الذي يثبتها، ويبطل ما عداها فيقول: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق وَلَعَلاَ بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾[3].

٤ ـ موقف الاسلام من بنوة عيسى لله

ويسترسل القرآن الكريم في تتبع أخطاء النصارى وضلالاتهم العقدية،

---

(١) مرقس ١٠: ١٧ ـ ١٨.

(٢) لوقا ١٨: ١٨ ـ ١٩.

(٣) المؤمنون ٩١ ـ ٩٢.

ويتصدى لدعواهم بنوّة عيسى لله وينفيها نفياً قاطعاً ويقول: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

وبهذا يؤكد أن عيسى عبدالله ومخلوقه ورسوله أرسله الى قومه بني اسرائيل. ويثير هذه القضية بالذات عندما جاءه وفد من نصارى نجران. يقول ابن اسحاق: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً. أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، ثلاثة منهم يؤول إليهم أمرهم؛ العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح، والسيّد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم وآسمه الأيْهم، وأبو حارثه ابن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وعالمهم»[1].

وقد دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أصابعهم خواتيم من الذهب، فصلّوا نحو المشرق. فلما أراد بعض الصحابة منعهم من ذلك قال لهم الرسول ﷺ «دعوهم»[2] ثم أقبلوا على رسول الله وسلموا عليه فلم يرد عليهم، وهم يلبسون تلك الحلل ويضعون تلك الخواتيم. فذهبوا الى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وكانوا يعرفونهما من التجارة. فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا. فانصرفوا ثم غدوا عليه بزيّ الرهبان فسلّموا عليه فردّ عليهم ودعاهم الى الاسلام. فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم. وذكرهم الرسول ﷺ بالميثاق وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرُنّه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾[3] والمراد من هذه الآية أن الله تعالى أمر كل نبي أرسله بأن يأخذ الميثاق من أمته بأنه إذا بعث الله محمداً ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وينصروه. يؤيد هذا أن

---

(١) ابن هشام ٢/٤٥.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤/١٠٨.
(٣) آل عمران ٨١.

الرسول ﷺ قال: « لقد جئتكم بها بيضاء نقية. أما والله لو كان موسى بن عمران حيّاً لما وسعه إلا اتباعي » ونقل عن علي ابن أبي طالب أنه قال: « إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام إلا بعد أن أخذ عليهم العهد لئن بعثت محمداً عليه الصلاة والسلام وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرُنّه »[1].

ولقد سأل الوفد الرسول ﷺ فيما سألوه عن عيسى ما تقول فيه؟ وقد أجابهم الرسول ﷺ فتلا قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله﴾[2] والمراد من هذا أن عيسى ليس ابناً لله بل رسوله وثمرة كلمته التي هي « كن » وروح منه. وقد قال الفخر الرازي في معنى كلمة « وروح منه » [جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهر والنظافة قالوا: إنه، روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام، لا جرم وصف بأنه روح][3] وقد ساء هذا الوصفُ وفد نجران، فقالوا للرسول لم تعيب صاحبنا؟ قال ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى. قال: وأي شيء قلت؟ قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله. فقال إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله ونزل قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً﴾[4].

وقد جادل الوفد رسول الله، وبخاصة في ولادة عيسى وبنوته لله تعالى. وقد كان من أهم ما واجههم به قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه

---

(١) الفخر الرازي ٨/١٢٧.

(٢) النساء ١٧١.

(٣) الفخر الرازي ١١/١١٧.

(٤) النساء ١٧٣.

من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[1] وفي توضيح المقصود من هذه الآية يقول الامام الفخر الرازي: «كأنما يريد الله تعالى أن يقول خلقت آدم من تراب ومن غير أب وأم بشريين، ولم يلزم من هذا ان يكون آدم آبناً لله. وإذا كان لم يلزم من هذا أن يكون آدم ابناً لله فلا يلزم ان يكون من وجد من عدم الأب البشري أن يكون ابناً لله. ولما لم يبعد انخلاق آدم من التراب لم يبعد أيضاً انخلاق عيسى من الدم الذي كان يجتمع في رحم أمه. ومن أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ الغاية القصوى»[2].

ولقد تتابع الجدل وآتسع دون أن يصل الرسول ﷺ الى اقناع أعضاء الوفد لأنهم ظلوا متمسكين بما هم عليه من الاعتقاد، ويؤمنون بأنه هو الحق. ولما وصل النقاش بين الطرفين الى حدّ لم يعد ينفع معه الاستمرار فيه طلبهم إلى المباهلة بأمر من الله تعالى الذي يقول فيه: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾[3].

فخرج الرسول في الغداة مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له وفاطمة ابنته تمشي وراءه، وعلي رضي الله عنهم جميعاً خلفهما وهو يقول لهم «إن أنا دعوت فأمّنوا. وهو معنى قوله تعالى ثم نبتهل»[4].

ولما رأى الوفد ما فعله الرسول ﷺ، وأنه جدٌّ وليس بهزل جاؤوا اليه وقالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه..

---

(١) آل عمران ٥٩.

(٢) الفخر الرازي ٨/٨٦.

(٣) آل عمران ٦١ – ٦٢.

(٤) القرطبي ٤/١٠٤.

فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا له: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: «والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قومٌ نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للإستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا الى بلادكم...

وبالفعل فقد أتوا الرسول ﷺ فقالوا له: يا ابا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا. ولكن أبعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا حكماً يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا. فبعث معهم الرسول أبا عبيدة عامر بن الجراح[1].

ولقد انتهوا بالاجمال إلى أن رضي الرسول ﷺ بأن يصالحهم على ألفيْ حلّة يدفعونها له، وعلى عارية من الدروع والرماح والبعير والجياد، وعلى أن لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم. فرجعوا الى بلادهم. ثم لم يلبث السيد والعاقب أن عادا الى النبي وأشهرا إسلامها، كما لحق بهما فيما بعد كُرز بن علقمة أخو أسقفهم وحَبْرهم وأعلن أيضاً إسلامه.

ولقد روي أنه لما قدم وفد نجران على النبي ﷺ يسألونه عن عيسى بن مريم نزل فيهم فاتحة آل عمران الى رأس الثمانين منها[1].

ولا بأس من أن يقرأ كل منّا هذه الآيات ليستكمل الصورة عن الحوار المفيد الذي جرى بين رسول الله ﷺ ووفد نجران، والنقاط العقدية الهامة التي

---

(١) ابن هشام ٢/٤٥.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ١٠٧/٤.

تناولها القرآن الكريم للتعبير عن موقف الاسلام الصحيح من عقائد النصرانية الأساسية، وليعرف مدى ما اتصف به هذا الوحي الكريم من الصفاء والاعتدال والانصاف والعمق في معرفة الحق، وفي إبراز جوانبه ووقائعه..

ويمكننا أن نقول إنه فيها، قد تدرّج في تصوير قدرة الله ثم في بيان تفرّده بالخلق والملك والعلم بصورة كاملة، وفيها جزم من الله بصفته العالمة والحاكمة ذات الصلاحية المطلقة وبأن الإسلام دينه الفريد الذي ارتضاه للناس، وأن الانحراف عنه كفر وضلال وإعراض عن الحق المبين، وفيها الخبر اليقين لصورة نشأة مريم وما أحاطها من تكريم، وحملها وولادتها لابنها عيسى، وما رافق ذلك من خوارق واعجاز..

وبعد هذا يجد القارىء فيها توضيحاً كاملاً لشبه النصارى وخطئها، وبياناً بليغاً للعقيدة السليمة التي ينبغي أن تكون في الله تعالى.

الاسلام والغلو في الدين:

ولقد نهى الله تعالى أهل الكتاب اليهود والنصارى عن الغلوّ في الدين. والغلوّ هو الإفراط وتجاوز الحد. يقول الشاعر:

ولا تَغْلُ في شيء من الأمر واقتصِدْ
كلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وقال مطرّف بن عبد الله: «الحسنة بين سيّئتين» ونقل البخاري في صحيحه عن الرسول ﷺ أنه قال «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبد الله ورسوله»[1].

ورغم ذلك كله فقد استمسكوا فيما هم عليه في غالبهم بينما أسلم البعض منهم.

والشبهة التي عندهم كما هو مرويّ عن علمائهم، أنهم قد رأوا أنه عليه السلام قد خُلق على غير النسق الذي يخلق عليه الناس، وأنه قد ظهر على يديه من

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٦٣١.

الخوارق ما لا يكون إلا من الله تعالى، مثل إبراء الأكمه والأبرص، واحياء الموتى والإخبار بالغيبيّات فقالوا، إن هذه الأمور وأمثالها خارج فعلها عن مقدور البشر وينبغي أن يكون فاعلها إلّهاً.

وبالفعل فإنه ينبغي الاقرار بأن فعل هذه الأمور خارج عن طوق البشر، وداخلٌ في قدرة الله تعالى. ولا نخال أحداً ينازع في هذا. ولكن أليس من حق الله صاحب القدرة المطلقة والاختيار المطلق أن يمكّن بعض خلقه من فعلها باقداره وبإذنه؟!

أوليس هو سبحانه وتعالى قد أذن من قبل للأنبياء السابقين على عيسى بفعل الخوارق والمعجزات؟ أوليس هو الذي قال له إبراهيم عليه السلام: «ربّ أرني كيف تحيي الموتى، قال أوَلَمْ تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» فقال الله تعالى له ليريه من آيات ملكوته العجيب: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم آجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعُهُنَّ يأتينك سَعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[1].

ومما ورد في بيان سبب سؤال ابراهيم هذا السؤال لربه أنه كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسُّدى قد أوحى الله تعالى إليه: إني متخذٌ بشراً خليلاً. فاستعظم ذلك ابراهيم وقال: إلهي!! ما علامة ذلك؟! فقال علامته أن يحيي الميت بدعائه فلما عظم مقام إبراهيم عليه السلام في درجات العبودية وأداء الرسالة خطر بباله «إنّ عليّ أن أكون ذلك الخليل». فسأل الله تعالى إحياء الموتى فقال له الله تعالى ﴿أوَلَمْ تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ على أني خليل الله»[2].

فإبراهيم هنا، قد أحيا الميت جزماً. وموسى كذلك قد أحيا الميت وقلب العصا حيّة وفلق البحر، وأنزل على قومه المنّ والسلوى. وأخرج من الصخرة ينابيع المياه، وفعل غير ذلك كثيراً من المعجزات. وكذلك قد فعل من سبقهما من

(١) البقرة ٢٦٠.

(٢) الفخر الرازي ٧/ ٤١.

الأنبياء أو كان في زمانها أو بعدها مثل ذلك كثير مما هو مشتهر ولا يحتاج إلا الى المراجعة والاستذكار..

وجميع هؤلاء الأنبياء، وقد فعلوا ما فعلوا من المعجزات والخوارق لم ينسبوها الى قدرتهم الذاتية، بل أكدوا بأنهم فعلوها بإذن الله وإقداره. بل وإن فعلهم لتلك المعجزات لم يسوّغ لأقوامهم أن ينسبوهم الى الألوهية أو ما شابه ذلك.

وإن ما ظهر على يدي هؤلاء الأنبياء الكرام، ظهر مثله على يدي عيسى عليه السلام، وعلى يدي محمد ﷺ. ولكنه ظهر جزماً وقطعاً بإذن الله تعالى وإقداره..

وإذا كان آدم قد خلقه الله من تراب، وخرق بخلقه قاعدة الخلق البشرية، ولم يكن مع ذلك، قد استحق أن يكون آبناً لله، أو أن يوصف بأنه آبن لله تعالى.. وإذا كان الأنبياء جميعاً من لدن آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام قد أيدهم الله بالمعجزات والآيات للتدليل على صدق دعواهم بأنهم رسل الله وانبياؤه، فأحيا بعضهم الميت وشفى المرضى وأخبر بالمغيبات، وقطع المسافات الطويلة بالأوقات القليلة، إذا كان الأنبياء قد حصل منهم هذا، فأين مبرّر الاعتقاد ببنُوّة عيسى لله وبألوهيته؟!

أوليس مثل هذا الاعتقاد بعد هذا التوضيح فيه الكثير من الكلفة الفكرية والمشقة الذهنية، فضلاً عن أن فيه الكثير مما يشتت ذهن الانسان الذي يرغب بأن يكون مؤمناً واضح الايمان موقناً صافي اليقين، ويدفعه دفعاً للوقوع في القول بتعدد الآلهة!!..

إن مثل هذا لا يقبله الاسلام في شكل من الأشكال وهو الذي يقول في كتابه الكريم ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولَعَلاَ بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ (١).

---

(١) المؤمنون ٩١ - ٩٢.

٥ ـ موقف الاسلام من الصلب:

لقد سبق أن نقلنا من قبل أن اليهود آدّعوا أنهم صلبوا المسيح وقتلوه. ولقد صدقهم بذلك متأخرو النصارى. وبرّروا ذلك، والمسيح في اعتقادهم هو ابن الله، وهو الله، تعالى الله عن ذلك، بأن من صفات الله العدل والرحمة.. ولقد كان على الله تعالى بمقتضى عدله أن يعاقب ذريّة آدم جميعهم لارتكاب أبيهم خطيئته المعروفة التي سببت له الطرد من الجنّة.. وكان عليه أيضاً بمقتضى رحمته، ان يغفر ذنوب البشر وسيئاتهم.. ولم يكن بدٌّ من التوفيق بين عدله ورحمته، فوسّط آبنه ووحيده ليظهر على شكل إنسان ويعيش كما يعيش الإنسان ثم ينتهي الى ان يصلب ظلماً وبغياً، فيكون في ذلك تكفير لخطايا الناس[1].

وقد ورد في الاصحاح العاشر من انجيل مرقس: « لأن ابن الانسان أيضاً لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدِم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » وورد في الاصحاح الثالث من انجيل يوحنا « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل آبنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية لأنه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم ».

ولقد صلب كما يقولون ودفن بعد الصلب. ولكنه عاد فقام بعد ثلاثة أيام. وقد جاء في انجيل متى في الفقرة اللاحقة ببيان الصلب « اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس قائلين: « يا سيد، قد تذكرنا أن ذلك المُضِل قال وهو حي: أني بعد ثلاثة أيام أقوم، فمُرْ بضبط القبر الى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه، ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشرّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس: عندكم حراس آذهبوا وآضبطوه كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر » وقد ورد في الاصحاح الرابع والعشرين من انجيل لوقا: « ثم في أول الأسبوع، أول الفجر أتين الى القبر حاملات

---

(١) المسيحية للدكتور أحمد شلبي ١٥٥.

الحُنوط الذي أعددنه ومعهن أناس. فوجدن الحجر مدحرجاً عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد يسوع، وفيما هنّ محتارات في ذلك إذا رجلان وقفا بهنّ بثياب برّاقة، واذا كنّ خائفات ومنكّسات وجوههنّ الى الارض، قالا لهن: لماذا تطلبن الحيَّ بين الأموات؟ ليس هو ها هنا، لكنه قام. أذْكرن كيف كلّمكن، وهو بعد في الجليل قائلاً إنه ينبغي أن يسلّم آبن الانسان في أيدي أناس خطاة ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم».

وقد قام كما يقولون. ولكن الأناجيل اختلفت في مكان قيامته فمنها من ذكر أنها كانت في الجليل وهو إنجيل متى، ومنها من ذكر أنه ظهر في أورشليم وهو إنجيل لوقا. ومنها من أورد أنه ظهر في اليهودية والجليل معاً. وأما مرقس فأفاد أنه ظهر بين تلاميذه.

وعلى كل حال، فإنه حسب ما هو منقول، قد مكث بعد ذلك أربعين يوماً ثم ارتفع بعدها الى السماء. ولكنه سيأتي ليدين الناس يوم القيامة فيحاسب كل إنسان على ما فعل وقال، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. يقول في الاصحاح الخامس من إنجيل يوحنا «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي الى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون، لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته. وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الانسان. لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة. أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً كما أسمع أدين. ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني» [١].

---

(١) يوحنا ٥: ٢٤ ـ ٣٠.

وبصرف النظر عن أن هذه الفقرة تنتهي بنص صريح جلي بأن عيسى لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئاً. وأنه لا يطلب مشيئته بل مشيئة الآب الذي أرسله، وهو تعبير لا يتفق مع صفاء ألوهيته التي ينسبها اليه النصارى وكمالها وكليّة تفرّدها، فإنه ثابت منها أن عيسى هو في عقيدة النصارى الذي سيحاسب الناس ويجازيهم.

وموقف الاسلام في هذا المعتقد بيِّن كما ورد في القرآن الكريم﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلف بل طبع الله عليها فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم وقولهم على مريم بُهْتَاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم، وإن الذين آختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[1].

نقض اليهود الميثاق وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق:

وفي هذه الآيات يورد الله تعالى باختصار السبب الذي استوجب لعنته لبني إسرائيل. فيذكر منه نقضهم للميثاق الذي عاهدوا الله تعالى فيه على ألاّ يرجعوا عن الدين، وعلى أن يقيموا حدود الله، وذلك بأنهم رجعوا عن دينهم وأهملوا إقامة حدود الله وأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل. ثم يذكر كفرهم بآيات الله ومعجزاته التي أيّد بها رسوله، ويذكر قتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم بأنهم لا يفقهون ما يقال لهم وينزل عليهم، ثم قولهم على مريم بهتاناً عظيماً بقذفهم إيّاها بالفاحشة كذباً وافتراء، بعد أن رفضوا بيانها الرائع الذي عبّرت به عن قدرة الله وعظيم صنعه وجليل آياته، ويعطف أخيراً على أفعالهم هذه التي تؤذن بمنتهى ما هم عليه من الجرأة في الباطل والتمادي في الشر والإفساد، فهمهم الخطير الذي افتروا فيه على الحق وادعوا به أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم.

---

(١) النساء ١٥٥ ـ ١٥٨.

نفي القرآن للقتل والصلب بصورة قاطعة:

ويتابع الله تعالى كلامه في هذه الآية فينفي بكل الصراحة والوضوح قتل اليهود لعيسى بن مريم على الرغم من أنه قد نسب إليهم طبيعة الإجرام وسفك الدماء والبهتان والافتراء، ويجزم بأنهم ما قتلوه وما صلبوه، وأن الذي وقع، آشتبه عليهم فظنوا أن عيسى هو الذي قد صلب وقتل بينما كان الذي وقع عليه الصلب والقتل شخصاً آخر...

وتذهب الروايات إلى القول فيما تقول عن صورة الواقعة التي أحاطت بعيسى عليه السلام يومذاك.. أن اليهود الذين كانوا يلاحقونه للقضاء عليه استطاعوا أن يوجهوا له تهمة التحريض على الدولة وذلك بالحض على عدم التعاون معها. واستطاعوا أن يقنعوا الحاكم بيلاطس بالقبض عليه لمحاكمته. ولما صدر القرار بذلك انتشروا يبحثون عنه. ولما علموا أنه في بيت مع أصحابه، أمر يهوذا رأس اليهود، رجلاً من أصحابه يقال له طيطابوس أن يدخل على عيسى ويخرجه. فلما دخل عليه، أخرج الله عيسى من البيت بصورة معجزة، وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى. فلما دخل الشرطة ورأوا من ألقي الشبه عليه، ظنوه عيسى بالفعل، فأخذوه ثم حاكموه ثم صلبوه وقتلوه.

على أن الآيات تبيّن بأن اليهود الذين باشروا هذه المهمة قد دخل نفوسهم الشك، وبخاصة بعد أن قتلوه، إذْ انكشف لهم شيء ما انتبهوا إليه ساعة قبضهم على الشخص، وذلك أن الشخص المقبوض عليه كان يشبه عيسى بوجهه فقط وأن جسده لم يكن يشبه جسد عيسى. وفي الوقت نفسه الذي يشير فيه الله تعالى في الآية إلى شك اليهود فيما إذا كان المقتول هو عيسى فهو أيضاً يؤكد بأنهم قتلوا ذلك الشخص الذي قتلوه وهم على غير يقين بأنه عيسى..

يقول صاحب المنار لدى تعليقه على هذه الآيات: « ... وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه الى الجند هو يهوذا الأسخريوطي

وأنه جعل لهم علامة هي أن من قبّله يكون هو يسوع المسيح، فلما قبّله قبضوا عليه...
وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الاسخريوطي نفسه ظنّاً أنه المسيح لأنه ألقى عليه شبهه. فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية»[1].

ويقول ابن تيمية «... ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون إنه لم يصلب. فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود، وكان قد اشتبه المسيح بغيره كما دلّ عليه القرآن وكذلك عند أهل الكتاب، أنه اشتبه بغيره فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس: أنا أعرفه فعرفوه»[2].

ولئن كان الواقع أن عيسى عليه السلام كان مشتهراً في قومه، والأناجيل تؤكد أنه نشأ بين ظهراني اليهود، يتنقل بينهم ويتقلب في مواسمهم وأعيادهم وهياكلهم؛ يعظهم ويعلّمهم ويحاورهم، ويعجبون من براعته وحكمته، ويدهشون لما كان يقع منه من أعمال خارقة، فإنه ليس من المستغرب أن يكون البعض من الجند أو من الناس يجهلون صورته كلياً كما أخبرت به الأناجيل هذه من أن أولئك المكلفين بالقبض عليه لما أرادوا تنفيذ ذلك لم يحققوه، فدفعوا لأحد تلاميذه وهو يهوذا ثلاثين درهماً ليدلّهم عليه، فوضع علامة فارقة يعرفونه منها وهي التقبيل. حيث قال لهم «الذي أقبّله هو مطلوبكم فأمسكوه».

ولما تمّ لهم ما اتفقوا عليه، وأمسكوا الذي قبّله يهوذا، وأحضروه إلى رئيس الكهنة قال له: «أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح؟ فقال له أنت قلت ذلك. وإني أقول لكم إنكم الآن لا تروْن ابن الإنسان حتى تروه جالساً عن يمين القوة آتياً في سحاب السماء»[3].

---

(١) تفسير المنار الجزء السادس ص ١٩.
(٢) الجواب الصحيح ٢/٢٩٦.
(٣) متى اصحاح ٢٦: ٦٣ - ٦٤.

وهذا ولا شك يكشف عن آلتباس عظيم كان يرافق عملية القبض على المسيح، وكان يساور نفوس القابضين عليه، مما يؤكد ما قاله الله تبارك وتعالى: بأنهم كانوا مختلفين في حقيقة القبض على ذات المسيح وقتله وصلبه وأنهم كانوا يتّبعون الظن.

والذي يزيد في قوة صحة هذا التأكيد أن رواية بعض الأناجيل تفيد أنه قد أخذ في حندس من ليل مظلم من بستان، وأن صورته ومحاسنه كلها قد شـوّهـت بالضرب وبأنواع النكال والتعذيب، مما يقوي ظاهرة الاشتباه والالتباس.

بل إنه قد ورد في انجيل يوحنا أن يسوع كان مع تلاميذه في البستان، وأنه لما جاء اليهود ليقبضوا عليه، خرج إليهم مرّتين. وأنه كان يسألهم في كل مرّة من تريدون؟ وأنهم كانوا يقولون له: يسوع وهم لا يعرفونه. يقول النص: « فخـرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه، وقال لهم من تطلبون؟ أجابوه يسوع الناصري. قال لهم أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم، فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء. وسقطوا على الأرض. فسألهم أيضاً من تطلبون فقالـوا: يسـوع الناصري أجاب يسوع قد قلت لكم: إني أنا هو، فإن كنتم تطلبوني فدعوا هؤلاء يذهبون »[1].

ولقد حكى البعض أن المسيح عليه السلام قد أوتي قدرة التحوّل من صورة إلى صورة ومن هيئة إلى هيئة. قال في انجيل متى: « حينذاك قال لهم يسوع كلكم تشكّون فيَّ في هذه الليلة لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدّد خراف الرعيّة ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. فأجاب بطرس وقال له: وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً. قال له يسوع الحق أقول لك إنّك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات »[2].

---

(١) يوحنا اصحاح ١٨: ٤ ـ ٨.

(٢) متى اصحاح ٢٦: ٣١ ـ ٣٢.

وهذا النص، يفيدنا كيف أن المسيح عليه السلام قد شهد عليهم بالشك فيه. بل شهد على البارزين فيهم على بطرس الذي هو خليفته عليهم. كل ذلك يجعلنا نقدّر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإن الذين آختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به إلا اتّباع الظن، وما قتلوه يقيناً﴾[1]. ونعلم أنه في غاية الصدق في تصوير واقع أولئك الذين كانوا يعيشون حول المسيح عند القبض عليه كما يقولون، وكذلك في تصوير حال الذين جاءوا بعده ممن آتّبعوه.

الأناجيل وصلب المسيح:

بل إن الأناجيل التي هي مراجع النصرانية الأولى وتورد قصة الصلب في الظروف التي وردت فيها، لا توحي بمجموعها بأنها قاطعة بأمر الصلب هذا. وهذا موقف يهوذا مع المسيح وهو من هو قرباً وصلة بالمسيح!!. ثم كيف يدلّ على المسيح؟! وكيف يقول له المسيح، يا صديق، يا صاحب لِمَ أقبلت، وهو الذي دلّ عليه؟! وهو المفسد الآثم إثماً كبيراً؟! وكيف يشهد المسيح لتلاميذه الاثني عشر بالسعادة[2] وقد وقع من بعضهم هذا الذي وقع!؟

أليس يحمل هذا على الظن بإمكانية أن يكون المسيح عليه السلام قد ذهب من الجماعة الذين أطلقهم الأعوان. وكان الذي لقيهم باسمه وخاطبهم، غيره ممن شاء أن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله وليدفع الأذى عن المسيح؟

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا «ولقد أنكر الصلب من النصارى فرقة من السيرنثيين والتاتيانوسيين اتباع تاتيانوس تلميذ يوستينوس الشهير. وقال فوتيوس إنه قرأ كتاباً يسمى رحلة الرسل، فيه أخبار بطرس ويوحنا واندراوس وتوما وبولس، ومما قرأه فيه: «أن المسيح لم يصلب. ولكن صلب غيره. وقد ضحك

---

(١) النساء ١٥٧.

(٢) متى ١٩: ٢٨.

بذلك من صالبيه ». هذا وإن مجامعهم الأولى قد حرّمت قراءة الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها، فصار أتباعهم يحرقون تلك الكتب ويتلفونها. وإننا نرى ما سلم بعض نسخه منها كإنجيل برنابا، ينكر الصلب. وما يدرينا أن تلك الكتب التي فقدت كانت تنكر الصلب أيضاً ».

تعارض الأناجيل واختلافها يزيد في تأكيد شبهة عدم الصلب:

على أن الأناجيل الأربعة التي هي اليوم بين أيدينا، والتي هي موضع تقديس النصارى، ليست هي الأناجيل الوحيدة التي كانت موجودة قديماً. يقول الدكتور موريس بوكاي: « وينبغي أن يعرف فيما يخص عشرات السنين التي تلت رسالة المسيح، بأن الأحداث لم تجر مطلقاً كما قيل، وأن مجيء بطرس إلى روما لم يركز أبداً الكنيسة على أسسها. بل على العكس لقد شاهدنا خلال أكثر من قرن، بين الفترة التي ترك فيها المسيح هذه الأرض، وحتى منتصف القرن الثاني معركة بين اتجاهين؛ بين ما يمكن أن نسمّيه المسيحية البوليسية، واليهودية المسيحية...

« ولقد أخذت الأولى في تدرج جديد، مكانة الثانية وانتصرت عليها.. ولقد سمح عدد كبير من الأعمال يعود إلى عشرات السنين الأخيرة ويرتكز على اكتشافات زماننا، بالوصول إلى هذه المفاهيم الحديثة التي يرتبط بها اسم الكاردينال دانييلو. إن البحث الذي نشره في كانون الأول سنة ١٩٦٧ في مجلة « دراسات » « رؤية جديدة في أصول المسيحية التي هي اليهودية ـ المسيحية » متناولاً أعمالاً سابقة، وموضحاً تأريخها، ويسمح لنا بأن نضع ظهور الأناجيل في ظرف مختلف جداً عما يفهم من الأبحاث المخصّصة للنشر الواسع. وسنجد فيما يلي ملخصاً للنقاط الأساسية لمقاله مع مقتطفات واسعة ».

« تشكل « جماعة الرسل الصغيرة » بعد المسيح « مذهباً يهودياً أميناً على الممارسات

---

(١) تفسير المنار ٦/٣٥.

ومراسم المعبد. ولكن كان يطرح عليهم نظام خاص، كلما تتّصل بهم مجموعات المرتدّين من الوثنيين ـ إن صح هذا التعبير ـ. فلقد أعفاهم مجمع القدس لسنة ٤٩ من الختان ومن ممارسات اليهود « كثير من اليهود ـ المسيحيين رفض هذا التنازل » وقد آنفصلت هذه الجماعة عن بولس تماماً. وبالاضافة إلى أنه، بالنسبة إلى المرتدّين من الوثنيين فإن بولس واليهود ـ المسيحيين قد تصادموا « حادث انطاكية ٤٩ » « فقد أسقط بولس الختان، والسبت، ومراسم المعبد حتى بالنسبة إلى اليهود. وقد كان على المسيحية أن تتحرر من آنتمائها السياسي الديني إلى اليهودية لتنفتح على الوثنيين ». ».

« وأما بالنسبة إلى اليهود المسيحيين، وقد بقوا « اسرائيليين أمناء » فقد كان بولس خائناً. ولدى اليهود المسيحيين وثائق تصفه « بالعدو » وتتهمه « بالازدواجية المداهنة ». ولكن « اليهودية ـ المسيحية » كانت تمثل حتى سنة ٧٠ غالبيّة الكنيسة. وظل « بولس معزولاً ». وكان رئيس الجماعة إذْ ذاك يعقوب الذي كان معه في البداية بطرس ويوحنا « يمكن أن يكون يعقوب معتبراً كعمود لليهودية ـ المسيحية التي ظلت بقصد مندمجة في اليهودية في مواجهة المسيحية البولسية » وقد أخذت أسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس اليهودية ـ المسيحية هذه « وخلف يعقوب سيكون سمعان بن كليوفاس بن خالة السيد المسيح ».

« وهنا يذكر الكاردينال دانييلو كتابات يهودية ـ مسيحية مترجمة الرؤى عن مسيح هذه الطائفة التي شكلت آبتداء حول الرسل، انجيل اليهود [منقولاً عن طائفة يهودية ـ مسيحية مصرية] ورسامو كليمان والمعارف الكليمنتيّة ورؤيا يعقوب الثانية وإنجيل توما. وإلى هؤلاء اليهود ـ المسيحيين يجب من دون ريب ربط أقدم آثار الأدب المسيحي التي يذكرها بالتفصيل الكاردينال دانييلو ».

« ولم تكن هيمنة اليهودية ـ المسيحية طيلة القرن الأول للكنيسة فقط في القدس وفلسطين، بل كانت رسالتها منتشرة في كل مكان سابقة على الرسالة

البولسية. وهذا ما يفسر، لماذا شكلت رسائل بولس دونما انقطاع حضاً على نزاع» أولئك كانوا الخصوم أنفسهم الذين كانوا يرون في كل مكان من جالاتيا وكورنثيا وكولوسيكا وروما وأنطاكية..

«والساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى أنطاكية هو يهودي مسيحي «كما تشهد به أعمال الرسل، وكتابات كليمنتين» أما في آسيا الصغرى، فقد ثبت وجود اليهود ـ المسيحيين في الرسائل إلى الكالات والكولوسيين لبولس. وقد عرفت كتابات بابياس باليهودية ـ المسيحية لفريجي. وأول رسالة من بولس للكورنثيين نوّهت في اليونان بوجود يهود ـ مسيحيين في أبولوس على الخصوص. إن روما «مركز مهم» كما تفيد رسالة كليمان راعي هرمياس. ويشكل المسيحيون في رأي سيباتون وتاسيت مذهباً يهودياً. ويذهب الكاردينال دانييلو إلى أن أول أنجلة لافريقيا كانت يهودية ـ مسيحية، وأن أنجيل العبرانيين وكتابات كليمان الاسكندري يرتبطان بها».

«من المهم أن نعرف هذه الوقائع، لندرك في أي جوّ من النزاع بين الطوائف كتبت الأناجيل، ولتوضيح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر، حوالي سنة ٧٠، في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتناقشتان في ألدّ الخصام. وأن اليهود ـ المسيحيين كانوا ما برحوا هم المسيطرين. ولكن في سنة ٧٠ آنقلب الوضع مع الحرب اليهودية وسقوط القدس. والكاردينال دانييلو يوضح السقوط كما يلي:

«لما كانت مكانة اليهود قد ضعفت في الامبراطورية، فقد آتجه المسيحيون إلى الانفصال عنهم، فهيمن المسيحيون اليونان، وحقق بولس نصراً بعد موته، وتخلّصت المسيحية آجتماعياً وسياسياً من اليهودية، وأصبح الشعب الثالث، بينما ظلت اليهودية ـ المسيحية المهيمنة ثقافياً حتى الثورة اليهوديّة الأخيرة سنة ١٤٠.

ومنذ سنة ٧٠ حتى مرحلة هي قبل سنة ١١٠ كما نحدّدها ظهرت أناجيل

مرقس ومتى ولوقا ويوحنا، فهي لا تمثل الوثائق الثابتة الأولى للمسيحية، لأن رسائل بولس سابقة جداً عليها؛ إذْ يرى كولمان أن بولس قد حرّر رسالته إلى أهل تسالونيك عام ٥٠ ولكنها اختفت على الأرجح قبل بضع سنوات من انتهاء إنجيل مرقس».

«ولما كان بولس لم يعرف المسيح حيّاً، فقد برّر شرعية مهمته بالتأكيد على أن المسيح قد ظهر له بعد قيامته على طريق دمشق في الوقت نفسه الذي كان يمثل فيه الوجه الأكثر مناقشة في المسيحية وينظر إليه على أنه خائن فكرة المسيح من قبل أسرته، ومن قبل الرسل الذين بقوا في القدس حول يعقوب. لقد صنع بولس المسيحية على حساب هؤلاء الذين أحاط بهم المسيح نفسه لينشر تعاليمه».

«وإنه لمن الحق التساؤل ماذا كان مصير المسيحية لولا وجود بولس؟ ويمكن في هذا المجال وضع العديد من الافتراضات. غير أنه يمكن المراهنة فيما يتعلق بالأناجيل بأن لو لم يكن جوّ الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم «كتابات القتال هذه» التي ظهرت في مرحلة الخلاف والنزاع بين الطائفتين كما وصف ذلك الأب كننغسر، فقد برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح عندما كانت المسيحية ذات الأسلوب البولسي بعد أن انتصرت نهائياً، فقد كوّنت مجموعة نصوصها الرسمية «القانون» الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة، وحكم بأنها معادية للأرثوذكسية».

«وهكذا آختفى اليهود المسيحيون كطائفة مؤثرة، وظل يسمع الحديث عنهم في ظل تسمية عامّة هي «المتهوّرين» ويعرض الكاردينال دانييلو نهايتهم كما يلي:

«بمجرد أن فصلوا من الكنيسة الكبرى التي تحرّرت تدريجيّاً من آرتباطاتها اليهودية قضي عليهم في الغرب سريعاً. وتتبعت آثارهم في الشرق من القرن الثالث حتى الرابع وبخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وشرق الأردن وسوريا. وبلاد ما

بين النهرين. واندمج بعضهم في الإسلام الذي كان وريث قسم من تعاليمهم، بينما آرتبط البعض الآخر بأرثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافي سامي ولا يزال شيء منها موجوداً في الكنيسة الأثيوبية الكلدانية »[1].

وإن هذا الكلام العلمي الواضح الذي ساقه الدكتور موريس بوكاي ليزيد أيضاً في تأكيد ورود الشبهة التي أثارها القرآن وجزم بها حول صلب وقتل المسيح لأن معلومات الأناجيل، منقولة لنا في ظروف شديدة الغموض والابهام فضلاً عن أنها معلومات واردة من غير معاصرٍ يمكن الاعتماد عليه بيقين. بل هي من متأخرين كما تبين، لم تكن منهم لعيسى مصاحبة ولا مشاهدة.

الصلب في عقيدة الوثنيين:

على أن بعض علماء التاريخ قد نقل بأن فكرة خلاص البشر بواسطة تقديم أحد الآلهة فداءً عن الخطيئة التي وقع فيها أبوهم آدم، قديمة العهد. قال « دوان » في كتابه خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى ص ١٨١ - ١٨٢ ما ترجمته ملخصاً: « إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحةً فداءً عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم... » منها قوله: « يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر الذي هو نفس الإله فشنو الذي لا ابتداء له ولا آنتهاء على رأيهم - تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحةً عنه » و« ذكر أنّ [مستر مور] قد صوّر كرشنا مصلوباً، كما هو مصوّر في كتب الهنود مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً. ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب والنصارى تقول إن يسوع صلب وعلى رأسه إكليل من الشوك ».

وقال [هوك] في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته « ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداءً للناس من الخطيئة ». وقال

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث ترجمتنا ص ٥٥ - ٥٨. للدكتور موريس بوكاي.

[مورينور ليمس] في ص ٢٦ من كتابه « الهنود » ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الاصلية. ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسّلاتهم التي يتوسلون بها بعد « الكياترى » وهو « أني مذنب ومرتكب الخطيئة وطبيعتي شرّيرة وحملتني أمي بالإثم فخلّصني ياذا العين الحندقوقية. يا مخلّص الخاطئين من الآثام والذنوب ».

وقال القس جورج كوكس في كتابه « الديانات القديمة » في سياق الكلام عن الهنود « ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدّم شخصه ذبيحة ».

هذا وأما ما يروى عن البوذيين في « بوذا » فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه. حتى إنهم يسمّونه المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم ويقولون إنه انسان كامل وإله كامل تجسّد بالناسوت. وإنه قدم نفسه ذبيحة ليكفّر ذنوب البشر ويخلّصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها. ويجعلهم وارثين لملكوت السماوات. وقد بيّن ذلك كثير من علماء الغرب منهم [بيل] في كتابه « تاريخ بوذا » و[هوك] في رحلته و[مور] في كتابه تاريخ الآداب السنسكرتية »[1].

كل هذا قد أوردناه بين يدي موقف الاسلام من موضوع صلب المسيح عليه السلام لمزيد من التبرير لهذا الموقف، ولتكثيف الأضواء عليه، ليفهمه كل الناس على حقيقته التي تثبت أن عيسى عبد الله ورسوله، وتثبت خطأ ما نسب إليه من أن اليهود قد صلبوه أو قتلوه، وتؤكد أن الواقع غير ذلك وأن الذي أشيع عنه من أنه قد صلب وقتل كان ثمرة اشتباه ورد على أبصار الذين حاولوا القبض عليه وأذهانهم.. والحقيقة أن الله تعالى قد حباه ورعاه وحفظه وأنقذه من أيدي الظلمة البغاة ثم رفعه إليه...

٦ - عيسى والرفع: ثم إن الله تعالى ليخبرنا جازماً بأنه رفع عيسى إليه فيقول: ﴿... وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه، ما لهم إلا اتباع الظن وما

---

(١) تفسير المنار ٣٢/٦ - ٣٣ وكتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية.

قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ . ونظير هذا القول قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إذْ قال الله يا عيسى إني مُتوفّيك ورافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا...﴾ [1] .

ولقد أعلمنا الله تعالى قبل ذلك في القرآن الكريم أن اليهود قد ضايقوا عيسى كل المضايقة، ومكروا به مكراً شديداً حتى أحس منهم الاصرار على الكفر وفِعْلَ كلِّ ما يتفق معه، من العدوان على الحق وعليه، فاتجه إلى المؤمنين يبحث فيهم عمن يكون له نصيراً وحامياً من أولئك الكفرة الباغين فقال تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله وآشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت وآتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ [2] .

ولقد كان من عناصر مكر الله تعالى أن أكرم عيسى عليه السلام وأخبره بما يكيدون له، وأنه سينقذه من مكرهم، كما أخبره بما سيكـون بعـد ذلـك . وقـد أورد الحافظ بن كثيـر وابن جرير وغيرهما من المفسّرين أن المسيح لما قرب وقت القبض عليه، ندب أصحابه ثلاث مرات طالباً أن يتقدّم واحد منهم ليفديه ويقدّم نفسه إلى اليهود عوضاً عنه ويكون جزاؤه الجنّة، فلم ينتدب له في كل مرة إلا واحد بعينه. فلما جاء أعداؤه ألقى الله على صاحبه الذي انتدب له شبه المسيح، وصار بحيث لا يشك أحد من أصحابه في أنه يسوع، فألقي القبض عليه وصلب وقتل. ويقول بعض العلماء، إن هذا الذي ألقي عليه شبه عيسى هو يهوذا الأسخريوطي».. ولكن الشائع سواه. وهو أن الذي ألقي عليه شبهه إنما هو « يهوذا الأسخريوطي الذي واطأ الكهنة على الدلالة عليه لقاء أجر » [3] .

---

(١) آل عمران ٥٥ .

(٢) آل عمران ٥٢ ـ ٥٤ .

(٣) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص ٤٢٢ .

وقد اختلف علماء التفسير في معنى التوفي والرفع الواردين في الآية إلى أقوال أهمها :

١ ـ إنَ في الكلام تقديماً وتأخيراً . والمعنى أني رافعك إلي ومتوفيك بعد انـزالي إيّاك في الدنيا .

٢ ـ إني مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك .

٣ ـ إن الله تعالى قد توفى ، بالفعل ، عيسى بن مريم لمدة زمنية مخصوصة ، ثم رفعه إليه حياً [١] .

وجمهرة علماء المسلمين ذهبوا إلى أن الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام بروحه وجسده حيّاً إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قاله القرطبي واختاره الطبري . والكثيرون من العارفين يقولون بأنه رفع إلى السماء الرابعة. ويقول ابن عباس إن الله تعالى رفعه إلى السماء الدنيا . فهو فيها يسبّح مع الملائكة ، ثم يهبطه الله تعالى عند ظهور الدجّال على صخرة بيت المقدس [٢] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله ﷺ لَيَنْزِلَنَّ ابن مريم حكماً عادلاً فَلَيَكْسِرَنَّ الصليب وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزير وليضعنَّ الجزية وَلَتَتْرُكَنَّ القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد » . وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ليُهِلَّن ابن مريم بفجّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنّيهما » وعن رسول الله أنه قال : « ليدركنَّ المسيح بن مريم رجالاً من أمتي مثلكم أو خيراً منكم يقول ذلك ثلاث مرات » ذكره ابن برجان في كتابه الأرشاد [٣] .

وقد ورد في هذا المعنى أحاديث وأخبار ، بعضها مرفوع إلى رسول الله ﷺ ،

---

(١) الفخر الرازي ٧٤/٨ .

(٢) الألوسي ١٨٢/٣ .

(٣) التذكرة للقرطبي ص ٦٧٥ .

وبعضها صحيح، وبعضها آراء للمفسّرين، أو عن بعض من أسلم من أهل الكتاب. ولكنها كلّها لم تتجاوز أن تكون حديث آحاد. وأحاديث الآحاد ليس لها قوّة الأحاديث المتواترة ولا قوة القرآن.

وأحاديث الآحاد وإن كان يمكن الاستفادة منها بالتعرّف إلى الأحكام الشرعية، إلا أنها لا تكون ملزمة إن كانت متعلقة بشأن اعتقادي، لأن الأمور الاعتقادية لا يؤخذ بها إلا إذا كانت واردة بنصٍّ قطعي يفيد اليقين وذلك كنص القرآن الكريم، أو كنصِّ الحديث المتواتر.

وهنا غلب عند بعض العلماء رفض مفهوم كلٍّ من كلمتي الرفع والتوفي، على أساس القول الأول الذي يفرض في نص الآية احتمال التقديم والتأخير ويجعل المعنى إني رافعك إلي ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، وذهب إلى القول بأن مفهوم التوفي هو على ظاهره أي مميتك، ومفهوم الرفع هو رفع المكانة لا رفع الجسد. وهو ما ذهب إليه ابن حزم من فقهاء الظاهرية. وقد أخذ به الامام الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شلتوت وعدد كبير من العلماء في القديم والحديث[1].

على أن بعضاً من هؤلاء العلماء وبخاصة الظاهرية منهم، يرون التوفيق بين هذا الفهم ونصوص الحديث، بأن الله تعالى سيخلقه مرة ثانية ويعيده إلى الدنيا، ويكون منه ما نصت على ذكره تلك الأحاديث والأخبار الصحيحة.

بيد أن الشيخ محمد رشيد رضا يرى أن خبر رفع عيسى عليه السلام بجسمه وروحه ثم نزوله غير وارد بصراحة لا في القرآن ولا في الحديث الشريف، وأن ذلك المفهوم انتشر في المسلمين بتأثير من النصارى الذين استطاعوا بأسلوب ما دفعه في اتجاه الفكر الإسلامي، بحيث أصبح مع الزمن مقبولاً منه. وفي هذا يقول

---

(١) راجع تفسير الرازي والطبري والقرطبي والمنار والألوسي في قوله تعالى: يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ.

في كتابه تفسير المنار « ليس في القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء ، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء . وإنما هي عقيدة أكثر النصارى ، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها في المسلمين » ويقول أيضاً : « وإذا أراد سبحانه وتعالى أن يصلح العالم فمن السهل أن يصلحه على يد أي مصلح ، ولا ضرورة إطلاقاً لنزول عيسى أو أي أحد من الأنبياء ».

ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله الذي يقول: « إن هذه الأحاديث فضلاً عن أنها ليست متواترة، لم تشتهر قط إلا بعد القرون الثلاثة الأولى »[1].

ويبدو من متابعة أكثر كتابات المفكّرين الإسلاميين المحدثين أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ مصطفى المراغي والشيخ عبد الوهاب النجار وسيّد قطب والشيخ محمد أبو زهرة وغيرهم، أن آتجاه ركبهم بمجموعه هو بصورة قاطعة إلى القول بموت السيّد المسيح عليه السلام وارتفاعه بروحه إلى بارئه ارتفاع مكرّماً كما رفع من قبل مكاناً عليا ادريس عليه السلام . وأن القول بارتفاع المسيح إلى السماء بجسده وروحه قول متأثر إلى حدّ بعيد بالفكر المسيحي الذي يرى أن عيسى رفع إلى السماء بعد أن كان قد نزل إلى الدنيا ليفدي خطايا البشر .

٧ ـ موقف الاسلام من دعوى الفداء :

ويتابع الإسلام مواقفه من العقائد النصرانية بلسان رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويتصدّى أيضاً لمفهوم الفداء في النصرانية وهو المفهوم الذي تبرّر في ضوئه نزول الإله وتجسده ثم قبوله بأن يصلبه الناس فداءً لخطاياهم . هذا الواقع الذي يرتضي فيه النصارى الاعتقاد بأن الله تعالى قد أرسل ولده الوحيد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ليهان على أيدي الناس، وليعذّب

---

(١) المسيحية الدكتور شلبي ص ٥٤ .

ويبصق عليه ويضرب بالقصبة ويوضع على رأسه أكليل من الشوك[1]، وينشر على الصليب وتسمّر يداه ويسيل دمه ويموت وهو على الخشبة ليفدي الناس ويخلصهم من عذاب جهنّم بسبب خطيئة والدهم آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن أن يأكل منها عندما كان في الجنّة.

أجل يتصدى الفكر الإسلامي لهذه الدعوى ويتساءل، لو صدقت فما هو مصير موسى بن عمران؟ هل أدخله الله تعالى الجحيم وخلّده فيها بعد أن كلمه واصطفاه وأكرمه وارسله رسولاً الى بني إسرائيل؟ وما هو مصير ابراهيم عليه السلام من قبل، وهو الذي آتخذه الله خليلاً، وأخبر عنه تعالى بأنه كان أوّاها حليماً، وهو جد الأنبياء والرسل من بني إسرائيل؟ ثم ما هو مصير كل الأنبياء الذين سبقوا ظهور عيسى كيحيي وزكريا ويوشع وهارون وداوود وسليمان ويونس واليسع وذي الكفل ويونس ويعقوب واسحاق واسماعيل ونوح وإدريس، هؤلاء الذين أكثر الله تعالى من تعداد أفضالهم ونشر محامدهم على البشرية؟ هل سقط كل هؤلاء في جهنّم فذاقوا فيها وبال أمرهم؟!.

ولماذا لم تنبّه التوراة، وهي كتاب مقدّس عند النصارى، أرسلها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام الى بني إسرائيل؟! لماذا لم تنبّه الى أن ذنب آدم ظلّ معلّقاً في أعناق بنيه وسيظل حتى يأتيهم في آخر الزمان من يَفْديهم منه بدمه وعذابه وموته على الصليب؟ ولم لم يصرح بذلك الأنبياء والرسل على كثرتهم وتباعد الزمان بين مرسل؟.

بل التساؤل ليذهب بالفكر الى أبعد من هذا فيقول، عندما كان عيسى عليه السلام مصلوباً وهو إله كما يقول النصارى، من كان يدبّر الكون، ويمسك السماء أن تقع على الأرض، وينبت الزرع ويرسل السحاب وينزل المطر، ويخلق البشر ويميتهم ويرزقهم ويشرق لهم الشمس ويغربها ويحرك الكواكب كلها في مسارها المنتظم الدقيق؟!

---

(١) راجع مرقس اصحاح: ١٥: ١٦ ـ ٢٠.

ألم يردْ في التوراة ما نصه: «وإذا كان على إنسان خطيّة حقّها الموت فقتل وعلّقْتَه على خشبة فلا تَبِتْ جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المعلّق ملعون من الله»، فهل يجوز أن يقع هذا الحكم على عيسى بوصفه كرسول فضلاً عنه بوصفه ابناً لله، تعالى الله عن ذلك؟!

الإسلام وخطيئة آدم:

صحيح في نظر الإسلام ان الله تعالى نهى آدم وزوجه حواء عن أن يقربا شجرة مخصوصة في الجنة التي أنزلها فيها، وأن يأكلا منها فقال لها: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وُوْرِي عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين، فدلاّهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يُخرجنكما من الجنّة فتشقى. إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرىٰ وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخُلد وملك لا يبلىٰ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[2] وقال في سورة البقرة بعد عرض الواقعة بأسلوب آخر: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم﴾[3].

معنى التوبة:

ومفهوم التوبة في الأصل، هو الرجوع. وهي لفظ يشترك فيه الرب والعبد؛

(١) الأعراف ١٩ ـ ٢٢.
(٢) طه ١١٧ ـ ١٢٢.
(٣) البقرة ٣٧.

فإذا وصف بها العبد ، كان المعنى رجع الى ربه ، لأن العاصي كالهارب من ربّه ، فإذا تاب فقد رجع الى ربه . والرب يعرض عن عبده حال معصيته فإذا وصف بها الله تعالى كان المعنى أنه رجع على عبده برحمته وفضله ومغفرته . ولهذا كان الاختلاف في حرف الصلة فيقال في العبد تاب الى الله ويقال في الله تاب على العبد . . .

والاسلام يخبرنا بأن آدم قد عصى ربه وانه قد غوى . ولكنه يلحق ذلك بخبر آخر ، هو أن آدم لم يثبت على معصيته التي اجترحها ، بل ندم على فعله لها ، وبكى كثيراً وسأل ربه المغفرة ، فتقبّل الله رجعته وتوبته ، فهداه الى كلمات ليقولها وتضمن له توبة الله عليه. وكانت التوبة كما أخبرنا الله تعالى. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داوود لكان بكاء داوود أكثر . ولو جمع بكاء أهل الدنيا وبكاء داوود الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر . ولو جمع بكاء أهل الدنيا وبكاء نوح إلى بكاء آدم على خطيئته لكان بكاء آدم أكثر » . وإذا كان آدم قد بكى وندم واستغفر الله تعالى فقد استحق من الله قبول التوبة لأن الله تعالى يقول على لسان نوح : ﴿فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفاراً﴾[1] .

ويقول ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [2] ويقول: ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾[3] ويقول: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾[4] لأن الرسول ﷺ يؤكد قول الله تعالى فيقول : ﴿إن عبداً أصاب ذنباً فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفر لي فقال ربه : علم عبدي أنه له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر

---

(١) نوح ١٠.
(٢) المزمل ٢٠.
(٣) هود ٦١.
(٤) غافر ٣.

له . ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر . فقال يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي فقال ربه . إنّ عبدي علم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له . ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال يا رب أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي . فقال ربه علم عبدي ان له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به فقال له ربه غفرت لعبدي فليعمل ما شاء » . أخرجاه في الصحيح[1] .

وعنه ﷺ عن جبريل عن ربه قال: ﴿يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا . يا عبادي إنكم تخطئون بـالليـل والنهـار وأنـا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. ويا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكْسُكُم يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على قلب أتقى رجل منكم لم يزد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم آجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم. فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه﴾ .

ولا يكتفي الاسلام بأن يقول إن الله تعالى غفار للذنوب والخطايا تواب رحيم، بل يزيد على هذا فيقول، إن العبد إذا أذنب وعصا أمر ربّه ثم ندم وتاب إليه يتقبل الله منه التوبة، ويكفّر عنه السيئات ويغمره برحمته وعفوه وإكرامه. يقول الله تعالى : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلاهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حـرّم الله إلا بالحق، ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣/٢٦ .

سيئـآتهم حسنـات وكـان الله غفـوراً رحيماً﴾ ويقـول الله تعـالى: ﴿أقـم الصلاة طَرَفَيْ النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. وفي هذه الآية يجعل العمل الصالح ماحياً للسيئة وهو ما شرحه الرسول ﷺ في حديثه الوارد عن أبي أمامة قال: «بينما أنا قاعد عند رسول الله، إذ جاءه رجل فقال يا رسول الله أصبـت حداً فأقمه علي، قال فأعرض عنه، ثم عاد فقال مثل ذلك وأقيمت الصلاة فدخل رسول الله ﷺ فصلّى ثم خرج فخرجت وكنت أمشي معه والرجل يتبعه ويقول يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه علي فقال ﷺ: أليس حين خرجت من بيتك توضأت فأحسنـت الوضـوء؟ قـال بلى يـا رسـول الله، قـال وشهدت معنا هذه الصلاة؟ قال بلى يا رسول الله، قال فإن الله قد غفر لك حدّك أو قال ذنبك» رواه مسلم.

بل إن الإسلام ليرى أن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده. وليس ظالماً قاسياً عليهم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وفي هذه الآية وأمثالها ما فيه من عظيم المنّ على الناس بما يحيطهم به من ألطاف ورعاية وحنان. وهذا رسول الله ﷺ يصف الله تعالى بمثل هذا فيقول فيما رواه عنه عبد الله بن عمر، قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التفّ عليه. فقال يا رسول الله، إني مررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهُنّ فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهنّ فوقعت عليهنّ فَلَفَفْتهنّ جميعاً في كسائي فهنّ معي، فقال ﷺ ضعْهنّ عنك، فوضعهن فأبت أمهُـنّ إلا لزومهن فقال ﷺ أتعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟ قالوا نعم يا رسول الله!! قال: والذي نفس محمد بيده، أوْ قـال فـوالذي بعثني بـالحق نبيّـاً، لله عـزّ وجلّ أرحم بعبادِه من أم الأفراخ بفراخها. إرجع بهنّ حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن فرجع بهن».

الاسلام يرفض دعوى الفداء :

ومع موقف الاسلام الصريح هذا ، وهو الجزم بقبول الله تعالى توبة العبد المذنب ، بل وتكفيره لسيئاته بكل عمل صالح يعمله ، وشموله برحمته الواسعة ورأفته الشفوقة ننتهي الى أن نؤكد بأن الإسلام يرفض دعوى الفداء أصلاً ويعتبرها غير متكافئة مع عظيم خير الله ومنّه على عباده ، وبخاصة بعد أن تحققت توبة الله على آدم قبل أن يهبطه الى الأرض من الجنة التي كان فيها .

ولا تزر وازرة وزر أخرى:

يضاف الى ما تقدّم أنَّ آدم هو الذي عصى وأثم وليس أولاده من بعده. ثم إنه قد ثبت أنه قد تاب وندم واستغفر ، وان الله تعالى قد قبل منه توبته واستغفاره . وما ذنب ذريّته من بعده الذين كتب الله لهم أن يعمروا الأرض حتى يرثها الله ويرث من عليها ؟! ما ذنب إدريس ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى والأنبياء كلهم ومحمد ﷺ ، ما ذنب هؤلاء جميعاً وهم لم يأكلوا من الشجرة ولم يأثموا ؟! فلِمَ يتحملون وزر آدم ويعانون من آثار جريرته ؟!

إن وقفة الاسلام هنا ، شأنه في كل مواقفه ، صريحة واضحة تأتلف مع المنطق السليم. إنه يرى أن كل إنسان يحمل ثمرة ما يعمل ولا يتحمل من آثار أعمال سواه إلا ما يبدو من دراستها أن له فيها ضلعاً أو مشاركة قريبة أو بعيدة...

والاسلام يرى أن موقفه هذا هو موقف الدين من قبل ، الدين الذي ارتضاه الله لعباده من لدن آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿أفرأيت الذي تولّى وأعطى قليلاً وأكْدى ، أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبّأ بما في صحف موسى ، وابراهيم الذي وفّى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى ، وان ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[1] .

---

(١) النجم ٣٣ - ٤١ .

فكل نفس لا تكسب في نظر الاسلام إلاّ عليها. وكل امرىء بما كسب رهين. ولا يحمل إنسان وزر آخر، ولا يؤاخذ بذنب سواه. وكلّ يباشر ويلقى ثمرات خطيئته وأعقابها ونتائجها، وعليه وحده تقع مغبّتها. وقد روى أبو داوود عن أبي رِمْثه قال: «انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ لأبي «ابنك هذا»؟ قال: «أي ورب الكعبة قال: «حقاً» قال: أشهد به قال: فتبسّم النبي ﷺ ضاحكاً من ثَبْت شَبَهي في أبي ومن حَلِفِ أبي عليَّ ثم قال «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه».

٨ ـ موقف الاسلام من التثليث:

ولقد رأينا من قبل اختيار النصارى لعقيدة التثليث، بينما رأينا التوراة قد نزلت على موسى تأمره ليدعو بني إسرائيل الى الله الواحد القهار ورفض الوثنية وكل تعديد للآلهة.. كما علمنا أن الله تعالى قد أرسل عيسى عليه السلام مصدّقاً لما بين يديه من التوراة أي مصدّقاً أيضاً بعقيدة التوحيد وداعياً إليها..

ومع ذلك فقد ثبتت العقيدة النصرانية على الأصل الذي بيّنه المجمع في نيقية. وهو: «الإيمان بإله واحد، أب واحد ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبربّ واحد يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنّس وصلب عنّا على عهد بيلاطس وتألم وقبر وقام من الأموات في اليوم الثالث»[1] الخ.

قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية، الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس. فإلى الآب ينتمي

---

(١) محاضرات في النصرانية للشيخ أبي زهرة ص ١١٧.

الخلق بواسطة الإبن، والى الإبن الفداء، والى الروح القدس التطهير».

ويبدو أن جميع الكنائس متّفقة على القول بالتثليث هذا، غير أنها تختلف في جهة ألوهية المسيح، هل هي الجسد الذي تكون من روح القدس ومن مريم العذراء؟ أم أن للابن طبيعتين ومشيئتين؟ وهل انبثق الروح القدس وهو الأقنوم الثالث من الآب وحده؟ وهو ما تذهب إليه كنيسة القسطنطينية، أم من الآب والإبن معاً كما تذهب إليه كنيسة روما ومن والاها؟

وجميع الكنائس متفقة فيما بينها على أن الأقانيم الثلاثة المذكورة متحدة في الجوهر وفي القدم. بيد انهم لدى محاولتهم الجمع بين القول بالتثليث والقول بالوحدانية يعانون من استغلاق فكرة التثليث. ولتوضيح هذه الظاهرة ننقل ما كتبه صاحب رسالة الأصول والفروع، بعد بيان عقيدة التثليث، فهو يقول: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض.. وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية أي أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلّى كل الأشياء لها يوم القيامة...»[1].

ولكي يخرج النصارى من عقدة الاختلاف مع نزعة التوحيد الجليّة في التوراة، وهي كتاب مقدّس لديهم، فهم يبذلون كل وسعهم للتوفيق بين ما يقولون به من التثليث، وما جاءت به التوراة من التوحيد. ولكنّهم مع كل ما يبذلون، تبقى محاولاتهم مستعصية على العقل كل الاستعصاء لأنها في الحقيقة شبيهة بمحاولة الجمع بين النقيضين أو التوفيق بين المتضادّين.

وقد كانت كل هذه المحاولات ناشطة في العهد الذي بعث فيه الرسول ﷺ وكان يتنزّل عليه الوحي من الله تعالى، وكان لا مناص أيضاً من محاكمة تلك العقيدة وأخذ موقف واضح منها.

---

(١) محاضرات في النصرانية ١٢٢.

ولما كان الرسول ﷺ في مكة المكرّمة تناول المشركون عقيدة النصارى وتأليههم للمسيح عليه السلام وقارنوا بين عقيدتهم هم وبينها، وكانوا هم يعبدون الملائكة، وآنتهوا الى طرح التساؤل التالي: ء آلهتنا خيرٌ أم هو؟ وذلك ليصلوا الى الجواب بأنّ آلهتهم خير من عيسى لأنها ملائكة وعيسى بشر. والملائكة أفضل من البشر. بل إنهم حاولوا السخرية من الإسلام الذي جاء يقول وَحْيُه لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾[1] وجاء محدّثهم المغرور عبد الله بن الزبعري يسأل: « هذا الحكم خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم »؟

ولما أجابه الرسول ﷺ بقوله: « بل لجميع الأمم » قال له خَصَمْتُك ورب الكعبة! ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وَتُثْني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونها واليهود يعبدون عزيراً، فإذا كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم. فسكت النبي ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجّوا، فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما آشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[2].

وقد أكّد القرآن الكريم على لسان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أن عيسى لا يزيد على أنه عبدٌ من عباد الله الذين خلقهم وآصطفاهم لرسالته غير انه زاده نعمة فجعله مثلاً لبني إسرائيل فقال تعالى: ﴿إنْ هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾[3] ثم زاد بعد ذلك ليؤكد بشرية عيسى، وقدرة الله تعالى العجيبة، زاد فقال: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون

---

(١) الأنبياء ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) الأنبياء ١٠٠ ـ ١٠٣.

(٣) الزخرف ٥٩.

وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تمترُنَّ بها واتّبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدّنَّكُم الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين﴾[1] .

اعتقاد النصراني الصحيح عند الموت :

وبالآية الأخيرة نهاهم عن أن يدخل نفوسهم الشك . وكأنه يريد أن يقول ، والله تعالى أعلم : إن كل واحد من أهل الكتاب سينتهي حتماً الى العلم الصحيح في هذه القضية عند ساعة موته ، فيدرك أن عيسى عبد الله ورسوله وليس كما كان يقول . ويؤيد هذا المعنى آية أخرى وردت في سورة النساء يقول الله تعالى فيها بعد رفض دعوى النصارى صلب عيسى وقتله ﴿وإن مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾[2] .

ولقد روي عن شهر بن حوشب أنه قال: « قال الحجاج إني ما قرأتها إلا وفي نفسي منها شيء يعني هذه الآية ، فإني أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك » فقلت ان اليهودي اذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره ، وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى نبيّاً فكذَّبت به ، فيقول آمنت أنه عبد الله ، وتقول للنصراني : وأتاك عيسى نبيّاً فزعمت أنه هو الله ، وابن الله . فيقول : آمنت أنّه عبد الله . فأهل الكتاب يؤمنون به . ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان . فاستوى الحجاج جالساً وقال « عمَّن أخذت هذا ؟! فقلت حدثني به محمد بن علي بن الحنفية . فأخذ ينكت في الأرض بقضيب ثم قال: « لقد أخذتها من عينٍ صافية »[3] .

ويشهد لهذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم : ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك

---

(١) الزخرف ٦٠ ـ ٦١ .

(٢) النساء ١٥٩ . ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لا ينفعه إدراكه هذا شيئاً ولا يخفف عنه من عذاب

(٣) الفخر الرازي ١١/١٠٥ ـ ١٠٦ .

إنّك أنت علاّم الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ [١].

ومثل هذا المعنى ثابت أيضاً بالنسبة الى كل الناس مسلمهم وكافرهم، إذْ يُطْلعون قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، الجنة أو النار، والعقوبة أو المثوبة. فقد ورد في الصحيحين عن عبادة بن الصامت «أن المؤمن إذا حضره الموت بشّر برضوان الله وكرامته، وأن الكافر إذا حُضِر بُشّر بعذاب الله وعقوبته» وروى أحمد والنسائي من حديث أنس. وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت. وعن عائشة زيادة في حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» الذي في الصحيحين وغيرهما وهي انهم قالوا يا رسول الله كلّنا نكره الموت فقال: «ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيءٌ أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه. وإن الفاجر إذا حُضِر، جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه».

وقد روي بسند ضعيف عن ابن عباس ما يؤيد هذا المعنى أيضاً وهو «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنّة أو النار».

ويؤكد حقيقة علم اليهودي أو النصراني قبل موته بأن عيسى هو عبد الله ورسوله، وليس كما ادّعى، قوله تعالى أيضاً في سورة يونس في وصف ما كان من فرعون عندما أدركه الغرق. قال:﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [٢] فإنه ولا شك يتضافر مع النص السابق ويضفي عليه مزيداً من الوضوح.

---

(١) المائدة ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) الانبياء ٢٥ ـ ٢٦.

ومهما يكن من الأمر، فإن الإسلام قد أخذ موقفه الجلي، فقرَّر أولاً وقبل كل شيء أن عيسى عبد الله ورسوله أرسله بكتابه الانجيل مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وانه تعالى قد أيّده بروح القدس وبالمعجزات وخوارق الأفعال.

والإسلام بعد هذا يجزم بأن عيسى الذي اصطفاه الله لرسالته، لا يستنكف هو وأمه أن يكونا عبدين لله الواحد القهار وإن كان قد خلق من أم دون أب، وكان قد رافق مولده ومولد أمه وحياتها ما رافقه من عجيب الوقائع والظواهر...

فعيسى في نظر الإسلام انسان ككل الناس يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون. وينام ويصحو ويمرض ثم يعافى وتنتابه كل عوارض الضعف والقوة والاحتياج التي تنتاب الناس جميعاً. وهو ليس ابناً لله، لأن الله تعالى فريد في وحدته وقدرته ومشيئته، فريد في ذاته. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ولقد حفل القرآن الكريم بالآيات الكثيرة التي تنفي عن رب العزّة نسبة الزوجة ونسبة الولد إليه، وترفض كل التأويلات والتفسيرات الواردة على ألسنة النصارى لتوضيح وتثبيت بنوة المسيح لله تعالى، وتؤكد قطعاً انهم أثبتوا له من المعاني ما لا تقرّه كتبهم ولا تدلّ عليه، وأنهم فهموا منها ما هو باطل عقلاً ونقلاً وحقاً، وضموا إليها من عند أنفسهم ما جعلهم محرّفين لكتاب الله أو ناسين لحظ كبيرٍ مما ذكّروا به..

وإذا كان عيسى عبداً لله ورسوله الى بني إسرائيل وليس آبناً له سبحانه وتعالى، فهو أيضاً لا يرقى الى درجة الألوهية التي هي خاصة لله الواحد المعبود بحق الذي تعنو له الجباه وتطأطىء له الرقاب. وفي هذا يقول الله تعالى. ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون وقالوا آتخذ

الرحمٰن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون﴾ [1] ويقول أيضاً: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، قل فمن يملك من الله شيئاً إنْ أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ [2].

وهكذا فإن عيسى عليه السلام ليس آبناً لله، وليس إلـهاً، وهـو أيضاً ليس أحد آلهة ثلاثة. واذا كان القول ببنوّة عيسى لله أو بألوهيته كفراً، فإن القول بتعدد الآلهة وانه أحدها لا يقل عن ذلك جنوحاً في الكفر وإغراقاً في البعد عن الحق والصواب. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لقد كفر الذين قـالـوا إن الله ثـالـث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. أنظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم آنظر أنّى يُؤفكون، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ [3].

لقد تكلم العلماء في التثليث كلاماً طويلاً، وأوغلوا في التفلسف فيه لبيان خطئه وانحرافه وبعده عن الحق. وهو كلام لا يخلو من ثمرات وفوائد لمن يشاء التعمق والتوسع في فهم تفاصيل هذا القول ومنشئه وتفاصيل ردّه وتوضيح بطلانه. بيد أنه مع ذلك تبقى هذه الآيات الروائع صادعة بالحق زاهقة للباطل جليّة البيان دامغة الحجة والبرهان.

إن المثل الشائع بين الناس الذي يضربـونه كلـما شـاؤوا إثبات وجوب فردية الرئاسة والقيادة هو: «رئيسان في المركب يغرّقانه» وهو مثل لا يمكن أن ينسى

---

(١) الانبياء ٢٥ - ٢٦.
(٢) المائدة ٢٠ - ٢١.
(٣) المائدة ٧٣ - ٧٦.

أبداً . وينبغي الاستفادة منه على الأقل كذلك عند اختيار الاعتقاد السليم . ومن أجل هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾[1] وذلك لأن الإله هو المعبود المتفرّد بالايجاد والخلق وبالملك وبالتصرف والأرزاق والاماتة والاحياء والمنع والعطاء . وتعدّد الآلهة يحجب هذا التفرّد ويلغيه لأن كل واحد من الآلهة سينفرد بخلقه وملكه وسلطانه ، ويحجب عن الآخرين القدرة على التدخل فيها وهو عجز في حق المحجوب والممنوع . والعجز والألوهية لا يلتقيان . أو سيقع بينهما التحدّي وسيتقاتلان ولا بدّ من أن يعلو بعضهم على بعض ، ويقع للمستضعف منهم ما لا يتفق مع ما له من صفة الألوهية .

٩ ـ موقف الاسلام من قولهم بالروح القدس: هذا وإن أحد الأقانيم الثلاثة ، أو أن أحد أركان الثالوث الالهي الذي يؤمن به النصارى هو الروح القدس . وهو الأقنوم الثالث بعد الآب والابن . وتعبير « الروح القدس » وارد في العهد القديم على لسان داوود ، وفي العهد الجديد على لسان عيسى . وورد ذكره أيضاً في القرآن الكريم وإن الله تعالى أيّد به عيسى حيث يقول: ﴿إذْ قال الله يا عيسى ٱبن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذْ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذْ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذْ تخلق من الطين كهيأة الطير بإذْني فتنفخ فيها فتكونُ طيراً بإذني وتبرىء الأكْمَهَ والأبْرص بإذْني وإذْ تخرج الموتىٰ بإذني وإذْ كففت بني إسرائيل عنك إذْ جئتهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾[2] .

والمقصود بالروح القدس جبريل عليه السلام. والعبارة مؤلفة من كلمتين

---

(١) المؤمنون ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) المائدة ١١٠ .

الروح، وهو جبريل. والقدس وهو الله تعالى. وقد أضاف الله تعالى جبريل إلى نفسه تعظيماً له، قال النحاس: سمّي جبريل روحاً وأضيف الى القدس، وهو الله، لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحاً من غير ولادة والدٍ ولده. وكذلك سمّي عيسى روحاً لهذا[1]. ولئن كان الله تعالى قد أخبرنا في هذه الآية بأنه قد أيّد عيسى عليه السلام بالروح القدس، فقد ثبت أنه أيضاً قد أيّد به كل الأنبياء الذين جاؤوا قبله كما أيّد به سيدنا محمداً ﷺ. يوضح هذا المفهوم قول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾[2].

بل وإنه سبحانه وتعالى كان ولا يزال يؤيد به الصالحين من عباده بدليل قوله ﷺ لحسان بن ثابت: «اللهم أيّده بروح القدس» وفي لفظ آخر «روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيّه»[3].

وتأييد الله تعالى لرسله والصالحين من عباده بالروح القدس هو بمعنى إرسال جبريل ليكون معهم يعينهم ويسهل لهم أمورهم حتى ولو آقتضى ذلك اجراء المعجزات والخوارق على أيديهم إن كانوا رسلاً.

الفرق بين تأييد الله للأنبياء وتأييده للأولياء:

والفرق بين تأييد الروح القدس للأنبياء والرسل، وتأييده للأولياء والصالحين من عباد الله. أن تأييده للأنبياء بالمعجزات يكون بناء على طلبهم أو على غير طلب منهم. أما الأولياء والصالحون فتأييده لهم هو بأن يجري على أيديهم شيئاً من ذلك ولا يكون ذلك دوماً عند مشيئتهم وطلبهم[4]. ويؤيد هذا قوله ﷺ في حديث

---

(١) القرطبي، ٢/٢٤.

(٢) النحل، ١٠٢.

(٣) الجواب الصحيح ٢/١٤١.

(٤) جامع كرامات الأولياء ١/١٢ للشيخ يوسف النبهاني.

قدسي عن رب العزّة: ﴿أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت فيَّ شفتاه﴾. وقوله في حديث آخر: ﴿من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها﴾. وفي رواية ﴿فبي يسمع. وبي يبصر. وبي يبطش. وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته﴾.

والولي هو المؤمن الذي توالت طاعاته من غير تخلل معصية. أو هو الذي تولى الله تعالى حفظه، وحراسته من كل أنواع المعاصي، وتوفيقه على الطاعات لقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[1]. أو هو الذي يكون قريباً من ربه بكثرة إخلاصه وكثرة طاعاته، ويكون ربه قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه.

وكرامات الأولياء هؤلاء أكثر من أن تحصى، وقد أشار القرآن إلى عدد كبير منها، مثل قصّة مريم ووالدتها وقصة أم موسى وقصة أهل الكهف وغيرهم. وفي الحديث قوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه». وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يسمع رعداً أو صوتاً في السحاب أن آسق حديقة فلان، قال فَعَدَوْت إلى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها. فقلت له ما آسْمك؟ قال فلان بن فلان بن فلان. قلت فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتها؟ قال ولم تسأل عن ذلك؟ قلت لأني سمعت صوتاً في السحاب أن أسق حديقة فلان قال أما إذا قلت فإني أجعلها أثلاثاً؛ فاجعل لأهلي ولنفسي ثلثاً. واجعل للمساكين وابن السبيل ثلثاً وأنفق عليها ثلثاً».

وهكذا فإن العبد إذا بلغ في تمسكه في الطاعة حتى يداوم على فعل كل ما أمره

---

(١) محمد ١١.

به الله تعالى وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهاه عنه وزجره استصفاءً وتقرّباً إليه تعالى، فقد دخل في ولاية الله له. ولم يعد يستبعد أن يقع على يـديه بعض الخوارق بتأييد الله له بروح القدس. ومن هنا كان قول علي ابن أبي طالب « والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوّة ربانية »[١]. ويصدّق هذا قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقـون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾[٢]. وقولـه تعـالى: ﴿الله ولي الذيـن آمنـوا يخرجهـم مـن الظلمات إلى النور﴾[٣].

ولا ريب أن الأنبياء هم أيضاً إلى جانب ما اختارهم الله له من النبوّة أو الرسالة أولياء بل أفضل الأولياء. وأعلاهم منزلة عند الله. ثم يأتي بعدهم المؤمنون يتفاضلون بدرجة ما يكونون عليه من أخلاص القلب وصفاء الطاعة وصدق العمل الصالح. وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: « قد كان في الأمم قبلكم محدّثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم »[٤]. وقد ورد أن قيس بن طارق قـال: « كنّـا نتحدّث أن عمر ينطق على لسانه ملك ».

كل هذا يفيد أن روح القدس لم يك مختصاً بعيسى عليه السلام وحده ولا برسول آخر سواه قبله أو بعده. وليس روح القدس إلٰهـاً وإنمـا هو جبريل عليه السلام خلقه الله وأضافه إلى ذاته تعظيماً له. وهو يرسله ليؤيد له من يشاء من عباده الصالحين..

---

(١) جامع كرامات الأولياء ١/١١.
(٢) يونس ٦٢ ـ ٦٤
(٣) البقرة ٢٥٧.
(٤) ثبت في الصحيحين.

١٠ ـ تعريف الانجيل وبيان رأي النقّاد فيه:

ولقد عرفنا فيما تقدّم أن الكتاب المقدس عند النصارى هو « مجموع العهد القديم والعهد الجديد » وعرفنا أيضاً أن النصارى رغم هذا قد تخلّوا عن الكثير من تعاليم التوراة والحدود الواردة فيها، فأحلّوا ما حرّمته، وذلك عن طريق مجامع كانوا يعقدونها عهداً بعد عهد وجيلاً عقب جيل، فيغيّرون فيها ما شاءوا من الأحكام ويستحدثون ما يشاءون من النظم والعقائد.

والمراد من لفظة « العهد الجديد » « الإنجيل ». وهو كلمة يونانية تعني البشارة. ولقد كتب العهد الجديد أي الإنجيل باللغة اليونانية، ووجدت فيه كلمات آرامية مكتوبة بحروف يونانية. كما ظهر أن بعض الأناجيل كتب باللغة الآرامية ثم نقل من الآرامية إلى اليونانية[1].

يتكوّن الإنجيل من سبعة وعشرين سفراً يمكن تصنيفها كما يلي:

١ ـ قسم الاسفار التاريخية. ويشمل الأناجيل الأربعة، ورسالة أعمال الرسل التي كتبها لوقا. وقد وصفت الأسفار الأربعة بأنها تاريخية، لأنها تسرد قصصاً من حياة عيسى، وطرفاً من مواعظه وكلماته وأخباراً عن بعض معجزاته. أما رسالة أعمال الرسل فهي كذلك أيضاً لأنها تحوي سرداً لحياة معلمي المسيحية وبالذات حياة بولس.

٢ ـ قسم الأسفار التعليمية. ويشمل احدى وعشرين رسالة، لبولس منها النصيب الأوفى، والباقي ليوحنا وبطرس ويعقوب ويهوذا.

٣ ـ قسم الرؤيا. وهو يشمل رؤيا يوحنا..

ولقد كان إلى جانب هذا الإنجيل بمفهومه المذكور آنفاً أناجيل أخرى متعدّدة ورسائل كثيرة. منها إنجيل عيسى، وإنجيل السبعين، وإنجيل التذكرة وإنجيل

---

(١) محمد في التوراة لابراهيم خليل القسيس ابراهيم خليل فيلبس، ص١٣٦.

برنابا، وأناجيل ورسائل فنيت في عهود الاضطرابات القديمة التي عانت منها المسيحية الأولى.

يقول الأستاذ عبد الأحد داوود، وهو كاتب مسيحي أسلم «إن هذه السبعة والعشرين سفراً، أو الرسالة، الموضوعة من قبل ثمانية كتّاب لم تدخل في عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلاّ في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكمه سنة «٣٢٥ م». لذلك لم تكن أي من هذه الرسائل مقبولة ومصدقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوي قبل التاريخ المذكور. ثم جاء من الجماعات العيسوية في الأقسام المختلفة من الكرة الأرضية ما يزيد على ألفي مبعوث روحاني ومعهم عشرات الأناجيل ومئات الرسائل إلى نيقية لأجل التدقيق. وهناك تم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تعد، ولا تحصى. وصودق عليها. وكانت الهيأة التي اختارت العهد الجديد هي تلك الهيأة التي قالت بألوهية المسيح. وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وأحراقها كلها [1].

ويذكر مثل هذا الدكتور موريس بوكاي فيقول: «من الخطأ الاعتقاد بأن الأناجيل منذ ألّفت كونت الكتابات المقدّسة الأساسية للمسيحية الناشئة، وأنه قد رجع إليها كما كان يرجع إلى العهد القديم. فالسلطة آنذاك كانت للعرف الشفوي الذي كان يحمل كلمات عيسى وتعاليم الرسل. والكتابات الأولى التي كانت متداولة وسيطرت قبل الأناجيل كانت رسائل بولس. ألم تكن قد حررت قبل بضع عشرات من السنين؟ «لقد رأينا بأنه قبل سنة ١٤٠ م لم تكن قد وجدت بعد أية شهادة تثبت معرفة مجموعة من الكتابات الإنجيلية خلافاً لما يكتبه حتى في هذه الأيام بعض الشراح. ولم تكتسب الأناجيل الأربعة وضعها القانوني إلا بعد سنة ١٧٠ م.

(١) المسيحية لأحمد شلبي ١٥٤.

« وكذلك كان الناس في هذه الأيام الأولى للمسيحية يتداولون عن عيسى، عدداً من الكتابات. ولكنها لم تحفظ بالتتابع ككتب أصيلة. بل إن الكنيسة قد أمرت بإخفائها لأنها مشكوك فيها. وقد بقي من نصوص هذه الكتب ما احتفظ به الناس لأنها كانت (محل تقدير عام) كما تقول الترجمة المسكونية مثل رسالة برنابا. أما غيرها فقد « أبعد بشراسة » مع الأسف. ولم يبقَ منه سوى نتف أبعدت عن عيون المؤمنين لاعتبارها تحمل الخطأ. ومع ذلك فقد ظلت بعض الكتب ترتبط إلى حدٍّ بعيد بالأناجيل القانونية، منها أناجيل الناصريين والعبريين، والمصريين المعروفة بروايات آباء الكنيسة، ومنها إنجيل توما وإنجيل برنابا.

« وقد ذكر بعض من ألّفوا كتباً من هذه الكتابات المشكوك فيها مع الارتياح الظاهر تفاصيل مقاطع مضحكة أسطورية من قبل الخيال الشعبي. ولكن مثل هذه المقاطع يمكن العثور عليها أيضاً في الأناجيل كافة. ولنتذكر على الأقل وصف متى الخاص لبعض الأحداث التي يدّعي وقوعها عند موت المسيح. إنه يمكننا الوقوع على مقاطع تنقصها الجدّية في كل كتابات هذه الأزمنة الأولى للمسيحية. وينبغي أن تكون لنا نزاهة الاعتراف بها... « على أن غزارة الكتابة عن المسيح حملت الكنيسة، وهي في مرحلة التنظيم. على إجراء بعض الحذوفات. وربما كان ما حذف منها قريباً من مئة إنجيل!! وأبقي منها أربعة فقط دخلت في لائحة رسمية لكتابات العهد الجديد. وعرفت بأنها « القانون ».

« ومن منتصف القرن الثاني دفع « مرقيون » السلطات الكنسيّة بشدّة لتتّخذ موقفاً. وكان خصماً عنيفاً لليهود، رفض إذّ ذاك العهد القديم كلّه. والكتابات التي تبدو متّصلة به، السابقة عليه، أو الناشئة من العرف اليهودي ـ المسيحي. ولم يكن « مرقيون » يعتبر من الأناجيل، بعد كتابات بولس إلا إنجيل لوقا الذي كان يعتقد بأنه لسان حال بولس.

« ولقد أعلنت الكنيسة « مرقيون » هذا مخطئاً. ثم أدخلت كل رسائل بولس في القانون. ولكن مع الأناجيل الأخرى لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا. وأضافت

اليها أيضاً رسائل أخرى من أعمال الرسل. ومع ذلك فإن اللائحة الرسمية تغيّرت مع الزمن في هذه القرون الأولى من التاريخ المسيحي. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتب التي اعتمدها القانون الحالي للعهد الجديد مستبعدة، كانت بعض الكتابات التي اعتبرت في زمن متأخر غير مقبولة «مشكوكاً فيها» سارية ولو بصورة مؤقتة. وقد استمرت هذه التردّدات حتى آنعقاد مجمعي هيبون سنة ٣٩٣ م وقرطاجة سنة ٣٩٧ م وظلت الأناجيل الأربعة معتمدة..

«ويرى الأب بوامار. أن مما يؤسف له غياب كمية من الكتابات التي اعتبرتها الكنيسة مشكوكاً فيها، وذلك لما فيها من الفائدة التاريخية. وهو يعطيها في الواقع مكانة في لائحة الأناجيل الأربعة الى جانب الأناجيل الرسمية. ولقد ظلت هذه الكتب موجودة في المكتبات كما يقول حتى نهاية القرن الرابع».

ويتابع بوكاي الكلام عن المخطوطات الأصلية القديمة وما اعتراها من تحريف غير مقصود من النساخ باسقاط كلمة أو زيادة أخرى. أو ضم تحشية مكتوبة على هامش المخطوطة الى صلبها الى أن يقول: «وإننا ندرك جيداً أن تصحيحاً قديماً جداً لخطّاط ما، يمكن أن يستدعي نسخاً نهائياً لنص مصحّح كذلك. وسوف نتأكد فيما بعد بأن كلمة واحدة من نص يوحنا تتعلق بالبارقليط تبدل جذرياً معنى المقطع وتحوّره بكامله من وجهة النظر اللاهوتية»[1].

لقد أطلنا النقل في هذا الموضوع، وذلك لنضع بين يدي القارىء صورة واضحة عما يطلق عليه اسم الانجيل اليوم، فيدرك كيف نشأ وتدرج وآعتمد أخيراً. ولنوطّىء بذلك للدخول الى عرض موقف الإسلام منه...

١١ ـ الانجيل والقرآن:

وهكذا فإن القرآن الكريم كدأبه في تحديد موقفه من التوراة، ركّز على بيان

(١) التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث للدكتور موريس بوكاي ترجمتنا ص٧٨ ـ ٨٢.

موقفه الصريح من الانجيل. وإنه يؤكد أنه أحد الكتب التي أنزلها الله على أحد رسله لهداية الناس ودلالتهم على الطريق المستقيم، والمنهج الحياتي السليم الذي يوفّر لهم سعادة الدنيا وأمن الآخرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾[1].

فالإنجيل كالتوراة وكالقرآن سواء بسواء من حيث إنه في الأصل كتاب الله ويحوي كلام الله. ولا يفترق عنهما إلا بأنه أنزل على عيسى عليه السلام، ليبلغه الى قومه بني إسرائيل.. وقد لخَّص القرآن الكريم ذلك في سياق جميل فأفادنا بأنه تعالى هو الذي علم عيسى الحكمة والتوراة والإنجيل، وهيّأه ليكون رسولاً وبالذات الى بني إسرائيل حاملاً لهم كل الأدلة الناطقة بصدقه في دعواه. كما أفاد بأن عيسى في رسالته أرسل مؤيداً لرسالة موسى، وكتابه التوراة، ومصدّقاً له مع بعض التعديلات الخاصة بإباحة بعض المحظورات يقول الله تعالى: ﴿إذْ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين. قالت ربّ أنى يكون لي ولد ولم يَمْسَسْني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة وَلأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾[2].

---

(١) آل عمران ٣ ـ ٤.

(٢) آل عمران ٤٧ ـ ٥٠.

ثم يزيدنا بياناً وتفصيلاً فيقول إنه سبحانه قد أرسل عيسى عليه السلام بعد النبيين الذين أرسلهم من بني إسرائيل، بعد موسى الذي حمله التوراة، وحكم فيها الذين جاءوا من بعده، أرسله على آثارهم مصدّقاً بلسانه وحاملاً كتابه الخاص به وبقومه، الذين كانوا في زمانه، وهو الإنجيل الذي يقدّم لهم الهدى ويشع عليهم بأنواره التي تبصّرهم بالحق وتكشف لهم معالم الخير والبر وركائزهما. ثم يأمر أهل الإنجيل بأن يتقيّدوا بما جاءهم به، ويحذّرهم بأن عاقبة من لا يحكم بما أنزل الله أن يكون من الفاسقين: يقول الله تعالى ﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وَلْيَحْكُم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[1].

ويأتي بعد هذا على بيان عظيم يخبرنا فيه أن أهل التوراة وأهل الانجيل قد غفلوا، وأهملوا أوامر الله تعالى الواردة في كتابيهما، ولم يقيموا حدودهما. ولو انهم أقاموها لزادهم الله نعماً الى نعمه وأفضالاً الى أفضاله فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولتكاثف الخير عندهم يقول تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[2].

ويسترسل القرآن الكريم فيخبرنا وهو العليم الحكيم، بأن أهل الكتاب من حملة التوراة والإنجيل سيبقون في خطر الضلال، وسيبقون خِلْو اليدين من الخير والحق والصواب حتى يستكملوا الإلتزام بما أمرهم الله، وبحدوده، وحتى يقيموهما على الوجه الأكمل فيقول: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم﴾[3].

ثم يخبرنا أيضاً، في غمرة حديثه عن موسى وبني إسرائيل وما قدّمه الله تعالى

---

(١) المائدة ٤٦ - ٤٧.

(٢) المائدة ٦٨.

(٣) الأعراف ١٥٧.

لهم من اللطف والرعاية وما كان منهم؛ بأن التوراة والإنجيل قد حمل كل واحد منهما البشارة ببعثة الرسول محمد ﷺ وكشف عن بعض أوصافه. وان بعض المهتدين من أهل الكتاب قد تحسسوا ذلك ولمسوه فآمنوا به واتّبعوه وبخاصة وأنه لا يحيد عن منهج إخوته رسل الله السابقين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإباحة الطيّبات وتحريم الخبائث. يقول الله تعالى: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (١).

وهكذا فقد كان موقف القرآن الكريم واضحاً من الإنجيل حيث شهد له بأنه كتاب الله. وأنه الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا عيسى. وأنه بعثه به مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وحاملاً الى بني إسرائيل الهداية والنور، وأنه يكفل لهم إذا التزموا بالعمل به واقامة حدوده بأن يكونوا من سعداء الدنيا والآخرة.

ولقد كان هذا الموقف بعناصره المختلفة موقفاً عظيماً لا يسع النصارى المنصفين إلا أن يحترموه ويقدّروه ويتنبهوا الى ما فيه من الصدق والتجرد في أداء الشهادة وبراءة الحكم.

ولكن الله تعالى الذي يحدّثنا بهذا الحديث ويضع بين أيدينا هذه المعاني الصادقة المخلصة الناصعة، يفعل ذلك بالنسبة الى الإنجيل، كتابه الذي أنزله على عيسى وأيّده به.. وهذا الإنجيل لا يمكن أن يكون أناجيل. ولا يمكن أن يكون أناجيل مختلفة اختلافاً عرضياً أحياناً وجوهرياً أخرى.. ولو كان كذلك لما صح أن يكون كتاباً واحداً، بل كُتباً... ولما صح أن يكون من عند الله، لأن ما يكون من عند الله يستحيل أن يقع فيه الاختلاف والتضاد وأن يأتيه الباطل من بين

(١) الأعراف ١٥٧.

يديه ومن خلفه، لأنه تنزيل من الحكيم الحميد القادر على حفظه وحمايته من التحريف والتعديل ومن أن يقع فيه الاختلاف والتضادّ والتناقض..

الاختلافات والتضادات في الأناجيل:

وبقليل من الجهد في القراءة ومتابعة ما كتبه نقاد الفكر الديني في القديم والحديث، وبخاصة من أسلم من المفكرين النصارى نرى كثيراً من هذه الاختلافات والتضادات، بل والتناقضات، واقعة بين هذه الأناجيل التي هي بين أيدينا اليوم.

فهناك آختلاف بين المفكّرين في تحديد شخصيات أصحاب الأناجيل، وهل هم ممن عاصر المسيح أوْلا؟ وهناك اختلافات في الروايات حتى أن «كولمان» ليذكر في كتابه العهد الجديد صفحة ١٨ روايات من إنجيل لوقا غير موجودة في غيره، ولا يقصد بذلك النقاط التفصيلية. فضلاً عن أن أخبار انجيل لوقا عن طفولة عيسى هي خاصة به، لأنّ متّى يختلف معه في سردها، ولا يذكر مرقس كلمة واحدة عنها. وأنساب عيسى مختلفة لدى كل من متى ولوقا. كما أن موضوع سرّ القربان موضع خلاف بين لوقا والانجيلين الآخرين. ويختلف إنجيل يوحنا في الأصل عن الثلاثة الآخرين الى درجة أن الأب «روغييه» قال عنه في كتابه «مدخل الى الانجيل» «أنه عالم آخر»... اختلاف في النظام العام.. في اختيار الموضوعات والأخبار والخطب والأسلوب وفي الجغرافية والتأريخ وفي الرؤى اللاهوتية. كما أن بين إنجيل يوحنا والأناجيل الثلاثة خلافاً في تحديد مدة مهمة عيسى عليه السلام فهو يجعلها أكثر من سنتين والأناجيل الثلاثة تحدّدها بسنة واحدة.

وهناك من يقول باختلاف روايات الآلام بصورة عامة فيما بين الإنجيلين وبخاصة بين الأناجيل الثلاثة الأوائل وانجيل يوحنا. ومنهم من يلفت النظر الى التضاد بين إنجيل لوقا الذي يحدد ظهور المسيح في بلاد يهوذا، وبين إنجيل متى

الذي يجعله في الجليل. ثم إلى التضادّ بين إنجيلي يوحنا ومتّى اللذين لم يذكرا صعـود المسيح ،وإنجيلي مرقس ولوقا اللذين ذكراه.

يقول بوكاي: « إن أعمال النقد الحديث للنصوص، أوضحت برأي الأب كننغسر معطيات أقامت « ثورة في مناهج التفسير » وأفضت الى « عـدم التمسّـك بحرفيّة النص » في الأعمال المنقولة في موضوع المسيح من الأناجيل « المكتوبة حسب الظروف »!! أو « المعارك ». إن المعارف الحديثة يكشفهـا تـاريـخ اليهـوديـة ـ المسيحية، والتنافسات بين الطوائف فسّرت وجود الوقائـع التي تقلـق قـرّاء هـذا العصر؛ فلم تعد فكرة ـ الشهود العيان من الانجيليين ـ قابلة للتبنّي، رغم انها ما تزال فكرة العديد من المسيحيين. وثمة دراسات من المعهد التوراتي في القدس للأبوين بوامار وبنوا، تفيد بأن الأناجيل كتبت وروجعت وصححت مرات عدة. ثم إنهم أخطروا قارىء الإنجيل بأنه « يجب أن يتنازل في أكثر من حال عن إرادته في سماع الصوت المباشر للمسيح »[1].

وفي الوقت الذي تكون فيه هذه الظاهرة، بادية الاختلاف بين الأناجيل التي بين أيدينا كما ذكرنا سابقاً على سبيل المثال لا الحصر، واضحة كل الوضوح، فإنه يتعذّر معه الحيلولة بين الفكر وبين الشك، وبالتالي بين الفكر وبين الحكم بصحة دعوى التحريف التي كشفها كثير من النقاد الغربيين[2]. يقول الامام الشيخ محمد رشيد رضا: « والأناجيل الأربعة عبارة عن كتب وجيزة في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعليمه. ولهذا سميت أناجيل. وليس لهذه الكتب سند متّصل عند أهلها. وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوالٍ كثيرة» الى أن يقول: « وأما الإنجيل في عرف القرآن فهو ما أوحاه الله الى رسوله عيسى بن مريم عليهما السلام من البشارة بالنبي الذي يتمّم الشريعة والحكم والأحكام. وهو ما

(١) التوراة والانجيل والقرآن ص٨٣ ـ ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه.

يدلّ عليه اللفظ. وقد أخبرنا سبحانه في كتابه العزيز بأن النصارى نسوا حظاً مما ذكّروا به. يقول الله تعالى ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكّروا به﴾[1] وكتب النصارى لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الرابع للمسيح لأن أتباع المسيح كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان، فلما أمنوا باعتناق الملك قسطنطين النصرانية سياسة ظهرت كتبهم، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذي هو إنجيله، وكانت كثيرة فتحكّم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على هذه الأربعة »[2].

وهكذا يتلخص لدينا أن القرآن الكريم آتخذ على لسان محمد ﷺ من الإنجيل موقف التكريم والتفضيل لأنه كتاب الله. وموقفه هذا هو موقف خاص بالانجيل الذي أنزله الله على عيسى. وهو انجيل واحد، وليس متعدداً ولا مختلفاً ولا تنطبق عليه الانتقادات التي وجهت وتوجه الى الأناجيل التي بين أيدينا اليوم.

وقد ظل رسول الله ﷺ حتى بعد هذا الاختلاف الذي هو واقع بين الأناجيل والذي أشرنا اليه قبل، وبعد هذا التعدّد الذي يحمل في مضمونه كلّ مبرّرات الشك والظن، لقد ظل يحمل لأحاديث بني إسرائيل من اليهود والنصارى الاحترام المشوب بالحذر والاحتياط حتى نقل عنه قوله: « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا عليّ » رواه مسلم وفي رواية للبخاري: « حدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[3] ومعنى هذا حدثوا عنهم ولو بغير سند ـ قصصهم ومواعظهم ما كان فيها عبرة واتعاظ. ولكن اذا كان فيما تحدّثون به ما لا يتفق مع قولي وشريعتي فلا تفعلوا فإنكم ستكونون كمن كذب عليّ متعمداً...

---

(١) المائدة ١٤.

(٢) تفسير المنار ٢/١٥٩.

(٣) كشف الخفاء للعجلوني ١/٣٥٣.

١٢ ـ موقف الإسلام من أركان المسيحية الخمسة:

لقد سبق وتناولنا موقف الاسلام من التثليث في الألوهية والنبوّة والروح القدس. وبقي أن نكشف عن موقفه بالنسبة إلى الأركان الأخرى.

الغطاس:

يرى الإسلام أنه من العجب أن يكون التغطيس في الماء، أو سكب شيء منه على الإنسان كفيلاً بدخول هذا الانسان النصرانية. ذلك لأن النصرانية عقيدة. واعتقاد هذه العقيدة لا يتم إلا بعد إدراك مضمونها، والإيمان بها ايماناً ينعقد عليه القلب. وسكب شيء من الماء، أيّاً كان على الإنسان طفلاً كان أو كبيراً، لا يعبر عن شيء بالنسبة لأي منها، مهما كان لذلك من تأويل لدى القائمين بذلك كتطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح.

فالطهارة من الدنس والإثم أمر مطلوب، سواء كان بالفعل وذلك بالبعد عنهما في أية صورة يكونان، أو بالرمز، وذلك بتحضير النفس لذلك، بحيث تكون مهيأة دوماً لمجافاتهما وعدم استمرائهما أو استمراء القرب منهما. بيد أن الطهارة من الدنس بصورتيها تبقى هزيلة الدلالة على تكوّن الاعتقاد في القلب. ولذلك فإن الإسلام وإن كان أبرز مطاليبه المسلكية الطهارة، طهارة الثوب والجسم والنفس. إلا أنه يرفض أن تكون هذه الممارسة، في صورتها المتّبعة في النصرانية وفي غايتها، مدخلاً أساسياً للإيمان بالله..

الاعتراف:

وأما الاعتراف، وهو سرّ التوبة في النصرانية، الذي يشترط أن يكون أمام كاهن وأن يكون كاملاً واضحاً، حتى يتحقق منه الفوز بالغفران فإنه أيضاً غير مقبول في الإسلام. وذلك لأنه لا يتفق مع عقيدته ومنهجه الديني. ذلك لأن من عقيدة المسلم أن الله تعالى وحده الذي يملك مغفرة الذنوب، وقبول توبة مرتكبيها. كما أن من عقيدته، أن صلته بالله لا يحجبها عنه حاجب، ولا يمنعها عنه كائن أيّاً

كان، وأن المؤمن لا تفصله عن ربه فواصل في أي زمان وفي أي مكان. لأن الله قريب من عباده سميع لدعائهم ومناجاتهم، وهو كما وصف نفسه فقال ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة﴾[١] وكما يقول عن نفسه أيضاً ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾[٢] وكما يخبر عن نفسه في سورة ق ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٣].

والكاهن أيّاً كانت مرتبته فهو في نظر الإسلام إنسان. وان أعلى ما يمكن أن ينتهي إليه من الترقّي المسلكي في حال سلامة عقيدته أن يكون صالحاً. وصلاحه هذا لا يملكه مطلقاً القدرة على مسح ذنوب نفسه وأخطائه الشخصية، فضلاً عن مسح ذنوب الناس المذنبين وأخطاء المخطئين منهم، وبخاصة إذا بلغ هذا الذنب أن يكون كبيراً، كشرب الخمرة والزنى وأكل الربا وقتل النفس بغير حق، فإنه في هذه الصورة لا يكون كل إنسان متصفاً بالعجز عن المغفرة فقط، بل يكون مفروضاً عليه أن لا يباشر مهمة طلب الصفح والمسامحة لدى المسؤول، لأنه يكون في هذه الصورة متدخلاً في عدم إقامة الحد على من يستحق أن يقام عليه. وهو ما استنكره الرسول ﷺ على أسامة عندما جاء يستشفع لمن وقع على حد من حدود الله. فقد روت عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمّهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلّم فيها رسول الله ﷺ. فقالوا ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله، فكلمه أسامة، فقال ﷺ: أتشفع في حدّ من حدود الله تعالى؟ ثم

---

(١) قد سمع ٧.
(٢) البقرة ١٨٦.
(٣) ق ١٦.

قام فاختطب [اي بالغ في خطبته] ثم قال: إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وآيْم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1].

وقد روى ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله تعالى فقد ضادّ الله عزّ وجلّ. ومن خاصم في باطل وهو يعلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع. ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغة الخبال حتى يخرج مما قال ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله » أخرجه أبو داوود[2].

بل إن رسول الله ﷺ قد أخبر عمه العباس وابنته فاطمة وهي أقرب الناس إليه، بأنه لا يغني عنهما من الله شيئاً. فقد ورد انه قال: « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً ». وكل النصوص الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف تؤكد أن غفّار الذنوب وقابل التوبة هو الله وحده لا ينازعه في ذلك منازع. وأن كل كائن أيّاً كان مركزه من الصلاح والتقوى حتى ولو كان رسول الله ﷺ فإنه لا يملك في هذا الباب شيئاً. نعم هو يملك أن يستغفر وأن يتضرع ويسأل، مثله كمثل الناس جميعاً، وإن كان يفضلهم عند الله وكان له من الحظوة بحيث أصبح مستجاب الدعوة.

---

(١) تيسير الوصول لابن الديبع ١٤/٢.
(٢) تيسير الوصول لابن الديبع ١٩/٢.

التناول:

ويلحق بسر التوبة والاعتراف، الاعتقاد باستحالة الخبز الى لحم عيسى أو جسده وباستحالة الخمرة الى دمه وذلك عندما يأكل المسيحيون الخبز يوم الفصح ويتناولون العشاء الربّاني ويشربون الخمر .

إن الإسلام وهو دين مبادىء وأحكام فرضتها نصوص وردت في القرآن أو في السنة النبوية الكريمة، يحرّم الخمرة ما قل منها أو كثر. وهو منطقياً فضلاً عن أنه ليس من نص ثابت عن سيدنا عيسى يثبت هذا، لا يسلّم بأن الخبز أو الخمرة يتحوّل أيّ منها الى ما قيل إنه يتحول اليه اللهم إلا إذا تم ذلك على يد رسول أو نبي من طريق يفيد القطع واليقين. وفي التناول الذي يتكرر كل مناسبة عند النصارى لا يكون ثمة رسول أو نبي، ولا يمكن أن يوجد رسول أو نبي ليفعل المعجزة بعد أن ختم الله النبوة بنبوّة محمد ﷺ .

١٣ ـ موقفه من دعوى عموم رسالة عيسى عليه السلام:

لقد ثبت في الإنجيل الذي بين أيدينا ان عيسى عليه السلام قال للحواريين [لا تسلكوا الى سبيل الأجناس ولكن اختصروا على الغنم الرابضة من نسل اسرائيل]. وقد توجهت المسيحية أول أمرها كما وجهها رائدها الى اليهود فقط، ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود، وظلت كذلك حتى دعا بولس الرسول غيرهم من الناس للانضواء تحتها بالحقوق والامتيازات التي للنصارى. ومما يزيد في تأكيد خصوصية رسالة سيدنا عيسى الى بني اسرائيل قوله: « لا تظنوا اني جئت لانقض الناموس أو آلانبياء، ما جئت لانقض بل لاكمّل ». والناموس نزل على موسى، وموسى أرسل الى بني اسرائيل خاصة بمقتضى الناموس الذي أنزل اليه، ولذلك كان على عيسى أن لا يخرج عن الحدود التي التزم بها موسى اللهم إلا فيما أجازت له شريعته ذلك. وليس فيما أجازته له تعميم الرسالة على الناس كافة. بل إنه عندما سعت اليه المرأة الكنعانية تسأله الرحمة، لم يجبها بكلمة، ولما تقدم منه تلاميذه

وطلبوا اليه قائلين آحرقها لأنها تصبح وراءنا أجاب: « لم أرسل إلا الى خراف بيت اسرائيل الضالّة » ولما أتت وسجدت له قائلة يا سيد أعني، أجاب: « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب »[1].

ولقد كان بنو إسرائيل أكثر الأمم أنبياء. وقد بعث الله فيهم ما لا يقل عن ألف نبي كانوا جميعاً يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئاً. الى أن اصطفى الله عيسى عليه السلام وأرسله الى بني اسرائيل بشريعة غيرت بعض ما شرعه الله لهم في التوراة[2]. يقول الله تعالى معززاً هذا المعنى: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني إسرائيل﴾[3].

وهكذا فإن رسالة عيسى بعد ظهور سيدنا محمد ﷺ وإرساله الى الناس كافة الى الأحمر والأسود، تعتبر منتهية. قال رسول الله ﷺ « بعثت الى الأسود والأحمر. وكان النبي يبعث الى قومه خاصة، وبعثت الى الناس عامة »[4]. والقرآن الكريم يقول ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[5] ويقول ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾[6] ويقول: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هادْ﴾[7] وقد نقل عنه ﷺ في حديث صحيح: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »[8].

وهكذا فإن رسالة سيدنا عيسى خاصة الى بني إسرائيل، وتعميمها من بعض

---

(١) متى اصحاح ١٥ - ٢١ - ٢٨.
(٢) الجواب الصحيح ١/٢١٠.
(٣) آل عمران ٤٩.
(٤) هداية الحيارى ص ٨٦.
(٥) ابراهيم ٤.
(٦) النحل ٣٦.
(٧) الرعد ٧.
(٨) الجواب الصحيح ١/٢٠٥.

أعلامها وبخاصة بولس الرسول انحراف بها عن مسارها الصحيح. ولقد كانت خاصة ببني إسرائيل في الفترة الممتدة بين بعثته عليه السلام اليهم وبين الوقت الذي طهر فيه الرسول محمد ﷺ.

ونزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ هو كنزول التوراة على موسى من قبل ونزول الانجيل على عيسى. وقد أنزله الله تعالى كما انزلها أيضاً والقرآن العظيم هذا يجزم بصحة بعثة الرسل السابقين وفيهم موسى وآخرهم عيسى، كما يجزم بأن رسالة كل منهما قد آنتهت برسالة محمد ﷺ الذي ختم به المرسلين جميعاً وأرسله الى الخلق كافة: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[1]. وقوله: ﴿ما كان محَمّد أبَا أحَدٍ من رجَالكُم ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيّيّن وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً﴾[2].

١٤ ـ موقف الاسلام من الرهبانية:

قلنا من قبل إن الرهبانية هذه سلوك تعبدي تسرب الى نفوس النصارى في التاريخ من خلال ظروف قاسية مرَّ بها الأوائل منهم من جراء الاجراءات الباغية التي كانت تتخذها بحقهم الادارات المحليّة وبعض المخالفين لهم في العقيدة كاليهود والوثنيين، فاعتزلوا المجتمعات المدنية، وهربوا الى الصحارى ورؤوس الجبال وأغوار الوديان، وعاشوا هناك عيش الكفاف والزهادة الكاملة. وقلنا إن هذا الواقع تحوّل مع الزمن فأصبح رهبانية مشروعة. وأصبح الكثيرون من النصارى ذكوراً وإناثاً يَهْوَوْنها، ويتجهون إليها اعتقاداً منهم أنهم بذلك يتقرّبون الى الله..

والإسلام المحاور للأديان التي سبقته، وبخاصة للنصرانية تصدى لظاهرة الرهبنة فيها كما تصدى لغيرها من الظواهر العقدية والتشريعية. ووقف منها

---

(١) الفرقان ١.

(٢) الأحزاب ٤٠.

موقف المتبرّىء العائب[1] لأنها بدعة لم يفرضها الله تعالى . . .

ويرى الاسلام أن النصارى، وإن كان البعض منهم في الماضي للظروف القاسية التي أشرنا إليها، قد ابتدعوا الرهبانية، إلا أنهم لم يرعوها الرعاية الحق بل انحرفوا بها عن خط التدين الصحيح. النابع من الذات على سبيل الاسْتِصْغاء فجعلوا لها طقوساً وشعائر وشرائع ومظاهر سلبتها الكثير من معالم سموها الروحي وصفائها القلبي والنفسي.

إن الرهبانية اعتزال للناس، واعتزال لمعايشهم ومظاهرهم وممارساتهم. والمسيح عليه السلام والرسل من قبله، وكذلك الرسول محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يعتزلوا الناس، ولم يعتزلوا معايشهم وممارساتهم الحياتية اليومية، التي أباحها الله وجعل فيها قوام مجتمعاتهم. بل كانوا على العكس يتردّدون على نواديهم ومجتمعاتهم الصالحة، ويمشون في أسواقهم ويختلطون بهم ويدعونهم الى عبادة الله والى الحق. وليس في كتب العهد القديم والجديد، مثال لهذه الرهبنة الشائعة في رجال الكنيسة المعاصرة. بل إنه ليس في نصوص هذه الكتب ما يشجع عليها أو يأمر بها، وإن كان فيها ما ينفّر من العيش الانعزالي.. وفي القرآن الكريم تأكيد لهذا الابتداع حيث يقول: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ [2].

ولقد ظهر الميل الى هذه الرهبانية في الكنيسة في أواخر الجيل الثاني، وسرت عادتها وبدعتها أساساً لتوهم أفضلية البتولية، وقد وضعت لها أنظمة وقوانين تُوجبُها. وقاومها بعض الكنائس لمغايرتها لطبيعة الإنسان ومضادتها لنصوص الكتب وسير الأنبياء والصالحين[3].

---

(١) القرطبي ٢٦٤/١٧.

(٢) الحديد.

(٣) تفسير القاسمي ٦٠/١٦.

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه الرهبانية فقال: «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» وقال في حديث رواه سعد بن أبي وقاص: «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفيّة السمحة» (١).

وهكذا فإن الإسلام فهم الرهبانية بغير ما فهمها به النصارى فرفض ممارساتهم فيها في الكنائس والأديرة. وذلك لأنه قد جاء ليشق للناس طريق الحياة ويفتح لهم آفاق التعاون والتعامل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاورة المبطلين لردّهم عن غيّهم وفسادهم. والرهبانية سلبية وانحسار عن الحياة، وانكماش عن مجتمعاتها، وهروب من المسؤوليات فيها. وكل هذا لا يرضى به الإسلام الذي جاء ليحرك المجتمعات وقد ورد في الحديث: «يا ابن أم معبد، أتدري رهبانية أمتي؟! قلت الله ورسوله اعلم. قال الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على القلاع» (٢).

ولما شاء بعض الصحابة الذين نال منهم الخوف كل منال وتلاعبت بقلوبهم الخشية الحقيقية من الله، أن يعتزل النساء أو الاقامة في رؤوس الجبال، أو ترك الأكل والشرب، والصوم مدى الدهر، نهاهم الرسول ﷺ عن ذلك وقال لهم: «إني أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» وورد عنه أنه قال «رهبانية أمتي في المسجد» وكأنه بهذا المعنى يعني أن المتعبدين من أمته لا يأخذون مأخذ النصارى من الترهب والانقطاع الكامل عن النساء. بل يعتكفون في المساجد فترة زمنية تقصر أو تطول، ثم يعودون الى التعاطي مع الأهل ومع الناس في مجاري الحياة وقنواتها المتنوعة...

بل لقد شاء بعض الصحابة أن يواصل صومه في بعض أيام الصوم، فيصوم

---

(١) كشف الخفاء ٢/٣٧٧.

(٢) تفسير روح البيان ٩/٣٨٣.

اليوم مع يوم آخر وهكذا لأنهم رأوا الرسول ﷺ يفعل ذلك أحياناً. فلما علم الرسول ذلك منهم كرهه ونهاهم عنه وقال لهم: «إني لست كهيئتكم. إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وقد ورد عن الشافعي قوله: «أربعة لا يعبأ الله بهم يوم القيامة: زهد خصي، وتقوى جندي وأمانة امرأة وعبادة صبي» أي في الغالب كما هو في المقاصد الحسنة»[1].

---

(١) تفسير روح البيان ٩/٣٨٣.

الفصل التاسع

موقف الإسلام من التنظيمات والتشريعات النصرانية

١ ـ موقفه من المراتب الكهنوتية
٢ ـ موقف الاسلام من الزواج والطلاق
٣ ـ المسيحية الأولى ومبدأ التعدّد
٤ ـ التعدد في تاريخ المسيحية
٥ ـ التعدد قبل الاسلام
٦ ـ الاسلام وتعدّد الزوجات
٧ ـ المعوّل على التربية أولاً
٨ ـ خطر تحريم تعدّد الزوجات
٩ ـ موقف الاسلام من الطلاق
١٠ ـ الحكمة في اباحة الطلاق في الاسلام

١ ـ موقفه من المراتب الكهنوتية:

لقد كان للرسول ﷺ موقف جليل ورفيق بالنسبة للتراتبية البشرية الدينية. إنه موقف الحسم الذي أخذه القرآن الكريم في قوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[١].

وقد ورد عن عيسى عليه السلام أنه سئل عن أيّ الناس أشرف، فقبض قبضتين من تراب ثم قال: أيّ هذين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما وقال: «الناس كلهم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم» وورد عنه ﷺ قال: «إنّما الناس رجل مؤمن تقيّ كريم على الله وفاجر شقي هيّن على الله»[٢].

ومن دراسة هذه الكلمات يتّضح اتّجاه الاسلام بالنسبة الى التراتبيّة المسلكية الدينية التي ارتضتها الكنيسة النصرانية وبنت عليها نظرتها الى الناس حيث جعلتهم مراتب كما ذكرنا سابقاً. فهو يقرر أن الناس كلهم أبيضهم وأسودهم وعربيهم وعجميّهم وعالمهم وجاهلهم خلقوا من آدم وآدم من تراب.. فهم سواء، منحهم الله الوجود والعقل والقدرة على الحركة ومنحهم الارادة. وهم فيما منحهم الله تعالى يتمايزون بنسبة ما يقدّمون لأنفسهم ومجتمعهم من خير ومن عمل صالح. وهذا

---

(١) الحجرات ١٣.

(٢) تفسير روح البيان ٩/٩١.

يجعل التفاضل الأهمّ والأجلّ في نظره بين الناس هو تفاضل القيم والدين والتقوى لله. كما يجعل التفاوت في الإنسان وفي المجتمع تفاوتا في الحس لا في الجنس. ولئن كان الناس يتفاوتون في نظرهم أحيانا بالمال أو بالنسب أو بالجاه والسلطان، فإن هذا التفاوت ينمحي ويتلاشى أمام القيمة الدينية التي تبقى الظاهرة الفريدة التي تحقق التفاضل. وكما تختفي عند طلوع الشمس الكواكب وأضواؤها، فكذلك لا يبقى مع الشرف الديني الإلهي اي اعتبار، نسباً كان أو نشباً أو حسباً أو جاهاً أو سلطاناً أو جمالاً.. وقد أثبت الرسول ﷺ الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب والاجتهاد والتحصيل، ونفاه عما أراده بالانتساب فقط. فقال: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وقال: « العلماء ورثة الأنبياء ». وجليٌّ من القول الأول أن النبي ﷺ يمنع من يخلفونه أن يرثوا ما تركه من مال، لأنه صدقة وهو مشاع في الأمة. وهو تماماً ما كان من معاشر الأنبياء جميعاً على تقلّب العصور التي سلفت. إنه حق الجميع. وهم فيه سواء وشركاء. ولا يجوز لمن فاز بالانتساب الى الرسول ﷺ أن يحوزه أو يحوز شيئاً منه من دون الآخرين. بيد أنه يعود فيقرر أن العلم الذي تركه، وكذلك ثمرات الفكر والمعرفة والآداب، وهي بمجموعها لا تورث كما يورث المال بسبب الانتساب، بل تورث بالاكتساب والجد والحفظ والمدارسة. ولذلك كان العلماء بجدّهم وتحصيلهم واجتهادهم وعطائهم ورثة الأنبياء وهو ما يتضح من مفهوم القول الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا فإن التراتبيّة المسلكية الدينية كما هي مقرّرة في النظام الكنسي لا تأتلف مع النهج الديني الاسلامي ولا مع فلسفته الاجتماعية، وذلك لأنها تمنح أصحاب الرتب حقوقاً دينية وامتيازات ربّانية ما أنزل الله بها من سلطان، إذْ تخوّل بعضهم حق وضع التشريعات الدينية أو التصرف بها بالنسخ أو التعديل أو الإلغاء. كما تخولهم سلطات دينية هي ملك لله وحده لا ينازعه إياها أحد من خلقه... إنهم بذلك يستجيزون لأنفسهم تعديل التكاليف الدينية وغفران الذنوب وإدخال جنات الله...

وما من عالم بتاريخ الديانة النصرانية، يجهل كيف تطور فيها التشريع. فالنصرانية تعتبر التوراة وأسفار الأنبياء السابقين كتباً مقدّسة، وهي التي يسموّنها «العهد القديم». بل لقد كانت النصرانية في مطلع عهدها تتّبع شريعة اليهود والوصايا العشر، وستبقى كلمات عيسى الخالدة تجلجل ما دامت السماوات والأرض تلك الكلمات التي تقول بأنه «ما جاء لينقض الناموس بل ليكمّل».

ولقد نهت الشريعة الموسوية عن القتل، وزادت شريعة الانجيل فنهت حتى عن مطلق الإساءة. وحرمت شريعة موسى الزنى، وزادت شريعة الانجيل فحرّمت الفكرة الدنسة اذا ما داعبت نفس صاحبها. وأباحت شريعة موسى الطلاق، وجاءت شريعة عيسى فألغته، ولم تسمح إلا بالهجر شرط ألاّ يعقبه زواج جديد.

وهذا وسواه يوضح أن الشريعة العيسوية لم تخرج من مجموع مادتها وعناصر تنظيماتها في مطلع عهدها عن الشريعة الموسوية.

بيد أننا لو تتّبعنا مراحل التشريع المسيحي نرى ما يغيّر هذه الصورة ويبدّلها تبديلاً كبيراً. فإنه بعد عيسى بفترة زمنية لا بأس بها اتضح لقادة المسيحيين أن التشريع الموسوي شاق على الراغبين في اعتناق النصرانية، وبخاصة الختان، فقرّروا التقليل من التكاليف وحدّدوها في الزنى وأكل المخنوق والدم وما ذبح على الأوثان. ولكنهم أباحوا الخمر، ولحم الخنزير، والربا. وقد كانت كلّها محرّمة في التوراة.

ثم إنهم انتقلوا بعد فترة الى خطوة ثانية منحوا فيها حق التشريع للمجامع التي قنّنت كثيراً من قواعد السلوك الديني المسيحي، وقرّرت حق الغفران والعصمة للبابا..

ففي سنة ١٨٩٦ قرّر مجمع رومة عصمة البابا، فانتقل حق التشريع إليه. يقول بعض أساقفة النصارى: «لقد خوّل السيد المسيح الكنيسة عين السلطان الذي تلقّاه من أبيه السماوي عندما قال لتلاميذه «كما أرسلني الآب هكذا أنا أرسلكم،

ويقول السيد عبد الأحد داوود: «إن المسيحيين عندما أثبتوا عصمة البابا. آنتقلت كل السلطة في إصدار القرارات وتعيين المعتقدات والأحكام الى حبر رومة الأعظم الجالس على كرسي الخلافة، وأصبح حكمه قطعياً. وقد تابعت الكنيسة العليا تحمل سلطاتها واصدار القرارات تلو القرارات. ومن أهمها ذلك القرار الذي برأت به اليهود من دم المسيح»[1].

ومن أهم القرارات التي صدرت عن الكنيسة أيضاً مسألتان هما: الاستحالة وغفران الذنوب. والمسألة الأولى جعلت المسيحيين يعتقدون أنهم حينما يأكلون الخبز أو يشربون الخمر يوم الفصح في العشاء الربّاني يستحيل الخبز الى لحم المسيح ويستحيل الخمر الى دمه... وذلك كناية عن إدخال المسيح جسماً ودماً في جوف الآكل والشارب والامتزاج به وبتعاليمه. أما المسألة الثانية وهي غفران الذنوب فقد سوّغت للبابا بأن يطبع صكوك الغفران ويوزعها على أتباعه ليبيعوها للناس. وفيها يغفر للمشترى ما تقدم من الذنوب وما تأخر.

ومثل هذا خطير في نظر الاسلام الذي لا يسمح لأحد من المؤمنين بأن يرتفع الى مرتبة التشريع، مهما كان مقامه وعلمه وصلاحه. فالإباحة والحظر شأنان قد آختص بهما الله سبحانه وتعالى. والمؤمنون كل المؤمنين يحترمون هذه الحقيقة، فلا يدّعي أحد منهم حق التشريع لأنهم يعلمون ما يترتّب على ذلك من جرأة على الله وشرعه، وهو الذي حذّر من ذلك فقال: ﴿قلْ إنما حرّم ربيّ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وان تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[2]. وبهذا النص رتب المحرّمات فجعلها على أربع مراتب وبدأ بذكر أسهلها وهو الفواحش، ثم ثنّى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والبغي ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منها وهو الشرك به سبحانه وتعالى ثم ربّع بما

---

(١) المسيحية للدكتور احمد شلبي ٢٢٨ ـ ٢٥٥.

(٢) الاعراف ٣٣.

هوأغلظ تحريماً من ذلك كلّه، وهو القول على الله بلا علم. يقول الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾[1]. وهو بهذا النص يوعد على الكذب عليه في أحكامه بالقول بأن هذا حلال وهذا حرام بغير علم ولا سلطان.

ولقد ثبت أن رسول الله ﷺ نهى أميره بريدة أن ينزل عدوّه اذا حاصرهم على حكم الله وقال له: « فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا. ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك »[2] كما ثبت أنه لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حكما حكم به فقال: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، قال له: « لا تقل هكذا ولكن قل هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب » ولقد قال ابن وهب: « سمعت مالكاً يقول « لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام. وما كانوا يجترئون على ذلك وانما يقولون نكره كذا ونرى هذا حسناً، وينبغي هذا. ولا نرى هذا. أما سمعت قول الله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً. قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾[3].

ولقد روى ابن أبي مليكة أن أبا بكر قال: « أيّ أرض تقلّني وأي سماء تُظلّني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي ». وعلى ذلك جرى أكثر الصحابة، فتحرّجوا من القول بالرأي والتزموا ما ورد عن الله تعالى وعن رسوله الكريم لا يحيدون عنه قيد شعرة. وقد روي أن عمر بن الخطاب قال وهو على المنبر « يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله مصيباً لأن الله كان يريه. وانما هو منّا الظنّ

---

(١) النحل ١١٦.

(٢) اعلام الموقعين ٣٩/١.

(٣) يونس ٥٩.

والتكلّف » وقال الامام علي كرّم الله وجهه « لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه »[1] .

بل إن الله تعالى لينكر في كتابه الكريم على النصارى وعلى أحبارهم ورهبانهم بالذات الجرأة في هذا المقام واقتحام مسئولية الحظر والإباحة فيقول: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم. وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[2]. ولقد روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري قال: « سئل حذيفة عن قول الله عزّ وجل: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ هل عبدوهم؟ فقال: لا ، ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلوه وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه. » وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: « أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: « ما هذا يا عدي؟! إطرح عنك هذا الوثن!! » وسمعته يقرأ في سورة براءة قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ ثم قال ﴿أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه﴾. وقد نقل القرطبي في ذلك عن أهل المعاني قال: « جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء »[3].

ولقد كان رسول الله ﷺ يعيش بين أصحابه وفيهم، عيش الأخ الحبيب الذي يكره أن يمتاز عليهم بشيء. فيأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، وينام ويقوم مثلما ينامون ويقومون. ويشاركهم في الغزوات والصلوات والأعمال العامة، ويقول لهم لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعض لبعض. وكان أمره لاتباعه « وكونوا عباد الله إخوانا » وأن من « بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه » و« إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالاباء ».

---

(١) الجزء الاول من أعلام الموقعين لابن القيم.

(٢) التوبة ٣٢.

(٣) القرطبي الجزء الثامن ص ١٠٢.

وهكذا فإن الاسلام لا يعترف بوجود قدّيسين بين الناس يختصون بأمور من دون الناس. ولكنه يعترف بوجود علماء وفقهاء وهداة يعلّمون الناس ويعرّفونهم ويهدونهم الى ما آنتهى إليه علمهم من الحق والخير والهدى. وإمامة الأئمة من العلماء والمصلحين لا تكسبهم حقاً على الغير ولا طاعة في أمر، إلا إذا كان ذلك في حق أو في معروف. فإنه قد أصبح معروفاً لدى الجميع انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولقد كانت أولى كلمات الخلفاء الراشدين بعد تنصيبهم خلفاء أن يقول الواحد منهم في مطلع خطابه الذي يطل به على الناس لأول مرة «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

ولا يجوز أن يفهم من هذا الكلام فاهم بأنه يسوق الناس الى الفوضى والتمرّد وذهاب هيبة السلطان. فإن الاسلام قد بيّن حدود مسئولية كل من الحاكم والمحكوم، من أين تبدأ وأين تنتهي، وجعل لكل منهما مجالاً يصول في إطاره ولا يتعدّاه. الأمر الذي يحفظ هيبة الحاكم وعزّة سلطانه، ويصون كرامة المحكوم وحقوقه.

وعلى أي حال، فإنه لا سلطة كهنوتية في الاسلام تخول الامام الحق بأن يحوّر شرع الله تغييراً أو إلغاءً أو زيادة أو نقصاناً، أو تخوّله إباحة المحرّم أو تحريم المباح. وليس في الاسلام أيضاً تراتبية دينية في صفوف العلماء تمنح بعضهم أو أحدهم سلطة دينية على الآخر أو على الناس. فقد روى الحاكم عن طارق قال: «خرج عمر الى الشام ومعنا ابو عبيدة فأتوا على مخاضة، وعمر على ناقة له. فنزل وخلع خفّيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض في الماء. فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا؟ ما يسرّني أن أهل البلد استشرفوك!! فقال عمر ابن الخطاب: «أوّه!! لو قال هذا غيرك يا أبا عبيدة لجعلته نكالاً لأمة محمد. إنّا كنّا اذلّ قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزّنا الله أذلّنا الله».

لقد انتهج الاسلام في تحديد علاقة الفرد المسلم مع أخيه المسلم منهج المؤاخاة، ولم يشأ أن يكون بعضهم أسياداً والبعض الآخر تبعاً أو عبيداً. كما لم يشأ أن يكون مجتمعهم منقسماً الى طبقات أو فئات. نعم لقد أمر بالتنظيم ووضع الأسس لذلك. وأمرهم بالطاعة لأولياء الأمور وبين لهم مادتها وحدودها. وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان. وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان. ونفّرهم من التباغض والتناجش والتنازع وكل ما يؤدي إلى ذلك. ويبين لهم فضل العلم ومكانته. ورفع درجة العلماء ومقامهم عند الله وعند الناس، ولكنه في الوقت نفسه عرفهم بأن العلماء هم أكثر الناس خشية لله وتقديراً لجلاله وعملاً والتزاماً بأوامره وبحدوده وبعداً عن محرّماته ومعاصيه. فإذا ما فقدوا هذه الخصائص سقطت درجتهم عند الله وعند الناس وكان حسابهم عسيراً ومصيرهم بائساً حسيراً لا ينقذهم من هذا الحساب والمصير درجة دنيوية أو مكانة ادارية أو اجتماعية. يقول الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[1] ويقول: ﴿أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكّر أولو الألباب﴾[2] ثم يقول: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله﴾[3].

موقف الاسلام من الزواج والطلاق:

ولقد سبق أن أوضحنا قبل بأن الشريعة النصرانية قد سنّت الزواج للإنسان. بل اعتبرته شرعة الله له وهو في جنّة عدن حيث خلق الله فيها لآدم حواء من ضلعه. ولكننا علمنا أيضاً أن شريعة النصارى هذه قد حرّمت على الرجل الزواج

---

(١) فاطر.

(٢) الزمر ٩.

(٣) الزمر ٢٣.

بأكثر من زوجة واحدة، على الرغم من أنه ليس، من نص في الانجيل يصرّح بهذا التحريم، اللهم إلا ما ورد في انجيل متى في الاصحاح التاسع عشر حيث يقول: « قال له تلاميذه ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج؟ فقال: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام، بل الذين أعطي لهم».

أما الطلاق فقد حرمته قطعا، وذلك النص الواضح الصريح في الانجيل في الاصحاح التاسع عشر حيث يقول: «وجاء إليه الفرّيسيون ليجرّبوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق آمرأته لكل سبب، فأجاب وقال لهم، أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقها ذكراً وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بآمرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعدُ اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فَتُطلّق. قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا».

وهذا الذي أخذت به الشريعة النصرانية من تحريم تعدد الزوجات وتحريم الطلاق، مخالف لما جاءت به نصوص العهد القديم والشريعة الموسوية التي أباحت التعدد وتركت للرجل حريّة التصرف ضمن حدود رغبته وقدرته، وأعطته حق التطليق متى شاء. كما أنه أيضاً غير معبر بصدق كامل عما قد تدل عليه حتى عبارة الانجيل المسطور أعلاه..

وهذه نصوص العهد القديم تفيد صراحة ان ابراهيم عليه السلام تزوج بسارة وقطورة، وأن يعقوب تزوج بليئة وراحيل وجاريتيها بَلْهة وزلْفة. وأن داوود وسليمان جمع كل واحد منهما بين مئات الزوجات الشرعيات والإماء. وقد ورد في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول أن سليمان قد أحب نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأورميات وصيدونيّات وحثيات، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري حتى أمالت نساؤه قلبه.

ويقول ثيوفيلد صاحب كتاب قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين « إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه وإن كان بعض الربّانيين ينصحون بالقصد في عدد الزوجات . وإن قوانين البابليين وجيرانهم من الأمم التي اختلط بها بنو اسرائيل كانوا جميعاً مثل هذه الشريعة في اتخاذ الزوجات والإماء »[1] .

المسيحية الأولى ومبدأ التعدد :

على أن المعروف عن الشريعة النصرانية أنها لم تتوسع في التشريع وليس من المطلوب أن نبرر لها ذلك ، ولا أن نَجْري بحثاً عن الأسباب التي جعلتها تختار هذا المنهج الضيق في سن القوانين الاجتماعية . بيد أنها مع ذلك ، فيما يختص بمبدأ تعدد الزوجات ، لم تورد نصاً صريحاً بالتحريم يمكن الاستناد اليه ، كمرتكز لها في ذلك ، اللهم إلا ما ورد في كلام بولس من استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل الدين المنقطع عن مآرب الدنيا ، والعبارة الواردة في انجيل متى في الاصحاح التاسع عشر وهي : « من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسداً واحداً ، إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذي جمعه الله لا يفرّقه انسان » .

إن هذه العبارة كما يبدو يمكن أن تتحلل إلى مفهوم يتجلّى فيه التركيز على أن الأفضل في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وهو النظرة السليمة ، أن يقتصر على الارتباط الدائم الذي لا ينفصل إلا بالموت . ولكنها لا تفيد لا صراحة ولا ضمنا ، ولا هي ولا غيرها من النصوص الأخرى إفادة قطعية بمنع تعدد الزوجات إذا اقتضته المصلحة الإنسانية والضرورة الاجتماعية .

التعدد في تاريخ المسيحية :

ولو ذهبنا نتابع وقائع التاريخ العائلية لدى الأقدمين لرأينا أن التعدد في

---

(١) المرأة في القرآن عباس محمود العقاد .

الزوجات بقي مباحا في العالم المسيحي الى القرن السادس عشر: فقد كان لملك إيرلندا ديارمات Diarmat زوجتان وسريتان. وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السراري. ويظهر من قوانينه التي وضعها أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً حتى بين رجال الدين أنفسهم. وقد أقر مارتن لوثر المصلح النصراني نفسه تصرف فيليب أوف هيس بعقد الزواج على اثنتين من النساء.

على أنه يبدو بأن الشرائع النصرانية في القديم كانت تجيز الجمع بين الزوجتين، كما هو واضح من القرار الذي أصدره مجلس الفرنكيّين سنة ١٦٥٠ بعد صلح وستفاليا، وبعد أن تبين النقص في عدد السكان من جراء حروب الثلاثين. وإن موسوعة العقليين تقول إن الفقيد جروتيوس دافع عن الآباء الأقدمين فيما أخذه عليهم بعض النقّاد المتأخرين من التزوج باكثر من واحدة[1].

التعدد قبل الاسلام:

ولقد كانت الأنظمة التي سبقت ظهور الاسلام تجيز أيضاً هذا التعدّد على إطلاقه. وكان خاصاً بالملوك والأمراء والرؤساء والأغنياء. وكان يكثر في البلاد الحارة التي يفتن أهلها بشهوة الاستمتاع وكثرة التنقل بين الحسان وصغار السن من النساء...

ولقد كان قدماء اليونان الأثينيون يبيعون النساء في الأسواق ويبيحون تعدّد الزوجات بغير حساب. وكان التعدد فاشياً في أوروبا عند الغولوا في زمن سيزار، وعند الجرمان في زمن ناسيت. وقد فشا في الرومان فعلاً لا قانوناً حتى حظره جوستنيان في قوانينه. ولكنه ظل فاشياً بالفعل. وقد أباحه بعض البابوات لبعض الملوك حتى بعد الإسلام لشارلمان الذي كان معاصراً للخليفتين المهدي والرشيد العباسيين.

---

(١) المرأة في القرآن ص ٤٧١ ـ ٧٢ من المجلد الرابع من الموسوعة.

بل إن الفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي يقول في كتابه: «علم وصف الاجتماع» «إن الزوجات كانت تباع في انجلترا فيما بين القرن الخامس والحادي عشر».

الاسلام وتعدد الزوجات:

ولما بعث النبي ﷺ، وسن للناس شرعة الزواج وأبطل الزنى وكل ما هو في معناه من أنواع الأنكحة التي كانت سائدة في الجزيرة، ورأى ما عليه المجتمع إذ ذاك من التعدد في الزوجات، وما وراءه من حاجة أو ضرورة قد تقتضيه في بعض الظروف رعاية لمصلحة الزوج أو الزوجة أو المجتمع ككل، أباحه، وأبقى عليه. فهو إذن لم ينشيء شريعة التعدد. وهو أيضاً لم يوجبها، ولم يحض عليها كما يخيّل للبعض أو يحلو لهم أن يقولوه. ولكنه أباحه. وقد أباحه ولم يتركه كما كان معروفاً بالجاهلية على اطلاقه وعلى ما كان عليه من الإسراف والظلم والتجنّي على النساء. بل قيّده بالعدد الذي قد تقتضيه مصلحة النسل وحاجة المجتمع وطاقة الرجال وهو ألا يتجاوز الأربع.

بل إنه زاد على ذلك واشترط على الراغب بالتعدّد بأن يعدل بين أزواجه، وحذّره من الجور فقال: تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدْنى ألاّ تَعُولُوا﴾[1]. وفي هذا ما فيه التنفير من الاقبال على التعدد والتشجيع على الاقتصار على الزوجة الواحدة.

ولقد فهم بعض العلماء من هذا النص تحريم التعدد على من كان يخاف على نفسه ظلم زوجة محاباةً لأخرى وتمييزاً لها عليها. ولو جمعنا بين هذه الآية وآية أخرى وردت أيضاً في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا

---

(١) النساء ٤ ـ ٣.

بين النساء ولو حرصتم﴾[1] لرجح المذهب الذي يقول بتحريم التعدد ووجوب الاكتفاء بالزوجة الواحدة لولا آخر هذه الآية وتمامها. وهو قوله تعالى: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة﴾ الذي علم به أن غير المستطاع الذي تعنيه الآية والله تعالى أعلم هو العدل والحب وأثره النفسي.

المعوّل على التربية أولاً:

على أن أمر التوفيق في الحياة الزوجية، في حالة التعدّد أوْ عدمه، مرهون أولاً وقبل كل شيء بما تكون عليه طبيعة المجتمعات والافراد من مستوى أدبي أو تربوي. فالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة والصلاح كفيلة كلها بإضفاء ظلال من الطمأنينة والسكينة والسعادة بين الزوجين. وكم من زواج لا تعدد فيه مضروب بالفساد والقلق، ومصاب بالنزاع والأحزان لسوء طباع الزوجين أو أحدهما. وكم من زواج متعدد تخيّم عليه البركة وتحوطه مظاهر الرضا والمودّة...

خطر تحريم تعدد الزوجات:

ومتاعب الزواج من جراء التعدّد، وإن كانت كثيرة، إلا أنه على كل حال يظل واقعا في حدود لا تخلو من خير. وأقل ما يحمله من هذا الخير أنه يبقي للعائلة حرمتها وشرفها ويحفظ لها حدودها وبنيتها. وأما سيئاته وعيوبه ومتاعبه وهمومه فلها من أخلاق الأسرة، ومِنْ قَبْلُ مِنَ المجتمع علاج يكافحها ويصلحها ويتغلب عليها وعلى آثارها.

ولعل من بركات إباحة التعدد عند اقتضاء الحاجة الفردية أو الضرورة الاجتماعية أنه يصون الزوج أو الزوجة عن الممارسات الشاذّة التي تفضي به أو بها أحياناً إلى ما لا يحمد من السلوك والموقف، والى الدخول في معاشرات تسيء إليه أو اليها أدبياً وصحياً، وتسيء إلى مجتمعها. وتعرضه مع الاتساع والانتشار الى الانهيار.

---

(١) النساء ١٢٩.

فحاجة الإنسان الجنسية رجلاً كان أو امرأة جزء من طبيعته وكيانه، بل هي الجزء الفاعل المتحرك الدافق بالحيوية والعطاء. وكبح هذه الحاجة دونما تعويض فيه الكثير من المخاطرة لأنه يدفع بصاحبها الى حماقات خطيرة، لا يقتصر خطرها عليه وعلى من يجمح نحوه، بل يتعداه الى عائلته كلها والمحيط الذي تعيش فيه.

وإن التشريعات الحديثة، إضافة إلى التشريعات الدينية، ومنها التشريع النصراني لم تنشىء حتى الآن، أي نظام يحول دون معاشرة الرجل لامرأة يحبّها معاشرة جنسية، وهي في ظل رجل آخر مرتبط مع امرأة أخرى بموجب عقد شرعي، مخالفاً في ذلك شريعته الدينية، ومعتدياً على الأخلاق العامة والمبادىء الإنسانية الفاضلة، عن طريق التخفّي أو السريّة، الذي كثيراً ما لا ينفعه، وينتهي أمره الى الانفضاح وتكون المصيبة.

هذا في مجتمعاتنا التي ماتزال تقيم وزناً للقيم العائلية والمفاهيم الدينية وتلتزم بمجموعها بما تفرضه من إجراءات وحدود وآداب. أما في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، حتى والأفريقية والشرقية التي استباحت المخادنات والمعاشرات الجنسية بين الشباب والشابات في حدود التراضي، فحدّث ولا حرج عن المصير البائس الذي آلت إليه، سواء كان من حيث تفكك الأسرة واضطراب حبلها واختلاط الأنساب أو ضآلة النسل، وإصاباته بكثير من الأمراض التي تعتريه من جراء كثرة المعاشرات الجنسية وتنوعها من شخص لآخر ومن امرأة لأخرى.

إن الإسلام إذْ يبيح تعدّد الزوجات في الحدود التي أشرنا اليها سابقاً كحلّ من الحلول للمشكلة الجنسية المتأصلة في حياة الإنسان، ولأزمة العلاقة الزوجية الكريمة، ويرى أنها الحل الأمثل والأكمل لصون الأسرة وحمايتها من التفكك والضياع، وبالتالي للمحافظة على منعة المجتمع وتماسكه، ليرى مع ذلك أنه إن كان الرجل قادراً على الاكتفاء بالزوجة الواحدة فإن الأفضل له الالتزام بذلك، والاّ يجنح الى آقتحام عملية التعدّد.

وإن التشريع الاسلامي إذْ يبيح التعدّد ، فهو يتّخذ هذا القرار لحل مشكلة العلاقة الجنسية عندما يصبح وضع الرجل في حال لا يملك معه إلا أن يختار بين أن يمارسها سرّاً وفي معاشرة محرّمة وغير مشروعة ، أو علناً وفي رباط زوجي مشروع وكريم.

إن تعدّد الصواحب من النساء عن طريق المعاشرة الحرام أي عن طريق الزنى أمرٌ لا تقرّه الكنيسة ، ولا يوافق عليه المجتمع العلماني المتحضر ، ولكنه مع ذلك أمر واقع وحقيقة مستعلنة في كل المجتمعات التي تفرض نظام الزوجة الواحدة بشكل خطير ومخيف..

ولو أننا قارنا بين مخاطر أو مساوىء إباحة تعدد الزوجات، ومخاطر أو مساوىء تعدّد الصاحبات في نظام الزوجة الواحدة، وما لكل منهما من آثار سيئة على شخصية الرجل أو المرأة بالاضافة الى ما يتركه من عواقب قبيحة ومعاناة أليمة على المجتمعات لانتهينا الى الحكم السريع بالترحاب بالتشريع الخاص بتعدّد الزوجات.

وبانتشار تعدد المحضيّات والخدن زاد عدد الأمهات غير المتزوجات، وبلغت نسبة الولادة غير الشرعية في مجتمع كمجتمع السويد سنة ١٩٦٣ نسبة واحد الى تسعة. كما آنتشرت الأمراض السرّية، وتجاوزت هذه الأمراض النساء الراشدات الى المراهقات، ما بين سن آثنتي عشرة الى خمس عشرة. كما شاعت التجربة الجنسية قبل الزواج مع رجل، أو مع عدة رجال بين الذكور والإناث...

من أجل هذا وغيره كان تشريع إباحة تعدد الزوجات في الاسلام، وكان موقفه الرافض لفرض شرعة الزوجة الواحدة الذي تفرضه الكنيسة النصرانية[١]..

---

(١) الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر الدكتور البهي ص ٢٧٥ وما بعدها.

موقف الاسلام من الطلاق:

لقد أجازت الشريعة الموسوية أو اليهودية الطلاق واشترطت على الرجل أن يعطي آمرأته المطلّقة وثيقةبه. وبذلك يكون لها الحق بأن تتزوج رجلاً غيره. بيد أنها لا يجوز لها أن تعود الى زوجها الأول إذا طلّقها الثاني أو توفي عنها. وقد ورد نص ذلك في التوراة في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية حيث يقول: «إذا أخذ رجل آمرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه، لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه الى يدها، وأطلقها من بيته. أو إذا مات الرجل الأخير الذي آتخذها زوجة لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود بأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجّست لأن ذلك رجس لدى الزب، فلا تجلب خطيّة على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيباً»[1].

وقد ظل التعامل جارياً على أساس هذه الشريعة حتى بعد ظهور عيسى عليه السلام ونزول الإنجيل؛ فقد ثبت أن عيسى عليه السلام قد سئل عن الطلاق واستنكره وآعتبره سيئاً لأنه يجرّ المرأة المطلّقة إلى الزنى. وقد ورد في انجيل متى ما نصه: وجاء إليه الفرّيسيون ليجرّبوه قائلين له: هل يحل للرجل أن يطلّق آمرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الإثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرّقه إنسان. قالوا فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق؟ قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم إن من طلّق إمرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلّقة

(١) سفر التثنية ٢٤: ١.

يزني قال له تلاميذه. إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج. فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطي لهم »[1].

وهكذا فإن الكنيسة ترى أن الأصل في الزواج الديمومة والاستمرار، وأنه رابطة مؤبدة لا تزول إلا بالموت. ولذلك فإنها تنظر الى الطلاق نظرة مختلفة عن نظرة اليهودية إليه. فهي تمنعه وتحرّمه على الزوج، لأن الزواج سرّ مقدس يتّحد به الزوجان اتحادا مقدساً بنعمة الروح القدس. والكنيسة الكاثوليكية لا تبيحه إلا لعلّة واحدة هي الزنى. وهي تفهم من الطلاق الهجر والافتراق الجسدي مع بقاء الرباط الزوجي. إلا أن الكنيسة البروتستنتية تبيح الطلاق في حالتي الزنى وتغيير الدين. فإذا زنى أحد الزوجين أو غير دينه أمكن الآخر المطالبة بالطلاق. وأما الكنيسة الأرثوذكسية، فإنها تبيح الطلاق أيضاً للسببين اللذين أخذ بها البروتستانت، وزادوا عليها أسباباً أخرى لم ترد في الأناجيل، ولكنهم برّروا لمذهبهم بأن هذه الأسباب تبلغ حداً من الخطورة يصبح معه الابقاء على الرابطة الزوجية أمراً مستحيلاً وضاراً بمصلحة كل من الزوجين[2].

وقد ظهر الاسلام بعد هذين الدينين، وهو الذي ينظر إليها والى ذاته نظرته الى الدين الواحد الذي استسقى أصوله من معين واحد، وينبغي أن يكون متكاملاً، ظهر في الجزيرة العربية التي كانت لها أعراف تمارسها في الزواج والطلاق. فقد كان بعضهم يلتزم بنظام الطلقات الثلاث، وبعضهم لا يلتزم بعدد، فكان يطلق امرأته ما شاء من الطلاق حتى إذا كادت تحل من طلاقه راجعها ما شاء. ولقد قال رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ: « لا آويك ولا أدعك تحلين قالت: وكيف؟! قال أطلّقك، فإذا دنا مضيّ عدتك راجعتك. فشكت المرأة ذلك الى عائشة فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله:

---

(١) متى: ١٩:٨ - ١٠.
(٢) تفسير القرطبي ١٢٦/٣

﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسرح باحسان﴾ فبيّن بهذا عدد الطلاق الذي ينبغي للمرء فيه ان يرتجع زوجته دون أن يكتب لها مهراً جديداً ودون أن يشرف في الأمر ولي.

ولقد كان العرب في الجاهلية يطلقون ثلاثاً على التفرقة. وأول من سن لهم ذلك اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام. وكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس بها حتى اذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها[1].

وورد في الأغاني أن بعض النساء كنّ يطلّقن الرجال في الجاهلية. وكان من عادة بعض قبائل العرب أنه اذا أرادت احدى نسائهن طلاق زوجها حوّلت أبواب خبائها، إن كانت الى الشرق، فإلى الغرب، وإن كانت الى الجنوب فإلى الشمال.

وقد ورد أن ماوية بنت عفرز طلقت زوجها حاتم الطائي حين أمعن به جنون الكرم، فلم يبق لابنائه شيئاً من المال. وقال الامام الشافعي « سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث: الظهار والإيلاء، والطلاق. فأقر الله تعالى الطلاق طلاقاً وحكم في الايلاء والظهار بما بيّن القرآن »[2].

وقد أتى القرآن الكريم على ذكر الطلاق في آيات كثيرة منه؛ منها الآية التي ذكرناها آنفاً، ومنها قوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسّوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾[3]. كما ورد ذكره في السنّة النبوية ـ كشريعة متّبعة فعلاً وقولاً. وقد طلّق النبي ﷺ السيدة حفصة ثم راجعها[4]. وطلّق عبدالله بن عمر

---

(١) بلوغ الأدب محمود شكري الألوسي ٢/٤٩.
(٢) بلوغ الأدب ٢/٥٠.
(٣) البقرة ٢٣٦.
(٤) القرطبي ٣/١٢٦.

زوجته وهي في الحيض فأمره النبي ﷺ بمراجعتها. وقد انعقد اجماع المسلمين على مشروعيته.

والاسلام وهو يتبنى مشروعية الطلاق يعتبر من مسلّماته أن الزواج هو اللبنة الأولى والأساسية في تكوين المجتمع الصالح التي يرتكز عليها ليكون قوي الترابط، شديد التماسك. وهو في نظر الاسلام، ثمرة ميثاق عظيم وغليظ يقول الله تعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾[1].

يقول الفخر الرازي في تفسيره هذه الآية «... قال ابن عباس ومجاهد الميثاق الغليظ كلمة النكاح المعقودة على الصداق، وتلك الكلمة تُستحل بها فروج النساء. قال ﷺ: اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله وآستحلَلْتُم فروجهن بكلمة الله». وقد وصفه بالغلظة لقوته وعظمته»[2]. ولذلك فهو في الاسلام عقد رضائي يتم بايجاب وقبول. وهو أيضاً في الأصل كما عند النصارى، عقد أبَدي يُحرم فيه التوقيت بأجل لأنه لا يحقق له ما ينشده من الاطمئنان والاستقرار، وبخاصة وأن الله تعالى يقول: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾[3].

الحكمة في إباحة الطلاق في الاسلام:

ولئن كان الإسلام قد أباح الطلاق وشرعه رغم الأساس الذي أقام عليه الزواج، فذلك لما قد يجدّ في الحياة الزوجية، أو ينشأ من أمور لا تستقرّ معها بل تنقلب الى جحيم. كالخصام والشقاق، أو التباغض أو المرض أو العقم الذي لا يستقيم معها دوام العشرة وتصبح الرابطة الزوجية عقداً قائماً شكلاً وصورة لا موضوع لها ولا روح، والله تعالى يقول: ﴿وإن يتفرّقا يغن الله كلاًّ من سعته

---

(١) النساء ٢١.
(٢) الفخر الرازي ١٠/١٧.
(٣) الروم ٢١.

وكان الله واسعاً حكيماً﴾(١).

وفرض ابقاء الزوجية في مثل هذه الحالات خطير لأنه يحمل الزوجين أو أحدهما في أهون السلوك على النفاق والكذب، ويفتح له مسارب مشينة بل وضارّة تنتهي به الى تخريب بناء الزوجية وافساده. بل وكثيراً ما تنتهي بنهايات مميتة وجرائم مخزية فضلاً عمّا تورث المحيط الذي هي فيه من آثار وخيمة وعواقب ضارة جداً...

وهكذا فقد كان الطلاق في الاسلام حلاً لأزمة تستعصي على الحل بالتراضي، وضرورة حتمية للمحافظة على الودّ بين شخصين هما عنصران أساسيّان في بناء المجتمع، وللمحافظة على سلامة بنية اجتماعية كاملة من التصدّع والخلل الخطير الذي يجرّ وراءه خلل وتصدع البناء الأكبر وهو بناء المجتمع الكبير..

وهكذا فقد قدّمت الشريعة الإسلامية للمجتمعات البشرية جميع الرخص التي ما زالت تبحث عنها الأمم بشرائع الدول في هذا العصر الحديث لتيسّر للزوجين العلاقة الصالحة الودود، ولتحافظ على الآداب الانسانية والقيم الحضارية السامية. واذا كانت الشريعة الاسلامية هذه قد تجنّبت شرعة التشديد التي اعتمدتها الشريعة النصرانية، فلإنها رأت أنها لا تجدي فتيلا للمحافظة على المضمون الذي يتطلبه كل من الزوجين عند اجراء العقد بينهما من قداسة الرباط، وجمال معانية الانسانية النبيلة.

والطلاق مع ذلك كله هو في الاسلام شرٌّ لا بد منه، وقسوة شديدة، ولكنها أنجع العلاج وأجداه في ظروف الحياة الزوجية التي لا تطاق. وما أروع قول الرسول ﷺ في وصف الطلاق: «إن أبغض الحلال الى الله الطلاق».

بل إن كثيراً من العلماء ذهبوا الى القول، بأن الأصل في الطلاق المنع والتحريم

---

(١) النساء ١٣٠.

إلا لحاجة ككبر وريبة[١] وذلك لقوله تعالى ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾. وقد نهى رسول الله ﷺ عن الطلاق فقال: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»[٢].

وذهب البعض الآخر الى أن الأصل في الطلاق هو الاباحة. كما وازن آخرون بين هذين المذهبين فاعتبروه مشروعاً ومباحاً من جهة، ومحظوراً من جهة أخرى. فهو مباح لأن فيه رفع قيد النكاح عند قيام الضرورة الى ذلك. وهو محظور لأن فيه قطع النكاح الذي تترتب عليه المصالح الدنيويّة والأخروية[٣].

وقد استتبع الإذن بالطلاق في الإسلام عند الحاجة إليه، تشريعات كثيرة اتخذها ليصون حقوق كل من الزوجين ويحمي مصالحهما الناشئة عن وقوع الفراق بينهما سواء كانت متعلقة بهما أو بأبنائهما.

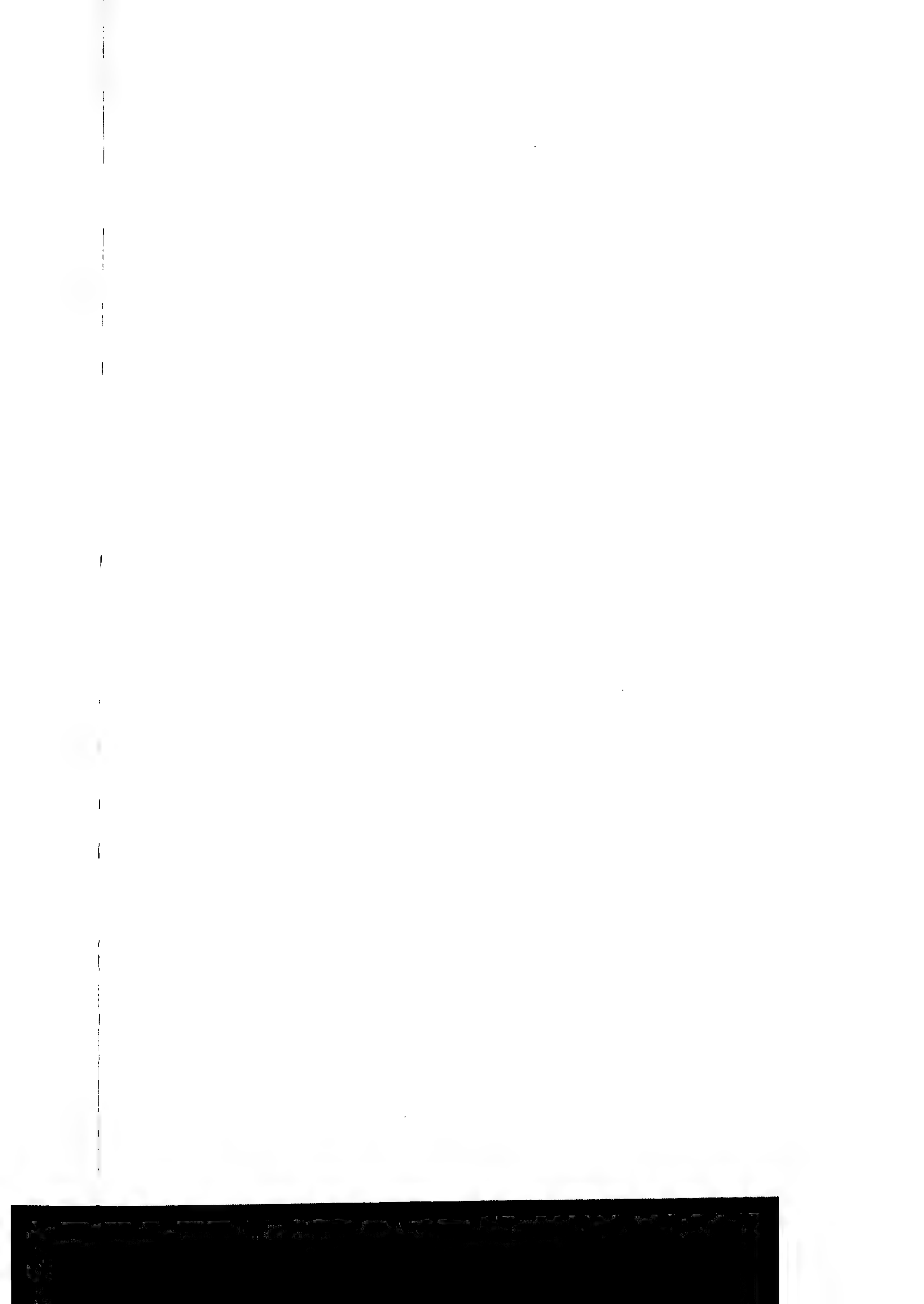
إن الاسلام العظيم لم يفتح الباب على مصراعيه للطلاق؛ كما هي الحال في الشريعة الموسوية، ولم يقرن به تشريعات تقيد الزوجية في بعض الأحوال، وتعطل وجودها الإنساني المثمر في المجتمع، كما أنه لم يغلقه كلّياً كما في الشريعة النصرانية. بل سمح به، وكرهه، وبغّض به، ونهى عنه. وقد سمح به في حالات الضرورة التي تتطلبها ظروف الزوجين أو ظروف أحدهما، وما أكثرها في الحياة، حرصاً على مصلحتهما وذبّاً عن كيانهما وتيسيراً لمعاشهما وتعزيزاً للبنية الاجتماعية في حدودها الضيقة وحدودها الرحبة..

---

(١) فتح القدير ٣/٢٣.

(٢) أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الاسلامية حسن خالد وعدنان نجا ١٧١.

(٣) الأحوال الشخصية المصدر نفسه السابق.



الفصل العاشر

الاسلام والنصرانية وجهاً إلى وجه

١ ـ الجذور الواحدة
٢ ـ الإسلام لا يفرّق بين أحد من رسله
٣ ـ الإسلام يؤمن بالكتب المنزلة، وهو ليس بدعاً في رسالات السماء
٤ ـ الإسلام يرجو لمن سبقه العودة إلى الأصول
٥ ـ الإسلام جاء ليخفّف عن الإنسان بعض الآصار
٦ ـ الإسلام استحدث بعض التكملات الضرورية
٧ ـ نماذج من تكملاته
٨ ـ توفيقه بين المنهج التوراتي والمنهج الانجيلي
٩ ـ برّ الإسلام بمن سبقه
١٠ ـ كمال القرآن وإعجازه
١١ ـ برّ الإسلام بجميع الناس وبالنصارى بالذات
١٢ ـ حب الدنيا رأس كل خطيئة
١٣ ـ ليس من أغراض الاسلام عداوة الناس أو قتلهم
١٤ ـ محاوراته الجميع وبخاصة أهل الكتاب
١٥ ـ موقف الرسول ﷺ يوم الحديبية
١٦ ـ مبرر زحف الإسلام على فارس والشام وأفريقيا وغيرها
١٧ ـ معاملة الإسلام للنصارى خاصة ولأهل الكتاب عامة
١٨ ـ أمثلة من معاملة المسلمين للنصارى وشهادات في ذلك

أفضنا في الحديث فيما سبق عن موقف الاسلام من سيدنا عيسى عليه السلام ومن أمّه السيدة مريم عليها السلام، ومن الأناجيل، ومن العقائد النصرانية وتشريعاتها المختلفة. وبقي علينا أن نتكلم عن موقف الاسلام عامة من النصرانية والنصارى.

الجذور الواحدة:

ولقد أشرنا أكثر من مرّة إلى أن مفهوم لفظ «الإسلام» الذي سمّي به هذا الدين العظيم، هو الإذعان لله والاستسلام لإرادته. وهذا المفهوم هو ما جاءت به اليهودية والنصرانية في جوهرهما. ولذلك فإن الإسلام يلتقي في جوهره وجذوره مع جوهر وجذور كل من اليهودية والنصرانية على حقيقة الدعوة إلى الايمان بالله العلي القدير، والإذعان لمشيئته العليا، والالتزام بحدوده التي حدّها للناس في كتبه المنزلة على رسله المصطفين الأخيار والتي تخرج من مشكاة واحدة.

الاسلام لا يفرّق بين أحد من رسله:

والاسلام فوق هذا يدعو الى الايمان بجميع الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله، وبعث بهم الى الأقوام المختلفة على تقلّب العصور دون تمييز أو تفريق بين أحد منهم. يقول الله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير﴾[1].

(١) البقرة ٢٨٥.

قال الفخر الرازي في تفسير هذا القول: «لا نفرّق بين أحد من الرسل وبين غيره في النبوّة، لا كما يفعل اليهود أو النصارى، فإنهم يفرّقون بين أحد من الرسل وبين غيره»[1]. فاليهود يفرّقون بين موسى عليه السلام وكل رسول من رسلهم، وبين عيسى ومحمد والنصارى يفرّقون بين عيسى وكل نبي من أنبياء بني إسرائيل. وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم.

الاسلام يؤمن بالكتب المنزلة، وهو ليس بدعاً في رسالات السماء:

والاسلام يؤمن في الوقت نفسه بالكتب التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء السابقين. ويعلن للناس كافة أنه لا يدّعي أنه دين غير مسبوق في الأصول التي جاء بها، أو أنه جديد كل الجدة في كل شيء أتى به. فالله تعالى يقول: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾[2] ويقول: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾[3] ويقول: ﴿قُلْ ما كنتُ بدْعاً من الرُّسُل﴾[4].

الاسلام يرجو لمن سبقه العودة الى الأصول:

بيد أن الاسلام جاء ليعود بالناس الى الأصول التي بعث بها الأنبياء الأولون، والتي بعث بها موسى وعيسى عليهما السلام بعد أن شاب ما بين أيديهم منها الزيف ودخلها الكثير مما ليس منها. وهو يذكّرهم فيقول: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موسى تكليما.

(١) الفخر الرازي ٧/١٤٧.

(٢) الشورى ١٣.

(٣) الأحقاف ١٢.

(٤) الاحقاف ٩.

رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً. لكن الله يشهد بما أنْزَل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ (١).

وقد جاء هؤلاء الرسل بوصايا الله وشرائعه للناس. جاؤوهم بمفاهيم العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. كما جاؤوهم بصور التقرب الى مرضاة الله، فشرعوا الصلاة والزكاة والصوم، وشرع إبراهيم فريضة الحج.

ولقد نهوا جميعاً عن المحرّمات. فاستفظع لوط فحش قومه وفسوقهم، ونهاهم عنه وقاومه فيهم. وأنكر شعيب على قومه إنقاصهم المكيال والميزان ودعاهم الى إيفائها بالقسطاس، وألا يبخسوا الناس أشياءهم وإلا يَعْثَوْا في الأرض مفسدين. ومقت كل من هود وصالح حب قومه للأموال ومتع الحياة ونزوعهم المادي، كما شجب استغراقهم في البغي وتماديهم في العدوان ونهاهم عن ذلك كله.. فقام كل رسول على العموم بتبليغ رسالته خير قيام. فذكّر شعبه بالله واليوم الآخر، يوم الحساب والثواب والعقاب، ونصح لهم وبصّرهم بما هم عليه من الزيغ والانحراف والفساد ودعاهم إلى الحق والهدى والطريق المستقيم.

الاسلام جاء ليخفف عن الإنسان بعض الآصار:

ولكنه مع اعترافه بما سبق، فقد جاء يخبر الناس وذوي الديانتين السابقتين، وهم الذي يسميهم «أهل الكتاب». بأنه يحمل لهم شريعة عدلت ما عندهم وكمّلته، فخفّفت عنهم بعض ما فرض عليهم في شرائعهم من الأنظمة القاسية... إنها أحلّت لهم الطيبات، وحرّمت عليهم الخبائث، ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. يقول الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر

---

(١) النساء ١٦٣ - ١٦٦.

ويحلّ لهم الطيبّات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾(١).

ومما لا ريب فيه أن الله تعالى كان قد حرّم على بني إسرائيل بعض الطيّبات عقوبة لهم، وفرض عليهم الفرائض القاسية الشاقة، وذلك بسبب ظلمهم وتجاوزهم لحدود الله. يقول الله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾(٢). كما كانوا هم أيضاً قد حرموا على أنفسهم طيّبات أخرى، لم يحرّمها الله تعالى عليهم، وأحلوا لأنفسهم أكل أموال غير الإسرائيليين بالباطل. كما كان في شرائعهم ما هو شاق جداً كاشتراط قتل النفس في صحة التوبة. وقطع الثوب النجس وقطع الأعضاء الخاطئة.

لقد جاء الاسلام بشريعته السمحة ليعود بهؤلاء جميعاً الى النظام الطبيعي والقواعد التشريعية الميسّرة، وليردّهم إلى الأصول التي تصلح لكل الناس على اختلاف طبائعهم وأوضاعهم وأزمانهم.

الاسلام استحدث بعض التكملات الضرورية:

وقد استحدث اضافة الى ما سبق بعض التكملات الضرورية على الشرائع السابقة التي تتلاءم مع الأصول وتتناسب مع مصالح الناس وتضمن لهم مزيداً من الاستقرار والتفاهم. ففي الوقت الذي كان يقول لكل منهم: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾(٣)

---

(١) الأعراف ١٥٧.
(٢) النساء ١٦٠.
(٣) آل عمران ٨٤.

كان يلفت أنظار أهل الشرائع القديمة الى الأفكار والأنظمة الفاسدة التي دخلت معتقداتهم وكتبهم ويبيّن لهم فسادها وزيفها، ثم يعيدها الى صفائها ونقائها كما كانت من معينها الأصلي، ويجمع ما تفرّق لدى كل منها من عناصر الحق والخير ويوفق بينها ويجعلها في وحدة كاملة متناسقة، أو يزيد عليها زيادات تتطلبها مصالح الافراد والجماعات مع توالي الأيام وتطور الأوضاع والأحوال.

ومن ذلك أنه عاد بالعقيدة الربانية، عقيدة التوحيد الى نقائها القديم، فرفض التثليث، ورفض البنوّة وما دار حولها من جدل وخلافات، ورفض اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وأنزلهم منازلهم الطبيعية من الناس والمجتمعات وقال: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

ولقد وفق بين قسوة الشريعة اليهودية التي تأخذ بقاعدة النفس بالنفس والسن بالسن والعين بالعين والجروح قصاص، وبين لين الشريعة النصرانية التي اعتمدت قاعدة «أحبوا مبغضيكم وباركوا لاعنيكم» و«من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» واحتواهما بقاعدته الكاملة التي جمعت بين العدل والرحمة، والشدة والرأفة فقال الله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[2]. وقال ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[3].

---

(١) يوسف ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) النحل ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) الشورى ٤٠ ـ ٤٣.

نماذج من تكملاته:

وقد آستحدث في الإطار التشريعي أحكاماً لم تكن في الشرائع السابقة؛ فحرّم الخمر، وفرض الزكاة في الأموال ونظمها. وفرض المواريث ونظمها تنظيماً لا مثيل له في التشريعات قاطبة، وحدّد عدد الزوجات بعد أن كان مطلقاً لدى البعض، كما حدّد عدد الطلقات، وحبذ ألا تكون إلا في طهر لا جماع فيه. واستحدث هيئات الصلاة وأشكالها والحج ومناسكه وتنظيمات أخرى لا سبيل الى تتبعها كلها في هذا البحث.

وهو بعد هذا ابتدع مبدأ النية وما يطويه الفؤاد وتخبئه النفس من قصد وآعتبره ركيزة السلوك الإنساني ومدار الأحكام ومناط الحساب في الأساس، وفي المبدأ الديني والخلقي. يقول الله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي ما قصدته وآرتبطت به. ويقول ﷺ «الا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» ويقول: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل آمرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله. ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو آمرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر إليه» والنية هذه، هي كما عرّفها العلماء انبعاث النفس وميلها الى ما ظهر لها ان فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً وإما خيراً وإما شراً. ومنه يثبت أن النية هذه ليست كما يقول البعض عن القول باللسان أو القلب، بل هي عبارة عن حصول هذا الميل. وذلك أمر معلق بالغيب يتيسّر تارة ويتعذّر أخرى[1] وقد ورد عنه ﷺ «أنا أعلمكم بالله، وإن المعرفة فعل القلب»[2] وكأنه يريد أن يقول: إن الإيمان لا يتم بالقول وحده، بل لا بد من أن ينضم إليه الاعتقاد القلبي. وقد قال ابن حجر في تعريف النية وبيان ظرف اقتضائها واشتراطها وتطلبها «كل عمل لا تظهر فيه فائدة عاجلة، بل المقصود به طلب الثواب فالنية مشترطة فيه. وكل

---

(١) الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين الشيخ القاسمي ص ١٣٥.

(٢) القسطلاني ١٠٢/١.

عمل ظهرت فائدته ناجزة وتعاطته الطبيعة قبل الشريعة لملائمة بينهما فلا تشترط النية فيه، إلا لمن قصد بفعله معنى آخر يترتب عليه الثواب »[1]؛ فالصلاة والصوم والصدقة والاحسان مطلقاً والجهاد والوعظ وغيرها أعمال يباشرها الإنسان وفائدتها غير واضحة الوضوح الكامل في القريب العاجل، ولكنه يقصد منها التقرّب الى الله والتطلع للحصول على مثوبته. ولذلك كان لا بدّ فيها من نية حتى تكون مقبولة أولا، وحتى يتحقق ما يرجوه الفاعل من فعلها. ومن هنا كان قول رسول الله ﷺ جواباً على سؤال السائل: « يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، وفي رواية يقاتل شجاعة ويقاتل حمية وفي رواية يقاتل غضباً فمن في سبيل الله » فقال رسول الله ﷺ، من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. متفق عليه[2].

أما الخوف والرجاء، والأكل والشرب، والكلام العادي والصمت العادي، كل هذه الأفعال ذات فائدة ناجزة، وتتعاطاها طبيعة الإنسان قبل أن تتطلبها منه الشريعة الربانية. فلذلك لا تشترط لها النيّة مطلقاً.

وعلى كل حال فإن تطلب النية في الأعمال والأقوال الهادفة حتى يؤجر عليها فاعلها أو يعاقب، أمر قد استحدثه الاسلام وكمل به شريعته، وأنزله منها منزلة الميزان الذي توزن به الأعمال. وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: « إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وأديا، ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم في المدينة »قالوا كيف ذلك وهم في المدينة يا رسول الله وليسوا معنا قال: « حبسهم العذر » وكأنه يريد بذلك ﷺ أن يقول قد شركوه وأصحابه الغزاة وهم في المدينة بحسن النية. وقد روي عنه أنه قال: « يبعث كل عبد على ما مات عليه »، وقوله: « من تزوّج آمرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا

(١) فتح الباري ١/١٣٦،

(٢) منهل الواردين ٢/٧٣٦.

ينوي قضاءه فهو سارق »[1].

توفيقه بين المنهج التوراتي والمنهج الانجيلي:

ومن منهج الشريعة الموسوية إضفاء سمة الشرف والامتياز لاتباعها على من سواهم؛ فهم ابناء الله وأحباؤه، وبذلك رفعتهم على جميع الناس، وأقامت بينهم وبين غيرهم حاجزاً مفرّقا سميكا، يعسر معه التلاقي إلا في حدود: « للاجنبي تقرض برباً، ولكن لأخيك لا تقرض برباً »[2] « الاجنبي تطالب وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه »[3]. وهكذا أنزلت ابناءها منزلة خاصة بهم ميزتهم بها عن ابناء الأديان أو الأمم الأخرى ومنحتهم الحق بأن يتعاملوا معهم على أساسها.

وقد عقبت الشريعة النصرانية تلك الشريعة الموسوية فاعتمدت منهجاً مخالفاً كل المخالفة، إذ أسقطت ذلك الحاجز الذي أقامته إسقاطاً كلياً، ودعت الى تواصل الناس وتحابهم، والى إقامة علاقة بين بعضهم وبعض على أساس من التيسير الكلّي والعفو الكلي، فكان لها فضل كبير لأنها سوّت بين الإنسان وأخيه، ونظرت إليها بعين المساواة الشاملة والمحبة المستفيضة فقالت: « لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم، وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأي فضل تصنعون »[4].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: « فقد كانت الروح الجماعية في الماضي تستهدف غرضين صالح الجماعة من ناحية، وتمييزها عن صالح الغير من ناحية أخرى. ولكن المحبة المسيحية بامتدادها خارج الحدود الإقليمية وبرغبتها في

---

(١) موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين للقاسمي ٢٠٦/١.

(٢) التثنية: ٢٧ : ٢٠.

(٣) التثنية ١٥ : ٣.

(٤) متى ٥ : ٤٦ - ٤٧.

احتواء الإنسانية كلّها قد أحسنت صنعاً بإبطال هذا الطابع العنصري. واستبداله بأخوة عالمية. ولكنها لم تركز اهتمامها بالقدر الكافي لتقوية الرابطة المقدسة للجماعة بصفة خاصة»[١].

وقد جاء الاسلام فرعى المفهوم الإنساني في مداه المطلق، كما رعاه في مداه المحدود، جمع بين الفضيلة العامة والفضيلة المختصة بالجماعة. نصر الأخـوة في الله وعزز قواعدها وحثّ عليها، وكشف عن أفضالها، وآثارها الزكية. ولكن لم يشأ في الوقت نفسه أن تغيب عن خواطر أتباعه محاسن أخوتهم الإنسانية وقيمها الطيبة فيتخطوها أو يهملوها كلياً، ذلك لأن الاعتزاز بالمشاعر الدينية الخاصة وشحنها وجدانياً وعاطفياً بما يرشحها ويعمّق فاعليتها لا يُنسي حقوق وواجبات الأخوة في الإنسانية، بل لا يحرّم مطلقاً مبادلة الأخوة فيها إحساناً باحسان وبراً ببّر. يقول الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[٢] ولكنه يقول أيضاً: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٣] ويقول: ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديـاركم أن تبروهـم وتقسطـوا إليهـم إن الله يحب المقسطين﴾[٤]. ويقـول: ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[٥].

وهكذا، فإن الاسلام لم يشأ أن يكون التعامل في اتباعه متميزاً كلياً عمن عداهم فإذا كان الربا محرّماً في الاسلام والتعامل فيه محرماً ايضاً بين المسلمين، فهو محرّم أيضاً مع غير المسلمين من أي دين كانوا. وإذا كان الزنى محرّماً، فهو محرّم على المسلمين فيما بينهم وكذلك مع غير المسلمين. وإذا كان الغش والكذب

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم محمد عبد الله دراز ١٠٩.

(٢) الحجرات ١٠.

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) الممتحنة ٨.

(٥) المائدة ٦.

محرّمين مع المسلمين، فهما أيضاً محرّمان مع غير المسلمين وإذا كان الوفاء بالعقود مطلوباً بين المسلمين، فهو أيضاً مطلوب منهم مع غير المسلمين سواء بسواء. وكذلك بالنسبة الى الظلم والبغي والعدوان، أو العدل والانصاف. وقد أخرج الامام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا» وذلك لأن هذه الأحكام وغيرها مما هو منصوص عليه، مبنيّة على قاعدة عامة، وأصول محكمة لم تستثن أحداً. وقد شرعها الإسلام لرعاية مصالح الناس أفراداً وجماعات، بصورة عامة، وبخاصة المسلمين منهم، ولصيانتهم من الفساد والزيغ والبغي ولاقامة وجودهم على قواعد راسخة من الفضائل والقيم الأخلاقية التي جاء بها الرسل...

هذا ولا يمكن أن يكون الإنسان صالحاً في ذاته، وخلوقاً وفاضلاً مع أناس، ثم يخالف صفاته هذه الى نقائضها مع أناس آخرين لمجرد أنهم يخالفونه في العقيدة والدين. أو يتخذون لأنفسهم منهجاً سلوكياً مبايناً لمنهجه السلوكي. مع أنهم لا يعادونه ولا يشهرون في وجهه حرباً ولا قتالا. إن الصادق في نظر الاسلام ينبغي أن يظل كذلك في كل حال، وكذلك الأمين والوفي والودود، لأن كل هذه الصفات وأمثالها المنبثقة من قيم رفيعة أو من مبادىء أخلاقية، لا يجوز أن تتغير مطلقاً في الناس بتغيّر علاقاتهم ومفاهيمهم في التعامل.

إن سلوك المسلم هذا السلوك الثابت في طيبه مع الناس عامة، لا يتعارض في شيء مع الوفاء للجماعة التي آنتمى إليها وبذل الخير والبرّ لها أولاً، وقبل كل شيء. لأن من لا خير فيه لنفسه لا خير فيه لغيره، ومن لا يبر جماعته، ويحسن إليها، ويكرّم وجودها ويعزّز قيمها وشرائعها وحدودها، لا يمكن أن ينتظر منه الغير برّاً به وإحساناً إليه...

برّ الاسلام بمن سبقه:

ولقد ظل الاسلام بمنهجه هذا باراً بالديانات التي سبقته، محافظاً على معالم أصولها وركائزها. لأنه لم يأت لينقضها بصورة كلية، بل العكس، ليثبت منها ما يمكن تثبيته. كعقيدة التوحيد والايمان بالرسل والنبيين والملائكة والكتب والبعث والحشر والحساب، وليصحح منها الانحرافات والأخطاء في العقائد والدين، ثم ليكمل كل ذلك، ويجعله في بنائه التام وصورته المجملة الكاملة، يقول الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾[1] ويقول ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله الا موضع لَبِنَة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللَّبِنَة؟ فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين»[2].

كمال القرآن وإعجازه:

ولعلنا نستطيع أن نقول: ولأن الاسلام ينبغي أن يكون كاملاً في الصورة والجوهر والشكل والموضوع، فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين توفّرت له كل البلاغة والفصاحة التي أعجزت فرسان العربية وسدنتها وسادة حلبتها عن معارضته والاتيان بمثله، او بمثل صورة قصيرة من سوره. مع العلم بأن إعجاز هذا الكتاب العظيم لم يكن ببيانه الفريد وأسلوبه الأوحد المجيد، بل كان أيضاً بما احتواه من مضمون فكري وعلمي وتشريعي وأخباري عن الماضي والمستقبل، وبتنجيمه على مدى ثلاث وعشرين سنة مع الاحتفاظ له بالرونق الساحر والجمال الآخذ بالألباب، وكل الجلال والاغراء العجيب.

بر الاسلام بجميع الناس وبالنصارى بالذات:

والاسلام في كل هذا لم يند فيه لفظ أو معنى يكن فيه البغض والكره لأحد؛

---

(١) المائدة ٣.

(٢) البخاري كتاب المناقب باب فاتح النبيين.

أو يبيت له مشاعر الحقد أو لأية فئة من الناس أياً كان لونها أو عرقها أو لسانها. بل العكس هو الصحيح، فقد حمل الخير للناس كافة، وسعى ولا يزال يسعى لذبهم عن النار ودفعهم عن مكاره الدنيا ثم عن عذاب الآخرة وخزيها.

ولئن كان كذلك بالنسبة الى الناس عامة، فقد كان بالذات أكثر حرصاً مع أهل الكتاب، والنصارى على الخصوص، أولئك الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾[1].

ويعلل الفخر الرازي لهذه المفارقة بين اليهود والنصارى فيقول: «إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا﴾. فقرنهم في صفة الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد. والحرص معدن الأخلاق الذميمة، لأن من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا، وأقدم على كل محظور ومنكر في سبيل ذلك. وأما النصارى، فإنهم في أكثر الأمر، معرضون عن الدنيا مقبلون على ما يحقق المكاسب في الآخرة، مترفعون عن طلب الرياسة وعن التكبر. ومن آستوفى هذه الخصال عفّ عن التدني الى حسد الناس ومؤاذاتهم، ولان في طلب الحق أو الانقياد له....

حب الدنيا رأس كل خطيئة:

ويتابع الفخر الرازي قوله فيوضح أن كفر النصارى هو أغلظ من كفر اليهود، لأن النصارى ينازعون في الإلٰهيات والنبوات، واليهود لا يفعلون ذلك. ولكن مع ذلك، فإنه لما لم يشتد حرصهم على طلب الدنيا، قال الله فيهم ذلك القول: أما اليهود، فإنهم على خفة كفرهم في جنب كفر النصارى فقد

---

(١) المائدة ٨٢.

طردهم، وخصهم بمزيد من اللعن بسبب حرصهم على الدنيا. وهذا يلفت النظر إلى حكمة قوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

ليس من أغراض الاسلام عداوة الناس أو قتلهم:

إن الاسلام دين السلام واضفاء الأمان والطمأنينة على كل الناس وكل المجتمعات ما عدا الأشرار منهم، والعائثين في الأرض فساداً ،الذين يقلبون أمن الناس رعباً وطمأنينتهم قلقاً واضطراباً. يقول الرسول ﷺ :« أحب للناس ما تحب لنفسك »[2] ويقول: « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » وهو لهذا لا يبغي العداوة لأحد بل يؤذيه مشاهدة مضايقة الناس وتساقط الآلام عليهم. يقول الله تعالى في وصف حامل رسالة الإسلام محمد ﷺ: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو رب العرش العظيم﴾[3].

والخطاب في هذه الآية موجه الى العرب قاطبة، بمن فيهم المشركين والكفار وأهل الكتاب والصابئة وغيرهم. وجمهور المفسرين على ذلك. ويزيد الزجاج وهو أحد كبار أئمة اللغة العربية، فيقول: « إنه خطاب موجه إلى العالم كله لعموم بعثته صلّى الله عليهم وسلم »[4].

بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات الزاكيات التي تفيض بهذه الروح نفسها وتؤكد مضمونها للناس جميعاً. وحسبنا أن نورد هنا دليلاً على ذلك قوله تعالى: ﴿... ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٧١ بتصرف.
(٢) فيض القدير ١/١٧٦.
(٣) التوبة ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤) المنار ١١/٨٨.

في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ .

ومهما يكن من أمر، فقد كانت جزيرة العرب مهداً لمختلف الديانات والمذاهب والعقائد والاتجاهات الفكرية. وظهور الرسول ﷺ فيها وبعثته الى شعوبها قاطبة مزوداً بالصفات التي ذكرتها الآية، يؤكد نقاء الرسالة التي حملها من شوائب صفات الذم، ويثبت قطعاً صفاء طويتها وحرصها الصادق والمخلص كما قدّمنا على أن تكون بارة بكل الناس دائبة بصبر وحنان ورأفة لحملهم على الحق والهدى وتوجيههم الى الخير...

محاورته الجميع وبخاصة أهل الكتاب:

ومن هذا المنطلق توسع القرآن الكريم بفتح الحوار مع أهل المعتقدات كافة وبخاصة مع أهل الكتاب، والنصارى بالذات. وناقش أصول معتقداتهم وبين لهم ما هي عليه من الخطأ والانحراف كما بينّا، ودعاهم الى الحق وشجعهم على ذلك بمختلف الاغراءات الأدبية. وأمر الرسول ﷺ وجميع المؤمنين باحسان معاملتهم والتلطف في مخاطبتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن. يقول الله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ (٢).

بل إنه حتى بعد تصديهم لدعوته بالقوة المسلحة وابتدائهم اياه بالعدوان، اكتفى برد عداوتهم. والدفاع عن نفسه وعن المؤمنين ولم يعرف عنه أنه أوصى بأن يتخذ بحق الآمنين والمسالمين منهم إلا موقف المحاسن والمجامل. ولم يكف ولن يكف لحظة عن فتح ذراعيه لكل راغب في الخير مستجيبٍ للحق، ومدّ يده للتعاون مع

---

(١) الأعراف ١٥٧.

(٢) العنكبوت ٤٦.

اتباع كل ملة ونحلة... للتعاون على إقامة شرعة العدل ونشر الأمن وصون الدماء، وحفظ الأرواح والذود عن الحرمات والحريّات والحقوق.

موقف الرسول ﷺ يوم الحديبية:

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يوم الحديبية يعانون من مضايقة المشركين وعدوانهم المتكرر عليهم قال رسول الله ﷺ كلمته المشهورة التي تعتبر إماماً لسلوك المسلمين مع غيرهم: «والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم أياها»[1] مما يؤكد للقاصي والداني أن السلام والبر بالناس وقطع دابر الشر فيهم كان وسيبقى ديدن الاسلام.

مبرّر زحف الاسلام على فارس والشام وأفريقيا وغيرها:

وهنا تبرز الحاجة إلى بيان المبرّر الذي يكمن وراء الحملات العسكرية التي دفع بها الاسلام الى بلاد فارس والروم وأفريقيا الشمالية، وخصوصاً بعد أن أكّدنا أن الاسلام دين محبة وانفتاح على الخير والحق، وعلى كل معاني التآخي والتفاهم الانساني.

إن الواضح من الوقائع التاريخية أن منطقة الشام وأفريقيا الشمالية كانت أكثرية سكانها من المسيحيين. وأنهم كذلك من قبل ظهور الاسلام بستة قرون ونيف. وأن النصرانية في هذه الديار التي كانت تدين بها الحكومة الرومانية إذْذاك قد هيمنت بقسوة وجبروت وقضت على مذاهب أخرى في النصرانية كان لها وجود بارز في هذه الديار. بل إنها بمقتضى سياسة ثابتة اضطهدت هذه المذاهب المخالفة، وحملت بكل قواها على خنقها أو استئصال وجودها، فجردت عليها حملات من القتل والتشريد والتنكيل خلافاً لما تأمر به تعاليم المسيح التي جاءت بمبدأ المحبة والسلام.

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ٣٧٦.

ومعلوم أن من أبرز الذين تصدوا لهذه المذابح الخطيرة وآبتلوا بها آريوس وأتباعه، فقتلوا واستؤصلوا عن آخرهم. فكان لهذا أن عانى المسيحيون الأولون على أيدي الأباطرة الرومان بمعاونة اليهود الناقمين والوثنيين معاناة قاسية لم تتح لهم معها الفرصة للأفلات والنجاة كما أشرنا، فقامت على انقاضهم مسيحية مختلف عليها، تشوبها عقائد وطقوس من صنع أهل الأرض بعيداً عن وحي السماء. يقول ترتليان: «إننا بريئون من الذين آبتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطونية أو جدلية بعد المسيح والإنجيل ولسنا بحاجة إلى شيء».

وهذا يفيدنا دون أن نسترسل بالاستشهادات نسوقها لتعزيز ما نقول أن المسيحية الرومانية تبنّت سياسة وفلسفة كم أفواه المخالفين وسفك دماء الملحدين في نظرهم أو آضطهادهم أو قتلهم أو تشريدهم في الآفاق استناداً إلى فلسفات بشرية، يغلب أن لا تمت إلى نصوص وأصول الدين بصلة.

ولقد كان الرسول ﷺ يعرف هذا الواقع المتردّي في المجتمع الروماني المسيحي. ويعرف أيضاً أن المجتمع الفارسي الوثني لم يكن أقل تفكّكاً وتناثراً وضياعاً من صِنْوه الروماني. ويعلم أنه لم يكن بالإمكان في مثل هذه الأحوال التي يتأكد فيها سطوة الحكم وقوته وآستبداده، وضعف الشعب حياله وضياعه وتشتت أفكاره وإراداته، أن يتّجه أي مصلح الى مثل هذا الشعب المضطهد بالدعوة والهداية لأنه لن يملك القدرة على سماع النصيحة تسدى إليه والموعظة يخاطب بها. ويعلم أيضاً أنه من الناحية العسكرية لا يملك أية قوة تذكر أمام قوة وعديد الجيش الروماني أو الفارسي ليستطيع آختراق جدار أيٍّ منهما، ويوصل إلى ذينك الشعبين دعوته التي أمره الله تعالى بابلاغها إلى الناس كافة..

لذلك لم يكن بدّ من أن يتجه ﷺ بدعوته إلى الرؤوس الكبيرة كالملوك والأمراء كما عرفنا سابقاً ويبلغهم الدعوة ويحمّلهم مسئولية الإعراض والرفض، فيكون بذلك قد قام بخطوة نافذة وبالغة الأثر على طريق دعوة الشعوب المتاخمة

للجزيرة العربية. وهي لن تخلو من ردود فعل قد تذلل بعض الصعاب فتفتح بها بعض القنوات أمام الدعوة الاسلامية لتأخذ سبيلها إلى نفوس أبناء تلك الشعوب المجاورة.

وبعث الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء المنطقة وفي مقدمتهم كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي، رسلاً يحملون إليهم كتبه التي يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله رباً وبه رسولا، ويحمّلهم فيها حال الرفض والإعراض، تبعة ذلك وإثمه، وتبعة وإثم أتباعهم الذين يحكمونهم ولا يسمحون لهم بسماع صوت الحق والهدى...

ولقد رأينا كيف أن كسرى قد مزّق كتاب الرسول ﷺ وكاد يبطش برسوله الذي حمله إليه. كما رأينا كيف كان قيصر إزاء ذلك لطيفاً، وأن المقوقس ردّ بإرسال هدية كريمة إلى رسول الله ﷺ مع كتاب رقيق مرفق بها في الوقت الذي أعلن فيه النجاشي اسلامه...

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الاجراء، فقد برز وجود محمد ﷺ في الجزيرة العربية وآتسع سلطانه وذاع خبره في الآفاق، وهو اليوم يتصدى للملوك والأمراء، ويوجه إليهم دعوته، ويحمّلهم مسئولية الإعراض والرفض، حتى بات يعتبر نفسه إمام الناس جميعاً دونما تفريق أو تمييز... وهكذا فقد بدا لبعض هؤلاء الملوك وبخاصة لقيصر وكسرى أن السكوت ضعف. وهم أرباب القوة والسطوة والسلطان وأنه لا بد من إرسال حملة لتأديبه، بل القضاء عليه نهائياً... ومن أجل ذلك تحرشت جيوش كسرى وبعض أمرائه بالمسلمين كما أعدت السلطة الرومانية في الشام الجيوش لتأديب دعاة الإسلام وحاملي رسالته.

وكان لا بد من التصدي والمواجهة والدفاع عن الذات وعن الرسالة بكل الوسائل التي تتيسّر ضمن المبادىء والقوانين التي يسمح بها الاسلام... ولقد كانت المواجهة ولا شك خطيرة، لأنها ستكون بين غير متكافئين بالعدد والعدة

---

(١) حياة محمد لهيكل ٤٠٠، ٤١١ ـ ٤٥٨.

والتجهيز والمال وغير ذلك كثير، ولأنها لن تكون مع دولة واحدة لا يكافئها بكل وسائل الحرب والقتال فقط، بل مع دول أقلها وأضعفها أكثر منه قوة وأعظم جمعاً... ولكن ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1].. وهكذا فقد كان النصر المبين حليف الاسلام في كل معاركه؛ في العراق وفارس والروم ومصر وأفريقيا الشمالية... ولا غرو فهي المعجزة التي ستظل شاهداً للإسلام على أنه حق وأنه من عند الله.

معاملة الاسلام للنصارى خاصة ولأهل الكتاب عامة:

ولن نفيض باستعراض هذه المعاملة في صورها المتنوعة والكثيرة. ولكننا نقول بأنها كانت كما أفضت به الوثائق التاريخية أفضل بكثير من معاملة بعضهم لبعض. يقول «ج. سال» «إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته بسبب أطماع رجال الدين، وبسبب الانشقاق بينهم والخلافات التي كانت تنشأ فيهم لأتفه المسائل، والمشاجرات التي لا تنتهي. والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها. وكان المسيحيون بتحفزهم لأرضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة، قد انتهوا تقريباً الى طرد المسيحية ذاتها من الوجود بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها. وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت، بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد. ولقد وجدت الكنيسة الشرقية نفسها بعد مجمع «نيقية» ممزّقة بسبب الخلافات بين أنصار آريوس وسابيليوس ونسطور ويوتيخيوس. ولقد رأى رجال الدين أن يمنح ضباط الجيش بعض الحماية. وبهذه الحجة كان العدل يباع علناً، مما شجع كل نوع من أنواع الفساد والرشوة. أما بالنسبة للكنيسة الغربيّة فقد بلغ الخلاف بين «داماز Damase» و«أرزيسيان Ursicien» على كرسي الأسقفية في روما في شدّته حدّ اللجوء إلى العنف والقتل. ولقد قامت هذه الانشقاقات أساساً، نتيجة أخطاء

---

(١) البقرة ٢٤٩.

الأباطرة، ولا سيما الامبراطور قسطنطين، وزادت حدّةً في ظل حكم جستنيان الذي اعتقد أنه ليس هناك أيّ جرم في قتل أيّ رجل يخالفه في فهم العقيدة. هذا الفساد في الأخلاق وفي العقيدة الذي ساد بين الأمراء ورجال الدين، استتبع بالضرورة فساد الشعب عامة حتى أصبح شغل الناس الشاغل على اختلافهم هو جمع المال بأيّة وسيلة مهما كانت، لإنفاقه بعد ذلك في الترف والرذيلة »[1].

وفي سنة ٣٣٦ قرّر الامبراطور قسطنطين الذي لم يستأصل الوثنية في بلاده الواسعة، بل تركها تسرح وتمرح، مطاردة آريوس وأتباعه؛ فتعرض لرجال كنيسته بالتعذيب والتشريد والقتل وأحرق مكاتبهم وحرّم اقتناء كتبهم.

ولما أبى الأقباط في عهد « هرقل » الخضوع لإرادته والالتزام بقرارات مجمع « نيقية » صب عليهم سوط عذابه، وتحوّلت كنائسهم وأديرتهم إلى سجون تحفل بألوان الأذى والتنكيل. ولقد جيء بأخي الأسقف الأكبر « بنيامين » فوضع على منصّة أوقدت تحتها المشاعل؛ وسلطت نيرانها على بدنه فاحترق، وسال دهنه من جانبيه على الأرض. ولما لم يتزحزح عن عقيدته، خلعت أسنانه ثم قاده الجلاّدون إلى الشاطىء وعرضوا عليه أن يترك دينه ويخضع لقرار المجمع، فلما أبى رموا به في البحر فابتعلته لجحه »[2].

ويقول صاحب سوسنة سليمان: « حرّك البابا « أنوسنت » الثالث قوّاد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان فافتتحوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م، وداموا متسلّطين عليها إلى سنة ١٢٦١ م، فاستعملوا ما أمكنهم من البربريّة في الأرض التي امتلكوها من بلاد سوريا وفلسطين ليخضعوا بطارقة أورشليم وجميع الأكليروس اليوناني بواسطة الحبس وإقفال الكنائس إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودّة العرب حكام البلاد الأصليين على مودتهم ويختار

(١) عن مدخل إلى القرآن للدكتور عبد الله دراز ١٣٧.

(٢) التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالي ١٠١.

تسلط شعب يرتضي بجزية على أن يتسلّط عليهم ملك روحي طمعه وطمع قواده لا يشبعان »[1].

بل إن معاملة المسلمين للمسيحيين بالذات لا تقارن بمعاملة المسيحيين للمسلمين، الذين خضعوا لسلطانهم في القرون الوسطى والعصر الأخير؛ فقد استطاع القادة العسكريون المسيحيون مع الزمن أن يحملوا المسلمين على الجلاء عن بعض الأقاليم التي آحتلوها سواء كان في اسبانيا أو في البلقان أو غيرهما. ولما آنحسر الحكم الإسلامي عن تلك الديار وحل محله الحكم النصراني جرد سيفه وأعمله في رقاب المسلمين مسحاً وقطعاً، حتى لم ينج من أيديهم إلاّ من آختفى منهم أو تنصّر. يقول الدكتور توفيق الطويل: «أن الاضطهاد نجح في مجال الاعتقاد الديني، فأَخْفَت كل صوت ارتفع بالمقاومة وأثارت القسوة والصرامة فزع العامّة، وملأت أفئدتهم هلعاً، فارتدّ عن دينه أصلب الناس قناةً، أو تفانوا في سبيل عقائدهم فذهبوا شهداء، أو ولّوا الأدبار فراراً بدينهم فأخْلَوْا الطريق للظالمين »[2].

ولقد نقل لنا المؤرخون في كتبهم بأن المسلمين الذين كانوا يسكنون أوروبا الشرقية قد أبيدوا بفعل الآضطهاد المسيحي، وأكلتهم نيران الحقد الأثيم. ولم يفرّق في ذلك بين النساء والشيوخ والولدان والمقاتلين. وإن المذابح التي أوقعها القائد اليوغسلافي «ميخاييلوفتش» في ألوف المسلمين من سكان البلاد، ما زالت تقرع أصداؤها قلوب الصالحين من عباد الله من كل دين ولون وعرق. ولم يكن مسلمو اسبانيا الذين خضعوا خلال القرون الوسطى لسطوات محاكم التفتيش وتعذيبها أحسن حظاً من إخوانهم الذين لحقوا بهم من مسلمي البلقان والقوقاز وشرق آسيا، حتى أصبحنا نرى الكثيرين من هؤلاء الذين سنحت لهم الظروف

---

(١) محاضرات في النصرانية للشيخ محمد ابي زهرة ١٩٨.
(٢) التعصب والتسامح ٩٩.

بأن يستمرّوا على أرض الآباء والجدود قد غيروا أسماءهم الاسلامية، كرهاً إلى أسماء أجنبية، في الوقت الذي أغلقت فيه مساجدهم ومدارسهم بل ومقابرهم...

إننا نطرح هذه الوقائع التاريخية وهي لا تتجاوز الأمثال، فقط على سبيل التذكير من جهة، ثم للدخول في المقارنة فيما هو آتٍ من معاملة المسلمين لأهل الكتاب وللنصارى بالذات الذين كانوا يسكنون في الجزيرة وسوريا والعراق ومصر وأفريقيا الشمالية ثم في أوروبا الشرقية واسبانيا.

أمثلة من معاملة المسلمين للنصارى وشهادات في ذلك:

روى أبو يوسف في كتابه الخراج أن عمر بن الخطاب مرّ على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام فقال: « ما شأن هؤلاء؟ فقيل له إنهم أقيموا في الجزية!! فكره ذلك وقال: « هم وما يعتذرون به. قالوا يقولون لا نجد!! فقال: دعوهم ولا تكلّفوهم ما لا يطيقون ثم أمر بهم فخلّي سبيلهم » ويؤيد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن حكيم بن حزام أنه مرّ بالشام على أناس من الأنباط وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤوسهم الزيت!! فقال ما هذا؟ قيل يعذّبون في الخراج! وفي رواية حبسوا في الجزية فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » فدخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فخلّوا.

وروى يحيى بن آدم في كتاب الخراج: أن عمر لما تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: « أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم وألا يكلفهم فوق طاقتهم »[1].

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال عن عامر الشعبي عن سويد ابن غفلة قال: « كنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين، بالشام،

---

(١) التعصب والتسامح ٤٢ ـ ٤٣.

فأتاه نبطي مسيحي مشجّج مستعدى، فغضب عمر غضباً شديداً. فقال لصهيب: انظر من صاحب هذا؟ فانطلق صهيب فإذا هو عوف بن مالك الأشجعي. فقال له: «إن أمير المؤمنين قد غضب غضباً شديداً. فلو أتيت معاذ بن جبل فمشى معك إليه فإني أخاف عليك بادرته» وجاء معه معاذ. فلما انصرف عمر من الصلاة قال: أين صهيب؟ فقال أنا هذا يا أمير المؤمنين. فقال أجئت بالرجل الذي ضربه؟ قال نعم. فقام إليه معاذ بن جبل، فقال يا أمير المؤمنين انه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل عليه. فقال له عمر مالك ولهذا؟ قال يا أمير المؤمنين، رأيته يسوق بآمرأة مسلمة فنخس الحمار ليصرعها، فلم تُصْرع، ثم دفعها فخرّت عن الحمار، ثم تغشّاها ففعلت ما ترى!! قال آئتني بالمرأة لتصدقك فأتى عوف المرأة فذكر الذي قال له عمر. قال أبوها وزوجها: ما أردت بصاحبتنا فضحتها؟! فقالت المرأة والله لأذهبنّ معه إلى أمير المؤمنين. فلما أجمعت على ذلك، قال أبوها وزوجها نحن نبلغ عنك أمير المؤمنين، فأتيا فصدّقا عوف بن مالك بما قال. قال: قال عمر للنصراني ـ أو لليهودي لشك الراوي. والله ما على هذا عاهدناكم. فأمر به، فصلب[1].

والواضح من هذه القصة أنه كتابي وقد يكون نصرانياً. ولما رآه عمر متأثراً بجراحه غضب له وعزم أن يقتص له. ولما عرف الحقيقة من عوف، لم يقبل ذلك منه وأبقاه متهماً في نظره والمسيحي بريئاً حتى أثبت ذلك بشهادة الشاهدين، فاقتص حينذاك من النصراني الذي ثبت أنه كان جانياً جناية كبرى يستحق عليها القتل...

والعارفون بأخبار الأمم وأيامهم، وبنفسيّة الشعوب والقبائل وبخاصة التي كانت تعيش في صحارى الجزيرة العربية، يدركون ما كان عليه أولئك الأعراب من حرص على المغانم ورغبة في النهب والسلب وسفك الدماء. ولكنّهم بعد أن

---

(١) أوليات الفاروق السياسية غالب القرشي ٢٦٦.

تشرّفوا بحمل رسالة الإسلام واستناروا بهداها وخضعوا لأوامرها وحدودها لم يفعلوا ما فعله أقوام الهون والفندال والتتار الذين تدفّقوا من المشرق يغريهم عرض الحياة الدنيا ويدفع بهم الحرص والحاجة والجوع، بل كانوا على العكس يحملون للشعوب التي يدخلون عليها أمثلة رائعة من الرأفة والسماحة واللين والوفاء بالعهد والالتزام بالقيم الدينيـة وآدابها حتى أثـروا بهم تـأثيراً كبيراً وأغـروهـم بالتخلّي عن عقائدهم والدخول في الإسلام.

ولقد كان المسيحيون هم الغالبون في الأقطار التي غزاها المسلمون وبخاصة من جبال طوروس حتى جبال الأطلس غرباً، وهي الرقعة التي تضم سوريا وأفريقيا الشمالية. وكانوا يمثلون العديد من الأجناس واللغات والثقافات. ولما دخلتها جيوش المسلمين وتعرفت شعوبها على أخلاقهم وعقيدتهم وشريعتهم بادروا إلى التعاون معهم ومساندتهم في حربهم ضد ملوكهم وأمرائهم، وذلك لأنهم لم يجدوا منهم إلا الرعاية واللطف وحسن المعاملة. يقول السير توماس أرنولد في كتابه « انتشار الاسلام » « حقاً إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدّمت في رعايـة المسلمين وحكمهم. فلم يحل الحكم بينها وبين الانتعاش والرقيّ. بل إن النساطرة لم تتفجّر فيهم الحميّة والحماسة الدينية إلا بعد أن دخلوا في حكم الاسلام بما لا عهد لهم به من قبل، فنشروا المسيحية تحت راية الاسلام وبلغوا بدعوتهم الصين والهند تحت حماية الخلفاء... وقد كانت جميع المذاهب المسيحية تتمتّع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حدّ سواء. بل كان هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ويكفلون الحرّية الدينية للجميع ». ثم يقول: « وتحت نظام من الأمن يكفل حرّية الحياة والمِلْـك والعقيـدة الدينيـة، تمتّـع المسيحيـون وعلى الأخص في المدن، بثروات ونجاح كبير في عصور الاسلام الأولى فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء ».

وقد ضرب على ذلك أمثلة وساق شواهد كثيرة مـن أطـرفهـا أن أخـويـن مسيحيين « سلماوه وابراهيم » وليا للخليفة العباسي المعتصم، مناصب الوزارة ومنها

بيت مال المسلمين. ولما مرض إبراهيم عاده الخليفة في بيته، فلما مات حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بجثته فجيء بها إلى القصر. وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليه في قصر الخلافة الذي شيعت منه الجنازة. وذكر السير توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين: «نصر بن هارون الذي تولى رياسة الوزارة لعضد الدولة بن بويه وبنى عدداً كبيراً من الكنائس والمعابد»[1].

بل لقد نقلت الروايات التاريخية أن إعجاب النصارى العرب بمعاملة أخوانهم المسلمين العرب، حملهم على أن يقاتلوا في بعض المواقع في صفوفهم انتصاراً لعروبتهم، واستجابة لعدالة مطلب أبناء عمومتهم المسلمين. وقد ثبت أن نصارى بني طيء كانوا خير أعوان لجيش «المثنّى» عندما حصره الجيش الفارسي بينه وبين الفرات في واقعة الجسر، كما كان كذلك بنو النَّمِر المسيحيون.

ولقد كتب «ميخائيل» السوري بطريرك أنطاكية يقول: «إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء اسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدي الرومانيين. وإذا تكبّدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التي انتزعت منا وأعطيت لأنصار مجمع «نيقية» بقيت لهم. إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل بتحرّرنا من قسوة الرومان وشرورهم، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا هذا من جهة، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا»[2].

ويقول الدكتور أدمون ربّاط في مقال له نشر في مجلة الشراع العدد ٤٤ سنة ١٩٨٣ «يبقى السؤال حول وضعيّة المسيحيين في الدول العربيّة التي تقدم ذكرها. ففي هذه الدول يتمتّع المسيحيون بحقوقهم المدنية والسياسية كافة بدون تفريق بين طوائفهم من جهة وبدون تمييز بينهم وبين المسلمين من جهة ثانية، باستثناء رئاسة الدولة وهذا شيء طبيعي ومماثل لما هو جار حتى في بعض الدول الغربية

---

(١) الرسالة الخالدة عبد الرحمن عزام ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) التعصب والتسامح ص ١٠٢.

كبريطانيا . هذه الرئاسة التي هي محصورة بالمسلمين » .

ويقول في هذا المقال ذاته عندما سئل عن نظام أهل الذمة في الاسلام « يقتضي باديء ذي بدء تبرئة نظرية الذمة ونظام أهل الذمة في الإسلام من المساوىء التي يوجهها البعض اليها من حين لآخر ، وذلك بإعادتها إلى الإطار التاريخي الذي نشأت هذه الفكرة في نطاقه . ولأجل ذلك يقتضي التذكير ببعض الوقائع الثابتة في كتب التاريخ المحرّرة في اللغات الغربية ذاتها بالإضافة إلى التواريخ القديمة من سريانية وقبطية وحتى الأرمنيّة » .

« فعندما آجتازت الجيوش العربية حدود جزيرتها واجتاحت بلاد الشام والعراق ومصر وأفريقيا وآسيا ، كانت دولتان عظيمتان تسودان الشرق الأوسط ، وهما الامبراطورية البيزنطية والمملكة الفارسية السامانية . ومن الثابت أنه بسبب الاضطهادات الدامية التي كانت الامبراطورية البيزنطية مسرحاً لها وضحيتها الجماعات المسيحية التي آعتنقت مذاهب مخالفة للعقيدة الرسمية حول طبيعة السيد المسيح التي كانت معتمدة في العاصمة القسطنطينية ، نشأت طوائف مختلفة ، كان من أبرزها طائفة النساطرة ، وطائفة السريان ، وأيضاً طائفة الموارنة حسب بعض الآراء الجارية ، وذلك في سوريا ومصر والعراق وحتى في أرْمينْيا . وهذه الطوائف قد رحّبت بالعرب الفاتحين ورأت فيهم المنقذينَ لتلك الطوائف المعذّبة لدرجة أن « ميخائيل » السرياني بطريرك السريان في القرن الثاني عشر للميلاد ، أي بعد خمسة قرون من الفتح العربي ، قد كتب في تاريخه المطوّل كثيراً عن الاضطهادات التي كان السّريان رازحين تحتها ومنها هذه العبارة « لأن الله هو المنتقم الأعظم . وهو وحده على كل شيء قادر وهو وحده يبدّل ملك البشر كما يشاء ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبّر . ولأن الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر من نهب كنائسنا وأديرتنا وتعذيبنا دون أية رحمة فإنما قد أتى الله من مناطق الجنوب ببني اسماعيل « أي العرب » لتحريرنا من نير الروم . وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهادهم وفظاعتهم نحونا »

فالفتح العربي كان إذاً تحريراً وإنقاذاً للمسيحيين الشرقيين. وكان بوسعنا الاستشهاد بعدد كبير من المؤرخين المسيحيين من الشرق والغرب للتذكير بهذه الحقيقة الراهنة لولا ضيق المجال.

« ولكن ما كان أهم من ذلك في الاسلام العربي، إنما كان ابتكار الفاتحين العرب المسلمين فكرة الذمّة، ونظام أهل الذمة لصالح أهل الكتاب أي اليهود والنصارى وذلك بضمان حرّيتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية، مقابل أداء ضريبة الجزية. وذلك في زمن كانت الامبراطورية البيزنطية والمملكة الفارسية آعتمدتا المبدأ القاضي بأن تدين الرعيّة بدين ملوكها هذا المبدأ الذي آتخذ في أوروبا منذ أوائل القرون الوسطى لغاية الثورة الفرنسية الكبرى شكلاً قاسياً في القاعدة اللاتينية الشهيرة وهي «Crayes Egus Religio» أي « لكل مملكة دينها » مما يتأتى عنه بأنه يقتضي على الشعب بأن يدين بدين مليكه. ولذلك يقتضي على نصارى البلاد العربية ألاّ يتجاهلوا بأنه بفضل نظام الذمّة؛ قد بقيت طوائفهم قائمة لغاية اليوم ».

ويقول في حين آتجه للحديث عن الصهيونية وإسرائيل معرباً عن السلوك الذي اتخذه العرب في الماضي تجاه اليهود، وموضحاً إيّاه بأنه كان على مثال رفيع من الأكرام والاحسان يقول « وقد شاء القدر الظالم أن يدفع الغرب الذي تفتّقت في أقطاره ذاتها فكرة الصهيونية وذلك بتأثير آضطهاداته لليهود طيلة القرون، إلى أن يقدم فلسطين العربية هدية لهذا الشعب الذي عذّب تكفيراً عن ذنوب هذا الغرب نحوه. في حين أن اليهود لم يلاقوا في ظل الحكم العربي والاسلامي عبر القرون، سوى الحرية، والاقرار بحقوقهم. كما تشهد بذلك صفحات التاريخ من تأليف المؤرخين الاسرائيليين أنفسهم ولا سيما الأساتذة الجامعيين من أمثال غريتس وبارون وغوتين » الخ...

ولا نريد هنا أن نسترسل باستعراض الصفحات الناصعة المعبّرة عن سماحة الفتح الإسلامي ويُمْن طالعه على جميع الأقطار والشعوب التي دخلها وعايشها، ولا

أن نمعن في سرد الوقائع التي تثبت دونما تكلف أن الحكم الإسلامي في عهوده كافة كان حكماً رفيقاً بالناس رؤوفاً بذوي العقائد، ما لم يتآمروا عليه ويمالئوا حكماً آخر ضده. والإسلام بما حمله للناس من عقيدة بسيطة وأخلاق حسنة ومعاملة سامية استطاع أن يقهر القلوب ويمتلك النفوس ويطوّع الإرادات. وهو بهذه الحقائق القيّمة وأمثالها مما كان جوهر حضارته، خاض البلاد، فتجاوز سوريا وأفريقيا الشمالية وعبر جبال البيرنييه إلى فرنسا بعد أن هزم بيزنطية وأسقط عرش كسرى وملك فارس وعرّب شبه الجزيرة الإيبرية، ثم وصل من جهة الشرق إلى شواطىء الادرياتيك وظل يحكم هذه الديار طيلة ثلاثة عشر قرناً.

ان الإسلام هذا لم يكن يؤثر في النفوس حين غزوه لديارها وهو قوي الشكيمة شديد المهابة والمراس، بل على العكس فقد كان يمتلك أيضاً النفوس ويجتذبها إليه حتى وهو في ساعات ضعف حماته وحملة رايته والذابين عن حياضه. فقد استأثر بقلوب التتار بعد غزوهم الشرق وردهم إلى ديارهم وقد عمر قلوبهم بحبه وأخضعهم لسلطانه. بل إنه استطاع يوم دخلت سوريا موجات الصليبيين المختلفة، وصدورهم تغلي حقداً على الاسلام والمسلمين، حتى أنهم كانوا وهم في طريقهم إلى الشرق يقاتلون حتى النصارى الذين كانوا يترددون في تلبية مسيرتهم والخروج معهم فيسفكون دماءهم ويدمرون قراهم، أقول إنه استطاع أن يجتذب كثيراً من طوائفهم إليه، ويدخلهم في حظيرته المباركة الطيبة. ولقد كان ممن أسلم من رواد هؤلاء « رينود » أمير طوائف الجرمان واللمبارديين.

وهذا السير توماس يروي عن راهب من رهبان سانت دنيس فيقول: « وفي طريق الصليبيين إلى المقدس عبر جبال الأناضول التقوا بجيش المسلمين فهزم الصليبيون شرّ هزيمة. وكان ذلك في الممرّ الجبلي « فريجيا » سنة ١١٤٨ ولم يصلوا إلى مرسى « أضاليا » إلا بشق الأنفس. ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحراً وقد دفعوا مبالغ طائلة

وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحجاج، فدفع كذلك لويس خمسمئة مارك لليونانيين على أن يُعْنَوا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشْفَوْا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونان حتى يلحقوا بمن سبقهم. فما كان من اليونان الغادرين إلاّ أن تربّصوا حتى تباعد جيش الصليبيين واتصلوا بالمسلمين الأتراك، وأخبروهم بما عليه الحجاج الجرحى ممن تخلّفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين. ولما ضاق الصليبيون المتخلّفون ذرعاً بما أصابهم خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم، فحصرهم المسلمون وشدّوا عليهم ثم حملوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء، ولم ينقذوا إلاّ بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة حين أطلعوا على ما فيه عدوّهم من بأساء وما أصابهم من ضراء. رقت قلوبهم وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين. فواسوا المريض وأحسنوا للفقير وأطعموا المسكين بسخاء وكرم وبلغ من احسانهم أن بعضهم استرد بالشراء أو بالحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج وردّها عليهم ووزّعها على المحتاجين من الصليبيين. وقد كان الفرق واضحاً بين معاملة هؤلاء الكفار ـ يقصد المسلمين ـ للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سخّروا إخوانهم في الدين ونهبوا أموالهم وضربوهم. كان الفرق عظيماً لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين ومن غير أن يكرهوا أو يقهروا. لقد فرّوا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه، لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة. لقد أعطاهم المسلمون الخير وسلبوهم الإيمان واحسرتاه!! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه »[1].

---

(١) الرسالة الخالدة ٣١٥ ـ ٣١٦.

ولقد كان من ثمرات تأثير حسن المعاملة التي كان يوفّرها المسلمون لأخصامهم المسيحيين الصليبيين أنه قد بلغ من أعجاب بعض أمرائهم بشجاعة صلاح الدين، ونبل نجدته وعلو فضائله الشخصية أن اعتنقوا الإسلام. يقول بعض مؤرخيهم «إن ستة من أمراء الملك الانكليزي «جاي» استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فاسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك. وقد وصل الأمر «بريمون الثالث» أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام»[1].

هذا هو الإسلام وهذا فعله وبعض الأمثال عن حسن معاملته وطبيعة سلوكه مع مخالفيه في الدين. إنه باختصار قَبِلَ وجود أديان مخالفة له في حظيرته وساحاته. ورضى أن يحتضن أتباعها ويرعاها. وأحسن إليها. بل رفض أن يمارس مع أحد منهم فعل الضغط والاكراه لترك دينه وملّته. وبالمقابل رأينا المسيحية في القديم والحديث وبشهادة أبنائها، تتبرّم بالديانات الأخرى وتخطط لابادة أتباعها أو على الأقل لترغمهم على ترك دينهم للدخول في النصرانية رهباً ورغباً. فهل يا ترى في أقوال المسيح أو في الانجيل الذي بين أيديهم نصّ يبرّر لهم هذا الفعل؟! هل في نصوصهم الدينية الأصيلة ما يبرّر لهم قتل وسفك دماء مخالفيهم في المذهب أو اضطهادهم وحرمانهم من التعايش معهم على سواء؟!!.

لقد استوعب الإسلام أفضل ما في الديانات كلها. وآمن أتباعه بموسى وتوراته التي أنزلها الله عليه وكفروا بكل من ينال من مكانتها؛ وآمنوا بعيسى وإنجيله الذي أنزله الله تعالى عليه وكرّموه وكرّموا والدته، كما كرَّموا مولده. وحافظوا على قدرهما جميعاً محافظتهم على أقدار رسل الله الكرام. كل ذلك لأنهم يدركون أن الإسلام هو جامع شريعة موسى وشريعة عيسى وموفق بينهما في كمالات لا تطالها عقولٌ لعب بها الهوى، أو أطار صوابها الحقد والحسد، أو أضلّها السير وراء السابقين

---

(١) الرسالة الخالدة ٣١٨.

اتّباعاً وتقليداً.. إنها كمالات نسجها الله تبارك وتعالى في أزليته الفائضة بالنور والجمال والجلال...

وإن الإسلام هذا بكليته الجامعة المانعة الطيبة المباركة التي وصفناها، والتي بها تغلّب على أعدائه، وقلب الكثيرين منهم إلى مناصرين أوفياء، يرفض أن يصبح في نظر البعض مثابة لتفريخ التعصّب الجاهلي، والحقد الأعمى ومباءة لتوليد الكراهية بين الناس واشاعة البغضاء والعداوة فيهم. إنه يرفض ذلك لأنه لا يتفق مع طبيعته ولا مع هدفه ومقصده، طبيعته المنفتحة الرحبة السمحة الرضية، وهدفه الذي يريد أن يشيع إقرار الأخوة بين الناس كافة، ليحقق التعاون بينهم في أجمل مظاهره ولينشر السلام والطمأنينة في ربوعهم جميعاً... والحمد لله رب العالمين ابتداءً وختاماً وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل السابع

الكتاب الثاني

موقف الإسلام من اليهودية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الكتاب الثالث

موقف الإسلام من النصرانية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر



شركة تكنو برس الحديثة ش.م.ل
بيروت - لبنان

